الفوائد السنية

من

السيرة النبوية

إعداد

أ.د. خالد بن حامد بن مبارك الحازمي

أستاذ التربية الإسلامية بالجامعة الإسلامية

بالمدينة المنورة

مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع

© خالد حامد الحازمي ، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحازمي ، خالد حامد

الفوائد السنية من السيرة النبوية . / خالد حامد الحازمي .

المدينة المنورة ، ١٤٢٦هـ

٦٨١ ص ، ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٥- ٤٩٨ - ٤٩ - ٩٩٦٠

١- السيرة النبوية أ- العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٤٢٦/٥٤٧٨

رقم الإيداع: ١٤٢٦/٥٤٧٨

ردمك: ٥- ٤٩٨ - ٤٩ - ٩٩٦٠

حقـــوق الطبـــع محفوظـــة

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

المملكة العربية السعودية - المدينة المنورة - شارع الستين

هاتف: ٨٣٦٦٦٦٦ - فاكس: ٨٣٨٣٢٢٦ ص.ب (١٥٥٦)

فرع الضيافة - إمتداد شارع أبا ذر هاتف ٨٣٦٢٩٩٣ - فاكس ٨٣٤٤٩٤٦

موقعنا على الإنترنت: www.daralzaman.com

البريد الإلكتروني: zaman@daralzaman.com

Saudi Arabia - Madina Munawara - Al-Sitteen Road

Tel: 8366666 - Fax: 8383226 P.O. Box: 1566

Al-Deyafa St. Ext. Abazar St. Tel: 8344946 / 8362993

website: www.daralzaman.com

email : zaman@daralzaman.com

الفَوَائِدُ السَّنِيَّة

مِن

السِّيرَةِ النَّبَوِيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

الحمد لله الذي بعث لنا محمد بن عبدالله رسولاً نبياً ﷺ فتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، ترجم لنا بأفعاله وأقواله وأخلاقه منهج الإسلام تطبيقاً وتفعيلاً، وأعطانا المثالية في العبادات والمعاملات والأخلاق في البيت والمسجد ومع الأصدقاء والأقارب والأعداء.

فنصر الله تعالى به هذا الدين القويم، حتى وصل مشارق الأرض ومغاربها، ودخل الناس في دين الله تعالى أفواجاً، من عرب وعجم، بل وضربوا أكباد الإبل في حياته؛ حتى رأوه وآمنوا به.

وقد عني علماء هذه الأمة بتسجيل سيرته العطرة في تفاصيلها الدقيقة، حتى وصلت لنا كما كان عليه الصلاة والسلام في الحقيقة. وعُقِدَت لها الجلَسات والمناقشات العلمية في دُور العلم المختلفة.

ولقد تضمنت سيرته ﷺ ما يحتاج إليه الإنسان في دار معاده ومعاشه، وتضمنت من الفوائد والدروس والعِظَات ما تغني عن أسفار الكتب، وإنها لتعطي كل جيل ما يحتاجه من الهدي المبارك، الذي يُنير له طريقه ومسيرته العلمية والدعوية والتربوية، والأسرية والاجتماعية، وفي آدابه الخاصة، وأخلاقه العامة، وفي مهنته ومدرسته، وفي محيط أصدقائه، ومع زوجته وأبنائه.

وإن دراسة السيرة بعمق من التفكير لسبر ما فيها من فوائد مكنونة، لَعَمَلٌ دائم لا تنقطع غزارة فوائده، فروافد السيرة النبوية تتعدد في شُعَبِ الحياة

المختلفة لتغذي بها أفئدة السائرين إلى الحق والطريق المستقيم. فتشحذ الهمم، وتحفظ الْفِطَر، وتعلوا بالخُلق، وترفع الذكر، ويتوسع بها الذهن، وتزكوا بها الأنفس، وتتعطر بها الطباع السليمة، وتنصلح بها المفاهيم الفاسدة، وتحيا بها القلوب الميتة، ويتوسع بها الأفق، ويتزين بها الأدب، فقد تَغَذَّى بها العلماء، فأنار الله بها أفئدتهم وعقولهم، وانقدح على الخير فكرهم. وورَثُوا سيرته وعلمه فأورثهم الله تعالى محبة خلقه، فتدافع الناس عليهم يتعلمون من علمهم، ويهتدون بفقههم.

وما درس سيرته مسلم إلا ناله من الفضل والخير أحسنه، إذ بها تندفع للخير النفوس، وتُقْبِلُ على العلم العقول، فيتحسن بها السلوك، وتستقيم بها الأفهام والأفكار، فينالها الخير بفضل الله تعالى.

ولما أن في السيرة النبوية العطرة من الفوائد مالا يُحْصِيه ويقتفيه العلماء والبلغاء، ويحده الباحثون، رأيت أن أدرس سيرة المصطفى ﷺ وأستجلي منها ما يوفقني الله تعالى إليه من الفوائد والعبر والدروس، ليستفيد منها من يوفقه الله تعالى إلى هذا الكتاب.

ورجاء أن أحصل بها على ثواب الله تعالى، بدراسة سيرة نبيه المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، وراجياً من ربي الكريم أن يوفقني لأقتفي أثر رسوله في حياتي، عسى أن أكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء.

فاللهم إياك أسأل أن لا تحرمني تلك المنزلة إنك على كل شيء قدير.

فيا باغي الخير أقبل على سيرة النبي المصطفى بقصد العمل والتطبيق، لا بقصد الإطلاع والإلمام، فلا خير في علم بلا عمل.

منهج الدراسة:

لما أن السيرة النبوية قد حظيت باهتمام العلماء، فصنفوا فيها الأسفار، وحققوا مصادرها في مصنفات عديدة، وبينوا ما صح منها وما ضَعُف من روايات، وبين بعضهم اختلاف الروايات للحدث الواحد، فقد استفدت من ذلك الجهد العظيم، واكتفيت بالنص الواحد، إذا تعددت الروايات.

واجتهدت في إيراد النص من مصدره الأصلي كما هو، ثم أحلل النص إذا احتاج إلى ذلك مع بيان فوائده وتطبيقاته.

وبالتالي لم أُكثر من ذكر الروايات، بقدر ما أنظر في الرواية من فوائد وعِبَر ومواعظ؛ فأستجليها وأقدمها بما يتوافق مع حاجات اليوم، بُغْية الربط بين السيرة النبوية وحاجات أبناء الأمة التي تتجدد في صور متقاربة حسب الأزمان.

ولم يستوعب هذا الكتاب كل دقائق وتفاصيل السيرة، من الشمائل والأحكام وغيرها، بل هو قطف متدرج من السيرة النبوية، بحيث يجد القارئ جميع الملامح العامة للسيرة العطرة التي اعتاد أن يقرأها في كتب السيرة النبوية.

ومما قمت به عزو النصوص والشواهد إلى مصادرها الأصلية، وكذلك عزو الآيات القرآنية إلى مكانها من المصحف الشريف، والأحاديث النبوية إلى مصادرها من كتب السنة.

وأسأل الله تعالى أن يحقق الهدف من هذا الكتاب، وأن أكون ممن وفقه الله تعالى وسدد أفعاله وأقواله وآرءه، فساهم في تقديم الخير لدينه وأمته بهذا العمل وغيره من الأعمال، وأسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل، وينفع به، ويجعله صدقة جارية إلى يوم الدين.والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفصل الأول

من المولد إلى البعثة

المولد والنسب:

في أم القـــرى التي كانت محط القوافل التجارية بين الشام واليمن، وفي المدينـــة الـــتي شهدت ترجُّل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فقاما ببناء الكعبة المشـــرفة، قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [1] وفي جوها الصحراوي، وفي أفضل دورها وأشرف أهلها، قال ﷺ (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشـــاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم) [2] ولـــد رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي أنار الله به الدنيا فبدد ظلام الجهل والكفر والطغيان وانحراف الأخلاق، وختم به الرسالات السماويـــة التي كانت تتنـــزل على من شاء الله من عبـــاده المصطفين، قال الله تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [3]

وقد ولد عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين [4] من عام الفيل.

ونســـبه: محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وأمه: آمنة بنت وهب، ويلتقي نسبها بنسب أبيه في كلاب بن مرة[5].

فكـــان نسبه ﷺ أفضل الأنساب وأحسنها وأشرفها، فجمع الله تعالى له اصطفاء النسب الذي يفخر به كل مسلم ويعتز لنبيه به ﷺ .

---

(1) سورة البقرة،: آية رقم (١٢٧)

(2) صحيح مسلم، (٤/١٧٨٢) (٢٢٧٦).

(3) سورة الحج: آية رقم (٧٥)

(4) مســـلم (٢/٨٢٠) برقم (١٩٨ــ١١٦٢) وهناك روايات أنه ولد بعد الفيل،، واختلف في تاريخ يوم مولده وشهره النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري (١/٩٦ــ٩٨)

(5) ابن حجر ، فتح الباري، (١٤/٢٣٠).

الْيُتْمُ والرعاية الأولية:

وَلَئِن كان الغالب في الناس حياة الأبوة والأمومة تحف بهم وترعاهم، فإن محمـــداً ﷺ لم يكن من أولئك، وإنما ولد يتيماً، قد توفي والده وهو جنين في بطن أمه.

فَالْيُتْمُ ليس مثلبة ولا مثلمة في حياة الأفراد من اليتامى، بل قد يُعدُّ ذلك منقـــبة في حق من استقام في طريق الهداية، وحطَّ رحاله في دروب الخير والمعالي، يشـــق طريقه على سبيل نبيه الذي ولد يتيماً، وأوصى برعاية اليتامى قائلاً عليه الصلاة والسلام (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين ، وأشار بأصبعيه يعني السبابة والوسطى)[1]

وفي نشـــأته ﷺ يتيماً دلالات تربوية عظيمة من أن الْيُتْمَ لا يرسم على أصحابه ضعفاً نفسياً أو إسقاطاً اجتماعيا، بل كان عليه الصلاة والسلام في صباه قوي النفس والعزيمة محبوباً بين من يحيطون به.

وإن الله تعـــالى هو الرحيم بعباده؛ يعنى بهم ويحفظهم ويرعاهم، و يهيئ لهـــم من يقوم بإعالتهم ورعايتهم، فقد قال تعالى عن نبيه محمد ﷺ ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ [2] وذلـــك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه، وقيل بعد أن ولـــد عليه السلام، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، ثم كفله عمـــه أبـــو طالب ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره[3].

---

(١) البخاري (٩٢/٤)برقم (٦٠٠٥) والترمذي (٢٨٣/٤) برقم (١٩١٨). واللفظ له.

(٢) سورة الضحى: آية رقم (٦)

(٣) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (٥٥٩/٤).

فكما هيأ الله لرسوله ﷺ الرعاية والإيواء من جوانبها التربوية والنفسية والمعيشـــية، فقد جعل ذلك واجباً اجتماعياً تقوم به الأمة في حق الأيتام ليعيشوا كمـــا يعيش غيرهم في رعاية وحفاوة وعناية، فلا تتأثر قواهم النفسية بما حصل لهـــم مـــن وفاة الوالد أو الوالدة أو كليهما، بل ربما غرس فيهم ذلك الْيُتْمُ قوة نفسية قدْ تفوق غيرهم، لما يشعرون به من اعتمادهم بعد الله تعالى على أنفسهم في شق طريق الحياة، وليس على أكتاف الآباء وأحضان الأمهات.

بل من رعاية الله تعالى لنبينا محمد ﷺ أن قذف في قلب جده عبد المطلب محـــبة لهذا الابن الكريم؛ مشمولة بالرعاية والعناية الفائقة التي تفوق رعاية الأب المباشر لابنه، فقد كان جده عبد المطلب يقربه ويدنيه منه ولا يدع أحداً يدخل علـــيه وهـــو نائم، وكان له مجلس لا يجلس عليه غيره، وكان له فراش في ظل الكعبة يجلس حوله بنوه ويجلس النبي ﷺ عليه مع جدِّه [1].

وكان عمه أبو طالب لا ينام إلا ومحمد إلى جنبه، ولا يخرج إلا وهو معه، ويخصه بالطعام، ولا يأكل إلا عندما يحضر محمد، وظل يحوطه بعنايته إلى أن توفي قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين [2]

فَمَنْ الذي سخر هذه القلوب لتعطف وترعى هذا النبي اليتيم ؟

فكيف بمن يفكر في أبنائه، ويحمل همهم لو توفَّاه الله تعالى عنهم وهم صغار، إن هذه المواقف تعلِّم الإنسان المسلم وتغرس فيه عقيدة التوكل على الله تعالى، وأنه هـــو المدبِّر للأمور ولعواقبها، فلا يلزمه إلا أن يجهد ويجتهد في سعة وراحة بال؛ دون توجع وتخوف عن مصير الأبناء لو قدَّر الله تعالى عليه الوفاة وهم صغار، ألم يحبس الله تعالى ذلك الكنـــز المذكور في سورة الكهف تحت جدار الأيتام، وهيأ لهم من يقوم ببناء ذلك الجدار حتى لا يُكشف خَبَرُ ذلك الكنـــز، ويبقى مدفوناً تحفه الرعاية

---

[1] ابن هشام ، السيرة النبوية ، (٢٢٣/١) .

[2] ابن سعد ، الطبقات ، (١١٩/١-١٢٠).

الإلهية حتى يتهيأ الأبناء رشداً وسناً وقوة ليأخذوا كنـــزهم، قال تعالى ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ﴿٧٧﴾ ﴾[1] وقال تعالى في علة بناء ذلك الجدار ﴿ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ ﴾[2]

وهنا تعطينا الآية الكريمة دلالة عظيمة ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ ﴾ فالمسلم إذا أصلح من حالـه في طاعة ربه عز وجل؛ تكفل الله تعالى بأموره وما يخصه من أمور متعلقة بمن يحبهم كالأبناء، وما خبر عمر بن عبد العزيز مع أبنائه عن هذا الموقف ببعيد، فلم يـترك لأبـنائه من حطام الدنيا شيئاً، لا أموالاً ولا كنوزاً؛ وهو الخليفة الزاهد، ولكنه ترك لهم تربية صالحة ، فأغدق الله تعالى على بنيه من الخير بعد وفاته، حتى أن أحدهـم جهـز جزأ من أحد جيوش المسلمين ؛ لكثرة ماله الذي لم يرثه عن والده، ولكن كان أبوهم رجلاً صالحاً.

واليُتْمُ في باب حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم عظمة ودروس،بأن لا يـركن اليتيم لحالة البؤس والهزيمة النفسية،والعطش العاطفي؛ وشظف العيش إن أصـابه ذلك، بل يأخذ الأمر بعزيمة المؤمن الواثق بربه عز وجل، فيأمل فيه الخير والرجاء فهو المرجو سبحانه وتعالى،وله أسوة في العلماء الكبار الذين عاشوا يـتامى فقادوا الناس بعلمهم وحكمتهم، ومن أولئك الإمام الشافعي الذي عاش يتيماً في حجـر أمه، فأصبح العالم الذي تُضرب له أكباد الإبل، والذي بلغ شأواً بعيداً في الفصاحة والبلاغة؛ وجمال الذكر وطوله، حتى أصبح نهجه العلمي مذهباً فقهياً لامعا.

---

(1) سورة الكهف ، آية رقم (٧٧).

(2) سورة الكهف ، آية رقم (٨٢).

الرضاعــة :

وقد أرضعته صلى الله عليه وسلم حليمة ابنة أبي ذؤيب[1] وإنه لمن عادة العرب أن يسترضعوا أبناءهم في البدو، ابتعاداً بهم عن أمراض المدن، ورغبة في تقوية أجسادهم، وتعويداً وتربية لهم على الاعتماد على النفس منذ الصغر؛ بعيداً عن تدليل الأمهات والجدات وبقية الأقارب، وتقويماً لألسنتهم من اللحن وغيره من مفسدات اللغة [2]

ولــئن كان هذا هو ديدن العرب قديماً؛ وهو ما حصل لنبي هذه الأمة أيضــاً فــإن الجديــر بالتربــية المعاصرة اليوم أن تُعْنَى بأجساد الأبناء ولغتهم؛ وإبعادهم عن كل ما يفسدها، وإبعاد كل ما يفسدها عنهم، حتى لا ينشأ الطفل نشــأة سيئة في خُلُقه ولغته وتربيته، وكم من الآباء يرحل بأبنائه من مجتمع لآخر من أجل الكسب المادي، ولا يرحل بأبنائه من حي لحي أو من مدينة لأخرى من أجــل الحفاظ التربوي على الأبناء من الخلطة الفاسدة التي قد تكون في حي من الأحياء، أو في مدينة دون أخرى.

ومما اشتهر في بعض كتب السير أنه باسترضاع حليمة للنبي ﷺ دَرَّ ثديها اللبن بعد أن كان ابنها يبكي من الجوع؛ من قلة اللبن أو عدمه، فشرب منه النبي ﷺ حــتى رَوِيَ، وشرب معه أخوه حتى رَوِيَ، وكانت لها أتان شارف أي مسنة هزيلة؛ فأضحت الراحلة قوية تسير في نشاط وحيوية [3]

وفي هــذا الخــبر ما يدفع الإنسان المسلم إلى التقدم إلى الخير من كفالة الأيــتام والعناية بهم، فقد يكون ذلك سبب في ورود الخير لكافل اليتيم، ويدفع الله عــنه غائلــة الجوع والفاقة، وإن كان في نعيم زاده وبارك له، فإن في رعاية

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (١٦٩/١)

(2) مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص (١١٥-١١٦)

(3) أنظر ابن هشام ، السيرة النبوية (١٧١/١-١٧٣).

الأيـــتام الـــتربوية والنفسية والمعيشية ما يبني فيهم حب المجتمع وحب المحسنين والعمـــل بإحسان في حياهم، مع البعد عن ظلمهم وكسر خواطرهم بالكلمة أو الفعل، ويكفي المرء من رعاية اليتيم ما سيجده حتماً عند مليك مقتدر؛ أخبر به ﷺ (أنـــا وكافل اليتيم في الجنة هكذا. وقال بإصبعيه: السبَّابة و الوسطى)[1] وإنها لمنـــزلة عزيزة أن يكون المسلم في معية رسول الله ﷺ .

الحياة العملية (الرعي والتجارة):

لقد عمل الرسولﷺ قبل بعثته كما كان الناس يعملون ويتكسبون ، فلم يكن كسولاً ﷺ ولم يكن يأنف من عملٍ شريف وإن كان في أعين الناس صغيراً، وقد اشتغل رسول الله ﷺ برعي الغنم لأهل مكة، وهذا مما هيأ الله تبارك وتعالى رُسُـــلَه جمـــيعاً لهذا النوع من العمل، فقال ﷺ (ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)[2].

فـــلم تكن تلك الأغنام لرسول الله ﷺ يقوم برعيها والعناية بها، بل كان يعمـــل فيها ﷺ بالأجرة لأهل مكة، فلم يأنف من ذلك أو يتكبر، ولو كان فيها مَذَمَّـــة لمـــا هيأه ربه سبحانه وتعالى إلى ذلك العمل؛ الذي سيتهيأ من بعده لأمر عظـــيم جلـــيل؛ وعمل شاق كبير، هي النبوة والرسالة. فلا يعيب المرء أن يبدأ حـــياته العملـــية بالأجرة عند فرد أو مجموعة من الناس، فقد عمل موسى عليه السلام بالأجرة ، قال تعالى ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾[3]

---

[1] البخاري ، (٩٢/٤) برقم (٦٠٠٥).

(٢) البخاري ، (١٣٠/٢) برقم (٢٢٦٢)

[3] سورة القصص: آية رقم (٢٧)

فالتربية المهنية هي التي تبدأ بتهيئة الإنسان للعمل بأبسط المهن وأسهلها، وفتح الذهن عليها، لأن المرء قد يكون كبيراً في سنه؛ ولكن يغفل عن ما سَهُلَ من طرق التكسب.

وفي منهجه التربوي ﷺ الإرشاد المهني، حيث أرشد ذلك الصحابي في كيفية استثمار ما عنده من متاع بسيط ليبيع حاجة منه؛ ثم يدير أمره المهني بما يجعله يعمل ويتكسب، فعن أنس بن مالك أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله فقال (أما في بيتك شيء ؟ قال : بلى.حلس: نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء، قال: أتني بهما، قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، وقال: من يشتري هذين ؟ قال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال: من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثاً، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين، وأعطاهما الأنصاري، وقال: اشتر بأحدهما طعاماً، فانبذه إلى أهلك، واشتر بلآخر قدوماً فأتِ به، فأتاه به، فشدَّ فيه رسول الله ﷺ عوداً بيده، ثم قال له: اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً، فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء، وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً، فقال رسول الله ﷺ : هذا خير لك أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مدقع، أو لذي غُرم مفظع، أو لذي دم موجع).[1]

وقد اشتهر ﷺ منذ صغر سنه بمكارم الأخلاق وفضائلها، فقد كان ﷺ بشمائل الأدب يتعامل، وبأنبل الصفات يتخلق، فَعُرِفَ من بين قومه أجمعين بالأمانة والصدق حتى أن خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أرسلت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً، و تعطيه أفضل ما كانت

---

[1] أبو داوود ، (٢/٢٩٢ــ ٢٩٤) برقم (١٦٤١) .

تعطـــي غـــيره من التجار مع غلام لها، يقال له: ميسرة، فَقَبِلَ الرسول ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك [1].

ومـــن هـــذا العرض والقبول بين صاحبة التجارة والمتاجر لها ما يؤكد جوانـــب مهنـــية عالية في مغزاها، ذلك أن الإنسان كلما كان بأخلاق الإسلام متمســـكاً دعا أرباب الأعمال إلى استقطابه من بين أقرانه، لأن الثقة فيه أقوى، وصـــدقه وبِـــرُّه للعمـــل أدعى، وأمانته بالعمل تزكو، مما يؤكد أن أهم دواعي التكسب الأساسية الالتزام بمكارم الأخلاق التي دفعت خديجة رضي الله عنها أن تدفع لرسول الله ﷺ ضعف ما تدفع لغيره من التجار.

ولم يأنف رسول الله ﷺ من العمل بأجرة، حتى ولو كان صاحب العمل امـــرأة، وعـــلى صاحب التجارة أن يختار لعمله الثقات من الناس، وأن لا يمنعه شُحُّه وحب المال الالتزام بأجرة المثل، بل يدفع للكفء ما هو أكثر، لما في ذلك من حفظ ماله وصيانته، بل وما ينعكس على نفسيته من راحة واطمئنان؛ نتيجة استئجار الأمين في أدائه؛ والقوي في عمله.

كمـــا أن للمرأة أن تباشر عملها من خلال استعمال الأكفاء من الناس، وأن تســـتثمر أموالها بما يعود عليها وعلى مجتمعها بالخير، وأن لا تُعَرِّض نفسها للفـــتن والمخاطـــر مـــن أجل التكسب، فخديجة رضي الله عنها؛ وهي في عهد الجاهلية لم تركب بغلتها لتدير تجارها، وإنما أوكلت في ذلك من يقوم بها.

ومـــن ذلك أن الله تعالى هيأ رسوله قبل البعثة لأن يعمل في رعي الغنم، وفي تجارة خديجة؛ ويسافر لها إلى الشام، وهو مقبل على أمر جليل عظيم، مما يبين أن عـــلى المرء أن يكدح ويعمل بما هو ميسَّر له حال ذلك الوقت الذي هو فيه، ويعلم أن المستقبل بيد الله تعالى. كما أن في ذلك تربية للإنسان على أمور قد لا يعـــرف مغبَّـــتها، فكم من الناس بدأ بأعمال مهنية بسيطة فهيأ الله له فيما بعد

---

[1] ابن هشام ، السيرة النبوية ، (١٩٩/١).

دروب العلم فأصبح عالماً يُشار إليه بالبنان، أو داعية للخير من خلال الكلمة أو العمـــل الخيري، أو موظفاً مرموقاً أو تاجراً خيِّراً، فالسابقات للإنسان من المهن البسيطة دروس وعبر وتربية قد لا يحصل عليها لو لم يزاول تلك المهن والأعمال والحِرَف التي هي في نظره من سَقْطِ المتاع.

التربية الخاصة:

وهـــي تربيـــته ســـبحانه وتعالى لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، قـــال تعـــالى ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾ [1] والمعـــــنى : (الله يجتبي إليه من يشاء) أي يختار من خلقه من يعلم أنه يصلح للاجتباء لرسالته وولايته، ومنه أن اجتبى هذه الأمة، وفضَّلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وآخرها [2]

فالنبي ﷺ اصطفاه ربه وتولى أمر تربيته، حيث صانه الله تعالى عن أفعال الجاهلـــية المنكرة، فلم يعبد صنماً، ولم تُر عورته، ولم يسمع لهواً قط، فقد كان يحمل مع عمومته وأبناء عمومته الحجارة أثناء بناء الكعبة، فرفع ثوبه على عاتقه ليستعين به على حمل الحجارة، فكشف عن بعض عورته، فسقط وقيل له غط عورتك.

وذهب ليسمع الغناء كبقية فتيان قريش، فوصل إلى المكان، ثم نام حتى طلوع الشمس فلم يسمع شيئاً [3] فهذه تربية ورعاية ربانية خاصة.

وأمـــا التربـــية العامة فهي بالنعم التي أنعم الله تعالى بها على عباده، من رزق، وإرسال الرسل، فيهدي بهدايته العامة من ينيب إليه، بعد أن عرف النعمة

---

[1] سورة الشورى : آية رقم (١٣)

[2] السعدي ، تيسير الكريم الرحمن (٤/٤١٤) .

[3] وفي هذه الأخبار روايات صحيحة وضعيفة، انظر تفاصيلها في كتاب: السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكـــرم ضـــياء العمري (١/١١٤ــ١١٧) وكتاب: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، للدكتور مهدي رزق الله أحمد ، ص (١٢٥ــ ١٢٨)

وأحسَّ بجميع الدلائل الكونية والشرعية على أن الله تعالى هو رب البرية؛ فأناب إليه، ثم هداه تعالى ووفقه، قال تعالى ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [1] هــذا الســبب الــذي، يتوصل به العبد إلى هداية الله تعالى؛ وهو الإنابة إليه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصداً وجهه، فَحُسْنُ مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية من أسباب التيسير لها [2] قـــال تـعالـى : ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٦﴾ [3]

وقــد قال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : (لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل ؛حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر بــه، ويــده الــتي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذني لأعذينه) [4]

فأي هداية أعظم من هذه التربية التي تولت جميع الأعضاء الأساسية في الإنسان الذي أناب لربه.

حلف المطيبين (الفضول) :

تداعــت قــبائل مــن قريش إلى حلف، فاجتمعوا له في دار عبدالله بن جُدعان لشرفه وسنِّه، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى تُرَدُّ علــيه مظلمــته، فَسَمَّتْ ذلك قريش حلف الفضول، وقد شهده رسول الله ﷺ

---

(1) سورة الشورى: آية رقم (١٣)

(2) السعدي ، تيسير الكريم الرحمن (٤/٤١٤) .

(3) سورة المائدة: آية رقم (١٦)

(4) البخاري (٤/١٩٢) برقم (٦٥٠١) .

وقـــال: (لقـــد شهدت في دار عبدالله بن جُدعان حلفاً ما أحب أن لي به حُمْر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت) [1]

وروى الإمـــام أحمـــد أن الرسول ﷺ قال : (شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، وما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكثه) [2]

فلما أن الظلم تأباه النفوس المستقيمة وأصحاب الشيم الخلقية الكريمة، فإن رسول ﷺ يشيد بذلك الحلف الذي انعقدت مراسمه في الجاهلية، موضحاً لو أنـــه دعي إليه في الإسلام لأجاب ولم يدفعه شنآن الجاهلية أن ينكر ذلك العمل الأخلاقي النبيل، بل أشاد به وبحضوره ﷺ وقد كان غلاماً، وإن حضور الرسول ﷺ لذلـــك الحلـــف وهـــو غلام رسَّخ في ذهنه تلك الصورة الخلقية الرائعة من الـــتكاتف والتعاضـــد لنصرة المظلوم ورد مظلمته إليه، وهذا يؤكد تربوياً أهمية اشـــتراك الأبـــناء في المناســـبات التي تحوي مكارم الأخلاق لترتسم صورها في ذاكـــرهم، فيرتسمون خطوطها، كما أن مشاركة الصغير وحضوره في ذلك لا يـــنقص مـــن قدر المناسبة وأهميتها، بل إن فيها تدريب وإذكاء للجذوة الخلقية، والتعليمية ، وفيه من الفوائد أن المال في المفاضلة النبوية مرجوح أمام كفة مكارم الأخلاق والأفعال النبيلة ، وتحقيق الخير للمجتمعات ، وأن رفع الظلم عن الناس مقصـــد مـــن مقاصد الإسلام وهديه ، وأن فوات المال بحصول مكارم الأخلاق ورفـــع الظلم عن الناس لا يعتبر خسارة في ميزان النبي صلى الله عليه وسلم مما يفـــيد أهمية العناية بالقيم الخلقية وتقديمها على القيم المادية ، وأن تحصيل حقوق الآخـــرين مقـــدم على تحصيل المكاسب المالية ، وأن تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة مقصد اجتماعي في المنهج الإسلامي .

---

[1] ابن هشام ، السيرة النبوية (١/١٤١-١٤٢) .

[2] أحمد (١/١٩٠) .

الزواج بخديجة:

خديجـــة هي أول من تزوجها ﷺ ، وهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عـــبدالعزى بن قصي، تجتمع مع النبي ﷺ في قصي، وهي من أقرب نسائه إليه في النســب، ولم يــتزوج مــن ذرية قصي غيرها إلا أم حبيبة، وتزوجها سنة خمس وعشرين من مولده ﷺ في قول الجمهور، زَوَّجَه إياها أبوها خويلد، وكانت قبله عند أبي هالة بن النبَّاش بن زرارة التميمي، حليف بني عبد الدار، وماتت رضي الله عنها على الصحيح بعد المبعث بعشر سنين في شهر رمضان [1]

فهذا الرسول ﷺ القدوة والأسوة حتى قبل بعثته عليه الصلاة والسلام، يتزوج في شبابه وعمره خمس وعشرون سنة ولم يتأخر عن هذا السن، وهو الذي قـــال بعـــد بعثـــته موجهاً الشباب (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج) [2]

ثم إنـــه ﷺ قَبِل من الزواج بخديجة صاحبة الخلال الفاضلة، مع أنها أكبر مـــنه ســـناً، حيث كانت تسمى في الجاهلية : الطاهرة [3] ، فقد حباها الله تعالى وفرة العقل والمال، وكانت من أحب نسائه إليه، لما كان منها من الفضل والسبق للخير وللإسلام، وهي العطوفة الحنونة على زوجها يوم جاءها بعد نزول الوحي إلـــيه خائفاً يقول دثّروني دثّروني، فكانت الزوجة الحانية الرفيقة بزوجها، فقالت لـــه :(كلا والله ما يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم وتحمل الكَـــل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق) [4]

---

(1) ابن حجر ، فتح الباري، (١٣٤/٧)

(2) البخاري (٣٥٥/٣) برقم (٥٠٦٦)

(3) ابن حجر ، فتح الباري، (١٣٤/٧)

(4) البخاري ، (١/ ١٤ــ١٥) برقم (٣)

فها هي الزوجة التي تعكس الأنموذج التربوي الرائع في تعاملها مــع زوجهــا؛ مُذكِّرة له بما هو عليه من الخلق الجميل الرفيع، فترفع من قدره، ومــن عزيمــته، ومن قوته النفسية، فأثنى الله تعالى عليها من فوق سبع سماوات؛ وبشَّرها بقصر في الجنة، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها (ما غِرت عــلى امــرأة مــا غِرت على خديجة من كثرة ذكر الرسول ﷺ إياها قالت : وتزوجني بعدها بثلاث سنين، وأمره ربه عز وجل ـ أو جبريل عليه السلام ـ أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب)[١]

وهكذا تضرب لنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها المثل في الأمانة حتى ممــن تغــار منها، فلم تمنعها غيرتها من ذكر مناقب أم المؤمنين خديجة رضي الله عــنها، من كثرة ثناء رسول الله ﷺ عليها وذكرها، ومما وعدها ربها به من قصر في الجنة، فطهرت رضي الله عنها من الحسد، وهذا ما يجب أن تكون عليه المرأة المســلمة، فلا تتجاوز بغيرتها الفطرية إلى رد الحق وعدم قبوله، أو التعنيف، أو تضييع الحقوق، أو هضم حقوق الأخريات من زوجات الزوج، فحقاً إنها لمدرسة تربوية شامخة بأحداثها الرائعة الفذَّة.

ومن أحداث هذا الزواج المبارك أن الإنسان الصالح يعينه الله ويهيئ له الــزوجة الصالحة، وكذلك المرأة الصالحة يهيئ الله لها الزوج الصالح، فقد كان ﷺ يسمى في الجاهلية بالأمين لأمانته وتسمى خديجة بنت خويلد بالطاهرة، فوفق الله تعــالى بيــنهما، وهذه إشارة إلى كل شاب وشابة أن يُقْبلا على الله تعالى في طاعــة وتقوى؛ حتى يهيئ الله لهما من يماثلهما، وأما ما يحدث من خلاف لذلك فقــد يكون من باب الابتلاء، وقد يكون من باب عدم حسن التدبير والاختيار، التي يلزم مراعاتها في التطبيقات العملية للحياة.

---

[١] البخاري (٣/٤٧) برقم (٣٨١٧) .

بناء الكعبة :

بعد بناء إبراهيم وابنه إسماعيل للكعبة المشرَّفة، وبمرور السنون والأعوام، رأت قريش إعادة بناء الكعبة بعد هدمها، قال ابن إسحاق فلما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة، وكانوا يهمُّون بذلك ليُسقِّفوها ويهابون هدمها، وإنما كانت رضماً فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها" [١]

فلما وصلت قريش إلى موضع الحجر الأسود اختلفت في وضعه في مكانه، كلٌّ يريد أن يَشْرُفَ بحمله، فقالوا : أول رجل يطلع من الفج، فجاء رسول الله ﷺ ، فقالوا : أتاكم الأمين، فقالوا له؛ فوضعه في ثوب، ثم دعا بطونهم، فأخذوا بنواحيه معه، فوضعه هو ﷺ [٢]

لقد تطلعت قريش لأمر عظيم وهو إعادة ما ارتفع من بناء الكعبة ، وخافت وهابت الأمر العظيم، وما قصة ابرهة الحبشي عنهم ببعيد، عندما أرادوا هدمها واجتثاثها فأرسل الله تعالى عليه وعلى جنده طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجِّيل، وقد أنزل الله قصتها في كتابه العزيز ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾ [٣] .

ولكن لصدق نيتهم وسلامة مقصدهم مكنهم الله تعالى من ذلك الأمر، الذي تنازعوا في التشرف برفع الحجر الأسود إلى مكانه من البناء، فاحتكموا لأول قادم للحرم؛ فكان رسول الله ﷺ، ففرحوا بمقدمه معلنين بصوت واحد :

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية (١/٢٠٤-٢٠٥) .

(٢) أحمد ، (٣/٤٢٥) .

(٣) سورة الفيل .

أتــاكم الأمــين، فشرف الأمانة عظيم والتخلق به أمر عظيم، تربى عليه ﷺ منذ نعومــة أظفاره؛ فلم تُعرَف عنه خيانة ﷺ بل عُرِف عنه فضائل الأخلاق مجتمعة فيه، فأخمد الله تعالى على يديه فتنة قد تكون بسبب اختلاف قريش في رفع الحجر الأسود، وسدد الله تعالى رأيهِ ووفقه في فكرة وضع الحجر في ثوب لترفعه بطون قريش معه ﷺ، ليضعه هو بنفسه في مكانه، وبالرغم من إنكاره لأعمال الجاهلية الفاسدة؛ وعدم مشاركة قومه فيها إلا أنه يشارك في كل عمل نبيل شريف.

فلم يكن رسول الله ﷺ أكبرهم سناً، ولكن خلقه الكريم وطباعه الرفيعة تــرفع من قدره ومكانته عند قومه ومجتمعه، ليكون هو الحكم الفصل في قضية تُعتَــبر من أكبر القضايا الدينية والاجتماعية، فهكذا يرسم لنا رسول الله ﷺ قبل بعثــته الشخصــية الرفــيعة الحكيمة التي تضع الأمور في نصابها دون تهويل أو تضعيف للمواقف، فها هي صورة الشاب في شبابه وهي في أحسنها وأكملهاﷺ.

ويفيد هذا أن نهج الاستقامة، والتخلق بأخلاق الإسلام؛ تصنع لصاحبها مكانة ومنــزلة لا يمكن أن يحققها بالدينار والدرهم.

الفصل الثاني

من البعثة إلى الهجرة

البعثة النبوية

لقد جاءت البشارات ببعثته ﷺ على لسان الأنبياء، قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ (١)

وأما في التوراة والإنجيل فقد وقع التحريف فيها، وحُذف منها التصريح باسم محمد ﷺ إلا توراة السامرة، وإنجيل برنابا، الذي كان موجوداً قبل الإسلام، وحرمت الكنيسة تداوله في آخر القرن الخامس الميلادي (٢)

وفي قصة سلمان الفارسي بخروجه من بلاده فارس إلى بلاد الشام بحثاً عن الدين الحق دليل على ذلك. حيث وصل في سفره إلى أسقف النصارى، وأخذ يرحل بوصاية من أسقف لآخر حتى وصل إلى أحدهم، فعندما حضرته الوفاة، قال له سلمان: إلى من توصي بي ؟ فقال: أي بني ! والله ما أعلمه بقي أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكن قد أضلك زمان نبي، يُبعث من الحرم، مهاجره بين حرتين إلى أرض سبخة، ذات نخل، وإن فيه علامات لا تخفى، بين كتفه خاتم النبوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل.(٣)

وفي هذا دليل على حسد اليهود وكرههم لغيرهم، وخاصة العرب، ومكرهم وإخفائهم للحقائق وعدم أمانتهم، مما يؤكد أهمية أخذ الحيطة والحذر منهم، ومن أعمالهم ومكرهم، وقد قال الله تعالى عنهم ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (٤)

---

(١) سورة الصف: آية رقم (٦).

(٢) أكرم ضياء العمري ، السيرة النبوية الصحيحة، ص (١١٨ ـــ ١٢٨) .

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء (١/٥٠٥ ـــ ٥٠٩) وابن هشام، السيرة النبوية (١/٢٢٨ ـــ ٢٣٣).

(٤) سورة آل عمران ، آية رقم (٧٥) .

وقد أعطانا سلمان الفارسي ﷺ القدوة الجادة الباحثة عن الحق، وتحمل عناء السفر والغربة وما فيها من كربات؛ رغبة في الدين الحق الذي يرضى الله به عن عبده، وبَذَلَ في ذلك الغالي والنفيس، وعرَّض نفسه للأخطار والمهالك، ولكن هان ذلك في سبيل طاعة ربه عز وجل، فكيف بمن وصله الدين وهو على فراش أهله وثرى بلده ؟ وبالرغم من ذلك لا يُحَفِّز نفسه على التمسك بأهداف دينه وواجباته وفرائضه، ويتحلى بسننه العطرة. ففئتان لا تلتقيان سلمان الفارسي الجاهل ببعثته ﷺ فيبحث عن الحقيقة، واليهود الذين عرفوا الحقيقة ويهربون منها، بل ويضلون الناس وينحرفون بهم عن الحقيقة، فذلك مثل الذي يقعدُ على دروب الخير ليصد الناس عنها بالكلمة والحرف والقرطاس والقلم، فيسعى وأمثاله إلى إشباع أهوائهم ورغباتهم ونزواتهم، ومثل الذي يبحث عن الحق ويسعى لمعرفته.

ولئن كان سلمان الفارسي يضرب بذلك مثلاً رائعاً، فإن هناك من عرف حقيقة مبعثه ﷺ ويأمل أن يدركها ويدخل في الإسلام عند حدوثها، ومن أولئك زيد بن عمرو بن نفيل، حيث يقول عامر بن ربيعة، قال سمعت زيد بن عمر بن نفيل يقول : أنا أنتظر نبياً من بني إسماعيل ثم من بني عبدالمطلب، ولا أراني أدركه، وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك مدة فأقرئه مني السلام، وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك [1].

فمعرفة الحقيقة توجب على العاقل التصديق بها، واتباع الحق وعدم التعالي على الخالق سبحانه وتعالى، ونبذ الحسد وتطهير النفس منه، لأنه المانع من الانقياد للحق والإذعان له، فكم غابت عن الحساد منافع ومصالح كانوا منها قريبين، فبَعُدَت عنهم كبعد المشرقين للحسد والكبر الذي يعتلي بعض النفوس.

---

(1) ابن سعد ، الطبقات ، (١٦١/١) .

وأول مـــا بُــدِئ برسول الله ﷺ من الوحي كما قالت عائشة رضي الله عـــنها (الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، وكان يخلوا بغار حراء فيتحنث فيه ـــ أي يتعبد _ الليالي ذوات العدد قبل أن ينـــزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الْمَلَك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقـــارئ، قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجَهْدَ، ثم أرسلني؛ فقال: اقرأ، قلت: مـــا أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلـــت: مـــا أنا بقارئ، فأخذني فقطني الثالثة، ثم أرسلني فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم) فرجع بها رسول الله ﷺ يـــرجف فـــؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: زملوني زملزني. فَزَمَّلُوه؛ حتى ذهب عنه الرَّوْع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت عـــلى نفسي. فقالت خديجة: كلا والله ما يُخْزِيكَ الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمـــل الكـــل، وتكســـب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ـــ ابن عم خديجة ـــ وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب مـــن الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عمِّ اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخـــبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نَزَّلَ الله على موسى، ياليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يُخْرِجُكَ قومُك، فقال رسول الله ﷺ أو مخرجي هم ؟ قال: نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يُدْرِكْـــنِي يومُـــكَ أنصـــرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي)[1].

---

[1] البخاري ، (١/١٤-١٥) برقم (٣) .

ومن الفوائد والدلالات التربوية والدعوية والاجتماعية من مقدمات بعثته ﷺ : أهمية الإعداد والتهيئة والتدرج وعدم الاستعجال، فالله سبحانه وتعالى القادر على أن يقول للشيء كن فيكون، يهيئ محمداً ﷺ للنبوة أربعين سنة، برعايته الخاصة من حادثة شقّ الصدر وكفالته ورعايته يتيماً، وتجنيبه وحفظه من عبادة الأصنام، وإنزال محبته في قلب جدّه عبد المطلب وعمه أبي طالب حتى إنهم ليرعونه رعاية تفوق رعاية الآباء لأبنائهم، فهذه التهيئة الطويلة في حساب الخلق من الخالق القادر على كل شيء، والذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، تعطينا أهمية الأخذ بهذا المبدأ العظيم في قضايا الدعوة والتربية والإدارة والشؤون الاجتماعية والاقتصادية؛ وفي كل أمر من الأمور.

فالوالد الذي يريد صلاح الابن عندما يحتاج إلى صلاحه دون سابق تربية وتهيئة لتلك الحاجة، فإنه يخالف سنن الله الاجتماعية التي يلزم أن يأخذ بها حتى تستقيم أمور أبنائه، فيجدهم حيث أراد وأحب.

وكذلك المدير الإداري الذي يريد موظفاً جيّداً في عمله حال ظهور الحاجة إليه في أمر من الأمور الإدارية؛ دون إعداد وتهيئة لذلك الأمر الذي سيؤول إليه؛ هو ضرب من التمني المخالف لحقيقة البناء الإداري.

وكذلك الداعية الذي يريد استصلاح الأمة من كلمة يقولها أو خطبة أو عِدَّة خُطَب على المنابر يلقيها، دون إدراك لعملية التهيئة لذلك الصلاح من خلال مفاتيحه الأولى، التي ينصلح بها الإنسان، وهي التعليم والوعظ في تدرج، لأن الخُطَبَ العاطفية تحفّز ولا تُعَلِّم، والعلم يعلم الإنسان؛ ولكنه يحتاج إلى الموعظة والخطبة المحفزة، فمفاتيح الدعوة: التعليم والوعظ، فهما خطّان متلازمان لا يغني أحدهما عن الآخر.

فالله سبحانه وتعالى عندما حرَّم الخمر هيأ الأمة لذلك الأمر، لأنها اعتادته وأصبح جزءاً من طعامها وشرابها في الجاهلية، فأنزل الله تعالى تنويهاً في قوله تعالى ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ ﴾ [1] ، ثم التهيئة الثانية في قوله تعالى ﴿ ۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ ﴾ [2] ثم التهيئة الثالثة في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [3] ثم بعد هذه التهيئة المتدرِّجة ينزل التحريم في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ ﴾ [4].

فكل أمر يحتاج إلى تهيئة وإعداد هيَّأه الله تعالى لنتعلم كيف نعالج وكيف نربي وكيف ندعوا.

فالتهيئة قد تكون في الأمر الجزئي؛ كتحريم الخمر، وقد تكون في الأمر العام؛ كقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصَّل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً...)[5].

ولذلك فإن الزوج الذي يريد من زوجته أن تكون مربِّية قديرة وجديرة بتربية الأبناء على منهج الله تعالى، يبدأ في إعدادها وتهيئتها أولاً: من خلال حسن الاختيار، ثم توجيهها ونصحها وتعويدها على خصال الخير؛ وتعليمها ما تحتاج إليه من مفاهيم تربوية وعملية؛ حتى تصبح فيما بعد أماً صالحة لتربي أبناء

---

[1] سورة النحل ، آية رقم (٦٧).

[2] سورة البقرة ، آية رقم (٢١٩).

[3] سورة النساء ، آية رقم (٤٣).

[4] سورة المائدة ، آية رقم (٩٠).

[5] صحيح البخاري ، (٣/٣٤٠) برقم (٤٩٩٣).

صالحين، وكذلك من يريد أن تكون زوجته عفيفة، حافظة لحقوق زوجها في كل أمر، يلزمه أن يهيئها لذلك، قبل أن يلومها، من خلال تعاهدها بالنصح والإرشاد والتوجــيه بأساليب التربية النبوية التي تحبب في المرأة النصيحة والاتباع، وليس النفرة والعصيان، والزهد في الخير. فالتهيئة سنة شرعية يجب مراعاتها. وينسحب هذا على أمور الحياة المماثلة.

وأول ما نزل عليه ﷺ قوله تعالى ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ ﴾ [1] أي لا تقــرأ بقوتــك ولا بمعرفــتك ولكن بحول ربك ورعايته[2] وهكذا يكون جهد الإنسان التربوي والدعوي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي مرتبط في نجاحه بالأخذ بالأسباب الذاتية والأسباب الشرعية، فلا تركن إلى بلاغتك وفصاحتك وقدرتــك ومعرفــتك في كل أمر من الأمور، ولكن اقرأ وتعلم وربِّ وادعُ وتاجر بالارتكان إلى قوة الله تعالى وحوله، فهذان عاملان أساسيان لنجاح الأعمال والأقوال.

إن هــذه الآية الكريمة تعلم الإنسان البدء في كل أمرٍ من الأمور بالمعرفة والتَّعَلُّم؛ وربط ذلك بحوله وقوته وقدرته سبحانه وتعالى.

كمــا تعلمنا هذه الآية أن مفتاح هذا العلم هو القراءة؛ وما يلزم لذلك مــن معرفة الحرف والكلمة والكتابة، ومايتطلبه ذلك من الأدب مع المعلّم حتى يعلمك ما تحتاج إليه، ويُغدِق عليك من معارفه، كما علّمتنا خديجة بنت خويلد رضــي الله عــنها وهي تتكلم بلطف وأدبٍ مع ورقة بن نوفل، لتهيئه على أن يعلمها أمر زوجها ﷺ فتقول له (يا ابن عمٍّ إسمع من إبن أخيك) فقالت له:يا ابن عم، وهذه حقيقة، ثم قالت له: إسمع من ابن أخيك، وهو يجتمع مع النبي ﷺ في جدِّه قصي، فأرادت بذلك الأدب أن يتأهب لسماع كلام النبي ﷺ وذلك أبلغ في التعليم [3] .

---

(1) سورة العلق ، آية رقم (١).

(2) ابن حجر، فتح الباري (١/٢٤).

(3) المرجع السابق ، (١/٢٥).

وإن شـــدة نزول الوحي عليه ﷺ تعلمنا شدة العلم وحاجته إلى الصبر، وكذلـــك الدعـــوة إلى الله تعـــالى؛ فإنها تحتاج من الداعية أن يصبر على الأخذ بأدواتها التي من أبرزها تعلُّم العلم.

وبعد انقطاع الوحي مدة لم تدم طويلاً تتابع بعد ذلك نزول الوحي على رسول الله ﷺ مدة بعثته.

ثم نـــزل قوـــله تعـــالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾ عن جابر بن عبدالله الأنصاري، قال: وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه عن رسول الله ﷺ (بيـــنما أنـــا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جـــاءني بحـــراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فَرُعِبْتُ منه، فرجعت فقلـــت: زملـــوني، فأنزل الله تعالى (يا أيها المدثر قم فأنذر _ إلى قوله _والرجز فاهجر) فحمي الوحي، وتتابع)[1]

وقـــد كان رسول الله ﷺ يحرك لسانه بالقرآن مسارعة إلى حفظه؛ فأمره الله تعالى بأن ينصت حتى يُقضى إليه وحيه، ووعد بأنه آمن من تفلته، فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (لا تحرك به لسانك لتعجل بـــه) قال: (كان رسول الله ﷺ يعالج من التنـــزيل شدةً، وكان مما يحرك شفتيه، فقـــال ابن عباس: فأنا أُحَرِّكُهُمَا لكم كما كان رسول الله ﷺ يُحَرِّكُهما. وقال سعيد: أنا أُحركهما كما رأيت ابن عباس يُحَرِّكُهُما _ فحرك شفتيه _ فأنزل الله تعـــالى (لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه) قال: جَمْعَهُ لك في صـــدرك وتقرَأه (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) قال: فاستمع له وأنصت (ثم إن علينا بـــيانه) ثم إن علينـــا أن تقـــرأه. فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك، إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه) [2]

---

[1] البخاري (١/١٥) برقم (٤)

[2] البخاري (١/١٥) برقم (٥)

فقـــد كـــان ﷺ تواقـــاً لكلام ربه تبارك وتعالى؛ فيحرك لسانه رغبة في حفظه، وخشية أن يتفلت منه كلام رب العالمين، فيعلمه سبحانه وتعالى ما ينبغي عليه إزاء ذلك من الاستماع، ووعده بأنه آمنٌ مِنْ تفلته بالنسيان أو بغيره، الأمر الـــذي يجب أن يكون عليه المتعلم للعلم؛ خاصة لكتاب الله تبارك وتعالى وسنة نبيه ﷺ بأن يأخذ ذلك بقوة ومحبة ورغبة في إتقانه، وهي عوامل أساسية في حفظ العلم وإتقانه. ومكانها قلبي لا جهد فيه، غير أنها تحفز عملية التعلم، ثم بعد ذلك الاستماع والفهم لإدراك المعلوم من العلم،كما أنه لا يمكن للمرء في الغالب أن يفهـــم ويحفـــظ في لحظـــة إعطاء الدرس، أو العلم من المعلم، بل عليه أن يفهم ويُدْرِك ما يُقال له حال الدرس، ثم بعد تمامه يحفظه.

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ أجود الـــناس، وكان أجودُ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل لـــيلة مـــن رمضـــان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح الْمُرْسَـــلة)[1] ذكر ابن حجر رحمه الله تعالى أنه قيل عن الحكمة من مدارسة جـــبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ القرآن الكريم : أن مدارسة القرآن تجدد له العهـــد بمزيد غنى النفس، والغنى سبب الجود، والجود في الشرع إعطاء ما ينبغي لمـــن ينـــبغي[2] وفي هذا إشارة إلى أثر مدارسة القرآن الكريم على الغنى النفسي الـــذي ينعكس على جوارح الإنسان وتصرفاته ونظرته للدنيا وما فيها من مال ومكاسب، وأن في مدارسة القرآن الكريم ما يدفع الشح عن الإنسان، ويربي فيه العطـــاء والكـــرم والجـــود، وكمـــا قال ابن حجر: مجموع ما ذكر من الوقت والمنـــزُول به والنازل والمذاكرة حصل المزيد في الجود.[3]

---

[1] البخاري (١/١٦) برقم (٦)

[2] ابن حجر، فتح الباري (١/٣١)

[3] المرجع السابق (١/٣١)

ومـــن فوائد الحديث: الحث على الجود في كل وقت، والزيادة عليها في رمضـــان، وعـــند الاجـــتماع بأهل الصلاح، وفيه زيارة الصلحاء وأهل الخير، وتكرار ذلك إذا كان الْمَزُورُ لا يكرهه، واستحباب الإكثار من قراءة القرآن في رمضان[1]

وفـــيه من الفوائد أن المدارسة لا تكون من فرد واحد فقط، وإنما تكون بـــين اثـــنين فأكثر، وأن تكون للقرآن في كل ليلة من ليالي رمضان. وفيه أهمية الحـــرص والمتابعة لمن وفقه الله لحفظ القرآن الكريم خاصة. فهذا رسول الله ﷺ الـــذي تكفـــل له ربه بحفظه وجَمَعَهُ له في صدره يدارسه جبريل القرآن الكريم، فمـــن بـــاب أولى أن يقـــوم بذلك أفراد الأمة؛ ولا سيما أهل العلم والصلاح، وخاصة الحفاظ حفظنا الله تعالى وإياهم.

مرحلة الدعوة السرية:

قال ابن هشام: وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أَمْرَهُ واستتر به إلى أن أمـــره الله تعـــالى بإظهار دينه ثلاث سنين _فيما بلغني _ من مبعثه[2] وقال ابن القيم: وأقام ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين يدعو إلى الله سبحانه وتعالى مستخفياً، ثم نزل عليه ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤﴾ [3]

إن الله تعالى الآمر بما شاء والذي أذعنت له الخلائق، وإذا أراد شيئاً قال لـــه: كـــن فيكون، لم يأمر نبيه ﷺ بدعوة قومه إلا بعد ثلاث سنين من بعثته ﷺ فيتهـــيأ له الأمر وتتهيأ له القاعدة الأساسية المكونة من رسول رب العالمين الذي تفاجَأ بنـــزول الوحي وهابه، وقال: زملوني زملوني، وليعتاد الأمر الذي لم يكن له معرفة به من قبل، فتتهيأ له نفسُه، وتتهيأ له قُواه ومشاعره بالتضحية والتولي

---

[1] المرجع السابق (٣١/١)

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (٢٨٨/١)

[3] سورة الحجر، آية رقم (٩٤)

عـن الراحة إلى المجاهدة في كل جوانبها ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)﴾ [١]

قضـايا كبيرة وعالية لا بد أن يستوعبها النبي الأمي من ترك التدثر إلى الإنـذار، وتكـبير الله تعالى قولاً وعملاً، وتطهير الذات ظاهراً وباطناً، وإعلان التوحـيد الخالص الذي يقتضي رفض عبادة كل ما عدا الله سبحانه وتعالى، مع عدم التمنن على من يُحسن إليهم ، والصبر على ذلك.

ويـأتي بعـد تلـك القاعدة وجود الأعوان المخلصين الذين تتقوى بهم الدعـوة، لتنـتقل من السرية إلى العلنية، حيث دخل في الإسلام أولاً: زوجته خديجـة وابـن عمه علي بن أبي طالب ومولاه زيد بن حارثة، وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وبهذه الكوكبة الأخيار بدأ ينتشر الإسلام، ويدخل فيه خلقٌ آخر خفية.

إنهـا مرحلة التكوين التي تنطلق من تربية الفئة القليلة التربية التي تغرس لديهـم حـب التضحية، من أجل كلمة الله تعالى، ونُصْرة دينه ونبيه، بالتي هي أحسـن، فلم يأمر الله تعالى نبيه بمقاتلة قومه والهجوم عليهم بالكلمة أو العتاد، وإنما بالحكمة المشتملة على اللطف والصبر على الأذى وتحمله، لأن الهدف ليس هـو تحقيق الرفعة عليهم، بل رحمتهم والشفقة عليهم من نار جهنم؛ وحب الخير لهم بدخول هذا الدين الذي به يسعد الإنسان في الدنيا والآخرة.

لأن الـذي يدعـو أو يربي وهو يرجو الرفعة لنفسه والانتصار على الناس؛ يكون تفكـيره مُنْصَـبٌّ على استخدام الأساليب التي تحقق ذلك؛ ومنها استخدام القوة بأنواعها؛ واستضـعاف المقـابل؛ بينما الذي يدعو خوفاً على الناس ورحمة بهم وشفقة عليهم

---

[١] سورة المدثر: آية رقم (١ـ٧)

فإنــه يتلطف بهم كما تتلطف الأم بابنها ليأكل أو ينــام، أو يقضي حاجــة من حوائجــه، فالطفيل ﷺ عندما دعا قومه وجد منهم صدوداً، فطلب من الرسول ﷺ أن يدعــو عليهم، ولكنه ﷺ دعا لهم فقال (اللهم اهد دوساً وائت بهم)[1] نتيجة شفقته ﷺ ومحبته لإنقاذ الناس من الكفر وما يتبعه من العذاب المهين، قال تعالى عن منهج رسوله ﷺ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾[2]

وهذا ينطبق على الرجل في أهله، والرجل في مهنته وعمله، والإداري في إدارته، والرئيس في رئاسته، والصديق بين أصدقائه، فإذا كان الواحد منهم يريد الانتصار لذاته؛ جرياً وراء حظوظ النفس والهوى؛ غير مدرك لأهداف الإسلام وغايــته ولمنهج المصطفى ﷺ وغير عارف بمنهج الله تعالى الذي أراد أن يسلكه كل أحد في ميدان التعامل، فإن عاقبة أمره خسراناً.

فالــرجل الذي يريد أن يحقق انتصاراً لنفسه في منــزله من خلال فرض الآراء والإرادات دون اكــتراث لحــالات النفس الإنسانية وما جبلت عليه؛ وتفاوت العقول والأفهام، وتباين ما اعتاده الإنسان في حياته من سلوكيات، فإنه غالــباً ما يفشل في إدارة منــزله، خاصة إذا واجه من لا يطيع إلا على بصيرة ومعرفة.

وكــذا الــرجل في إدارته سواء أكان رئيساً أو مرؤوساً، يلزمه معرفة المنهجية النبوية في التغيير وفق سنن الله الاجتماعية، فيلزم التأمل والنظر والتهيئة النفســية والاجتماعــية لما يُريد أن يُحدثه من تحسين إداري، وأن يستخدم قوة السلطة في رحمة وشفقة على العمل والعامل. لا على العمل دون العامل.

---

(1) البخاري (٢/٣٤١) برقم (٢٩٣٧)

(2) سورة آل عمران: آية رقم (١٥٩)

وكـــذا الصديق في دائرة صداقته، لا يكن ذلك الرجل الذي يهدف من الصـــداقة الاســـتحواذ على العقول والقلوب بقوة النفوذ، بل لابد من مراعاة الأخـــلاق والطباع وحالات النفس البشرية، وما يعتريها من تقلب، وما جُبلت علـــيه. مع التزام الإنسان بما جاء في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)﴾ (١)

فإذا كان سياق الآية مخاطبة النبي ﷺ للجهر بالدعوة مع الاتصاف بتلك الصفات الواردة في الآية الكريمة، فإن هذا منهج قرآني رباني يلزم المسلم الالتزام بـــه، ولا سيما أهل العلم، لأهم ورثة الأنبياء، وكذا عامة الناس، فإهم دعاة في داخل منازلهم، وبين أصدقائهم، بقدر ما عندهم من العلم.

وهـــذه الصـــفات الـــتي تضمنتها الآية أساس في نجاح المربي والداعية والإداري والصـــديق والرئـــيس والمدير. بل أساس لنجاح الإنسان؛ أياً كانت دائرته التي هو فيها.

فـــالإنذار عـــن الشر وما يؤل بالإنسان إليه أمر مطلوب من الأب في منـــزله، والعامل في عمله، والمدير في إدارته، والصديق بين أصدقائه، ولا تستقيم أمور الجماعة المسلمة إلا بعملية الإنذار الدائمة المستمرة، التي لا تتوقف ما سار الإنسان وسعى، لأنه معرض للخطأ والغلط. والنصح أمر لا ينفك عنه أمر هذه الأمة على مستوى الأفراد والجماعات.

وتعظـــيم الـــرب جلّ جلاله من لوازم العبودية له سبحانه وتعالى على خلقـــه، وإذا عظّم المربي والداعية والإداري والصديق ربه عز وجل أثر ذلك في سلوكه وفي تعامله مع من يتعايش معهم، فإجلال الرب وتكبيره يدفعه إلى أن لا

---

(١) سورة المدثر: آية رقم (١ـــ٧)

يتعاظم على الناس، فالله هو الأكبر. كما يدفعه ذلك إلى تعظيم الرب فيما يقوم به من توجيه وإرشاد وإصدار أوامر، وتفويض صلاحيات، ومنح سلطات، فيعرف أنه مسؤول أمام الرب العظيم سبحانه وتعالى؛ الذي له الكبرياء في السماء والأرض، فإن استشعار (الله أكبر) في قلب المسلم تُعلمه دروس لا يستوعبها هذا الكتاب.

وتطهير الثياب في الآية الكريمة كما قال بعض أهل العلم، قد يقصد بها أعماله كلها، بتطهيرها وتخليصها، والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات والمنقصات، من شر ورياء ونفاق وعُجب وتكبر وغفلة وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عباداته، ويدخل في ذلك تطهير الثياب.[1]

وتطهير الثياب والنفس من الدنس والأرجاس والأحقاد والكبر والحسد ومنكرات الأخلاق أساس قوي في قبول توجيه المربي والداعية والمدير والمدرس، والزوج والأب، لأن النفس لا تتعلق بنصح الناصح إلا إذا كان أهلاً لذلك، ولا يكون الإنسان أهلاً لذلك إلا إذا كان طاهراً في عبادته من الشرك، وفي أخلاقه من الرذائل، وفي ملابسه من النجاسات والأقذار، فلا يرى العاقل قبولاً للتوجيه ممن عري من تلك الصفات، وهذا ليس خاص بالدعاة، بل لكل فردٍ في أي موقع كان من خارطة التعامل الواسعة.

وكذا يلزم أولئك المؤثرين وغيرهم من الناس هجر المبطلات الباطلات من الأوثان وكل ما يُتعلّق به من غير الله تعالى، فالذي يتعلق بالمخلوقين دون الخالق يظل منكسر الفؤاد لهم، يرضى برضاهم ويسخط بسخطهم، فتستحوذ عليه الأوهام والاضطرابات النفسية، نتيجة تعلقه بالمخلوق، فيرجو من المخلوق تحقيق الآمال ودفع الشرور والمضرات، ولا شك أن من أخذ بهذه الصفة أو

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/٣٣١)

بشيء منها ضعفت عزيمته، وقلت حيلته، ووهن تدبيره وتفكيره، وبالتالي كيف تُقبل توجيهاته الإدارية أو التربوية أو التعليمية أو الأسرية ؟ وهو الضعيف المنكسر أمام الضعفاء من الناس.

وإن البعد عن التمنن بما أسدى إلى الناس من معروف وإحسان، يُعتبر من مطالع عوامل التأثير، ومحبة الناس له، لأن من يتفضل على الناس بالخير والجاه، ثم يَمُنُّ عليهم بما صنع من معروف على سبيل التقريع، أو على سبيل التفضل عليهم؛ فإنهم يزهدون في معروفه، ويحملون له الحقد، والكراهية والبغضاء، وبالتالي لا يستجيبون له، ولا يتفاعلون مع توجيهاته، مهما بلغت من الصواب، لأن النفوس البشرية الفاضلة ترفض هذا السلوك وتأباه.

فإذا وجه المدير أو المربي أو الإداري أو الصديق أو الداعية المتصف بالمن، فلن يجد لتوجيهه أبواباً مفتوحة ونوافذ مُشرَّعة، فضلاً عن نهي الله تعالى عن هذا السلوك، قال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [1]

ثم من أقوى ما يتقوى به الناجح من المربين والمعلمين والموظفين والأصدقاء، وأصحاب المهن والأعمال هو الصبر؛ الذي تكفل الله تعالى بثوابه؛ في بشارة منه سبحانه تبارك وتعالى، حيث قال جلّ جلاله في كتابه

---

[1] سورة البقرة: آية رقم (٢٦٢ــ٢٦٤)

الكـــــــريم ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (١)

فالصديق الذي يصبر على جفوة الأصدقاء وزلاتهم يوفقه الله تعالى، بل وتنغرس له محبة في قلوب أصدقائه، وكذا المدير الذي يصبر على موظفيه وأعباء عمله، سيجد لذلك فرجاً وتدبيراً، وكذا الداعية والمربي، والرجل في بيته، والمرأة في دارها، والمدرس في فصله، والطالب مع معلميه ومدرسيه.

فهـــذه الآيـــات التي هي مطلع سورة المدثر عَلَّمت رسول الله ﷺ سُبُل تحقيق أهداف النبوة؛ التي هي أعظم التكاليف، فكيف إذا طبقها المرء في حياته، وفي أعماله التي لا ترقى إلى تكاليف أعمال النبوة، فكما حقق بها ﷺ نجاح دعوته فكذلك كل مسلم يستطيع أن يحقق بها النجاح في الخير.

إسلام الجن :

لقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشُهب كما جاء في الحديث، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم ؟ فقالوا: حِيل بيننا وبين خبر السماء، وأُرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فانصرف أُولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى الـــنبي ﷺ وهـــو بـــنخلة عامدين إلى سوق عكاظ؛ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجـــر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خـــبر الســـماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا: (يا قومنا إنا سمعنا قرآناً

---

(١) سورة البقرة: آية رقم (١٥٥-١٥٧)

عجــبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا) فأنزل الله على نبيه ﷺ (قل أوحي إليّ) وإنما أوحى إليه قولُ الجن.[1]

والجن كما قال تعالى عنهم في وصفهم لأنفسهم ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾[2] وقددا: أي ضروباً وأجناساً ومللا، قال الحسن والسدي: الجن مثلكم، فمنهم قدرية، ومرجئة، ورافضة.[3]

فلقد كان مبعثه ﷺ حدثاً وتغيراً كبيراً على الجن الذين قد شملتهم رسالة رســول الله ﷺ فقــد كانوا يسترقون السمع، وأصبحوا بعد بعثته عليه الصلاة والسلام يُرْمَون بالشهب الشديدة، فلا يستطيعون السمع إلى خبر السماء، فهذا حدث عظيم، ونبأ جسيم، فقالوا ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾[4]

فاستشعرت الجن هذا الأمر العظيم والجسيم، فأرسلوا مراسيلهم يجوبون الدنــيا لمعــرفة هذا الخبر العظيم، فوجدوا أن محمداً ﷺ قد بُعِث للإنس والجن، واستمعوا للقرآن العظيم، فعادوا إلى قومهم منذرينهم ومبشرينهم بما وجدوا من الحق والخير الذي جاء به ﷺ .

ولــئن تأثــرت الجن بهذا القرآن العظيم، وبهذه الرسالة العظيمة، وبهذا النبي الأمي الذي ما عُرِف عنه عيب يُعاب به قبل البعثة، فإنه لجدير بالإنسان أن يتعظ بذلك، ويستعظم بعثته ورسالته وما أنزل عليه، فليست الجن بأحسن حالاً مــنه. ولــئن تفرقــت الجن للبحث عن هذا الأمر العظيم، فإنه قد جاء لأرجاء المعمــورة بدون عناء من الإنس، وبالتالي ليست الجن بأحسن حالاً منهم. ولئن

---

[1] البخاري (١/٢٥٠ــ٢٥١) برقم (٧٧٣)

[2] سورة الجن: آية رقم (١١)

[3] ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/١٠٦)

[4] سورة الجن : آية رقم (١٠)

تفرقت الجن طرائق قددا، فليحذر الإنسان من هذا المسلك الشيطاني، والاختلاف والخروج عن النهج القويم، وليدرك أن هذا المسلك الْقِدَدِي هو مسلك شيطاني، قد عرفته الجن وسلكته.

كما أن شمولية الجن بهذه الرسالة العظيمة آية وعلامة ودليل بأنها رسالة شاملة للخير كله، فهو دين الله الحق العظيم.

وكما أن الجن بحثت عن الحقيقية، فإنه لجدير بالإنسان أن يبحث عن الحق ويتثبت؛ ويثبت عليه، فليست الجن بأحسن حالاً منه.

الجهر بالدعوة:

بعد مضي ثلاث سنين من الدعوة سراً، أمر الله تبارك وتعالى نبيه بأن يَصْدَع بهذا الأمر، معلناً إياه على رؤس الأشهاد، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) خرج رسول الله ﷺ حتى صَعِدَ إلى الصفا فهتف: يا صباحاه. فقالوا: من هذا ؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟ قالوا ما جربنا عليك كذبا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب: تباً لك، ما جمعتنا إلا لهذا ؟ ثم قام. فنزلت (تبت يدا أبي لهب وتب)[1]

فبهذه الآية العظيمة التي في مطلع الحديث تتأكد الأهمية العظيمة للتدرج والتهيئة في جوانب الحياة، وأن ثمرة الجهد البشري لا تتحقق في يوم وليلة على الغالب، بل تحتاج إلى الوقت الذي يُنْضِجُها؛ والجهد الذي يقوي مفاصلها، ويَشُدُّ عضدها، وهكذا يكون الداعية، وطالب الأرباح، والمعلم، والمربي، والإداري، والسياسي.

وبهذه الآية العظيمة وهذا النداء النبوي يُعلن رسول الله ﷺ أن الفئة المستضعفة والمتسترة بدين الله تعالى، قد أخذت منها التربية النبوية مأخذها

---

[1] البخاري (٣/٣٣٣) برقم (٤٩٧١)

القــوي، الــذي سيمكنها بإذن الله تعالى وتوفيقه بأن تصدع بهذا الأمر العظيم، الذي سيبلغ مشارق الأرض ومغاربها.

وللمســلم أن يــلحظ في أسلوبه ﷺ أنه بعد نداء القوم: يا صباحاه، بدأ بتقرير صــفاته؛ وبأســلوب نــبوي حكيم، إذ لم يُعدد مفردات أخلاقه، ولكن أثبت شهادتهم له على الملأ بمفردة خُلُقية واحدة، حيث قال ﷺ (أرأيتم إن أخبرتكم أن خــيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟ قالوا ما جربنا عليك كذبا.) وهــي تلــك الأخلاق العظيمة التي يُعْتَمَدُ عليها في قبول الأخبار، ثم بعد ذلك أخبرهم بالخبر العظيم، أنه رسول رب العالمين.

ولذلــك فــإن المعــلم والمــربي والداعــية والقائد في إدارته ومصنعه ومستشفاه، والرجل في أهله، والمرأة في دارها، يلزمهم الاتصاف بما يجعل أقوالهم مقبولة عند من يحيطون بهم؛ ويستفيدون منهم، فلابد من قناعة المتعلم والمستفيد بصــفات المعــلم أو المفيد، أياً كانت دائرة فائدته ومجالها. وبعد ذلك يأتي دوره التوجيهي. وعلى المفيد أن يَعْلَمْ أنه قد يجد من لا يقبل قوله ويرد توجيهه بأقبح الردود، فتلك دعوة الله تبارك وتعالى ورسول كريم قد ردها أبو لهب رداً قبيحاً استــحق بها سورة تذكر جزاءه ومآله. فليس المعلم أو القائد أو الداعية بأحسن مــن رســول الله ﷺ ولن يأتي أحد منهم بما هو خير مما جاء به رسول الله ﷺ . فالحــال إذاً هــو الاجتهاد؛ وترك التوفيق لله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦ ﴾ [١]

ولئن أبى ورفض أبو لهب الدخول في الإسلام؛ معلناً كبرياءه، فلقد دخل في دعوته ﷺ خلق كثير؛ أفراد وجماعات، حيث امتد ركب الداخلين في دين الله تعالى حدود أم القرى، مكة المكرمة.

---

[١] سورة القصص: آية رقم (٥٦)

أساليب الأذى والتصدي:

لم يــرق لــبعض المشــركين ترك ما ألفوه من الضلال والكفر، وهجر الــرذائل، بالــرغم مما سمعوه من القرآن الكريم، وصفاء الدعوة؛ وما حوته من مكارم الأخلاق، وصفاء التوحيد والإخلاص لله تبارك وتعالى، وترك كل معبود من حجر أو شجر أو صنم يُعبد من دون الله تعالى.

ولكــن هــناك دواعي أخرى جعلت بعض كبرائهم يقفون ضد دعوة رسول الله ﷺ والتي منها:

ـ اضمحلال مصالحهم الاجتماعية من السيادة التي يمارسونها في البيت العتيق.

ـ الحســد والكبرياء، كما قال أبو جهل: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الرُّكَب، وكــنا كفرســي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى نُدْرِكُ مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدا، ولا نصدقه.[1]

ـ خضوع الأسواق والركبان الذين يحملون البضائع ويتاجرون في رحلة الشتاء والصيف لقرارهم.

ـ حب الذات وزخرف الدنيا أدى إلى استشعارهم صعوبة التنازل عن السيادة للرسول ﷺ

فهــذه الأســباب غالــباً ما تحول بين المرء وسلوك مسلك الصالحين، خشية على الســيادة الموهومة، والمصالح التي مآلها للفراق، أو نتيجة الحسد والكبرياء، وكلها مجتمعة أو متفرقة من دواعي قطع الطرق الموصلة لمسلك الصراط المستقيم؛ المفضي إلى جنات الخلود.

وكل أحد خائف ومراع لمصالحه الباطلة فإنه ينحو عن جادة الطريق في التعلــيم والإدارة والدعــوة، وفي كــل شؤون الحياة، لأنه لا يعرف إلا تقديم مصلحته الخاصة على المصلحة العامة، والمصلحة العاجلة على الآجلة.

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (١/٣٣٧ـــ٣٣٨)

فصـــاحب المصلحة الوظيفية ينافح عن مكانه حتى ولو بإقصاء النجباء، وصـــاحب المال يصارع ويناطح الآخرين، وقد يسعى لإسقاطهم رغبة في التفرد والإنفـــراد. وصاحب الجاه ينافح ويضاد أولي الألباب من أهل الكياسة والفطانة خشية على جاهه.

فالتربـــية الصحيحة هي التي تُجَسِّد الروح الإسلامية في أفراد الأمة وتجنبهم مزالق الهوى والفكر الرديء من خلال الوالدين والإخوة والمدرسة والمسجد والإعلام.

ولهـــذه الأسباب اتخذ المشركون أساليب عديدة لمقارعة رسول الله ﷺ والتصدي له ولمن دخل في دينه، ومن تلك الأساليب:

١ــ إلصاق التهم والنعت السيئ:

من الأساليب التي استخدمها المشركون التثبيط والإحباط من شأن رسول الله ﷺ مـــن خلال: النعوت والصفات والتهم السيئة الباطلة، التي تدفع الآخرين للتشكيك وعدم التصديق، لما لمزوه من صفات جارحة لعدالة الإنسان، فقالوا عنه ﷺ ساحر ومجنون، وكاهن، وكذاب، وقد رد الله تعالى عليهم، وأبطل زعمهم وبهتانهم عن نبيه ﷺ قال تعالى ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝١١ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ۝١٥﴾[١]

وأجابهم الله بقوله ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾[٢]

---

[١] سورة الحجر: آيات رقم (٦ــ١٥)

[٢] سورة القلم: آية رقم (٢)

وقال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾[1]
وقال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ
ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ ﴾[2] وقال تعالى عن رسوله ﷺ ﴿ فَلَآ
أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ
لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم
بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ
شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾[3] وقال تعالى ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾
إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا
تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ
بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾[4]

لقد استخدم أهل الكفر والضلال مع رسول الله ﷺ أرذل الصفات وأسوء النُعُوت وأقبحها، ولكن رسول الله ﷺ وأصحابه الطيبين لم يقابلوا ذلك بالوهن والتأافف والتخاذل، بل صبروا على ذلك الأذى المعنوي في شجاعة قد غذاها الإيمان والتصديق، فبين الله تعالى في القرآن الكريم بطلان تلك الاتهامات، لتكون قرآناً يُتلى إلى يوم الدين.

فهذا نبي الله يتعرض للأذى المعنوي، بما فيه من القوة والشدة ووخز العرض بأمضى السيوف، وهي الكلمة الجارحة، فكيف بمن هو دونه ﷺ من أهل

---

[1] سورة الفرقان: آية رقم (٨)

[2] سورة الفرقان: آية رقم (٤)

[3] سورة التكوير: آيات رقم (١٥ـــ٢٥)

[4] سورة الحاقة: آيات رقم (٢٨ـــ٣٨)

الصلاح والتقى؛ ألا يتعرضون إلى اللمز والتجريح والتشكيك في إخلاصهم ونواياهم، وقد يُوصفون بأنهم أولي أطماع.

فمن كان رسول الله ﷺ قدوته فلينهج نهجه وسيرته من الصبر على أهل الأذى والطغيان، من باب الإشفاق عليهم، فلعلهم يَفِيقُون من سكرة غيهم وطيشهم فيرشدون، لأن الهدف ليس هو الانتصار عليهم، بل الهدف هو إصلاحهم وإدخالهم في باب الخير والفلاح.

إن هذا الأسلوب لا يقتصر على أعداء الدعوة الإسلامية فقط، بل إنه أسلوب يستخدمه الحاقدون والحاسدون في جميع دوائر الخير ومجالاته، فصاحب الرأي السديد في إدارته، والمعلم الناجح في مدرسته ومعهده وجامعته، والصديق بين أصدقائه وجلسائه قد يجد من يرميه بالكلام الجارح والصفات السيئة، بُغْيَة تثبيطه وتنفير الناس عنه، ولكن بالصبر الجميل كما صبر رسول الله ﷺ يظهر ويعلو على الحاقدين والحاسدين.

وإن المنهج التربوي الناجح هو الذي يُذْكي في أتباعه الصبر على الأذى كما صبر رسول الله ﷺ وأتباعه من أصحابه الميامين ومن اقتفى أثرهم من بعدهم.

ومن أمثلة الأذى النفسي الذي تعرض له أصحاب رسول الله ﷺ ما واجهه سعد بن أبي وقاص ﷺ إذ يقول: (حَلَفَتْ أم سعد أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب. قالت: زعمتَ أن الله وصاكَ بوالديك وأنا أمك، وأنا آمرك بهذا، قال: مكثتْ ثلاثاً حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها، يقال له: عمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد)[1]

---

[1] مسلم (١٨٧٧/٤) برقم (١٧٤٨)

فهـــذا نوع من الإيذاء المعنوي الذي واجهه سعد بن أبي وقاص ﷺ من والدتـــه، وإنه لأمر وابتلاء عظيم يواجهه من أمه بحرق فؤاده مما يراه عليها من الامتناع عن الطعام حتى غشي عليها، ولكنه صبر أمام ذلك الإيذاء.

٢ــ الإيذاء الجسدي :

ومـــن ألـــوان الأذى الـــتي تعرض لها رسول الله ﷺ وأصحابه الإيذاء الجسدي في صور متعددة، فلم يزدهم ذلك إلا إيماناً وتسليماً، وتضحية، وصبراً، فعـــن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: (بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، وجمع قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي ؟ أيكم يقوم إلى جَزورِ آل فلان فَيَعْمِدُ إلى فَرْثِها ودمها وسلاها فيجئ به، ثم يُمْهِلُه حتى إذا ســـجد وضعه بين كتفيه ؟ فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بـــين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجداً، فضحكوا حتى مال بعضهم من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة عليها السلام ــ وهي جويرية ــ فأقبلت تسعى، وثبت النبي ﷺ ساجداً حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تَسُبُّهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش. ثم سَـــمَّى : اللهم عليك بعمرو بن هشام وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بـــن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي مُعَيْط، وعمارة بن الوليد، قال عبدالله: فـــوالله لقـــد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر، ثم قال رسول الله ﷺ: وأُتبِع أصحاب القليب لعنة)[1]

إنهـــا صـــورة مخزية لأهل الكفر والضلال، حتى أنهم يتمايلون ضحكاً وســـخرية مـــن صـــنيعهم اللعين، الذي كدروا به صفاء كل مسلم يتذكر هذا الموقف العصيب لنبي الرحمة والهدى ﷺ ولكنه عليه الصلاة والسلام ثبت ساجداً حـــتى أتـــته ابنـــته فاطمة رضي الله تعالى عنها، وهي جويرية، وكأني بها في ألم

---

(١) البخاري (١/١٨٠ــــ١٨١) برقم (٥٢٠)

وحسرة مما أصاب والدها ونبيها وحبيبها محمداً ﷺ ولكنه الكرب الذي بعده النصر والعزة والسؤدد، فاستحقوا اللعن منه ﷺ فأصابتهم دعوة النبي المظلوم، فأصبحوا صرعى يُسحبون إلى القليب، قليب بدر. فهكذا تكون نهاية المجرمين الذين لا يتعظون ولا يفكرون في مغبة الظلم والجبروت.

ويعطي هذا الموقف دروساً يلزم أن يتربى عليها المجتمع المسلم؛ من هجرٍ للظلم والتمرد على الحق، والطغيان في حق كل من يتم التعامل معهم، فليس للطغيان صورة واحدة، متمثلة في ذلك الموقف القاسي، بل قد يكون في صور أخرى، في ظلم الجار لجاره، والأخ لأخيه، والقريب لقريبه، والصديق لصديقه، والزوج لزوجته، والزوجة لزوجها، والعامل مع صاحب العمل، وصاحب العمل مع عامله، والمعلم مع طلابه، والطلاب مع معلميهم، والمدير مع موظفيه، فدعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، فقد قال رسول الله ﷺ (واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب) [1]

إن احتقار الآخرين ظلم لهم، وأن منعهم حقوقهم المعنوية أو المادية ظلم لهم، قال تعالى ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝١٨٣﴾ [2] فلا يحق للمستأجر أن يبخس حق المؤجر، ولا المؤجر حقوق المستأجر، ولا البائع حق المشتري، ولا المشتري حق البائع، ولا الرئيس حق المرؤوس ولا المرؤوس حق الرئيس، ويقاس على ذلك. فإنه دين الرحمة ونبي الرحمة.

ولقد مس مشركي مكة الجوع والجهد والبلاء بدعاء الرسول ﷺ لعلهم يرجعون إلى الصواب والحق، قال عبدالله بن العباس رضي الله عنهما: (أن قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من

---

[1] البخاري (١/٤٦٣ــ٤٦٤) برقم (١٤٩٦)

[2] سورة الشعراء: آية رقم (١٨٣)

الجهـــد، وحتى أكلوا العظام، فأتى النبيَ رجلُ فقال: يا رسول الله ! استغفر الله لمضر، فإنهم قد هلكوا، فقال: لمضر ؟ إنك لجرئ، قال: فدعا الله لهم، فأنزل الله عزَّ وجل﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [1] قال: فَمُطِروا. فلما أصابتهم الرفاهـــية، قال: عادوا إلى ما كانوا عليه، قال: فأنزل الله عزَّ وجل (فارتقب يوم تـــأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم)[2] (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) [3] قال: يعني يوم بدر)[4]

ودعوتـــه علـــيهم ﷺ بسبب تكذيبهم إياه؛ واستعصائهم على الإيمان، ولـــيس بســـبب إيذائهم له، فطالما احتمل أذاهم، ولم يدع عليهم، بل دعا لهم بالهداية[5]

ويلاحظ أن الرسول ﷺ لم يدع عليهم بالهلاك الكلي من رحمته وشفقته، ولكن دعا عليهم بما يجعلهم يتضرعون فيرجعون لرشدهم، ويتوبون إلى الله تعالى، فاستعمال العقوبة للتأديب، مثل الهجر ومنع العون والمساعدة رجاء أن يستجيب أهل الباطل ويُذعنون للحق، وفي هذا الدعاء الذي ذكرته رواية ابن عباس رضي الله عـــنهما دليل على رحمته وشفقته وصبره ﷺ وهو ما عُرِف عنه طيلة حياته؛ وفي وصاياه وأقواله وأفعاله وتقريراته عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وفي هـــذا الموقف ما يدل على أن من كفر منهم ولم يؤمن إنما كان ذلك بســـبب الكبر والحسد واتباع سبيل الشيطان الرجيم، حتى إذا كشف الله عنهم ما أصابهم وحلت عليهم الرفاهية عادوا إلى ما كانوا عليه، وهكذا المتمردون في كل وقت وحين.

---

[1] سورة الدخان: آية رقم (١٥)

[2] سورة الدخان: آية رقم (١٥)

[3] سورة الدخان : آية رقم (١٨)

[4] مسلم (٢١٥٦/٤ــــ٢١٥٧) برقم (٤٠ـــــ ٢٧٩٨)

[5] أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص (١٤٩ـــــ١٥٠)

فالعاقل إذا مسه الله تعالى بضر، يلجأ إلى الله تعالى ويتفقد نفسه وأحواله، ويُصلحها، وإذا عادت إليه الرفاهية والنعمة، فلا ينكص كما هو فعل الجاحدين الكافرين المارقين، فكم من نعم تُصيب الإنسان بعد بلاء وجهد، فينسى ما كان فيه من بلاء فيبطر ويتكبر. قال تعالى ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (١)

فهذا مسلك الإنسان إذا أذاقه الله تعالى نعمة منه ثم نزعها أصابه اليأس والقنوط، ولئن أذاقه نعمة بعد ضراء وابتلاء أصابه الفرح والفخر والخيلاء، ويسلم من ذلك: الذين يصبرون على البلاء في حالة المصيبة، والذين يعملون الصالحات في حال الرخاء والنعمة، فهؤلاء لهم مغفرة من الله تعالى ولهم أجر عظيم من الرب تبارك وتعالى.

ومن صور الإيذاء ما ذكره عبدالله بن عمرو بن العاص حين سأله عروة بن الزبير: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ فقال: (بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي مُعَيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر، فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ وقال: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم)) (٢)

إن هذا النوع من الأذى يصيب رسول الله ﷺ وهو صابر على قومه، يتحمل أذاهم، دون أن يقاومهم، فتشتد الفرقة، ويتسع بُعْدُهم عن القبول والدخول في الإسلام، وإنها لتصرفات رسول حكيم رؤوف في دعوته، ينتصر لها ولا ينتصر لنفسه، وإن من عوامل الانتصار للرسالة الصبر والحلم.

---

(١) سورة هود: آية رقم (٩ــــ ١١)

(٢) البخاري (٢٨٦/٣) برقم (٤٨١٥)

وإنـــه ليجدر بالإنسان المسلم أن يصبر في دعوته على الأذى أياً كانت درجـــته ونوعه، ولا يقابل ذلك بالإيذاء والاعتداء، وإزهاق الأنفس، والتدمير الغاشـــم الذي لا يفرق بين الحق والباطل، فلم يعمد رسول الله ﷺ إلى القتل أو التنكـــيل والتعذيب والتدمير، وإنما يصبر ويَحْلِم على تصرفات الأعداء، لأنه لا يريد الانتصار لنفسه، وإنما كان مشفقاً على البشرية، يرجو رحمتهم بدخولهم في دين الله تعالى، حتى في دعائه، كما مر بنا، أنه لم يدعو عليهم بالهلاك الكلي، وإنما دعـــا بما يجعلهم يعودون إلى رهم، وذلك أن تصيبهم سنين كسني يوسف عليه السلام.

ولقـــد بلغ من أذاهم أن تواعدوا على قتله ﷺ فعن ابن عباس رضي الله عـــنهما، قـــال: (إن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاقدوا باللات والعزى ومـــنات الثالـــثة الأخرى ونائلة واساف، لو قد رأينا محمداً لقمنا إليه قيام رجل واحـــد، فلم نفارقه حتى نقتله، فأقبلت ابنته فاطمة رضي الله تعالى عنها تبكي، حتى دخلت على رسول الله ﷺ فقالت: هؤلاء الملأ من قريش قد تعاقدوا عليك، لو قد رأوك، لقد قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبهم من دمك، فقال: يا بنية أريني وضوأ فتوضأ ثم دخل عليهم المسجد، فلما رأوه قالوا: ها هو ذا وخفضوا أبصارهم وسقطت أذقاهم في صدورهم وعقروا في مجالسهم فلم يرفعوا إليه بصرا، ولم يقم إليه منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوســـهم فأخذ قبضة من التراب، فقال: شاهت الوجوه، حتى حصبهم بها، فما أصاب رجلاً منهم من ذلك الحصى حصاة إلا قُتِلَ يوم بدر كافراً)[1]

فهكـــذا سولت لأولئك الملأ أنفسهم بالتعاقد والتعاهد على قتل رسول الله ﷺ ولكن حماية الله تعالى لنبيه ونصرته له، وعِصْمَتُه له منهم منعته من ذلك،

[1] أحمد، المسند (١/٢٠٢)

بــل أذاق أولـئك النفر الخزي يوم بدر، ونكصوا على رؤوسهم قبل ذلك بعد تعاقدهم على قتله ﷺ فهذا نصر الله لمن انتصر لله وبالله تعالى.

٣ــ إيذاء المشركين للصحابة:

لقد شمل الأذى الداخلين في دين الله تعالى، حيث امتد الأذى لأصحاب رسول الله ﷺ فاستضعف الضعفاء، وبُطِشَ بهم، وعُذِّبُوا ، فعن عبدالله بن مسعود ﷺ قــال :(أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعمار وأمه سمــية، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان وأخذوا يطوفون به شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد) [(١)]

فهكــذا يُعطينا ابن مسعود ﷺ عند سرده للإيذاء درساً في التوحيد، إذ يُوكل المنعة لله سبحانه وتعالى بعمه أبي طالب، فيقول: (منعه الله بعمه) فلم يعمد للأســباب، فــيقول مــنعه عمه، وإنما جعل الأسباب جند من جنود الله تعالى، وكذلك عندما ذكر أبي بكر الصديق ﷺ فقال: (منعه الله بقومه).

ثم هــذا بلال بن رباح الحبشي ﷺ يُقدم الآخرة على الدنيا ولذائذها، وهــو لم يعرف بعد الكثير من تفاصيل الإسلام التي نزل بها جبريل خلال ثلاث وعشرين سنة. فيتصدى لأذى قومه بتوحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصــفاته، فيقول: أحد أحد، لِيَدُلَ بها على أن الله تعالى هو الواحد الأحد؛ ولا معبود سواه، ولا رب غيره، هو الواحد الأحد.

لقــد كان بلال ﷺ صادق الإسلام، طاهر القلب، وكان أمية بن خلف بن وهب يُخــرِجُه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة

---

(١) أحمد، المسند، (١/٤٠٤)

فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد. [1]

فلم يزعزعه ﷺ الأذى وحرارة الشمس التي يُمَرَّغُ عليها جَسَدُه، ولا طواف الصبيان به في شعاب مكة، وبين بيوتها، لم ينظر إلى رؤية النساء له، ولا الصبية ولا علية القوم، وإنما نظر إلى طاعة الله تعالى، وإلى الآخرة وما فيها من نعيم مقيم، وكم يُقَدِّم المسلمون اليوم ألواناً من التقاعس عن أداء العبادات والواجبات وكثيرٍ من السنن التي لا يعاتبهم عليها أحد، ولا يثنيهم عن القيام بها إنسان ولا قوة، فكيف لو كان هناك من يُجالدهم عليها ؟

إن بلال بن رباح ﷺ يقدم لنا أنموذجاً ونصيحة حية تُدوي في أرجاء المعمورة منذ ألف وخمسمائة سنة تقريباً، فذهب بلال وأبقى لنا سيرته العطرة ﷺ

فهذا بلال قد امتدت له رحمة الله تعالى بعبده أبي بكر الصديق ﷺ ليسجل في صحائف المسلمين الأوائل النصرة لله تعالى؛ من خلال نصرة إخوانه المستضعفين في الأرض، فيشتري بلالاً من أمية؛ ثم يعتقه من ذلك التعذيب المهين والاستعباد المقيت إلى حرية الدين وعبودية الله تعالى، قال عمر ﷺ (أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا، يعني بلال) [2] وقالت عائشة ﷺ (أعتق أبو بكر ﷺ سبعة ممن كان يُعذب في الله عزَّ وجل، منهم بلال وعامر بن فهيرة) [3]

وممن ذاق ألوان العذاب من كفار قريش آل ياسر ـــ رضي الله تعالى عنهم ـــ فقد كان بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه، وكانوا أهل بيت إسلام، إذا حميت الظهيرة؛ يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله ﷺ

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (١/٣٣٩ـــ٣٤٠)

[2] الحاكم، المستدرك (٣/٢٨٤)

[3] المرجع السابق (٣/٢٨٤)

فيقول: صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة، فأما أمه فقتلوها، وهي تأبى إلا الإسلام.[1]

لقد قدمت هذه الأسرة أنموذجاً في الصبر على بلاء التعذيب والنكاية، فكيف بمن لا يصبر على ابتلاء الدنيا في المال والولد والمرض والقلة والفاقة، إنها جميعاً تهون أمام التعذيب البغيض الذي يرى فيه عمار بن ياسر أمه وهي تُعَذَّب أمامه، ووالده الذي يمثل أصله وعِرْضَهُ يُعَذَّب بين يديه وأمام بصره، أو ذلك الابن ياسر وهو يُعَذَّب بالرمضاء أمام أبويه، فينظران إليه في شفقة ورحمة، ولكن كل ذلك لم يثنيهم عن الصبر من أجل دينهم.

إنها الأسرة النموذجية في الصبر والفداء، ولكن لتلك الكلمات العطرة من رسول الله ﷺ والبشارة الكريمة بالجنة (أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة) إنها لتذكو في نفوسهم مشاعل الخير والصبر، والنظرة الطويلة الثاقبة إلى ما بعد هذه الدنيا.

ولكم نحتاج إلى دراسة وقراءة هذه النماذج المؤمنة التي تعطينا الدروس والعبر فيما يجب أن يكون عليه المسلم، فلئن صبروا على الأذى فكيف بمن لا يصبر على الطاعة في غير أذى، إلا أن الصدود عنها أو التكاسل فيها بسبب اتباع الهوى وحب الراحة والدعة.

وممن لقي التعذيب والتنكيل خباب بن الأرَت ﷺ حتى أنه يأتي إلى رسول الله ﷺ ويشكو إليه ما يجده، حيث يقول (شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ قال: كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيُجعل فيه، فيُجاء بالميشار فيوضع فوق رأسه فينشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله لَيُتَّمنَّ هذا الأمر،

[1] ابن هشام، السيرة النبوية ((١/٣٤٢)

حـــتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[1]

فمـــا شـــكوى خباب وأصحابه إلا لبلوغ العذاب مبلغاً لا يستطيعون الصبر عليه، حتى بلغت آثاره في ظهره علامة قد ارتسمت، فقد جاء خباب إلى عمـــر فقال: أدن، فما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا عمار، فجعل خباب يُريه آثاراً بظهره مما عذبه المشركون)[2]

فـــيلاحظ في الحديـــث الأول الشـــكوى إلى رسول الله ﷺ ليدعو لهم، ويسأل الله تعالى لهم الخلاص، فلم يذهبوا للماديات والالتجاء إليها، وإنما ذهبوا إلى رســـول الله ﷺ ليدعو ربه عزّ وجل، فسبحانه وتعالى هو كاشف الكربات، وهـــو مزيل الملمات، فيعمد رسول الله ﷺ إلى التذكير لشحذ الهمم حتى يصبروا عـــلى ما أصابهم، من خلال عرض النماذج السابقة، وما كانوا يجدونه من أذى تتمزق به الأجساد بمناشير وأمشاط، فلا يردهم ذلك عن دينهم، ثم يؤكد لهم أن هـــذه مرحلة ستنتهي بإذن الله تعالى، حتى أن أمر هذا الدين سيبلغ أثره الأمني نتيجة دخول الناس في دين الله تعالى وتمسكهم به، أن يبلغ الأمن ذروته، فيخرج الرجل لا يخاف إلا الله تعالى أو الذئب على غنمه، وليس ذلك في مكة فقط، بل ســـيبلغ أبعد من ذلك، من صنعاء إلى حضرموت، فهي إشارة إلى اللبيب خباب بـــن الأرَت وإخوانه المستضعفين، بأن هذا البلاء سينتهي، وسيكون بعده رخاء وعـــزة ومـــنعة وأمن وأمان. وفي الحديث بيان وصول الإسلام إلى نهاية جنوب جزيرة العرب.

وفي هذا الحديث دليل على أن الإسلام إذا تمسك به المسلمون فإنه يحقق لهم الأمن والرخاء.

---

[1] البخاري (٢/٥٣١) برقم (٣٦١٢)

[2] ابن ماجه، (١/٥٤) برقم (١٥٣)

ثم يظهـــر مـــن موقف عمر بن الخطاب في الحديث الثاني إنزال الناس منازلهم، وأن مكانة خباب عظيمة ورفيعة عند عمر، وأن هذا المجلس لا يتقدم فيه إلا عمار بن ياسر، نتيجة ما وجدوه من البلاء والعذاب.

فلقد كان عمر ﷺ كريماً في خُلُقه، وحكيماً في رأيه، ومرشداً للناس في الخـــير والآداب، فيجـــب إنزال الناس منازلهم، وليس في ذلك إلا إحقاق الحق لأهل الحق، فكيف بمن يقلل من مكانة أهل التقى والعلم، ويُقَدِّم عليهم مَنْ هُمْ دونهم من أهل المال واليسار والمناصب.

ثم هذا خباب يُظهر ما وجده من التعذيب والتنكيل، فيكشف عن ظهره لمـــزيد مـــن الإيضاح عن ما لقيه؛ مما يدل على إظهار الفضائل أو الخصائص إذا خفيـــت، فلله درك يا عمر في معرفة منازل الناس وحفظ حقوقهم، ولله درك يا خـــباب في كل فعل فعلته للإسلام. رضي الله تعالى عنهم أجمعين، فقد استحقيتم الصحبة وقدمتم التضحية والأنموذج الأمثل لمن بعدكم.

فهكذا طال التعذيب الداخلين في الإسلام، إلا من كانت له منعة من الله بقومـــه، مما يدل على أن المنعة قد تكون نتيجة القوة أو التظافر والتكاثر، وهو درس عظـــيم في أن ممَّـــا يصد عن الأمة أعداءها التكاتف والتعاضد، وحمايتهم لـــرعاياهم ولأوطانهم أينما بَعُدَت، فإن في ذلك منعة وعزة، تتقوى بها الأمة أمام أعدائهـــا، ولا خير في كثرة ليس فيها قوة ولا منعة، قال ﷺ (يوشك أن تتداعى علـــيكم الأمـــم من كل أفق، كما تتداعى الأكلة على قصعتها، قال: قلنا: يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ ؟ قال: أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء الســـيل، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن، قال: قلنا: وما الوهن ؟ قال: حب الحياة وكراهية الموت)[1]

---

[1] أحمد، المسند (٥/٢٧٨).

فكيف إذا أضيف إلى تفرق الأمة وتشتت آرائها ومرادها ذلك الوهن الذي تستعلي فيه محبة الدنيا وحب البقاء فيها، وتقديمها على الآخرة ونعيمها، وما يتبع ذلك من الرضا بالملذات وحطام الدنيا، وكل يقول نفسي نفسي وملذاتها، فلا ينظر الأخ لأخيه، ولا يتفقد القريب قريبه، ولا يُرَاعَى حق العالم والكبير والسلطان والسيد في قومه، ولا تراعى حقوق الولاة، ولا يراعي الولاة حقوق رعاياهم.

المفاوضات وأنواعها:

لقد تتابع تصدي المشركين لرسالة رب العالمين التي جاء بها رسوله الأمين ﷺ بأساليب مختلفة، ظناً منهم أنها تجدي في التصدي لرسالة الله تعالى إلى خلقه، وبالرغم من أنها أخذت صوراً متعددة من الأذى النفسي والمعنوي والمادي إلا أنها أيضاً سلكت مسلك المفاوضات الممتلئ بالتصدي السافر، الذي لا يعرف إلا نظرة إحقاق الباطل، وإبطال الحق، فأخذت الأساليب التالية:

١ـ التفاوض مع عمه أبي طالب:

فعن عقيل بن أبي طالب قال: لقد جاءت قريش إلى أبي طالب، فقالوا: إن ابن أخيك يؤذينا في نادينا، وفي مجلسنا، فانهه عن أذانا، فقال: يا عقيل ائت محمداً، قال: فانطلقت إليه، فأخرجته من جلس، قال طلحة: نبتة صغيرة، فجاء في الظهر، من شدة الحر، فجعل يطلب الفيء، يمشي فيه من شدة الرمضاء، فأتيناهم، فقال أبو طالب: إن بني عمك زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم وفي مجلسهم، فانته عن ذلك، فحلّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: ما ترون هذه الشمس ؟ قالوا: نعم، قال: ما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تشعلوا منها شعلة، ، فقال أبو طالب: إن بني عمك زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم وفي مجلسهم، فانته عن ذلك، فحلّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: ما ترون هذه الشمس ؟ قالوا: نعم، قال: ما أنا بأقدر على أن أدع ذلك

مـــنكم عـــلى أن تشعلوا منها شعلة، فقال أبو طالب: ما كَذَبَنَا ابن أخي قط، فارجعوا.)[1]

لقـــد اعتـــبر كفـــار قريش دعوة رسول الله ﷺ أذى يصل إلى ناديهم ومجلسهم، فَقَلَبوا الحق باطلاً، والباطل حقاً، فلم يكن رسول الله ﷺ يُكْرِه الناس على أن يكونوا مؤمنين، بل كان يُعلن التوحيد ونبذ الشرك لمن شاء أن يستقيم؛ ويـــأخذ بهذه العروة الناجية. فكان هذا التفاوض مع عمه أبي طالب الذي جعله الله تعالى سنداً له وقوة . فلم يأخذ أبو طالب بكلام من جاءه من المشركين حتى سمع كلام رسول الله ﷺ وجوابه، وبالرغم من أنهم كُثُر، ولكنه لم ينظر لكثرتهم ، وتظلمهم حتى سمع من ابن أخيه، فلما سمع منه العزم والتأكيد على هذا الأمر، وأنه ماض فيه ولا رجعة عنه ، أعلن أبو طالب مؤكداً بما عُرف عن محمد ﷺ من الصدق النافي للكذب، فكان مفهومه منطوقه ، أن لا عُدُول عن ما جاء به ﷺ.

إن هـــذه الـــنظرة من عمه أبي طالب والمبنية على الدليل الراجح، بأن محمـــداً ﷺ لم يُعرف عنه الكذب، لتؤكد الأهمية البالغة للسلوك السابق للداعية والمربي والمسؤول أياً كان موقعه، ليجد من يؤازره ويشد عضده لما عُرِف عنه من سيرته العطرة، ونزاهته واستقامته.

ولقد كان الحزم في الموقف من رسول الله ﷺ بما لا يدع مجالاً للمساومة في الدين مهما كانت الظروف المواتية والمحدقة، وفي هذا درس عظيم بأنه يجب أن لا يتنازل المسلم عن دينه لأعداء الله تعالى، مهما كانت الأمور المحدقة بالإنسان، وأنه ليس في التنازل حكمة البتة، إذ لو كان فيها شيء من الحكمة لصنعه رسول الله ﷺ في ذلك الوقت العصيب الذي تمر به الأمة القليلة المستضعفة.

---

[1] الحاكم، المستدرك (٥٧٧/٣)

٢ــ مفاوضات عتبة بن ربيعة:

لقــد عَــرَض عتبة بن ربيعة على قومه من كفار قريش أن يذهب إلى رســول الله ﷺ ويفاوضــه في أمور؛ لعله يقبل شيئاً منها، فَلَقِيَتْ فكرته تأييداً فقالوا: قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخــي إنــك منا حيث قد علمت من السِّطة[1] في العشيرة، والمكان في النسب، وإنــك قــد أتيت قومك بأمر عظيم، فرَّقت به جماعتهم، وسَفَّهتَ به أحلامهم، وَعِبْــتَ به آلهتهم ودينهم، وكَفَّرْتَ به من مضى من أبائهم، فاسمع مني أعرض علــيك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الولــيد، أسمــع. قال: يا ابن أخي ! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا لأمر مــالاً، جمعــنا لــك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً؛ سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً، ملكناك علينا، وإن كــان هــذا الــذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، أو كما قال له. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يسمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال: أفعل، فقال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾[2] ثم مضــى رســول الله ﷺ فــيها يقــرؤها علــيه، فلما سمعها منه عُتْبَة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: قد سمعــت يا أبا الوليد ما سمعت وأنت وذاك. فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم

---

[1] السِّطة: الشرف.

[2] سورة فصلت: الآيات (١ــ٥)

لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكوناً لقوله الذي سمعتُ منه نبأ عظيم، فإن تُصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعِزُّه عِزُّكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.(١)

لقد استخدم مشركوا قريش في هذه المفاوضات مغريات عِظَام، ينكسر أمامها ذووا المطالب الدنيوية، من أصحاب الهوى والماديات، والباحثون عن المكانة الاجتماعية على حساب القيم والمبادئ. ولكن نبوة رسول الله ﷺ وصِدْقَه تُقدم لهم دروساً وعظات، بأن هذا الأمر أكبر من هذه العروض وهذه المغريات مجتمعة، إنها رسالة رب العالمين التي ينبغي أن يسلك منهجها كل مسلم على وجه البسيطة، بأن لا يقدم عَرَضاً من أعراض الدنيا الزائلة على دينه، فيقبل الرشوة، والمحاباة للقريب على حساب العدل والأمانة، واختلاس الأموال العامة، واستثمار المناصب الإدارية والمكانة الاجتماعية لحفظ لذائذها ومفاتنها وبريقها على حساب الدين، وما تضمنه من وجوب العدل والأمانة والإخلاص وتقديم الأكفأ في الترقية وفي تولي المناصب. وكذلك أمانة المعلم في أداء دروسه ومهامه التربوية، وعدم تضييعها وتضييع أوقاته بما يحقق له المكاسب المادية على حساب ذلك الدور العلمي والتربوي الذي يضطلع به في أمته المسلمة. وهو أقرب فيما يقوم به من عمل تعليمي تربوي بعمل الأنبياء والمرسلين.

ولقد استخدم عتبة بن ربيعة مقدمة جذابة في عرضه على رسول الله ﷺ مبيناً منزلة الرسول ﷺ عند قومه ومكانته العالية، ومحاولة استعطاف الرسول ﷺ

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/٣١٣–٣١٤)

ولكـــنه علـــيه الصلاة والسلام الرسول الأمين، الذي لم يغتر بذلك الأسلوب ومضـــامينه، الأمر الذي يجب أن لا يغتر بمثله مسلم، فالمسلمون أمناء على هذا الدين، ووسيلة التنميق وزخرف القول والإغراءات تظهر في المواقف المختلفة.

ولم يقاطعـــه رسول الله ﷺ بالرغم من أن مطلع عرضه يدل على أنه لن يقـــبل شيئاً من ذلك البتة، بل كان أسلوبه ينم عن فضله وأدبه الجم ﷺ فتركه يسترســـل في كلامـــه حتى أتمه. وكثير من الناس اليوم لا يأخذون بهذا الأدب العظـــيم، فـــيقاطعون المتحدث وإن كان زميلاً، أو صاحب علم وقَدْرٍ ومكانة، فكيف لو كان عدواً ؟ فعليك صلاة الله وسلامه يا رسول الله. ففي كل لحظة من لحظات حياة رسول الله ﷺ دروس وعبر، فقد كناه ﷺ : (يا أبا الوليد.) ثم يقول لـــه: (أقد فرغت يا أبا الوليد ؟) فهو سؤال يدل على أدب الحديث الذي كان يتخلق به ﷺ حتى مع أعدائه، فعدم رضاه بتلك العروض لم يدفعه إلى الإساءة في المحادثة مع ذلك الكافر.

وعـــندما انـــتهى إلى السجدة سجد، ولم يمنعه حديثه مع الرجل أن لا يســـجد، بـــل أدى ما ينبغي أن يؤديه لربه سبحانه وتعالى كما ينبغي. وكم من الـــناس يتناســـى بعض العبادات لوجود بعض الناس عنده، فيؤخرها عن وقتها مجاراة لهم.

ثم يـــبين المقطع الأخير من محادثة عتبة لقومه التأثر الواضح بما سمع من كـــلام رب العـــالمين، فوصفه وصفاً رائعاً وعميقاً في معناه ودلالاته، إلا أن هذا الأمر لا يرضى به كفار قريش لتقديمها الهوى والباطل على الحق.

٣ـ المطالبة بالمعجزات:

لقـــد عمـــد كفار قريش إلى أسلوب آخر من المفاوضات، وهو المطالبة بالمعجـــزات، فقـــد قالت قريش للنبي ﷺ : أدع ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، ونؤمـــن بك، قال: أتفعلون ؟ قالوا: نعم. فدعا، فأتاه جبريل، فقال: إن الله يقرأ

عليك السلام، ويقول: إن شئت أَصْبَحَ الصفا ذهباً، فمن كفر بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة، قال: بل باب التوبة والرحمة)[1]

إنه سؤال عظيم، ورحمة من رب عظيم، وترجيح واختيار من رسول رحيم عظيم، فلقد اختار ﷺ أبواب التوبة والرحمة التي لو أغلقت لهلك كثير من الناس، لعدم عصمتهم، وحاجتهم وافتقارهم لرحمة الله تعالى. وهكذا يكون المعلم والمربي، والوالد والمسؤول، يختار لمن هم تحت مسؤوليته ما يجلب لهم الخير والصلاح والفلاح، وأن يصبر عليهم، ولا يكن غاشاً لهم، أو يجلب لهم العاجل الفاني مما يرضون به، ويترك الخير الباقي مما يجهلون به، رغبة في استمالة عواطفهم لأمور وقتية، فإنها معادلة يتحراها ذووا الألباب من المؤمنين الصادقين في أداء مسؤولياتهم المناطة بهم: تربوية كانت أو صحية أو اقتصادية أو علمية أو غير ذلك، فإن ذلك منهج نبوي كريم، فعليك صلاة الله وسلامه يا رسول الرحمة والهدى.

وكم من تاجر يُظهر الرديء ويُغري به الضعفاء لقلة ما بأيديهم ، ويخرج الحسن بعد أن قَصُرَت أيديهم عن إطالته، فالله خير معين ونصير.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: (إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين، حتى رأوا حراء بينهما) [2]

وقد بين الله تعالى ذلك في كتابه العظيم فقال تعالى ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾ [3]

---

[1] الحاكم، المستدرك (٥٣/١ــ٥٤)

[2] البخاري (٥٩/٣) برقم (٣٨٦٨)

[3] سورة القمر: آية رقم (١ــ٢)

وهكـــذا الجحود بعد أن رأوا المعجزة في انشقاق القمر، فقالوا: سحر مســـتمر، فكيف لو اختار رسول الله ﷺ أن يكون الصفا ذهباً وكذبوا بذلك ؟ ولكـــنه ﷺ رســـول الهدى والرحمة، يصبر ولا يستعجل، ويختار لأمته الأصلح والأفضل.

٤ــ مسلك الجدال:

لقد أخذ مشركوا قريش مسلك الجدال بغية الإفساد والصد، والبحث عـــن ما يقوي ويعضد صدودهم، قال تعالى﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (١)

إن الجـــدال الباطل مسلك الكفار والجهال والمعاندين، وكما يحدث في أمور التوحيد الذي هو إفراد الله بالعبادة، فإن الجدال يحدث في غيره؛ من قضايا الديـــن والدنيا، وإذا كان هذا هو مسلك شياطين الغواية الإنسانية، فإنه ليجدر بالمسلم أن يُدْرِك خطورة الجدال مع إخوانه بغية الانتصار عليهم بالرأي في محيط طلاب العلم، وبين الأصدقاء، وفي دائرة الاجتماعات الرسمية وغير الرسمية، وإن المســـلك الصـــحيح هو الحوار الهادف من أجل الحق، وإحقاقه، فَلَكم ضاعت صـــداقات ومصالح بسبب الجدال الذي يرى صاحبه أن القوة في انتصار رأيه، وإن كان خاطئاً وعقيماً.

قـــال تعالى عن جدال الكفار ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (٢)

فَمِـــنْ لطـــف الله تعالى ورحمته بنبيه ﷺ وحكمته جلَّ جلاله نَزَّل القران العظـــيم على عبده مُنَجَّماً، لِيُثَبِّتَ به فؤادَ رسوله ﷺ "لأنه كلما نزل عليه شيء

---

(١) سورة الزخرف: آية رقم (٥٧ــ٥٨)

(٢) سورة الفرقان: آية رقم (٣٢)

مـــن القرآن ازداد طمأنينة وثباتاً، خصوصاً عند ورود أسباب القلق، فإن نزول القرآن عند حُدُوث السبب يكون له موقع عظيم، وتثبيت كثير، أبلغ مما لو كان نازلاً قبل ذلك"[1]

فلقـــد ثَبَّت الله تعالى قلب رسوله بالقرآن الكريم الذي به تَثْبُت قلوبُ المؤمـــنين عند تلاوته وتَدَبّرِه، لما فيه من المواعظ والإرشاد والترغيب والترهيب، وبـــيان حـــالات النفس البشرية، وما يعتريها من المنع والجزع والخوف والقلق والاضطراب، فيبين لها ما تَقِرُّ به النفس وتستريح، بمواعظه وأمثاله وقصصه.

ومـــن مجادلات المشركين سؤالهم عن الروح، قال تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[2]

ولقد بين الله تعالى بإجابة قاطعة أن الروح من علم الله تعالى التي استأثر بهـــا.وبالتالي فإن الإنسان لا يستطيع أن يعرف كنه الأشياء جميعا، فَعِلْمُه قاصر أمام علم الله تعالى غير المتناهي، فمهما بلغ الإنسان من العلم فإنه يجهل أكثر مما يعـــرف، وقد أرشد الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ إلى أن يطلب مزيد العلم ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾[3]

فمـــا أتـــى بـــه ﷺ من العلم تفرعت فيه الفنون والتصانيف، وكثرت التخصصات، ومع ذلك علمنا مفتقر إلى علم الله تعالى في كل وقت وحين، فما نحـــتاج أن نتعـــلمه يلزم فيه أن نسأل ربنا تبارك وتعالى بقـــولنا ﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

ومن تَعَنُّت الكفار وجدالهم وكبريائهم أن طلبوا من رسول الله ﷺ أن لا يجالسوا المستضعفين من المؤمنين، تكبراً واستعلاءً، فقد جاء في صحيح مسلم عن

---

[1] السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٤/٤٣٩)

[2] سورة الإسراء: آية رقم (٨٥)

[3] سورة طه: آية رقم (١١٤)

سعد قال: (كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ : أُطْرُد هؤلاء لا يجترئون علينا) [1] فنتيجة التكبر وحب التفرد بالجاه والمكانة استصغروا الضعفاء من المؤمنين، ولكن الله تبارك وتعالى يرد عليهم بقوله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [2]

إن المقاييس البشرية تستحوذ عليها المادية البحتة، فقد تراعي ما يتراءى لها من مصالحها ومكانتها العاجلة، وتغفل عن المصالح والمكانة الآجلة. ولكن مقاييس الرب سبحانه وتعالى تعلو علواً عظيما، فالمؤمنون المستضعفون خير وأحب إلى الله تعالى من كافر عاص؛ وإن كان سيداً في قومه، فإن مقاييس المادة تتضاءل أمام مقاييس العزيز الحكيم، وبالتالي فالمؤمن الفطن هو الذي يقيس أمور الدنيا بمقاييس الشريعة، التي هي المقاييس الإلهية الربانية.

وإنه لجدير بالمسلمين أن ينظروا إلى هذه المقاييس في تولي الأعمال والمهام والوكالات في جميع شؤون الحياة، وفي جميع مستويات وحقول العمل البشري. فالمستضعف من المؤمنين اليوم قد يكون كبيراً في الغد، فصلاح المؤمن يجلب الخير لمحيط العمل وميدان التسابق في الخيرات، وفي نفس الوقت تظهر أهمية التسابق في إصلاح الظاهر والباطن ليكون المؤمن جديراً بما يوكل إليه من أعمال.

ولئن تكبر المشركون عن مجالسة ضعفاء المؤمنين، فإنه يلزم المؤمن أن لا يحقر أخاه الضعيف من المؤمنين، فيسلك مسلك الكافرين في تكبرهم واستعلائهم، بل يسعى إلى مجالستهم ومؤاكلتهم ومخالطتهم وقضاء حوائجهم، إقتداء بهذا التوجيه الرباني العظيم، الذي يربي في قلوب أتباعه التواد والتراحم والتآخي والتواضع.

---

[1] مسلم (١٨٧٨/٤) برقم (٤٦ــ ٢٤١٣)

[2] سورة الأنعام: آية رقم (٥٢)

الهجرة إلى الحبشة :

لما رأى رسول الله ﷺ ما يُصيب أصحابه من البلاء والفتنة في دينهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من الله تعالى، ثم من عمه أبي طالب، قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه.[١] فهاجر المسلمون الهجرة الأولى.

ولقد هاجر المسلمون من مكة إلى الحبشة مرتين، وذكر أهل السير أن الأولى كانت في شهر رجب من سنة خمس من المبعث، وأن أول من هاجر منهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وقيل وامرأتان، وقيل اثنى عشر رجلاً، وقيل عشرة، وأنهم خرجوا مشاة إلى البحر، فاستأجروا سفينة بنصف دينار.[٢]

ولما اشتد البلاء بالمسلمين أذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة الثانية، فكان جميع من لحق بأرض الحبشة، وهاجر إليها من المسلمين، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً وولدوا بها، ثلاثة وثمانين رجلاً[٣]

وإن في الهجرة تَغَرُّب عن الْمَوَاطِنِ والأوطان، ومهد الذكريات، والمصالح والأخوة والخلان، وإنها لمن أصعب القرارات، ولا سيما إذا كانت البلاد المهاجَرُ إليها مختلفة في الحال والطباع، وبالتالي لن يَقْدِمَ إليها إلا من رأى رجحان مصلحة الهجرة والترحال. وما إقدام أصحاب

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٣٤٤/١)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (١٨٨/٧)

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (٣٥٣/١) وابن حجر، فتح الباري (١٨٩/٧)

رســـول الله ﷺ إلى الهجرة إلا بعد أن رأى رسول الله ﷺ في ذلك منفعة لإقامة دينهم وحفظه، والخروج من التضييق والتعذيب إلى بلد لا يُظلم فيها أحد، بل إن في قرار هجرتهم أمر عظيم؛ وهو خروجهم من موطن فـــيه رسول الله ﷺ يعيشون معه؛ ويتلقون خبر السماء منه؛ ويعايشون أخلاقه وآدابه؛ ويستأنسون بمجالسته وسماع حديثه، ولكنه القرار الذي ينتفع به هذا الدين، فيقدمونه على رغباتهم وحاجاتهم الشخصية.

إن هجرتهم تعني التربية على الطاعة في المنشط والمكره، فكيف لو قارن المتكاسل عن أداء العبادات هذا التكاسل والخمول بهجرتهم رضي الله تعالى عنهم.

إن هجرتهم تعني أن ما أصابهم من قومهم المشركين بلاء عظيم، وفي هذا مـــن التعدي عليهم وعلى مصالحهم وحرياتهم الشئ السقيم، وكان من حقهم الدفـــاع عـــن أنفسم، ولكن رسول الهدى والرحمة لم يرب فيهم حب الانتقام للنفس، ويثير فيهم نزعة الحقد لقومهم والقتل والاغتيال.

فـــلم يعـــالج الأمر ﷺ بتربيتهم على التنكيل والدسائس، ونشر النهب والســـلب في ربوع قومه بمكة الآمنة، والتي لو اتخذها سبيلا لكان لهم في ذلك العذر، ولكنه يعلن ﷺ بهذا القرار الذي أشار به على أصحابه؛ أن هذا الدين هو ديـــن الـــرحمة؛ دين إخراج الناس من الكفر والضلال إلى الحق والفلاح بِسُبُل الســـلام. كما يعلن أنه ليس من أهدافه ﷺ تصفية الخصوم. فعندما خُيِّر رسول الله ﷺ مـــن ربه ﷻ بأن يجعل للمشركين الصفا ذهبا، لما طلبوا ذلك، على أن يعذبهـــم عذابـــاً لا يعذبه أحداً إن لم يستجيبوا لدعوته، وبين أن يختار لهم قبول الـــتوبة والرحمة، فاختار الثانية التي تؤكد، أن الهدف ليس هو الانتصار للنفس، بل إن الهدف هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

وإن هـــذه الســـمة الإسلامية تربي في المسلمين الرحمة والشفقة، وعدم العنف ما كان لذلك سبيلا، وأن الإسلام دين الأخلاق التي لم تعرفها حضارات

الدنـــيا قاطبة، تلك التي اتخذت من القهر والتنكيل والاضطهاد سبيلاً إلى تحقيق أهدافها وانتصاراتها.

إن الإدراك الـــتربوي لهـــذه المعـــاني يعزز ويوجب على من تقوم على عواتقهم العملية التربوية أن يغرسوا هذا في أذهان الناشئة، وفي كل أطوار عمر الإنسان المختلفة.

إن ممـــا ينـــبغي أن تدركه المنهجية التربوية أهمية معرفة أهداف دينهم المتعلقة بغيرهم، وسُبل تحقيقها، وفق منهجية الإسلام وهديه، وليس وفق الآراء والأهواء في معزل عن منهجيته ﷺ القولية والعملية والتقريرية.

ولـــئن كـــان مـــن سُبُل المستضعفين استخدام الاغتيال وقطع الطريق والمصالح في ظلمة الليل؛ وغفلة الغافلين، فإن رسول الله ﷺ لم يعمد إلى شيء من ذلـــك، وإنما سلك الأساليب التي تبني الإسلام وتحقق له القبول عند الناس حتى عـــند أعدائه، وهذا هو منهج الأنبياء عليهم السلام، قـــال الله تعالى لموسى في دعـــوة فرعون ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾[1] فَعلَّة القول اللّين للعدو أو الجاحد؛ لَعَلَّه يذّكر أو أن يخشى، والغلظة مانعة لذلك، ولا تحقق الهدف.

فمعرفة الهدف على حقيقته يحرك السلوك والتصرف والقرارات الحراك الصـــحيح، الأمـــر الـــذي ينـــبغي أن تعنى به التربية العملية. وعلم الإدارة، والاقتصاد، والسياسة، وفي جميع المجالات البشرية.

---

[1] سورة طه: آية رقم (٤٤)

التصدي للمسلمين في موطن هجرتهم

وعـــندما نزل المسلمون بأرض الحبشة وجدوا فيها ما قاله ﷺ إن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، تقول زوج النبي ﷺ أم سلمة رضي الله تعالى عنها[1]: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أَمِنَّا على ديننا، وعبدْنا الله تعـــالى لا نُؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعـــثوا إلى النجاشـــي فينا رجلين منهم جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يُســـتطرف مـــن متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيهم منها الآدم، فجمعوا له آدمـــاً كـــثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية ثم بعثوا بذلك عـــبدالله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص....... فلما دخلوا على النجاشي قالا لـــه: إنـــه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في ديـــنك، وجاؤا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت..... ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولـــون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا: نقول والله ما عَلِمْنَا، وما أَمَرَنَا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن .... فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب: فقال له: أيهـــا الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القويُ منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعـــث الله إليـــنا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لـــنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان،

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (١/٣٥٨-٣٦٢)

وأمـــرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصـــيام .....فعـــدا علينـــا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا.... فلما قهرونا وظـــلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا؛ خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك. قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ قالت: قال له جعفر: نعـــم، فقـــال له النجاشي: فاقرأ عليَّ، قالت: فقرأ عليه صدراً من (كهيعص) قالت: فبكى والله النجاشي، حتى أخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصـــاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء بـــه عيســـى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فوالله لا أُسلمهم إليكما؛ ولا يُكادون.

إن هذا الموقف والحوار والقرار من الملك النجاشي يعطينا دروساً تربوية واجتماعـــية عظـــيمة، فلقد استخدم المشركون وسيلة الهدية التي يطمعون من خلالهـــا الولوج إلى قلب النجاشي وأتباعه، كما استخدموا قوة الكلمة والحجة واللســـان والدهاء، من خلال إرسال رجلين لهما في تلك الصفات شأن عظيم، واستثاروا القلوب بالحجة التي تُظهر الكراهية في قلب النجاشي؛ بأن المهاجرين ليسوا على دين النصرانية.

إنـــه أسلوب حواري بالغ القوة، ولكنهم وافقوا مَلِكاً حكيماً يدفع بحبه للعـــدل المكر والدهاء والهوى. فلم يتأثر بذلك كما تأثر بطارقته، بل استمع إلى المدَّعـــى عليهم، وسمع حجتهم ومحجتهم، ثم اتخذ القرار الذي يتوافق مع العدل والإنصاف لا مع الهدايا وثوران العواطف والأهواء.

إن هـــذا الأسلوب النجاشي ينم عن إدارة وسياسة حكيمة فذة، نتيجة تربية سابقة؛ وتوفيق من الله تعالى قبل ذلك، فتكونت هذه الشخصية الّتي تنظر إلى الأمـــور بعين العدل والإنصاف، مع عدم الاكتراث برأي البِطَانة إذا كانت مخالفة للحق والصواب.

إن الإدارة التي تُدير أمور الحياة الاجتماعية على هذا النسق لتربي فيمن يـــتعامل معها الحكمة وفعل الصواب، مع البحث عن الحقيقة والسير معها وفي محورها، وإنها لتربي فيمن يتأملها أهمية النظرة الشمولية لعناصر القضية الواحدة؛ دون الاكتراث بالزاوية الأُحادية التي قد تتقدم على الزوايا الأخرى.

وإن القائد التربوي والإداري الناجح أياً كان موقعه؛ عندما يدرك هذا المحور الإداري يحقق نجاحا إدارياً بالغاً، ويغرس في من يعملون معه تلك الخصال الإدارية المهمة.

والأعجب من ذلك تلك التربية النبوية التي جعلت من أولئك الصحب الكـــرام ــ رضي الله تعالى عنهم ــ وهم في أحلك المواقف وأصعبها، يتخذون قراراً: هو قول الحقيقة على ما كان من رسول الله ﷺ مهما كانت النتائج. فهم بـــين أن يُـــرَدُّوا إلى قومهـــم فينتقموا منهم شر انتقام، وبين أن يقولوا الصدق والصـــواب؛ كما علمهم نبيهم ﷺ ولو حصل ما تكرهه النفوس. فكل أحد من الناس عندما يتعرض لفتنة تصيبه غالباً ما يفكر في المخارج والْحِيَل التي تُخرجه ممـــا هو فيه، ولكن أصحاب رسول الله ﷺ لم يطل بهم المقام التفكيري والتأملي؛ بحثاً عن حيلة الخلاص من دهاة قريش، فقالوا: نقول والله ما عَلِمْنَا، وما أَمَرَنَا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن.

إن هذا القرار المصيري لا يمكن أن يصدر إلا من مؤمنين، قد تربوا تربية إســـلامية عالـــية وغالية، ومن سيد المربين ومعلمهم وقدوتهم، حيث تربوا على

الصدق والاعتماد على الله تعالى وليس على ظاهر الأسباب والحيل، الأمر الذي دفعهم إلى قول الصدق والحق.

وإن هذا الثبات ليؤكد حقيقة التربية الإسلامية؛ ونتائجها اليانعة إذا ما اهـتم بها الحاكم والمجتمع ومؤسساته كاملة، حتى تُجْنَى ثمارها التي يزدهر بها في جميع شؤونه ومجالاته، فلا يجد إلا الصدق والأمانة والإخلاص التي ينموا بها الاقتصاد، وتزدان بها السياسة، ويندحر بها الانحراف، وتسود بها الفضيلة،وتنكشف بها الغمة، ويحل بها الرخاء.

وإن هذا الموقف ليؤكد أخلاق الإسلام النبيلة، الذي ينبذ الكذب والزيف والخداع، ويجعل مسلكه في الخروج من المآزق والأزمات الصدق مع الله تبارك وتعالى، وبالتالي لا تخاف المجتمعات ولا الحكومات غير الإسلامية عندما تتعامل مع المسلمين؛ إذا ما ظهروا بأخلاق الإسلام وهديه، بل إنهم ليدعونهم بأخلاق الإسلام إلى هدي الإسلام؛ وبروح الإسلام إلى دين الإسلام.

وأما إذا ظهر المسلمون بأضداد أخلاق الإسلام وهديه، فإنهم يَشُدُّون عضد أعداء الإسلام ضد الإسلام، ويُكثرون عددهم، ويوسعون مساحتهم، ويستجلبون عداوتهم لدين الله تعالى، ويسهمون في حجب الإسلام؛ وإقصاء الدعوة ودحرها ، والله تبارك وتعالى أراد بهذا الدين إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وليس إبقاءهم في ظلمات الكفر والضلال. كما أن الإسلام ينتشر بمبادئه وأخلاقه ونوره؛ لا بقوة السلاح والعتاد، وإن كانت مطلوبة أشد الطلب لحفظه وحفظ أتباعه، وليس من أجل إدخال الناس في رحابه. فالناس لا يدخلون في دين الله تعالى بالقوة والإجبار؛ بل بالرغبة والاختيار.

فلما كان الغد جاء عمرو إلى النجاشي؛ وقال له: إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فاستدعاهم النجاشي. وعندما جاؤوه سألهم عن قولهم في المسيح. فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا، هو عبدالله ورسوله،

وروحـــه؛ وكلمـــته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فضرب النجاشي بيده إلى الأرض؛ فـأخذ منها عوداً، ثم قال والله ما عدا عيسى ما قلت قدر هذا العود. فتـــناخرت بطارقـــته، فـــلم ينظر إلى ذلك، فقال: اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي، واشيوم: بمعنى :الآمنون.

وممـــا سبق يمكن استخلاص قواعد العملية التربوية والتنشئة الاجتماعية، وهي:

ــ غرس لزوم الصدق في المنشط والمكره.

ــ التنشئة على عدم تقديم الرأي على توجيهاته ﷺ

ــ لزوم القائد الحيطة والحذر في اتخاذ القرار.

ــ عدم الاغترار بسبق الخبر.وتقديم قاعدة التثبت في الخبر.

ــ عدم الاكتراث برأي المجموعة حال مخالفتها قاعدة شرعية أو أصولية.

ــ التربية الجادة تُنْجِب شخصيات جادة.

إسلام حمزة ﷺ

عن يعقوب بن عتبة[1] أن أبا جهل اعترض لرسول الله ﷺ بالصفا؛ فآذاه. وكان حمزة ﷺ صاحب قنص وصيد، وكان يومئذ في قنصه...

يبين هذا المقطع من الرواية وجهاً وصورة من صور الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي في مكة، من القنص والصيد.

ثم يقول عقبة بن عتبة في روايته عن إسلام حمزة ﷺ ...فلما رجع قالت له امرأته؛ وكانت قد رأت ما صنع أبوجهل برسول الله ﷺ : يا أبا عمارة ! لو رأيت ما صنع ـــ تعني أبا جهل ـــ بابن أخيك. فغضب حمزة ومضى كما هو قبل أن يدخل بيته، وهو معلق قوسه في عنقه، حتى دخل المسجد...

ويفيد هذا المشهد من الرواية ما كان يجده رسول الله ﷺ من أذى قومه، وكذا قدر محبة حمزة لرسول الله ﷺ حيث غضب لما عرف من أمر ابن أخيه، فتوجه إلى المسجد قبل أن يدخل بيته، مما يفيد أهمية ترتيب الأولويات، وتقديمها على الراحة والاستجمام.

ثم يبين يعقوب بن عتبه ما دار في المسجد، فيقول: ...فوجد أبا جهل في مجلس من مجالس قريش، فلم يكلمه حتى علا رأسه بقوسه، فشجه، فقام رجال من قريش إلى حمزة يمسكونه عنه، فقال حمزة: ديني دين محمد، أشهد أنه رسول الله، فوالله لا أثني عن ذلك، فامنعوني من ذلك إن كنتم صادقين.

---

[1] الهيثمي، مجمع الزوائد (٩/٢٦٧) وقال: رواه الطبراني مرسلا، ورجاله ثقات، وقال عن رواية مماثلة لهذه عن ابن شهاب في تسمية من شهد بدراً، قال عنها: رواه الطبراني مرسلاً ورجاله رجال الصحيح.

فلما أسلم حمزة عزَّ به رسول الله ﷺ والمسلمون، وثبت لهم بعض أمرهم، وهابت قريش، وعلموا أن حمزة ﷺ سيمنعه.[1]

ويفـــيد هـــذا أهمـــية إسلام حمزة ﷺ وما كان يشكله من قوة ونصرة لرســـول الله ﷺ وللدعـــوة الإسلامية. مما يبين أهمية استقطاب القوى المؤثرة في المجـــتمع، لتكون مكاسب للدعوة والداعية؛ وعدم التغافل عنها. كما تفيد هذه الحادثـــة وتـــبين أن الهداية بيد الله تعالى، حيث هدى الله تبارك وتعالى حمزة بهذا الســـبب. ومن الفوائد كذلك: أهمية الصبر في المجال الدعوي، وأن العقبات لا تكـــون معوقـــاً أمام الداعية، كما فعل رسول الله ﷺ إذ لم يجعل مما يواجهه من صعوبات وعقبات أعذاراً للتوقف عن نشاطه. بل كان صابراً ناشطاً.

وكذلك من الفوائد: قوة حمزة ﷺ ومكانته في قومه، إذ يواجههم بتَحَدٍّ واضح لهم، حيث يقول لهم: فوالله لا أثني عن ذلك، فامنعوني من ذلك إن كنتم صادقين.

وفي هـــذا الصنيع من حمزة ﷺ كسر لجبروت أبي جهل المتسلط في أهل مكـــة. وبـــيان للجمـــيع عن بداية تحول بعض الأقوياء من قريش إلى صفوف المستضـــعفين من المسلمين، الذين استضعفوا بقوة أقوياء الشرك، فصبروا على ذلك.

---

[1] الهيثمي، مجمع الزوائد (٩/٢٦٧) وإلى هنا انتهت الرواية.

إسلام عمر بن الخطاب ﷺ

عـــن أم عـــبد الله بنـــت أبي حثمة[1] قالت: والله إنه لنترحل إلى أرض الحبشـــة، وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا؛ إذ أقبل عمر حتى وقف عليَّ وهو على شركه، قالت وكنا نلقى منه البلاء، أذى لنا؛ وشراً علينا.

فيـــبين هـــذا المقطع من هذه الرواية ما كان عليه عمر من الشدة على المســـلمين، وبغضه للإسلام، ولكن الله تعالى أراد له الخير. فتقول أم عبد الله في روايتها: فقال: إنه الانطلاق يا أم عبد الله ! قالت: قلت نعم؛ والله لنخرجن في أرض الله؛ آذيـــتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجا. قالت: فقال: صحبكم الله. ورأيت له رقة؛ لم أكن أراها. ثم انصرف، وقد أحزنه فيما أرى خروجنا.

ويبين هذا المشهد من المحادثة مع عمر بن الخطاب حجم المعاناة العظيمة الـــتي كان يلقاها المسلمون من المشركين، حتى بحثوا عن الأمن لدينهم وأنفسهم في بـــلاد الغربة. وكذلك يفيد هذا المشهد الحالة النفسية لعمر بن الخطاب، من أن جانـــب الرقة قد دخل قلبه؛ فأصبح له حظ في فؤاده، بالرغم من شدته على المســـلمين. ورغبـــته عن الإسلام كما تفيد تمام رواية أم عبد الله، حيث تقول: فجاء عامر من حاجتنا تلك، فقلت له: يا أبا عبدالله ! لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا. قال: أطمعت في إسلامه ؟ قالت: قلت: نعم. قال: لا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب. قالت: يأساً لما كان يرى من غلظته وقسوته عن الإسلام.

---

[1] أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة (١/٢٧٩) وقال محقق الكتاب الشيخ/وصي الله بن محمد عباس: اسناده حسن.

وهكذا يبين هذا الخبر مقدار اليأس من إسلام عمر بن الخطاب، لما كان من شدته نحو الإسلام، ولكن إرادة الله تعالى، ودعاء النبي ﷺ الذي تحول به عمر ﷺ إلى مسلمٍ مناصرٍ للإسلام وأهله، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال (اللهم أعز الإسلام بأبي جهل بن هشام أو بعمر، قال: فأصبح فَغَدا عمر على رسول الله ﷺ فأسلم) [1] وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب، قال: وكان أحبهما إليه عمر) [2]

لقد كان إسلام عمر بن الخطاب ﷺ قوة للإسلام، حيث رفع الله تعالى به راية الإسلام والشدَّة الملقاة على ضعفاء المسلمين، فعن عبدالله بن مسعود ﷺ قال (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر) [3]

فبرجل واحد يدخل الإسلام تتقوى به أمة التوحيد القليلة المستضعفة؛ ليؤكد أهمية استقطاب العناصر الفاعلة المؤثرة وإن كانت قليلة، وعدم الزهد فيها لانكفافها وبعدها، بل ينبغي البحث عنها، والدعاء والالتجاء إلى الله تعالى بأن يقوي الأمة بالأقوياء من أبنائها. فكيف اليوم والأقوياء في الأمة كثير جداً ؟ ولكنهم في بُعْدٍ عن المجال الدعوي، أفليس هذا أجدى بأن يَلتجئ أهل الصلاح إلى الله تعالى بطلب انجذاب أولئك الأقوياء بأموالهم أو مكانتهم الاجتماعية أو السياسية والحنكة الإدارية؛ بأن يسخرهم الله تعالى للانضمام إلى كوكبة

---

(1) الترمذي (٥/٥٧٧) برقم (٣٦٣٨)

(2) الترمذي (٥/٥٧٦) برقم (٣٦٨١)

(3) البخاري (٣/٥٧) برقم (٣٨٦٣)

المصلحين في الأمة، ومحاولة استقطابهم، بدعوتهم وتقريبهم حتى يزدادوا صلاحاً؛ فيكونوا مصلحين. فلقد دعا رسول الله ﷺ بأحب الرجلين إلى الله تبارك وتعالى.

إن انضمام الأقوياء إلى مناشط الأعمال الخيرية والتعليمية والتربوية والاجتماعية والإدارية أمر في غاية الأهمية، ويلزم البحث عنهم واستقطابهم، إذ تتقوى بهم تلك الجهات؛ وكذا منابر الخير والعلم؛ وعدم الزهد فيهم، ولا يلزم من ذلك أن يمارس أولئك الأفراد العمل الأصلي في ذلك المجال إن كانوا لا يُحسنونه، بل قد يكونوا داعمين لذلك المجال بالكلمة أو التواجد المعنوي أو المال أو الجاه، وإنه لأمر مهم تغفل عنه دوائر الخير والصلاح.

ويستفاد من ذلك الأهمية الكبيرة في الاحتفاظ بالعناصر الجادة؛ سواء كانت في الجانب العلمي أو الإداري أو في مجال الرأي والشورى، وعدم إهمالها، أو إقصائها بسبب علو السن، أو الحسد، أو عدم المبالاة، لوجود العناصر الشابة، أو الأكثر نشاطاً وأداء، فَلَصَاحِبُ علم مبرز في دائرة علمية؛ مع كِبَرٍ في السن لا يعمل به إلا قليلاً؛ فيعطيها بتواجده وانتمائه قوة ومكانة؛ خير من أن يُهمل ويقصى؛ لقلة إنتاجه وهوان سنه.

محاصرة شعب أبي طالب:

في أول يــوم مــن المحرم سنة سبع من البعثة، دخل المسلمون شعب أبي طالب، حيث رأت قريش أن الصحابة قد نزلوا أرضاً أصابوا بها أماناً، وأن عمر أسلم، وأن الإسلام فشا في القبائل؛ فأجمعوا أن يقتلوا رســـول الله ﷺ...[1]

يبين ويفيد هذا مدى انتشار الإسلام في القبائل، ومعرفة الناس بخبر نبوة المصطفى ﷺ وذلك خلال سبع سنوات من مبعثه عليه الصلاة والسلام. ويؤكد هذا أهمية الزمن في تحقيق الأهداف، والصبر على المصاعب والمشاق، وأن الحق لــه مــن يعارضه؛ ويصد عنه. وكذلك أهمية الأرض الآمنة للجانب الدعوي، لحماية الضعفاء. وأهمية الأعوان الأقوياء في تحقيق الأهداف، وفيه كذلك عناية المــنهج الإســلامي بالسنن الاجتماعية، والأخذ بها؛ وعدم إهمالها، مثل: وجود الأذى وتحمله، والعمل والصبر على مشاقه، والبحث عن الأسباب والأخذ بها، فلم يعطل ﷺ هذه السنن بانتظار النصر من دون الأخذ بها، وهو المرسل من الله تعالى، القادر على كل شيء سبحانه وتعالى.

فــبلغ ذلك أبا طالب، فجمع بني هاشم وبني المطلب فأدخلوا رسول الله ﷺ شــعبهم؛ ومنعوه ممن أراد قتله، فأجابوه إلى ذلك حتى كفارهم، فعلوا ذلك حمية على عادة الجاهلية.[2]

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (١٩٢/٧ـــ١٩٣) ابن هشام، السيرة النبوية (٣٧٥/١ـــ٣٨٠) (١٤/٢ـــ٢١)

(2) المرجعان السابقان: الفتح (١٩٢/٧ـــ١٩٣) والسيرة النبوية (٣٧٥/١ـــ٣٨٠) (١٤/٢ـــ٢١)

ويبين هذا أهمية الأسباب والأخذ بها، وكذلك أهمية الدعم والمناصرة من الغير، وكيف أن الله تبارك وتعالى سخر لنبيه أنصاراً ممن لا يُدينون بدين الإسلام، حمية على عادة الجاهلية.

وهذا يفيد أهمية اعتضاد الدعاة بالدولة المسلمة، لكي يتقوى بها الدين وينتصر. وأن الفصام بين الدعاة والدولة المسلمة لا يحقق القوة للدين حتى ينتصر، فالدين دين الله تعالى؛ والنصر من الله العظيم، ولكن الله جعل سنناً، إذا أخذ بها المسلم مع التوكل على الله تعالى نال مراده إذا شاء الله سبحانه وتعالى.

وبلغت هذه المقاطعة ذروتها وجبروتها؛ بأن أجمعوا أن يكتبوا بينهم وبين بني هاشم والمطلب كتاباً؛ أن لا يعاملوهم ولا يناكحوهم حتى يُسَلِّموا إليهم رسول الله ﷺ ففعلوا ذلك، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة، وكان كاتبها منصور بن عكرمة، وقيل غيره، فَشُلَّت أصابعه.[١]

ويبين هذا المسلك الشدة في المقاطعة والمحاربة لهذا الدين، والمصاعب التي واجهت النبي ﷺ في أمر دعوته، وقابل ذلك بالصبر والاجتهاد والأخذ بالأسباب. وكذا يبين ذلك العقوبة التي نزلت بكاتب الصحيفة الظالمة، مما يفيد خطورة الظلم والمشاركة فيه، وأن الله تعالى قد يُعجل العقوبة للظالم، أو بشيء منها.

---

[١] المرجعان السابقان: الفتح (٧/١٩٢ـ١٩٣) والسيرة النبوية (١/٣٧٥ـ٣٨٠) (٢/١٤ـ٢١)

فانحـــازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فكانوا معه كلهم إلا أبا لهب فكان مع قريش. فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً.[١]

ويفيد هذا طول الفترة الزمنية من البلاء والابتلاء التي صبر عليها رسول الله ﷺ ومن معه في الشعب. مما يؤكد ويبين أن الابتلاء لا يعني في كل الأحوال الجفاء من الله تعالى لعبده أو لعباده، فلله الحكمة البالغة والإرادة المطلقة.

وتقـــول روايـــات السيرة النبوية: لم يكن يأتيهم شيء من الأقوات إلا خفية، حتى أنهم كانوا يؤذون من اطلعوا على أنه أرسل إلى بعض أقاربه شيئاً من الصلات، إلى أن قام في نقض الصحيفة نفر من أشدهم في ذلك صنيعاً هشام بن عمـــرو بن الحارث العامري. فكان يصلهم وهم بالشعب. ثم مشى إلى زهير بن أبي أمية، فكلمه في ذلك؛ فوافقه، ومشيا جميعا إلى المطعم بن عدي؛ وإلى زمعة بن الأســـود، فاجتمعوا على ذلك. فلما جلسوا بالحجر، تكلموا في ذلك وأنكروه، وتواطـــئوا عليه. فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل. وفي آخر الأمر أخرجوا الصحيفة؛ فمزقوها، وأبطلوا حكمها، وذكر ابن هشام: أنهم وجدوا الأرضة قد أكلت جميع ما فيها إلا اسم الله تعالى. وأما ابن إسحاق وموسى بن عقبة، وعروة فذكـــروا عكـــس ذلك: أن الأرض لم تدع اسماً لله إلا أكلته، وبقي ما فيها من الظلم والقطيعة، فالله أعلم.[٢]

---

[١] المرجعان السابقان: الفتح (١٩٢/٧ـــ١٩٣) والسيرة النبوية (٣٧٥/١ـــ٣٨٠) (١٤/٢ـــ٢١)

[٢] المرجعان السابقان: الفتح (١٩٢/٧ـــ١٩٣) والسيرة النبوية (٣٧٥/١ـــ٣٨٠) (١٤/٢ـــ٢١)

إن المحن والمصائب والتمحيص يُساير المسلم والأمة في كل مكان وزمان، حتى خير الأمة التي ضمت رسول الله ﷺ ينوبها من المحن الشدائد العظام.

فرسول الله ﷺ وهو النبي المجتبى يُبتلى ويصبر ولا يثنيه شيء من المصاعب والشدائد، فلم يستسلم لأحد ولا لجماعة مهما كانت قوتها وجبروتها، بالرغم من تكاتف الأعداء عليه وعلى من أسلم.

وفي نفس الوقت تتجدد المعاملة الكافرة في الأزمان والأمكنة، من شَنِّ المقاطعة والتجويع، والمقاطعة اجتماعياً واقتصادياً، والتكاتف ضد الإسلام وأهله، رغبة في صد أهله عنه، والنكوص إلى الكفر والشرك والجهل.

كما أن فلول الكفر تتجمع وتتحد لمنازلة الإسلام وأهله، بغية انحطاطه ودحره وهزيمته.

ومما تكتنزه لنا السيرة النبوية العطرة من دروس وعبر، هو الصبر على البلاء مهما طال زمنه وقويت شدته، فعاقبته النصر والظفر والعزة، وعدم الانكسار للباطل وأعوانه، والتأثر بعتاده وقوته.

إن هذا الحصار لم يكن لأشهر، بل كان لسنتين أو ثلاث، وإنه لزمن طويل، وأمر عصيب.

وفاة أبي طالب وخديجة:

ومـــات أبو طالب بعد أن خرجوا بقليل، وماتت خديجة أم المؤمنين أيضاً في ذلـــك العـــام. فنالـــت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تكن تنله في حياة أبي طالب.[1]

فقد يَعْقبُ الشدة بريق من الأمل والفرج، ثم تعقبه شدة أخرى، ولذلك لا تبتـــئس الأمـــة المسلمة بما يصيبها من ويلات ونكبات، فسيعقب ذلك نصر وعـــزة وتمكين، فما أن خرج رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم من هذا الحصار الغاشم إلا ويتوفى الله عَمَّه أبا طالب، وزوجه خديجة رضي الله عنها، وذلـــك في عام واحد. وإنه لابتلاء يلقاه رسول الله ﷺ وهو نبي؛ فكيف بمن هو دونه ؟ قال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [2]

لقد وجد النبي ﷺ على فقد عمه وزوجه وجداً شديداً؛ حتى سمي ذلك العام بعام الحزن، إلا أن ذلك لم يكن عائقاً أمام مواصلة السير في أداء واجب الرسالة.

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٢/٥٧ـــ٥٨)

[2] سورة البقرة: آية رقم (٢١٤)

وإن ما نالته قريش من رسول الله ﷺ بعد وفاة عمه وزوجه رضي الله عنها لدليل على أهمية القوة للدعوة الإسلامية والداعية، سواء كانت قوة مادية أو معنوية أو سياســية، ولهذا يلزم التظافر بين عامة المسلمين والدعاة وقيادهم السياسية التي يــتقوون بهــا، والعمــل عــلى توحيد الجهود، كما يجب استقطاب السياسة والسياســيين لصــفهم واعتبارها قوة يُستعان بها على نصرة الإسلام، وإن من أخطر الأمور استعداء الحكومات المسلمة والوقوف ضدها. فالحكومة المسلمة لها من القوة والنفوذ ما يجعلها سياجاً قوياً للإسلام، وبالتالي فإنه يجدر بالدعاة العمل من خلالها.

ويقاس على ذلك استقطاب أهل المكانة والقوة والفضل ممن يؤمل فيهم الخير، وذلك في كل أمر من أمور الدنيا والآخرة، إذا كان في استقطابهم مصلحة لــلإدارة أو التجارة أو لمصحة أو لمراكز البر والجمعيات الخيرية، ومن الشواهد عــلى ذلــك إسلام عمر بن الخطاب ﷺ حيث كان إسلامه فتحاً وقوة ونصرة للمسلمين، وهو فرد واحد، قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر) [1] وشرط هذا الاستقطاب أن يكون على منهج الله تعالى.

الخروج إلى الطائف:

ذكر ابن إسحاق[2] :لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمِّه أبي طالب، فخرج رسول الله ﷺ إلى

---

[1] البخاري (٣/٥٧) برقم (٣٨٦٣)

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (٢/٦٠ــ٦٢)

الطائف يتلمس النصرة من ثقيف، والمَنَعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاء به من الله ﷻ ، فخرج إليهم وحده.

وهكــذا الضــعف في كــل وقت وحين يُغري أهل الباطل والشرور؛ ليــتمادوا في طغيانهم وجبروتهم، ولذلك لا بد لأهل الحق من التقوي، والمحافظة على القوة ومصادرها؛ حتى لا يطمع الطامعون. وإنَّ ما مر به رسول الله ﷺ في هذا الموقف وفي غيره من المواقف ليعطي دروساً عظيمة في هذا الأمر.

وإن الله تعــالى لقادر على نصر رسوله من أول لحظه من لحظات البعثة النبوية؛ دون أن يتعرض لهذه العقبات، ولكنها تربية الله تعالى لأمة الإسلام؛ من خــلال منهج النبوة في الدعوة والصبر، والأخذ بالأسباب، والعلم بأن الأنبياء ليسوا مستثنين من الشدائد؛ بل ما يصيبهم من أذى أقوامهم الكافرين شيء غير يسير.

ولــئن صــبر رسول الله ﷺ على قومه بهذه الصور المتعددة من ألوان الأذى؛ ليَحْسُــن بالقــائمين على أمور التعليم والتربية أن يصبروا على مشقة التعليم والتربية والتوجيه، فما يجدونه من مصاعب ومتاعب لا يوازي شيئاً أمام مــا واجهــه رســول الله ﷺ وكذلك المرء في بيته ومع أهله؛ من زوجة وأبناء وغيرهــم، ويمتد ذلك إلى الإداري والمدير والمسئول والوزير، والحاكم والوالي فــيما يجــد من مشقة وعناء، فيتذكر صبر رسول الله ﷺ على ما وجد ولقي في رسالته من المتاعب والمصاعب.

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عَمَد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عُمير، ومسعود بــن عمــرو بن عُمير، وحبيب بن عمرو بن عمير، فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعــاهم إلى الله تعالى، وكلمهم بما جاءهم له من نُصرته على الإسلام، والقيام معــه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان

الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك. فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خبر ثقيف، فقال لهم : إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ ذلك قومه عنه فيثيرهم ويجرئهم عليه.

فلقد أخذ رسول الله ﷺ بأسباب النصر والقبول ولم ييئس عليه الصلاة والسلام، وتكبد المشاق والأذى، مما يؤكد أهمية قوة العزيمة، والبحث عن أسباب الخير والنجاح، وعدم الركون والاستسلام للمصاعب التي تواجه المسلم في أموره مهما كانت الأسباب، وفي جميع مجالات الحياة، طالما أنها خير وصلاح. ولا يغتر المسلم برد أهل الكفر والفسق، بل يحيد عنه ويبحث في غيره، فالأسباب من مطالب أعمال البشر والتوفيق من الله تعالى؛ يأذن به متى شاء سبحانه وتعالى، ولا ينتظر المسلم النجاح والقبول من أول مرة، فقد تكون هناك كبوات، فيصبر كما صبر نبي الله ورسوله ﷺ

كما أن العدو لا يكتم سراً.فقد أغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وألجؤه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل عنب فجلس فيه ﷺ

فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال: (اللهم أشكو إليك ضعف قوتي؛ وقلة حيلتي؛ وهواني على الناس؛ يا أرحم الراحمين؛ أنت رب المستضعفين؛ وأنت ربي، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملّكته أمري ؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت

له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة؛ من أن تنــزل بي غضبك، أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.)[1]

وهكــذا يعلمنا رسول الله بهذا الدعاء والانكسار إلى الله تعالى؛ كيف يكــون المسلم مع ربه ﷻ فقد رفع أمر الضعف وقلة الحيلة والهوان على الناس لأرحــم الــراحمين؛ ورب المستضعفين، وأن ما يلقاه المسلم من المعاناة والتعب والمصــائب توجــب علــيه أن لا يســخط، ولا يظن بربه إلا خيرا، وأن كل الابــتلاءات تتضــاءل إذا كان ليس سببها غضب الرب سبحانه وتعالى، ولكن عافية الله تعالى ورحمته هي الأوسع للإنسان من ابتلاء وعقاب الرب جل جلاله، فما بال الذين يظنون بأنفسهم خيرا ؟ ويقولون عند الابتلاء: يارب ماذا صنعت حــتى يحــل عــلي هــذا البلاء؟ فيبادر بتزكية النفس قبل أن يفتش عن ذنوبه وتقصــيره، فكــم في هذا الدعاء من دروس الأدب مع الرب سبحانه وتعالى، ومنهجية الدعاء وطرق الالتجاء إليه ﷻ وتعظيمه تبارك وتعالى.

ففي كل موقف ولفظ منه ﷺ دروس قد حفلت بها سيرته العطرة ﷺ.

وتذكــر أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها ما قاله رسول الله ﷺ عن بلاء قومه له، فيقول عُرْوَةُ ﷺ : (أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يومٌ كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقــت: وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عَرَضتُ نفسي على ابن عبد يا لــيل بن عبد كُلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم؛ على وجهي،

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٢/٦٢)

فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي؛ فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني؛ فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك؛ وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك مَلَكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني مَلَكُ الجبال، فسلم عليَّ ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يُخْرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده؛ لا يشرك به شيئاً)[1]

وهكذا يصور لنا رسول الله ﷺ شدة ما لقيه من قومه، وصدهم عن الحق وعدم قبوله، والتعرض له ﷺ بالأذى حتى انطلق مهموماً فلم يستفق إلا وهو بقرن الثعالب. وإنها لصورة تؤكد بجلاء حجم ما أصابه ﷺ من قومه، ولكن بعد برهة من الوقت يطل عليه جبريل عليه السلام من السماء، ولا شك إنها لرحمة من ربه ﷻ بإرسال جبريل عليه السلام إليه، لتكون مواساة وتذكيراً بأن الله مطلع على كل ما دار بينك وبين قومك وأنه معك يراك ويسمعك، فسبحان الله العظيم الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، يسمع السر وأخفى. ثم هذا مَلَكُ الجبال لم يكلم رسول الله ﷺ إلا بعد أن أخبر جبريل بخبره. ثم ها هو ﷺ وهو في أشد معاناته من قومه؛ وفي حالة انزعاجه لما أصابه منهم، فلم يثير ذلك عنده الرغبة في الانتقام، ولم يستدعيه ذلك إلى الثأر منهم، فيطلب من مَلَك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين، ولكن يشفق عليهم رجاء أن يُخْرِجَ الله من أصلابهم من يُوحِّد الله تعالى ويعبده وحده لا يشرك به شيئا، فلم يستأثر

[1] البخاري (٢/٤٢٨ــ٤٢٩) برقم (٣٢٣١)

لنفسه بعقوبة عاجله. إنه الهدف عندما يكون واضحاً للمرء؛ فإنه يُثمر سلوكاً صحيحاً وفكراً مستقيماً وقراراً حكيماً.

قال تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾ [١]

وكم هي الشحناء والبغضاء بين صفوف الأمة؛ وليس إلا لأمور بعيدة عن الهدف الحقيقي وهو تحقيق العبودية لله تعالى، وغالبها محبة في الانتصار للنفس وحظوظها، وحب العلو على الغير، وبالتالي تأتي التصورات الخاطئة، ، فيتولد عنها التأويل الفاسد؛ فالحكم الباطل؛ ثم القرار الخاطئ، فتأتي المكائد والدسائس. أفليس في منهجه النبوي ﷺ ما يصحح الأهداف والتصورات، فيتبعها السلوك. فهاهو ﷺ يواجه معاناةً وصداً وهجماً وأذى من عدو قريب، فيقابلها بالهدف الحقيقي من وجوده ورسالته، والهدف من وجودهم وخلقهم، فتتصاغر أمامه ﷺ جميع ألوان الأذى والصدود، ولكن القول فيك يا رسول الله ما قاله الله تبارك وتعالى عنك ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [٢]

إن هذا الخُلُق العظيم جعل عدَّاس النصراني يتعجب من أمر رسول الله ﷺ فلما وصل رسول الله ﷺ إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة؛ قالا لغلام لهما

---

[١] سورة آل عمران: آية (١٥٩)

[٢] سورة القلم: آية رقم (٤)

نصـــرانياً يقـــال له عداس: خذ قطِفاً من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهـــب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عداس، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال: بسم الله، فقال عداس: عن هذا الكلام: والله لا يقوله أهل هـــذه الـــبلاد، فقال له رسول الله ﷺ ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك ؟ [1]

إنَّ هَـــمَّ هذا الدين يحمله رسول الله ﷺ معه في كل لحظة، فلقد باشره بالسؤال عن دينه، وهو في موقف يكاد المرء فيه لا يحمل إلا همه الشخصي.

فيجيبه عداس : نصراني، وأنا من أهل نينوى، فقال له رسول الله ﷺ من قـــرية الـــرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن مـــتى، فقـــال رسول الله ﷺ : ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يُقبِّل رأسه ويَدَيْه وقدميه.

فيقول أبناء ربيعة أحدهما للآخر : أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهمـــا عدّاس قالا له: ويلك يا عدّاس ! ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدمـــيه ؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شئ خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعـــلمه إلا نبي، قالا له : ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

وهكـــذا يؤكد عدّاس لهما أن هذا نبي، وأن ما أخبر به ﷺ لا يعرفه إلا نبي، ولكنهما أعرضا عن قول عدّاس الذي شهد بنبوته ﷺ وبين لهما دليل ذلك.

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٢/٦٠ـــ٦٢)

ثم في عودتـــه ﷺ من الطائف حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصـــلي، فمـــر به نفر من الجن الذين ذكر الله تعالى خبرهم في سورتي الأحقاف والجـــن، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجـــابوا إلى مـــا سمعوا، قال الله تبارك وتعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾[1]

فلقـــد تفاعل بعض الجن مع دعوته ﷺ واستجابوا له، داعين ومنذرين قومهـــم، وإنه لأمر يزيد من عزيمة رسول الله ﷺ فيشعر بأن هذا الجهد مشكور وفاعل ومقبول؛ فإن واجهه صدود في جانب قابله قبول في آخر.

وكم من الأنشطة الدعوية والتعليمية والإدارية ولاقتصادية والطبية التي يواجـــه القـــائمون علـــيها بعـــض العقبات والصعوبات فيحتاجون إلى الدعم

---

[1] سورة الأحقاف: آية رقم ((٢٩ــ٣٢)

والتشـــجيع الـــذي يشد أزرهم، ويشعرهم بأن أثر هذا الجهد في صعوباته التي يواجهونها نجاح يتحقق في جوانب أخرى.

وكـــم مـــن تلميذ يتعثر فيحتاج إلى من يُبْرِز له نجاحه في جانب آخر لينشـــط، ويتشجع، وكم من طبيب وإداري وتاجر مسلم يتعثر فيحتاج إلى من يبين له نجاحه فيما غفل عنه، وكم من مصاب بجائحة أو بلاء؛ فلا يرى أمامه إلا ذلـــك الأمـــر؛ فيحـــتاج إلى من يبين له نِعَم الله تعالى عليه في أبواب أخرى قد حجبتها عنه مصائبه.

الإسراء والمعراج :

بعد رحلة الطائف التي صد عنه من تحدث معهم رسول الله ﷺ ودعاهم تـــأتي رحلـــة الإسراء والمعراج، فتأتي المكافأة العظيمة من الرب العظيم سبحانه وتعالى، فلئن كابد المشاق ﷺ فإنه سيرى من آيات ربه تبارك وتعالى ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [1]

عن أنس بن مالك ﷺ (أن رسول الله ﷺ قال: أُتيتُ بالبُراق. وهو دابةٌ أبيضُ طويلٌ فوق الحمار ودون البغل. يضع حَافِرَهُ عند منتهى طَرْفِه. قال فركبتُهُ حـــتى أتيـــتُ بيتَ المقدس. قال: فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء. قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين. ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء

[1] سورة الإسراء: آية رقم (١)

من خمر وإناء من لبن. فاخترت اللبن. فقال جبريل ﷺ اخترت الفطرة. ثم عَرَجَ بنا إلى السماء)[1]

وفي هــذا الحديث دلالة على مكانة النبي ﷺ عند ربه سبحانه وتعالى، وفيه كذلك عِظَمُ خلق الله تعالى. وفيه أن من دخل المسجد يبتدئه بالصلاة. ومن فوائــد الحديــث أن الإســلام هو دين الفطرة، وأن أكل الطيبات من الفطرة كذلك، وأكل الخبائث مناقض لها.

وذكــر ابن حجر في الفتح: حديث أبي سعيد عند البيهقي:(حتى أتيت بيــت المقــدس فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربط بها ــ وفيه ــ فدخلــت أنا وجبريل بيت المقدس فصلى كل واحد منا ركعتين، وفي رواية (ثم دخلــت المسجد فعرفت النبيين من بين قائم وراكع وساجد، ثم أقيمت الصلاة فَأَمَمْتُهُم)[2]

وفي الحديــث بــيان منــزلة النبي ﷺ بين الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والتسليم.

فعن أنس بن مالك ﷺ؛ قال: كان أبو ذر يُحدث أن رسول الله ﷺقال: (فُــرِجَ عــن سقف بيتي وأنا بمكة، فنــزل جبريل ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري؛ ثم أطبقه، ثم أخــذ بــيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا؛ قال

(1) مسلم (١/١٤٥) برقم(٢٥٩-١٦٢).

(2) ابن حجر، فتح الباري(٧/٢٠٨).

جـــبريل لخازن السماء: افتح، قال: من هذا ؟ قال: هذا جبريل، قال: هل معك أحـــد ؟ قال: نعم، معي محمد ﷺ فقال: أُرسِلَ إليه ؟ قال: نعم. فلما فتح علونا الســـماء الدنيا، فإذا رجل قاعد على يمينه أسْوِدَةٌ وعلى يساره أسْوِدَةٌ، إذا نظر قِبَلَ يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَل يساره بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والإبن الصالح، قلت لجبريل: من هذا ؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نَسَمُ بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار. فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَل شماله بكى. حتى عَرَج بي إلى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح، فقال له خازنها مثل ما قال الأول،ففتح. قال أنس: فذكر أنه وجد في السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم صلوات الله عليهم، ولم يُثبِـــت كيف منازلُهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في الســـماء السادسة. قال أنس: فلما مر جبريل بالنبي ﷺ بإدريس؛ قال: مرحباً بالـــنبي الصـــالح والأخ الصالح، فقلت: من هذا ؟ قال: هذا إدريس، ثم مررت بموســـى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت: من هذا ؟ قال: هذا موســـى. ثم مررت بعيسى، فقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قلت من هذا ؟ قال : هذا عيسى. ثم مررت بإبراهيم، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت من هذا ؟ قال: هذا إبراهيم ﷺ قال ابن شهاب: فأخبرني ابن حزم أن ابـــن عـــباس وأبا حَبَّة الأنصاري كانا يقولان: قال النبي ﷺ ثم عُرِج بي حتى ظَهَـــرْتُ لمستوى أسمع فيه صريفَ الأقلام. قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال الـــنبي ﷺ ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موســـى، فقال: ما فرض الله لك على أمتك ؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك؛ فإن أمتك لا تُطيق ذلك. فراجَعني فوضع شطرها، فرجعت إلى موســـى، قلـــت : وضع شطرَها، فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تُطيق ذلك، فراجعت فوَضَع شطرها، فرجعت إليه؛ فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تُطيق

ذلك، فراجعته فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يُبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى، فقال: راجع ربَّك، فقلت: استحييت من ربي، ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى؛ وغَشِيَها ألوان لا أدري ماهي. ثم أُدخِلتُ الجنة، فإذا فيها حبايل اللؤلؤ ؛ وإذا تُرابها المسك.)[١]

إن هذه الرحلة العظيمة، رحلة الإسراء والمعراج فيها من الدروس والفوائد ما يعطي المسلم ويزوده بالكثير مما يحتاج إليه في دار معاده ومعاشه، فأول خطوات الإسراء والمعراج الإعداد لذلك؛ بأن قام جبريل عليه السلام ففرج صدر رسول الله ﷺ ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه في صدره ﷺ ثم أطبقه، وقد حصل شق الصدر الأول وهو صغير عند مرضعته حليمة، فكان الشَّقُ الأول لاستعداده لنزع العلقة التي قيل له عندها: هذا حظ الشيطان منك، والشَّقُ الثاني كان لاستعداده للتلقي الحاصل له في تلك الليلة.[٢] وفي هذا تأكيد وبيان أن القلب في الإنسان هو المحطة الرئيسة، والجوهرة الثمينة التي يجب أن يقف عندها المسلم لينظفها من درن الرذائل القلبية، كالاعتقادات الباطلة، والحسد والحقد والكراهية لإخوانه المسلمين، وحب العلو والانتصار والتكبر عليهم، والتنقص من ضعيفهم وفقيرهم، وكراهية الخير لقويهم، فعن أنس ﷺ قال (كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة. فطلع رجل من الأنصار، تَنْطِفُ

---

(١) البخاري (١٣٢/١) برقم (٣٤٩)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٤٦٠/١)

لحيــته من وضوئه، قد تعلق نعليه في يده الشمال، فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث، قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي ﷺ تــبعه عبدالله بن عمرو بن العاص، فقال: إني لاحَيْتُ أبي، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي ؟ فعلت، قال : نعم. قال أنس وكـــان عبدالله يُحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تَعَار وتَقَلَّبَ على فراشه ذكر الله عز وجل، وكبر، حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبدالله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً، فلما مَضَتِ الثلاث ليالٍ، وكِدت أن أحقر عمله، قلت: يا عبدالله لم يكن بيني وبين أبي غضب، ولا هجـــر ثَمَّ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة. فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن أوي إليك، لأنظر ما عَمَلُك، فأقتدي به، فلم أَرَكَ تعمل كَثيرَ عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت، قال: فلما وَلَّيْتُ دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غِشّاً، ولا أَحْسُدُ أحداً على خيرٍ أعطاه الله إياه. فقال عبدالله، هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق)[1]

وقـــد قال ﷺ مبيناً أهمية القلب من الجسد وثمرة صلاحه أو فساده (ألا وإن في الجسد مضغة؛ إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد

[1] أحمد، المسند (٣/١٦٦)

كلـــه، ألا وهي القلب)[1] قال ابن حجر: فالقلب أمير البدن، وبصلاح الأمير تصـــلح الرعية، وبفساده تفسد، وفيه تعظيم قدر القلب، والحث على صلاحه، والإشارة إلى أن لطيب الكسب أثراً فيه، والمراد المتعلق به من الفهم الذي ركبه الله فيه.[2]

ولـــئن اهتم الكثير من الناس بإصلاح الظاهر دون إصلاح الباطن؛ فإنه يظل هذا الإصلاح إصلاحاً مؤقتاً، يتراجع كثيراً ولا يتقدم إلا قليلاً، لأنه لم يعتن بصـــلاح أميره، وينقيه وينظفه كما ينظف الإناء بالماء، فلقد غسل جبريل عليه السلام صدر رسول الله ﷺ بماء زمزم، فهو مقبل على أمر رباني عظيم، وهكذا كـــل من يريد القدوم إلى ربه في صلاته وفي أعماله؛ أن يعي أهمية تطهير القلب وتنظـــيفه من الأباطيل؛ وما يلحق بها من المفسدات، في جميع أشكالها وأنواعها ومركباتها، فَيُقْبِل على الله بقلب نظيف طاهر سليم.

ويفـــيد هـــذا أهمية التركيز في العملية التربوية على تـــزكية القلوب وتطهيرها والعناية بها، وإنه ليحسن بالمربين أن يهتموا بتطهير قلوب من يقومون بتعلـــيمهم وتربيتهم؛ حتى تزكو نفوسهم، وتصبح أوعية صالحة للعلم والحكمة، فلقد أفرغ جبريل عليه السلام ما في الطست من حكمة وإيمان في صدر رسول الله ﷺ بعـــد أن غســـله بماء زمزم، فكم يحتاج المسلم إلى الإيمان والحكمة التي تســـبقها الطهـــارة والنظافة القلبية؛ حتى تضم ذلك الإيمان والعلم والحكمة في

---

[1] البخاري (١/ ٣٤) برقم (٥٢)

[2] ابن حجر، فتح الباري (١/١٢٨ـــ١٢٩)

وادي القلب الفسيح الذي يسع لكل ما يوضع فيه من خير إن عالجه المؤمن المعالجة الصادقة الصحيحة.

وإن معالجة نسيان العلم واكتسابه إنما تبدأ وتنطلق أولاً من استعداد القلب للحفظ والتذكر من خلال تطهيره وتنظيفه .

لقد انطلق جبريل عليه السلام بالنبي محمد ﷺ بعد هذا الحدث العظيم إلى السماء الدنيا، وهنا يأتي الحرص والأمانة من الخازن الأمين، خازن السماء، حيث لم يفتح لجبريل حتى تأكد وعرف من معه، بأنه محمد ﷺ وأنه قد أُرسل إليه، وكم هي الأمانة والاسترعاء من مسؤولية عظيمة، فيتولد عنها الحرص ممن استؤمن أمانة علمية أو إدارية، أو زوجية أو أبناءً، أو متاعاً، أو مهمة، أو وظيفة، فيؤدي الذي عليه فيها، ويحرص على حراستها كما حرص حارس السماء على السماء من أن يدخلها غير مأذون له. فإن الله تعالى قادر على كل شيء ولكنه الحكيم العليم، تظهر حكمته وعظمته وعلمه في كل شيء خلقه سبحانه وتعالى. وفيه أدب الاستئذان من جبريل عليه السلام بأن سمى اسمه، ولم يقل: أنا؛ فقط كما يفعل البعض.

ثم أبونا آدم عليه السلام، ينظر يميناً فيضحك، وينظر شمالاً فيبكي، إنها شفقة الأب على أبنائه التي يحتاج أن يترجمها الآباء في الحياة، من حفظ الأبناء والعناية بتربيتهم التربية الدينية التي تُقيهم ناراً وقودها الناس والحجارة، حتى لا نندم يوم لا ينفع الندم، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ

﴿وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾[1]

وفي هذه الرحلة العظيمة من الدروس: الترحيب بالقادم، فقد رحب به الأنبياء الذين مَرَّ بهم ﷺ ودعوه بلقب النبوة، وبصفة الصلاح، وكلهم سابقون لـه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون المسلم متصف بصفات الأنبياء والمرسلين، من الترحيب والبشاشة للقادمين عليه، وتلقيبهم بما يستحقون من الألقاب التي هي من خصائصهم، خاصة أهل الفضل من أصحاب العلم، والأيدي الكريمة. كما كان ذلك مع رسول الله ﷺ ممن جاء ذكرهم في الحديث (مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح)

ويستفاد من تردده بين ربه تبارك وتعالى وموسى عليه السلام، حرصه ﷺ على أمته، والأخذ بالنصيحة، والتردد في تكرار الطلب، وفيه أن على المسلم أن يبذل النصيحة حتى وإن لم تُطلب منه، كما نصح موسى عليه السلام لرسول الله ﷺ دونما طلب، وعلى المسلم أن يقبل النصيحة الصالحة التي تحمل الخير؛ وإن كثرت من الناصح، وأن يتردد في طلب الخير للآخرين إلى أقصى ما يستطيع.

وعلى المسلم أن يسعى بالعمل والدعاء للفوز بالجنة التي دخلها رسول الله ﷺ وبين بعض صفاتها.

---

[1] سورة التغابن: آية رقم (٦)

وفي الحديث بيان منزلة رسول الله ﷺ العظيمة عند ربه سبحانه وتعالى، إذ عُرِج به ورأى من رأى من الأنبياء ومن الآيات. وكذلك فيه رحمة الله تعالى بعباده وكرمه جلّ جلاله؛ إذ جعل الصلوات خمس، وهي خمسون. وفيه كذلك منزلة الصلاة إذ فرضها الله تبارك وتعالى على نبيه ﷺ وهو في السماء. وفيه بيان منزلة الأنبياء عليهم السلام عند ربهم سبحانه وتعالى.

ومن لطائف هذا الحديث أن قال من مر بهم رسول الله ﷺ من الأنبياء عليهم السلام (مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح) إلا آدم وإبراهيم فقالا (:مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح) فآدم عليه السلام أب البشرية أجمع، وإبراهيم عليه السلام والد إسماعيل الذي يرجع إليه نسب رسول الله ﷺ.

العرض على القبائل طلباً لقبول الدعوة:

لقد سعى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين القبائل القادمة إلى مكة للحج أو لأسواق العرب، يدعوهم لعبادة الله تعالى، دونما توانٍ أو خوف أو تردد منه ﷺ قال ربيعة بن عباد (رأيت رسول الله ﷺ بذي المجاز يدعو الناس وخلفه رجل أحول، يقول: لا يصدنكم هذا عن دين آلهتكم: قلت: من هذا ؟ قالوا : هذا عمه أبو لهب)[1] وكان يقول لهم ﷺ (يا أيها الناس قولوا لا اله إلا الله تفلحوا)[2] وكان (يقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على القبيلة ويقول: يا بني فلان إني رسول الله إليكم؛ آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وأن تُصدقوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به)[3]

وهكذا سار رسول الله ﷺ بين القبائل مبينا هدف الرسالة العظيم؛ داعياً إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، في عزيمة الصادق الأمين، الذي لا يُثنيه كيد الكائدين،وتخوين الخائنين، بالرغم من التصدي العنيف من عمه أبي لهب الذي يجري خلفه، مزهداً الناس فيما يدعوا إليه رسول الله ﷺ

وللمرء أن يتصور حال الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يمر بين القبائل، يدعوهم والمكذب يجري خلفه ليصد الناس عن الهدى، ومدى أثر ذلك على نفسية الرسول ﷺ وهو صابر على ذلك، ولا يرد عليه بشيء، بل كان مقداماً في أمره دون أن يأبه بإرجاف المرجفين وتكذيب المكذبين . وكم يواجه الإنسان في دعوته وفي مهنته التربوية من العقبات التي لا تصل إلى هذه الدرجة من التحدي السافر، فيتهاون ويتكاسل، وربما ضخم الموقف ليجد لنفسه مبررا؛ ليتوقف به عن الاستمرار فيما يقوم به، وكم يواجه طالب العلم من مشقة التعلم، والباحث في

---

[1] أحمد، المسند (٣/ ٤٩٢)

[2] أحمد، المسند (٤٩٢/٣)

[3] أحمد، المسند (٤٩٢/٣)

بحـــثه، والعامل والإداري والطبيب والمزارع في عمله من مصاعب المهنة فيتكاسل ويستسلم للنكسات، أوليس في نهجه وصبره ﷺ درساً لكل مستسلم للمصاعب والصـــدود الـــتي يواجههـــا. إن هذه العزيمة المتوقدة من رسول الله ﷺ في دعوته لتشحذ همم المسلمين للعمل الدؤوب الذي يخدم هذه الأمة في جميع مجالات الحياة.

لم يـــتوقف رســـول الله ﷺ أمام هذه الصعوبات والعقبات والأذى والرد الجـــافي، وإنمـــا اســـتمر يبحث، فاتصل بالأنصار، حيث قدم سويد بن الصامت الأنصاري إلى مكة حاجاً فقابله رسول الله ﷺ فتلا عليه القرآن، ودعاه إلى الإسلام فـــلم يبعد منه، وقال : هذا القول حسن، ثم قدم المدينة، وقُتل، وكان رجال من قومه ليقولون : إنا لنراه قد قُتل وهو مسلم.[1]

وعندما سعى الأوس لمحالفة قريش على الخزرج، قدم أبو الحيسر أنس بن رافـــع في وفد من بني عبدالأشهل لهذا الغرض، فسمع بهم رسول الله ﷺ فجاءهم ودعـــاهم إلى الإســـلام وأسمعهم القرآن، ثم عادوا إلى المدينة، وجرت الحرب بين الأوس والخـــزرج يـــوم بعـــاث، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، وكان قومه يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات.[2]

إن هـــذه بدايات قبول الدعوة في المدينة، وكانت بسيطة من حيث العدد، ولكـــنها إيذاناً وبياناً وباباً يُشير إلى أن الانطلاقة الثانية ستكون في رحاب المدينة، فتعطيـــنا هذه المقدمات أن الشدائد يعقبها الفرج بإذن الله تعالى، وإنما الأمور تسير من حال إلى حال رويداً رويداً، وعلى المسلم أن لا ييأس، ويسعى بكل ما أوتي من قـــوة ونشاط، في علمه وتعلمه ودعوته وتربيته وفي عموم شؤونه، وكذلك على مستوى الأمة في شؤونها الكلية والجزئية.

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٢/٦٧ـــ٦٩)

[2] المرجع االسابق (٢/٦٩)

ولم ييأس ﷺ بعد هذين العرضين، وإنما اتصل بوفد الخزرج عندما قدموا في موسم الحج التالي عند عقبة منى، حيث دعاهم ﷺ وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ [1].

فهكذا طلائع البشر تزداد شيئاً فشيئاً، مع جهد لا يعرف الكلل ولا مدخل للملل في حياته ﷺ فإن الكلل واليأس إذا دب في نفوس الناس، أحدث عندهم قدراً كبيراً من الفتور الذي يؤدي إلى سيء الأمور، وإنه لمن الدواعي التربوية والنفسية المهمة في حياة المسلم أن يُبعد عن جهده وعمله كل عوامل اليأس والخذلان. فإن منهجه ﷺ ليربي في المتأمل فيه القوة والنشاط والحيوية والعمل الدؤوب، لم يواجه أحد من البشر ما واجهه ﷺ من الصعوبات والعقبات التي تفتر حيالها قوى الرجال الأقوياء، ولكنه حقاً خير البشرية، حيث قدم للسالكين منهجه النبوي: السيرة الصحيحة والقدوة العظيمة التي تمد المسلم بالقوة والنشاط والحيوية في كل أمر من أمور الدين والدنيا.

إن دروس السيرة النبوية التي يقدمها المعلم لطلابه يجب أن يجلي لهم ما فيها من العبر والحكم التي فيضها لا ينضب، وبقدر عقل المتأمل فيها تعطيه وتُجديه.

بيعة العقبة الأولى :

في الموسم التالي من العام الثاني عشر للبعثة جاء اثنا عشر رجلاً من الأوس والخزرج، يقول عبادة بن الصامت ﷺ (كنا مع رسول الله ﷺ في مجلس. فقال: تبايعوني على أن لا تُشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفس

---

[1] المرجع السابق (٢/ ٧١ــ٧٣)

التي حرم الله إلا بالحق، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به، فهو كفارة له، ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه، فأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه) [1]

وفي رواية (أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء أن لا نشرك بالله شيئا....) [2]

فلقد تضمنت هذه البيعة أوائل مبادئ الإسلام وهديه وأخلاقه التي تتوافق مع الفطرة السليمة، وتكفل لأصحابها قدراً كبيراً من حفظ الحقوق، وهي تلك المبادئ التي يجب أن تتأكد في نفوس أمة التوحيد. كما أن هذه المبادئ تشكل التدرج الدعوي للمنهج الإسلامي الذي ينزل على الرسول ﷺ شيئاً فشيئاً بما يتناسب مع حال الأمة، الأمر الذي يجب أن يراعيه المسلم في دعوته وتربيته، وفي منهج حياته كلها، وفي تعامله مع حاجاته ومع الآخرين .

وأول هذه الأسس: توحيد الله تعالى وعدم الإشراك به، وهو الأمر الرئيس الذي جاء به الأنبياء عليهم السلام، وهو رأس الإسلام، والذي لا يُقبل عمل مهما كان صلاحه من غير تحقيقه. ثم صيانة الفروج من الزنا وما يترتب على هذا الفعل الشنيع من المفاسد الاجتماعية والصحية والنفسية، إضافة إلى أنه من أشنع الرذائل السلوكية التي حرمها الله تعالى. ثم التوجيه إلى عدم الإسراف والتبذير الذي يؤدي إلى ضياع الأموال، ويشيع التباهي والتنافس البغيض بين أفراد المجتمع. ثم تلا ذلك الأمر الذي يحفظ الدماء من السفك بغير حق، والذي بحفظه تستقيم أمور الناس. فمن وفّى بهذه فأجره من رب البرية سبحانه وتعالى، ومن عوقب على ما اقترف فهو كفارة له، ومن ستره الله فأمره إلى الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه. فلقد

---

[1] مسلم (٣/١٣٣٣) برقم (١٧٠٩)

[2] المرجع السابق

ربــط رســول الله ﷺ هذه المبادئ بالثواب والعقاب، ولا يُشترط أن يطلع عليه الناس، بل إن ستره الله عنه، فلا يعني أنه لم يره، بل إن شاء عاقبه وإن شاء غفر له.

إنه المنهج الذي يربط العمل بالثواب والعقاب العاجل أو الآجل، مع البيان بــأن العقاب الآجل تحت مشيئة الله، يتيح الأمل أمام المذنب ليتوب ويؤب إلى ربه ســبحانه وتعــالى. كما أن هذا التوجيه النبوي يربي في المسلم تقوى لله في السر والعلن.

ولما انصرف عنه القوم بعث معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير، وأَمَرَه أن يُقرئهم القــرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة: مصعب. وكان منــزله على أسعد بن زرارة، وكان يُصلي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمّه بعض.[1]

إن في إرســال مصعب بن عمير ﷺ إلى المدينة ليعلم الناس دلالة واضحة على أن هذا الدين هو دين علم، وتَثَبُّتْ، وعبادة لله تعالى على علم ومعرفة. وليس الهــدف الدخــول في الإسلام بالانتماء فقط، ولو كان كذلك لكفى انتماؤهم إلى الإسلام. كما أن الله سبحانه وتعالى نشر بهذا الدين العلم وأظهره في جميع مجالاته، وفي هــذا أهمــية تعليم الجاهلين بدينهم، وأهمية الرحلة في الدعوة لإظهار دين الله تعــالى كما يُحب الله تعالى ويرضى، وأن تعليم القرآن من أهم ما يجب أن تهتم به المدارس والجامعات في جميع ربوع العالم الإسلامي، وأماكن المسلمين وتجمعاتهم في العــالم، وأن تُستَخْدَم كل وسيلة مجدية نافعة؛ تحقق الهدف وتَبْلُغ به المقصد، إضافة إلى تعالــيم الإســلام التي يجب أن لا تُقصر على المتخصصين في العلوم الشرعية، خاصة ما لا يسع المسلم جهله من الدين.

وينبغي أن لا يقتصر التعليم على مبادئ الدين الإسلامي فقط؛ بل لابد من التفقه في الدين، لأنه ﷺ قد أمر مصعب بأن يعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين.

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٢/٧٦ــ٧٧)

ويستفاد من ذلك أيضاً: أهمية إسدال اللقب العلمي على أهل العلم، وعدم مخاطبتهم بما يستوون فيه مع غيرهم من الألقاب، حيث لُقّب مصعب بالمقرئ.

وفيه نزول القادم على المضيف، وكرم الأنصار بأن نزل مصعب على أسعد بن زرارة، كما أن التخلي عن ما ألفه الإنسان لا يحصل بسرعة عاجلة، فلقد كره أن يؤم بعضهم بعضا بحكم ما كانوا عليه في جاهليتهم، ولكن بعد أن ترسخ الإسلام في قلوبهم، أصبح الإخاء بينهم علامة، والحب في الله سمة من سماتهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ويستفاد من ذلك أهمية أن يراعي الوالي أو الحاكم أو الإداري الاعتبارات التي تكون في نفوس الناس حتى يُجَلِّيها عنهم بمنهج الإسلام وهديه.

بيعة العقبة الثانية:

في موسم الحج التالي من العام الثالث عشر للبعثة النبوية المباركة تمت بيعة العقبة الثانية، والتي يرويها جابر ﷺ بقوله (مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يَتَّبَّعُ الناس في منازلهم بعكاظ ومَجَنَّة، وفي الموسم بمنى، يقول: "من يؤويني ؟ حتى أبلغ رسالة ربي، وله الجنة." حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر ــ كذا قال ــ فيأتيه قومه، فيقولون: احذر غلام قريش، لا يفتنك. ويمشي بين رجالهم، وهم يُشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله له من يثرب، فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا، فيؤمن به، ويُقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين؛ يُظهرون الإسلام. ثم ائتمروا جميعاً، فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يُطرَد في جبال مكة ويُخَافُ ؟ فرحل إليه منا سبعون رجلاً، حتى قَدِموا عليه في الموسم، فواعدناه شِعْبَ العقبة، فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين، حتى توافينا، فقلنا: يا رسول الله، علامَ نُبايعك ؟ قال: "تُبايُعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر،

وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافون في الله لومة لائــم، وعــلى أن تنصروني، فتمنعوني إذا قَدِمْتُ عليكم مِمَّا تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة".

قــال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زُرارة، وهو من أصغرهم، فقال : رويــداً يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلمُ أنه رسول الله ﷺ وإن إخراجه اليوم مُفَارَقَةُ العرب كافة،وقتل خياركم، وأن تَعَضَّكُم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك، وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جُبْنَةً فبينوا ذلك؛ فهو أعذر لكم عند الله، قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هــذه البــيعة أبداً، ولا نَسْلِبها أبداً. قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط، ويُعطينا على ذلك الجنة.) [1]

فمــن هذه الرواية الجامعة والموضحة لتفاصيل بيعة العقبة الثانيـــــة؛ يبين جابــر رضي الله عنه اســتمرارية الرسول ﷺ ودَأَبَه في تبليغ الرسالة في المواسم، ويقول: من يُؤويني ؟ من ينصُرُني ؟ وفي هذا بيان أن لصدود قومه، ومقدار الأذى الذي لحق به ﷺ قد بلغ مبلغاً عظيماً وخطيراً؛ وإلا كيف يبحث ﷺ عن مخرج ليخرج من مكة التي ولد وترعرع فيها، ولكنه الصبر الدَّؤوب منه ﷺ وتحمل جميع مشاق الرسالة بكل أمانة وصدق، الأمر الذي يؤكد للأمة أن ما يجب عليها هو حال ما كان عليه ﷺ إذ لم يضــعف أو يــتهاون في أمر الرسالة أمام تكالب الأعداء والضيم الذي واجهه من قومه، ولعمري إن أذى قوم الإنسان أشد على النفس من أذى الأعداء.

وكـــل عمـــل خـــير صـــالح ونـــاجح ومتميز يواجه الصد من الحاقدين والحاسدين، فقد كانوا أعداء الرسالة السماوية يمشون خلفه ويحذرون الناس منه، حـــتى خافت القبائل من إيواء الرسول ﷺ وحتى يخرج الرجل فيأتيه قومه فيقولون لـــه: احذر غلام قريش. إنه البث الإعلامي الذي أوصلوه إلى كل من يتصل بمكة،

---

[1] أحمد، المسند (٣/٣٢٢ــ٣٢٤)

أو يصل إليه أخبارها. وإنها لسنة من سنن الأولين؛ تتجدد في كل وقت وحين، وفي كل المستويات، تضعف تارة وتعلوا تارة أخرى، ولكن رسول الله ﷺ يعلمنا ماذا يجب أن نكون عليه أمام البث الكاذب والحاقد؛ وهو عدم الاكتراث والتأثر والاستسلام والنكوص، بل يجب المواجهة بالصبر وعدم الالتفات إليها، وعدم استخدام المواجهة في حالة الضعف، مع الاستمرار في العمل الدعوي والبناء، فإن النصر من الله تعالى. فهاهم الأنصار يُقْبِلُون على الإسلام قبولاً سريعاً، والرسول ﷺ يبعد عنهم المسافات الطِّوَال، حيث يقول جابر ﷺ : فيخرج الرجل منا فيؤمن به، ويُقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين، يُظهرون الإسلام. بينما حال كفار قريش الاستعداء ورسول الله ﷺ بينهم منذراً ومبشراً.

ثم يأتي دور الأنصار فيجتمعون بينهم جميعاً، وهنا درس تربوي عظيم، فلم يجتمع الكبراء منهم أو بعضهم، وإنما اجتمعوا جميعاً لأن الأمر لا يخص زيد دون عمرو، أو عمرو دون زيد، كما أن في ذلك صرفاً وإبعاداً للحقد والضغائن، كما أن فيه اعترافاً بحقوق الآخرين وعدم تجاهلها، وهو ما يحتاج إليه العمل الجماعي اليوم، سواء كان في أمور الدعوة، أو في ميدان الإدارة، أو الأسرة، بل وفي كل أمر يتطلب رأي المجموعة، وعدم الاستئثار بالرأي دون مشاركة البقية، أو تهميش دور البعض لأي سبب كان.

وبعد مناقشة الموضوع مناقشة ممتلئة بالحيثيات الدينية، وما يجب عليهم إزاء نُصرة رسول الله ﷺ يتم اتخاذ القرار الجماعي، فيرحل إليه سبعون رجلاً، واتخذوا سبيل الحيطة والحذر في الوصول إليه ﷺ حتى لا يراهم أحد، فكان يخرج الرجل والرجلان حتى توافوا عنده ﷺ وإنها الحنكة والحكمة التي ترى أهميتها وإلزاميتها لينجح الأمر.

بنود مبايعة العقبة:

ثم يأتي معرفة بنود المبايعة من رسول الله ﷺ فيبين لهم أنها:

ـ السمع والطاعة في المنشط والمكره.

وهـــو الأمر الذي لا تستقيم أمور الدعوة إلا باتباع الداعي إلى الخير، في جميع أحوال النفس البشرية، فيما تنشط إليه أو تكسل عنه، وفي هذا بيان على أن لا يقتصـــر إعـــداد النفس للخير حال المنشط فقط، بل يجب أن يتجاوزه إلى حالة الدعـــة والكســـل، ويستفاد من هذا البند: أهمية أن يعد المسلم نفسه أثناء ممارسة أعمالـــه الصـــالحة نحو الاستمرارية، وعدم الركون للكسل والتوقف، فالمسلم لا يعرف الكسل طريقه إليه، بل هو في نشاط وحركة دؤوبة؛ أثناء طلبه العلم، وأثناء ممارســـته لـــتجارته، وإدارته، ومهنته، وفي كل أنشطة الحياة، وفي هذا البند أهمية الطاعـــة لـــولي الأمر ما لم يكن فيه معصية لله تعالى، فإنه من أهم أسس النجاح، وسواء كان في ولاية الأمر الحاكمة، أو في ولاية الأمر المهنية، أي في دائرة العمل.

ـ والنفقة في العسر واليسر.

ويؤكـــد هـــذا البند أهمية النفقة في جميع الأحوال، إذ لا تستقيم الأمور الدَّعويـــة إذا اقتصر الإنفاق على حالة اليسر. وهكذا يكون المسلم في إنفاقه على دروب الخير ومصالح المسلمين في عُسره ويُسره، فهو جواد في كل أحواله، ويزداد عطاءً في حالة السعة واليسر.

ـ وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولا تستقيم أمور المسلمين إلا بتعاهد بعضهم بعضاً بالأمر بالمعروف والنهي عـــن المنكر. وفي هذا تأكيد على أن هذه الشعيرة من أهم الشعائر الدينية؛ حيث اهتم بها رسول الله ﷺ في أوائل أمور الدعوة.

ـ وأن تقولوا في الله لا تخافون لومة لائم.

ويؤكد هذا البند حقيقة الإيمان، إذ لا يحقق هذا المطلب إلا من قوي إيمانه بخالقه سبحانه وتعالى، وأما ضعفاء الإيمان فإن المجاملة والمداهنة رمز لمعاملاتهم في جميع شؤون الحياة: في الاقتصاد والإدارة والدعوة والتعليم، وفي غير ذلك من ميادين أعمال الحياة. لأن ضعيف الإيمان يُقَدِّر الأمور بميزان الأسباب في معزل عن خالق الأسباب ومدبر الأحوال سبحانه وتعالى، وبالتالي يجري ويدور مع الأسباب الموهومة، فيهاب لوم اللائمين وعتاب العاتبين بغير حق، وبالتالي يداهن ويرائي ويجامل على حساب الحق والحقائق.

وبهذا البند يتقوى المسلمون؛ إذ أنه لا مجال للمداهنة المبنية على مخافة لوم اللائمين، بل الحق هو البند الأعلى والكفاح له درع وسياج.

ـ وعلى أن تنصروني، فتمنعوني إذا قَدِمْتُ عليكم مِمَّا تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم.

ويوضح هذا البند خُلُق البيعة الذي ينفي سلوك الخذلان، لمن قَدِمَ عليهم، وأن يكون الحفاظ عليه يوازي حفظ الذات والأهل. وهكذا يجب أن يكون خُلُق المسلم مع إخوانه ومع من يعاهده بالحماية والذود عنه. ولذلك وجد المعاهَدُون الأمن والأمان من المسلمين.

وإذا طبق الرجل ذلك في أهله وإدارته ومهنته وسوقه وتجارته فإن محل الثقة تنعقد عليه ممن يُحيطون به، فلا يخافون منه خيانة ولا خذلان في الحق وإحقاقه.

ـ ولكم الجنة.

وهو الجزاء والمكافأة من الله تعالى، الذي يطمع إليه كل عاقل من الناس.

وهذا يؤكد أهمية المكافأة، وحجم المكافأة الذي يجب أن يتوازى مع الجهد والعمل، حتى يكون له معنى وأثر، فإن هذه المطالب أعمال عزيزة كريمة، ولها تبعية

عظيمة الأثر، أكدها أسعد بن زرارة، بقوله: وإن إخراجه اليوم مُفَارَقَةُ العرب كافة،وقتل خياركم، وأن تَعَضَّكُم السيوف، فكانت المكافأة أعظم من ذلك بكثير، إنها الجنة التي أعدها الله تعالى لمن تبع دينه، فلا يشقى صاحبها أبداً ولا يندم.

إن هذه البنود لتؤكد وضوح الهدف من الرسالة السماوية، إذ أنها تنصب على نصرة دين الله تعالى، وأن مناصرة الرسول ﷺ هي لحفظ هذا الدين ونشره، وليس فيها استعداء القبائل الأخرى بالهجوم؛ واستخدام القوة، بل إنما هي نصرته ﷺ ومنع الأذى عنه، وليس فيها ما يُشير إلى الغبن أو إلى النوايا السيئة، وهذا بلا شك يؤكد سمو الرسالة في أهدافها وأخلاقها وأسلوب تعاملها، وأنها من عند الله تبارك وتعالى.

ومن فوائد هذا الحدث الإسلامي العظيم، أن تقدم أسعد بن زرارة فتكلم، وهو من صغار القوم سناً، مما يبين أن صغر السن لا يمنع صاحبه من التحدث أمام من هم أكبر منه إذا كان أهلاً للكلام. وما أظن أن أسعد بن زرارة قد تقدم لو لم يكن ذلك ديدن القوم التربوي لأبنائهم، بأن يعطوهم الفرصة للتحدث أمام الآخرين.

فلقد نبههم إلى أمر مهم، وكأني به ﷺ أراد أن يستوثق للرسول ﷺ إذا ما ظهرت الأمور بشكل عصيب، وأن يلزموا بنود المعاهدة. وإنه لنصح في استوثاق حكيم. فأكد له قومُه في حزم وثقة أنهم ماضون في نصرة رسول الله ﷺ فقالوا له: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً، ولا نَسْلِيها أبداً.

وبهذه البيعة المباركة من الأنصار المباركين بدأ التخطيط النبوي للهجرة إلى المدينة، التي ستكون مأرز الإيمان. فأصبحت كذلك. فلله در أهل بيعة العقبة من رجال أوفياء صدقوا ما عاهدوا رسول الله ﷺ عليه.

الفصل الثالث

الهجرة إلى المدينة

الهجرة إلى المدينة :

لقد استمر اشتداد الأذى على المسلمين حتى قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في وصف حالهم وما حصل لهم من الضيق(كان المؤمنون يَفِرُّ أحدهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله مخافة أن يُفْتَن عليه) [١].

وفي ذلك الحال من الأذى والاستضعاف بالمسلمين من كفار قريش رأى رسول الله ﷺ في المنام وصفاً لدار الهجرة التي ستكون موطن الرسالة والدعوة، فقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال:(رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهَلي إلى أنه اليمامة أو هَجَر، فإذا هي المدينة يثرب)[٢].

وقالت عائشة رضي الله عنها(فقال النبي ﷺ للمسلمين: إني أُرِيتُ هجرتكم ذات نخل بين لابتين، وهما الحرَّتان. فهاجر من هاجر قِبَل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة....)[٣].

وهكذا بدأ التدفق نحو مدينة رسول الله ﷺ فعن البراء ﷺ قال (قَدِم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم. ثم قدم علينا عمار بن ياسر و بلال رضي الله عنهم)[٤] وعنه ﷺ قال (أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، وكانوا يُقْرِئون الناس، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر. ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ . ثم قدم النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ) [٥]

---

[١] البخاري (٦٧/٣) برقم(٣٩٠٠) .

[٢] البخاري (٦٦/٣) باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

[٣] البخاري(٦٨/٣ــ٦٩) برقم (٣٩٠٥).

[٤] البخاري (٧٥/٣ــ٧٦) برقم (٣٩٢٤)

[٥] البخاري (٧٦/٣)برقم (٣٩٢٥)

وتبين رواية البراء بن عازب ﷺ أن من وظائف بعض الصحابة ــ رضي الله تعالى عنهم ــ القيام بالجانب التعليمي، حيث كان مصعب بن عمير وابن أم مكتوم يقومان بتعليم الناس ما نزل من القرآن الكريم؛ وما عَلِمُوا من سنة رسول الله ﷺ . مما يؤكد أن منهجه ﷺ قائم على التعليم الذي يُخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ ومن الباطل إلى الحق؛ الذي يَسعد الناس به. فلم تكن رسالته ﷺ مجرد تجمع بشري انتمائي للإسلام فقط، بل إنه عِلْمٌ وَعَمَلٌ على بصيرة، فيثري المجتمع بعلوم الشريعة التي تجمع قلوبهم وكلمتهم وتوحد صفوفهم وأهدافهم ومنهجهم؛ كما اجتمع المسلمون في مدينة رسول الله ﷺ على اختلاف ألوانهم وقبائلهم، التي يَعِزُّ على أفرادها أن يجتمعوا بغير هذا الدين القويم.

ثم لما علم كفار قريش هجرة المسلمين وتدفقهم على المدينة؛ خَشَوا على أنفسهم من أن يَكْثُرَ سواد المسلمين ويتقوَّون؛ فتنقلب الدائرة عليهم؛ فأخذوا يضعون العراقيل أمام المسلمين؛ لمنعهم من الهجرة، ولعل في حديث هجرة أبي سلمة وأم سلمة صورة ومثال لبعض تلك العراقيل: فعن أم سلمة ــ رضي الله تعالى عنها ــ: أنه لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره؛ ثم حَمَلني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، فلما رأته رجال بني المغيرة؛ قاموا إليه: فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله؛ لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموه من صاحبنا، قالت: فتجاذبوا بُنَيَّ سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة...[1]

يظهر في هذا المشهد من هذه الحادثة المعاضدة الجاهلية؛ والعصبية القبلية، دون مراعاة لحق الرجل في أهله، أو حريته في التصرف، والانتقال من مكان لآخر. بل غابت عندها الجوانب العاطفية، المتعلقة بالأمومة والأبوة، حتى تسابقت الأيادي

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٢/١١٢ــ١١٣)

علـى طفـلها؛ لتـنخلع يده. ولكنها الإرهاصات التي تسبق فجر النور المضيء للعقول؛ والمزكي للنفوس. فيفيد هذا الموقف فضل هذا الدين على أولئك؛ وعلى كل من اعتنقه ودان به في كل زمان ومكان.

قالـت: فَفُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني، قالت: فكنت أخرج كل غداة فـأجلس بالأبطح؛ فما أزال أبكي حتى أمسي سنةً أو قريباً منها، حتى مر بي رجل مـن بني عمي، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تُخرجون هذه المسكينة! فَرَّقْـتُم بيـنها وبين زوجها وبين ولدها ! قالت: فقالوا: الحقي بزوجك إن شئت، قالت: وَرَدَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني...[1]

فسنة أو قريباً منها تبكي ابنها وزوجها، فلم تجد من قومها إلا رجلاً واحداً يـتعاطف معها؛ بعد تلك الفترة الزمنية الطويلة، ليتبين قدر الضعف العاطفي، بل موته أحياناً عندما يكون في الحمية الجاهلية، وبعيداً عن نور الإسلام وهديه.

ثم تقول أم سلمة: فارتحلتُ بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجـت أريـد زوجي بالمدينة، قالت: وما معي أحد من خلق الله. قالت: فقلت: أَتَـبَلَّغُ بمـن لقيت حتى أَقْدِمَ على زوجي؛ حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، فقال لي : إلى أين يا بنت أبي أمية ؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمديـنة. قال: أو ما معك أحد ؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا الله وبُنَيَّ هذا. قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه أكرم منه، كان إذا بلغ المنـزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى عني إلى شـجرة، فاضـطجع تحـتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي . فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقـاده، حتى ينـزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٢/١١٢ـــ١١٣)

قــرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية، وكان أبو سلمة بها نازلاً، فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة.

فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة.[1]

وهكذ توضح هذه القصة الأليمة لأم سلمة وأبي سلمة المعاناة القاسية التي تحملاهــا لقــاء إسلامهما، ولقاء الهجرة إلى المدينة للفرار بدينهما من سطوة كفار قريش، فيتحمل أبو سلمة فراق زوجه وولده لقاء ظفره بدينه؛ تاركاً زوجته وابنه لله تعــالى؛ الحــافظ لكل شيء، وإن موقفه ليذكر باستجابته لقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1]

ولكَم يلتهي الناس بأزواجهم وأولادهم عن طاعة الله تعالى، بل ربما يُقدِّم رغبات زوجته وأبنائه التي فيها شيء من المعصية لله تعالى، وإنه لفرق شاسع وكبير بــين تضحية أبي سلمة وبين من يذهب بزوجته وأولاده إلى المعاصي، أو لا ينهاهم عن المعاصي، أو يستجيب لهم في معصية الله تعالى.

ثم ها هي الأم والزوجة المستضعفة تواجه فراق زوجها قصراً؛ والمهاجر إلى مديــنة رســول الله ﷺ وفــراق الابن الذي انتزع من حِجْرِها عنوة، ولم تجد من يُنصــفها ويُعــيد إلــيها حقوقهــا في جاهلية توقفت عنها مكارم الأخلاق؛ لقاء الإجحاف والتنكيل من كفار قريش، فلم يعد عندها إلا وسيلة إظهار ما أصابها لمن يمر بالأبطح، وهي تخرج فيه يومياً تبكي وتشكوا حالها، حتى أنقذها الله تعالى بابن عم لها، أعطاها حقها وحريتها وأعاد إليها ابنها لتنطلق به إلى المدينة وحدها، فَغَلَبَ

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٢/١١٢ـــ١١٣) بشيء من الاختصار

[1] سورة المنافقون: آية رقم (٩)

فَرَحُهَا مخاوف الطريق وأهواله، ولكنه حب الهجرة إلى الله تعالى بدينها. وعناية الله تعالى بها؛ إذ سخر لها سبحانه وتعالى عثمان بن طلحة بن أبي طلحة؛ الذي أظهر الله علـيه مكـارم الأخـلاق من العفة والعناية بأم سلمة، ومعرفة حقها من حفظ لها وعـناية؛ في نُـبل من الأخلاق؛ حتى قالت عنه أم سلمة رضي الله عنها: ما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة، فها هي المرأة المسلمة تُقدم لمثيلاتها الكفاح والصبر على الأذى في دينها، ولم يفتنها شيء عن إيمانها، بل بذلت جهدها في تحقيق قصدها؛ فوفقها الله تعالى الكريم الجواد.

وهكذا يحفظ الله تعالى لأبي سلمة زوجته وولده ويعيدهما إليه في حفظ منه جلَّ جلاله. كما قال ﷺ (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك)[1]

وبعـد هـذه الصورة المؤلمة في حياة أبي سلمة وأم سلمة رضي الله تعالى عـنهما، والـتي هي من مقدمات الهجرة النبوية إلى المدينة؛ وما لقيه المسلمون من كفار قريش؛ يعزم أيضاً أبو بكر الصديق ﷺ الرحيل إلى المدينة، ولكن رسول الله ﷺ يبشره بأنه يأمل من ربه أن يأذن له بالهجرة إلى المدينة، فيصحبه في هجرته، فعن أم المؤمـنين عائشة رضي الله عنها قالت:(... وتجهز أبو بكر قِبَل المدينة، فقال له رسـول الله ﷺ على رِسْلِك، فإني أرجوا أن يُؤْذَن لي. فقال أبو بكر: وهل ترجوا ذلـك بـأبي أنت ؟ قال: نعم. فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعَلَّفَ راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُر وهو الخبط أربعة أشهر...)[2]

يفـيد هـذا العزم من أبي بكر الصديق ﷺ قوة العزيمة، وعمق الحب لهذا الديـن، الذي أصبح أحب إلى معتنقيه من الوطن والعشيرة والأهل. كما يفيد أن هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة بتوجيه من الله تعالى. وفيه كذلك من الفوائد: الأخذ

---

(1) الترمذي (٤/٥٧٥ـ٥٧٦) برقم (٢٥١٦) وأحمد (١/٢٩٣)

(2) البخاري (٣/٦٨ـ٦٩) برقم (٣٩٠٥)

بالأسباب، والاستعداد للأمر بوقت كاف، حيث (عَلَّفَ راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُر وهو الخبط أربعة أشهر)

(...قــال ابن شهاب قال عروة قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوسٌ في بيــت أبي بكــر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنِّعاً. في ســاعة لم يكــن يأتينا فيها، فقال أبو بكر فداء له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر. قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأُذِن له، فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكــر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلُك بأبي أنت يا رسول الله، قــال : فإني قد أُذِن لي في الخروج. فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله.قال رسول الله ﷺ : نعم...) [1]

ومــن فوائــد هذا المقطع في الترتيب للهجرة: اختيار الصاحب الصادق، فلقد اختار عليه الصلاة والسلام الصاحب الصادق الذي لا يتوانى بقليل أو كثير في خدمــة رسول الله ﷺ ولا يدخر لنفسه شيئاً عن رسول الله ﷺ حتى أنه حمل في هجــرته جمــيع ماله، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: (لما توجه رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة ومعه أبو بكر، حمل معه جميع ماله؛ خمسة ألف أو ستة ألف درهم) [2]

وكذلك من فوائد هذا المشهد النبوي مع أبي بكر الصديق ﷺ أخذ العدة للأمــر الــذي يُقدم عليه الإنسان، حيث اتخذ الرسول ﷺ وصاحبه راحلتين، قد علفهــا الصديق ﷺ ورق السمر، مدة أربعة أشهر، وهذا يعني أنها أقدر ما تكون على هذه الرحلة الطويلة بإذن الله تعالى.

ثم تــأتي أهمية السرية في الأمر، فيقول ﷺ لأبي بكر: (أخرج من عندك) ويستفاد من هذا أنه لا غضاضة أن يطلب خروج من يُخاف أو يُخشى منه، ولكن

---

[1] البخاري (٣/٦٨ـــ٦٩) برقم (٣٩٠٥)

[2] الحاكم، المستدرك (٣/٥)

أبا بكر يبين أن الموجودين هم أهل لرسول الله ﷺ يخافون عليه كما يخافون على أبي بكــر الصديق ﷺ. وصدق الصديق عندما قال للنبي ﷺ: إنما هم أهلك، فها هي أسماء تقطع من نطاقها لتربط به على فم الجراب، فَسُمِّيت: ذات النطاقين.

وفي هذا بيان لحال ومنهج الصِّدِيقِ مع صَدِيقِه، وكذا المرء مع رسالة نبيه، فيتمــثل بمــا تمثل به أبو بكر الصديق ﷺ الْمُحِب لرسوله، إذ يقول للنبي بعد أن أخــبره أنه قد أُذن له في الهجرة، الصحبة بأبي أنت يا رسول الله ، ويعنى ذلك أن يتحمل المتاعب والمشاق من أجل نصرة ما جاء به نبيه محمد ﷺ

ثم تقــول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في وصف ما دار بين النبي ﷺ وأبي بكــر الصــديق ﷺ (... قــال أبو بكر: فَخُذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين. قال رسول الله ﷺ : بالثمن. قالت عائشة: فجهزناهما أَحَثَّ الجهاز وصنعنا لهما سُفْرَة في جِراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق...) [1]

ويفيد هذا لمقطع المحبة المفعمة بالصدق والفداء من أبي بكر لرسول الله ﷺ لــيعط المثل الصادق في كيفية المحبة والفداء للرسول ﷺ إذ يقول: خذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي، فَيُجيبه ﷺ : بالثمن . مما يفيد أن لا تقضي الصداقة على الحقــوق، وأن لا تكــون مبنية على الاستغلال، وقد كان ذلك بين النبي ﷺ وبين صــاحبه، فهــي لازمة في حق أبي بكر الصديق ﷺ لرسول الله ﷺ مما يجعلها بين غيرهمــا أولى. وإنها الأريحية مع الصديق، فما أحوج الناس إلى هذه المعاني الخُلُقية والســجايا الكــريمة الــتي بينها رسول الله ﷺ قولاً وعملاً؛ وفي أحلك الظروف وأصعبها.

[1] البخاري (٣/٦٨ــ٦٩) برقم (٣٩٠٥)

ثم تأتي الصورة الأخرى من أسماء بنت أبي بكر الصديق ــ رضي الله تعالى عنهما ــ فتبادر إلى فعل الخير، حيث قطعت من نطاقها بما تربط به فم الجراب. مما يفيد أهمية المبادرة لفعل المعروف، بأقصى ما يستطيع المسلم.

وأمــا حال قريش فلما رأت خروج المسلمين إلى المدينة وعودة من هاجر إلى الحبشه نحو المدينة أيضاً، أخذ مكرهم يزداد تجاه رسول الله ﷺ فقرروا بعد أن تشاوروا في أمره ﷺ بقرارات متعددة، ولكن الله تعالى فوقهم مطّلع عليهم فَأَطْلَع رســوله على ما يمكرون به، فلحق بالغار، وقد روى ابن عباس رضي الله عنه في قولــه (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك. قال: تشاورت قريش ليلة بمكة؛ فقال بعضـــهم: إذا أصـــبح فأثبتوه بالوثاق، يريدون النبي ﷺ وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: أخرجوه، فأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك، فبات علي على فراش الــنبي ﷺ تلك الليلة، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علــياً يحســبونه النبي ﷺ فلما أصبحوا ثاروا إليه؛ فلما رأوا علياً رد الله مكرهم، فقالوا أين صاحبك هذا ؟ قال: لا أدري...)[1]

فبعد أن أطلع الله تعالى نبيه على ما عزمت عليه قريش من النوايا السيئة، يتخذ الأسباب عليه الصلاة والسلام، فيترك عَلِياً ﷺ على فراشه تلك الليلة التي ذهــب فيها إلى الغار، فأخذوا يحرسون علياً حتى أصبحوا، فرد الله مكرهم بغيظ يطعن قلوبهم، حيث اتضح لهم بعد طول ليل أنه علي ﷺ وليس رسول الله ﷺ.

وهــذا دلــيل على شجاعة علي بن أبي طالب ﷺ والمحبة الفائقة والقدر العظيم الذي يحمله لرسول الله ﷺ. وفيه كذلك أهمية الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى.

---

(1) أحمد، المسند (١/٣٤٨)

ثم تقول رواية الحديث (... فاقتصوا أثره؛ فلما بلغوا الجبل خُلِّط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت. فقالوا: لو دخل ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه. فمكث فيه ثلاث ليال) [1]

فهذه عناية الله تعالى تَحُفُّ رسوله وصاحبه في الغار، فيمر كفار قريش من عند الغار زاهدين فيه لِمَا شاهدوا من بيت العنكبوت على الغار، وقد وقفوا موقفاً لو طأطأ أحدهم رأسه لرآهم، كما قال أبو بكر الصديق ﷺ

وهكذا تتجلى قدرة الله تعالى العظيمة في حفظه وعنايته برسوله ﷺ وصاحبه الصديق ﷺ

وهكذا يكون المؤمن متخذاً للأسباب معتمداً على الله تعالى متوكلاً عليه، فهو الحافظ لعباده في الليل والنهار، وفي البر والبحر، وبين الأشجار والغابات وبين الوحوش، وفي الصحاري بين الهوام.

ولكي تتم الخطة بنجاح يذهب رسول الله ﷺ وصاحبه إلى غار ثور، فيمكث فيه ثلاث ليال، حتى تنقطع أنظار الناس وييأسوا من وجوده ﷺ

وهذا يدل على أهمية التخطيط وحُسن التفكير والتدبير؛ والأخذ بالأسباب، التي جعلها الله تعالى من مقتضيات دفع المكائد والشرور.

ويذكر أبو بكر الصديق ﷺ موقعهم من الغار؛ فيقول: (كنت مع النبي ﷺ في الغار، فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا. قال: اسكت يا أبا بكر، اثنان الله ثالثهما) [2] قال تعالى ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ

[1] أحمد، المسند (١/٣٤٨)

[2] البخاري (٣/٧٥) برقم (٤٩٢٢)

ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾(١) قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مبينة مدة بقائهما في الغار، وكيفية تزويدهما بالطعام وأخبار قريش: (... ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فكَمِنَا فيه ثلاث ليال، يبيت عند هما عبدالله بن أبي بكر؛ وهو غلام شاب ثَقِف لَقِن، فيدلج من عند هما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه؛ حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم؛ فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العِشَاء، فيبيتان في رِسلٍ، -وهو لبن منحتِهما ورَضيفهما- حتى ينعق(٢) بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث...)(٣)

يبين هذا المشهد من رواية عائشة رضي الله تعالى عنها، المزيد من الأهمية التخطيطية؛ والأخذ بالأسباب، وجمع المعلومات التي يسهل من خلالها اتخاذ القرار، وهو ما يُعنى به في عمليات التخطيط؛ بمختلف مستوياتها، وفي جميع الميادين والمجالات، فَيُتَخَذُ الشاب الحاذق سريع الفهم، عبدالله بن أبي بكر الصديق، فيبيت عندهم الليل، فيصبح مع قريش، وينقل لهما ما يسمعه من الأخبار التي يتحدثون بها عن الرسول ﷺ ويعود إليهما حين يختلط الظلام، حيث لا يراه ولا يتوقع بخروجه أحد. مما يؤكد أهمية العناية بالأسباب، وحُسن التدبير والتفكير، مما يبين أن

---

(١) سورة التوبة: آية رقم (٤٠)

(٢) المنحة: تطلق على الشاة. والرضيف: اللبن المرضوف، التي وضعت فيه الحجارة المحماة بالشمس أو النار، لينعقد وتزول رخاوته. ينعق: أي يصيح بغنمه. والنعيق: صوت الراعي إذا زجر الغنم. الفتح (٨/٢٣٧).

(٣) البخاري (٣/٦٨–٦٩) برقم (٣٩٠٥).

المنهج الإسلامي يراعي الأخذ بالأسباب، والعناية بها، مع الاعتماد على الله تعالى، وهـو ما أكده ﷺ لصاحبه عندما قال له (لا تحزن إن الله معنا) كما جاء في الآية الكريمة.

ولـلمزيد مـن الأخذ بالأسباب، يأتي عامر بن فهيرة بعد العشاء بالغنم يرعاها، ثم يعود بها بغلس، فيشربون من لبنها، ويمحوا بها خُطى عبدالله بن أبي بكر رضـي الله عـنهما، فلقد اُتخِذَت جميع الوسائل التي يحتاجها في الغار من الطعام ومعرفة الأخبار بدقة وعناية.

ثم تقـول أم المؤمـنين عائشة رضي الله تعالى عنها في وصف هذه الهجرة النبوية (...واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدِّيل، وهو من بني عبد بن عدي هادياً خِرِّيتا ـ والْخِرِّيْت: الماهر بالهداية ـ قد غمس حلفاً في آل العاص بـن وائـل السـهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه، فدفعا إليه راحِلَتيهما، ووعـداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فأخذ بهم طريق الساحل) [1]

يبين هذا المقطع من الحديث أنه قبل ذهابهما إلى الغار استأجرا رجلاً ماهراً بالطـريق إلى المديـنة، وهـو عبدالله بن أُرَيْقِط الليثي، ليكون دليلهما من جهة السـاحل، الذي لا يتوقعه أحد من قريش، وبالرغم من أن الدليل ليس مسلماً إلا أنهمـا أمّـناه فدفعا إليه راحلتيهما، وهذا يعني أنهما قد عرفا حال هذا الرجل من حيـث أمانته وصدقه ووفائه وخبرته المعرفية بالطريق، وهذا ما ينبغي مراعاته عند توظـيف العاملين في المواقع المهمة والحساسة، من اختيار الأكفأ الخبير الذي يؤدي العمـل ويـنجزه عـلى أحسن ما يكون. وفيه الاستفادة من الكافر إذا لم يوجد المسلم، وكان ممن يؤمن جانبه.

فلقد أخذت مراحل الخطة للهجرة مرحلتين:

---

(1) البخاري (٣/٦٨ـ٦٩) برقم (٣٩٠٥)

المـــرحلة الأولـــى: بعد بيعة العقبة الثانية، عندما أرسل رسول الله ﷺ مصعب بن عمـــير ﷺ إلى المديـــنة لـــيُعَلِّم الناس، ومعه ابن أم مكتوم ﷺ وأخبر الرسول ﷺ أصحابه بأنه رأى دار هجرتهم ذات نخل بين لابتين، فهاجر من هاجر من المسلمين، وبذلك تكونت النواة الأولى للمسلمين من مهاجرين وأنصار في مدينة رسول الله ﷺ وإنها لمرحلة مهمة جداً؛ تتهيأ فيها المدينة لأمر عظيم، هو قدوم رسول الله ﷺ إليها، وانتقال الرسالة إلى رحابها.

المرحلة الثانية: وهي هجرة المصطفى ﷺ فاتخذ فيها عليه الصلاة والسلام أسباب الرحـــيل؛ من إعداد وتجهيز وتموين وراحلة ودليل، مما يؤكد أن المنهج الإسلامي منهج علمي عملي، قائم على الأخذ بالأسباب والاجتهاد فيها غاية الاجتهاد، مع التوكل على الله حق التوكل، وكلا الأمرين ظاهرين في هجرته ﷺ فلقد كان يقول لصـــاحبه وهـــو في الغار: (اثنان؛ الله ثالثهما) فهو غاية التوكل الذي يبعث الثقة والاطمئـــنان، وكذلـــك عندما قدم عليهم سراقة؛ على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعـــالى. وفي نفس الوقت أخذ عليه الصلاة والسلام بجانب الأسباب في دقة وعناية واهـــتمام، لتعطيـــنا هـــذه الهجرة في جميع خطواتها أهمية الدقة في العمل والمنهج والتفكير، وحساب جميع العوامل والاحتمالات التي يمكن أن تطرأ على الإنسان في عمله وأدائه اليومي، فهاهو ﷺ يخرج إلى بيت أبي بكر في نحر الظهيرة؛ عند اشتداد حـــرارة الشمس، حيث الناس يتظللون في بيوتهم من حرارة الشمس، وبالتالي لن يرصدوا حركته ﷺ

عـــلماً أن الله تعـــالى قادر على أن يسري به إلى المدينة كما أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. ولكن رسالته علم ومنهج يقتدي به المسلمون في جميع شؤونهم، فيتعرض عليه الصلاة والسلام لما يتعرض له البشر من مصاعب، ويتخذ الأسباب ويجتهد في ذلك؛ مع التوكل على الله حق التوكل.

وبعد خروج المصطفى ﷺ وأبي بكر ﷺ من الغار في طريقهما إلى الساحل؛ لِيَنْفُذَا من خلاله إلى المدينة، يواجهان مواقف عديدة، قد تجلت فيها معية الله تعالى لهما، وكرم خُلُقه ﷺ وبعض المعجزات الباهرات، وكذا محبة الصديق له عليه الصلاة والسلام، وشهادة من يقابله ممن لا يعرفه بأنه نبي؛ لما يرون عليه من الصفات والخلال التي لا يمكن أن تكون إلا في نبي، فيروي منها البراء بن عازب، فيقول: (جاء أبو بكر الصديق إلى أبي في منزله. فاشترى منه رحلاً، فقال لعازب: ابعث معي ابنك يحمله معي إلى منزلي. وقال لي أبي: احمله فحملته. وخرج أبي معه يَنْتَقِدُ ثَمَنَه.[1]...)[2]

يبين هذا المقطع صورة لأسلوب التعامل التسويقي في البيع والشراء؛ والذي كان سائداً في مدينة رسول الله ﷺ ذلك الوقت. من معاونة الإبن لأبيه في بيعه وشرائه، وكذلك خدمة المشتري؛ بحمل ما يشتريه لداره، والذهاب مع المشتري لقبض الثمن. مما يبين الخُلُق الرفيع الذي تتميز به أخلاق التجارة في رحاب الإسلام، والتواضع الذي كان سائداً في ذلك الوقت، مما يعطي نموذجاً تربوياً عاليا في هذا الباب.

ثم يقول البراء ﷺ حاكياً طريق الهجرة النبوية (... فقال له أبي: يا أبا بكر ! حدثني كيف صنعتما ليلة سَرَيْتَ مع رسول الله ﷺ قال: نعم. أَسْرَيْنا ليلتنا كلها. حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق فلا يمر فيه أحد. حتى رُفِعَتْ لنا صخرة طويلة لها ظل. لم تأت عليه الشمس بعد، فنزلنا عندها، فأتيت الصخرة فسويت بيدي مكانا، ينام فيه النبي ﷺ في ظلها. ثم بسطت عليه فروة، ثم قلت: نم يا رسول الله ! وأنا أنفض لك ما حولك. فنام وخرجت أنفض ما حوله...)[3]

---

(1) أي يستوفيه.

(2) مسلم (٤/٢٣٠٩–٢٣١٠) برقم (٢٠٠٩)

(3) مسلم (٤/٢٣٠٩–٢٣١٠) برقم (٢٠٠٩)

وفي هـــذا المشـــهد من الخبر: عناية واهتمام أبي بكر الصديق ﷺ بخدمة رسول الله ﷺ فكان يهيئ المكان المناسب لرسول الله ﷺ لينام أو يستريح، ويعمل ذلـــك بنفســـه ﷺ ، ويستفاد من ذلك أهمية احترام ذوي الفضل من أهل العلم وخدمتهم، والعناية بهم؛ لأنهم ورثة الأنبياء.

ثم يقـــول أبـــو بكر الصديق ﷺ (...فإذا أنا براعي غنم مقبل بغنمه إلى الصـــخرة، يريد منها الذي أردنا، فلقيته فقلت: لمن أنت ؟ يا غلام ! فقال: لرجل مـــن أهل المدينة، قلت: أفي غنمك لبن ؟ قال: نعم. قلت: أفتحلب لي؟ قال: نعم. فـــأخذ شـــاة، فقلت له: أنفض الضرع من الشعر والتراب والقذى، (قال:فرأيت الـــبراء يضرب بيده على الأخرى ينفض) فحلب لي في قَعْبٍ [١] معه، كُثْبَةً [٢] من لبن، قال: ومعي إداوة [٣] أرتوي فيها للنبي ﷺ ليشرب منها ويتوضأ، قال: فأتيت النبي ﷺ وكرهت أن أُوقِظَهُ من نومه، فوافقته استيقظ، فصببت على اللبن من الماء حـــتى برد أسفله، فقلت: يا رسول الله ! اشرب من هذا اللبن، قال: فشرب حتى رضـــيت، ثم قـــال: (ألم يأن للرحيل ؟) قلت: بلى، قال: فارتحلنا بعد ما زالت الشمس...)[٤]

ومن فوائد هذا الحدث؛ لطفه ﷺ في المعاملة، فلم يَقُل لأبي بكر الصديق: لنذهب، وإنما قال له ذلك بصيغة الاستفسار، (ألم يأن للرحيل) ولا شك أنها ألطف وأبلـــغ في التأثير، فكيف إذا كانت من رسول الله ﷺ لصاحبه ؟ ويستفاد من ذلك أهمـــية استخدام أساليب التلطف من الأعلى للأدنى في مجالات الحياة المختلفة، مع

---

[١] القعب: قدح من الخشب مقعر.

[٢] الكثبة: هي القدر الذي يُحلب فيه، وقيل: هي القليل من الحليب.

[٣] الإداوة: إناء صغير من جلد.

[٤] مسلم (٤/٢٣٠٩ـــ٢٣١٠) برقم (٢٠٠٩)

الأبناء والزوجة والمرؤوسين، وغيرهم، فإنها وسيلة وغاية وأداة تؤدي إلى نماء العلاقات العامة بين الناس.

كما يتبين من هذا المقطع حرصه ﷺ على سلامة رسول الله ﷺ بأن طلب من الراعي أن ينفض الضرع من الشعر والقذى والتراب.

ثم يقول البراء ﷺ (...واتَّبَعَنَا سراقة بن مالك، قال: ونحن في جلد من الأرض، فقلت: يا رسول الله ! أُتينا، فقال: (لا تحزن إن الله معنا) فدعا عليه رسول الله ﷺ فارتطمت فرسه إلى بطنها، أرى، فقال: إني قد علمت أنكما قد دعوتما عليَّ، فادعوا لي، فالله لكما أن أرد عنكما الطلب، فدعا الله، فَنَجَا، فرجع لا يلقى أحداً إلا قال: قد كفيتكم ما ههنا، فلا يلقى أحداً إلا رده، قال: ووفى لنا)[1]

وتظهر هنا معجزة نبوية يُظهرها الله تعالى على يدي رسوله ﷺ في هذا الطريق، وفي تلك الأرض الصلبة التي كانت عبارة عن جلد، وقد سبقها التوكل الصادق، عندما قال أبو بكر الصديق ﷺ :أُوتينا. فيقول عليه الصلاة والسلام: (لا تحزن إن الله معنا) فهذه معية الله الخاصة تظهر في هذا الموقف. ويستفاد من ذلك أهمية التذكير بالله تعالى والتطمين من القائد، أو صاحب الأمر لمن يتبعه، بما يدفع المرء إلى التوكل على الله تبارك وتعالى، ويشحذ همته.

فالله تعالى هو الناصر لدينه ورسوله بما يجعله سبحانه وتعالى من الأسباب التي قد تكون خارقة للعادة، فهذا سراقة ترتطم فرسه إلى بطنها في أرض صلبة، فيتأكد له الأمر في حينه؛ أن هذا رسول الله، وأنه غير ناجٍ إلا بدعائه ﷺ حيث جاء في رواية أنه قال: يا محمد قد علمتُ أن هذا عَمَلُك؛ فادع الله أن يخلصني مما أنا فيه.[2]

---

[1] مسلم (٤/٢٣٠٩ـــ٢٣١٠) برقم (٢٠٠٩) مختصراً

[2] مسلم (٤/٢٣٠٩ـــ٢٣١٠) برقم (٢٠٠٩)

ويستفاد من هذا أن النصر بيد الله تعالى، وأن جند الله لا يحصيها عدد، ولا يُحيط بها أحد، وأن لا ييأس المسلم مهما كانت الأحوال والظروف، وأن لا يجعل لذلك طريقاً إلى نفسه. وكذلك الالتزام بالدعاء في كل وقت وحين، فبه ترفع البلايا بإذن الله تعالى.

وتأتي معجزة أخرى في هذا الطريق الطويل، فيتحول المكان المجدب الذي خلا من الطعام إلا شاة قد خلّفَها الجهد عن بقية الغنم، وأصبحت أجهد من أن يكون بها لبن إلى شاة قد درت لبناً؛ فاستقى القوم منها، فقد مَرَّ رسول الله ﷺ ومن معه بخيمتي أم معبد الخزاعية فسألوها لحماً وتمراً ليشتروا منها؛ فلم يُصيبوا عندها شيئاً من ذلك، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة ، فقال: (ما هذه الشاة يا أم معبد ؟) قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، قال: (هل بها من لبن ؟) قالت: هي أجهد من ذلك، قال: (أتأذنين لي أن أحلبها ؟) قالت: بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلباً فاحلبها، فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها؛ وسمى الله تعالى ودعا لها في شاتها؛ فتفاجت؛ عليه ودرت فاجترت؛ فدعا بإناء، فحلب فيه ثجاً حتى علاه البهاء، ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا؛ وشرب آخرهم، ثم حلب فيه الثانية على هذه، حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها ثم بايعها، وارتحلوا عنها...[1]

وتتكرر دماثة خُلُقه ﷺ في هذا الموقف، حيث يستأذن المرأة في حلب شاتها، ويقوم هو بنفسه ﷺ بعمل ذلك، ثم يبدأ بسقيا المرأة أولاً حتى رَوِيَت، فراعى ﷺ ملكيتها للمكان والشاة، ثم يسقي أصحابه حتى رووا ثم يشرب ﷺ آخرهم، ولم يكتف بذلك عليه الصلاة والسلام؛ بل زاد من كرمه ودماثة خُلُقه أن ملأ لها الإناء ثم غادروا المكان. وهكذا يقدم ﷺ لأمته في كل موقف من مواقف حياته الدروس العملية والخُلُقية التي تزكوا بها النفوس وتعلوا في ركاب الحضارة

---

(1) الحاكم، المستدرك (٣/٩ـ١٠)

والمدنــية الصــحيحة ذات البناء الخلقي الرفيع. وفي الحديث بيان إسلام أم معبد، حيث قالت رواية الحديث (ثم بايعها)

ثم تقــول رواية هذا الحديث: ثم ما لبث أن جاءها زوجها أبو معبد، فلما رأى اللــبن أعجبه، فقال: من أين لك هذا يا أم معبد ؟ والشاء عازب حائل ولا حلــوب في البيت، قالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك، من حاله كذا وكذا، قال: صفيه لي يا أم معبد، فوصفته، فقال: هذا والله صاحب قريش الذي ذُكِر لنا مــن أمــره ما ذُكِر، ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا. وأصبح صوت بمكة عالياً يسمعون الصوت ولا يدرون من صاحبه، وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه

رفيقين حلا خيمتى أم معبد

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها

فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد[1]

وفي كلام أبي معبد ما يفيد أن خبر نبوة رسول الله ﷺ قد وصل إلى بطون الصــحراء؛ وطــرق القوافل، حيث قال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذي ذُكِر لنا من أمره ما ذُكِر.

وفــيه من الفوائد: أن الصفات الحميدة داعية للتأثر والإقتداء، حيث تأثر أبــو معــبد بوصف وصفة رسول الله ﷺ فعزم على صحبته، مما يبين أهمية السيرة الذاتية للداعية خاصة؛ والمسلم عامة؛ حتى يكونوا دعاة خير لهذا الدين.

ولــئن ظهرت المعجزة في حصول اللبن من شاة لا لبن فيها، فقد ظهرت أيضــاً في إيصــال الخبر إلى مكة بأبيات قد سُمِعَ دويها في أم القرى، تُظهر وتعلن تلك المعجزة، بتأكيد على عناية ربه تبارك وتعالى به ﷺ.

---

[1] الحاكم، المستدرك (٣/٩ــ١٠) وتم اختصاره

وتـــكرر المعجزة أيضاً في موقف آخر؛ حيث مرﷺ ومن معه بعبد يرعى غـــنماً فاستسقياه من اللبن، فقال: ما عندي شاة تحلب، غير أن ههنا عناقاً حملت أول الشـــتاء، وقـــد أخدجت وما بقي لها لبن، فقال ﷺ: (ادع بها) فدعى بها ؛ فاعتقـــلها النبي ﷺ ومسح ضرعها، ودعا حتى أنزلت، فشربوا. فقال: الراعي بالله مـــن أنت ؟ فوالله ما رأيت مثلك قط، قال: أو تراك تكتم عليَّ حتى أُخبرك؟ قال: نعـــم، قال: فإني محمد رسول الله. فقال: أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ، قال: إنهـــم ليقولون ذلك ؟ قال: فأشهد أنك نبي، وأشهد أن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي، وأنا متبعك، قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك؛ فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا. [1]

ويبين هذا الموقف تكرار المعجزة، وتوفيق الله تعالى ومعيته لنبيه ﷺ كما بين أن قريشـــاً قـــد بذلـــت جهداً كبيراً في صد الناس عن الرسول ﷺ واستخدمت أســـلوب التكذيب والبهتان، حتى وصلت هذه الافتراءات للراعي يرعى الغنم في الصحراء، فيقول الراعي: أنت الذي تَزْعُم قريش أنه صابئ ؟

ويفـــيد هـــذا الموقـــف: أن الحق أبلج، فلابد له من الظهور؛ مهما كاد الكـــائدون ومكر الماكرون، وأن الباطل مآله الخسران المبين مهما بلغ أصحابه من القوة والتأثير، فلا يسع المؤمن إلا الصبر والعمل وعدم اليأس.

ثم حكمـــته ﷺ التي تظهر في كل قرار يتخذه، فلم يصرف هذا الراعي إلى الاتجاه معه صوب المدينة، بل أخبره بأن يبقى حتى يسمع بظهوره ﷺ فيأتي إليه، لما في ذلـــك من مصلحة للراعي وللدعوة، والله تعالى أعلم. ويكفيه في تلك اللحظة دخوله في الإسلام.

وهكـــذا يكون المؤمن حكيماً في قراراته، ينظر إلى مغبة القرار قبل إبرامه، حتى يتفادى مؤثراته، فيلزم الدقة في التفكير، ودراسة القضايا دراسة واعية.

---

[1] الحاكم، المستدرك (٣/٨ـــ٩)

وعـن عروة بن الزبير (أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين، كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبيرُ رسولَ الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض...)[1]

في هـذا النص بيان تتابع توفيق الله تعالى لرسوله ﷺ حيث يتزامن وجوده ﷺ في ذلـك المكـان مع وصول الزبير في ركب من المسلمين؛ قادمين من الشام، فيكسو الزبيرُ رسولَ الله ﷺ وصاحبَه ثياباً بيضاً، فَيَقْدمُ بها على أهل المدينة.

ثم يقـول عروة بن الزبير (...وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ مـن مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرون، حتى يردهم حَرُّ الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أَوَوْا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أُطُـمٍ مـن آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله وأصحابه مبيَّضين يزول بهم السـراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون...)[2]

ويسـتفاد ممـا جاء في هذا النص: حِرْصُ أهل المدينة وتشوقهم ومحبتهم لرسـول الله ﷺ التي جعلتهم يغدون صبيحة كل يوم إلى الحرة ينتظرون مقدمه ﷺ حتى إذا اشتد الحر عليهم عادوا إلى بيوتهم.

ولئن صَدَّ عنه كفار قريش وأهل الطائف فإن قلوباً قد تعلقت برسول الله ﷺ في المديـنة. وإنـه لَعِوَضٌ عن ذلك الصدود، وعن تلك السنين التي امتلأت بالجفاء والرفض والأذى.

ويُستفاد من ذلك أن على المسلم أن يبحث عن مصلحة دينه أينما كانت، ويقدمهـا على كل مصلحة، حتى ولو لزم الأمر أن ينتقل من حي إلى حي أو من مديـنة إلى مدينة ليحفظ فيها سلوك أهله وأخلاقهم ودينهم، أو ليُعَلِّم فيها وينشر

---

(١) البخاري (٣/٧٠ــ٧١) برقم (٣٩٠٦)

(٢) البخاري (٣/٧٠ــ٧١) برقم (٣٩٠٦)

الخـــير. وقـــد فعـــل ذلك أصحاب رسول الله ﷺ من بعده، فقد ذهبوا إلى بعض الأمصار لتعليم الناس، ونشر الإسلام بينهم.

ويســـتفاد من ذلك أن تكون حرارة قلوب المؤمنين في محبة وطاعة رسوله ﷺ والتشـــوق إلى نصرة هذا الدين كحرارة قلوب الأنصار في تشوقهم إلى رسول الله ﷺ .

ثم يقول عروة بن الزبير في وصف ذلك الحدث العظيم (...فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بـــني عمـــرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للـــناس، وجلـــس رسول الله ﷺ صامتا، فطفق من جاء من الأنصار ــ ممن لم ير رســـول الله ﷺ ــ يحي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ...)[1]

يظهر من هذه الرواية الحديثية: تواضعه ﷺ إذ لم يظهر بالمظهر الذي يميزه عـــن غـــيره من الناس، وفيه كذلك من الفوائد حرص أبي بكر الصديق ﷺ على خدمة رسول الله ﷺ والعناية به، فيظلله عن الشمس بردائه، فيعطي بذلك أبو بكر الصـــديق الأدب والحرص الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم مع رسوله ﷺ ولئن تـــوفي رسول الله ﷺ فإن دين الله باق، ومحبته ﷺ باقية، فيتأدب المرء معه؛ ويحب سنته؛ ويعمل بها، ويحرص عليها كحرص أبي بكر ﷺ على رسول الله ﷺ وكذلك التأدب مع أهل العلم الذين ورثوا ميراث رسول الله ﷺ

---

[1] البخاري (٣/٧٠ــ٧١) برقم (٣٩٠٦)

ويستفاد من هذه الرواية أهمية المسجد، وأهمية العناية به، وأهمية وضعه في قلب كل مدينة أو حي يُنْشَأ، فمن أول أعماله ﷺ في قباء بناء المسجد الذي أسس على التقوى.

وقد مكث ﷺ في بني عمرو بضع عشرة ليلة، وقيل: أنها أربع عشرة ليلة.

(...ثم ركب راحلته، فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة...)[1]

وقد ظهر الفرح العميق الذي غشا رجال الأنصار ونساءهم وصبيانهم حتى صعدوا فوق البيوت، وانتشر الغلمان والخدم في الطرقات ينادون: يا محمد، يا رسول الله! يا محمد ! يا رسول الله! [2] إنها لفرحة عظيمة قد ملأت قلوب الأنصار بمقدم رسول الله ﷺ

ومن شواهد ذلك الفرح العميق أن الرسول ﷺ عندما أراد دخول المدينة بعث إلى الأنصار، فجاءوا إلى نبي الله ﷺ وأبي بكر، فسلموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنين مُطاعين، وحفوا دونهما بالسلاح، فقيل في المدينة: جاء نبي الله ! جاء نبي الله ﷺ ! فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبي الله[3]

ويقول عروة بن الزبير (...فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل؛ غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: هذا إن شاء الله المنزل. ثم دعا رسول الله الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا : لا ، بل نَهَبُهُ لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ

---

(1) البخاري (٣/٧٠-٧١) برقم (٣٩٠٦)

(2) مسلم (٤/٢٣١١) برقم (٢٠٠٩)

(3) البخاري (٣/٧٢-٧٣) برقم (٣٩١١)

أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجداً، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول ــ وهو ينقل اللبن:

هذا الحمال لا حمال خيبر

هذا أبرُّ ربنا وأطهر

اللهم إن الأجرَ أجرُ الاخرة

فارحم الأنصار والمهاجر[1]

فمن أول أعماله ﷺ في قباء بناء المسجد الذي أسس على التقوى، وكذلك عندما حط رحاله ﷺ في المدينة، حيث شرع في بناء مسجده ﷺ مما يؤكد أهمية المسجد في حياة المسلمين، ولذلك يجب أن يُعطى الأهمية والعناية والحرص على أن يكون العنصر الأول في كل حي ومدينة.

ويظهر كرمه ﷺ إذ لم يقبل عطية مربد التمر من اليتيمين إلا بثمن، ولعل سبب ذلك والله تعالى أعلم كونهما يتيمين، كما يظهر من ذلك محبة اليتيمين له ﷺ فيقولان له: نهبه لك يا رسول الله.

كما يظهر تواضعه وتشجيعه ﷺ بأن شارك في نقل اللبن في بناء المسجد، مما يفيد ويبين منهجية المؤمن مع إخوانه في مناشطهم وأعمالهم المشتركة، وهكذا يكون المعلم القدوة مع طلابه، والرئيس مع مرؤوسيه.

ومن الفوائد أيضاً: أهمية الترويح أثناء العمل الشاق، بالكلام الجميل الطيب، والأهازيج التي تبعث وتدفع المرء للعمل والجد، وتُشْعِلُ فيه جَذْوَةَ النشاط والحيوية. فلقد اشتملت تلك العبارات التي كان يرددها ﷺ الدعاء والتذكير بأجر الآخرة.

---

[1] البخاري (٣/٧٠ــ٧١) برقم (٣٩٠٦)

وأمـــا فيما يتعلق بسكنه ﷺ قبل بناء داره، فقد جاء في الحديث: (...جاء نـــبي الله.فأقبل يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب...)[1] فنـــزل على أبي أيوب الأنصـــاري ، وكان داره من طابقين، فعن أفلح مولى أبي أيوب، عن أبي أيوب (أن الـــنبي ﷺ نزل عليه فنـــزل النبي ﷺ في السُّفْل وأبو أيوب في العُلْو، قال فانتبه أبو أيـــوب لـــيلة، فقال: نمشي فوق رأس الرسول ﷺ فَتَنَحُّوا فباتوا في جانب، ثم قال للـــنبي ﷺ فقـــال النبي ﷺ السُّفْلُ أرفق، فقال: لا أعلوا سقيفة أنت تحتها، فتحول الـــنبي ﷺ في العلو، وأبو أيوب في السُّفْل، فكان يصنع للنبي ﷺ طعاماً فإذا جِئ به إليه؛ سأل عن موضع أصابعه، فيتتبع موضع أصابعه، فصنع له طعاماً فيه ثوم، فلما رُدَّ إليه سأل عن موضع أصابع النبي ﷺ فقيل له: لم يأكل! ففزع وصعد إليه فقال: أحـــرام هـــو ؟ فقال النبي ﷺ لا ولكني أكرهه، قال: فإني أكره ما تكرهه، أو ما كرهتَ، قال: وكان النبي ﷺ يُؤتَى)[2] ومعنى يُؤتى: أي تأتيه الملائكة، والوحي.

فهكذا يقدم أبو أيوب الأنصاري ﷺ أنموذجاً من حب الأنصار لرسول الله ﷺ وعمـــق تفكيرهم، وتصورهم لتلك المحبة؛ حتى أن أبا أيوب، ينظر إلى موقعه في الدور الثاني أنه لا يليق به وبأهله، ورسول الله ﷺ أسفل منه، ثم يتتبع مكان أصابعه ﷺ فيأكل من موضعها، فحقاً له أن يصنع ذلك، فإنه رسول الله ﷺ .

فلقـــد علمنا سيدنا أبو أيوب الأنصاري كيف تكون محبة رسول الله ﷺ ومـــا يجـــب أن يكون عليه المؤمن؛ بأن لا يقدم أمراً على أمر رسول الله ﷺ ولا يستأثر بشيء عن رسول الله ﷺ وأنه يجب متابعته في كل أمر، فلئن تتبع أبو أيوب موضع أصابعه ﷺ فإنه لحري بأمته أن تحرص على تتبع منهجه وتقدمه على أهوائها وأفكارها، كما تتبع أبو أيوب مواضع أصابعه ﷺ

---

[1] البخاري (٣/٧٢ــ٧٣) برقم (٣٩١١)

[2] مسلم (٣/١٦٢٣ــ١٦٢٤) برقم (٢٠٥٣)

فلقد ترك أصحاب رسول الله ﷺ المنهج الواقعي والعملي في محبته ﷺ من خـــلال متابعته، وتقديم أمره ونهيه وحبه وتوجيهه على كل شيء في حياتهم، فهذه هـــي المحبة الصحيحة الصادقة، وليست تلك المحبة التي مجراها الادعاء، وفيما يحب الإنســـان، ومـــا يـــتفق مع هواه ورغباته. رحمة الله تعالى عليهم ورضي الله عنهم وجزاهم عن المسلمين خير الجزاء.

الفصل الرابع

أسس التكوين النبوي لدولة الإسلام

أسس التكوين النبوي لدولة الإسلام:

لقـــد جاء الإسلام إلى المدينة بسلامه وأمانه ورخائه وخيراته العظيمة؛ لـــيوحدها بمـــنهج الإســـلام القويم؛ الذي يوحد القلوب على عقيدة التوحيد، ويغرس الفضائل بأخلاق الإسلام وهديه، لتتوحد المشاعر وتتجانس السلوكيات والتصرفات، فيحصل بينها التوافق الذي يُمَكِّن إقامة دولة الإسلام، لتنشر دين الله تعالى في أرجاء الدنيا.

وقـــد تأسس هذا الكيان الإسلامي العظيم بنبوة ورسالة سيد المرسلين؛ نبينا محمد ﷺ الذي أسسه على قواعد وأسس ربانية عظيمة، وهي:

بناء المسجد :

لقـــد شـــرع رسول الله ﷺ في بناء مسجده، عند وصوله المدينة، فعن عروة بن الزبير ﷺ، قال:(.... فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ. ثم ركـــب راحلته، فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمديـــنة، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر سعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت بـــه راحلـــته: هذا إن شاء الله المنـــزل. ثم دعا رسول الله الغلامين فساومهما بالمـــربد ليتخذه مسجداً، فقالا : لا ، بل نَهَبُهُ لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجداً، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول ـــ وهو ينقل اللبن:

هذا الحمال لا حمال خيـــبـــر   هـــذا أبرُّ ربنا وأطهـــر

اللهم إن الأجرَ أجرُ الاخرة فارحم الأنصار والمهاجر[1]

وعـــن أنـــس بـــن مالك ﷺ قال: (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة؛ نزل في عُلوّ المدينة، في حيٍّ يقال لهم بنو عمرو بن عوف، قال: فأقام فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى مـــلإ بني النجار، قال: فجاءوا متقلدي سيوفهم، قال وكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر رِدْفَه وملأ بني النجار حوله، حتى ألقى بفناء أبي أيوب، قال: فكان يُصـــلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم. قال: ثم إنه أمر ببناء المسجد، فأرســـل إلى ملإ بني النجار، فجاءوا. فقال: يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا، فقالوا: والله لا نطلـــب ثمنه إلا إلى الله. قال: فكان فيه ما أقول لكم، كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خِرَبٌ، وكان فيه نخل، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فَنُبشت، وبالخرب فســـويت، وبالـــنخل فقطـــع، قال: فصفوا النخل قبلة المسجد، قال: وجعلوا عضادَتَه حجارة، قال: جعلوا ينقلون ذاك الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم؛ يقولون:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة)[2]

فلقد تم تشييد مسجد رسول الله ﷺ ليكون المنطلق الأول الذي تنطلق منه وبه هـــذه الأمـــة، لأنه شعار وحدها، ومكان تجمعها، وعنوان لعزها. تُؤدى فيه الصلوات؛ وتجـــتمع فـــيه الجموع، وتناقش فيه قضايا الأمة، وهو المدرسة التي يتعلم فيها المسلمون أمـــور ديـــنهم، فهـــو حـــياة الأمة وقلبها النابض، يجتمعون فيه ويتعارفون من خلاله، وينطلقون منه.

وإن اجـــتماع المســـلمين في المسجد لأداء الصلاة يعلم أفرادها حاجة بعضهم لـــبعض حتى تتم الفريضة على الوجه الذي أراده سبحانه وتعالى، وأن زيادة حسناتهم في هذا الباب مرهَن بتجمعهم في صفوف منتظمة.قال ﷺ (صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ

---

[1] البخاري (٣/٧٠ــ٧١) برقم (٣٩٠٦)

[2] البخاري (٣/٧٧-٧٨) برقم (٣٩٣٢)

بسبع وعشرين درجة)[1] وإن المسجد ليجسد أفراد الأمة في جسد واحد؛ عنوانه المسجد، فلم يبق إلا أن تدرك الأمة هذه المعاني التي تنبثق من المسجد لتحفظه وتحافظ على شعائره.

ولقد كان عليه الصلاة والسلام ينقل مع أصحابه اللبن، أي الطوب المعمول من الطين الذي لم يحرق، وأنه صلى فيه وهو عريش اثنى عشر يوماً، ثم بناه وسقفه، وفي رواية أنه ﷺ بناه أولاً بالجريد، ثم بناه باللبن بعد الهجرة بأربع سنين [2] وكانت أعمدته خشب النخل[3]

وإن هذا العمل المتجدد والمتلاحق يؤكد أهمية العناية بالمساجد وصيانتها، والحفاظ عليها، وإيلائها الأهمية التي تحقق القيام برسالتها.

وقد كان المسلمون يتحينون وقت الصلاة قبل فرضية الأذان، فعن ابن عمر يقول (كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة، ليس يُنَادَى لها. فتكلموا يوماً في ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: بل بوقاً مثل قرن اليهود، فقال عمر: أولا تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة ؟ فقال رسول الله ﷺ يا بلال، قم فناد بالصلاة)[4]

وفرض الأذان على الراجح في السنة الأولى من الهجرة.[5] وذلك عندما رأى عبدالله بن زيد في منامه صيغة الأذان،حيث يقول ﷺ (لما أصبحنا أتينا رسول الله ﷺ فأخبرته بالرؤيا، فقال ﷺ : إن هذه لرؤيا حق،فقم مع بلال فإنه أندى وأمد صوتاً منك. فألق عليه ما قيل لك، وليناد بذلك، قال: فلما سمع عمر بن الخطاب نداء بلال بالصلاة،

---

(1) البخاري (٢١٦/١) برقم (٦٤٥)

(2) ابن حجر، فتح الباري (٢٤٦/٧)

(3) البخاري (١٦٠/١ــ١٦١) برقم (٤٤٦)

(4) البخاري (٢٠٥/١) برقم (٦٠٤)

(5) ابن حجر، فتح الباري (٧٨/١)

خــرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجر إزاره، وهو يقول: يا رسول الله! والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي قال، فقال رسول الله ﷺ فلله الحمد؛ فذلك أثبت)[١]

وهكذا تتــنــزل مِنَنُ الله تعالى وخيراته على المسلمين بتعليمهم ما يجتمعون به وعلــيه، وصــيغة اجــتماعهم بنداء مبارك، يتقدمه الإعلان بأن الله أكبر، قال القرطبي وغــيره: الأذان عــلى قلة ألفاظه مشتمل على مسائل العقيدة، لأنه بدأ بالأكبرية، وهي تتضمن وجود الله وكماله، ثم ثنى بالتوحيد ونفي الشرك، ثم بإثبات الرسالة لمحمد ﷺ ثم دعــا إلى الطاعة المخصوصة عقب الشهادة بالرسالة لأنها لا تُعرف إلا من جهة الرسول ﷺ، ثم دعــا إلى الفــلاح وهــو البقاء الدائم، وفيه الإشارة إلى المعاد، ثم أعاد ما أعاد توكــيداً. ويحصل بالأذان الإعلام بدخول الوقت، والدعاء إلى الجماعة، وإظهار شعائر الإسلام. [٢]

ولقــد قام المسجد النبوي بمهمات كبيرة وعظيمة، ومن أبرز تلك المهام: إيواء فقراء وضعفاء المسلمين، الذين عُرفوا بأهل الصفة.[٣] وقُسِّمت فيه الأموال.[٤] وكان مكاناً لتعليم المسلمين أمور دينهم ومكاناً لاعتقال الأسير المشرك. [٥]إذا كان في ذلك عظة لمن يراه، وعظة له فيما يرى من حال المسلمين، ومن الصلاة، وسمــاع القــرآن وأحاديث الرسول ﷺ كما في قصة ثمامة بن اثال.[٦] وفيه تم تطبيــب جرحى المسلمين كما في قصة سعد ﷺ عندما أصيب يوم الخندق.[٧]

---

[١] الترمذي (٣٥٨/١-٣٥٩) برقم (١٨٩)

[٢] ابن حجر، فتح الباري (٧٧/٢)

[٣] البخاري (١٥٩/١) بأرقام (٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢)

[٤] البخاري (١٥٢/١ــ١٥٣)

[٥] البخاري (١٦٥/١ــ١٦٦) برقم (٤٦٢)

[٦] مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص (٢٩٧ــ٢٩٨) وفي هذا الكتاب النفيس فوائد متنوعة عظيمة.

[٧] البخاري (١٦٦/١) برقم (٤٦٢)

ومكاناً للقضاء.[1] وعقدت فيه ألوية لجيوش وسرايا المسلمين. وقد كان مكاناً يجتمع فيه المسلمون مع نبيهم وقائدهم.

فهـــذه الشواهد لمهام المسجد تؤكد أن المسجد في عهده ﷺ كان يمثل الحـــياة النابضـــة بالحركة والفاعلية، والأداء الفاعل والمؤثر في حياة الصحابة، وكأنه لا يخلو ساعة من ليل أو نهار.

ممـــا يؤكد الفاعلية العظيمة والمؤثرة للمسجد في الإسلام، وما يقوم به من مهام تربوية واجتماعية، وغيرها مما لا يستغني عنها الناس.

وسيتضـــح إن شاء الله تعالى أثره الفاعل في الجانب التعليمي، عند الحديث عن التربية والتعليم.

---

(1) البخاري (١/١٦٤) برقم (٤٥٧)

المؤاخاة:

لقد أصبح المسلمون في المدينة النبوية يتشكلون من المهاجرين والأنصار، ولقد جاء المهاجرون إليها بلا مال ولا زاد، حيث تركوا أهليهم ومعظم ثرواتهم بمكة، وكانت خبرتهم تتركز في التجارة بحكم ما هو سائد في مكة المكرمة، ولم تكن لهم الخبرة في الصناعة والزراعة التي كانت سائدة في المدينة، ولابد للمهاجر بداية من الحاجة إلى المسكن والإعاشة، وما يواجهه من اختلاف المناخ، والحنين للديار، والتأقلم في المجتمع الجديد[1]

ولقد أصيب بعض المهاجرين بالحمى، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال، قالت: فدخلت عليهما فقلت: يا أبت كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبح في أهله　　　والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً　　　بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليلُ

وهل أرِدَنْ يوماً مياه مجنةٍ　　　وهل يَبْدُوَن لي شامةٌ وطفيلُ

قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك لنا في صاعها ومُدِّها، وانقل حُمّاها فاجعلها بالجحفة)[2]

فلقد عالج رسول الله ﷺ حنينهم للوطن، وما أصابهم من حمى، بدعاء شامل وعام ، بتحبيب المدينة في قلوب المهاجرين، وتعميم الصحة للمدينة بكاملها، وإحلال البركة في موازينها، ونقل حُمَّاها من أرضها، لينعم بذلك كل من سكن المدينة.

وأما هجرة أصحاب رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة فلم تكن سفراً وانتقالاً وترحالاً سهلاً وتلذذاً بمباهج الدنيا وزخرفها، بل كانت هجرة للإيمان، وهجرة لله

---

(1) أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٤١ـ٢٤٢)

(2) البخاري (٣/٧٦) برقم (٣٩٢٦)

ورســوله، وهجــرة للآخــرة، مقــابل ترك المتاع والأهل والخلان، ومطارح الطفولة والذكــريات، وفــيها من المشقة والمتاعب والعناء، فذكر الله تعالى هجرتهم وخلدها في القــرآن العظيم، وبين ما لهم من حق في الفيء، مبيناً سبحانه وتعالى ما تركوه وهجروه رغــبة في فضــل الله العظــيم، وطمعاً في رضاه سبحانه وتعالى، ونصرة لرسول الله ﷺ فحــازوا على لقب الصدق من علام الغيوب، وملك الملوك سبحانه وتعالى، فقال تعالى

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [1]

ولئن هجر المهاجرون أموالهم رغبة في رضى الله جلَّ جلاله، فإنه لجدير بالمسلم أن يهجــر المحرمات من المكاسب، ولئن هجر المهاجرون محبوباتهم المباحة من الدنيا، فإنه لجدير بالمسلم أن يهجر المحرمات من اللذائذ، ولئن هجر المهاجرون نومهم ومطارحهم، فإنــه لجدير بالمسلم أن يهجر النوم عن ما افترضه الله تعالى عليه من الصلوات المكتوبة، ولئن هجر المهاجرون الأوطان، فلجدير بالمسلم أن يهجر أمكنة الخزي والعار، ولئن أقبل المهاجرون إلى الله تعالى بترك ما يملكون، فلجدير بالمسلم أن يُقبل على الله تعالى بما يملك من الخير.

ولقد عوض الله تعالى المهاجرين بمؤاخاة الأنصار، أولئك الأفذاذ الكرماء، الذين قابلوا إخوانهم المهاجرين بكل ما يملكون، عن حب ومحبة ومؤاخاة في الله تعالى، وهكذا يكون حال المسلم إذا هجر شيئاً في الله عوضه الله خيراً منه وأحسن .

ولئن عالج رسول الله ﷺ حال المهاجرين بالدعاء، فلقد أتمه أيضاً بتشريع المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام، فــلما كانت وقعة بدر وأنزل الله تعالى ﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ [2] فنســخت هــذه الآيــة مــا كان قبلها،

---

[1] سورة الحشر: آية رقم (٥٩)

[2] سورة الأنفال: آية رقم (٧٥)

وانقطعت المؤاخاة في الميراث، ورجع كل إنسان إلى نسبه؛ وورِثَه ذوو رحمه.[1] وبقيت المؤاخاة في الله تعالى بين المسلمين. قال ابن حجر: قال السهيلي: آخى بين أصحابه ليذهب عنهم وحشة الغربة؛ ويتأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد بعضهم أزر بعض، فلما عَزَّ الإسلام واجتمع الشمل؛ وذهبت الوحشة أبطل المواريث وجعل المؤمنين كلهم إخوة.[2] قال ابن كثير: أن الآية عامة تشمل جميع القرابات كما نص عليه ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً.[3]

ولقد كان من أمر الأنصار شيئاً عجباً في مؤاخاتهم للمهاجرين، فأثنى عليهم رب البرية في كتابه العظيم ليكون قرآناً يتلى ويُتَعَبَّد لله تعالى به، فقال سبحانه جلَّ شأنه ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩ ﴾[4]

فلقد بلغ الإيثار مبلغه في نفوس الأنصار، وأصبح سمة من سماقم وشمائلهم رضي الله تعالى عنهم، ويقدم لنا سعد بن الربيع صورة لخُلُق الأنصار وكرمهم، فقد جاء في الحديث (لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبدالرحمن وسعد بن الربيع، قال لعبدالرحمن إني أكثر الأنصار مالاً؛ فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتين؛ فانظر أعجبهما إليك فَسَمِّها لي أطلقها؛ فإذا انقضت عدها فتزوجها. قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم ؟فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من إقط وسمن، ثم تابع الغَدُوَّ. ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة، فقال النبي ﷺ: مَهْيَم ؟ قال: تزوجت: قال: كم

[1] ابن سعد، الطبقات (١/٢٣٨)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٧/٢٧٠)

[3] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٤٤)

[4] سورة الحشر: آية رقم (٩)

سـقت إلـيها ؟ قال: نواة من ذهب ـ أو وزن نواة من ذهب ـ شك إبراهيم)[1] أي الراوي للحديث.

لقـد بلـغ الكرم والإيثار مبلغاً عظيماً عند الأنصاري سعد بن الربيع ﷺ فبدأ عرضه ببيان حجم ثروته ليقبل عبدالرحمن بن عوف ذلك العرض الكريم، فيقول له: إني أكـثر الأنصـار مالاً. ثم يعرض عليه أن يتزوج بمن شاء من زوجتيه بعد أن يطلق من يرغـب فيها، فأي إيثار أبلغ صوتاً وفعلاً من سعد بن الربيع؟ ولم يطمع عبدالرحمن بن عوف في مال الرجل نتيجة الفاقة والحاجة وكثرة مال ابن الربيع، بل دعا لِهِ بالبركة في الأهـل والمـال والولد، وطلب أن يدله على السوق، ليعمل ويتاجر، فعوضه الله خيراً، حيث أصاب مالاً وفيراً وخيراً كثيراً في فترة وجيزة، فتزوج بنواة من ذهب.

إن هـذا الموقف ليعلمنا كيف نؤثر إخواننا على أنفسنا، وإن لم يكن كذلك فلا يسـعنا مـن أن نمد لهم يد العون والمساعدة، وبذل كل ما يصلح شأنهم. ثم يُعَلِّمُنَا هذا الموقـف أن تكون العفة هي رمز أخلاقنا؛ فلا نطمع في أموال إخواننا وإن كانوا أغنياء، بـل الـزهد فيها أحق وأجمل، وإن بذلوا لنا؛ طالما أن لنا من القدرة ما يمكننا من العمل والاستغناء . كما يعلمنا هذا الموقف أن من يتعفف يعفه الله تعالى ويغنيه من واسع فضله، كما أغنى عبدالرحمن بن عوف ﷺ .

فهكـذا كانت ثمار المؤاخاة تمتد آثارها التربوية حتى للأجيال التالية لهم؛ لتعلمهم معنى الأخوة في الله تعالى.

وفي الحديث أنه (دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. فقال: إما لا فاصبروا حتى تلقوني، فإنه سيصيبكم بعدي أثرة) [2]

---

[1] البخاري (٣٨/٣) برقم (٣٧٨٠)

[2] البخاري (٤١/٣) برقم (٣٧٩٤)

وهذا دليل آخر على ما بلغه الأنصار من الإيثار، وتقديم المهاجرين على أنفسهم في الخـير، ورضوا بأن لا يختصوا بشيء دون المهاجرين، فلله دركم من أنصار، حظيتم بشـرف الدنيا وعز الآخرة، فكانت تسميتكم بالأنصار اسماً إسلامياً ما سبقكم به أحد، فعن غيلان بن جرير، قال (قلت لأنس: أرأيت اسم الأنصار؛ كنتم تُسَمَّونَ به أم سماكم الله ؟ قـال: بل سمانا الله) [1] وقد أوفى لهم رسول الله ﷺ وعرف لهم حقهم، إذ يتضح ذلك من أحاديث كثيرة قد وردت في مناقب الأنصار؛ ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك ﷺ يقـول (مـرَّ أبـو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يـبكون، فقـال: مـا يُبكيكم ؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا. فدخل على النبي ﷺ فأخـبره بذلـك، قال: فخرج النبي ﷺ وقد عَصَبَ على رأسه حاشيةَ بُرد، قال: فصعد المنـبر، ولم يصـعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه؛ ثم قال: أُوصيكم بالأنصار، فـإنهم كَرِشـي وعَيبَتي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فَاقْبَلُوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم) [2]

فلقد تعلقت قلوبهم برسول الله ﷺ وبمكانته منهم، فيبكون تلك المكانة العظيمة، فـيخرج عليه الصلاة والسلام في مرض وفاته عاصب الرأس؛ بعد أن علم بالأمر؛ وفاءً وحـباً للأنصـار، ومُبَيِّـناً مكانتهم منه ﷺ (فإنهم كرشي وعيبتي) أي بطانتي وخاصتي، وضـرب المثل بالكرش لأنه مستقر غذاء الأحياء الذي يكون فيه نماؤهم. والعيبة: ما يحرز فيه الرجل نفيس ما عنده، وهذا من كلامه الموجز ﷺ الذي لم يُسبق إليه. [3]

وإنه لوفاء منه ﷺ للأنصار في أحلك الظروف، بوصاية في أدق معانيها وحفاوتها.وإنه لدرس تتعلم منه الأمة محبة رسول الله ﷺ ، ودرس تتعلم منه الوفاء من نبي الوفـاء ﷺ في مرض وفاتة الذي كان يوعك فيه ﷺ ولم يثنيه ذلك عن بيان مكانة الأنصار والوصاية بهم.

---

[1] البخاري (٣/٣٧) برقم (٣٧٧٦)

[2] البخاري (٣/٤٢) برقم(٣٧٩٩)

[3] ابن حجر، فتح الباري (٧/١٢١) وذكر ابن حجر رحمة الله عليه لفظ الحيوان بدل الأحياء.

الوثيقة النبوية:

قال ابن إسحاق:[1] كتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، ووادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم:

- بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم.
- إنهم أمة واحدة من دون الناس.
- المهاجرون من قريش على رِبْعَتهم[2] يتعاقلون بينهم[3] وهم يَفْدُون عانيهم[4] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- وبنو جُشَم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (٢/١٤٧ــ١٥٠)

(2) يقال : القوم على رباعتهم ورِباعهم: أي على استقامتهم، يريد أنهم على أمرهم الذي كانوا عليه، ورباعة الرجل : شأنه وحاله التي هو رابع عليها: أي ثابت مقيم (النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/١٨٩)

(3) أي الدية. قال الأصمعي : سميت الدية عقلاً تسمية بالمصدر، لأن الأبل كانت تُعْقَل بفناء ولي القتيل، ثم كثر الإستعمال حتى أطلق على الدية، إبلاً كانت أو نقداً. المصباح المنير للفيومي ١/٥٧٨)

(4) الأسير.

- وبـــنو عمـــر على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- وبـــنو النبيـــت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- وبـــنو الأوس عـــلى ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً بينهم[١] أن يُعطوه بالمعروف، في فداء أو عقل.
- وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.
- وإن المؤمـــنين المـــتقين عـــلى من بغي منهم؛ أو ابتغى دسيعة ظلم[٢] أو إثم أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين؛ وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم.
- ولا يَقْتل مؤمنٌ مؤمناً في كافر.
- ولا ينصر كافراً على مؤمن.
- وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم مولى بعض دون الناس.
- وإنـــه مـــن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.
- وإن سِـــلْم المؤمنين واحدة، لا يُسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.
- وإن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضا.
- وإن المؤمنين يبيء[٣] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

---

(١) مفرحاً بينهم: أي الذي أثقله الدين والغُرم. ابن الأثير. النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/٤٢٤)

(٢) ما ينال عنهم من ظلم.

(٣) أي يمنع ويكف.

- وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه.
- وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن؛ وإنه من اعتـــبط مؤمـــناً[1] قتلاً عن بينة فإنه قَوَدٌ به؛ إلا أ ن يرضى وَلِيُّ المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة؛ ولا يحل لهم إلا قِيَامٌ عليه.
- وأنـــه لا يحل لمؤمن أَقَرَّ بما في هذه الصحيفة؛ وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدِثاً ولا يُؤويه، وأنه من نصره أو أواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة؛ ولا يُؤخذ منه صرف ولا عدل.
- وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله عزَّ وجل؛ وإلى محمد ﷺ
- وإن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
- وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظَلم وأثِم فإنه لا يُوتغ إلا نفسه[2] وأهلَ بيته.
- وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.
- وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.
- وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.
- وإن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف.
- وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.
- وإن لـــيهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم؛ فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهلَ بيته.
- وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.
- وإن لبني الشُّطَيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم.
- وإن موالى ثعلبة كأنفسهم.

---

(١) أي قتله

(٢) أي لا يهلك إلا نفسه.

- وإن بطانة يهود كأنفسهم.
- وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ
- وإنه لا ينحجز على ثار جُرْح.، وإنه من فتك فبنفسه فتك؛ وأهل بيته؛ إلا من ظلم، وإن الله على أَبَرَّ هذا.
- وإن على اليهود نفقَتَهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.
- وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم.
- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.
- وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.
- وإنه لا تُجار جُرْمة إلا بإذن أهلها.
- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة مِن حَدَث أو اشتجار يُخاف فسادُه؛ فإن مردّه إلى الله عزّ وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.
- وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها.
- وإن بينهم النصر على من دهم يثرب.
- وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويَلْبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا مَنْ حارب في الدين؛ على كل أناس حصّتهم من جانبهم الذي قِبَلهم.
- وإن يهود الأوس مواليَهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة.
- وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم.
- وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم.
- وإن الله جار لمن برّ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ [(1)]

فلقــد أكدت هذه الوثيقة أهمية التوثيق الكتابي؛ لما له من أثر في الرجوع إلى بنوده حال المخالفة أو الاختلاف، وفي هذا ضبط للأمور والعلاقات، مما يؤكد أهمية هذا المبدأ، وأهمية الأخذ به في أمور المسلمين.

ويظهر في هذه الوثيقة أهمية توظيف الروابط والعلاقات الاجتماعية لما يخدم مصلحة الأمة، وأخذها في الاعتبار دون تجاهل لها. حيث ذكرت الوثيقة في بنودها الأولى ما يجب عــلى كل عشيرة فيما بينهم، إضافة إلى ما يجب عليها تجاه بقية المؤمنين، (والقسط بين المؤمنين).

وقد أظهرت الوثيقة أهمية التكافل بين المسلمين، فلا يتركون مفرحاً بينهم، وهو من أثقلته الديون، بأن يُعطوه بالمعروف، كما أن المؤمنين يد واحدة على كل من بغي منهم، ولــو كـــان ولد أحدهم. فأخوة الدين تُحتم نصرة المظلوم وإعادة مظلمته إليه، وعدم نصــرة الظالم حتى وإن كان ولد الإنسان.وهذا التكافل الاجتماعي المبني على المؤاخاة وإحقاق الحق لأهله قد بينته السنة النبوية في أحاديث كثيرة وعظيمة..

وقــد أكــدت الوثــيقة نفــي المجاملة في حدود الله تعالى، الأمر الذي يحقق الأمن والاستقرار، ورضا الله تعالى بتطبيق حدوده. فأكدت الوثيقة ذلك بالنص عليه: وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة؛ وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدثاً ولا يُؤويه، وأنــه من نصره أو أواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة؛ ولا يُؤخذ منه صرف ولا عدل.

---

(1) ويرجح الدكتور أكرم ضياء العمري أن الصحيفة وثيقتان: وثيقة خاصة باليهود، وكانت موادعتهم قبل معركة بدر، ووثــيقة توضح التزامات المسلمين من حقوق وواجبات بين المهاجرين والأنصار؛ وكانت الوثيقة بعد موقعة بدر. السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٧٦)

إن عملية الإيواء للمنهي عنهم شر ينخر في الأمة إذا أُهمل، حيث يتسع بكثرتهم الشر مع مرور الزمن، ولا يزول إلا بعدم الإيواء، لكي يَعْرِفَ صاحبه أنه لا مكان له في منازل أفراد الأمة حتى يُؤخذ الحق منه، ويُطَبَّق الحد عليه. وإن هذا المبدأ يثير في الأمة مكامن استشعار عِظَم الجرم؛ وعِظَم إثم الإيواء، مما يربي فيها نزعة الخوف من الله تعالى؛ الذي لا يتحقق من خلال القوانين الوضعية، وإنما بالنصوص الشرعية.

وإن الوثيقة لتؤكد خصوصية هذه الأمة، وأن المسلم ليس كالكافر، وليس بينهم تكافؤ أبداً، حيث نصت الوثيقة على: ولا يَقْتل مؤمنٌ مؤمناً في كافر.

إن بنود الوثيقة بين المسلمين تؤكد لحمة الأمة المسلمة، الأمر الذي ينبغي أن يُغْرَس في نفوس الأجيال من خلال بيان تطبيقاته النبوية وآثاره الاجتماعية، وكيف كان تفعيله من قِبَلِ أصحاب رسول الله ﷺ في حياتهم، حتى بلغوا به الثناء والمدح من رب العالمين، فحققوا به مرضاة ربهم سبحانه وتعالى، وترجموا للأجيال بعدهم حقيقة المنهج الإسلامي فهماً وتطبيقاً .

وتعطي مضامين هذه الوثيقة أهمية الاحتواء للعناصر الاجتماعية بما يعزز الكيان الإسلامي، ويقوي دولة الإسلام، وهذا لا يتأتى إلا من خلال الاعتراف بالواقع ومعايشته بالحكمة التي تحفظ للإسلام قوته. وإذا كان هذا الأمر قد أخذ به ﷺ في المجال الكبير الواسع، فإنه يلزم مراعاته في الكيانات الصغرى، مثل المؤسسات والإدارات، حيث من مهام القائد الإداري الناجح احتواء شرائح إدارته؛ ليسير بهم في ركاب سفينة الإدارة الواحدة؛ حتى يحققوا أهدافها؛ ويسلكوا بها درب الأمان، مع العمل التربوي والدعوي الذي يقلل فجوة التباين والتنوع، لتصبح شريحة واحدة مع مرور الوقت.

فالعمل التربوي والإداري والعلمي الذي يغفل أو يتغافل عن واقع الحقائق؛ اعتقاداً أنه ينهج النهج الصحيح؛ فإنه سيكتشف بعد فترة من الزمن أنه ابتعد عن الطريق؛ وأخطأ التقدير، فأخطأ في القرار، فأدرك نتيجة خطئه.

وفيما يتعلق باليهود؛ فليس في هذه الوثيقة تعسفاً بحق الآخرين؛ حتى وإن كانوا علـــى غير دين الإسلام، فالمنهج الإسلامي يكفل لغير المسلمين حياة كريمة وفق ضوابط شرعية.

فلقـــد نصت الوثيقة على: وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

فليس من طبع المسلمين الغدر، أو الحيف والظلم.

إن احتواء اليهود كمجتمع قائم في ذلك الوقت؛ قبل إجلائهم يكفل لهم الحياة والحـــرية الدينـــية، وفق ضوابط؛ مثل: عدم الخروج من المدينة إلا بعد أخذ الإذن من الرسول ﷺ وهذا يؤكد أهمية الحذر وأخذ الحيطة، وإعزاز الإسلام وأهله.

نقض اليهود للوثيقة وإجلاؤهم من المدينة:

بالرغم مما تضمنته الوثيقة من حفظ لحقوق اليهود، وعدل وإنصاف لهم، إلا إنهم قـــاموا بنقضها، والتضامن مع المشركين، ومحاولة الاعتداء على رسول الله ﷺ وحصول الخـــيانات منهم، ومحاولة زعزعة أمن المدينة، فكان الجلاء لهم، من المدينة على ما سيأتي بيانه في مكانه من هذا الكتاب، حيث تم إجلاء بني قينقاع، ثم بني النضير، ثم بني قريظة.

الحياة التعليمية في المدينة :

بالـــرغم مـــن الجهد والجهاد الذي كان يقوم به رسول الله ﷺ في مناحي حياة المسلمين المختلفة إلا أن التعليم قد أخذ حظه وازدهر بصورة ليس لها مثيل، حيث تسابق المســـلمون في هــذا المضمار، وانتقلوا من الأمية والجهل إلى العلم ؛ فأصبحوا به قادة البشرية في الخير والهدى والصلاح، فلقد جاء الإسلام وعدد الذين يقرؤون ويكتبون في قريش سبعة عشر رجلاً، منهم عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم.[1] وفي الأوس والخزرج عدد يكتبون، منهم سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت.[2]

إن هـــذه الإشـــارة تدلـــل على أنه لم تكن هناك كتاتيب قبل الإسلام في مكة والمديـــنة، وأن القـــراءة والكتابة كانت محدودة في نفر قليل، فلما جاء الإسلام تغيرت الأحوال التعليمية، كغيرها من بقية الجوانب الأخرى، حيث اهتم رسول الله ﷺ بقضية التربية والتعليم اهتماماً عظيماً، إذ بها بدأ الله تعالى رسالة نبيه محمد ﷺ عندما أوحي إليه في الغار ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾[3]

ورفـــع الله تعـــالى منـــزلة العلماء، ومكانة العلم. كما جعل المنهج الإسلامي الفضل العظيم والأجر الجـــزيل لطالـــب العلم، التي بينها القرآن الكريم وفصَّلتها السنة النبوية، فقد قال الله تعالى ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٍۚ ﴾[4]، وقال تعالى ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِى ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٩ ﴾[5]

---

[1] البلاذري، فتوح البلدان، ص (٦٦٠)

[2] المرجع السابق، ص (٦٦٣)

[3] سورة القلم (العلق): آيات رقم (١ــ٥)

[4] سورة المجادلة: آية رقم (١١)

[5] سورة الزمر: آية رقم (٩)

فهــذه المنطلقات القرآنية العظيمة عززت العلم في الإسلام، ورفعت من مكانة أهلــه، كما بينت المقارنة العظيمة القدرَ الذي يناله العلماء من الرفعة والعزة، فشحذت الهمــم نحو طلب العلم وتعليمه، وفَعَّل رسول الله ﷺ هذا المنهج الرباني بأقواله وأعماله وتوجــيهاته العظيمة، فَممَّا قاله عليه الصلاة والسلام (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ســلك الله له به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العــالم ليســتغفر له من في السموات ومن في الأرض؛ والحيتان في جوف الماء؛ وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبــياء، وإن الأنبــياء لم يورثــوا ديناراً ولا درهماً، ورَّثُوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر.)[1]

وفي هــذا الحديث العظيم الذي يبين مكانة العلماء ما يحفِّز الهمم لِتُدْرِكَ نصيبها مــن العلم، الذي جعل الله تعالى لأهله الرفعة والعزة، وأنه أحد الدروب الموصلة للجنة الــتي هي بُغْيَة كل مسلم، وأن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، ثم شبه العالم بالــبدر؛ والعُــبَّادُ بالكواكب؛ فكلهم على خير وفي العلياء، إلا أن العالم بالنسبة للعابد كالقمــر في نوره وإضاءته ونفعه الذي يتعدى محيط دائرته ليصل إلى الناس جميعاً، وليس العمل المتعدي بفضله ورحابة مساحة نفعه كالعمل القاصر على صاحبه، فحاز العالم سبق الفضــل عــلى العابد، وإنه ليستغفر كُلُ شيء للعالم، وهذا فضل من الله تعالى إذ سخر مخلوقاتــه تســتغفر وتدعوا له. وإن للعلماء منــزلة أخرى؛ وهي أنهم ورثة الأنبياء؛ بما حازوا من العلم الذي جاء به رُسُلُ الله؛ الذين لم يكن همهم الدينار والدرهم، فيجمعونها ليرثهــا مَنْ بعدهم، فتلك ليست همتهم ولا تطلعهم، بل العلم الذي جاؤا به هو الميراث الذي لا يتسابق فيه وعليه إلا العلماء. فمن حصّله فقد حصَّل الخير العظيم.

---

(1) أبو داود (٤/٥٧ــ٥٨) برقم (٣٦٤١) واللفظ له. والترمذي (٥/٤٧) برقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه (١/٨١) برقــم (٢٢٣) .

ومـــن هذا المنطلق الإسلامي العظيم ارتقتْ وعَلَتْ هممُ الصحابة في تلقي العلم الذي جاء به رسول الله ﷺ مع المنهجية التي اتخذها ﷺ في تعليم جيل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. ولقد أصبحت المدينة النبوية تتلألأ بأجواء العلم وطلبته، وأصبحت الملائكة تحـــف تلك الحلق العلمية، وتتـــنـــزل عليهم الرحمات الربانية، ويرتفع ذكرهم في الملإ الأعلى، كما جاء في الحديث.

فمن عوامل البناء التعليمي والتربوي ما يلي:

- أنـــه كان عليه الصلاة والسلام يعظ الصحابة بالمواعظ التي تزكوا بها النفوس، وتـــزداد بهـــا المعارف والعلوم، وتتقرب بها إلى الله القلوب، وكان من منهجه الـــتربوي أنه لا يكثر عليهم مخافة الملل، وهو الذي لا يُمَلُّ حديثه ﷺ ، ولكنها المنهجـــية التربوية التي يعلمنا من خلالها ﷺ كيفية الوعظ، والقسط فيه، فطبقها الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فعن أبي وائل قال: (كان عبدالله يُذَكِّر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبدالرحمن لوددْتُ أنك ذكرتنا كلَ يوم. قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أنْ أُملَّكُم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا.)[1]

ولقـــد امـــتد التعليم النبوي للنساء مباشرة؛ عندما طلبن ذلك منه ﷺ فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: (قالت نساء للنبي ﷺ غَلَبَنا الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفســـك. فوَعَدَهُنَّ يوماً لَقِيهُنَّ فيه، فوعظهن وأمرهن)[2] ويعلمنا هذا الحديث احترام المطالب النبيلة، وتلبيتها، وأن للنساء الحق في تعلم العلوم الشرعية، وأن للعـــلماء أن يخصصـــوا بعـــض المواعظ للنساء؛ بما ينفعهن ويرفع من قدرهن ويُشـــجعهن عـــلى الخير. فإن في هذا التخصيص ما يرفع من قدرها، ويشجعها

---

[1] البخاري (٤٢/١) برقم (٧٠)

[2] البخاري (٥٣/١) برقم (١٠١)

عـــلى حب الخير؛ واستشعار قَدْرِهَا ومكانَتِها في الإسلام، ويعزز من معنويتها، ويصحح سلوكها ومفاهيمها، ويبين لها مسؤولياتها الملقاة على عاتقها.

- وكـــل قول منه ﷺ أو فعل أو تقرير هو تعليم وتربية أياً كان مكان ذلك، وقد كـــان ﷺ يستغل الفرص والمواقف لتعليم من معه، فمن ذلك كان معاذ رديفه عـــلى الرحل، فقال ﷺ (يا معاذ بن جبل، قال : لبيك يا رسول الله وسعديك. قال : يا معاذ. قال: لبيك يا رسول الله وسعديك (ثلاثاً) قال: ما من أحد يشهد أن لا إلـــه إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار. قـــال: يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال: إذاً يتَّكلوا. وأخبر به معـــاذ عـــند موته تأثما)[1] وفي هذا الحديث جواز الإرداف على الدابة، وبيان تواضع النبي ﷺ ومنـــزلة معاذ بن جبل من العلم لأنه خصه بما ذكر، وفيه جواز استفسار الطالب عما يتردد فيه، واستئذانه في إشاعة ما يعلم به وحده.[2] وأما دخـــول الجنة بقول (لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقا من قلبه)؛ فقوله صـــدقاً، أقـــيم هنا مقام الاستقامة؛ لأن الصدق يُعبر به قولاً عن مطابقة القول المخبر عنه، ويُعبر به فعلاً عن تحري الأخلاق المرضية، كقوله تعالى (والذي جاء بالصـــدق وصدَّق به) أي حقق ما أورده قولاً بما تحراه فعلاً. وأراد بهذا التقرير رفع الإشكال عن ظاهر الخبر، لأنه يقتضي عدم دخول جميع من شهد الشهادتين النار، لما فيه من التعميم والتأكيد، لكن دلت الأدلة القطعية عند أهل السنة على أن طائفة من عصاة المؤمنين يُعذّبون ثم يخرجون من النار بالشفاعة، فَعُلِم أن ذلك مقيد بمن عمل الأعمال الصالحة.[3] والعلم عند الله تعالى وهو كريم جواد؛ يفعل مـــا يُـــريد؛ ولا معقب لحكمه سبحانه وتعالى.وفي الحديث أسلوب المناداة لشد

---

(1) البخاري (١/٦٢ـــ٦٣) برقم (١٢٨)

(2) ابن حجر، فتح الباري (١/٢٢٧)

(3) المرجع السابق (١/٢٢٦)

الانتـــباه نحـــو أمر مهم وعظيم من خلال تكرار مناداة الرسول ﷺ لمعاذ ثلاث مرَّات، وفيه كذلك فطنة معاذ؛ إذ سأل النبي عن الإخبار بمضمون هذا الحديث. ثم تخـــوف من الإثم فاجتهد وبَلَّغه للناس عند موته؛ مخافة من كتمان العلم. وفيه أدب معـــاذ مـــع رسول الله ﷺ فيقول : لبيك يا رسول الله وسعديك. مما يفيد أهمـــية أدب طالب العلم مع شيخه؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء. ويكرر عليه ﷺ وهو يقول: لبيك يا رسول الله وسعديك، ولم يقل إني أسمعك، وإنه لأدب جَمٌّ، يعلمنا به معاذ ﷺ ليتأدب به المسلم مع والديه وأهل العلم والفضل.

- وكان ﷺ يعلم الوفود التي تفد إليه شرائع الإسلام لِيُعَلِّمُوا غيرَهم، وقد قال ﷺ لوفد عبد القيس (ارجعوا إلى أهليكم فَعَلِّمُوهم) [1] وعن مالك بن الحويرث ﷺ قـــال (أتيت النبي ﷺ في نفر من قومي، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رحيماً رفيقاً، فلما رأى شوقنا إلى أهلينا قال: ارجعوا فكونوا فيهم؛ وعلموهم وصلُّوا، فـــإذا حضـــرت الصلاة فليؤذن لكم أحدُكم، وليؤمكم أكبركم)[2] وفي هذا الحديث التعليم بالقدوة، حيث أدرك أولئك الوفد ما يتمتع به رسول الله ﷺ من الخُلُـــق العظـــيم، فوصفوه بالرفق والرحمة، مما يدل على الأثر العلمي من خلال القـــدوة الـــتي تدركها الأبصار والبصائر، وأن العالم والمعلم والوالدين والمدير والرئيس عندما يتحلى بالخلق الكريم فإن غيره يُدركه ويتأثر به. ومن خُلُقه ﷺ عـــدم تكلـــيفه غيره بما لا يطيق، فقد أدرك ﷺ ما تجيش به قلوبهم من الشوق لأهلـــيهم، فابتدرهم قبل أن يطلبوا منه الإذن بالسفر، فقال (: ارجعوا فكونوا فـــيهم) فهكـــذا يقـــرر بـــالفعل ﷺ مبدأ المبادرة التعليمي والتربوي والخلقي، والتحسس لأحوال من يكونون معه، ومراعاة أحوالهم، وكيف يكون المسلم مع

---

[1] البخاري (٤٨/١) رقم الباب (٢٥)

[2] البخاري (٢١١/١) برقم (٦٢٨)

مــن يستحي منه أو يقدره؛ بأن يراعي مشاعرهم، ولا يُحْوِج المحتاج إلى التلفظ بحاجــته. فإن ذلك من الخُلُق العظيم. ثم يبين ﷺ دورهم التعليمي في أهليهم بأن يقوموا بتعليمهم ما تعلموا وحصلوا عليه من العلم أبان إقامتهم عند رسول الله ﷺ وقد بدأ بالعلم، لأنه مفتاح الخير، بل ومفتاح الصلاة، التي لا تتم الصلاة إلا بمعرفتها، والعلم بها أولاً، ثم أمرهم بالصلاة، ثم بين لهم كيف يكونون في الصلاة (فليؤذن لكم أحدُكم، وليؤمكم أكبركم) والإمامة هنا للأكبر؛ لأن الذين قَدِموا علــيه في العــلم سواء، وكلهم شَبَبَةٌ.[1] وبهذه الوفود التي تأتي وتتعلم ثم تعود فَتُعَلِّم أقوامهم انتشر التعليم في ديار المسلمين.

- وفي مــنهجه التعلــيمي التربوي للجانب المهني تشجيعه ﷺ على ممارسة العمل المهني، ومن ذلك (أن رسول الله ﷺ مر بعبدالله بن جعفر وهو يبيع بيع الغلمان، أو الصبيان، قال: اللهم بارك له في بيعه، أو قال: في صفقته)[2] وفي هذا الدعاء مــنه ﷺ ما يزيد بركة ذلك البيع والربح الذي يقوم به ذلك الغلام، إضافة إلى التشــجيع مــنه ﷺ لهذا الغلام في مباشرته للعمل النافع، مما يؤكد أهمية ممارسة التشجيع للصبيان عندما يؤدون أعمالاً نافعة مثمرة، يتمرسون من خلالها القيام بما يحقق لهم النفع عندما يكبرون. وإن في كلمات التشجيع التي تخرج من الكبير للصــغير مــا يحفزه ويستثير في نفسه مشاعر الحب للكبار؛ والرغبة في التعامل معهــم، مــع المــزيد مــن المحبة لذلك العمل والصنيع الذي يمارسه. وإن هذا

---

[1] كما في الحديث رقم (٦٨٥) من صحيح البخاري (٢٢٧/١) قال ابن حجر: أن قصة مالك ابن الحويرث واقعة عين، قابلــة للاحــتمال، بخــلاف الحديث الآخر (والمقصود به حديث يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانت قرءتهم سواء فلــيؤمهم أقدمهــم هجــرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فليؤمهم أكبرهم سناً) فإنه تقرير قاعدة تفيد التعميم. وقال ابن حجر:أجاب الزين بن المنير وغيره بما حاصله أن تساوي هجرتهم وإقامتهم وغرضهم بها مع ما في الشباب غالباً من الفهم ــ ثم توجــه الخطاب بأن يعلموا من وراءهم من غير تخصيص بعضهم دون بعض ــ دال على استوائهم في القراءة والتفقه في الدين. فتح الباري (١٧٠/٢)

[2] أبو يعلى (٤٧/٣) برقم (١٤٦٧)

التشجيع والدعاء منه ﷺ يبرز أهمية الجوانب التشجيعية، كما أن في ممارسة ذلك الصبي ما يعطي صورة لممارسات بعض الصبية في المدينة خلال تلك الفترة النبوية. وفي موقف آخر يتبين منهجه التعليمي التربوي ﷺ في الإرشاد المهني، حيث أرشد أحد الصحابة لكيفية استثمار ما عنده من متاع بسيط بأن يبيع حاجة منه ثم يدبر أمره المهني بما يحقق له ممارسة التكسب، فعن أنس بن مالك أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله فقال (أما في بيتك شيء ؟ قال : بلى.حِلْسٌ: نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقَعْبٌ نشرب فيه من الماء، قال: أتني بهما، قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، وقال: من يشتري هذين ؟ قال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال: من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثاً، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين، وأعطاهما الأنصاري، وقال: اشتر بأحدهما طعاماً، فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوماً فأتني به، فأتاه به، فشدَّ فيه رسول الله ﷺ عوداً بيده، ثم قال له: اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً، فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء، وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً، فقال رسول الله ﷺ : هذا خير لك أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة)(١) وفي الحديث سؤال المعلم للمتعلم أو المحتاج عن بعض خصوصياته لينفعه بها، وفي الحديث الإشارة إلى مهنة المزايدة، التي يقوم بها بعض الناس، وينبغي أن يكون القائم بها أميناً حتى يصل بالسلعة إلى ما ينبغي أن تكون عليه من الثمن، وفي الحديث أهمية توجيه المستفيد إلى دقائق ما لا يُحسنه ولا يفهم فيه، وفي الحديث تواضعه ﷺ فقد شَدَّ بنفسه في القدوم عوداً بيده، ثم فيه أهمية بيان العلة عند النهي والأمر ما كان ذلك ممكناً، حيث بَيَّنَ ﷺ للرجل علة العمل وترك المسألة في تمام الحديث.

---

(١) أبو داوود ، (٢/٢٩٢ـــ ٢٩٤) برقم (١٦٤١) والترمذي (٢/٧٤٠ـــ٧٤١) برقم (٢١٩٨)

ففـــي هـــذا الحديـــث توجيه تعليمي لكيفية ممارسة العمل والتكسب، مع حُسن التصـــرف فيما يملك الإنسان؛ ليجعل منه نواة تجارة يتعيش من خلالها، الأمر الذي يدعوا إلى أهمية ممارسة الإرشاد المهني للشباب، حيث أن كثيراً من العوائق تكمن في عدم معرفتهم لكيفية التكسب؛ وذلك نتيجة قلة خبرتهم. فيقدم هذا الإرشاد النبوي أنموذجـــاً في ممارســـة عملية الإرشاد والتوجيه المهني، الذي هو أحد أوجه التعليم، وهدف من أهدافه.

- ومـــن سُبُل انتشار التعليم، الإفادة من أسرى بدر؛ ممن يعرف القراءة والكتابة، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يُعلّموا أولاد الأنصار الكتابة)[1] فيؤكد هـــذا العمـــل سماحة الإسلام، واستثماره للمنافع والقدرات، والاهتمام بقضية التعليم، والحرص على تعلم الصبيان، ولعل في ممارسة هذه العملية التعليمية من الأسير ما يجعله يشاهد الممارسات الخُلُقية العالية والرفيعة من المسلمين؛ فيدفعه ذلك إلى اعتناق الإسلام. كما يوضح هذا الصنيع الأهمية التعليمية في الإسلام؛ إذ جعلها ثمناً لإطلاق سراح الأسير ، وفيه الاستفادة من الكفار في التعليم ، إذا أمِن جانبهم .
- ولقـــد كان لأهل الصفة أثر كبير في النقلة العلمية والتعليمية، لاهتمامهم بهذا الجانـــب اهتماماً عظيماً، فأكثر رواة الحديث أبو هريرة ﷺ وقد كان من أهل الصفة الذين اتخذوا من مؤخرة المسجد مكاناً ومأوى لهم. ويصف أبو هريرة ﷺ حالـــه وما بذله من جهد في الكسب العلمي من رسول الله ﷺ إذ يقول عندما سمع من يقول أكثر أبو هريرة (...وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بِشَبَعِ بطـــنه، ويحضـــرُ ما لا يحضرون، ويحفظ ما لا يحفظون)[2] فقد بين ﷺ حضوره

---

[1] أحمد (٩٢/٤) برقم (٢٢١٦) طبعة الموسوعة الحديثية.

[2] البخاري (٥٨/١) برقم (١١٨)

ومتابعته لرسول الله ﷺ ليحفظ عنه .وكان عبادة بن الصامت ﷺ يقول (علَّمتُ ناساً من أهل الصفة الكتاب والقرآن، فأهدى إليَّ رجل منهم قوساً)[1] فبين الصحابي الجليل عبادة بن الصامت ما كان يقوم به من عمل تعليمي بين أهل الصفة. مما يوضح الجهد الذي أعطى وأسهم في النقلة التعليمية والعلمية المباركة من أهل الصفة. خاصة وأن عددهم ليس بقليل، فقد كانوا في حدود السبعين رجلاً،وبالرغم من انقطاعهم للعلم والعبادة فلم يعزلهم ذلك عن المشاركة في أحداث المجتمع والإسهام في الجهاد، بل كان منهم الشهداء ببدر، مثل صفوان بن بيضاء، وخريم بن فاتك الأسدي، وخبيب بن يساف، وسالم بن عمير، وحارثة بن النعمان الأنصاري. ومنهم من استشهد بأحد مثل حنظلة الغسيل.[2] فهكذا جمع أهل الصفة بين طلب العلم والزهد والمشاركة في أحداث المجتمع. ليُعطوا درساً تربوياً لمن بعدهم.

- واشتمل التعليم في رحاب المدينة النبوية، على التدريب العسكري، الذي يُقوي الأبدان ويُنشط الأذهان، فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما؛ قال (سابق رسول الله ﷺ بين الخيل التي ضُمِّرت فأرسلها من الحفياء، وكان أمدها ثنية الوداع، فقلت لموسى: فكم كان بين ذلك ؟ قال: ستة أميال أو سبعة، وسابق بين الخيل التي لم تُضَمَّر، فأرسلها من ثنية الوداع، وكان أمدها مسجد بني زريق، قلت: فكم بين ذلك ؟ قال: ميل أو نحوه، وكان ابن عمر ممن سابق فيها)[3] والمقصود بالخيل التي ضُمِّرت: أن تُعلف الخيل حتى تسمن وتقوى؛ ثم يُقلل علفها بقدر القوت، وتُدخل بيتاً، وتُغشى بالجلال حتى تحمى فتعرق، فإذا جف عرقُها خف لحمها وقويت على الجري، وفي الحديث مشروعية المسابقة،

---

(1) أبو داود (٣/٧٠١) برقم (٣٤١٦) وابن ماجه (٢/٧٣٠) برقم (٢١٥٨)

(2) أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٥٩ــ٢٦٤)

(3) البخاري (٢/٣٢٤) برقم (٢٨٧٠)

وأنه ليس من العبث؛ بل من الرياضة المحمودة؛ الموصلة إلى تحصيل المقاصد في الغزو؛ والانتفاع بها عند الحاجة، وهي دائرة بين الاستحباب والإباحة؛ بحسب الباعث على ذلك، قال القرطبي: لا خلاف في جواز المسابقة على الخيل وغيره من الدواب وعلى الأقدام، وكذا الترامي بالسهام.(1)

وقد شمل تشجيعه التربوي ﷺ الصبية في ممارساتهم للعب، فعن عبدالله بن الحارث رضي الله عنه، قال (كان رسول الله ﷺ يصف عبدالله وعبيدالله وكثيراً من بني العباس، ثم يقول: من سبق إليّ فله كذا وكذا، قال: فيسبقون إليه، فيقعون على ظهره وصدره، فيقبلهم ويلزمهم)(2) وفي هذا تعليم وتدريب للصبية وتشجيعاً لهم على ممارسة السباق الذي تتقوى به أجسادهم وأذهانهم، فقد كان عليه الصلاة والسلام هو الذي يَصُفُّهُم، وهو الذي يشجعهم، ثم يقعون على ظهره وصدره، فَيُقَبِّلُهم جميعاً بدون استثناء، فيشمل ذلك الأول والأخير، ويوضح هذا المسلك منه ﷺ تواضعه ورحمته وشفقته، وأنه النبي الذي تراه مع جميع من يُحيطون به، حتى مع الأطفال الصغار. وهذا يعطي دلالات تربوية وتعليمية عظيمة؛ من أبرزها: التوازن، فلا يطغى جانب على جانب، إذ هو النبي ﷺ المشغول بأمور الأمة؛ ولكن لم يُشغله ذلك عن الأبناء حتى في الجانب الترفيهي، وكذلك يكون الوالد، فلا تُشغله أعماله الخاصة عن حقوق الأبناء؛ حتى في الجانب الترفيهي، وكذلك الداعية، والمسئول، فيقسم وقته بما يعطي الزوجة حقها والأبناء حقوقهم، وجميع الأطراف المتعلقة به. ومن الدلالات التربوية: العناية بما يحبه الصبية من الأنشطة المباحة التي قد تختلف من زمن لآخر ومن مكان لآخر، وفيه أهمية وحتمية العناية بأمر الطفولة فيما هو أكبر وأهم من ذلك، فالعناية بما هو دونه يحتم العناية بما هو أعلى وأهم. وفيه

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٦/٧٢)

(2) أحمد (١/٢١٤)

أهمية تقبيل الصبية؛ والتصابي لهم؛ لما في ذلك من مكاسب نفسية عميقة؛ تنعكس على تصرفاتهم وطباعهم؛ وأخلاقهم وسلوكهم، وفيه أن ملاعبة الصبية حتى وإن كانت أمام الآخرين فإنها لا تقدح في مروءة الإنسان، إذا كانت في الحدود المعتبرة.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت (لقد رأيت رسول الله ﷺ يوماً على باب حُجرتي والحبشةُ يلعبون في المسجد، ورسول الله ﷺ يستُرُني بردائه أنظر إلى لعبهم)[1] وقالت (وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدَّرَقِ والحراب، فإما سألت النبي ﷺ وإما قال: تشتهين تنظرين ؟ فقلت: نعم. فأقامني وراءه؛ خدِّي على خدِّه وهو يقول: دونكم يابني أرفِدة، حتى إذا مللت قال: حسْبُكِ ؟ قلت: نعم. قال: فاذهبي.)[2] وفي هذا الحديث تقريره ﷺ مبدأ التعليم أو التدريب العسكري، الذي كان يمارسه الأحباش على هيئة ألعاب يمارسونها، ولكن آلتها الدرق (الترس) والحراب، بل كان عليه الصلاة والسلام يشجعهم على هذه الممارسة التدريبية بقوله (دونكم يا بني أرفدة) قال ابن حجر: وفيه إذن وتنهيض لهم وتنشيط. وبني أرفدة، بفتح الهمزة وكسر الفاء، وقد تُفْتح، قيل هو لقب للحبشة، وقيل هو اسم جنس لهم، وقيل اسم جدهم الأكبر، وقيل المعنى يا بني الإماء.[3] وسيأتي المزيد من بيان الفوائد في مكانه بإذن الله تعالى.

- ولقد كان حرص جيل الصحابة على الكسب العلمي كبير جداً، إذ يتفانون في ذلك، فمثلوا الأسوة الحسنة والقدوة الكريمة النشيطة في الطلب العلمي، فكانوا خير نموذج لطلاب العلم مع خير معلم ﷺ ويُعطي عمر بن الخطاب ﷺ مثلاً في الحرص على أن لا يفوته شيءٌ من علم رسول الله ﷺ فيقول (كنت أنا وجارٌ لي

---

[1] البخاري (١٦٣/٢) برقم (٤٥٤)

[2] البخاري (٣٠٢/٢) برقم (٩٥٠)

[3] ابن حجر، فتح الباري (٤٤٤/٢)

مــن الأنصــار في بــني أمية بن زيد ــ وهي من عوالي المدينة ــ وكنا نتناوب الـــنــزول على رسول الله ﷺ يـــنـــزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نَزَلتُ جئتُهُ بخبر ذلـــك الـــيوم مــن الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك)[1] فهذا النموذج العُمَــرِي مع الأنصاري رضي الله تعالى عنهم يؤكد الحرص العلمي الشديد من طالب العلم الذي يرى أن لا يفوته شيءٌ من خير العلم الذي تزكوا به النفوس، ويعطي هذا الحديث النموذج التعاوني بين طلاب العلم، والمحبة المتبادلة التي تدفع الطالـــب أن يـــأتي بكل ما حصل عليه من العلم لزميله دون أن يختص لنفسه بشـــيء، وفي هذا الحديث ما يبين أهمية التعاون العلمي بين المتجاورين، وأهمية اتخاذ الزميل الذي يعطيك ما فاتك أثناء غيابك.

ويوضـــح نموذج آخر من جيل الصحابة صورة من المناخ العلمي الذي تزخر به المدينة في عهد رسول الله ﷺ فيقول أنس بن مالك ﷺ (كان شباب من الأنصار سبعين رجلاً؛ يُسَمَّون القراء، قال: كانوا يكونون في المسجد، فإذا أمْسَوْا انتحوا ناحية من المدينة، فيتدارسون ويُصَلّون، يحسبُ أهلوهم أنهم في المسجد، ويحسبُ أهل المسجد أنهم عند أهليهم، حتى إذا كانوا في وجه الصبح استعذبوا من الماء واحتطبوا من الحطب، فجاؤا به، فأسندوه إلى حجرة رسول الله ﷺ فبعثهم النبي ﷺ جميعاً فأُصيبوا يوم بئر معونة، فدعا النبي ﷺ على قَتَلَتِهِم خمسة عشر يوماً في صلاة الغداة)[2]

ويوضح هذا النموذج حرص الشباب من الصحابة على تطويع وإعمال عقولهم في كســـب العلم النافع. كما يوضح هذا الحديث حرص شباب الصحابة على التعـــلم، وعلى حفظ هذا الدين، وبذل الجهد في ذلك، واستغلال مرحلة القوة والجلادة، والإخلاص لله تعالى بذهابهم إلى طرف المدينة للمدارسة، بحيث يعتقد

---

(١) البخاري (١/٤٩) برقم (٨٩)

(٢) أحمد (٢١/١٢٦ــ١٢٧) برقم (١٣٤٦٢) طبعة الموسوعة الحديثية.

أهـــل المســـجد أنهم في بيوتهم، ويحسب أهلوهم أنهم في المسجد، ومن الفوائد الـــتربوية اســـتخدام ذلك الجيل أسلوب المدارسة التي تُرسخ العلم، مما يؤكد ســـبقهم إلى هـــذا المفهوم وتطبيقهم له، وكذلك يوضح هذا السلوك التربوي الـــتعاون والـــتآلف بـــين طلاب العلم في المذاكرة والمدارسة. كما يؤكد أهمية صـــنيعهم العلمي أن دعا رسول الله ﷺ على قَتَلَتِهِم خمسة عشر يوماً في صلاة الغداة؛ وهذا دليل على مكانتهم ومنـــزلة العلم الذي كانوا يحملونه رضي الله تعـــالى عـــنهم. كمـــا أن في هذا الحديث خدمتهم لنبيهم ومعلمهم، وحرصهم وتفانيهم في ذلك، بجلب الماء والحطب إلى حجرة رسول الله ﷺ

فإنهـــا حياة علمية نشطة؛ قد ازدهرت في المدينة، وبزغ فجرها ببعثته ﷺ وسطع نورها في أرجاء المعمورة. فها هو المناخ العلمي الجاد والنشط الذي كان سائداً في المديـــنة الـــنبوية بعد أن هاجر إليها المصطفى ﷺ فكانت الحركة العلمية في ازدهـــار مـــنذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا وستظل بإذن الله تعالى في كل أنحاء المعمورة، تزدهر بعلم الشريعة الغراء التي جاء بها الرسول ﷺ

فلقد كان عهده ﷺ عهد علم وتعليم وتعلُّم وإقامة شعائر وعبادات، وفتوحات، قد ازدانت بها الدنيا.

البيت النبوي في المدينة:

أزواجه ﷺ

لما فرغ رسول الله ﷺ من بناء مسجده بنى بعائشة في البيت الذي بابه شارع إلى المسجد، وجعل سودة بنت زَمْعَةَ في البيت الآخر الذي يليه.[1] فكانت حجرات زوجات الرسول ﷺ مجاورة للمسجد.

---

[1] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١/ ٢٤٠)

وعـن ابن عباس ﷺ قال (فإنه كان عند النبي ﷺ تسع، كان يقسم لثمان ولا يقسم لواحدة)[1] أي عند موته، وهن سودة ، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب بنت جحش، وأم حبيبة، وجويرية، وصفية، وميمونة. هذا ترتيب تزويجه إياهن رضي الله عـنهن، ومات وهن في عصمته.[2] وقد اتفق العلماء على أنه من خصائصه ﷺ الزيادة على أربع نسوة يجمع بينهن.[3]

وأمـا التي لا يقسم لها ﷺ فهي سودة رضي الله تعالى عنها، حيث وهبت يومها لعائشة رضي الله تعالى عنها، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها (أن سودة بنت زَمْعة وهبت يومها لعائشة، وكان النبي ﷺ يقسم لعائشة بيومها ويوم سَوْدَة)[4]

فلمحبتها لرسول الله ﷺ وهبت له يومها، وقد كانت رضي الله تعالى عنها ثقيلة كمـا جاء في صحيح البخاري ــ رحمة الله عليه ــ ، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعـالى عنها، قالت (استأذنت سودةُ النبي ﷺ ليلة جمع ــ وكانت ثقيلة ثَبْطة ــ فـأذن لهـا)[5] أي بطيئة الحركة رضي الله تعالى عنها، وبذلك تعطي مثلاً في المحبة للزوج عندما رأت نفسـها قد كبرت وثقلت، أن تعطي يومها لأحب النساء إليه ﷺ فلم تمنعها الغيرة الموجـودة عند النساء، أن تطمع في ذلك، بل كان طمعها رضي الله تعالى عنها في محبة زوجها ونبيها رسول الله ﷺ

وعقد رسولُ الله ﷺ على سودة بنت زمعة بعد أن عقد على عائشة، وأما دخوله عليها فكان قبل دخوله على عائشة بالاتفاق.[6]

---

(1) البخاري (٣/٣٥٥) برقم (٥٠٦٧)

(2) ابن حجر، فتح الباري (٩/١١٣)

(3) المرجع السابق (٩/١١٤)

(4) البخاري (٣/٣٩١) برقم (٥٢١٢)

(5) البخاري (١/٥١٤) برقم (١٦٨٠)

(6) ابن حجر، فتح الباري (٩/٣١٢)

وقـــد أسلمت سودة قديماً وبايعت، وأسلم زوجها السكران بن عمرو، وخرجا جمـــيعاً مهاجرين إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية.، وقَدِم السكران بن عمرو مكة من أرض الحبشة؛ ومعه امرأته سودة بنت زَمْعة؛ فتوفي عنها بمكة.(١)

وأما في تفاصيل زواج أم المؤمنين سودة رضي الله تعالى عنها من النبي ﷺ وكذا زواج أم المؤمـــنين عائشة رضي الله تعالى عنها، فقد جاء في مسند الإمام أحمد رحمة الله تعالى عليه: أنه لما هلكت خديجة جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون، قالت (يا رسول الله ! ألا تَزَوَّجُ ؟ قال: مَنْ ؟ قالت: إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً، قال: فمن الـــبكر ؟ قالـــت: ابنة أَحبِّ خَلقِ الله عزَّ وجلَّ إليك: عائشة بنت أبي بكر. قال: ومن الثيـــب ؟ قالـــت: سَـــوْدَةُ بنت زَمْعة، آمنت بك واتبعتك على ما تقول، قال: فاذهبي فاذكـــريهما عليَّ. فدخلت بيت أبي بكر، فقالت: يا أم رُومَان، ماذا أدخل الله عزَّ وجلَّ علـــيك من الخير والبركة ؟ قالت: وما ذاك ؟ قالت: أرسلني رسولُ الله ﷺ أخطب عليه عائشة، قالت: انتظري أبا بكر حتى يأتي، فجاء أبو بكر، فقالت: يا أبا بكر، ماذا أدخل الله عـــزَّ وجلَّ عليك من الخير والبركة ؟ قال: وما ذاك ؟ قالت: أرسلني رسولُ الله ﷺ أخطب عليه عائشة، قال: وهل تصلحُ له، إنما هي ابنةُ أخيه، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له. قال: ارجعي إليه، فقولي له: أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلُحُ لي. فرجعت؛ فذكرت ذلك له، قال: انتظري، وخرج. قالت أمُّ رُومان: إن مُطْعِمَ بـــن عدي قد كان ذكرها على ابنه؛ فوالله ما واعد وعداً قط فأخْلَفَه لأبي بكر، فدخل أبوبكـــر عـــلى مُطْعِم بن عديٍّ، وعنده امرأته أم الفتى، فقالت: يا ابن أبي قُحَافة لعلك مصبيء صاحبنا، مُدْخِلُهُ في دينك الذي أنت عليه إن تزوج إليك. قال أبو بكر للمُطعم بن عدي: أَقَوْلَ هذه تَقُولُ ؟ قال: إنها تقولُ ذلك، فخرج من عنده، وقد أذهب الله عزَّ وجـــلَّ ما كان في نفسه من عِدَتِه التي وعَدَه؛ فرجع فقال لخولة: ادعي لي رسول الله ﷺ فدعته، فزوجها إياه، وعائشة يومئذٍ بنت ستِّ سنين.

---

(١) ابن سعد،الطبقات الكبرى (٨/٥٢ــ٥٣)

ثم خرجــت فدخلــت على سودةَ بنتِ زَمْعة، فقالت: ماذا أدخل الله عزَّ وجلَّ عليك من الخير والبركة ؟ قالت: وما ذاك ؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أَخْطُبُك عليه. قالــت: وَدِدْتُ؛ ادخلي إلى أبي فاذكري ذاك له، وكان شيخاً كبيراً قد أدركته السن، قد تخلَّــف عــن الحج، فدخلت عليه فحييته بتحية الجاهلية، فقال: من هذه؟ فقالت: خولة بنــت حكيم، فقال: فما شأنكِ؟ قالت: أرسلني محمدُ بن عبد الله؛ أخطب عليه سودة، قــال: كُــفْءٌ كريم، ماذا تقول صاحِبتُكِ ؟ قالت: تحب ذاك، قال: ادعها لي، فدَعَتْها. فقال: أي بُنَيَّةُ ! إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قد أرسل يَخْطُبُك، وهــو كُفْءٌ كريم، أتُحبِّين أن أُزوِّجَكِ به ؟ قالت: نعم. قال: ادعيه لي، فجاء رسولُ الله ﷺ إلــيه، فزوَّجَها إياه، فجاءها أخوها عبدُ بن زَمْعَة من الحج، فَجَعَلَ يَحثي على رأسه الــتراب، فقــال بعد أن أسلم: لَعَمرُكَ إني لسفيه يوم أحثي في رأسي الترابَ أن تَزَوَّجَ رسولُ الله ﷺ سودة بنت زَمْعة.)[1]

فيتــبين من هذه الرواية التي حملت تفاصيل زواج النبي ﷺ من أم المؤمنين سودة وعائشــة رضي الله تعالى عنهما، أن زواجه ﷺ من سودة لِمَا ذكرت خولة بنت حكيم للنبي ﷺ عن سودة: آمنت بك واتبعتك على ما تقول. فإنها كلمات مؤثرة، لمرأة حملت هم الإسلام، وهاجرت من موطنها لبلد غريب عليها؛ مكاناً ولغة وعادات، ثم يتوفى الله تعالى زوجها، وهي ليست صغيرة في السن، فيوافق النبي ﷺ على أن تُخطب له.

ثم هاهي خولة بنت حكيم رضي الله تعالى عنها، تستشعر هَمَّ ومكانة رسول الله ﷺ فــتعرض عليه مَنْ تعرف من خيرة النساء، وتستشعر مكانة رسول الله ﷺ فتقول لمن تخطب منهم : ماذا أدخل الله عزَّ وجلَّ عليك من الخير والبركة ؟

ثم هذا أبو بكر الصديق ﷺ يبين العلاقة الحميمة بينه وبين رسول الله ﷺ فيقول: إنما هي ابنةُ أخيه. مما يدلل على عمق العلاقة والمحبة بينهما حتى أنه يراه بمنــزلة الأخ في النسب، التي تمثل العلاقة الخاصة. وهذا عمق الصدق والصداقة التي تضرب جذورها في

---

[1] أحمد (٦/٢١٠ـــ٢١١) وانظر تخريج الحديث في المسند، الموسوعة الحديثية (٤٢/٥٠١ـــ٥٠٦) برقم (٢٥٧٦٩)

سويداء قلب الصّديق ﷺ، ولكن رسول الله ﷺ يوضح له ذلك بأسلوب نبوي راقي العبارة وشرعي الدلالة، فيقول له: أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلُحُ لي. وهكذا يُقدم أبو بكر الصديق ﷺ درساً في سمو مشاعر الأخوة الصادقة.

أفليست هذه المحبة من أقوى دواعي المصاهرة؟ وجديرة بأن تتكلل بذلك ؟ لرجل اتصف بالصدق والمحبة المخلصة لرسول الله ﷺ. بل من صدقه ووفائه ﷺ أن ذهب لمن ذكر عائشة يطلبها لابنه، فيكون قدر الله تعالى الذي إذا أراد شيئاً سهل له الأسباب، وإذا منع شيئاً سهل له أسباب المنع، مما يغرس في المسلم الإيمان بأن ما أراده ويريده الله تعالى من الخير لأحد لا يستطيع أن يحول دونه أحد. فتتسهل أسباب العطاء لرسول الله ﷺ ويُذْهِبُ الله عزَّ وجلَّ ما كان في نفس أبي بكر من عِدَته التي وعَدَه؛ فرجع فقال لخولة: ادعي لي رسول الله ﷺ فدعته، فزوجها إياه. وها هي رؤيا رسول الله ﷺ تتحقق، كما جاء في الحديث عن عائشة رضي الله تعالى عنها (أن النبي ﷺ قال لها أُريتُكِ في المنام مرَّتين: أرى أنك في سَرَقَة من حرير، ويقول: هذه امرأتك، فأكشف؛ فإذا هي أنت، فأقول: إن يكُ هذا من عند الله يُمْضِه)[1] وقد أمضاه الله تعالى، فلا راد لعطائه سبحانه وتعالى.

ثم هذا والد سودة رضي الله عنها يصفُ رسولَ الله ﷺ بأنه: كُفْءٌ كريم. لما اتصف به رسول الله ﷺ من الخُلُق الكريم العظيم، فأصبح وصفه بنعُوت الخير والفضل يجري على ألسنة الناس من حوله. وهكذا كل صاحب خُلُق كريم تطمع الناس في مصاهرته.

ثم يأتي أخو سودة ليعطي الصورة المتغيرة لفكر الإنسان قبل الإسلام وبعده، ليبين ما يُحدثه هذا الدين من العمق الفكري لدى المسلم عندما يتشبع بنصوصه ومنهجه، فيقول بعد أن أسلم: لَعَمرُكَ إني لسفيه يوم أحثي في رأسي الترابَ أن تَزَوَّجَ رسولُ الله ﷺ سودة بنت زَمْعة. فلقد اختلفت عنده موازين القيم والقياس وموازين الحياة جميعاً، ولكنه الإسلام بكل جماله وأهدابه وأهدافه ونوره الذي تتجلي به البصائر

---

[1] البخاري (٣/٦٦) برقم (٣٨٩٥)

فتُبصر ما لم تكن تبصره من الخير والحُسن. قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (١)

وفي صحيح مسلم ــ رحمة الله تعالى عليه ــ، عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، قالت (تزوجني رسول الله ﷺ لست سنين، وبنى بي وأنا بنت تسع سنين)[٢]

وفي صحيح البخاري رحمة الله تعالى عليه (تُوفيت خديجة قبل مخرج النبي ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين، فلبث سنتين أو قريباً من ذلك، ونكح عائشة، وهي بنت ستِّ سنين، ثم بنى بها وهي بنت تسع سنين)[٣]

ويُستفاد من هذا الحديث أن مقاصد الزواج عند رسول الله ﷺ مقاصد عالية جدا، إذ أنه لو كان غير ذلك لما عقد بعائشة رضي الله تعالى عنها وهي بنت ست سنين ليبني بها بعد ثلاث سنين تقريباً.

كما يُستفاد من هذا الحديث بُعد النظر عند رسول الله ﷺ وصبره العظيم، فلم يكن تفكيره في ذاته ﷺ بل كان تفكيره في نجاح دعوته لينقذ الناس من الظلمات إلى النور، فعقده بعائشة ليبني بها بعد سنين، دليل عملي على ذلك، إذ لو كان غير ذلك لتزوج بغيرها ممن أعمارهن في حدود العشرين. فصلاة الله وسلامه عليك يا رسول الله.

---

(١) سورة الشورى: آيات (٥٢ــ٥٣)

(٢) مسلم (١٠٣٨/٢) برقم (١٤٢٢)

(٣) البخاري (٦٦/٣) برقم (٣٨٩٦)

وعن عائشة رضي لله تعالى عنها، قالت: (تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال، فأي نساءِ رسول الله ﷺ كان أحظى عنده مني ؟)[1]

فتبين أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها مكانتها عند رسول الله ﷺ وتوفيق الله تعالى لها بأن تكرر لها في شهر شوال أمران مهمان في حياتها، مرة عقد الزواج، عندما كـان عمرها ست سنين، ومرة أن بنى بها رسول الله ﷺ في شهر شوال، لتبين رضي الله عـنها الطبيعة الإنسانية من حب الإنسان أن تُرى مكانته. وكيف لا يكون ذلك، وهي مكانة من نبي الله محمد ﷺ .

وأمـا هجرة آل بيته ﷺ إلى المدينة، فعن عمرة عن عائشة رضي الله تعالى عنهما (أنها سألت متى بنى بك رسول الله ﷺ ؟ فقالت: لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة خلّفنا وخلّـف بـناته، فلما قدم المدينة، بعث إلينا زيد بن حارثة، وبعث معه أبا رافع مولاه، وأعطاهم بعيرين وخمس مائة درهم، أخذها رسول الله ﷺ في المدينة من أبي بكر، يشتريان بها مـا يحـتاجان إليه من الظهر، وبعث أبو بكر ﷺ معهما عبد الله بن أريقط الديلى بـبعيرين أو ثلاثـة، وكتب إلى عبد الله بن أبي بكر يأمراه أن يحمل أهله أم رومان وأنا وأخـتي أسمـاء؛ امرأة الزبير، فخرجوا مصطحبين، فلما انتهو إلى قديد، اشترى زيد بن حارثـة بـتلك الخمس مائة درهم ثلاثة أبعرة، ثم دخلوا مكة جميعاً، وصادفوا طلحة بن عبـيد الله يـريد الهجرة بآل أبي بكر، فخرجنا جميعاً، وخرج زيد بن حارثة وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة، وحمل زيد أم أيمن وأسامة بن زيد، وخرج عبد الله بـن أبي بكر بام رمان وأختيه، وخرج طلحة بن عبيد الله، واصطحبنا جميعاً حتى إذا كنا بالبـيض مـن مـنى نفر بعيري وأنا في محفة معي، فيها أمي، فجعلت أمي تقول: وابنتاه واعروساه حتى أدرك بعيرنا، .... ثم إنا قدمنا المدينة، فنـزلتُ مع عيال أبي بكر، ونزل

---

[1] مسلم (١٠٣٩/٢) برقم (١٤٢٣)

آل رســـول الله ﷺ وهـــو يومئذ يبني المسجد وأبياتاً حول المسجد، فنـــزل فيها أهله، ومكثنا أياماً في منـــزل أبي بكر ﷺ .....)[1]

وأما أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب فقد تزوجها رسول الله ﷺ بعد أن مات عنها زوجها، فعن أبي الحويرث قال: (تزوج خُنيس بن حُذافة بن قيس بن عدي بن ســـعد بن سهم حفصة بنت عمر بن الخطاب، فكانت عنده، وهاجرت معه إلى المدينة، فمات عنها بعد الهجرة، مقْدَم النبي ﷺ من بدر)[2]

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال (لما تأيَّمت حفصة لقي عمرُ عثمان؛ فعرضـــها علـــيه، فقـــال عثمان: ما لي في النساء حاجة، فلقي أبا بكر؛ فعرضها عليه، فســـكت، فغضب على أبي بكر، فإذا رسول الله ﷺ قد خطبها فتزوجها. فلقي عمر أبا بكر؛ فقال: إني عرضت على عثمان ابنتي فردني، وعرضتُ عليك؛ فسكت، فلأنا كنت أشـــد غضباً حين سكتَ مني على عثمان وقد ردّني. فقال أبو بكر: إنه قد كان النبي ﷺ ذكر منها شيئاً، وكان سراً، فكرهت أن أفشي السر.)[3]

ويتبين من هذه الرواية الهم الذي كان يحمله عمر بن الخطاب لإبنته حفصة، وقد عرضها على رجلين كريمين وصحابيين جليلين، مما يفيد ويؤكد أن للمرء أن يعرض ابنته عـــلى الرجل الكفء، ولا يستنكف من ذلك، ويقبل الرد من الآخر والتماس العذر لمن اعـــتذر، كما التمس عمر العذر لعثمان رضي الله تعالى عنهما. كما يفيد أن الإنسان إذا أخذ في نفسه على أخيه المسلم فليخبره حتى يُزيل اللبس، وما قد يعلق بالقلب. كما فعل عمر مع أبي بكر رضي الله تعالى عنهما. فاتضح له سبب سكوت أبي بكر الصديق ﷺ

---

[1] الحاكم، المستدرك (٤/٤ـــ٥)

[2] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٨/٨١)

[3] المرجع السابق (٨/٨١ـــ٨٢)

كما يتبين حفظ السر من الصديق ﷺ وتحمله ما قد ينجم عن سكوته لعمر بن الخطــاب ﷺ وذلك أنه يعطي موازنة للأمور والأشخاص، فلم يُقدم رضا عمر ببيان ما كـــان مـــن رســـول الله ﷺ على رضا وحفظ أمر رسول الله ﷺ فهكذا تكون الموازنة والترجيح بين الأمور؛ وبين الأفراد؛ وفي القضايا والقرارات.

فتزوجها رسول الله ﷺ ولعل دواعي ذلك محبته وتقديره ﷺ لعمر بن الخطاب، ورفقــاً بعمر الذي حمل هم ابنته، وليرفع من مكانة عمر بن الخطاب ﷺ بالمصاهرة. التي تعني الشيء الكثير عند العرب. وإلا البنات الأبكار كُثُر، ولا يُرَدُ لرسول الله ﷺ طلب.

وأما أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية، فقد تزوجها رسول الله ﷺ بعد أن استُشْهد زوجها عبيدة بن الحارث ﷺ يوم بدر، فمكثت عند رسول الله ﷺ ثمانية أشـــهر، فتوفيت في آخر شهر ربيع الآخر على رأس تسعة وثلاثين شهراً، وصلى عليها رسول الله ﷺ ودفنها بالبقيع، وكانت تُسمى أم المساكين.[1]

وإن في لقبها ما يَدُلُ على كَرِيم سجاياها رضي الله تعالى عنها، فلقد كانت محبة للمساكين تجود عليهم بما تستطيع، حتى أُشْتُهِرَ ذلك بين الناس، فَشُهِدَ لها بذلك، ثم إن زوجها قد استُشهد في بدر. فعوضها الله تعالى برسول الله ﷺ زوجاً لها.

وأمـــا زواجه ﷺ من أم المؤمنين أم سلمة رضي الله تعالى عنها، فتقول : (سمعتُ رســـولَ الله ﷺ يقـــول: ما من مُسْلم تصيبه مصيبة فيقول: ما أَمَرَهُ الله . إنا لله وإنَّا إليه راجعـــون، اللهم أُجرني في مُصيبتي وأخلف لي خيراً منها ـــ إلا أخلف الله له خيراً منها. قالت: فلما مات أبو سلمة؛ قلت: أي المسلمين خيرٌ من أبي سلمة ؟ أولُ بيت هاجرَ إلى رســـولَ الله ﷺ. ثم إني قُلْتُها، فأخلف الله لي رسولَ الله ﷺ. قالت: أرسل إليَّ رسولُ الله

---

[1] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٨/١١٥ـــ١١٦)

ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له، فقلت: إن لي بنتاً وأنا غَيُور. فقال: أما ابنتها فندعوا الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يَذْهَبَ بالغَيْرَة.)[1]

يتبين من هذا الحديث، عناية أم سلمة بالتطبيق العملي لمنهج الإسلام أثناء المصيبة، التي قد ينساها البعض أثناء الفواجع، حيث قالت رضي الله تعالى عنها بما علمت من رسول الله ﷺ (ما من مُسْلم تصيبه مصيبة فيقول: ما أَمَرَهُ الله . إنا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهم أُجرني في مُصيبتي وأخلف لي خيراً منها ــ إلا أخلف الله له خيراً منها.) وتبين رضي الله تعالى عنها، حجم ما أصابها ووفائها ومحبتها لأبي سلمة ﷺ (فلما مات أبو سلمة؛ قلت: أي المسلمين خيرٌ من أبي سلمة ؟ أولُ بيتٍ هاجرَ إلى رسول الله ﷺ) ولكن إيمانها دفعها أن تقولها، فيحقق الله سبحانه وتعالى لها ما لم تكن تحتسب، حيث تقول: (ثم إني قُلْتُها، فأخلف الله لي رسولَ الله ﷺ) وهكذا تعطي رضي الله تعالى عنها مثلاً في الامتثال، ليدرك المؤمن أن الله تعالى عنده ما لا يدركه الإنسان بعلمه وعقله وتفكيره، وأن الله تعالى يُخْلِف للعبد الممتثل لأمره بخير مما يتوقع.

ومن صدقها ووفائها، أخبرت رسول الله ﷺ بما تجده من نفسها، فتقول: (إن لي بنتاً وأنا غَيُور) فلم يدفعها حبها لنبيها ﷺ وأن تكون زوجة له ﷺ كتمان ما تجده في قرارة نفسها، ولكنه الصدق الذي يتقدم العواطف القلبية. فيبين لها عليه أفضل الصلاة والتسليم، منهجية المعالجة لهذا الأمر بقوله (أما ابنتها فندعوا الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يَذْهَبَ بالغَيْرَة.) فكلها أعراض تزول بدعاء الله تعالى وسؤاله جلّ جلاله.

وهكذا تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة التي سبق الحديث عن هجرتها، وما تعرضت له من الأذى والابتلاء، وبكاؤها سنة كاملة أو قريباً من ذلك على ابنها الذي نُزِع منها عنوة، وزوجها الذي منعوها من الهجرة معه، أفليس هذا الزواج بالنبي ﷺ عوضاً لها، ودافعاً لأن يتزوجها رسول الله ﷺ.

---

(1) مسلم (٢/٦٣١ــ٦٣٢) برقم (٩١٨)

وأما أم المؤمنين زينب بنت جحش الأسدية رضي الله تعالى عنها، فإن رسول الله ﷺ قد زوجها من مولاه زيد بن حارثة ﷺ وأمها أميمة بنت عبد المطلب، عمة رسول الله ﷺ ثم وقع بينهما. فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ فجعل رسول الله يقول له: (أمسك عليك زوجك واتق الله) فلما طلقها زيد تولى الله تعالى تزويجها منه ﷺ بأن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر.[1] وعن أنس ﷺ قال: (جاء زيد بن حارثة يشكوا. فجعل النبي ﷺ يقول: اتقِ الله وأمسك عليك زوْجَك. قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوَّجكن أهليكن؛ وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات)[2] قال تعالى:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾[3]

وعن أنس بن مالك ﷺ (أن هذه الآية (وتُخفي في نفسك ما الله مبديه) نزلت في زينب بنت جحش وزيد بن حارثة)[4]

فهكذا تبين نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية زواج النبي ﷺ من ابنة عمته زينب بنت جحش بأمر من الله تعالى وبحكمة إلهية، فزيد ﷺ يشكوا إلى رسول الله

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٩٩/٣)

[2] البخاري (٣٨٨/٤) برقم (٧٤٢٠)

[3] سورة الأحزاب: آية رقم (٣٧ـ٣٨)

[4] البخاري (٢٧٨/٣) برقم (٤٧٨٧)

ﷺ أمــرها، والــنبي عليه الصلاة والتسليم يقول له (أمسك عليك زوجك) والله ســبحانه وتعالى بحكمته وتدبيره يبطل ما كان متأصلاً في الجاهلية من التبني، الذي ينتســب فيه الرجل لمن تبناه ولا ينتسب لأبيه، وبالتالي لا يتزوج الرجل ابنة ذلك الــرجل؛ على أساس أنه ابن له، فأبطل الله تعالى هذا الأمر بعمل تطبيقي؛ قد أمر به رسوله ﷺ وإنها الحكمة إلهية التي تضع الشيء بحكمة وبما هو مقتضى أسمائه وصفاته، إنه حكيم خبير سبحانه وتعالى.

ومن الفوائد: أن النبي ﷺ قد بلغ عن الله تعالى أتم بلاغ، فلم يترك شيئاً مما أُحي إليه.

وأما أم المؤمنين، أم حبيبة، رملة بنت أبي سفيان بن حرب.فقد هاجر بها زوجها عبــيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية، فتنصر وارتد عن الإسلام، وتــوفي بأرض الحبشة، وثبتت أم حبيبة على دينها، الإسلام. ورجعت بابنتها حبيبة بنت عبيد الله بن جحش.[1]

فهــذه أم حبيبة رضي الله تعالى عنها تُفاجأ بارتداد زوجها الذي ذهبت معه مهاجرة إلى الحبشــة، ولا شك أنه مصاب أليم لها: كُفْرٌ بالله؛ وفي دار غربة، ومن زوجها، وما وفاته بأكثر مصيبة من ارتداده عن الإسلام. ولكنها تمثل القدوة الصالحة بصبرها وثباتها عــلى ديــنها، وإنها ومثلها في أمس الحاجة لمن يواسيها، ويعوضها عن تجشمها متاعب الهجرة والغربة وصدمة الكفر من زوجها، فيعوضها الله تعالى برسوله ﷺ ليكون لها زوجاً وأهلاً، يرعاها فتحضى بشرف ذلك.

ومــن شفقته ﷺ ورحمته أنه لم يتركها بأرض الحبشة لا عائل ولا حامي لها تعيش في كــنفه، فيرسل عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة ليجري أمر زواجــها منه ﷺ ليمسح عنها آلام وأحزان صدمتها، فعن أم حبيبة (أنها كانت تحت عبيد الله بن

[1] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٨/٩٦ـــ٩٧)

جحـــش، فمـــات بأرض الحبشة، فزوجها النجاشي النبي ﷺ وأمهرها عنه أربعة آلاف، وبعث بها إلى رسول الله ﷺ مع شرحبيل بن حسنة)[1]

وفي مـــزيد من التفصيل يذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى، أن رسول الله ﷺ بعـــث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، فخطب عليه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكان الذي زوجها وخطب إليه النجاشي خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، ابن عم أبيها. وذلك سنة سبع من الهجرة.[2]

وهكـــذا أتم الله تعـــالى لها هذا الزواج، فكان خير عوض لها عن الأحداث التي مرت بها رضي الله تعالى عنها، ودفع مهرها النجاشي أربعة آلاف.

فيتبين من هذا الحدث عناية الله تعالى بالمؤمنين، وتعويضه لهم بأحسن مما يتوقعون ويـــرجون، فلا مناص للعبد من محبته سبحانه وتعالى، والإدراك الجازم أنه هو الرحمن الرحـــــيم، ويجـــــزي الصـــــابرين، قـــــال تعـــــالى ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [3]

كمـــا يتبين أن زواج رسول الله ﷺ لأهداف وغايات إسلامية عظيمة. ومغازيها تمتلئ بالرحمة والشفقة والحكمة.

وأما أم المؤمنين جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية فكانت بنت رئيس قبيلتها بني المصطلق، وقد وقعت في السبي، وقُتِلَ زوجها في الغزوة، ووقعت جويرية بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، فكاتبها ثابت على نفسها على تسع أواق، فجـــاءت إلى رســـول الله ﷺ تستعينه في فكاكها، فعرض عليها الزواج؛ وقضى عـــنها، فخرج الخبر إلى الناس، فقالوا: أصهار رسول الله ﷺ يُسْتَرَقّون ! فأعتقوا ما كان

---

(1) أبو داود (٢/٥٨٣) برقم (٢١٠٧)

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٨/٩٩)

(3) سورة النحل: آية رقم (٩٦)

في أيديهم من سبي بني المصطلق، فبلغ عتقهم مائة أهل بيت؛ بتزويجه إياها، فتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها: (فلا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها.)[1]

وهذا من تقديره ﷺ لمكانة هذه المرأة ومنزلتها السابقة؛ وعند قومها، فهي بنت رئيس قبيلتها، وما سيكون عن ذلك من أثر بالغ، حيث أعتق الصحابة ما كان بأيديهم من سبي بني المصطلق بسبب زواج رسول الله ﷺ من جويرية رضي الله تعالى عنها، ويُذكر أيضاً أنه ﷺ قد خيرها فاختارت رسول الله ﷺ على رجوعها لقومها.[2] وقد زكتها أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، بقولها (فلا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها.) وهذا النص يُدلل على أمانة أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، إذ لم تمنعها الغيرة من الثناء عليها، فرضي الله عنهن أجمعين.

وقد تزوج ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب النُّضَرِيَّة، فعندما غزا رسول الله ﷺ خيبر كانت صفية بنت حيي إحدى السبايا، فأعتقها رسول الله ﷺ فتزوجها، فعن أنس ﷺ قال: (...وجمع السبي، فجاءه دِحية، فقال: يا رسول الله ! أعطني جارية من السبي، فقال: اذهب فخذ جارية، فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: يا نبي الله ! أعطيت دحية صفية بنت حييٍّ سيد قُريظة والنضير، ما تَصْلُحُ إلا لك. قال: ادعوه بها، قال: فجاء به. فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: خذ جارية من السبي غيرها. قال: وأعتقها وتزوجها.)[3]

وهذا الفعل منه ﷺ يدلل ويؤكد أيضاً أن زواجه من جويرية وصفية بسبب مكانتهما السابقة في قومهما، وهذا من باب الإعزاز لمن كان في عِزّ سابق، ويؤكد ذلك أيضاً مقولة الصحابي رضي الله تعالى عنه (: يا نبي الله ! أعطيت دحية صفية

---

[1] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١١٦/٨ـ١١٧)

[2] المرجع السابق (١١٨/٨)

[3] مسلم (١٠٤٣/٢ـ١٠٤٤) برقم (١٣٦٥)

بنت حيٍّ سيد قريظة والنضير، ما تَصلُحُ إلا لك.) فكأن مثل هذا لا يليق إلا بك يا رسول الله. عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ويفيد هذا أهمية العناية بالجانب النفسي، وإنزال الناس منازلهم، التي تليق بهم، وأنه من مكارم الأخلاق التي يلزم مراعاتها في شؤون الحياة، بالقياس على هذا الفعل منه ﷺ فلا بد من مراعاة ما كان عليه الإنسان قبل تغير أحواله من غنى إلى فقر، ومن مكانة اجتماعية عالية إلى ما دونها، ومن منصب إلى عزل، فإن انعكاساتها التربوية لا تنحصر في صاحبها؛ بل تتعدى لغيره من الناس، وتزيد في تآلفهم وتوادهم وتراحمهم.

وآخر من تزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث الهلالية، بعد أن توفي عنها زوجها، وكان ذلك سنة سبع من الهجرة.[1]

أولاده ﷺ :

القاسم، وبه كان يُكنى ﷺ مات طفلاً، وقيل عاش إلى أن رَكِب الدابة.

زينب: كانت أكبر بنات رسول الله ﷺ تزوجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع، وتوفيت في أول سنة ثمان من الهجرة.

رقية: زوجة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهما. وتوفيت في رمضان على رأس سبعة عشر شهراً من مهاجر رسول الله ﷺ بعد غزوة بدر.

أم كلثوم: وتزوجت عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهما بعد وفاة أختها رقية، وماتت في شعبان سنة تسع من الهجرة.

فاطمة: تزوجها علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما، وتوفيت بعد النبي ﷺ بستة أشهر.

---

[1] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٣٢/٨)

عـــبد الله : وفي تاريخ ولادته خلاف، هل ولد بعد النبوة أو قبلها، وصحح بعضهم أنه ولد بعد النبوة. ويُلقب بالطيب أو الطاهر. ومات صغيراً.

فهؤلاء كلهم من خديجة. ولم يُولد له من زوجة غيرها.

إبراهـــيم : وأمه مارية القبطية، سرية النبي ﷺ التي أهداها إليه المقوقس. وولد سنة ثمان من الهجرة، ومات طفلاً قبل الفطام.[1]

وفي وفاتهم قبله ﷺ ما عدا فاطمة عبرة وعظة لمن يفقد ولده، أو بعضاً منهم.

معاشَرَتُه ﷺ لأهله :

قـــال ﷺ (خيركـــم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)[2] وبهذا النص النبوي الكـــريم يتبين المفتاح الرئيس الذي تنفتح به سعادة البيت وطمأنينته، وخيريته، فخـــير الناس هو من كان في أهله مصدر خير، برعايته وحبه، الذي يضفي على زوجـــته وأولاده فيضـــاً من الإشباع العاطفي الذي يتحول به البيت إلى سعادة تغمر الجميع.

فهذا التوجيه النبوي سر النجاح الأسري بعد توفيق من الله تعالى.

ولـــيس هـــو ذاك الرجل الذي يدخل بيته عبوساً، صارخاً رهيباً مخيفاً، أو يُمسك عصاته، لتكون مصدر التربية والتوجيه الأول، فلم يكن من هديه ﷺ استخدام القوة والعـــنف في معاشـــرة الأهل، فعن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: (ما ضرب رسول الله ﷺ خادماً له، ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً)[3]

بل العجب أن يضرب زوجته، في أول يومه ثم يضاجعها في آخره، قال ﷺ (إلامَ يجلـــدُ أحدُكُمْ امرأته جلد الأمة ؟ ولعله أن يُضاجِعَهَا من آخر يومِهِ)[4] فإنه كيف

---

[1] السيرة النبوية، (٢٠٢/١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٩/٨ــ٣٩) وابن قيم الجوزية، زاد المعاد (١٠٣/١ــ١٠٤)

[2] ابن ماجه (٦٣٦/١) برقم (١٩٧٧)

[3] ابن ماجه (٦٣٨/١) برقم (١٩٨٤)

[4] ابن ماجه (٦٣٨/١) برقم (١٩٨٣)

تلــيق مضاجعة الزوجة بعد القسوة عليها، فإنهما خطان لا يلتقيان. وليس معنى هذا الإهمــال والتســيب، ولكن لا يعمد إلى هذه الوسيلة، وقد كثُرت وسائل التوجيه والإصــلاح، بل إن الضرب يكون في الحالات المستعصية، قال تعالى ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾[1]

ومــن هديــه ﷺ إحسان العشرة حتى مع الخادم الذي يخدمه ﷺ فعن أنس ﷺ قــال: (خدمــت النبي ﷺ عشرَ سنينَ، فما قال لي أف، ولا : لِمَ صنَعت ؟ ولا ألا صنعت ؟)[2]

قــال ابن حجر: ويُستفاد من هذا ترك العتاب على ما فات، لأن هناك مندوحة عــنه باســتئناف الأمر به إذا احتاج إليه، وفائدة تنــزيه اللسان عن الزجر والذم، واستئلاف خاطر الخادم بترك معاتبته، وكل ذلك في الأمور التي تتعلق بحظ الإنسان، وأما الأمور اللازمة شرعاً فلا يتسامح فيها؛ لأنها من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.[3]

ومــن حُسن معاشرته لأهله ﷺ ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، حيث قالت (لقد رأيت رسول الله ﷺ يوماً على باب حُجرتي والحبشةُ يلعبون في المسجد، ورسول الله ﷺ يستُرُني بردائه أنظر إلى لعبهم)[4] وقالت (وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدَّرَقِ والحراب، فإما سألت النبي ﷺ وإما قال: تشتهين تنظرين ؟

---

[1] سورة النساء: آية رقم (٣٤)

[2] البخاري (٤/ ٩٨) برقم (٦٠٣٨)

[3] ابن حجر، فتح الباري (٤٦/١٠)

[4] البخاري (١٦٣/٢) برقم (٤٥٤)

فقلـت: نعم. فأقامني وراءه؛ خدِّي على خدِّه وهو يقول: دونكم يابني أرفِدة، حتى إذا مللت قال: حسبُكِ ؟ قلت: نعم. قال: فاذهبي.)[1]

فها هو ﷺ لم يُنكر على الأحباش لعبهم في مسجده ﷺ في يوم عيد، بلعب مباح لا منكر فيه، بل إن فيه ما يبعث على الشجاعة والقوة. ثم ها هو ﷺ يقف على باب حجـرته لتقف زوجته خلفه، لتستمتع برؤية لَعب الأحباش بالحراب، بل من فضل كـرمه وحُسن معشره ﷺ، لم يبدأها بإنهاء متعتها في المشاهدة حتى مَلَّت رضي الله عـنها، ثم وَضْـعُ وقفتها التي تمتلئ حباً منها وكرماً وحباً منه ﷺ فتضع خدها على خده، وبالتالي يكون ذقنها على كتفه ﷺ كما أن في هذا البيان من أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها ما يبين أنه لا حياء في بيان معالم الدين ومنهجه، كما يدلل هذا الحديث على معرفة وإدراك أم المؤمنين أهمية بيان معاشرته ﷺ لهذه الأمة حتى تهتدي بهده ﷺ وهذا من فقهها رضي الله تعالى عنها.

وعـن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: (دخل عليَّ أبو بكر وعندي جاريتان مـن جـواري الأنصـار، تُغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بُعاث، قالت: وليستا بمغنيتين، فقال أبو بكر: اَبِمُزْمُرِ الشيطان في بيت رسول الله ﷺ ؟ وذلك في يوم عيد. فقال رسول الله ﷺ : يا أبا بكر ! إن لكل قومٍ عيداً. وهذا عيدنا)[2]

وفي هذا الحديث بيان مراعاته ﷺ لواقع الحال الذي فيه أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، فهي في يوم عيد، ويوم فرح وابتهاج، وأن من حق الأهل أن يفرحوا بهـذا اليوم ويستمتعوا بما أباحه الله تعالى. ثم في هذا الحديث بيان أن الجاريتين ليستا ممـن يشتغل بالغناء (وليستا بمغنيتين) وهما صغيرتان (وعندي جاريتين) وأنهما يغنيان بكلمات ليس فيها ميوعة أو ما يدعو إلى الفسوق (تُغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعـاث) كمـا أن في هذا الموقف عدم مجاملته ﷺ لصاحبه ووالد زوجته، بل بَيَّنَ له

---

[1] البخاري (٢/٣٠٢) برقم (٩٥٠)

[2] مسلم (٢/٦٠٧ـ ٦٠٨) برقم (٨٩٢)

الحق والصواب الشرعي، وهكذا يكون المؤمن، لا يجامل في أمور دينه أحداً، وبالتالي لا يُقـــدِّم شيئاً على أوامر ونواهي شرع الله تعالى. وهكذا تكون العشرة الزوجية، تحفظ للأهل حقهم في الاستمتاع بالمباح وإن كانت نفس الزوج لا تَرْغبُ فيه أو لا تميل إليه، أو ليس من طبعه.

وعـــن عائشة رضي الله تعالى عنها (أنها كانت تلعب بالبنات عند رسول الله ﷺ قالت: وكانت تأتيني صواحبي، فكنَّ يَنْقَمِعْنَ من رسول الله ﷺ قالت: فكان رسول الله ﷺ يُسَرِّ بهن إليّ)[1]

ومن لطفه ﷺ تمكينه لزوجته من اللعب مع صويحباتها، بل من كرمه لها ﷺ أنهن يـــتقمعن أي يتغيبن حياء من رسول الله ﷺ فيدعهن، حتى يلعبن مع زوجته، فَيُدخل بهذا الصنيع السرور على زوجته، وعلى صويحباتها، وهذا من دقة وعمق مشاعره ﷺ إذ لا يـــدرك مـــثل هـــذه النواحي النفسية من ضاقت مشاعره، حتى لم تستطع أن تســـتوعب مشاعر غيره، وإن كثيراً من الأخطاء والخصومات ووقوع البغضاء بين الناس بسبب عدم إدراك مشاعر الآخرين، أو عدم مراعاتها حال إدراكها.

وعنايته ﷺ بصواحب زوجاته قد امتدت لهن حتى بعد الوفاة، ومن ذلك عنايته بصـــواحب أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها، تقول عائشة رضي الله تعـــالى عنها (وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة، يقول: أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة. فأغضبته يوماً فقلت: خديجة ؟ فقال رسول الله ﷺ : إني قد رُزقتُ حُبَّها)[2]

فهكذا يُعلمنا ﷺ الوفاء للأهل حتى بعد الوفاة، ذكرى وصلة ومحبة ووفاء، وإنه لخُلُـــق عظـــيم منه ﷺ وإنه لخُلُق الإسلام العظيم. ثم يتكرر في هذا الحديث صورة لصدق وأمانة أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، فبالرغم من غيرتها التي تذكرها رضـــي الله تعـــالى عنها إلا أن ذلك لم يمنعها من بيان حال رسول الله ﷺ مع خديجة

---

[1] مسلم (٤/١٨٩٠ـــ١٨٩١) برقم (٢٤٤٠)

[2] مسلم (٤/١٨٨٨) برقم (٧٥ـــ٢٤٣٥)

رضـــي الله تعـــالى عـــنها، فتبين مقدار محبة رسول الله ﷺ لها، وإن هذا من وفائها وصدقها وأمانتها وكمال أخلاقها، وقد قال عنها ﷺ (وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[1]

وفي صورة أخرى من كمال خُلُقه ﷺ مع أهله، مسابقته لعائشة رضي الله تعالى عـــنها، حيـــث قالت (أنها كانت مع النبي ﷺ في سفر، قالت: فسابقته فسبقته على رجلي، فلما حملتُ اللحم سابقته فسبقني، فقال: هذه بتلك السبقة)[2]

فللمســـلم أن يتصور مشاعر أم المؤمنين عائشة في كلا السباقين، وأثر ذلك في تعمـــيق محبـــتها لرسول الله ﷺ وما يُحدثه ذلك السباق من انعكاسات نفسية على سلوكياتها، وعلى استقرارها وتعايشها مع الآخرين، وأيضاً أثر السعادة في تصرفات الإنسان، فالمرء عندما يكون سعيداً يكون أكثر إيجابية وعطاء.وبالتالي ينعكس ذلك على من يُحيطون به من أبناء وأصدقاء ورفاق عمل ومهنة.

مـــن حسن معاشرته ﷺ لزوجاته إكرامهن، حتى أنه ﷺ يضع ركبته لزوجته أم المؤمـــنين صفية حتى تركب على البعير، فعن أنس بن مالك ﷺ (....ثم خرجنا إلى المديـــنة، فرأيت النبي ﷺ يُحوِّى لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره، فيضع ركبته، وتضع صفية رِجْلَها على ركبته حتى تركب)[3]

فمـــن عنايته ﷺ بزوجته صفية أن جعل لها حوية، أي كساء محشوة تُدار حول الراكب، ثم إنه ﷺ يضع ركبته الشريفة لها حتى ترتقي على بعيرها، فأي عناية وأي محبة وأي خيرية للأهل من هذا الصنيع النبوي العظيم.

فـــلا شك أن مثل هذا العمل الخُلُقي يدفع الزوجة إلى المزيد من العناية بالزوج، فتـــتعمق المحبة بينهما تبعاً لذلك، فتعقبها سعادة منـــزلية تنعكس على حياة الأبناء

---

[1] مسلم (١٨٨٦/٤ــ١٨٨٧) برقم (٢٤٣١)

[2] أبو داود (٦٥/٣ــ٦٦) برقم (٢٥٧٨) وأحمد (٣٩/٦)

[3] البخاري (١٣٨/٣) برقم (٤٢١١)

ومشـــاعرهم، والـــتي بالتالي تضفي على سلوكهم في الحياة قدراً كبيراً من التوازن العاطفي والنفسي؛ الذي يؤثر تأثيراً كبيراً على علاقاقم الاجتماعية؛ وعلى فاعليتهم في المحيط الاجتماعي الذي يتعايشون فيه.

ومـــن خُلُقه ﷺ في بيته أن يعمل في خدمة أهله، بلا استنكاف ولا تأفف؛ وهو النبي المجتبى ﷺ فقد سُئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، ما كان النبي ﷺ يصنع في البيت ؟ قالت: (كان يكون في مهنة أهله، فإذا سمع الأذان خرج)[1]

فهـــا هو النبي المُصطفى ﷺ مع أهله في مهنتهم، ولكنه إذا أذن المؤذن لم ينشغل بشـــيء عـــن الصلاة، الأمر الذي ينبغي أن يسلكه المسلم وينتهجه، بحيث إذا أذن المؤذن ترك ما في يده من مشاغل الدنيا وذهب إلى الصلاة، فكيف بمن يتهاون فيها وهو في غير مشغلة ؟ أليس في هذا مخالفة لمنهجه ﷺ ؟

ومما يقوم به ﷺ في بيته أنه يخصف نعله ويرقع ثوبه، فعن سفيان، عن هشام، عن أبيه، قال: سألت عائشة : ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته ؟ قالت: (ما يصنع أحدكم في بيته، يخصف النعل ويرقع الثوب ويخيط)[2]

وهذا يُدلل على أنه لا يُنقص من قدر الرجل ممارسته بعض مهن بيته ومع أهله، فليس أحد من البشر أفضل من رسول الله ﷺ وليتأمل المسلم ما يضفيه ذلك الخُلُق عـــلى مشاعر الزوجة، وعلى مشاعر الأبناء الذين يرون في والدهم عوناً لأمهم التي يُحـــبونها ويتعاطفون معها، بل إن في ذلك تدريب للأبناء على المنهجية العملية التي يكونـــون عليها عندما يصبحوا أزواجاً، فيكونون قدوة صالحة لغيرهم ولأبنائهم من بعدهـــم، فينال الوالد من ذلك الأجر العظيم؛ نتيجة القدوة التي تمثل بها، فَسَلَكَهَا غيرُه من بعده تأثراً وتأسياً بسلوكه.

---

[1] البخاري (٤٢٧/٣) برقم (٥٣٦٣)

[2] البخاري، الأدب المفرد (٦٣٤/١) برقم (٥٤٠)

وربما سمر رسول الله ﷺ مع أهله أحياناً، فعن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله تعالى عنهما، قال: (..وإن أبا بكر تعشى عند النبي ﷺ ثم لبث حيثُ صُلِّيَتِ العشاء، ثم رجع فَلَبِثَ حتى تعشى النبي ﷺ ، فجاء بعد ما مضى من الليل ما شاء الله...)[1] وبوب البخاري رحمة الله تعالى عليه (باب السمر مع الأهل والضيف)[2]

وفي هـذا دلالـة على أنه لا بأس بأن يسمر الرجل مع أهله، ولكن على أن لا يؤثـر ذلـك على أدائه لصلاة الفجر، لأن صلاة الفجر واجبة، والسمر مع الأهل مباح، فلا يمنع المباح أداء واجبٍ.

وهكـذا يتـبين بجلاء عمق أخلاقه ﷺ وكريم معاشرته مع أهله، الأمر الذي لا يسعنا إلا اتباعه والعمل بهديه، حتى يصلح حال الأسرة المسلمة فيصلح حال الأمة، لأن الأمـة مركبة من مجموعة الأسر المسلمة، والتي بقوتها تقوى، وبضعفها تضعف، كمـا يبين ذلك منهجية الإسلام المتكاملة في أدق تفاصيلها، والتي ترجمها رسول الله ﷺ قولاً وفعلاً ، وقد رصدتها لنا كتب السيرة والسنة النبوية المشرفة.

رعايته ﷺ للصغار :

ولقد كان ﷺ يهش ويبش في أوجه الصبيان، ويداعبهم، ويحملهم على ظهره أو عـلى دابته، وكانوا يتلقونه عندما يَقْدِمِ من سفر أو يرونه في الطريق، وما ذاك إلا لمحبتهم له ﷺ لما يؤانسهم به من الحب والعطف. فعن عبد الله بن جعفر، قال: (كان النبي ﷺ إذا قَدِمَ من سفر تُلُقِّيَ بنا. قال: فَتُلُقِّيَ بي وبالحسن أو الحسين، قال: فحمل أحَدَنَا بين يديه، والآخر خلفه، حتى دخَلْنَا المدينة.)[3]

---

[1] البخاري (١/٢٠٣) برقم (٦٠٢)

[2] المرجع السابق (١/٢٠٣)

[3] مسلم (٤/١٨٨٥) برقم (٦٧ــ٢٤٢٨)

فيتبين من هذا الحديث حال الصغار مع رسول الله ﷺ إذ أنهم يتلقونه من بعيد عندما يَقْدِمُ من سفر ﷺ ويتسابقون إليه، مما يؤكد تِرْحَابَه بهم ﷺ وسروره بذلك، فيحملهم معه على دابته، ولا شك أن دواعي تلقيه تعكس لنا الباعث لذلك العمل من أولئك الصبية، إذ أنه ﷺ يداعبهم ويلاطفهم ويلاعبهم، حتى أصبحوا يفرحون بمقدمه.

وهذا العمل يُجسد للمؤمن التطبيق العملي والمنهج التربوي الذي يلزم أن يسلكه مع أبنائه وأقاربه من الصغار، فيحفهم بالرعاية والتقبيل والمداعبة، ويُعطيهم جزءاً من وقته، ولا يستبدل ذلك بما ينفرهم نتيجة تعب السفر أو تعب العمل والمهنة، فذلك رسول الله ﷺ يقدم من السفر، الذي فيه عادة من المشقة ما فيه، ولكنه لا يجعل من ذلك حاجزاً ومانعاً بينه وبين الصغار.فالصغير لا يدرك حال المسافر، بقدر ما يدرك منه الملاطفة والمداعبة؛ التي تجذبه وتأخذ بفؤاده نحو من يترفق به ويتلطّف معه، وإن هذا النوع من التكريم للأطفال يعطيهم فيضاً من المحبة؛ ومساحة كبيرة تغمرها المشاعر العاطفية التي يمتلئ بها قلبه، فتنعكس على تكوين شخصيته مستقبلاً، الأمر الذي ينبغي أن تعنى به التربية وفق المنهج النبوي الكريم الذي أسس وأشبع هذا الجانب العاطفي لدى الأبناء.

وعن يعلى بن مرة، أنه قال: (خرجنا مع النبي ﷺ ودُعينا إلى طعام، فإذا حسين يلعب في الطريق، فأسرع النبي ﷺ أمام القوم، ثم بسط يده، فجعل الغلام يفر هاهنا وهاهنا، ويُضاحكه النبي ﷺ حتى أخذه، فجعل إحدى يديه في ذقنه والأخرى في رأسه، ثم اعتنقه، ثم قال ﷺ : حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، الحسين سبط[1] من الأسباط)[2]

---

[1] أي أمة من الأمم في الخير، والأسباط في أولاد إسحاق بن إبراهيم الخليل، بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل، وأحدهم سبط. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/٣٤٠)

[2] البخاري، الأدب المفرد (١/٤٥٩ــ٤٦٠) برقم (٣٦٤)

وفي هـــذا الحديث، توجيه الأمة إلى كيفية الرعاية التربوية للصبيان، إذ أنه ﷺ قام بذلك العمـــل أمـــام أصحابه، ولم يمنعه تواجد أصحابه معه وفي الطريق من مداعبة الحسين، وملاعبته، لِيُعَلِّمَ الأمة حال الرجل مع صبيانه أين ما يكون وكيف يكون. كما أنه يُفهم مـــن هذا أن حاله ﷺ معهم في المنـــزل أكثر من ذلك، إذ عادة ما يظهر على المرء مع أبنائه في المنـــزل أكثر مما يظهر عليه معهم في الطريق وأمام الناس.

وفي هذا الحديث أنه لا بأس من ملاعبة الصبية في الطريق، وأمام الناس. كما أن في هذا الحديث ما يبين فرح الحسين بمشاهدة رسول الله ﷺ في الطريق، فأخذ يفر ها هنا وهـــا هـــنا مداعباً ومُتلاعباً مع رسول الله ﷺ الذي كان يبادله ﷺ نفس الروح الطيبة الزكـــية مـــن الحب، فيضيف ﷺ إلى تلك المداعبة المضاحكة ليزداد الصبي قبولاً وإقبالاً وفرحاً وسروراً به ﷺ

ثم يـــبين هذا الحديث منـــزلة الحسين رضي الله تعالى عنه من رسول الله ﷺ وما يجب أن يكون للحسين من الحب من المسلمين.

ومن حبه ﷺ للأطفال، وعنايته بما يُحبون، وما عُرف عنه ﷺ من ذلك، أنه كان يُؤتى بالصبيان ليدعوا لهم؛ فعن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت (كان النبي ﷺ يُؤتى بالصبيان فيدعوا لهم)[1]

فـــلما أنه ﷺ قد عُرِف بحبه ولطفه وعنايته بالصبيان، فإنه يؤتى بهم من أهليهم لـــيدعوا لهم ﷺ بالبركة، ويمسح عليهم، وقد بوب الإمام البخاري رحمة الله تعالى عليه : بـــاب الدعاء للصبيان بالبركة ومسح رؤسِهِم[2] وعن السائب بن يزيد، أنه قال (ذهبت

---

[1] البخاري (١٦٣/٤) برقم (٦٣٥٥)

[2] البخاري (١٦٣/٤)

بي خـــالتي إلى رســـول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ! إن ابن أختي وجع. فمسح رأسي ودعا لي بالبركة.)[1]

فهـــذه الشـــواهد تُدلل على عنايته ﷺ بأمر الطفولة، وأنه عُرف عنه ذلك في الوسط الاجتماعي من صحابته ﷺ ورضي الله تعالى عنهم أجمعين، مما يؤكد أهمية العناية بشؤون الأطفال: بصحتهم والدعاء لهم بالبركة، ومراعاة أحوالهم النفسية، وما انطوت علـــيه مـــن حـــب اللعـــب والمداعبة والمضاحكة، الأمر الذي ينعكس على سلوكياتهم واســـتقرارهم النفســـي، وتوازنهـــم العاطفي الذي تتأثر به طباعهم المكتسبة، بل وحتى الفطرية.

فلقد قدمت سيرته ﷺ الأسوة والقدوة والمنهج الذي يجب أن يأخذ به المسلم في شؤونه الخاصة والعامة؛ حتى يصل ويرتقي به إلى أحسن ما يجب ويُحِب أن يكون عليه .

---

[1] البخاري (١٦٣/٤) برقم (٦٣٥٢)

الفصل الخامس

بداية الغزوات والسرايا

أسس الجهاد الإسلامي:

لقد لقي رسول الله ﷺ عظيم الأذى من قومه في مكة، وكذلك من دخل معه في الإسلام من الضعفاء، ولم يأذن لهم الله تبارك وتعالى في القتال، بالرغم من فتنة قومهم لهم؛ وصدهم لهم عن ذكر الله تعالى، مما يؤكد المنهجية الإسلامية التي تراعي الظروف والأحوال، وعدم الاستعجال، مع التدرج في تحقيق الأهداف.

وقد جاء تشريع الجهاد بمراحل أربع، وهي:[1]

١ــ مرحلة الصبر دون القتال ــ بمكة.

٢ــ مرحلة الإذن بالقتال ــ بعد الهجرة.

٣ــ مرحلة الأمر بقتال من يبدؤهم بالقتال.

٤ــ مرحلة الأمر بقتال جميع المشركين.

قال تعالى ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[2]

فلقد تضمن النص القرآني العلة في الإذن لهم بالقتال، وهو إخراجهم ظلماً وعدواناً؛ بغير حق؛ ولا سبب موجب لذلك، غير أنهم يُوَحِّدُونَ الله فيعبدونه وحده لا شريك له. وإنه لسبب موجب لقتال أولئك الكفار، بل بَيَّنَ الله سبحانه وتعالى أهمية المدافعة الجهادية في إبقاء دين الله تعالى، "فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله، ضرر الكافرين"[3]

---

(1) مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص (٣٣٦) ابن القيم، زاد المعاد (٧١/٣)

(2) سورة الحج : آية رقم (٣٩ـ٤٠)

(3) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٢٤/٣)

وقال تعالى ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ ﴾[1]

وتبين هذه الآية الكريمة الأمر بالقتال في سبيل الله تبارك وتعالى إخلاصاً له سبحانه، وأن تكون المقاتلة لمن يقاتل المسلمين، مع النهي عن الاعتداء، الذي يشمل أنواعه كلها، من قتل من لا يقاتل، من النساء والمجانين والأطفال، والرهبان ونحوهم، والتمثيل بالقتلى، وقتل الحيوانات، وقطع الأشجار ونحوها، لغير مصلحة تعود للمسلمين، ومن الاعتداء مقاتلة من تُقبل منهم الجزية إذا بذلوها، فإن ذلك لا يجوز.[2] فعن سليمان بن بريدة عن أبيه، قال (كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: أُغْزُوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اُغْزُوا ولا تَغُلُّوا ولا تَغْدِرُوا ولا تُمَثِّلُوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال أو خلال، فآيتهن ما أجابوك إليها، فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين، واخبرهم أنهم إن فعلوا أن لهم ما للمهاجرين؛ وعليهم ما على المهاجرين، وإن هم أبوا أن يتحوَّلوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حُكْمُ الله الذي يجري على المسلمين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا، فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك، فاقبل منهم؛ وكُفَّ عنهم، وإن هم أبو فاستعن بالله وقاتلهم.

وإذا حاصرت أهل حِصْنٍ، فأرادُوكَ أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيك، فلا تجعل لهم ذِمةَ الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أبيك وذِمَمَ أصحابك، فإنكم أن تُخفِرُوا ذِمَمَكم وذِمَمَ أبائكم، أهون أن تُخفِرُوا ذِمَّةَ الله وذِمَّةَ رسوله.

---

[1] سورة البقرة: آية رقم (١٩٠)

[2] ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/١٥٠ــ١٥١)

وإن حاصرت أهل حِصْنٍ فأرادُوك أن تُنْزِلَهم على حُكْمِ الله، فلا تُنْزِلْهُم على حُكْمِ الله، ولكن أَنْزِلْهُم على حُكْمِك، فإنك لا تدري أتصيبُ حُكْمَ الله فيهم أم لا)[١]

ويبين هذا الحديث العظيم مجموعة من أخلاق الإسلام وهديه في الحروب، منها ما يكون بين القائد ومجموعته، بأن يلتزم فيها تقوى الله تعالى، وهي وصية جامعة شاملة لكل خير، ودافعة لكل شر، وكذلك من معه من المسلمين بفعل الخيرات، التي تقتضي اجتناب المنكرات. وفي هذا بيان تربوي لما ينبغي أن يقوم به الوالي من توجيه لقادته وأعوانه، ليغرس فيهم منهجية العلاقة الإسلامية في الجهاد، التي مبناها أداء واجبات دينية، وتحمل أعباء ومسؤولية، تتحقق بتقوى الله تعالى. فنهاهم عن الخيانة (ولا تَغُلُّوا) وهي الخيانة في المغنم، والسرقة من الغنيمة قبل القسمة. وإن كانت هذه متعلقة فيما بينهم بالغنيمة، فإن لها أثراً على العدو.

ثم تضمنت الوصية الهدف من الغزوات، بأنها لله وباسم الله؛ وليس لحصد الغنائم وامتلاك الديار (: اغزوا باسم الله في سبيل الله) ويوضح المزيد منها ما بعدها.

وبينت الوصية كذلك سُبُل تحقيق هذا الهدف، بأن يكون وفق أخلاق الإسلام، وليس وفق معايير الأهواء، أو بسط النفوذ، أو حب المال والمناصب والتكثر. إذ نهاهم عن الغدر، (ولا تَغْدِرُوا) أي ولا تنقضوا العهد، (ولا تُمَثِّلُوا) وهو التنكيل والتشويه؛ كجدع أنف أو قطع أُذن؛ أو شيء من الأطراف. (ولا تقتلوا وليداً) وهو الصغير. وفي حديث آخر؛ (...ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأة...)[٢]

ثم اشتملت الوصية على منهجية التفاوض والعروض التي تبين مزيداً من أهداف الجهاد في الإسلام، بأنه لم يكن أبداً من أجل التسلط على أوطان الناس، بل لإخراج الناس من الكفر إلى الإسلام، فإن أبوا فعليهم دفع الجزية؛ لتكون الهيمنة والسلطان للإسلام،

---

[١] مسلم (٣/١٣٥٦–١٣٥٧) برقم (١٧٣١) أحمد، المسند (٥/٣٥٨) واللفظ له.

[٢] أبو داود (٣/٨٦) برقم (٢٦١٤) وفي ذلك مسائل فقهية، متعلقة بمن حارب من هؤلاء، وبمن تُقبل منهم الجزية... فمحلها كتب الفقه، من أبواب الجهاد. حيث فَصَّل فيها الفقهاء رحمة الله تعالى عليهم أجمعين.

دون أن تُغتصب ديارهم، فقال ﷺ (فإن هم أجابوك، فاقبل منهم وكُفَّ عنهم) وأم الثالثة لمن لم يقبل دين الله ولم يقبل دفع لجزية فتكون الأخرى (وإن هم أبوا فاستعن بالله، وقاتلهم)

واشتملت كذلك الوصية النبوية على مزيد تفصيل لمن تحصن من العدو، وتفاوضوا معهم، بأن يكون التفاوض مبني على ذمة القائد ومن معه، وليس على ذمة الله تعالى أو ذمة رسوله، وذلك تنزيهاً لعهد الله وأمانه، من أن لا يصيب القائد حقيقتها، كما قال ﷺ (فإنك لا تدري أتصيب حُكْم الله فيهم أم لا) ولئن تُخْفِرُوا أي تنقضوا ذممكم أهون من أن تُخْفَروا ذمة الله وذمة رسوله ﷺ وفي هذا التنويه درس تربوي، بأن لا يقول الإنسان قال الله أو حكم الله أو حرَّم الله أو أحلَّ الله إلا بعلم فيما يقول.

وهذا يؤكد ويبين أن منهج الإسلام قائم على العدل وعدم الاعتداء، وتجاوز الحدود التي تحقق الهدف، فلم يأذن لهم في القتال بأي تجاوزات عن الهدف المحدد، بل إن من بذل الجزية للمسلمين فيجب عدم مقاتلته. فما أحوج الناس كافة لهذا الدين العظيم، الذي يعصم دماءهم وأموالهم.

وقال تعالى ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1]

إن الإسلام عندما شرع الجهاد فإنما شرعه لإعلاء كلمة الله تعالى، حتى ينتشر هذا الدين بين الناس، ليخرجهم من ظلمات الكفر ومنكرات الأخلاق إلى نور الإسلام وفضائل الأخلاق، ولم يكن لاستنزاف خيرات الشعوب، وتدميرها، بل منع الإسلام العدوان والفساد في الأرض، فإن دخلوا في الإسلام فقد حققوا الهدف، وبالتالي فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وأصبحوا إخواناً لهم، وبالتالي فلا قتال ولا عدوان عليهم. قال

---

[1] سورة التوبة: آية رقم (٣٦)

تعـــالى ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾[1]

وبين الشيخ ابن سعدي رحمة الله تعالى عليه دلالة الآية :بأن الله تعالى ذكر المقصود مـــن القـــتال في ســـبيله، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار وأخذ أموالهم. ولكن المقصـــود أن يكون الدين لله تعالى، فيظهر دين الله تعالى على سائر الأديان، ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره.[2]

وهذه المنهجية الإسلامية تبين وتوضح مراد الإسلام من الجهاد، بأنه لإعلاء كلمة الله تعـــالى، فـــإذا تحققـــت فلا عدوان ولا اعتداء، لأن الإسلام لا يأمر أتباعه بالاعتداء والظلم، بل ينهاهم عن ذلك.

ثم إن هذا التدرج في أحكام الجهاد يعطي دلالة تربوية مع الدلالات الأخرى، أن الإســـلام يراعي في تربيته وتوجيهه القدرات والإمكانات البشرية والنفسية والمادية. فالله تعالى قادر على نصر الفئة المسلمة القليلة في أي معركة يدخلونها؛ عندما كانت تلك الفئة في مكـــة قـــبل الهجـــرة ، ولكنها إرادة الله تعالى التي تربي المسلمين وفق السنن الكونية والاجتماعية التي أرادها الله تعالى. مما يؤكد أهمية مراعاة هذه السنن الاجتماعية والتربوية في حياة الأمة، على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع، وفي أوجه ضروب الحياة المختلفة: في التنشـــئة، وفي التعلـــيم، وفي المهنة، والتكسب، وطلب الرزق، وفي معالجة قضايا الأمة، وإعدادها، وتهيئتها لما يُراد القُدوم عليه، وفي جميع مجالات الحياة

وبالضوابط الربانية والمنطلقات الإسلامية تتابعت الغزوات النبوية؛ فارتفعتْ رايةُ الإسلام، ودخل الناس في دين الله تعالى أفواجا.

وهـــذه طائفـــة من غزواته ﷺ وسراياه؛ والتي تتبين فيها الدروس والعبر بمختلف أنواعها وضروبها:

---

[1] سورة البقرة: آية رقم (١٩٣)

[2] ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/١٥١)

ولقد اختلف أهل المغازي في عدد غزواته ﷺ وسراياه.ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى أن عدد مغازي رسول الله ﷺ التي غزا فيها بنفسه سبعاً وعشرين غزوة، وكانت سراياه التي بعث بها سبعاً وأربعين سرية.[1] ، وفي صحيح مسلم إحدى وعشرون غزوة [2] وقيل غير ذلك في عدد الغزوات والسرايا، كما اختُلِف في أول سرية؛ قيل الأبواء ثم بواط ثم العُشَيرة، وقيل أول لواء عقده ﷺ لحمزة رضي الله عنه .

الغزوات والسرايا قبل بدر:

لقد بدأت النشاطات العسكرية قبل موقعة بدر الكبرى بسرايا وغزوات، هي:

- **سرية سيف البحر.** بقيادة حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين رجلاً من المهاجرين ليعترضوا عيراً لقريش، قادمة من الشام، فكان أول لواء عقده رسول الله ﷺ وكان ذلك في رمضان على رأس سبعة أشهر من مهاجره ﷺ [3]

- **سرية الخرّار:**

وفي ذي القعدة على رأس تسعة أشهر من مهاجر رسول الله ﷺ عقد لواء هذه السرية لسعد بن أبي وقاص في عشرين رجلاً من المهاجرين لاعتراض عير قريش حين تمر من الخرار بالقرب من خُمّ في طريق الذاهب من الجحفة إلى مكة.[4]

- **غزوة الأبواء (ودّان)**

كانت في صفر على رأس اثنى عشر شهراً من مهاجرَه ﷺ ليعترض عيراً لقريش، فلم يلق كيداً، وهي أول غزوة غزاها بنفسه ﷺ فوادع بني ضمرة على أن لا يغزوهم ولا يغزوه، ولا يُكثروا عليه جمعاً، ولا يُعينوا عدواً، وكتب بذلك كتاباً.[5]

---

(1) ابن سعد، الطبقات (٢/٥ـ٦)

(2) مسلم (١٤٤٨/٣) برقم (١٨١٣)

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٦)

(4) المرجع السابق (٢/٧)

(5) المرجع السابق (٢/٨)

- سرية عبيدة بن الحارث إلى رابغ:

فقد بعثه ﷺ في ستين رجلاً من المهاجرين، فلقي أبا سفيان بن حرب، في مئتين من أصحابه، فكان بينهم الرمي ولم يسلوا السيوف، ولم يصطفوا للقتال، وإنما كانت بينهم المناوشة، وقد رمى سعد يومئذٍ بسهم، فكان أول سهم رمي به في الإسلام.[١]

- غزوة بواط:

وكانت في شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من مهاجَره ﷺ في مائتين من أصحابه، يعترض عيراً لقريش، فبلغ بواط وهي جبال من جبال جُهينة من ناحية رضوى.[٢]

- غزوة سَفَوَان (بدر الصغرى)

في شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من مهاجره ﷺ خرج عليه الصلاة والسلام يطلب كُرز بن جابر الفِهْري، الذي أغار على سرح المدينة فاستاقه، والسرح ما رعوا من نَعَمِهم. وفاته كرز بن جابر ولم يلحق به، فرجع ﷺ إلى المدينة.[٣]

- غزوة العُشَيْرَة:

وفي جمادى الآخرة على رأس ستة عشر شهراً من مهاجَره ﷺ خرج عليه الصلاة والسلام في خمسين ومائة، ويقال في مائتين من المهاجرين إلى ذي العشيرة يعترض عير قريش، وهي ناحية ينبع، فوجد ﷺ أن العير قد مضت قبل ذلك بأيام نحو الشام ، وفي هذه الغزوة وادع ﷺ بني مُدلِج وحلفاءهم من بني ضمرة ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً[٤] ، وهذه العير هي التي ذهب يعترضها ﷺ حين عودها من الشام ، فكانت موقعة بدر .

---

(١) المرجع السابق (٢/٧)

(٢) المرجع السابق (٢/٨-٩)

(٣) المرجع السابق (٢/٩)

(٤) المرجع السابق (٢/٩-١٠)

- سرية نخلة :

في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مهاجره ﷺ بعث عبد الله بن جحش الأسدي في إثنى عشر رجلاً من المهاجرين إلى بطن نخلة، كل اثنين يعتقبان بعيراً، وأمره أن يرصد بها عير قريش، فوردت عليهم العير، وفيها ابن الحضرمي وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان، فقاتلوهم، حيث خرج واقد بن عبد الله التميمي يقدم المسلمين، فرمى عمرو بن الحضرمي فقتله، وشد المسلمون عليهم فاستأسر عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان وأعجزهم نوفل، واستاقوا العير وما فيها، وقدموا بها إلى رسول الله ﷺ فحبس الأسيرين، فأسلم الحكم بن كيسان وقُتل ببئر معونة شهيداً.[1]

ويتبين من تلك الغزوات والسرايا أنها كانت تتابع عير قريش ليظفر بها المسلمون المهاجرون الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق، والذين اضطهدهم كفار قريش، مما جعلهم يطلبون الأمن على دينهم وأرواحهم خارج موطنهم مكة المكرمة. وواحدة من تلك السرايا والغزوات كانت لتعقب المعتدي كرز بن جابر عندما أغار على سرح المدينة.فكانت غزوة سَفَوَان.

ولقد استفاد المسلمون من تلك المناوشات والتعقب لعير قريش فوائد عديدة، من أبرزها، إظهار قوة المسلمين لقريش وللقبائل الأخرى بما تسمعه عن المسلمين من تعقبهم لعير كفار قريش، وبالتالي تغرس في قلوبهم الهيبة لهم، إضافة إلى تمرس وتدريب المسلمين على لقاء العدو والمواجهة، والتعرف على الجوانب الجغرافية وتضاريس ما حول المدينة، مما يُكسبهم دربة ومعرفة، كما استفاد المسلمون من موادعة بني ضمرة وبني مُدْلِج وحلفائهم.

ومن فوائد تلك السرايا بناء الثقة، بأن أوكل ﷺ قيادتها لبعض من أصحابه، بما يربي فيهم روح القوة والثقة والتعلم، مما يؤكد أهمية ممارسة القائد والمدير والرئيس لهذا

---

[1] المرجع السابق (٢/١٠-١١)

المـــبدأ الذي يغرس الثقة في النفس، بل ويدرب الفرد والمجموعات على الجوانب القيادية، وإدارة دفة الركب أو الجماعة، إضافة إلى كشفها لقدرات أعوان المسؤول، أياً كان موقعه.

وفي عـــدم ممارســـة هـــذا الـــنوع من القيادة ما يؤكد خطأ أصحاب هذا الاتجاه الأحـــادي، ممـــن يحصر أو يرى نجاح الأعمال القيادية في ذاته ومن خلاله فقط، وفي كل الأحـــوال والظـــروف، وبالتالي يدير إدارته بمركزية الأداء. أو أنه لا يرى مجالاً لبناء الثقة فيمن يعملون في دائرته خشية الوقوع في الخطأ.

الفصل السادس

من غزوة بدر
إلى غزوة أحد

غـــزوة بدر :

سمــع رسول الله ﷺ بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في عِير لقريش عظيمة، فيها أموال لقريش؛ وتجارة من تجارهم، وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون، فندب ﷺ المسلمين إليهم، وقال (هذه عير قريش، فيهـــا أمـــوالُهم، فـــاخرجوا إليهـــا؛ لعـــل الله يُنفلُكُموها)[1]

فلقد كان موقع المدينة في طريق القادم من الشام إلى مكة؛ يُحتم على قريش المرور بها أو قريباً منها، وقد حانت الفرصة للمسلمين أن يأخذوا ما أمكن من حقوقهم المسلوبة، وأن يكســـروا شـــوكة قريش التي تُؤلب عليهم. فيوجه رسول الله ﷺ المسلمين لاعتراض هذه القافلة العظيمة لعل الله أن يُغَنِّمَهُم تلك التجارة.

عـــن أنـــس (أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: فتكلم أبو بكر، فأعرض عنه، ثم تكلم عمر، فأعرض عنه. فقام سعد بن عبادة؛ فقال: إيانا تُريد ؟ يا رســـول الله ! والذي نفسي بيده ! لو أمرتنا أن نُخيضها البحرَ لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضـــرب أكبادها إلى بَرْكِ الغِمَادِ لفعلنا. قال: فندب رسول الله ﷺ الناس، فانطلقوا حتى نزلوا بدراً. ووردت عليهم روايا قريش.)[2]

قـــال العلماء: إنما قصد ﷺ بذلك أخذ موافقة الأنصار لأنه لم يكن بايعهم على أن يخـــرجوا معـــه للقتال؛ وطَلَب العدو، وإنما بايعهم على أن يمنعوه ممن يقصده، فلما عَرَضَ

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (٢/٢٥٧ــ٢٥٨)

(2) مسلم (٣/١٤٠٣ــ١٤٠٤) برقم (١٧٧٩)

الخـــروج لعِـــير أبي سفيان أراد أن يعلم أنهم موافقون على ذلك، فأجابوه أحسن جواب؛ بالموافقة التامة.(١)

وهــــذا يدلل على أن هذه المشورة كانت في المدينة؛ قبل بدر، خاصة وأن سعد بن عبادة لم يحضر بدراً.

و يتـــبين في هـــذا الحديث احترام رسول الله ﷺ للمواثيق وعنايته بها، بالرغم من تَعَمُّـــق العلاقـــة مـــع الأنصار، وكذا بينهم وبين المهاجرين، ولم يدفعه ذلك عليه الصلاة والســـلام إلى تجاهل بنود المعاهدة، وهكذا يعطي هذا الحدث للأمة درساً في أهمية حفظ ما يـــتفقون عليه، وأن لا يجعلوا لقوة العلاقة وتَوَطّدِهَا مجالاً ومسلكاً لإذابة ما يتفقون عليه. وهذا يكون في دائرة الأسرة، ودائرة الصداقات، وفي محيط العمل والمهنة. كمن يستسهل الشـــروط المـــبرمة في عقد الزواج نتيجة ما حصل من قوة في العلاقة بين الأصهار، فيدفع ذلك أحدهم أو بعضهم على التفريط باعتبار ما حصل من تطور ونمو في العلاقة، وكذلك ما قد يحصل بين شركاء العمل والمهنة من تساهل البعض في الاتفاقيات المبرمة بينهم، نتيجة تطـــور ونمـــو تلك العلاقة؛ مما قد يترتب على ذلك من الضرر أو الشعور بعدم الاكتراث بالمواثيق والعهود، ثم ما يعقب ذلك من مشاعر قد تضر بالأطراف.

ولكنه ﷺ عندما أعرض عن الصحابيين الجليلين، فيه إيماء لمقصده ﷺ وهذا الإيماء دون تحديـــد يدلل على كريم خُلُقه ﷺ مما يشير إلى أهمية هذا الأسلوب التربوي ولا سيما مـــع النبهاءِ وأولي الألباب، لما فيه من الآداب والتقدير،حيث فَطِن الأنصار إلى مقصده ﷺ وإلى ما يرمي إليه، فقام سعد بن عبادة ﷺ الفهيم اللبيب، مبيناً أن الذي فَهِمَهُ من رسول الله ﷺ أنهـــم بيـــت القصيد، ثم باشر بالجواب، ولم يترك مجالاً لأن يَرُد عليه رسول الله ﷺ وهذا من غاية الكرم والحب لمن يخاطبه.

---

(١) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٢٤)

فـتُعطي هذه المحادثة الحوارية التي تمتلئ بآداب الحوار والمناقشة، الأسلوب الرائع الذي ينبغي أن يُؤخذ به في مثل ذلك. وما يجب أن يتعلمه المسلم من منهجه ﷺ الذي تربى عليه أصحابه فكانوا خير مجتمع بشري وقف على هذه الأرض.

وفي متابعة حديثه ﷺ يبين مقدار تفانيهم لرسولهم وحبيبهم ﷺ بعبارة راقية في مبناها ومعناها، فيقول: والذي نفسي بيده ! لو أمرتنا أن نُخِيضها البحرَ لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْكِ الغِمَاد لفعلنا.

قسمٌ بالله، ثم يتلوه بيان لغاية ما يمكن أن يخوضوه معه ﷺ وهي عبارات يدل مبناها على معناها الذي لا يمكن أن تُوصف بأكثر من وصف سعد ﷺ وإن هذا التفاني بالنفس لِيُعَلِّمَ الأمة ما يجب أن يكونوا عليه مع منهج ودين الله تعالى حتى بعد وفاته ﷺ بأن يبذل المسلم غاية وسعه، في نشره والذب عنه والعمل به، ولكن كم من يُفرّط في التطبيق لما هو مطلوب منه، فضلاً عن النشر والذب، ولكنك أنت يا الله أرحم الراحمين يا رب العالمين.

ومن جهة أبي سفيان فقد كان يتحسس حين دنا من الحجاز، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان، فاستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم.(١)

فهكذا تظهر بوادر التهيئة الربانية لهذه المعركة؛ التي لم يتوقعها المسلمون، لأنهم خرجوا لأخذ القافلة، ولكن الله يسوق لرسوله ﷺ وللمؤمنين عدوَهم ليجد ما أعده الله لهم من خزي الدنيا؛ فكيف بعذاب الآخرة . يقول عبد الله بن كعب (سمعت كعب بن مالك ﷺ يقول: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبَوك، غير أني تخلفت عن غزوة بدر، ولم يُعَاتَبْ أحدُ تَخلّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يُريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد)(٢)

---

(١) ابن هشام، السيرة انبوية (٢/٢٥٨)

(٢) البخاري (٣/٨٢) برقم (٣٩٥١)

فيبين هذا الحديث أن قصد المسلمين كان هو عِير قريش المحملة بالتجارة، وبالتالي لم يستنفر المسلمون جميعاً. فكان لقاء عدوهم على غير موعدة مما رَفَع العتاب عمن لم يخرج إليها. كما تفيد رواية عبد الله بن كعب مقدار صدقهم وعدالتهم، فيبين كعب ﷺ ما كان منه من تخلف عن غزوة تبوك وغزوة بدر التي يتمنى كل واحد أن يكون منهم، فيذكر ويبين ذلك للناس. فيقدم ﷺ درساً في صدق الحديث وأمانة الرواية للحدث. إذ لم يكن عدم تشرفه بالمشاركة في غزوة بدر وغزوة تبوك سبباً في كتمان ذلك، بل بينه ﷺ.

ولكن كم من الناس من يُحِب أن يُحمد بما لم يفعل، وربما غض الطرف عن مدحه بما لم يفعل، وربما تطاول فنسب لنفسه من الخير ما فعله غيره. فكيف لمثل هذا النوع أن يذكر تقصيره.

وبعد قُدُوم ضمضم إلى مكة برسالته من أبي سفيان تبعث قريش أشرافها، ولم يتخلف منهم أحد، إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب قد تخلف؛ وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة.[1]

ومن تدبير الله تعالى في خروج أشراف كفار قريش حتى يلقوا مصارعهم أن عبد الله بن مسعود حدَّث عن سعد بن معاذ أنه (كان صديقاً لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل على سعد، وكان سعدٌ إذا مر بمكة نزل على أمية، فلما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمراً، فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة؛ لعلي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان ! من هذا معك ؟ فقال: هذا سعد، فقال أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً؛ وقد آويتم الصُّبَاة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتُعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً، فقال له سعد ـ ورفع صوته عليه ـ : أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة، فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعدُ على أبي الحكم سيد أهل الوادي. فقال سعد: دعنا عنك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٢/٢٦١)

يقـــول إنهم قاتلوك. قال: بمكة ؟ قال: لا أدري. ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً، فلما رجع أمـــية إلى أهلـــه قال: يا أم صفوان ! ألم تري ما قال لي سعد ؟ قالت: وما قال لك ؟ قال: زعـــم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتلي. فقلت له: بمكة ؟ قال: لا أدري. فقال أمية : والله لا أخـــرج من مكة. فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس، قال: أدركوا عِيرَكم، فكره أمية أن يخرج، فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان إنك متى ما يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلّفوا معك. فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذ غلبتني فوالله لأشترين أجود بعير بمكة، ثم قال أمية: يا أم صفوان جَهِّزيني، فقالت له: يا أبا صفوان وقد نسيت ما قـــال لـــك أخوك اليثربي ؟ قال: ما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً، فلما خرج أمية أخذ لا يترك منـــزلاً إلا عَقَلَ بعيره، فلم يزل بذلك حتى قتله الله عزَّ وجلَّ ببدر)[1]

فيبين هذا الحديث كيف ساق الله سبحانه وتعالى أمية بن خلف بن صفوان إلى بدر ليلقى مصرعه هناك، على أيدي المسلمين.

ويتبين من هذا الحوار ومن نتيجته: القوة الإيمانية التي تغذى بها سعد بن معاذ ﷺ حيـــث واجه أبا جهل مواجهة الواثق بالله تعالى، وهو وحيد بينهم، فرفع صوته عليه، ولم يـــأبى لمن كان صاحبه قبل الإسلام، ثم توجه لأمية بالحديث مبيناً له ــ والله تعالى أعلم ــ أن صـــحبة الجاهلـــية قد ولّت وانتهت، وأنه لا يعتمد في وجوده معهم على صداقة أمية، فأخبره بأنه سيقتله ﷺ وهذه من دلائل نبوته ﷺ ثم تظهر الحالة المعنوية التي يزرعها الإسلام في أتباعه نتيجة القوة الإيمانية التي يتشبع بها القلب، ثم تتشبع بها الجوارح، مما يؤكد أهمية التربية الإيمانية، وأهمية الثقة بالله في بناء الشخصية المسلمة، التي لا تهاب ولا تخاف إلا من الله تعالى.

ثم تظهـــر الحالـــة النفسية المتردية عند أمية؛ نتيجة خوفه من وعد رسول الله ﷺ حيـــث جـــاء في إحدى الروايات أنه قال : فوالله ما يكذب محمد إذا حدَّث.[2] مما يؤكد

---

(1) البخاري (٣/٨١ــ٨٢) برقم (٣٩٥٠)

(2) ابن حجر فتح الباري (٧/٢٨٣)

أمرين: أولهما أن أمية يعلم علم اليقين أن محمداً رسول من الله تعالى، بثقته في سيرته، أنه لا يكذب ﷺ ولكن ما منعه إلا الكبر وطاعته لقومه، وتقديم الدنيا على الآخرة. والأمر الآخر أن هـــذه المعرفة والخوف من رسول الله ﷺ قد سَرَت في قلوب كفار مكة، لأن أمية يمثل سيداً في قومه، ويتخوف هذا التخوف، فما بال أتباعه ومَنْ هم دونه في السيادة.

ومن فوائد هذا الحدث أن إرادة الله تعالى فوق كل إرادة، فبالرغم من معرفة أمية المســـبقة بأنـــه مقتول من محمد ﷺ إلا أنه يجري لمقتله بنفسه، بل ويتهيأ لذلك التهيئة التي تُحَقْـــقْ نُفــوذ القدر. بل إنه عازم على الفرار من القتل قال ابن حجر عن قوله لأشترين أجود بعير بمكة:" يعني فأستعد عليه للهرب إذا خفتُ شيئاً"[1]

ومـــن فوائد هذا الحدث أنه لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، ، وبالتالي ما على المسلم إلا أن يؤوب إلى ربه سبحانه وتعالى؛ ويتوكل عليه، ويُحقق في قلبه أن الله تعالى إذا أراد شـــيئاً هيأه كيف يشاء سبحانه وتعالى، فما عليه إلا التوكل مع الأخذ بالأسباب، مع العلم واليقين أنها لا تُجدي شيئاً بغير توفيق الله تعالى وإرادته، وأن لا يفرح بقوة الأسباب، ولا ينـــزعج بضعفها أو قلتها، فالله هو رب الأسباب.

وأتـــى النبي ﷺ الخبرُ عن مسير قريش ليمنعوا عيرهم؛ فاستشار الناس، وأخبرهم عـــن قريش، فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن. وقام عمر بن الخطاب؛ فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو وتكلم.[2]

فعـــن طارق بن شهاب، قال: سمعت ابن مسعود يقول: (شَهِدْتُ من المقداد بن الأســـود مشـــهداً لأن أكون صاحبَهُ أحبُّ إليَّ مما عُدِلَ به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٢٨٤/٧)

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (٢٦٦/٢)

المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى (اذهب أنت وربك فقاتلا) ولكنا نُقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وَجهُهُ وسَرَّه، يعني قوله)[1]

وفي هذا الحديث حب ابن مسعود لمعالي الأمور الإيمانية وأنفسها، وعلو همته ﷺ، كما فيه سلامة صدره ﷺ فلم يحسد صاحبه، فَذكْرُهُ لهذا الحدث دليل على ذلك.. وهكذا يكـــون المسلم في علو همته الإيمانية، وتَصَعُّدُه في معالي الأمور التعبدية، التي تقربه من الله تعـــالى، فـــلا يرضى بالقليل منها، أو يكتفي بأداء الواجبات؛ بل يسعى ليكون في مصاف الأتقياء؛ قولاً وعملاً، إيماناً وعبادة وخُلُقاً. كما أن فيه مدح وثناء من ابن مسعود على ما تضمنته كلمات المقداد رضي الله تعالى عنهما. الأمر الذي يبين للمسلم كيف يكون في ما يُعجِــبه مـــن فعـــل أو قول إخوانه، فلا يغمطهم حقهم، بل يبين فضل كلماهم وآرائهم وأفعـــالهم إذا أحســـنوا، وأن لا يتأثر بما قد يحدث في قلبه من غيرة، فيدفع ذلك بالعمل الصـــالح تجاههم، لأنه يكمن في هذا الأسلوب ما يثير المحبة بين المسلمين، ويوطد المزيد من قوى التلاحم والتواد.

وفـــيه فطنة المقداد وفضله، وشجاعته ومبادرته للخير، وتوفيق الله تعالى له بالكلم الطيب والنية الصادقة، الذي طابت به نفس رسول الله ﷺ وقبل ذلك محبة الله لقوله الذي فـــيه مرضـــاته سبحانه وتعالى، حتى أشرق وجهُهُ ﷺ وسره ذلك الكلام من المقداد. وفيه فهمه وعلمه ﷺ بما كان من حال قوم موسى، واستفادته من قصتهم مع نبيهم، ليتمثل بما يجب أن يكون عليه المسلم مع نبيه ورسوله ﷺ وفيه منهجية التطبيق العملي من أصحاب رســـول الله ﷺ لما يسمعونه ويتعلمونه مما ينـــزل به جبريل على نبيه ﷺ وهو ما تحتاج إليه التربـــية الـــيوم مـــن تفعيل الأوامر والنواهي في حياة الأمة، من خلال المشاركة الفعلية لتطبـــيقات المـــنهج الإسلامي. كما أن في هذا النص القدرة التعبيرية الجيدة التي أظهرت مراده بأحسن ما يمكن أن يكون عليه البليغ من الناس، فلله درك يا مقداد، ولله درك يا بن

---

[1] البخاري (٣/٨٢) برقم ٣٩٥٢)

مسعود، رضي الله تعالى عنكم أجمعين؛ ورزقنا حبكم والعمل بما كنتم به تعملون مع رسول الله ﷺ

ثم في صـــورة مـــن صور المسير إلى بدر يبين ابن مسعود موقفاً من مواقف سيرته العطـــرة ﷺ فيقول عبد الله بن مسعود ﷺ : (كنا يوم بدر ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زَمِيلَيْ رسولِ الله ﷺ قال: وكانت عقبة رسول الله ﷺ قال: فقالا: نحن نمشي عنك، فقال: ما أنتما بأقوى مني؛ ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما)[1]

فيـــبين حـــال ركب رسول الله ﷺ ومن معه يوم بدر، بأنهم كانوا يتناوبون على الدواب التي تنقلهم، وكان رسول الله ﷺ يتناوب معهم، يمشي مثل ما يمشون، ويركب إذا جـــاءت عُقْبَـــتُه. ولكن محبتهم له ومعرفة قدره ﷺ من أصحابه تدفعهم لأن يؤثروه على أنفســـهم، فعـــندما كانت عقبته ونوبته في الترجل عن البعير والمشي، فقيل له: نحن نمشي عـــنك. وهكـــذا يكـــون المفضول مع الفاضل في تأدبه، والطالب مع أستاذه، ومع العالم والوالد، ولكنه ﷺ يقابل هذه الأخلاق بما هو أحسن، فقال: (ما أنتما بأقوى مني؛ ولا أنا بـــأغنى عن الأجر منكما) إنه درس في عدم استغلال مكارم الأخلاق، وبيان أنه إذا كانت هـــناك مماثلة في القوة البدنية فلا يستغل غيره، ويفهم من ذلك بالمغايرة أنه إذا كانت هناك مفاوته في القوة البدنية من ضعف ونحوه، فيمكن ذلك لورود العلة الدافعة له، كما يبين ﷺ أمـــراً آخر في غاية الأهمية وهو الحاجة إلى ثواب الله تعالى، وأن يتحمل المسلم المشقة لمزيد الأجـــر، فيقدم عليه الصلاة والسلام درساً تربوياً مؤثراً ومصحوباً بالعلة التي تشحذ الهمم نحـــو الخـــير وتحمـــل المشاق من أجل فضل الآخرة، وتقديم لذة الآخرة على تعب الدنيا ونصـــبها. فهذه منهجية نبوية قد تَربَّى عليها أصحابه ﷺ ورضي الله تعالى عنهم فكانوا بها مثالاً في مسلكهم ومنهجهم التربوي والخُلُقي والتعبدي والعقدي والعلمي والمهني والحربي، بل وفي كل جانب من جوانب الشخصية المثالية.

---

[1] أحمد (١/٤١١)

كمـــا أن تناوب ثلاثة على بعير واحد من المدينة إلى بدر يبين مشقة ذلك السفر، فـــإذا كانت المسافة من المدينة إلى بدر مائة وخمسين كيلاً تقريباً؛ فيكون نصيب كل واحد منهم خمسين كيلاً ركوباً؛ ومائة كيل مشياً على الأقدام تقريباً، وإنه لجهاد بالنفس في أوجه مـــتعددة: مشـــقة وعناء وبذل نفس، وترك مكاسب دنيوية، وكم أعطى أولئك الرجال الأفـــذاذ رضي الله تعالى عنهم لهذا الدين، وكم يعطي المسلم اليوم لدينه من قراءة القرآن الكـــريم والصلاة والمشي إليها، ومن الصيام والصدقة وحُسن الخُلُق، فكيف لو مشى تلك المسافة ؟

ولـــئن ذهب رسول الله ﷺ مع أصحابه في هذه الغزوة، فلقد استعمل ﷺ عبد الله بن أم مكتوم على الصلاة بالناس، ثم رد أبا لبابة من الروحاء؛ واستعمله على المدينة.[1]

واســـتخلاف ابـــن أم مكـــتوم رضي الله عنه في المدينة للصلاة دليل عملي على أهمية هذه الشـــعيرة، وأهمية القائم بها، وعلو منـــزلته، مما يدلل على أهمية التسابق على هذا العمل العظـــيم، كمـــا يدل هذا الفعل منه ﷺ على أن لا يُترك المسجد دون تعيين إمام له، يؤم المصـــلين، درأً لما قد يحدث من الخلاف، كما يفيد أيضاً أنه يلزم الإمام الراتب أن يوكّل غيره على الإمامة حال غيابه المعلوم به مسبقاً.

وفي اســـتخلاف أبي لبابة على المدينة، ما يدل على أهمية الوالي أو الحاكم، وأن لا يـــبقى هـــذا المكان فارغاً، لما يترتب على الأخذ به من المصالح، وما يترتب على تركه من المهالك.

ويمكـــن استصـــحاب ذلك على الوظائف بالقياس، بأن لا يترك المدير أو الرئيس مكانـــه حال غيابه دون تعيين من يقوم مقامه، لما في ذلك من مفاسد تعطيل مصالح الناس، وحـــدوث الخلاف بين المرؤوسين، وقد وجه ﷺ إلى أهمية الإمارة حتى ولو كانت في ثلاثة

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية ٢/٢٦٤)

نفر، قال ﷺ (...ولا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمّروا عليهم أحدهم. ولا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة يتناجى اثنان دون صاحبهما)[1]

وبعـــد وصوله ﷺ إلى بدر أرسل ﷺ بعض أصحابه إلى ماء بدر، يلتمسون أخبار القوم، فأصابوا إبلاً لقريش، فيها غلامان لقريش، فَعَرَفَ ﷺ منهما مكان قريش وعددهم، حيـــث قـــال ﷺ لهمـــا: أخبراني عن قريش ؟ قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بـــالعُدْوة القصـــوى. فقال لهما رسول الله ﷺ : كم القوم ؟ قالا: كثير؛ قال: ما عِدّتهم ؟ قـــالا: لا ندري، قال: كم ينحرون كل يوم ؟ قالا: يوماً تسعاً؛ ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ: القـــوم فيما بين التسعمائة والألف، ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ فذكـــرا له أسماء. فأقبل رسول الله ﷺ على الناس، فقال: (هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كَبِدها)[2]

وتـــبين هذه الرواية فطنته ﷺ وأهمية إمعان النظر ليتحقق الاستنتاج والاستنباط، للوصـــول إلى المقصود، الأمر الذي عَرَفَ به ﷺ عدد القوم من عدد ما يذبحون من الإبل. وبهـــذه الوســـيلة العلمية يتبين منهجية الإسلام العلمية في تقدير الأشياء من خلال النظر والتأمل، الأمر الذي يجب أن يتنبه إليه من يُعنى بالتربية من المعلمين والوالدين وغيرهم.

ثم يتبين من هذه الحادثة توفيق الله تعالى لنبيه ﷺ وللمؤمنين بهذين الساقِيَيْن ليعرفا منهما هذه المعلومات الأولية؛ ذات الأهمية بالنسبة للمسلمين.

ثم لم يستخدم ﷺ أسلوب التهويل والتخويف مع أصحابه، وإنما استخدم أسلوب التبشير لأصحابه؛ في قوله (هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كَبِدها) فلم يُشغلهم ﷺ بعدد القـــوم الـــذي هو أضعاف عدد المسلمين، ولكنه فتح لهم باب التفاؤل، والثقة بالله تعالى،

---

[1] أحمد (١٧٧/٢)

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (٢٦٨/٢ــ٢٦٩)

وهكذا يكون المؤمن، وخاصة في الملمات والشدائد، فيتعلق بالله تعالى ولا يَرْجُف من قوة خصومه، بل يقوي إيمان أتباعه بالتفاؤل.

وبعد التعرف على هذه المعلومات المهمة، انشغل رسول الله ﷺ بالدعاء والالتجاء إلى رب العالمين، ليطلب منه الغوث والمدد والنصر، فعن عبد الله بن العباس رضي الله تعالى عنهما قال: حدثني عمر بن الخطاب، قال: (لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مَدَّ يديه فجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لي ما وعدتني. اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تُهْلِك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض. فما زال يهتف بربه ماداً يديه؛ مستقبل القبلة؛ حتى سقط رِدَاؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه. وقال: يا نبي الله ! كفاك مُناشَدَكَ ربَّك، فإنه سَيُنْجِزُ لك ما وعدك. فأنزل الله عزَّ وجلَّ (إذ تستغيثون ربكم، فاستجاب لكم أني مُمِدُّكم بألف من الملائكة مُرْدِفِين) فأمده الله بالملائكة.[1]

إن هذا الحديث يبين أن المعادلة العددية غير متكافئة بين فريقين قادمين على خوض معركة فاصلة في تاريخ الإسلام، إضافة إلى أن المشركين قادمون بنية القتال، فأخذوا كل احتياطاتهم، بينما المسلمون قادمون بنية اعتراض قافلة أبي سفيان، مما يجعل الجانب النفسي عند الفريقين غير متكافئ. ولكن رسول الله ﷺ يعطي درساً للمؤمنين في معالجة هذا الموقف بمعالجة لا يمكن أن تتحقق إلا من رب العالمين، الكبير المتعال؛ قيوم السماوات والأرض، الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون. فيلجأ رسول الله ﷺ إلى ربه مستقبل القبلة، وهذا من أول آداب الدعاء، ثم مَدَّ يديه، لما في ذلك من إظهار الحاجة والافتقار إلى الله تعالى، مع التذلل له عَزَّ وجلَّ، ثم أخذ يهتف بربه الكريم المنان الحنان، ماداً يديه حتى سقط رداؤه ﷺ وهكذا يكون المؤمن متضرعاً مُلحاً في دعائه لربه سبحانه وتعالى، مع إظهار الحاجة والافتقار إليه عزَّ وجلّ.

---

[1] مسلم (٣/١٣٨٣ـ١٣٨٥) برقم (١٧٦٣)

قـال الإمام النووي رحمة الله تعالى عليه: قال العلماء هذه المناشدة إنما فعلها النبي ﷺ لـيراه أصحابه بتلك الحال، فتقوى قلوبهم بدعائه وتضرعه، مع أن الدعاء عبادة، وقد كـان وعده الله إحدى الطائفتين: إما العير وإما الجيش، وكانت العير قد ذهبت وفاتت، فكان على ثقة من حصول الأخرى، ولكن سأل تعجيل ذلك وتنجيزه من غير أذى يلحق المسـلمين.[1] وفي كلام العلماء هذا؛ ما يدل على أسلوبه التربوي ﷺ القائم على التطبيق العملي، الذي يرسخ في الأذهان شعيرة العبادة، ويشحذ الهمم نحو التعلق بالله تعالى، ويبين ما ينبغي أن يفعله المسلم وكيف يفعله.

ثم يـبين أبـو بكر ﷺ بسلوكه وفعله ومحبته لرسول الله ﷺ كيف يكون التقدير والاحـترام والإجلال لرسول الله ﷺ حيث مازال ممسكاً برداء رسول الله ﷺ على منكبيه حـتى فَرغ من دعائه عليه الصلاة والتسليم. فإنه الأدب والحب والتقدير الذي يفيد أهمية تقديـر ورثة الأنبياء، وإعزازهم وتقديرهم ورفع مكانتهم. فلئن توفّي ﷺ فإن العلماء هم ورثة الأنبياء.

ثم يـبين هذا الحديث منـزلة رسول الله ﷺ عند ربه سبحانه وتعالى؛ حيث أنزل عليه بشارة النصر والتأييد ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [2]

فتـبين هاتان الآيتان استغاثة الرسول ﷺ واستغاثة المؤمنين لربهم بالنصر والتأييد، فتأتيهم الإجابة فوراً: بالاستجابة، والمدد بألف من الملائكة مردفين، أي:متتابعين. وما جعل الله تعـالى هذا إلا بشارة، ولتطمئن به قلوب المؤمنين، لأن اطمئنان القلوب مدعاة للتفكير ومدعـاة للقوة والشجاعة وعدم اليأس، التي هي من دواعي الجد والنشاط. ثم يؤكد الله

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/٨٥)

(٢) سورة الأنفال: آية رقم (٩ــ١٠)

تعـــالى لعباده بأسلوب الحصر؛ أن النصر لا يمكن أن يكون إلا من عنده سبحانه وتعالى، . وبالـــتالي لا يكـــترث بقلة ما لديه، ويزهد فيما عنده من الأسباب القليلة. فإن الله عزيز حكـــيم. كمـــا أنه لا يُعَوِّل المؤمن على كثرة عَتَاده وقوته في أي مجال، ولا يَعجب به، بل يأخذ بالأسباب ويتيقن بأن الأسباب لا تنفعه إلا بتوفيق الله تعالى وتأييده.

عن ابن عباس رضي الله عنهما (أن النبي ﷺ قال يوم بدر: هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب) [١]

وهـــذا الحديـــث النبوي الكريم يبين مشاركة جبريل عليه السلام في هذه الغزوة، كمـــا أن في إخبار رسول الله ﷺ لأصحابه بخبر جبريل مزيد تطمين من الله تعالى لهم بأنهم مُعانون من الله تعالى بملائكته. وهكذا تتبين معية الله تعالى لعباده المؤمنين، الذي لا يزداد به المؤمـــن إلا توكـــلاً واعتماداً على ربه سبحانه وتعالى، وأن النصر والتوفيق منه عزَّ وجلَّ، الأمـــر الذي يستلهم منه المؤمن أهمية التوكل والثقة بالله تعالى، وأن لله جنوداً ينصر ويؤيد بهم من يشاء من عباده الصالحين.

قـــال أبو زُمَيْلٍ: فحدَّثني ابن عباس قال: (بينما رجلٌ من المسلمين يومئذٍ يَشْتَدُّ في أثـــر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوتَ الفارسِ يقول: أَقْدِم حَـــيْزُوم فنظر إلى المشرك أمامه فَخَرَّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وجهه كضـــربة السوط فَاخْضَرَّ ذلك أَجْمَعُ. فجاء الأنصاري فحدَّث بذلك رسولَ الله ﷺ فقال: صدقت، ذلك من مَدَد السماء الثالثة. فَقَتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين.) [٢]

وحيزوم هو اسم فرس الملك، وهو منادى بحذف حرف النداء، أي يا حيزوم.وإذا هو قد خطم أنفه، والخطم الأثر على الأنف. [٣]

---

[١] البخاري (٣/٩٠ــ٩١) برقم (٣٩٩٥)

[٢] مسلم (٣/١٣٨٣ــ١٣٨٥) برقم (١٧٦٣)

[٣] صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/٨٥ــ٨٦)

وهـــذا الحـــدث يبين صورة من صور مشاركة الملائكة التي وعَدَ الله تعالى بها في الآيات التي سبق ذكرها.

ومـــن توفيق الله تعالى لنبيه ﷺ وللمؤمنين، أن أعلم الله تعالى نبيه بما سَيَلْقَى أعداء الله تعـــالى من القتل، فبين له مواقع مصارعهم من أرض المعركة، فعن أنس رضي الله عنه (....فقـــال رسول الله ﷺ : هذا مصرع فلان. قال: ويضع يده على الأرض، ها هنا وها هنا. قال: فما ماط أحدهم عن موضع يَدِ رسول الله ﷺ)[1]

فهذا البيان النبوي كان قبل بدء المعركة ورسول الله ﷺ مع أصحابه في بدر. ولا شـــك أن هـــذا من لُطف الله تعالى بالمؤمنين وبشارة لهم، ليزدادوا إيماناً وثقة أمام عدوهم الذي تَفَوَّقَ في العدد والكثرة، كما أن هذا من المعجزات التي أجراها الله تعالى لنبيه ﷺ في هذه الغزوة المباركة. لأن مخرجه ﷺ لم يكن للغزوة، وإنما كان طلباً لعير أبي سفيان، وبالتالي لم يخرجوا بكامل عددهم وعُدَّتِهم، قال ابن كثير: إنما خرج من المدينة طالباً لعير أبي سفيان التي بلغه خبرها؛ أنها صادرة من الشام؛ فيها أموال جزيلة لقريش، فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين من خَفَّ منهم، فخرج في ثلاث مائة وبضعة عشر رجلاً، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضمضم بن عمرو نذيراً إلى أهل مكة، فنهضوا في قريب من ألف مقنع، ما بين التسعمائة إلى الألف، وتيامن أبـــو ســـفيان بـــالعير إلى سيف البحر، فنجا. وجاء النفير فوردوا ماء بدر، وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يُرِيد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين؛ ونصرهم عـــلى عدوهـــم، والتفرقة بين الحق والباطل... والغرض أن رسول الله ﷺ لما بلغه خُرُوج النفير أوحى الله إليه يعدُه إحدى الطائفتين إما العير وإما النفير، ورغِب كثير من المسلمين في العـــير لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يُحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين)[2]

---

[1] مسلم (٣/١٤٠٣ـــ١٤٠٤) برقم (١٧٧٩)

[2] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٩٩)

ثم تظهر صورة أخرى للنبي ﷺ ليلة المعركة، في مشهد تعبدي، ينقله علي بن أبي طالب ﷺ، حيث قال (لقد رأيتنا ليلة بدر؛ وما منا إنسان إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ فإنه كان يُصلي إلى شجرة؛ ويدعو حتى أصبح)(١)

فلم يجعل ﷺ المعركة عذراً لينام، بل جعل الليل وسيلة لطلب النصر والتأييد، فليست ليلته بأقل أهمية من مجريات الغزوة المباركة، فإذا به ﷺ يفزع إلى الصلاة والدعاء والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى، لينصره ويؤيده ويحقق الظفر بأعداء الله تعالى، فيعطي الأمة درساً في منهجية معالجة الأمور: آخذاً بالأسباب، وآخذاً بالتوكل وإحياء الليل بالصلاة والدعاء. وإنه لدرس لأفراد الأمة بأن يلجأ المسلم إلى الصلاة في كل أمر ينوبُه، ملتمساً من رب الأسباب أن يهيئ له ما يصبو إليه من جلب خير، أو دفع ضر، فليست الأسباب وحدها كافية؛ ما لم يؤازرها التوفيق والتسديد من الله تعالى. كما امتن الله على المؤمنين في تلك الليلة بالنعاس؛ ليكون أمنة منه لهم، على ما سيأتي بيانه وإيضاحه.

وكانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة، وكان يوم بدر يوماً حاراً.(٢)

وأما عن تفاعل أصحاب رسول الله ﷺ في هذه المعركة، فشواهدها عديدة، فعن أنس رضي الله عنه، قال(...فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر. وجاء المشركون. فقال رسول الله ﷺ : لا يُقَدِّمَنَّ أحدٌ منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه. فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض. قال: يقول عمير بن الحُمَام الأنصاري: يا رسول الله ! جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال: نعم. قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ : ما يحملُك على قولك بخ بخ ؟ قال: لا. والله ! يا رسول الله ! إلا رجاءة أن أكون من أهلها. قال : فإنك من أهلها. فأخرج تمرات من قَرَنِه.

---

(١) أحمد (٢/٣٦٣) برقم (١١٦١) طبعة الموسوعة الحديثية

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/٨٤)

فجعـــل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى أكل تَمَرَاتِي هذه؛ إنها لحياة طويلة. قال فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتِل.)[1]

ويـــبين هـــذا الحديث شجاعة المسلمين، وتقدمهم حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وهـــذا ما ينبغي أن يكون عليه المسلم في جميع أمور الخير، سباقاً ومقداماً شجاعاً لا يهاب ولا يخاف إلا الله تبارك وتعالى. مع الفطنة والحذر والبعد عن التهلكة، لأن للشجاعة حدودَ ابتداء وحدودَ انتهاء، فبدايتها بعد نهاية الجبن، ونهايتها ابتداء التهور، ووسطها قمة ما بين ذلك.

ثم يظهر توجيه القائد لجيشه وما ينبغي أن يكونوا عليه، من عدم التقدم عليه، (لا يُقَدِّمَـــنَّ أحدٌ منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه) أي قدامه؛ متقدماً في ذلك الشيء، لئلا يفوت شيء من المصالح التي لا يعلمونها.[2] وهذا من حرصه ﷺ وتأكيداً لأهمية دور القائد وممارســـته قيادة دفة الجيش، ومسيرة سير المعركة، كما يؤكد هذا شجاعته ﷺ ثم يحث ﷺ جيشـــه بأحسن ما يطمع إليه المؤمن (قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض) فيتفاعل عمـــير بـــن الحمام الأنصاري ﷺ معلناً رغبته في أن يكون من أهل تلك الجنة الموصوفة، مـــتلفظاً بترديد كلمة: بخ بخ، تفخيماً للأمر وتعظيمه في الخير. مؤكداً لرسول الله ﷺ أنه يقولهـــا ابتغاء أن يكون من أهلها، لأن المقاتل قد يقاتل للمغنم، وقد يُقاتل ليقال شجاع، فـــيعطي ﷺ صـــورة الإقدام مع الإخلاص لله تعالى، الأمر الذي يؤكد أهمية الإخلاص لله تعالى في العبادة؛ مهما كَبُرَت، فلا ينتفع المرء بالعمل التعبدي إلا إذا كان خالصاً لله تعالى؛ وصواباً على سنة رسول الله ﷺ

فيرمـــي ﷺ تمـــرات كانت في جعبته، معتبراً أن حياته طويلة إن انتظر الجنة حتى يُكْمِـــلَ أكـــل هـــذه التمرات، فيدخل المعركة ﷺ فقاتلهم حتى قُتِل ﷺ ليعطي درساً في الشـــجاعة المحمـــودة المطلوبة، وفي حب هذا الدين ونصرته، وتقديم ملذات الآخرة على

---

[1] مسلم (٣/١٥٠٩ــ١٥١١) برقم (١٩٠١)

[2] صحيح مسلم بشرح النووي (١٣/٤٥)

ملذات الدنيا، واستقرار ذلك في قلبه الذي ترجمه ﷺ إلى سلوك فعلي. وإن هذا الفعل منه ﷺ ليرمز إلى درس تربوي عظيم الفائدة والأثر، وهو أن عمير بن الحمام قد قدَّم نفسه ﷺ ذوداً ودفاعاً عن الإسلام؛ ورغبة في جنة عرضها السموات والأرض، وغير مكترث بتمرات في قرنه، بل استطال حياة تزيد مدقا أكل تمرات معدودة العدد. وكم يُقدِّم المسلم إلى ربه من الطاعات واجتناب المعاصي، وكم يُقدم المؤمن من نموذج القدوة الصالحة لغيره؛ في أسرته ومهنته ومسجده؛ وبين مجتمعه وأصدقائه، فضلاً عن اجتناب المحرمات القولية والفعلية.

ويروي علي بن أبي طالب ﷺ كيف بدأت طلائع المعركة فيقول: (تقدم ــ يعني عتبة بن ربيعة ــ وتَبِعَه ابنه وأخوه، فنادى، من يُبارز ؟ فانتدب له شباب من الأنصار، فقال: من أنتم ؟ فأخبروه، فقال: لا حاجة لنا فيكم، إنما أردنا بني عمِّنا، فقال رسول الله ﷺ : قم يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة بن الحارث، فأقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلت إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان، فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم ملنا على الوليد، فقتلناه، واحتملنا عبيدة)[1]

وهذه الرواية تبين الكيفية التي بدأت بها المعركة، بأن تقدم عتبة بن ربيعة وابنه وأخوه للمبارزة، فَبُعِث لهم شباب من الأنصار، مما يبين شجاعة الأنصار في الحروب والمعارك، كما يدلل ذلك على أهمية الشباب في المعارك، وأنهم يمثلون الطلائع والمرتكزات، ثم هاهم مشركي قريش يبينون حسدهم لبني جلدتهم وأقاربهم، مما يؤكد أن الحسد والكبر لا زال يسيطر عليهم وعلى قراراتهم. فيبعث لهم النبي ﷺ الذي كان في مقدمة جيشه، رجالاً قد عينهم بأسمائهم: حمزة وعلي وأبا عبيدة رضي الله تعالى عنهم.وفي مبدأ تعينهم مباشرة منه ﷺ بياناً لكيفية إدارة المواقف التي لا تحتمل المشورة، والأخذ والرد، وأنه يجب الحزم والتعيين الفوري. ثم يبين علي بن أبي طالب نتيجة تلك المبارزة التي أظفر الله تعالى

---

[1] أبو داود (٣/١٢٠) برقم (٢٦٦٥)

فيها جنده المؤمنين، ليغرس في قلوب أعدائهم الرعب، فَيُهلك الرجل وأخيه وابنه. وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.

وفي مشهد من مشاهد القتال التي تدور رحاها في بدر، بين المسلمين والكافرين، يروي علي بن أبي طالب ﷺ صورة من صور شجاعته ﷺ فيقول ﷺ (لقد رأيتنا يوم بدر؛ ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا للعدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً)[1]

فإن هذا المشهد البطولي منه ﷺ يبين إقدامه ورباطة جأشه ﷺ وهو أقربهم للعدو، وكان ﷺ من أشد الناس بأساً، أي شدة في الحرب، وكان أصحابه يلوذون به ﷺ أي يلجأون. فَيُقَدِّمُ ﷺ صورة للقائد والنبي الشجاع في المعارك والحروب، والمقدام الذي لا يهاب الموت، فصلى الله عليك يا رسول الله، إذ قَدَّمْتَ للأمة المشاهد التربوية العملية التطبيقية في كل موقع من مواقع حياة الإنسان، لتشتمل في السيرة النبوية العطرة الدروس الفعلية التي تؤكد أهمية التطبيق العملي للداعية والمربي من الوالدين والمدرسين، والمدراء والرؤساء، لأن الكل في موقعه مربي لغيره أمراً أو نهياً، أو قدوة تتحرك بالفعل والتطبيق، وهي أكثرها فاعلية.

فلقد علَّم رسولُ الله ﷺ أصحابه والأمة أجمع معنى الشجاعة قولاً وعملاً وصبراً وثباتاً، وإيماناً وعبادةً.

وفي ملحمة أخرى من ملاحم هذه المعركة المباركة، يذكر عبد الرحمن بن عوف مشهداً مهولاً لغلامين صغيرين، يعزمان على أمر لا يعزم على مثله إلا الكبار والشجعان، يهدفان لأمر يَنُمُّ عن فهم وإدراك، ومحبة لرسول الله ﷺ وإدراك لمعنى الإيمان وتصديق بجنة عرضها السماوات والأرض، فيقول عبد الرحمن بن عوف (إني لفي الصف يومَ بدرٍ إذ عن يميني وعن يساري فَتَيان حديثا السنِّ. فكأني لم آمَنْ بمكانهما، إذ قال أحدُهما سِرّاً من صاحبه: يا عم أرني أبا جهل. فقلت يا ابن أخي وما تصنع به ؟ قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه. فقال لي الآخر سِرّاً من صاحبه مثله. قال: فما سرَّني أني بين

---

[1] أحمد (٨١/٢) برقم (٦٥٤) طبعة الموسوعة الحديثية.

رجلين مكانهما، فأشرت لهما إليه، فشدّا عليه مثل الصقرين حتى ضـربا‍ه، وهمـا ابنـاء عفراء)[1]

يـبين هذا الحديث أن ابن عوف ﷺ وهو في صف المعركة كان عن يمينه وشماله، فتيان، وهما: معاذ ومعوذ، أبناء عفراء،[2] وكل واحد منهما يريد أن يظفر بأبي جهل عدو الله ورسـوله، ولصغر سنهما أشفق عبد الرحمن بن عوف أن يؤتى الناس من ناحيته لكونه بـين غلامـين حديثين.[3] ولكن شجاعتهما وإقدامهما كان أكبر من سنهما ، بل بلغ من شجاعتهما أن كل واحد يسأل ابن عوف سراً ليظفر بعدو الله أبي جهل، فيقولا بأدب جم في معـركة حامـية الوطيس، (يا عم !) إنها التربية على الاحترام والتقدير، التي يتألف بها الصـغار الكبار، والتي تكشف عن المنهجية التربوية الرفيعة في منازل أصحاب رسول الله ﷺ مُـردفين تلك العبارة، بقول كل واحد منهما : أين أبا جهل ؟ فيرد عليهما ابن عوف ﷺ بكـلمات مماثلة في الخُلق والأدب؛ وهو في صف المعركة، التي يُتوَقع لمن كان فيها أن يقول: إليك عني، أو أهرب من هنا، ولكنها عناصر التربية الشجاعة تتمثل في ابن عوف، فيخاطبهما، بقوله : يا ابن أخي ! وما تصنع به ؟ سؤال ينم عن استغراب لسؤاليهما، فهما حدثـان، وماذا يستطيعا أن يقوما به في معركة تدور رحاها بين رجال كبار ؟ فقال كل واحـد منهم سراً عن صاحبه: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه. فإنها كلمات الشـجاعة والإقدام التي يحملها هذان الغلامان المسلمان الأنصاريان، فليس هناك مفر من أحـد أمرين: إما الظفر به فأقتله، أو الشهادة دونه، فإنها عزيمة وشجاعة، وهذا يدل على عمـق محبـتهما لرسول الله ﷺ فليس بخافٍ على أحد عداوة أبي جهل العميقة والقاسية لرسـول الله ﷺ ولما جاء به، فكأني بهذه العداوة قد كانت من أبرز دواعي وبواعث أفعال ذلـك الغلامـين. ثم ما كان من ابن عوف ﷺ إلا أن أشار لهما عليه، فانقضا وشدّا عليه

---

[1] البخاري (٣/٨٨) برقم (٣٩٨٨)

[2] ابن حجر،فتح الباري (٧/٢٩٤)

[3] المرجع السابق (٧/٣٠٨)

كالصقرين، قال ابن حجر والصقر من سباع الطير، وأحد الجوارح الأربعة، وهي : الصقر والبازي والشاهين والعقاب. وشبههما به لما اُشْتُهِرَ عنه من الشجاعة والشهامة والإقدام على الصيد، ولأنه إذا تشبث بشيء لم يفارقه حتى يأخذه، وأول من صاد به من العرب الحارث بن معاوية بن ثور الكندي، ثم اشتهر الصيد به بعده.[1]

فإنها التربية الجادة لهذين الفتيين على الشجاعة والإقدام ومحبة رسول الله ﷺ وما جاء به من الدين القويم والخُلُق العظيم، التي دفعت بهما إلى الانقضاض على أبي جهل.

ثم يُضفي أنس بن مالك ﷺ مزيداً من تفاصيل هذه الملحمة العظيمة، فيقول: قال رسول الله ﷺ (من ينظر لنا ما صنع أبو جهل ؟ فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برك ، قال: فأخذ بلحيته، فقال: آنت أبو جهل ! فقال: وهل فوق رجل قتلتموه أو قال: قتله قومه ؟ قال وقال أبو مِجْلَز: قال أبو جهل: فلو غير أَكَّارٍ قتلني ؟)[2]

فهكذا روى أنس مزيداً من تفاصيل تلك الملحمة التي تبين، رغبة الرسول ﷺ في معرفة نهاية عدو الله في هذه الغزوة المباركة، فيقول ﷺ (من ينظر لنا ما صنع أبو جهل ؟) وهنا لم يُعين أحداً عليه الصلاة والسلام، بعكس ما كان منه ﷺ في بداية المعركة عندما سمّى من يقوم بالمبارزة، وهذا يدلل على الفقه التربوي والسلوكي العظيم في شخصية الرسول ﷺ فالأمر لا يحتاج إلى تعيين، وهذا أدعى للتسابق في الخير بين المتسابقين، فلكم تحتاج التربية من مراعاة مثل هذه الأساليب الدقيقة جداً، التي تبعث في الناس روح المحبة العملية البعيدة عن الأوامر الصارمة، وسواء كان ذلك في دائرة الأسرة أو محيط الإدارة والعمل.

إن التربية الفاعلة هي التي لا تبني الأفراد بصوارم الأوامر، في كل موقف لا يحتاج إلى الحزم في التعيين، بل تترك مجالاً للنفس الإنسانية أن تشعر بباعث العمل من تلقاء ذاتها، والتنافس في الخير، ولكنها الشفافية التربوية في مسلكه ﷺ

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٣٠٨/٧)

[2] مسلم (١٤٢٤/٣ـــ١٤٢٥) برقم (١٨٠٠)

فـــانطلق ابن مسعود ﷺ الذي عُرِف عنه علو همته وتسابقه في الخير، كيف لا ؟ وهـــو أول من جهر بالقرآن الكريم بعد رسول الله ﷺ في رحاب مكة، ثم هو ذلك الرجل الـــذي يقول عن مقولة المقداد التي سبق ذكرها: (شَهِدْتُ من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبَهُ أحبُّ إليَّ مما عُدِلَ به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى (اذهب أنت وربك فقاتلا) ولكنا نُقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وَجهُهُ وسَرَّه، يعني قوله)

إنهـــا التربية النبوية التي جعلت من ابن مسعود صحابياً عملاقاً وشجاعاً كالأسد، وعالماً بحديث رسول الله ﷺ متجاوزاً فترة رعيه للغنم، ليكون بهذا القدر والمكانة.

فـــانطلق ابن مسعود ﷺ فوجد أن أبناء عفراء قد ضربا أبا جهل حتى برك، أي: سقط إلى الأرض. ويقال: برد: إذا مات. وخاطبه ابن مسعود مقرعاً له ومتشفياً منه، لأنه كان يؤذيه بمكة أشد الأذى،[1] فيقول له : آنت أبو جهل ؟ فهكذا مكن الله ابن مسعود مـــن أبي جهل؛ وهو في الرمق الأخير من حياته؛ جراء ما صنعا به ابناء عفراء، فَيُجيب أبو جهل في كبريائه وغطرسته التي عُرِف بها: وهل فوق رجل قتلتموه أو قال: قتله قومه ؟ أي لا عار عليَّ في قَتْلَكُم إياي. ليرفع عن نفسه العار ويُزيل تلك المشاعر التي بدأت تصارعه مـــن جراء ما لحق به، ولكن ألفاظه الأخرى تؤكد أن مشاعره نقيض ذلك، عندما يقول: فلو غير أَكَّارٍ قتلني. أي لوكان غير الزراع قتلوني ، والأكار أي: الزراع، وعنى بذلك أن الأنصار أصحاب زرع، فأشار إلى تنقيص من قتله منهم بذلك.[2] وقال الإمام النووي رحمة الله تعـــالى عليه: ومعناه لو كان الذي قتلني غير أكار لكان أحب إليَّ، وأعظم لشأني، ولم يكـــن عليَّ نقص في ذلك. وهذا يُدلل على أنه كان يستشعر بالإهانة قد تمكنت منه حتى وهـــو في الـــرمق الأخـــير من نزعه وموته، فهكذا أخزاه الله تعالى وجعله يستشعر المذلة والهوان، حتى في نزعه الأخير، ليكون درساً للطغاة والمتجبرين المتكبرين على دين الله تعالى.

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٧/٢٩٥)

[2] المرجع السابق (٧/٢٩٥)

ثم يـــبين هـــذا الموقف التباين في موازين الأحكام بين الكفر والإسلام، فأبو جهل يتنقص من الأنصاريين، ومن مهنتيهما، ومهنة قومهما، وهي الزراعة، والإسلام يرفع شأن هذين الشابين ومن مكانة الأنصار، ومن شأن المهنة، وخاصة الزراعة. وهذا دليل على أثر الإسلام وسموه في تقييم الأمور؛ وعلو موازينه ومقاييسه.

وأمـــا عـــن مقتل أمية بن خلف، فيرويها عبد الرحمن بن عوف ﷺ حيث يقول: (...فـــلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأحْرِزَه حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية بن خلف ! لا نجوتُ إن نجا أمية...)[1]

فكمـــا مكّن اللهُ عبد اللهِ بن مسعود ﷺ من الإجهاز على أبي جهل وهو في رمقه الأخير، لِمَا كان من أذيته له أشد الأذى في مكة، كذلك مكن الله تعالى بلالاً ومن معه من الأنصـــار من المشاركة في قتل أمية، فلم ينفعه بعيره الذي اشتراه ليهرب به، وما رد أحَدٌ قـــدر الله تعـــالى عنه، ليذوق وبال أمره في الدنيا بالقتل الذي كان خائفاً منه، ومتمنعاً من مشاركة قوم الكفر في بدر.

خاتمة المعركة:

وبعد نهاية المعركة المباركة التي نصر الله تعالى فيها راية الإسلام، جاء الدرس العلني مـــن رســـول الله ﷺ لأهـــل الكفر، حتى ينتهي الأحياء منهم عن كفرهم، ولأهل الإيمان لـــيزدادوا إيمانـــاً، فعـــن أنس بن مالك عن أبي طلحة (أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقذفوا في طَوِي من أطواء بدر خبيث مُخْبِث.....فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورســـوله ؟ فإنـــا وجدنا ما وعد ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا. قال: فقال عمـــر: يا رسول الله، ما تُكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ : والذي نفس

---

[1] البخاري (٢/١٤٥ـــ١٤٦) برقم (٢٣٠١)

محمد بيده، ما أنتم بأسمع منهم. قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قَولَه، توبيخاً وتصغيراً ونِقيمة وحسرة وندما.)[1]

فلقد أمر ﷺ بأربعة وعشرين من أشد أشداء كفار قريش لِيُلْقَوا في بئر قد طويت بالحجـارة، مـتهدمة خبيـثة مخبثة، فأخذ يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، قال ابن حجر: وخصـوا بالمخاطبة المذكورة لما كان منهم من المعاندة، وطُرِح بـاقي القتلـى في أمكنـة أخـرى.[2] ثم قال لهم رسول الله ﷺ (أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا وجدنا ما وعـد ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا) فإنها المخاطبة التي تثير نوازع النفوس نحو الـيوم الموعود، الذي تجد فيه كل نفس ما قدمت، ولتكون الحسرة والندامة التي تلاحقهم مـن نبـيهم الذي يُرغبهم في دين الله تعالى؛ ويشفق عليهم ويتحمل أذاهم، ويقابل ذلك بالصـبر، حـتى خرج إلى الطائف ثم عاد منها مهموماً مما أصابه من الردود المقيتة. فهاهي الـنهاية، الـتي وجد رسول الله ﷺ من ربه ما وعده حقاً جلياً، من النصر وهم قلة قليلة، وعدوه كثير كثير. وإنه الدرس الإيماني ليزداد الذين آمنوا إيماناً من تلك المخاطبة التي تثير القلوب والعقول، وتستجيش العواطف نحو التأمل في المصير، ولتكون حسرة لمن كفر ولم يُطـع الرسـول الأمين، فيتمنى في قبره لو أنه أطاع رسوله ﷺ (أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟)

ثم يُجيـب ﷺ على تساؤل عمر رضي الله عنه عن هذه المخاطبة لقوم قد فارقت أرواحُهم أجسادَهم، بإجابة قد شملت: القسم بالله تعالى، ثم التمثيل لهم بسماع الحاضر، فإن أولئك أمـوات قـد سمعوا كلامه ﷺ كما سمع الصحابة كلامه لهم ﷺ، وإنه لمن الإيمان أن يؤمن المؤمن بما يُخبر به ﷺ

---

[1] البخاري (٣/٨٦) برقم (٣٩٧٦)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٧/٣٠٢)

فهـــذا درس تربوي عملي قد أعطاه رسول الله ﷺ لمن معه ولمن بعده، ليعتبر أولي الأبصـــار. وإنه الدرس التربوي من استغلال المواقف، ليتربى الناس على الإيمان والصلاح والانقياد لله ولرسوله ﷺ

وفي رواية الحديث من الفوائد: أن الصحابي أنس يروي عن صحابي آخر؛ وهو أبو طـــلحة، مما يعطي درساً منهجياً في العدالة وصدق النقل والخبر، وأن يُنسب القول لقائله، وهـــي المنهجـــية العلمية الدقيقة التي تُركز عليها مناهج البحث العلمي، يطبقها أصحاب رسول الله ﷺ قبل أن يدركها غيرهم.

ثم يـــأتي موضوع الأسرى، ومشهد التعامل معهم، قال أبو زميل قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا نبي الله! هم بنوا العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار. فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ ما ترى يا بن الخطاب؟ قلت: لا والله! يا رسول الله ! ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تُمَكّنّا فنضرب أعناقَهم فَتُمَكّنَ عَلياً من عقيل فيضرب عُنُقَهُ، وتُمَكّنّي من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه، فإن هـــؤلاء أئمة الكفر وصناديدُها فَهوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلت فلما كـــان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قَاعِدَيْنِ يبكيان، قلت: يا رسول الله ! أخـــبرني مـــن أي شيء تبكي أنت وصاحِبُك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيـــت لـــبكائكما. فقال رسول الله ﷺ : أبكي للذي عَرَضَ عَلَيَّ أصحابُك من أخذهم الفداء، لقد عُرِضَ عَلَيَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة من نبي الله ﷺ) وأنزل الله عـــزَّ وجلَّ: ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض.إلى قوله: فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً. فأحل الله الغنيمة لهم)[1]

ومن فوائد هذا الحديث: الشورى منه ﷺ لأصحابه، حيث يأمر إذا كان الأمر لا يســـعه إلا الأمر، وغالباً ما يستثير هم الصحابة، وكثيراً ما يستشير ﷺ وهو النبي، فيُعَلّمُ

---

[1] مسلم (٣/١٣٨٣ــ١٣٨٥) برقم (١٧٦٣)

أصحابه ومن بعدهم المنهجية الصحيحة في التعامل؛ والتي يجب أن تكون بين أفراد الأمة، وبين قادتها ورعاياهم، وبين الرئيس والمرؤوسين، وبين رب الأسرة وأفرادها، حتى أن أبا هريرة ﷺ يقول (ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ)[1]

فلقد أبدى أبو بكر ﷺ ما يراه، ثم أبدى عمر ﷺ ما يراه، وهنا لم يجامل عمر أبا بكر، بأن يقول بقوله، بل قال بما يراه، وهو الأمر الذي يجب أن يكون عليه المسلم في المناقشات والمجالس الاستشارية، بأن لا يجعل المجاملة منطلقاً في أسلوبه الاستشاري، فالمستشار مؤتمن. بل يجب أن يذكر ما يراه صواباً أو ما يراه الأصوب والأحسن؛ دون أية مجاملة لرئيس أو مرؤوس.

ثم اختار رسول الله ﷺ ما أشار به أبو بكر الصديق ﷺ ثم يأتي عمر ابن الخطاب ﷺ فيجد رسول الله ﷺ وأبا بكر يبكيان، فتأتي المشاركة منه ﷺ بطلب العلة في البكاء، فإما يبكي للعلة نفسها، أو أن يشاركهما بالتباكي النابع من المشاركة الوجدانية منه لهما، فيعطي ﷺ موقفاً رائعاً للصاحب مع أصحابه، بمشاركته لهم. مما يفيد أهمية مشاركة المرء لأقاربه وأصحابه فيما هم فيه منشغلون من الخير والحق؛ دون الشر والباطل.

ثم يأتي الدرس الآخر؛ الذي مفاده بأن رسولَ الله ﷺ رسولٌ من ربه يبلغ عنه ما يأمره به، ولو كان غير ذلك لما بكى ﷺ وصاحبه أبو بكر ﷺ، فبين الله تعالى ما كان يجب أن يكون عليه حال الأسرى، وكل هذه الأحداث دروس للأمة تستفيد منها في دار معاشها لدار معادها.

ثم يبين هذا الحديث حِرصَ رسول الله ﷺ الشديد على طاعة ربه سبحانه وتعالى، حتى أنه ليبكي على اجتهاده ﷺ وهكذا يكون المؤمن مجتهداً في طاعة ربه باكياً على تقصيره، ومجتهداً في تكميله. فصلى الله عليك يا رسول الله، فلقد عَلَّمت الأمة كل ما تحتاج إليه.

---

[1] الترمذي (٤/١٨٥–١٨٦) برقم (١٧١٤)

الغنائم

عن عبادة بن الصامت ﷺ قال (خرجت مع رسول الله ﷺ إلى بدر نلقى العدو، فلما هزمهم؛ اتبعهم طائفة من المسلمين يقتلونهم، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ واستولت طائفة بالعسكر. فلما كفى الله العدو ورجع الذين قتلوهم قالوا: لنا النفل، نحن قتلنا العدو، وبـــنا نفاهم الله وهزمهم، وقال الذين كانوا أحدقوا برسول الله ﷺ : والله ما أنتم بأحق به منا ، هو لنا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ لا ينال العدو منه غِرّة، وقال الذين استولوا على العســكر: والله مــا أنــتم بأحق به منا؛ نحن استولينا على العسكر، فأنزل الله عزَّ وجل (يســألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم إلى قوله إن كنتم مؤمنين. فقسَّمه رسول الله ﷺ بينهم عن فُوَاق)[1]

وفي هــذا الحديــث تتبين الطبيعة الإنسانية والبشرية؛ التي لا تُخرِجَ الإنسان إلى خصــائص الملائكة، فيعلم الناس من بعدهم أنهم كذلك، فلا يحتجوا بأن قدرات الصحابة تخرج عن طور البشرية، ولكنهم يسمعون فيفهمون فيطيعون.

فأنــزل الله ســبحانه وتعالى قسمة الغنيمة بينهم من فوق سبع سماوات فرضــي الله تعالى عن أولئك الصحب الكرام، الذي لو أنفق أحَدُنا مثل جَبَلِ أحد ذهباً، وكيف له أن يدرك ذلك، ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه. فقد علمونا منهاج رســول الله ﷺ وتنــزل القرآن الكريم يوجههم ويصحح أفكارهم وسلوكياتهم لنسلك منهجهم في تمام مسلكهم.

وأحل الله لهم ما أخذوه من الفداء، كمــــا جـــاء في قولــه تعــالى

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾[2]

---

[1] الحاكم (٢/١٣٥ــ١٣٦) وأحمد (٣٧/٤٢١ــ٤٢٢) برقم (٢٢٧٦٢) طبعة الموسوعة الحديثية. أي بالتساوي.

[2] سورة الأنفال: آية رقم (٦٩)

فـأخذ رسـول الله ﷺ الفداء من أسرى بدر، وقَبِلَ ممن ليس عنده فداء تعليم صـبيان المسلمين القراءة والكتابة، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: (كان ناس مـن الأسـرى يـوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يُعلّموا أولاد الأنصار الكتابة)[1] وسبق بيان فوائد هذا الحديث.

ولم يكـن رسـول الله ﷺ يجامل أحداً، كما في هذا الحديث الذي يرويه أنس بن مـالك (أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن اختنا عباس فداءه، قال: والله لا تذرون منه درهما)[2] وجاء أن ابن عباس قال (أن النبي ﷺ قال: يـا عباس افد نفسك وابن أخويك عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، وحليفك عتبة بن عمرو، فإنك ذو مال، قال: إني كنت مسلماً، ولكن القوم استكرهوني، قال: الله أعلم بما تقول، إن كنت ما تقول حقاً إن الله يجزيك، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا.)[3]

فلقـد تعامل النبي ﷺ مع العباس بالظاهر من فعله؛ وأوكل سريرته إلى الله تعالى. وهي المنهجية التي يستفيد منها المؤمن في التعامل مع الآخرين، بأن يكون محور التعامل مبناه عـلى الظاهـر، ويسـتفاد منه كذلك أن يمتد سلطان هذا المنهج في الابتعاد عن الظنون الوهمـية؛ التي تقلب الظاهر إلى خلافه، وبالتالي تبدأ المقاييس والمعايير الوهمية تأخذ مكانها، ومـن ثم تجـري الأحكـام تبعاً لذلك، وما قد يلحق بها من تعسف في حلقات السلسلة التعاملية مع الناس.

كمـا أن مجـريات هـذه المعـركة ونتائجها تؤكد للمؤمنين، أن مقاييس النصر والـتمكين لا تكمن في القوى المادية فقط، ولو كانت كذلك لانتصر كفار قريش بقوهم الضـارية، ولكن موازين القوى في المنهج الإسلامي تتمحور، في القوة الإيمانية مع الأخذ بالقوة المادية حتى تجري الأمور وفق سُنن الله تعالى الاجتماعية والكونية.

---

[1] أحمد (٩٢/٤) برقم (٢٢١٦) طبعة الموسوعة الحديثية.

[2] البخاري (٩٥/٣) برقم (٤٠١٨)

[3] ابن حجر، فتح الباري (٣٢٢/٧)

والمتأمل في مجريات هذه الغزوة المباركة ونتائجها في حالة إخضاعها للتفسير التاريخي المادي، والتفسير الحربي لهذه المعركة، يقف أمامها عاجزاً مهولاً أمام نتائجها، التي لا يستطيع معرفة مكنونات النصر فيها، ولذلك استوجب التفسير الإسلامي لكل أحداث الدنيا السابقة واللاحقة، من أحداث تاريخية، وزلازل وفيضانات، وأوبئة وأمراض وقحط وجدب، ورخاء، وغيث، وسكينة، وخيرات ونعم وانتصارات. فالتفسير الإسلامي لذلك يخضع لمنهجية سُنن الله الكونية والاجتماعية والنفسية والتربوية التي رتبها الباري عزَّ وجلَّ، وبينها كتاب الله تعالى وسنة نبيه المطهرة. وأما الحيدة عنها فسوف تعطي نتائج مغلوطة.

وهكذا انتهت غزوة بدر الكبرى المباركة، وبقيت دروسها وفوائدها تتدفق لكل من تأمل مكنوناها، وتعايش مع أحداثها، ليجد المسلمون فيها العديد من المواعظ والدروس التربوية والدعوية، والجهادية والإيمانية والتعبدية، وواحات من الأخلاق الكريمة، والسيرة الحميدة.

البيان القرآني :

لقد بين القرآن جوانبَ مهمة جداً في هذه الغزوة المباركة، لتكشف حقائق، ودواعي، ومنهجية، وخلجات نفسية، لتعطي المؤمنين في كل وقت وحين مزيداً من الإيمان، والتطبيق المنهجي لما يُريد الله تعالى، ولتتحقق من خلالها مساعيهم في الخير، وهذه الآيات العظيمات تبين كثيراً من ذلك:

قال تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾

ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ
دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ
وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى
ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ
ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ
﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ
لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ
بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ
أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ
عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ
كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ
شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا
مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ
وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ
مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ (١)

يبين مطلع هذه السورة المباركة، أن المسلمين سألوا رسول الله ﷺ عن الغنائم، أي الأنفال التي ينفلها الله تعالى على هذه الأمة من أموال الكفار، فيُخبرهم الله تعالى: بأنها لله

(١) سورة الأنفال: الآيات رقم (١ــ١٨)

ولرسوله يحكمان فيها، وعليكم السمع والطاعة، آمراً إياهم بتقوى الله تعالى، وأن يُصلحوا ما بينهم.

فمنهجـــية الإصـــلاح تنطلق أولاً من تقوى الله تعالى، فالذي ليس عنده تقوى لن يستطيع أن يُصلح ما بينه وبين إخوانه المسلمين، لأن حظوظ النفس ستكون هي المسيطرة على الذات التي لن ترى إلا الفردية والأنانية، أما إذا تحققت التقوى كمرحلة أولى فسوف تـــتحقق المـــرحلة الثانـــية من التآخي والترابط الاجتماعي، ولذلك فإن المنهجية التربوية والدعوية الصحيحة هي التي ترتب مسيرتها البنائية والعلاجية للمجتمع في دوائره المختلفة من خلال هذا الترتيب الرباني.

ولقـــد جمـــع الله تبارك وتعالى جماع العلاقات الاجتماعية في قوله سبحانه وتعالى (وأصـــلحوا ذات بيـــنكم) لما تشتمل عليه من فعل مكارم الأخلاق والبر بأنواعه، وكف شرور النفس بجميع صوره وأشكاله. وإنها جزالة وجماع خير في عبارة.

وأمـــا كيفية التطبيق فتكون بتفعيل قوله تعالى (وأطيعوا الله ورسوله) فهي علامة الإيمان الحقيقي.

ثم تـــأتي بعـــد ذلك الصفات التي يُدرك بها المسلم الإيمان الذي يتحقق به النصر، يقول الشيخ ابن سعدي ــ رحمة الله تعالى عليه ــ: "قدم تعالى ــ أمام هذه الغزوة الكبرى المـــباركة ــ الصفات التي على المؤمنين أن يقوموا بها، لأن من قام بها، استقامت أحواله، وصَلُحت أعماله، التي من أكبرها الجهاد في سبيله."[1] وهي:

(إذا ذُكـــر الله وجلت قلوبهم، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وعلى ربهم يتوكلون، الذين يُقيمون الصلاة، ومما رزقناهم يُنفقون، أولئك هم المؤمنون حقا)

إن تكـــامل هذه الصفات التي ينبغي أن تُركّز عليها منهجية التعليم والتربية، تحقق للمؤمنين درجات عالية عند ربهم، ومغفرة، ورزق كريم.

---

[1] عبد الرحمن بن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/١٨٩)

ثم يبين الله تعالى خروج المؤمنين مع رسولهم ﷺ فإن الله تعالى هو الذي أخرج رسوله من بيته بالحق، فلا شيء يخرج عن إرادته وتدبيره سبحانه وتعالى، "وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم في ذلك الخروج، أنه يكون بينهم وبين عدوهم قتال. فحين تبين لهم أن ذلك واقع، جعل فريق من المؤمنين يجادلون النبي ﷺ في ذلك، ويكرهون لقاء عدوهم، كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون"[١]

وهذا لا يمثل جميع المؤمنين بل طائفة منهم، ثم إنهم سرعان ما تجاوبوا مع نبيهم ورسولهم ﷺ وجاهدوا حق الجهاد، فرضي الله تعالى عنهم أجمعين، فقد أعطانا الله تعالى بهم دروساً، ليعرف المسلمون كيف يتعاملون مع ربهم تبارك وتعالى ونبيه ﷺ فأصبحت مواقفهم آيات قد تضمنها القرآن الكريم؛ ليتأملها المسلم في قراءته وتدبره.

(وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) أي يُحبون الطائفة التي لا حد لها ولا منعة ولا قتال تكون لهم، وهي العير. (ويريد الله أن يُحق الحق بكلماته) أي أن الله تبارك وتعالى يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم، وينصركم عليهم، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالباً على الأديان.[٢] ويستأصل أهل الباطل، ويُري عباده من نصره للحق ما لم يكن يخطر ببالهم، ولو كان المجرمون يكرهون ذلك، فإنه سبحانه وتعالى لا يبالي بهم.[٣]

ثم يبين الله تعالى حال المؤمنين في بدر لما قَرُب لقاء العدو، بأنهم كانوا يستغيثون الله تعالى، فاستجاب الكريم الرحمن لدعائهم. وإنه لدرس تعبدي عظيم؛ ليلجأ المؤمن إلى ربه في كل لحظة، وخاصة عند ما تدلهم به الكربات والنوائب، فالذي أغاث المسلمين ونصرهم ببدر وهم قلة في العدد والعتاد، لينصر ويستجيب لمن أخلص في الدعاء وصدق الالتجاء، فأمَدَّ رسوله والمؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بعضهم يردف بعض، ليستبشروا بذلك،

---

[١] المرجع السابق (٢/١٨٩)

[٢] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٠٠)

[٣] ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/١٩٠)

وتطمئن نفوسهم، وإن كان النصر من الله ليس بالعدد والعتاد، فبني النضير قد هزمهم الله بالرعب الذي أنزله سبحانه وتعالى في قلوبهم.

ثم أيضاً قد أكرمهم الله تعالى بأن أنزل النعاس عليهم حتى يُؤمنهُم من خوفهم الذي حصل لهم من جراء كثرة عدوهم، وإنها لمكرمة عظيمة أن جعل الله تعالى في النعاس هذه الخاصية العجيبة، لتطمئن النفوس وتستريح، لِتُقْبِلَ على المعركة بقوة ونشاط، إذ أن العادة في الإنسان إذا كان أمام أمر عظيم كالحرب فإن النوم عنه بعيد، وبالتالي فإن جانب التفكير هو المسيطر على ذهنه، ومن ثم تضعف قواه، ولكن الله تعالى أنعم عليهم بأكثر مما يرجون، ولولا بيان الله تعالى لهذه النعم بالآيات لما تَعَرَّفَ عليها الإنسان؛ وربط باطنها وظاهرها بتلك المجريات والأحداث، فكم من نِعَمٍ تترى على الإنسانية وهم عن إدراكها ساهون، وكم من نقم يذودها عنهم تبارك وتعالى؛ وهم عنها غافلون.

ثم أنزل الله عليهم مطراً فشربوا وتطهروا؛ وأذهب الله عنهم وساوس الشيطان، وثبت به الرمل حين ما أصابه المطر، ثم أوحى سبحانه وتعالى إلى الملائكة أنه معهم بنصره وتأييده، وأمرهم أن يُلْقُوا في قلوب المؤمنين ما يثبتهم، ومن ذلك ما كان يراه المجاهد من قوة من يقاتل معه، كما في قول ابن عباس قال: (بينما رجلٌ من المسلمين يومئذٍ يَشْتَدُّ في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوتَ الفارسِ يقول: أَقْدِم حَيْزُوم فنظر إلى المشرك أمامه فَخَرَّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وجهه كضربة السوط فَاخْضَرَّ ذلك أَجْمَعُ. فجاء الأنصاري فحدَّث بذلك رسولَ الله ﷺ فقال: صدقت، ذلك من مَدَد السماء الثالثة. فَقَتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين.) [1]

فهذا مما زاد في ثبات المؤمنين، وفي نفس الوقت ألقى اللهُ تعالى الرعبَ في قلوب عدوهم، فتحقق النصر للمسلمين. وهنا يمكن القول: كيف للتفسير المادي أن يدرك مثل هذه الحقائق، وبالتالي لا مناص عن التفسير الإسلامي لما سبق بيانه.

---

[1] مسلم (٣/١٣٨٣ـ١٣٨٥) برقم (١٧٦٣)

ثم يأتي التوجيه الرباني في كيفية ضرب العدو ومقاتلته، بأن يضربوهم فوق الأعناق وفي كل مفصل وطرف. ذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله. ثم يبين الله تعالى مزيداً من كيفية القتال والمواجهة الحربية، بأن لا تولوهم الأدبار فارين تاركين أصحابكم، (إلا متحرفاً لقتال) أي يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه قد خاف منه، فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك، وقال الضحاك: أن يتقدم على أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبه، (أو متحيزاً إلى فئة) أي يفر من فئة إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونونه،[1] وأما الهارب (فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) وبهذه التوجيهات والتعليمات الربانية تقوى صفوف القتال، وبالتالي يقوى الجند، ويسري أثر القوة إلى العدو لِيُهْلَك ويندحر. وبالتالي يتبين عمق التوجيهات الإسلامية لتربي المسلم المجاهد على القوة والشجاعة، والبعد عن الخوف والذل في صفوف المعركة.

ثم يبين الله تعالى أنكم أيها المؤمنون لم تنتصروا عليهم بحولكم وقوتكم، بل الله أظفركم عليهم، وفي هذا درس عظيم للمؤمن، حتى لا يغتر ويظن أنه هو الفاعل وهو القادر، بل الله تعالى هو الخالق لأفعال العباد، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن قوله تعالى: (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) قال: هذا يوم بدر أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصبات فرمى بحصبات ميمنة القوم، وحصبات في ميسرة القوم، وحصبات بين أظهرهم. وقال: (شاهت الوجوه) فانهزموا.[2]

ويبين الله تعالى أن من فوائد هذا النصر ليعرف المؤمنون نعمة الله تعالى عليهم، بنصره لهم مع قلة عددهم وكثرة عدد عدوهم، وأن الله سميع الدعاء، (ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين) وهذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضْعِف كيد الكافرين، فيما يُسْتَقبل.[3]

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠٦/٢)

[2] المرجع السابق (٣٠٨/٢)

[3] المرجع السابق (٢٠٨/٢)

فهكذا بينت تلك الآيات القرآنية الكثير من عوامل النصر وآليته، التي تخفى على الإنسان إلا بعلم من الله تعالى، وما تضمنته تلك العوامل من رحمة الله تعالى بنبيه ﷺ والمؤمنين، فأغدق عليهم من نعيم النصر والبشرى ومدد الملائكة والغيث والنعاس؛ وكثير من بركاته سبحانه وتعالى، لتعلم الأمة أن الله قوي عزيز، رحيم ناصر من نصره، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله تعالى. وبالتالي يلزم المؤمن أن يُمعن النظر في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله وسيرته ﷺ لينهل منها خير الدنيا والآخرة.

وتأمل المزيد في قوله تعالى:

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

الغزوات والسرايا قبل أحد :

ـ غزوة قَرقَرة الكُدْر:

وهي وراء سد معونة؛ قريب من الأرْحَضِيّة، حيث بلغه ﷺ أن بهذا الموضع جمعاً من سُليم وغطفان، فسار إليهم فلم يجد في المجال أحداً، فانصرف ﷺ وقد ظفر بالنعم فانحدر به إلى المدينة[١]

ـ غزوة السويق:

وذلك أنه عندما رجع المشركون من معركة بدر مهزومين، حرَّم أبو سفيان بن حرب الدهن حتى يثأر من رسول الله ﷺ وأصحابه، فخرج في مائتي راكب، وقيل أربعين فمر بالعُريض، من ناحية المدينة فقتل رجلاً من الأنصار وأجيراً له؛ وحرَّق ثم ولى هارباً، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب أصحابه فخرج في مائتي رجل يطلبهم، وأخذ أبو سفيان وأصحابه يتخففون من أمتعتهم هرباً، فَيُلقون جُرُب السويق؛ وهي عامة أزوادهم، فجعل المسلمون يأخذونها، فسميت غزوة السويق.[٢]

وهذا العمل من أبي سفيان وأصحابه والذي انتهى بالهروب والتخفف من أزوادهم، يدل على أن معركة بدر الكبرى قد أعطتهم درساً عظيماً بأن المسلمين قد أصبحوا قوة ضارية، لا يستطيعون مواجهتها بسهولة، مما يؤكد الأهمية الكبرى للأمة في كل وقت وحين؛ بأن تظهر بمظهر القوة والهيبة أمام الأمم الأخرى، حتى تكون شوكتها مَهِيبَة.

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٣١)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٤٧ـ٤٨) والطبقات لابن سعد (٢/٣٠)

ـ سرية قتل كعب بن الأشرف اليهودي:

فقد كان كعب بن الأشرف شاعراً يهجو النبي ﷺ وأصحابه ويحرض عليهم ويؤذيهم، فلما كانت موقعة بدر قال: بطن الأرض خير من ظهرها اليوم. وبكى قتلى قريش، وحرضهم بالشعر.[1] وبهذا الإيذاء والتعدي، أشار رسول الله ﷺ إلى أصحابه بمن لكعب بن الأشرف؟ فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما (قال رسول الله ﷺ : من لكعب بن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله. فقام محمد بن مسلمة، فقال: يا رسول الله ! أتحب أن أقتله ؟ قال: نعم. قال: فأذن لي أن أقول شيئاً. قال: قل. فأتاه، محمد بن مسلمة؛ فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنَّانا، وإني قد أتيتك استسلفك، قال: وأيضاً والله لتملُّنَّه. قال: إنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تُسلِفُنا وسقاً أو وسقين... فقال: نعم ارهنوني، قالوا: أي شيء تريد ؟ قال: ارهنوني نساءكم، قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: فارهنوني أبناءكم، قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فَيُسَبُّ أحدهم، فيقال: رُهِن بوسق أو وسقين، هذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللأمة. قال سفيان: يعني السلاح، فواعده أن يأتيه، فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة ـ وهو أخو كعب من الرضاعة ـ فدعاهم إلى الحصن، فنزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة ؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة، وأخي أبو نائلة، وقال غير عمرو: قالت أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدَّم، قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دُعِيَ إلى طعنة بليل لأجاب. قال: ويُدْخِلُ محمد بن مسلمة معه رجلين ـ قيل لسفيان: سماهم عمرو ؟ قال: سمى بعضهم. قال عمرو: جاء معه برجلين، وقال غير عمرو : أبو عبس بن جبر والحارث بن أوس وعباد بن بشر ـ قال عمرو جاء معه برجلين،

---

[1] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٣١ـ٣٢)

فقـــال: إذا مـــا جـــاء فإني قائل بشعره فأشمه، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم، فاضربوه. وقال مرة: ثم أشِمُّكم، فنـــزل إليهم متوشحاً وهو ينفح منه ريـــح الطيـــب، فقال: ما رأيت كاليوم ريحاً ــ أطيب ــ وقال غير عمرو: قال عـــندي أعطـــر نساء العرب وأكمل العرب. قال عمرو: فقال: أتأذن لي أن أشم رأســـك؟ قال: نعم. فشمَّه، ثم أشَمَّ أصحابه، ثم قال: أتأذن لي ؟ قال: نعم. فلما استمكن منه قال: دونكم. فقتلوه. ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه)[١]

ومن فوائد ذلك: أن الكفر يقطع أواصر علاقة النسب، وأن المحبة في الإسلام تـــنطلق من الإسلام، وفيه إخلاص محمد بن مسلمة وأبو نائلة، بالرغم من علاقة الرضـــاعة مـــع كعب.وفيه أمانة الوصف؛ إذ لم يمنعهم شنآن اليهودية أن يذكروا فطنتها. وفيه كذلك قتل من حارب الله ورسوله، وفيه فطنة وذكاء زوجة كعب. وفيه مشروعية الاحتيال على من وجب قتله، وجواز الكذب على الأعداء، وفيه عظة وعبرة لمن يسلك مسلكه.

ــ غزوة ذي أمَرّ :

لمـــا عاد ﷺ من غزوة السويق إلى المدينة غزا نجداً، يريد غطفان، ذلك أنه بلغه أن جمعاً من بني ثعلبه ومحارب بذي أمَرّ، قد تجمعوا يريدون أن يصيبوا أطراف رسول الله ﷺ ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً، بعد أن أقام بنجد صفراً كله.[٢]

ــ غزوة الفُرُع من بُحران:

بلـــغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من بني سُلَيم كثيراً ببُحران، فخرج في ثلاثمائة رجل، من أصحابه، حتى ورد بُحران فوجدهم قد تفرقوا في مياههم، فرجع، ولم يلق كيداً.[٣]

---

[١] البخاري (٣/٩٩ــ١٠٠) برقم (٤٠٣٧)

[٢] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٤٩) والطبقات لابن سعد (٢/٣٤ــ٣٥)

[٣] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٣٥ــ٣٦)

ـ سرية القَردة :

وذلك أن قريشاً خافوا طريقهم الذي كانوا يسلكون إلى الشام بعد وقعة بدر، فسلكوا طريق العراق، فخرج منهم تجار، فيهم أبو سفيان بن حرب، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة، فلقيهم فأصاب تلك العير وما فيها، فَقَدِم بها على رسول الله ﷺ [1] والقَرَدَة من أرض نجد؛ بين الرَّبَذَة والغَمرة، ناحية ذات عِرْق.[2]

ويتبين من تلك الأحداث أن رسول الله ﷺ لم يعتد على قوم لم يهموا بالاعتداء عليه، فغطفان وبنو سليم هموا بالنيل منه ﷺ وأصحابه، فبادرهم قبل أن يبادروه، غير أن عير قريش كان يتعقبها ﷺ لما صنعوا به وبالمهاجرين في مكة، ولإعلانهم العداوة والبغضاء، ولصدهم الناس عن سبيل الله تعالى.

وهكذا يتبين المنهج النبوي الكريم الذي يبتعد كل البعد عن التعدي على الغير ممن لزم دياره، وكف أذاه عن المسلمين، كما يتبين المنهج التأديبي القائم على الشجاعة ورد كيد المعتدين في قعر ديارهم، والمكوث فيها أياماً عديدة، مما يبين المقدرة والشجاعة التي يتحقق بها حفظ دولة الإسلام الفتية؛ بتوفيق الله تعالى ومنه وكرمه.

ـ غزوة بني قينقاع:

وقد كان فيما بين ذلك من غزو رسول الله ﷺ أمر بني قينقاع[3]

فحتى تكتمل الصورة الحقيقية لليهود من نقضهم للميثاق، وحمل العداوة في نفوسهم للإسلام؛ بالرغم مما حملته الوثيقة من حفظ حقوقهم؛ إلا أنهم يسيرون وفق الباعث النفسي المخالف للفطرة السوية؛ والممتلئ حسداً وحقداً على الرسالة النبوية،

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٥٣ـ٥٤)

[2] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٣٦)

[3] ابن هشام؛ السيرة النبوية (٣/٥٠)

فنكـــثوا الميثاق؛ وتطاولوا في الاستعلاء، فكانت عاقبة أمرهم خسرا، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: (لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر؛ وقدم المدينة؛ جمع الـــيهود في ســـوق بني قينقاع، فقال: يا معشر يهود، أسلموا قَبلَ أن يُصيبكم مثل ما أصاب قريشاً، قالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش؛ كانوا أغمـــاراً[1] لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله عزَّ وجل في ذلك (قل للذين كفروا ستُغلبون)[2]

فلقـــد قـــابل اليهود تلك الوثيقة والمعاملة النبوية الكريمة بالتمرد والطغيان، والجـــواب السيئ الذي ينم عن الحقد والكراهية والشعور بالاستعلاء، كما يبين هذا الموقـــف الحرص النبوي الكريم على البشرية، وخوفه عليهم من عاقبة الكفر والتمرد عـــلى الله تعالى، بعد معركة بدر التي كانت آية من آيات الله تعالى، وتبينت فيها قدرة الله تعـــالى العظيمة، وصدق نبوة رسوله الكريم ﷺ في نصرة النفر القليل أمام العدد المتضـــاعف مـــن المشركين على ما هو مُفَصَّل في معركة بدر، مما يجعل الفرصة مناسبة جداً لدعوة اليهود للإسلام، بعد أن تبين لهم أن هذا النبي الأمي ﷺ متوج أمره بالنصر من الله تعالى. فليس للعاقل إلا اتباعه، ولكن كثيراً ما يمنع الحسدُ أصحابه من الخير.

وفي اغتـــنام الحـــدث منه ﷺ درس تربوي ودعوي لأهل الإسلام في اغتنامه والإفادة منه، إذا روعي واقع الحال للمدعو وللمتربي.وللحدث.

"ولا يعـــني أن سبب جلاء بني قينقاع يعود إلى رفضهم قبول الإسلام"، ففي هذه المرحلة كان الإسلام يقبل التعايش السلمي معهم؛ وإنما يعود سبب الجلاء إلى ما أظهروه من روح عدائية، انتهت إلى الإخلال بالأمن داخل المدينة المنورة"[3]

---

[1] الغمر: الجاهل الذي لم يجرب الأمور

[2] أبو داود (٣/٤٠٢ـــ ٤٠٣) برقم (٣٠٠١)

[3] أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (١/٣٠٠)

وممـــا يُســـتأنس به في إخلالهم بأمن المدينة، أن امرأة من المسلمين جلست إلى صـــائغ، فجلس اليهود يراودونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبهـــا فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجـــل مـــن المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدَّت اليهود على المسلم فقـــتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.[1]

فهذه الرواية تبين التبجح اليهودي، وعدم مراعاتهم واكترائهم للقيم الاجتماعية؛ فضـــلاً عن الدينية، وتطاولهم. وتبين حقيقة ميلهم للفساد الجنسي والإباحية، مما يعزز تأكيد حقيقة واقعهم عبر العصور؛ الذي يكشف مسلكهم الانحرافي في الخُلُقِ والدين..

كمـــا يبين هذا النص أن الحجاب يشمل تغطية الوجه، حيث أن المرأة المسلمة مـــدار القصة كانت مغطية الوجه؛ فطلبوا منها كشف وجهها.؛ ولو لم تكن كذلك لما طلبوا منها كشف وجهها.

وهذا الحدث يوسع دائرة خبرة المسلم عن حقيقة اليهود، التي ينبغي أن يتنبه لها، فلا يسلك مسلكهم ، ولا ينخدع ببريق حضارتهم.

كمـــا يـــبين غـــيرة المسلم على حُرمات الله تعالى، وعدم صبره على الفساد والمفســـدين الذين لا يراعون حُرُمات الله تعالى، كما يبين أن قوة الإيمان تشحذ قوى الإنسان بالشجاعة والإقدام.

"فكان أول من نقض العهد من اليهود بنو قينقاع، فحاربهم في شوال بعد وقعة بـــدر؛ فـــنـــزلوا عـــلى حكمه، وأراد قتلهم؛ فاستوهبهم منه عبدالله بن أبي، وكانوا حلفاءه؛ فوهبهم له، وأخرجهم من المدينة إلى أذرعات."[2]

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٥١/٣)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٣٣٠/٧) وانظر السيرة النبوية لابن هشام (٥١/٣ـ٥٢) وأذرعات من أعالي الشام، وهي أرض المحشر والمنشر..ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٣/٤)

الفصل السابع

من غزوة أحد
إلى غزوة الخندق

غزوة أحـــد:

لمـــا أصـــيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب، ورجع فَلُّهم إلى مكة منهزمين، أرادت قريش أن تثأر لنفسها وتستعيد ســـــطوتها ومكانتـــها التي تـــأثرت بهزيمتها.[1]

إضـــافة إلى تعقـــب المســـلمين لتجارة قريش وعيرها؛ كما في سرية القَرَدة. وكذلك المكانة والسيادة التي بدأت تظهر بوادرها للمسلمين في المدينة، مما يعني سحب البســـاط مـــن تحـــت أقدام قريش، وما سيؤول إليه الأمر فيما بعد من أخذ المسلمين بحقوقهم كاملة من كفار قريش.

وقد حصلت هذه المعركة يوم السبت لسبع ليال خلون من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من مهاجره ﷺ [2] أي في السنة الثالثة من الهجرة.

وقـــد خرجت قريش بحَدِّها وجَدِّها وحديدها وأحابيشها، ومن تابعها من بني كـــنانة، وأهل تهامة.[3] وقد جعلت قريش قافلتها التجارية التي نجت يوم بدر عوناً لها عـــلى ذلـــك،[4] وتعـــبأت بثلاثة آلاف رجل، ومعهم مئتا فرس قادوها إلى جنوبهم، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل،[5] وهذه الحشـــود تدلل على أن قريشاً قد ساءها كثيراً ما حصل لها يوم بدر، فحشدت قوتها وعـــتادها وأموالها لهذه المعركة، كما تفيد أن ألوية الكفر تسعى لإطفاء نور الله تعالى، وترغب في اجتثاث المسلمين. مما يؤكد فائدة أخذ الحيطة والحذر.

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٦٤)

[2] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٣٦)

[3] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٦٥ـــ٦٦)

[4] المرجع السابق (٣/٦٤)

[5] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٧٠)

ولقد رأى رسول الله ﷺ رؤيا عن هذه الواقعة، أو الغزوة. ورؤيا الأنبياء حق فعـن أبي موسـى ﷺ ـ أُرَى عن النبي ﷺ ـ قال (رأيت في رؤياي أني هززت سيفاً فانقطع صدره، فذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كـان، فإذا هو ما جاء به الله من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقراً والله خير، فإذا هم المؤمنون يومَ أُحُد)[1]

وقـد شاور رسول الله ﷺ أصحابه في الخروج للقتال أو البقاء في المدينة، فعن ابـن إسحاق: (فإن رأيتم أن تُقيموا بالمدينة، وتَدَعُوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا؛ أقاموا بشرِ مُقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها.)[2]

ويتبين هنا أن رسول الله ﷺ لم يستأثر بالرأي عن أصحابه، ولو استأثر به لتبعه الصـحابة أجمعين، ولكان حقاً. ولكنه عليه الصلاة والسلام يتعامل معهم وفق السنن الاجتماعـية والأخلاق الحميدة والتربية الفذة، التي تُرَبِّي فيهم الأخذ بمبدأ الشورى، وعـدم القطـع في أمر المجموعة أو الأمة برأي الفرد، وإنه لمبدأ قيادي وإداري نبوي كريم، ما تركه إنسان إلا نَدِمَ عليه.

كمـا يبين هذا النص الأسلوب الإبداعي له ﷺ في طرح رأيه، ليتشاوروا فيما عَرَضه عليهم، دون أن يُلزِمَهم بما يرى، فقد أشار إليهم بفائدة البقاء في المدينة، حيث سيكون من عدوهم أحد أمرين: إما بقاؤه خارج المدينة، وهو شر مُقام لهم؛ لأن المدينة حصـينة، وبالـتالي لن ينالوا شيئاً من مبتغاهم، وإما أن يدخلوها فَيُقاتلهم أهل المدينة بكاملهم، النساء والصبيان من فوق المنازل، والرجال في شوارعها.

فَذِكْـرُ العلـة في الـرأي من مهمات الرأي الحصيف، ومن موجبات تأمله ودراسته بعمق. وهذه المشورة تربي في المسلمين إعمال العقل فيما يجوز الاجتهاد فيه،

---

[1] البخاري (٣/١١٠) برقم (٤٠٨١)، أُرَى بمعنى: أظن. والقائل ذلك هو البخاري كأنه شك هل سمع من شيخه صيغة الرفع أم لا. (فتح الباري ٧/٣٧٦).

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٦٧)

كما أنها تبين أن للإنسان تدبيره في أعماله، وأعمال غيره، وبالتالي فإن نتائجه من مسؤولياته، كما أن المشورة تُظهر القدرات العقلية، وترفع من المعنويات النفسية، وتجعل الفرد يستشعر بقيمته عند رئيسه وقائده، أو والده وأستاذه.

كما أن مشورته ﷺ لأصحابه كانت في الرأي الذي طرحه عليهم، وهذا نوع من أنواع المشورة، فإما أن تطلب الرأي فيما ترى، أو أن تطلب الرأي ابتداء في الحدث. وما طرحه رسول الله ﷺ يُمثل النوع الأول، إضافة إلى أنه ليس هناك احتمال ثالث للموقف.

فلم يزل الناس برسول الله ﷺ من الذين كان من أمرهم حُبُّ لقاء القوم، حتى دخل رسول الله ﷺ بيته، فلبس لأمته، ثم خرج عليهم، وقد نَدِم الناس، وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك، فلما خرج عليهم رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله ! استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ : (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يُقاتل.)[1]

ويتبين من هذا النص لابن هشام أن رسول الله ﷺ غير راغب في الخروج إليهم، ولكنه أخذ عليه الصلاة والسلام برأي المجموعة، وهذا يدلل على احترامه ﷺ لرأي الجماعة، وإن رأى هو غيره، طالما أنه ليس في نص أو أمر قطعي ليس لهم فيه رأي، إضافة إلى أن هذا الرأي من الصحابة يُدلل على أنه ﷺ قد عودهم على إبداء الرأي دون انزعاج منه ﷺ على من يُخالفه في الرأي، وإلا لما أظهر الصحابة رأيهم عنده ﷺ وفي هذا مبدأ الترحيب بالآراء دون تَنَقْص منها، أو إشعار الآخرين بالامتعاض من الرأي المخالف، الأمر الذي يربي في الآخرين من الأعوان عدم المجاملة الخاطئة، وبالتالي يُصبح الرأي فردياً؛ وإن وافقت عليه الجماعة، لأن سر الموافقة وأسبابها دفع انزعاج المستشير.

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٦٧ــ٦٨)

وقــد شعُرَ المسلمون بأن ما رأوه قد استكرهوا به رسول الله ﷺ فندموا على ذلــك، وهنا تتبين الطبيعة الإنسانية في التفاعل مع الحدث أثناء إبداء الرأي، وكذلك المحــبة التي يكنها أصحاب رسول الله ﷺ له، وانزعاجهم مما حصل منهم، فخرج عليه الصلاة والسلام عليهم، وقد لبس لأمته، أي الدرع أو الســلاح، ولأمــة الحــرب أداتــه.[1] فيخبرونه قائلين : يا رسول الله ! استكرهناك، ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فــاقعد صلى الله عليك.فيقول لهم: رسول الله ﷺ : (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يُقاتل.) فيعطي عليه الصلاة والسلام درساً في اتخاذ القرار، الذي يجب أن يُمْضــيه، طالما أنه يحمل رأي المجموعة، حتى لا تتشتت الآراء وتتشعب. ليكون ذلك مــبدأ عملياً إدارياً وتربوياً، يؤدي إلى تربية المجموعة على الالتزام بالقرار الصادر عن الــرأي الجمــاعي، وأنه دعامة إدارية؛ تحقق نجاح القرار القيادي، لتبتعد بالأفراد عن التشتت والتشعب والانقسام.

وخرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه[2] وبالتالي فإن الكفة العددية لكفار قريش، التي بلغ عدد أفرادها ثلاثة آلاف مقاتل؛ تفوق الكفة العددية للمسلمين. وهنا تظهر أهمية الثبات، وأهمية عدم الاغترار بالكثرة، لأن نصر المسلمين غير مرهون بالعدد فقــط، قال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[3]

---

[1] ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٢٢٠)

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٦٨)

[3] سورة الأنفال: آيات رقم (٦٥ـــ٦٦)

ثم هـــا هو جيش المسلمين يتحرك صوب مقر المعركة، حتى إذا كانوا بالشوط بين أحد والمدينة رجع عبد الله بن أبي بن سلول بثُلُثِ الناس[1]

وهنا يتبين خذلان المنافقين للمسلمين، وما قد يُحْدثه ذلك من أثر نفسي على صـــفوف المســـلمين، ولكن الله تبارك وتعالى يُنَزِّلُ في ذلك آيات بينات، تسجل هذا الموقـــف، وتـــبين إرادة الله تـــبارك وتعالى، وتكشف عِلَل المنافقين الواهية، قال تعالى ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [2] قـــال ابن كثير: يعني بذلك أصحاب عبدالله بـــن أبي بـــن ســـلول الذيـــن رجعوا معه في أثناء الطريق، فاتبعهم رجال من المؤمنين يُحرضـــوهم عـــلى الإتيان والقتال والمساعدة.... واستدلوا بقوله تعالى ﴿هم للكفر يومـــئذ أقرب منهم للإيمان﴾ أن الشخص قد تتقلب به الأحوال فيكون في حال أقرب إلى الكفر.[3]

ثم يـــبين القرآن الكريم حالة التفكير عند طائفة من المسلمين بالرجوع، ولكن بفضـــل الله تعـــالى وجُـــوْدِه تَغَلَّب إيمانُهم على تفكيرهم ووهنهم، فعن جابر ﷺ قال (نزلـــت هذه الآية فينا ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ بني سَلمة وبني حارثـــة، ومـــا أُحِبُّ أَنَّها لم تنـــزل، والله يقول ﴿والله وليهما﴾)[4] ويتبين من حديـــث جابر ﷺ حُسن الفهم والنباهة والفطنة، لما تضمنته الآية من قوله تعالى (والله وليهما)

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (٦٨/٣)

(2) سورة آل عمران : آية رقم (١٦٦)

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٣٤/١)

(4) البخاري (١٠٤/٣) برقم (٤٠٥١)

وفي معسكر المسلمين ردَّ رسول الله ﷺ مجموعة من الفتية لصغر سنهم، وأجاز سَـــمُرة بن جُندب الفَزاري، ورافع بن خديج، وهما أبناء خمس عشرة سنة، وكان قد ردهما، فقيل له: يا رسول الله إن رافعاً رامٍ، فأجازه، فلما أجاز رافعاً، قيل له: يا رسول الله ! فإن سَمُرة يصرع رافعاً، فأجازه.[1]

وذكـــر ابن هشام أن رسول الله ﷺ ردَّ أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر بن الخطـــاب، وزيـــد بن ثابت، والبراء بن عازب، وعمرو بن حَزم، وأسيد بن ظُهَير، ثم أجازهم يوم الخندق، وهم أبناء خمس عشرة سنة.[2]

وهـــذا الموقـــف من هؤلاء الفتية يدلل على التربية الإيمانية القوية التي كانوا يُنَشَّـــؤن علـــيها، حـــتى أنهم يندفعون إلى ساحة المعركة ولم يبلغوا الخامسة عشر من أعمـــارهم، وبالتالي فإنهم يُقدمون نموذجاً تربوياً مشرفاً لفتية الإسلام. كما يدلل هذا الخـــبر على العناية الأسرية من أهليهم التي غرست فيهم حب الإسلام، وحب رسول الله ﷺ إضافة إلى أنهم كانوا يمارسون الرماية والمصارعة التي تقوي الجسم، وتُعين على نوائـــب الدهر، حيث أجاز ﷺ رافعاً لأنه كان رامياً، وأجاز سَمُرة بن جُندب الفَزاري لأنـــه كـــان يصرع رافعا. مما يدلل على أن الرماية والمصارعة كانتا من أنشطة الفتية وألعابهم.

وعند جبل أُحُد الذي قال عنه ﷺ (هذا جبل يُحبنا ونحبه)[3] التقى المسلمون بكفـــار قريش، فعن البراء ﷺ قال (لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الـــرُّماة، وأمَّر عليهم عبد الله، وقال: لا تَبرَحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعينُونا.)[4]

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٧٠)

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٧٠)

[3] البخاري (٣/١١١) برقم (٤٠٨٣)

[4] البخاري (٣/١٠٢ـــ١٠٣) برقم (٤٠٤٣)

يوضــح هذا الحديث الخطة النبوية الحربية الحكيمة، التي جعلت مجموعة من الرُّماة على جبل عينين المواجه لأحد، لكي يحفظ المكان المهم جداً في مسيرة المعركة من أن يــناله المشركون، فيكون حماية للمسلمين بعد الله تعالى. وهنا تظهر الأهمية الكبرى للأخذ بالأسباب التي هي من مقدور المسلم. كما يبين هذا الحديث أهمية الإمارة على المجموعة أو الكتيبة، وأن يمتثلوا لقائدهم المباشر، ويظهر أيضاً مبدأ تقسيم العمل والمهام والمسؤوليات، ثم يعطي ﷺ التوجيهات التي يلزم الأخذ بها في حال الانتصار أو الهزيمة.

وقــد وضع ﷺ كلا الاحتمالين أمام الرماة. ولم يترك لهم الاجتهاد أمام تنوع النــتائج، مما يؤكد أهمية وضوح التعليمات للأعوان، وعدم إعطاء الفرصة للآراء في المواقف الحاسمة والواضحة، التي لا تحتمل الاجتهاد. وهذه من الركائز المهمة في نجاح الأعمال في جميع دوائرها.

ومــن مشاهد المعركة وبطولات المسلمين يذكر أنس ﷺ (أن رسول الله ﷺ أخــذ ســيفاً يوم أُحُد. فقال: من يأخذ مني هذا ؟ فَبَسَطُوا أيديَهُم. كُلُّ إنسان منهم يقول: أنا، أنا، قال: فمن يأخذه بحقه ؟ قال: فأحجم القوم. فقال سِمَاك بن خَرَشَة، أبو دجانــة: أنا آخُذُه بِحَقّه. قال: فأخذه ففلق به هام المشركين)[1] ويظهر في هذا المشهد تشجيع رسول الله ﷺ لأصحابه، وترغيبهم في الخير، وتنافس الصحابة في ذلك، حيث يقول كل واحد منهم: أنا، أنا، ثم يأخذه أبو دجانة ﷺ ففلق به هام المشركين، أي شق رؤوسهم.[2]

ومــن أبطــال وشهداء هذه المعركة مصعب بن عمير وحمزة بن عبد المطلب رضــي الله تعالى عنهما، اللذين يتذكرهما ابن عوف ﷺ فتقف نفسه عن الطعام أمامه، فيبكي حتى تركه. فعن سعد بن إبراهيم عن أبيه إبراهيم (أن عبد الرحمن بن عوف أُتِيَ بطعام ــ وكان صائماً ــ فقال: قُتل مُصعب بن عُمير وهو خير مني، كُفِّنَ في بُردةٍ إن

---

(١) مسلم (١٩١٧/٤) برقم (٢٤٧٠)

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٢٤/١٦)

غُطي رأسه بَدَت رجلاه، وإن غُطي رجلاه بدا رأسه. وأُراهُ قال: وقُتل حمزة وهو خيرٌ مـني؛ ثم بُسِـطَ لنا من الدنيا ما بسط ـ أو قال أُعطينا من الدنيا ما أعطينا ـ وقد خَشينا أن تكون حسناتنا قد عُجِّلَت لنا. ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام)[1]

ومـن فوائـد هذا الحديث، محبة الصحابة لبعضهم، فأولها: تذكر ابن عوف لصـحابيين جليلين، وثانيها: وصفهما بأنهما خير منه، وثالثها: ذكر محاسنهما، ورابعها عـدم قدرته على تناول الطعام لتلك الذكرى الممتلئة بالمحبة. كما أن في هذا الحديث زهـد مصعب بن عمير ﷺ الذي كان من حاله، أنه ليس له كفن إلا بُردته التي تعجز لقصرها أن تغطيه كاملاً، وهو الشاب الذي كان من أنعم الناس قبل الإسلام.

ومـن صور بسالة المسلمين ورغبتهم في ما أعده الله تعالى للشهداء، ما رواه جابـر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال (قال رجل للنبي ﷺ يوم أُحُد: أرأيت إن قُتِلتُ فأين أنا ؟ قال: في الجنة. فألقى تمرات في يده، ثم قاتل حتى قُتِل)[2]

فإذا كان الصحابي الجليل يبحث عن الجنة من باب الجهاد، فإن الأبواب التي تؤدي إليها عديدة وجدير بالمسلم أن يبحث عنها من خلال أبوابها العديدة ، كالمحافظة على العبادات، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والدعوة إلى الله تعالى بالكلمة أو الفعل أو القـدوة المستقيمة. وإذا كان الصحابي يدفع بنفسه إلى الموت في سبيل الله تعالى، أفلا يدفع المسلم عن نفسه عذاب الله تعالى وعقابه؛ بفعل الطاعات واجتناب المحرمات.

إن هـذا الموقـف من ذلك الصحابي الجليل دليل على ضآلة الدنيا في عيون الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وتقديمهم لذة الآخرة الآجلة على لذائذ الدنيا العاجلة، وبالتالي ارتقت موازينهم وأحكامهم وقرارالهم رضي الله تعالى عنهم.

وبلغ من إيمان المسلمين وحبهم لله تعالى ولرسوله ﷺ وبسالتهم وشجاعتهم في هـذه المعركة، أن قال عبد الله بن جحش ﷺ (اللهم إني أقسم عليك أن ألقى العدو

[1] البخاري (٣/١٠٣) برقم (٤٠٤٥)

[2] البخاري (٣/١٠٣) برقم (٤٠٤٦)

غداً، فيقتلوني، ثم يبقروا بطني، ويجدعوا أنفي، وأذني، ثم تسألني بما ذاك ؟ فأقول فيك) قال سعيد بن المسيب إني لأرجو أن يبر الله قسمه كما بر أوله.[1]

بل بلغ بهم الإيمان والشجاعة، ما كان من أمر حنظلة بن أبي عامر ﷺ، حيث قال رسول الله ﷺ عند قتل حنظله بن أبي عامر (إن صاحبكم تغسله الملائكة. فسألوا صاحبته، فقالت: إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جنب، فقال رسول الله ﷺ لذلك غسلته الملائكة)[2]

فيضـــرب حنظلة بن أبي عامر ﷺ مثلاً رائعاً لمن قدم لذة الآخرة على الدنيا، فـــبالرغم من أنه جُنُب إلا أنه لم يتمالك نفسه في الدفاع عن المسلمين؛ والذب عنهم بنفســـه وسنانه، فيخرج للمعركة لّما سمع الهائعة، وهي: الصيحة التي فيها فزع. فَيُقْتَل شهيداً ﷺ فيكافئه الله تعالى بأن غسلته الملائكة، فيحظى بهذه المنقبة العظيمة.

وكـــم يسمع الإنسان عن حاجات إخوانه من المسلمين: الأقارب أو الأباعد ولا يســـعى فـــيها بما يستطيع، وكم تُقام الصلاة ويُرفع الأذان وهناك من لا يجيب، مكتفـــياً بإقامتها في داره. أو بعد فوات وقتها بحين، فأين ذاك من سرعة تجاوب حنظله بن أبي عامر وصنيعه.

وبهـــذه البسالة الإيمانية بعد توفيق الله تعالى انتصر المسلمون في بداية المعركة، حيث يصف البراء ﷺ ذلك، بقوله (لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الـــرُّماة، وأمَّر عليهم عبد الله، وقال: لا تَبرَحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعينُونا. فلما لَقِينا هربوا، حتى رأيت النساء يَشتددْن في الجبل، رفعن عن سُوقهن، قد بدت خلاخِلُهنَّ. فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة. فقال

[1] الحاكم، المستدرك (٣/٢٠٠)

[2] الحاكم، المستدرك (٣/٢٠٤)

عـــبد الله: عَهِدَ إليَّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صُرِف وُجوهُهم، فأصيب سبعون قتيلاً.)[1]

فهكـــذا كان النصر، حتى أن النساء كُنَّ يشتَدِدن أي يُسرعن في المشي، وقد رفعـــن عن سوقهن، وهو جمع ساق، حتى يعينهن ذلك على سرعة الهرب، ويقول ابن الـــزبير ﷺ : والله لقـــد رأيـــتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحباها مشمرات هـــوارب، مـــا دون إحداهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماة إلى العسكر حتى كشف القوم عنه، وخَلّوا ظهرنا للخيل، فأُتينا من خلفنا.[2] وأخذ أصحاب عبد الله بن جبير، يقولون : الغنيمة الغنيمة. ويقول لهم ابن جبير: عَهِدَ إليَّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صُرِف وُجوهُهم. أي تحيروا فلم يدروا أين يتوجَّهون.

وفي حديث ابن عباس (فلما أخلَّت الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها دخلت الخـــيل مـــن ذلك الموضع على الصحابة، فضرب بعضهم بعضا، والتبسوا، وقُتِلَ من المسلمين ناس كثير)[3]

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت (لما كان يومُ أُحُدٍ هُزِمَ المشركون، فصَـــرَخ إبليس لعنة الله عليه: أي عبادَ الله، أُخْراكم. فرجَعت أولاهم فاجتَلَدَت هيَ وأخراهم، فبصُر حُذيفةُ فإذا هو بأبيه اليمان، فقال: أي عباد الله، أبي أبي. قال قالت: فوالله ما احتَجَزوُا حتى قتلوه. فقال حذَيفةَ: يَغفِرُ الله لكم. قال عروة: فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحِقَ بالله)[4]

---

(1) البخاري (٣/١٠٢ــ١٠٣) برقم (٤٠٤٣)

(2) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٨٢) ابن حجر، فتح الباري (٧/٣٥٠)

(3) ابن حجر، فتح الباري (٧/٣٥٠ــ٣٥١)

(4) البخاري(٣/١٠٦) برقم (٤٠٦٥)

وتبين هذه الرواية ما كان من إبليس لعنة الله تعالى عليه، والذي نادى بأسلوب خبيث، يوحي بأن الصوت يحمل نصحاً للمسلمين، وهو يحمل بهتاناً مبين. والذي يجب أن يُكثر المسلم التعوذ منه، ويتخذه عدواً مبيناً.

ونتيجة لما حصل من ارتباك المسلمين، أن قتلوا والد حذيفة. الذي ظهر بمظهر المؤمن القوي، ملتمساً لإخوانه المسلمين العذر، داعياً لهم بالمغفرة، ليجسد لمن بعده؛ كيف يتعامل المسلم مع إخوانه في حالة الخطأ؛ حتى وإن كان بالغ الأثر. ثم ما يجب أن يكون عليه المسلم حالة المصيبة، من الصبر والتصبر، الذي يحفظ توازن الإنسان عند المصائب.

وقد وصف الله تعالى حال المؤمنين في كتابه العزيز، فقال سبحانه وتعالى

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[1]

وعن البراء ﷺ قال: (...وأشرف أبو سفيان؛ فقال: أفي القوم محمد ؟ فقال: لا تُجيبوه. فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ قال: لا تجيبوه. فقال: أفي القوم ابن الخطاب ؟ فقال: إن هؤلاء قُتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدوَّ الله؛ أبقى الله عليك ما يُخزيك. قال أبو سفيان: أعلُ هُبَل. فقال النبي ﷺ : أجيبوه. قالوا: ما نقول ؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجلّ. قال أبو سفيان: لنا العُزّى ولا عُزّى لكم، فقال النبي ﷺ : أجيبوه. قالوا: ما نقول ؟ قال: قولوا: الله

---

[1] سورة آل عمران: آية رقم (١٥٢)

مولانا ولا مولى لكم. قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر، والحربُ سِجال، وتجدون مُثْلةً لم آمُرْ بها ولم تَسُؤْني)[١]

وهكـــذا اعتقد أبو سفيان أن رسول الله ﷺ وصاحبيه قد قُتِلوا، فيشير عليهم ﷺ بالســـكوت، ويظهـــر أن في السكوت عنه، ما يدعو لمعرفة المزيد مما يكن ويُبطن، إضـــافة ليُصدَم بمعرفة حقيقة الخبر، وفي هذا ضربة نفسية عميقة لقائد المشركين. كما أن في ذلك دلالة على مكانة أبي بكر الصديق وعمر التي يدركها أبو سفيان.

وفي معالجـــة أحَـــدِ الصـــحابة ﷺ لغيابه عن معركة بدر، واستشعاره أهمية الـــتعويض عنها، يروي لنا أنس ﷺ (أن عمه غاب عن بدرٍ فقال: غبتُ عن أول قتال الـــنبي ﷺ لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ لَيَرَين الله ما أُجِدُّ؛ فلقي يوم أحد، فَهُزِم الناسُ، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ــ يعني المسلمين ــ وأبرأ إليك مما جاء به المشركون. فتقدم بسيفه، فلقي سعد بن معاذ، فقال: أين يا سعد ؟ إني أجد ريح الجنة دون أحـــد. فمضى فقُتل. فما عُرِفَ حتى عَرَفَتْهُ أُخته بشامة ــ أو ببنانه ــ وبه بضعٌ وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم)[٢]

وعَمُّ أنس هو أنس بن النَّضر رضي الله تعالى عنهما. الذي يُقَدِّمُ درساً ومثالاً رائعـــاً في التعويض عن ما يفوت الإنسان من الخير، فيرفع اعتذاره لرب العالمين عن ما حصل من أمر بعض المسلمين، ويعلن البراءة من عمل المشركين الذين يقاتلون رسول الله ﷺ وصـــحابته رضي الله تعالى عنهم. مبيناً ومشجعاً للمسلمين أن هذا العمل يؤل بالمسلم إلى الجنة، أشار ابن حجر إلى أن ريح الجنة قد تكون على الحقيقة، أو أن يكون ذلك باعتبار ما عنده من اليقين، بأن هذا ما سوف يؤل إليه.[٣] وهنا تبرز أهمية إظهار القدوة العملية لتكون دافعاً للآخرين حتى يحذون حذوه.

---

[١] البخاري (٣/١٠٢ــ١٠٣) برقم (٤٠٤٣)

[٢] البخاري (٣/١٠٣ــ١٠٤) برقم (٤٠٤٨) ورقم (٢٨٠٥)

[٣] ابن حجر، فتح الباري (٧/٣٥٥)

عن أنس بن مالك ﷺ (أن رسول الله ﷺ أُفْرِدَ يوم أحد في سَبْعَةٍ من الأنصار ورجلـــين من قريش، فلما رَهِقُوه، قال: من يَرُدُّهم عنَّا وله الجنة، أو هو رفيقي فـــي الجنة ؟ فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قُتِل، ثم رَهِقُوه أيضاً، فقال: من يردُّهُم عنا وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة ؟ فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قُتِل. فلم يزل كذلك حتى قُتِل السبعة. فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: ما أنصفنا أصحابنا)[1]

ويتـــبين من هذا الحديث مراعاة الرسول ﷺ للعدل حتى عند تقديم النفس في الـــذود عنه ﷺ لينال الرجل بها الشهادة والكرامة، فيقول لصاحبيه من المهاجرين بعد أن استشهد السبعة الأنصار (ما أنصفنا أصحابنا) فيقدم ﷺ الدرس التربوي والمحفز في كل لحظة من لحظات حياته، ليكون المربي والقائد والإداري مستغلاً لمثل هذه المواقف في حـــياة المجموعة. كما يتبين من هذا الحدث عمق محبة الصحابة من الأنصار لرسول الله ﷺ إذ يـــرون الموت أمامهم فيقدمون عليه فداءً ومحبة لرسول الله ﷺ وإعلاء لدين الله تعـــالى. ووفاء بما عاهدوه عليه ليلة العقبة، فكيف بمن يتكاسل بنشاطه وقوته عن أداء ما افترضه الله عليه من صلاة أو غيرها من العبادات.

وبعـــد استشـــهاد السبعة الذين أحاطوا برسول الله ﷺ قاتل عنه أبو طلحة الأنصـــاري؛ فعن أنس ﷺ الله عنه قال:(لما كان يوم أُحُدٍ انهزمَ الناس عن النبي ﷺ ، وأبـــو طلحة بين يدي النبي ﷺ مُجَوِّبٌ عليه بحجفَةٍ له[2]، وكان أبو طلحة رجلا رامياً شـــديد النـــزعِ، كسر يومَئذ قَوسَين أو ثلاثاً، وكان الرجلُ يَمرُّ معه بجعبَةٍ من الـــنَّبل فيقول: انـــثرها لأبي طلحة، قال: ويُشْرِفُ النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي، لا تُشْرِفْ يصيبك سهم من سهام القوم، نَحرِي دون نَحرِكِ.)[3]

---

(1) مسلم (٣/١٤١٥) برقم (١٧٨٩)

(2) مجوب أي مُتَرِّس. والحجفة هي الترس.

(3) البخاري(٣/١٠٦) برقم(٤٠٦٤)

وهكــذا قدم أبو طلحة ﷺ مثالاً رائعاً للجندي الذي أخذ التدريب المكثف، فجعل منه فذاً وناصراً ومدافعاً قوياً عن دين الله تعالى. كما يُقدم الحرص العظيم على الرســول الأمــين ﷺ مبيناً أنه يفديه بنفسه ووالديه. فلئن حَرِص أبو طلحة ﷺ على رسول الله ﷺ فإن سُبُل الحرص لا زالت متاحة للمسلم، من خلال الحرص على نشر ســنته والذب عنها والدعوة إليها، ولئن أمعن أبو طلحة في التدريب حتى أصبح بهذه القوة والمهارة، فإن سُبُل التعلم لسنته ﷺ لا زالت متاحة، يستطيع المرء أن يأخذ منها مــا اســتطاع لتكون له عوناً على ممارسة الدعوة بما يستطيع، فيكون قد اقتدى بأبي طلحة في بسالته وقوته، ولكن بصورة أخرى.

ولقــد امــتدت قوة هذا الصحابي الجليل إلى صوته الذي أصبح سلاحاً قوياً وفــاعلاً في المشركين، يقول أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (لَصَوتُ أبي طلحة أشد على المشركين من فئة)[1]

وكذلــك قاتل طلحة بن عبيد الله القرشي دون النبي ﷺ فأُصيبت يده، فعن قيس قال (رأيت يدَ طلحةَ شلاّء، وقىَ بها النبي ﷺ يومَ أُحُد)[2]

وهكــذا قدم طلحة ﷺ نفسه لنصرة رسول الله ﷺ والدفاع عنه بدمه الزكي حتى أصبحت يده شلاء أي لا تعمل.

ودافــع سعد بن أبي وقاص عن رسول الله ﷺ وكان رامياً، فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال (نَثَل لي النبي ﷺ كِنانَتَه يوم أحد، فقال: ارم فداك أبي وأمي)[3]

وفي هــذا الحديث يظهر الأسلوب النبوي الكريم، الذي أمد سعد بشحنات الفــداء والقــوة، وهو يقول له ﷺ (فداك أبي وأمي) فاستشعر سعد ﷺ معاني هذه الكــلمات وما تحمله من دلالات، يرويها ابن المسيب (قال سعد بن أبي وقاص ﷺ :

---

[1] أحمد (٣٧٥/٢٠) برقم (١٣١٠٥) طبعة الموسوعة الحديثية.

[2] البخاري (١٠٦/٣) برقم (٤٠٦٣)

[3] البخاري (١٠٥/٣) برقم (٤٠٥٥)

جمع لي رسول الله ﷺ يوم أحد أبويه كليهما ــ يريد حين قال: فداك أبي وأمي ــ وهو يُقاتل)[1]

وعن سعد بن شدَّاد قال: (سمعت علياً ﷺ يقول : ما سمعت النبي ﷺ يجمع أبويه لأحد غير سعد)[2]

وهكذا تظهر عوامل وأثر التشجيع التي ينبغي أن تعنى بها تربية اليوم، وإدارة الكفاءات، وقيادة المجموعات، ولا سيما إذا ما كانت ممن لتشجيعهم وقع على نفوس من يتعاملون معهم.

وبالــرغم من بسالة المسلمين وشجاعتهم التي ظهروا بها إلا أن رسول الله ﷺ قد أصيب في هذه المعركة، فعن أبي هريرة ﷺ قال:(قال رسول الله ﷺ اشتد غضب الله عــلى قــوم فعلوا بنبيه ــ يُشير إلى رباعيته ــ اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله)[3]

وعــن أبي حازم أنه (سمع سهل بن سعد وهو يسأل عن جرح رسول الله ﷺ فقال: أما والله إني لأعرف مَنْ كان يغسل جرح رسول الله ﷺ ومن كان يسكب الماء وبم دُووِي. قال: كانت فاطمة عليها السلام، بنت رسول الله ﷺ تغسله وعلي يسكب المــاء بالمِجَنِّ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدَّمَ إلا كثرةً أخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصَقَتها فاستمسك الدم، وَكُسِرَت رباعيته يومئذ، وجرح وجهه، وكسرت البيضة على رأسه)[4]

---

(1) البخاري (٣/١٠٥) برقم (٤٠٥٧)

(2) البخاري (٣/١٠٥) برقم (٤٠٥٨)

(3) البخاري(٣/١٠٩) برقم(٤٠٧٣)

(4) البخاري (٣/١٠٩) برقم(٤٠٧٥)

وفي الحديث جواز التداوي، وأن الأنبياء قد يُصابون ببعض العوارض الدنيوية مــن الجــراحات والآلام والأســقام ليعظم لهم بذلك الأجر، وتزداد درجاقم رفعة، وليتأسى بهم أتباعهم في الصبر على المكاره، والعاقبة للمتقين.[1]

وبهــذه الإصــابة لرســول الله ﷺ يتبين الأثر الواضح لأهمية الطاعة للقائد، وإدراك مســؤولية ما يقوم به الإنسان من أعمال، وخُطورة ما قد ينجم عن الترك أو الإهمال، الأمر الذي يجب أن يدركه المسلم في جميع ما يوكل إليه من أعمال في مختلف مجالات الحياة العملية. فالمبدأ واحد، والنتيجة متشابهة.

ويدل لفظ سهل بن سعد ﷺ عناية الصحابة بسيرة الرسول ﷺ مع دقة النقل والملاحظة التي هي من أهم مطالب الراوي والباحث في الجانب العلمي، مما يؤكد دقة مــا تم نقله للأجيال من بعدهم. ويؤكد أهمية هذه الصفة العلمية؛ والخُلُقية الراقية التي يتربى عليها من نهل من معين الإسلام وهديه، واقتفى بسيرة المصطفى ﷺ.

ومن صور أحداث معركة أحد ما رواه البراء بن عازب ﷺ حيث قال:(جعل الــنبي ﷺ على الرَّجَّالةِ يوم أحد عبدالله بن جُبَير، وأقبلوا منهزمين ، فذاك قوله تعالى (والرسول يدعوكم في أخراكم)[2]

وقــد اغتم المسلمون لما أصاب رسول الله ﷺ وأصابهم من القتل، فأنزل الله تعالى عليهم أمنة نعاساً، لِيَتَقَوّوا بها، جسمياً ونفسياً، فعن أنس عن أبي طلحة رضي الله عــنهما قــال(كنتُ فيمن تَغَشاهُ النُّعاسُ يومَ أُحُد، حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يســقطُ وآخــذُه، ويَسقط فآخذُه)[3] ويبين الله تبارك وتعالى ذلك في أحسن وصف، وأبدع بيان، حيث يقول عزَّ وجلَّ :

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٣٧٣/٧)

[2] البخاري (١٠٧/٣) برقم(٤٠٦٧)

[3] البخاري(١٠٧/٣) برقم(٤٠٦٨)

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ (١)

يبين الله تعالى أنه صدَقَ المؤمنين وعده بنصرهم على عدوهم، وأصبحوا يَحُسُّون بأخذهم لعدوهم المشركين بضرب السيوف فيهم. ولَمَّا حصل الفشل والتنازع في الأمر، والاختلاف، والمعصية للرسول ﷺ وترك أمره من البقاء على جبل الرماة، بعدما أراهم ما يُحبون من النصر والظفر بالعدو، حصل لهم غير ذلك.

وبهذا المطلع القرآني العظيم يتبين أهمية الطاعة للرسول ﷺ التي هي طاعة لله تعالى، وأن الفرح بالخير الذي يحمل ويؤدي إلى المعصية يقلب كفة الموازين، فإذا أنعم الله تعالى على عبد بنعمة فعليه أن يمسكها بطاعة الله تعالى، فإن المعاصي تُزيل النِّعم.

ويستفاد من هذه الآيات أهمية وحدة الهدف وسلامته، فقد أشار سبحانه وتعالى إلى أثر ذلك بقوله (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) ثم يبين الله

---

(١) سورة آل عمران: آيات رقم (١٥٣ــ١٥٤)

سبحانه وتعالى قدرته العظيمة؛ بأن قلب الموازين، وصرف وجوه المؤمنين عن عدوهم، فصار الوجه للعدو، ابتلاء من الله تعالى. لأن في الابتلاء تكفير للذنوب، ثم تتجلى رحمة الله تعالى للمؤمنين على ما يصدر منهم، بأن عفا عنهم برحمته وفضله ومنه، مما يفيد أن على المؤمن استشعار ذلك فيما يصيبه، بأنها رحمة من الله تعالى يربيه بالسراء والضراء ليعفو عنه ويرفع من درجاته؛ إنه تبارك وتعالى ذو فضل عظيم على المؤمنين.

ثم يـبين الله تعالى دقائق من حالة المؤمنين في تلك المعركة لتكون درساً وعظة عـلى مر الأزمان، إذ تُصْعِدُون في الجبل وتَجِدُّون في الهرب ولا تلوون على أحد من الدهـش والخـوف والرعـب، قال السدي: لما اشتد المشركون على المسلمين بِأُحُد فهزموهم دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة، فقاموا عليها، فجعل الرسول ﷺ يدعوا الناس (إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله)[1] فجزاهم الله تعالى بغم يتـبعه غـم، أي كـرباً بعد كرب، بفوات النصر والغنيمة، وحصول الهزيمة والجرح والقـتل، وسمـاعهم قتل النبي ﷺ وميل العدو عليهم، وإنها لَكُرْبَةٌ عظيمة قد ألـمَّت بالمؤمـنين، ولكـنها تربية الله تعالى لهم على ما سيكون لهم من أدوار يفخر بها تاريخ البشرية، ويَسْعد بمفرداتها ودقائقها المسلمون، لتكون دروساً علمية يتعلمون منها على مدار التاريخ والأيام.

وقـد كـان ما شاع عن مقتل النبي ﷺ الغم الكبير الذي حط بكلكله على قلوب المؤمنين، فأنساهم كل غم من الهزيمة وفوات النصر والغنيمة، ثم أتاهم الله تعالى بمعـرفة الحقـيقة أن محمداً ﷺ لم يُقتل، فأزال الله تعالى بهذا الخبر كل همٍ كان قد جثا عليهم، لأن سلامته ﷺ هي المبتغى، والمقصد لهم رضي الله تعالى عنهم.

وكل هذا ينفي عن المسلمين الحزن والأسى على ما فاتهم من النصر والغنيمة والقتل والجرح، لقاء فرحهم بحياة الرسول ﷺ الذي يفوق كل فرح، ويجلي عنهم كل حـزن. فالله تعالى خبير حكيم يعلم ما لا يعلم العباد، وفي أفعاله سبحانه وتعالى حِكم

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٤٢٣)

بالغة. وكم في هذا من تربية للمؤمنين على التعود على الشدائد والمصائب التي تقوي عزيمتهم وتزيدهم خبرة وقوة، وزيادة في تماسكهم وتعاضدهم وطاعتهم لنبيهم ﷺ في كل لحظة وحين، وفي السر والعلانية.

ويُستفاد من هذا سعة رحمة الله تعالى وعنايته بعباده، وعظيم أسلوبه عزَّ وجلَّ في توجـــيه وتربية عباده، فما يصيب المؤمن من ابتلاء، قد يتلوه آخر، إنما هو نوع من التأديب بالرحمة التربوية التي يُنسي بعضُها بعضاً، ليتحقق له السرور فيما بعد.

ثم يمتن الله تبارك وتعالى على عباده المؤمنين بأمنة نعاس تغشاهم، وهم في همهم وغمهم، لأن في النعاس سكينة وهدئة للنفس البشرية، ليقوم الإنسان بعد ذلك نشطاً قويـــاً، إضـــافة إلى ما فيه من التثبيت للقلوب من الخوف الذي أصابها. وأما الطائفة الأخـــرى المنافقة " وهم أهل شك وريب في الله عزَّ وجلَّ" [1] وقد كان من صفة أهل هذه الطائفة: أن أهمتهم أنفسهم، والظن السيئ بالله تعالى؛ بأن الله لن ينصر رسوله ﷺ ويتســـاءلون: أليس لنا من النصر شيء ؟ وإنه سؤال قد حمل إساءة ظن بالله تعالى، مما يبين أهمية الظن الحسن بالرحمن الرحيم ، فمهما أصاب المؤمن مما يسوؤه، فيعلم أن الله تعـــالى إنما يريد به الخير، بدفع ضر عنه، أو بجلب مصلحة له بسبب ذلك، عاجلة أو آجلة. ثم يبين الله تعالى محصلة الأمر (إن الأمر كله لله) هو الملك المتصرف، له الحكمة البالغة.

ثم يبين الله تعالى بعض الخصائص والخلجات النفسية لهذه الطائفة المنافقة، بأنهم يُخفُـــون في أنفســـهم مـــا لا يظهرونه للنبي ﷺ فيقولون: لو كان الأمر إلينا في هذه المعـــركة ما حصل هذا القتل، وبهذا يُسندون الأمر لأنفسهم دون الله تعالى، ويرفعون مـــن قيمة آرائهم، ويهونون من أمر رسول الله ﷺ وأصحابه الميامين. ولكن الله تعالى يـــرد عليهم في كتابه العظيم، ليكون خزياً وفضيحة لهم، فيقول تعالى (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) فالله تعالى يختبرهم ليميز الخبيث

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٤٢٧)

من الطيب، ويمحص القلوب؛ ليظهر المؤمن من المنافق، وأن الله عليم بخلجات النفس من السرائر الخفية التي لا يعلمها إلا صاحبها، وربما فاته معرفتها نتيجة ازدحام الأفكار عليه.

وهذا البيان من الله تعالى يُجسد في قلب المؤمن أهمية الإيمان والإلتجاء إلى الله تعـــالى؛ وإلى أمره وتوجيهه، والحذر من عصيان أوامره وتوجيهاته، وأن يحسن المؤمن الظن بالله تعالى؛ وبأمره ونهيه، وعدم التعدي عليها برأي أو استحسان لغيرها، فإن الله عليم بخلجات النفوس وما توسوس به الصدور.

ولـــئن حصل هذا في معركة أُحُد لهو درس من الله تعالى لتستفيد منه الأمة في ذلـــك الوقـــت وفي كل وقت، من خلال استعراض السيرة والإفادة مما دار فيها من أحداث، وإلا فالله تعالى قادر على النصر كما نصرهم يوم بدر وهم قلة.

كمـــا يتبين من هذا الحدث أهمية مراعاة الأسباب، والأخذ بها، فالله تعالى هو خـــالق الأسباب، وبالتالي يجب الأخذ بما أمر به تبارك وتعالى، وأن هذا الدين هو دين عمل وتفكير، وأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى.

وبعد نهاية المعركة بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فقال (اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون؟ وما يريدون ؟ فإن كانوا قد جَنَّبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بـــيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم، قال علي: فخرجت في آثارهم، أنظر ماذا يصنعون؛ فجنبوا الخيل، وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة)[1]

ويتـــبين من ذلك حِرص النبي ﷺ على حماية رعيته والذب عنها، الأمر الذي ينـــبغي أن يدركـــه كـــل مسؤول عن رعيته، وأن لا ينشغل بهموم ما أصابه عن بقية مسؤولياته. كما يتبين من صنيعه ﷺ إمعان العقل والتدبر والقياس، واستخلاص النتائج بعـــد استقراء التوقعات التي يمكن أن تكون؛ ليتخذ القرار المناسب وفق الاحتمالات

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ١٠٠)

المنـــتظرة، وهـــي من أهم أسس النجاح القيادي والإداري والتربوي في جميع شؤون الحـــياة: المهنـــية والأسرية والاجتماعية. كما يتبين من هذه الرواية شجاعته ﷺ التي انبعثت من توعده لهم إن ذهبوا إلى لمدينة. وهو ما يجب أن يستفيد منه القائد، أياً كان مجال قيادته.

وقد أنزل الله تعالى آيات عظيمات للمسلمين عن يوم أُحُد، تزرع في نفوسهم المزيد من الثقة بربهم، وتقوي إيمانهم، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ (١)

فهذه الآيات العظيمات تصب فيضاً من الإيناس على قلوب المؤمنين؛ بما تحمله من معاني ودلالات عظيمة، فينهاهم الله تعالى عن الضعف والحزن بسبب ما جرى لهم مـــن نـــتائج المعركة، فإن العاقبة والنصر لكم أيها المؤمنون، فأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. وهكذا يجب أن يكون المؤمن بعد الكربات والنوائب التي تصيبه، في منأى عن الضعف والحزن، الذي بهما تضعف العزائم، وتنهار القوى، ولا يرى أمامه إلا مستقبل كئيـــب. بل يجب أن يطرح الضعف جانباً والحزن في جانب آخر، ليبدأ عملاً ونشاطاً جديداً في تفاؤل بثواب الله وعطائه سبحانه وتعالى.

ثم يـــبين الله تعالى للمؤمنين: أنه وإن أصابتكم جراح وقتل في صفوفكم، فقد أصـــاب القوم مثلكم من قتل وجرح، وها هي سنة الله تعالى في التداول، يداول الأيام

(١) سورة آل عمران: آيات (١٣٩ــ١٤٢)

بـــين الناس، فنديل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت العاقبة والنهاية الحاسمة لكم. لما في ذلك من الحكمة البالغة؛ ليتبين من يصبر على مناجزة الأعداء، وليكون منكم شهداء، يُقتلون في سبيل الله تعالى. وليمحص المؤمنين، ويمحق الكافرين.

فهاهي حِكم تلك المداولة التي ينبغي أن يدركها الإنسان المسلم، ويتعامل مع الأحداث والمداولة بحكمة البصير الناظر في تدبير الله تعالى وتصريفه الحكيم البليغ، لأن في عدم إدراك هذه الحِكَم ما قد يدفع المرء إلى التصرف غير الحكيم، لأنه لا يرى إلا تحقق النصر والظفر بالعدو في كل وقت وحين؛ دون النظر إلى غير ذلك من حكم الله تعالى وتدبيره، وكذلك أسباب النصر في أبواب الحياة المختلفة.

ثم يـــبين الله تعـــالى للمؤمنين أمراً عظيماً وهو أمر دُخول الجنة: أتحسبون أن تدخلوا الجنة ولم تُبتلوا بالقتال والشدائد.

فإن من سنن الله تعالى الابتلاء، بالأعداء وفي الأموال والأنفس والرزق، وغير ذلـــك، فإذا عرف المؤمن هذه السنن أدخلت عليه فيضاً من السكينة والطمأنينة، التي توجب له التفكير المنضبط ثم يعقبه السلوك المعتدل.

وعن قصة مقتل حمزة ﷺ يقول جعفر بن عمرو بن أمية الضَّمْرِيّ : (خرجت مع عُبَيْدِ الله بن عَديٍّ بن الخيار، فلما قَدِمنا حِمْص قال لي عبيد الله بن عدي: هل لك في وحشـــي نسأله عن قتل حمزة ؟ قلت: نعم. وكان وحشي يسكن حمص فسألنا عنه، فقـــيل لـــنا: هو ذاك في ظل قصره، قال فجئنا حتى وقفنا عليه بيسير، فسلمنا؛ فرد الســـلام ...ثم قال: ألا تخبرنا بمقتل حمزة ؟ قال: نعم، إن حمزة قتل طُعَيْمَة بن عدي بن الخيار ببدر، فقال لي مولاي جبير بن المطعم: إن قتلت حمزة بعمي فأنت حُرٌّ، قال: فلما أن خـــرج الناس عام عينين ــ وعينين جبل بحيال أحد، بينه وبينه واد ــ خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سباع فقال: هل من مبارز ؟ قال فخرج إلـــيه حمـــزة بن عبد المطلب، فقال: ياسباع، يا ابن أمِّ أنمار مقطعة البظور، أَتُحَادُّ الله ورســـوله ﷺ ؟ قـــال ثم شد عليه فكان كأمس الذاهب . قال: وكمنْتُ لحمزة تحت

صـخرة، فلما دنا مني قتلته بحربتي فأضَعُها في ثُنَّتِه حتى خَرَجَتْ من بين وَرِكِه، قال: فكـان ذلـك العهـد به.فلما رجع الناس رجعت معهم، فأقمت بمكة حتى فشا فيها الإسـلام. ثم خرجـت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رُسُلاً، فقيل لي: إنه لا يهـيج الرُّسلَ، قال: فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ، فلما رآني قال: آنت وحشي ؟ قلت: نعم. قال: أنت قتلت حمزة ؟ قلت: قد كان من الأمر ما بَلَغك. قـال: فهل تستطيع أن تُغَيِّبَ وجهك عني ؟ قال فخرجت. فلما قُبض رسول الله ﷺ فخرج مسيلمة الكذاب، قلت لأخرجن إلى مسيلمة لعلي أقتله فأُكافئَ به حمزة. قال: فخرجـت مع الناس فكان من أمره ما كان، قال: فإذا رجل قائم في ثَلمةِ جدار كأنه جمـل أورق ثائـر الرأس، قال: فرميته بحربتي. فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه. قال: فوثب رجل من الأنصار فضربه بالسّيف على هامته)[١].

ومـن فوائـد هـذه الرواية شجاعة حمزة ﷺ وبسالته، وأن وحشي لم يقتله بالمواجهة، وإنما قتله غيلة. ويتبين من هذه الرواية كريم خُلُقه ﷺ حتى عرف الناس عنه مكارم الأخلاق، حيث قالوا لوحشي : إنه لا يهيج الرُّسلَ. أي لا ينالهم بمكروه. وفي الرواية حرص النبي ﷺ على المزيد من التثبت، طالما أن الفاعل موجود، حيث سأله ﷺ (آنت وحشي ؟ قلت: نعم. قال: أنت قتلت حمزة ؟) ومن حبه ﷺ لعمه حمزة، وكريم خُلُقـه مع قاتل حمزة، أن قال لوحشي: (فهل تستطيع أن تُغَيِّبَ وجهك عني ؟) وقد اسـتخدم ﷺ في توجيهه أسلوب السؤال الذي يحمل المعنى والمقصد، وهذا من لطيف وجمـال خُلُقه ﷺ وحُسن أسلوبه في التوجيه. وفي هذه الرواية أيضاً استشعار وحشي لعظم ما صنع بحمزة ﷺ فقرر أن يقتل مسيلمة الكذاب مكافأة لقتله حمزة.

وقد مثّلت هند بنت عتبة والنساء اللاتي معها بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يجدعن الآذان والأنوف، وبقرت عن كَبد حمزة فلاكتها.[٢] وعندما رأى رسول الله

---

[١] البخاري(٣/١٠٨ــ١٠٩) برقم(٤٠٧٢)

[٢] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٩٦ــ٩٧)

ﷺ حمزة بن عبد المطلب قد بُقِرَت بطنه، ومُثّل به، فَجُدِع أنفه وأذناه حزن عليه حزناً شديداً، فقال عليه الصلاة والسلام (لن أصاب بمثلك أبدا ! ما وقفت موقفاً قط أغيظ إليّ من هذا ! ثم قال جاءني جبريل، فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع: حمزة بن عبد المطلب أسد الله، وأسد رسوله)[1]

ومن فوائد هذه المعركة قوله ﷺ (فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع؛ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)[2] فهذا عمرو بن قيس يمثل مَنْ دخل في الإسلام على آخر لحظة من حياته، فعن أبي هريرة ﷺ قال (إن عمرو بن قيس كان له ربا في الجاهلية، وكان يمنعه ذلك الربا من الإسلام حتى يأخذه، فجاء ذات يوم ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بأحد، فقال: أين سعد بن معاذ ؟ فقيل: بأحد، فقال: أين بنوا أخيه ؟ قيل: بأحد، فسأل عن قومه، قالوا: بأحد، فأخذ سيفه ورمحه، ولبس لامته، ثم ذهب إلى أُحُد، فلما رآه المسلمون، قالوا: إليك عنا يا عمرو، قال: إني قد آمنت، فحمل، فقاتل، فَحُمِل إلى أهله جريحاً. فدخل عليه سعد بن معاذ، فقال له: جئت غضباً لله ولرسوله ؟ أم حمية لقومك ؟ قال: بل جئت غضباً لله ولرسوله، فقال أبو هريرة : فدخل الجنة وما صلى لله صلاة)[3]

وفي نفس الوقت أتى رجل يُقال له قُزْمان، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذُكر له: إنه من أهل النار. فلما كان يوم أحد قاتل قتالاً شديداً، فَقَتَل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان ذا بأس، فأثبتته الجراحة، فاحتُمِل إلى دار بني ظفر، فجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قُزْمان، فأبشر، قال: بماذا أبشر ؟

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/١٠١ــ١٠٢)

(٢) البخاري (٤/٣٩٥ــ٣٩٦) برقم (٧٤٥٤)

(٣) الحاكم (٣/٢٨)

فـــوالله إن قاتلــت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت. فلما اشتدت عليه جراحاته أخذ سهماً من كنانته فَقَتَلَ به نفسه.[1]

وفي هـــذا معجـــزة من معجزاته ﷺ إذ أخبر عن أمر قُزْمان قبل موته. ويفيد كذلـــك أهمية الإخلاص لله تعالى، وأهمية خاتمة الإنسان، وأن يسأل المسلم ربه حُسن الخاتمة.

وعـــن كـــثرة مساهمة الأنصار في أُحُد والغزوات والمعارك، وكثرة الشهداء مـــنهم، ما رواه قتادة ﷺ قال: (ما نعلم حياً من أحياء العرب أكثر شهيداً أغرَّ يوم القيامة من الأنصار. قال قتادة: وحدثنا أنس بن مالك: أنه قُتِلَ منهم يوم أُحُد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون. قال: وكان يوم معونة على عهد رسول الله ﷺ ويوم اليمامة على عهد أبي بكر يوم مسيلمة الكذاب)[2]

يتبين من هذه الرواية أسلوب التقرير ثم الاستدلال، وهو أحد أساليب البحث العـــلمي، حيث قرر قتادة ﷺ كثرة وتفوق عدد الشهداء من الأنصار، ثم ذكر الأدلة المتابعة على ذلك. كما تفيد هذه الرواية شجاعة الأنصار رضي الله تعالى عنهم، وكذا تفانيهم لرسول الله ﷺ ولدين الله تعالى.

وبعـــد نهاية المعركة، يقوم رسول الله ﷺ بدفن الشهداء رضي الله تعالى عنهم، فعـــن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، (أن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتـــلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول: أيهم أكثر أخذاً للقرآن ؟ فإذا أشير له إلى أحد قدَّمـــه في اللحد، وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة، وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يصل عليهم، ولم يُغسلوا.)[3]

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٩٣ــ٩٤)

[2] البخاري (٣/١١٠) برقم (٤٠٧٨)

[3] البخاري (٣/١١٠) برقم (٤٠٧٩)

ويـبين هـذا الحديـث مكانة القرآن العظيم ومنـزلته التي رفعت منـزلة أصـحابه، فكان ﷺ يقدم الأكثر أخذاً للقرآن الكريم، مما يؤكد أهمية التربية والتعليم القائمة على العناية بكتاب الله تعالى. كما يبين هذا الحديث تقديم أهل القرآن والعناية بهم، وأن كِبَر السن لا يتقدم به على آخذ القرآن العامل به.

وقـد كـان للنساء مهام قمن بها في هذه المعركة، فعن أنس ﷺ قال:(.... ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأمُّ سُليم وإنهما لمشَمرّتان أرى خَدَمَ سُوقهما تُنقِزانِ القرب على متونهما تُفْرِغَانِهِ في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتُفرِغانه في أفواه القوم)[1]

وفي هـذا الحديث دلالة على شجاعة وقوة عزيمة أم المؤمنين عائشة وأم سُليم رضي الله تعالى عنهما. وأنه من شدة عملهما وانشغالهما تظهر خلاخيلهن، وهما ينقلان القِـرَب مسـرعات لسـقاية الجيش. وأما تلك الرؤية من الصحابي، فهي تكون من الإنسان عن غير قصد.

قـال ثعلـبة بن أبي مالك (إن عمر بن الخطاب ﷺ قَسَّم مُروطاً بين نساء من نساء أهـل المدينة، فبقي منها مِرْطٌ جيد، فقال له بعض مَنْ عنده: يا أمير المؤمنين، أعط هذا بنت رسول الله ﷺ التي عندك ـ يريدون أمَّ كلثوم بنت علي ـ فقال عمر: أم سُلَيْطٍ أَحق به. وأم سليط من نساء الأنصار، ممن بايع النبي ﷺ قال عمر: فإنها كانت تُزْفِرُ لنا القِرَب يوم أحد)[2]

يـبين هذا الحديث عناية واهتمام عمر بن الخطاب ﷺ بأحوال النساء، وكذا عدله ﷺ ، وكذلك توضح هذه الواقعة كثرة الخير الذي ساد المدينة في عهده ﷺ حتى أنه قسم مروطاً ـ أي: كساء تتلفع المرأة به ـ على جميع نساء المدينة. وقد خص بالمرط الزائد أم سُـليط لأنها كانت تحمل القرب في غزوة أحد. ليعطي بهذا نموذجاً إدارياً وتربوياً في قضية التعامل والحـرص على تحري العدل، ثم الاجتهاد في إكرام ذوي الخصائص، كما أنه ﷺ بين العلة للناس فـيما خص به أم سُليط، حتى لا يكون في صدر أحد منهم حرج. كما يبين هذا الحديث المشاركة النسوية في معركة أحد، والدور الذي قمن به في جيش المسلمين.

---

[1] البخاري(٣/١٠٦) برقم(٤٠٦٤)

[2] البخاري (٣/١٠٨) برقم(٤٠٧١)

السرايا والغزوات في أعقاب أُحُد:

تتابعـــت السرايا والغزوات النبوية بعد معركة أحد، حيث ظهر للأعداء منها أن المسلمين يمتلكون القوة التي يدفعون بها شر من أرادهم بشر، ،وأن ما حصل لهم في غزوة أحد لم يثن عزيمتهم :

ـ غزوة حمراء الأسد:

لمـــا كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رســـول الله ﷺ في الـــناس، بطلب العدو: أن لا يخرجن معنا أحدٌ إلا أحدٌ حضر يومنا بالأمس.[1]

فخـــرج معه ﷺ أصحابه، دون توان أو تراخ، وهم الذين خرجوا من غزوة أُحُد، على ما أصابهم من الجراح والمشقة، ولكنها الطاعة لله ولرسوله ﷺ

فهـــذا رسول الله ﷺ يعود من معركة أُحُد بروح قوية، بعيدة عن الانهزامية، يتعقـــب قريشاً، ليريهم أن المسلمين لا زالوا بخير وقوة، يدرؤون عن المدينة أعداءها. وفي هذه القوة والجلادة والعزيمة والحكمة؛ ما يُقَدِّمُ للمسلمين درساً في أهمية استشعار القوة والجلادة، وعدم الركون إلى الضعف والخور.

قـــال ابن إسحاق: وإنما خرج رسول الله ﷺ مُرْهِباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم، ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يُوهِنْهم عن عدوهـم.[2]

إضـــافة إلى أنـــه ﷺ حدد صفة الذين يحق لهم الخروج في هذه الغزوة، وهم أولـــئك الذين شاركوا في غزوة أحد، فأثر الغزوة لا زال في أذهانهم، والرَّغبة والشدة منهم أقوى على عدوهم الذي قاتلهم.

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (١٠٧/٣)

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (١٠٧/٣)

وقـــد أمـــر رســـول الله ﷺ معبد بن أبي معبد الخزاعي، أن يلحق بأبي سفيان بالـــروحاء فيخذلـــه، ولم يعلم بإسلامه، فوجد أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكرة عـــلى المســـلمين يريدون استئصالهم، فأخبره معبد بخروج المسلمين إلى حمراء الأسد، ونصحهم بالرحيل إلى مكة.[1]

فرجع المشركون عن عزمهم لما علموا من أمر المسلمين، فدفع الله تعالى عنهم كيد الكائدين.

وهكذا استخدم رسول الله ﷺ الحكمة في دفع العدو، وبالتالي يرسم ﷺ لأمته أهمية أخذ الأمور بحكمة، ودفع الشر بحكمة، وأن لا يطلب المرء الأمور بالهوى وعدم التعقل والتبصر. فكيف وبعض الناس من المسلمين في أصقاع الدنيا يعالجون كثيراً من الأمور وهم في معزل عن تدبر منهجه وسيرته ﷺ فلا يرون إلا الهدف والوسيلة، دون نظـــرٍ إلى أنواع الوسائل، وأسس اختيار الوسيلة، وترجيحها على غيرها من الوسائل، وإلى كيفـــية اســـتخدام الوسيلة، ومتى تكون ؟ وعلى أي وجه تكون ؟ وأي الوسائل تُقدم ؟ وأيها يُؤخر ؟ ومتى تُقدم ؟ ومتى تؤخر ؟

لذلـــك فإن من الأهمية بمكان أن يتدبر المسلم سيرة المصطفى ﷺ بعين ثاقبة، وعقل حصيف، وبهدف الإفادة منها في التطبيق، وليس للمعرفة دون تطبيق.

ــ سرية أبي سلمة :

بلغ رسول الله ﷺ أن بني أسد بقيادة طُليحة وسلمة ابني خويلد قد ساروا في قومهمـــا ومن أطاعهما، لحرب رسول الله ﷺ فعقد رسول الله ﷺ لواء لأبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وبعث معه مائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار إلى قَطَن، وهو جبل بناحية فَيد، به ماء لبني أسد بن خزيمة. فخرج وأغذ السير، ونكّب عن سنن

[1] المرجع السابق (٣/١٠٨ــ١٠٩)

الطـــريق وسبق الأخبار، فأغار على سرح لهم، فتفرقوا، وأصاب المسلمون إبلاً وشاء، ولم يلقوا أحداً. فانحدر أبو سلمة بذلك إلى المدينة.[1]

ويتبين من هذه الواقعة، تجرؤ بعض القبائل إثر معركة أُحُد، مما دفعها أن تفكر وتتهـــيأ لغـــزو المدينة، ولكن رسول الله ﷺ ما أن علم بخبر بني أسد حتى هيأ لهم من أصـــحابه من يغزوهم ويصدهم. وهذا يبين فطنة الرسول ﷺ وحكمته في صد عدوان المعـــتدين، بمباغتتهم قبل مجيئهم إلى المدينة، ثم تظهر فطنة أبي سلمة في مسابقته الخبر، ومخالفة سنن الطريق المعتادة، حتى لا يكشف أمرَه أحد، فيغنمهم الله تعالى ما شاء من الإبل والشاة، ويعودون دون قتال.

ـ سرية عبد الله بن أُنيس :

عـــن عبد الله بن أنيس ؓ قال دعاني رسول الله ﷺ فقال (إنه قد بلغني أن خـــالد بـــن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني، وهو بعرنة، فأته، فاقتله، ....فلما انتهيـــت إليه قال: من الرجل ؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجـــاءك لهذا، قال: أجل، أنا في ذلك، قال: فمشيت معه شيئاً حتى إذا أمكنني حملت عليه السيف، حتى قتلته)[2]

ويتبين من هذه الواقعة أن رسول الله ﷺ لم يستخدم السيف مع الرجل إلا بعد أن عـــرف بأنـــه يجمع الناس لمقاتلته ﷺ فأجهز عبد الله بن أنيس الجهني على خالد بن سفيان الهذلي، الذي اعترف بأنه يجمع الناس لهذا الأمر.

ومـــن فوائـــد هـــذه السرية بيان ما يجب أن يكون عليه القائد من اليقظة، والدرايـــة بمـــا يجري حوله من مؤامرات الأعداء، حتى يقضي عليها بحكمة وبصيرة. واختيار الأكفأ لكل مهمة.

---

[1] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/ ٥٠)

[2] أحمد، المسند (٣/ ٤٩٦)

ـ سرية الرَّجِيع :

قـــدم على رسول الله ﷺ بعد أُحُد رهطٌ من عَضَل والقارَة، وهم من الهون بن خزيمة بن مُدْركة، فقالوا: يا رسول الله ! إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يُفقّهونـــنا في الدين، ويُقرئوننا القرآن، ويُعلموننا شرائع الإسلام. فبعث رسول الله ﷺ معهم نفراً ستة، وأمَّر عليهم مرثد بن أبي مرثد. حتى إذا كانوا على الرجيع، وهو ماء لهذيل غدروا بهم.[١]

وفي البخاري أن الذين بعثهم رسول الله ﷺ عشرة، وعلّق ابن حجر على ذلك بقوله : فلعل الثلاثة الآخرين كانوا أتباعاً لهم، فلم يحصل الاعتناء بتسميتهم....(وأمر عليهم عاصم بن ثابت) وما في الصحيح أصح.[٢]

وســـبب خروج بني لحيان عليهم قتل سفيان بن نبيح الهذلي على يد عبد الله بن أنيس.[٣] ولحيان هو ابن هذيل نفسه، وهذيل هو ابن مدركة بن الياس بن مضر.[٤]

وعـــن أبي هريرة ﷺ قال:(بعث رسول الله ﷺ عشرةً عَيناً وأَمَّرَ عليهم عاصمَ بن ثابت الأنصاري جدَّ عاصمِ بِن عمرَ بن الخطاب، حتى إذا كانوا بالهدة بين عُسفان ومكـــة ذُكروا لـــحَي من هذيل يقال لهم بنوا لحيان، فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رامٍ، فاقتصـــوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم التمر في منـــزل نزلوه، فقالوا تمر يثرب، فاتـــبعوا آثـــارهم. فلما حسَّ بهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى موضع فأحاط بهم القوم، فقـــالوا: إنـــزلوا فأعطوا بأيديكم، ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحداً. فقال عاصـــم بـــن ثابت: أُيها القوم، أمَّا أنا فلا أنزل في ذمة كافر. ثم قال: اللهم أخبر عنا نبـــيك ﷺ فـــرموهم بالنبل فقتلوا عاصماً، ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق،

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١٧٨/٣ــ١٧٩)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٣٨٠/٧)

(٣) المرجع السابق (٣٨٠/٧)

(٤) المرجع السابق (٣٨١/٧)

منهم خُبَيبٌ وزيد بن الدَّثِنَة ورجل آخر. فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيِّهم فربطوهم بها. قال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، والله لا أصحبكم، إن لي بهؤلاء أسوة ــ يريد القتل ــ فجرَّروهُ وعالجوه، فأبى أن يصحبهم. فانطُلِقَ بخبيب وزيد بن الدثنة حتى باعوهما بعد وقعة بدر، فابتاع بنوا الحارث بن عامر بن نوفل خبيباً ــ وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر ــ فلبث خبيب عندهم أسيراً حتى أجمعوا قتله، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستحد بها، فأعارته، فدرج بُنَيٌّ لها وهي غافلة حتى أتاه، فوجدته مُجلِسهُ في فخِذِهِ والموسى بيده. قالت: ففزعت فزعة عرفها خبيب. فقال: أتخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك. قالت: والله ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب، والله لقد وجدته يوماً يأكل قِطْفاً من عنب في يده، وإنه لَمُوثَقٌ بالحديد، وما بمكة من ثمرٍ. وكانت تقول إنه لرزق رزقه الله خبيباً. فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحِلّ قال لهم خبيب: دعوني أصلي ركعتين، فتركوه فركع ركعتين، فقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جَزَعٌ لَزدْت. ثم قال: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً، ولا تبق منهم أحداً ثم أنشأ يقول:

فلستُ أبالي حينَ أُقَتلُ مسلماً ... على أيِّ جَنبٍ لله مَصرعَى
وذلك في ذاتِ الإلهِ وإن يَشأ ... يُبارِكْ على أوصالِ شِلوٍ ممزَّعِ

ثم قام إليه أبو سِرْوعَة عُقبةُ بن الحارث فقتله. وكان خبيبٌ هو سَنَّ لكل مسلمٍ قُتِلَ صبراً الصلاةَ. وأخبرَ ــ يعني النبيَّ ﷺ ــ أصحابهُ يومَ أصيبوا خبرَهم. وبَعثَ ناسٌ من قريشٍ إلى عاصم بن ثابت حين حُدِّثوا أنه قُتل أن يؤتَوا بشيءٍ منه يُعرف ــ وكانَ قَتلَ رجلا عظيماً من عظمائهم ــ فَبعثَ الله لعاصم مثلَ الظُّلةِ منَ الدَّبْر فحمَتْهُ من رُسُلهم، فلم يَقدروا أن يَقطعوا منه شيئاً)[1].

وسواء خرجوا عيناً أو لتعليم عضل والقارة، فالقضية مرتبطة بالتعامل والخديعة أثناء مواجهة الصحابة.

---

[1] البخاري(٣/٨٩) برقم(٣٩٨٩)

ففي الواقعة ما يدل على الاهتمام بأنواع نوى التمور ومصادرها، وأنه من تمر يـــثرب، حتى أنهم عرفوا من خلالها أثر الصحابة، وفي هذا إمعان العقل في القرائن بما يُسْتَدَلُ به على النتائج.

فلقد استخدم أولئك القوم الغدر والخديعة، بالرغم من إعطاء العهد والميثاق.

وفي الحديث ثقة عاصم بربه عزَّ وجلَّ أنه سيُبلغ رسوله ﷺ بأمرهم، "فاستجاب الله لعاصم، فأخبر رسوله ﷺ خبره، فأخبر أصحابه بذلك يوم أُصيبوا"[1] وفي هذا دلالة عـــلى أهمية الثقة بالله تعالى، وأن من سلك ما يحبه الله تعالى ويرضاه وَفَّقَهُ في دعائه، مما يؤكد أهمية غرس هذه الجوانب العقدية الإيمانية في القلوب، حتى تزكوا بها النفوس وتتقوى.

وتُظْهِر الواقعة أمانة خبيب بن عدي ﷺ فلم يغدر بطفلهم، أو يتخذه رهينة، ومعه الموس التي يمكن أن يفعل بها ما يريد. وهذا من وفائه ﷺ حيث قال: (ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة إلَيَّ ! ثم خلّى سبيله.)[2]

بـــل ومن كرم الله تعالى له أن يأكل العنب وما بمكة من ثمر، فذلك فضل الله يؤتـــيه من يشاء، وفيه إثبات الكرامة. كما أن في خبره ﷺ محبته للصلاة، فلم يأخذه فـــزع المصيبة المقبل عليها وهولها على قلبه عن صلاة يصليها لله تعالى، بل من حبه لها أن قال: : (والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جَزَعٌ لَزدْت.)

فكيف والمسلم في فسحة من أمره وهو يتهاون في الصلاة المكتوبة، فضلاً عن محبة وأداء نوافل الصلوات.

ثم لم يكـــن ســـلاحه في ذلك الموقف إلا الدعاء، فدعا عليهم، "فلبد رجل في الأرض خوفـــاً مـــن دعائه...فلم يحل عليهم الحول ومنهم أحدٌ حي غير ذلك الرجل الذي لبد بالأرض"[3]

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٣٨١/٧)

(2) ابن هشام، السيرة النبوية(١٨٢/٣)

(3) ابن حجر، فتح الباري (٣٨٣/٧)

ثم نسج مشاعره ﷺ في قصيدة رائعة المعاني، إذ تحمل في طياتها الصبر وعدم الجزع، ومحبة الإسلام والذود عنه، وعدم الرضا بما هو دونه، فقدم رضي الله تعالى عنه أنموذجا رائعاً في أمانته وصلاته وصبره وقوة إيمانه.

وعن ابن حجر: وفيه الوفاء للمشركين بالعهد، والتورع عن قتل أولادهم، والتلطف بمن أريد قتله، وإثبات كرامة الأولياء، والدعاء على المشركين بالتعميم، والصلاة عند القتل، وفيه إنشاء الشعر، وإنشاده عند القتل، ودلالة على قوة يقين خبيب، وشدته في دينه، وفيه أن الله تعالى يبتلي عبده المسلم بما شاء، كما سبق في علمه ليثيبه.[1]

وأما زيد بن الدّثنّة فإنهم عندما همو بقتله، قال له أبو سفيان بن أمية: أَنْشُدُك الله يا زيد، أتُحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه، وأنت في أهلك ؟ قال: والله ما أُحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه؛ تُصيبه شوكة تُؤذيه وأنا جالس في أهلي.[2] فأعلن زيد خالص محبته لرسوله ﷺ وهو أمام السيف والنطع، فيؤكد للكافرين ويبين لهم مكانة رسول الله ﷺ في قلبه، ويقدم للمؤمنين درساً ومنهجية فيما يجب أن تكون عليه محبة رسول الله ﷺ وبالتالي يعطي صورة لمن قد تربى التربية الإيمانية الصحيحة بمنهجية المصطفى ﷺ

ولما قُتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه، ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شُهيد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أُحُد: لئن قَدَرت على رأس عاصم لتشربَنّ في قِحْفه الخمر، فمنعه الدَّبر (الزنابير والنحل) فلما حالت بينه وبينهم الدبرّ. وقد كان عاصمٌ قد أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركاً أبداً.[3] قال ابن حجر: وفيه استجابة دعاء المسلم، وإكرامه حياً وميتاً.... وإنما استجاب الله له في

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٣٨٤/٧ــ٣٨٥)

(2) ابن هشام، السيرة النبوية (١٨١/٣)

(3) ابن هشام (١٨٠/٣) وابن حجر، فتح الباري (٣٨٤/٧)

حماية لحمه من المشركين ولم يمنعهم من قتله لما أراد من إكرامه بالشهادة، ومن كرامته حمايته من هتك حُرْمَتهِ بقطع لحمه. وفيه ما كان عليه مشركوا قريش من تعظيم الحرم والأشهر الحرم.(١)

سرية بئر معونة :

عــن أنــس ﷺ قال: (جاء ناس إلى النبي ﷺ فقالوا: أن ابعث مَعَنَا رجالاً يعلمونا القرآن والسنة، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار، يقال لهم : القراء، فيهم خـــالي حَرَام، يقرؤن القرآن، ويتدارسون بالليل يتعلمون. وكانوا بالنهار يجيئون بالماء، فيضـــعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء، فبعثهم النبي ﷺ إليهم. فعرضوا لهم فقتلوهم، قبل أن يبلغوا المكان، فقالوا: اللهم ! بلغ عـــنا نبيـــنا؛ أنا قد لقيناك فرضينا عنك، ورضيت عنا. قال: وأتى رجُلٌ حراماً، خال أنس، من خلفه فطعنه برمح حتى أنفذه. فقال حرام: فُزْتُ ورب الكعبة ! فقال رسول الله ﷺ لأصـــحابه: إن إخوانكـــم قد قُتِلُوا. وإنهم قالوا: اللهم ! بلغ عنا نبينا، أنا قد لقيناك، فرضينا عنك، ورضيت عنا)(٢)

ويتبين من هذه الرواية، عناية الرسول ﷺ واهتمامه بتعليم الناس أمور دينهم، وأنـــه يتعامل مع الناس على ظاهرهم ما لم يتبين خلاف ذلك، وهو الخُلُق النبيل الذي كان يتصف به ﷺ وهو ما يجب أن يتحلى به الإنسان المسلم مع من يتعامل معهم، ولا ســـيما في مـــيدان العمل والمهنة والأصدقاء، ومع سائر المسلمين. لما في ذلك من طرد للأوهام التي قد تكون حواجز وهمية بين الناس.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٣٨٥/٧)

(٢) مســلم (١٥١١/٣) برقم (٦٧٧) وعند البخاري أن رِعلاً وذكوان وعُصَيَّةَ وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو، فأمدهم بسبعين من الأنصار.... البخاري (١١٢/٣ــ١١٣) برقم (٤٠٩٠)

وفيه فضل الأنصار، وشدة اهتمامهم بالقرآن الكريم، حتى أن هؤلاء السبعين يُسَــمّون بالقــراء، ولقد كان من صفات أولئك الرجال الأفذاذ أنهم جمعوا عدداً من الصفات التي حازوا بها على الخير والفضل:

ـــ يقرؤن القرآن.

ـــ ويتدارسون بالليل يتعلمون.

ـــ وكانوا بالنهار يجيئون بالماء، فيضعونه في المسجد.

ـــ ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء.

إن هــؤلا يقدمون أنموذجاً تربوياً واجتماعياً ونفسياً غاية في الروعة. وجدير بأن تحتضنه المناهج الدراسية للمسلمين، لما فيه من الإيثار، والصفاء والعطاء، وسلامة النفس، فيقدمون مثلاً رائعاً في طلب العلم، من اهتمام بالقرآن الكريم، وتدارس بالليل للعــلم، وتطبيق عملي بالنهار، يتواصلون به مع المجتمع المدني، فيأتون بالماء للمسجد النبوي، ليشرب الناس ويتوضؤن، ثم يكدحون ويعملون باحتطاب الحطب، ويذهبون بـــه إلى الســـوق ليبيعوه، فيغنون بذلك أنفسهم، ويُطْعِمُون به أهل الصفة والفقراء. وبالتالي فإن هذا العمل لا يمكن أن يأتي من نفس تحمل خبثاً أو حقداً وحسداً، أو تحمل اعــتلالاً نفسياً، أو عقداً اجتماعية، فلذلك يمثل هذا الحدث انموذجاً تربوياً يحسن أن يستفاد منه عملياً.

ثم تـــأتي الفاجعـــة بقتلهم جميعاً في الطريق، قبل أن يبلغوا المكان، فيدعون الله تعالى أن يبلغ أمرهم رسول الله ﷺ قائلين: (اللهم ! بلغ عنا نبينا؛ أنا قد لقيناك فرضينا عنك، ورضيت عنا.) فيبلغ هذا الدعاء وهذا الحدث في حينه لرسول الله ﷺ فَيُخْبِر به أصـــحابه. فلقـــد استجاب الله تعالى دعاءهم، الأمر الذي ينبغي إدراكه في استجابة الدعاء، وهو الصلاح: الصلاح النفسي من الحقد والحسد والبغضاء للمسلمين؛ وغير ذلـــك مـــن مساوئ الأخلاق، وكذا الصلاح السلوكي الذي ينعكس على تصرفات

الإنســـان مع المجتمع، وقبل كل ذلك صلاح الإنسان مع ربه عزَّ وجلَّ، حيث كانوا يهتمون بالقرآن وتَعَلُّمه ومدارسة العلم.

ثم يـــبين خال أنس رضي الله تعالى عنهما: فوزه بالشهادة في سبيل الله تعالى، حينما أحس بطعنة الرمح، قائلاً: (فُزْتُ ورب الكعبة !) مما يدلل على قوة إيمانه بعقبى ذلـــك الغدر؛ وهو ذاهب في سبيل الله تعالى، وهكذا يكون المؤمن مُحْسِناً لعقيدته في ربه تبارك وتعالى

ومن فوائد هذه الواقعة المؤلمة أن الابتلاء قد يصيب المسلم الصالح أو المسلمين الصالحين بفواجع مؤثرة ومؤلمة، فهاهم سبعون من القراء يُقتلون في يوم واحد، وقبلهم عشـــرة في سرية الرجيع، وبالتالي يدرك المؤمن أن ما يصيبه أو يصيب الأمة من بلاء وابـــتلاء لا يعني النهاية ولا التخاذل، بل يعلم أن خير البشرية قد أصيب في أصحابه المـــيامين، وقـــد أصيب في معركة أُحُد ﷺ بل يجب أن يسلي المؤمن نفسه بما أصاب رسول الله ﷺ وأصحابه الميامين رضي الله تعالى عنهم.

وفـــيه من الفوائد كذلك معجزة للنبي ﷺ إذ أخبر أصحابه الخبر حين وقوعه، بما أخبره الله تعالى به من خبر السبعين.

غزوة بني النضير:

وأمـــا وقعـــة بني النضير فقد، قال الزُّهري عن عروة: كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر؛ قبل وقعة أُحُد. وجعله ابن أسحاق بعدَ بئر معونة وأُحد.[1]

وسبب إجلائهم تكرار الغدر منهم برسول الله ﷺ فقد خططوا للغدر برسول الله ﷺ حـــين خرج إليهم يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر اللذين قَتَل عمرو بن أمـــية الضّمري للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما، وكان بين بني النضير وبين بـــني عامـــر عقد وحلف، فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذَيْنك القتيلين،

---

[1] البخاري (٩٧/٣) باب رقم (١٤) حديث بني النضير

قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نُعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ــ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوقم قاعد ــ فمَن رجل يعلوا على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جِحاش بن كعب، فقال : أنا لذلك، فصعد ليُلقي عليه صخرة. فأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة. فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه، قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مُقْبِلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ﷺ فأخبرهم الخبر، بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم.[1]

وهذا النص يبين حفظ رسول الله ﷺ للمواثيق، فهو يجمع دية الرجلين من بني عامر، "وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ (لقد قتلت رجلين لأَدِيَنّهُمَا)"[2]

كما يبين هذا الحدث المكر والخديعة والغدر من اليهود مع وجود الوثيقة معهم، بل إنهم أشعروه ﷺ بمساندقم وتجاوبهم في دفع الدية، ثم يختلون ببعضهم ليمكروا به عليه الصلاة والسلام، ولكن الله تعالى الحكيم العزيز، عالم الغيب والشهادة، يوحي إلى نبيه ورسوله بمكرهم وخديعتهم. وهذا يدلل على أن اليهود يسعون في الأرض فساداً بأساليبهم الماكرة، وأن الأمان منهم عزيز الجانب، بل من المستحيلات.

ومن غدرهم تجاوبهم مع كفار قريش، ذلك (أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أُبي ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نُقسم بالله لتقاتلنه أو لتُخرجنه أو لنسيرن إليكم

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/١٩٩ــ٢٠٠)

[2] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٣٥٤)

بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم، فلما بلغ ذلك عبدالله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال النبي ﷺ فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال: لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم. فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحَلْقَة والحصون، وإنكم لتقاتلُنَّ صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خَدَمِ نسائكم شيء ـ وهي الخلاخيل ـ فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ أجمعت بنو النضير بالغدر. فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، وليخرج منا ثلاثون حَبْراً، حتى نلتقي بمكان الْمَنْصَف، فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك؛ آمنا بك، (فقص خبرهم)، فلما كان الغد، غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم، فقال لهم: إنكم والله لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه. فأبوا أن يُعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا الغد على بني قريظة بالكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا على بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، فجلت بنو النضير؛ واحتملوا ما أقلّت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، فكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة، أعطاه الله إياها وخصَّه بها، فقال (وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) يقول: بغير قتال، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين، وقَسَمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار، وكانا ذوي حاجة، لم يقسم لأحد من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة لرسول الله ﷺ التي في أيدي بني فاطمة رضي الله عنها)[1]

وتبين مجريات هذا الحديث أن كفار قريش يعملون من جهتهم ويسعون للإطاحة برسول الله ﷺ وأن أذاهم يتابع المسلمين حتى في المدينة، وهم في منأى عنهم،

---

[1] ابو داود (٣/٤٠٤ـ٤٠٧) برقم (٣٠٠٤)

ولكنهم يدركون أن قوة الرسالة وتجاوب من كتب الله لهم الهداية يقوي شوكة الإسلام التي ستنعكس عليهم وبالا. مما يبين أن أهل الكفر يخشون من تمدد الإسلام وانتشاره، لأنه يقضي على كل معبود من دون الله تعالى، وبالتالي يتحتم الحذر من الكفر والكافرين.

كما توضح مجريات هذا الحدث الخيانة التي قد تمركزت في اليهود، وأصبحت سمة من سماتهم.

ومن فوائد الرواية: استخدام الحكمة في دفع الشر، فعندما علم رسول الله ﷺ بتجاوب ابن أبي ومن معه من عُبَّادِ الأوثان مع كفار قريش وعزْمِهِمْ على مقاتلته ﷺ استخدم معهم الحكمة في معالجة الموقف، فقال لهم: (لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم. فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا)

فيرسم رسول الله ﷺ ويبين بهذا العمل الأهمية الكبرى للحكمة في معالجة الأمور، وفي قضية من أكبر القضايا الإسلامية، التي هي مقاتلة المسلمين والمكر بهم، الأمر الذي يبين أهمية العناية بالمسلك النبوي في معالجة القضايا.

ثم يتكرر الغدر من يهود بني النضير بحيلة ومكر وخديعة كما بينته الرواية، فأجلاهم رسول الله ﷺ بعد أن تكرر الغدر منهم، وتبين أن وجودهم شر محض، وكفر وعداوة لله ولرسوله ﷺ

ومن وفائه ﷺ أنه لما أجلى بني النضير أقرَّ قريظة حتى حاربت، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال (حاربت[1] قريظة والنضير، فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومَنَّ عليهم حتى حاربت قريظة، فقتل رجالهم، وقسَّم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فآمنهم وأسلموا. وأجلى يهود المدينة كلهم: بني قينقاع وهم رهط عبدالله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهود المدينة)[2]

---

(1) حاربت: أي نصبت العداء.

(2) البخاري (٣/٩٧) برقم (٤٠٢٨)

ثم يـــأتي كرم رسول الله ﷺ بعد أن أفاء الله تعالى عليه بالفيء فيعطي أكثرها لـــلمهاجرين وقَسَـــمها بيـــنهم، فهم الذين أُخرجوا من مكة وتركوا أموالهم يرجون رضوان الله وفضله، فلم ينس لهم رسول الله ﷺ تلك الهجرة المباركة، فيعلمنا الوفاء، وعـــدم الاكـــتراث بالدنـــيا وزينتها، فما عند الله خير وأبقى، كما أنه عليه الصلاة والســـلام يقســـم لرجلين من الأنصار، وكانا ذوي حاجة، فكانت نظرته ﷺ واسعة تشمل أصحابه جميعاً فيعطي المستحق والمحتاج، ويواسي الفقير بما يجد، ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر ﷺ

ويعطيـــنا القرآن العظيم عن إجلاء يهود بني النضير ما لاتستطيع العقول أن تدركـــه بتأملها ودراستها، ليتأكد محدودية العقل البشري، فقد أنزل الله تعالى سورة الحشـــر في بني النضير، فعن سعيدبن جبير قال (قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: قل: سورة بني النضير)[1]

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ ﴾[2]

فبينت آيات مطلع السورة أن الله تعالى هو الذي أخرجهم من ديارهم بقدرته وتدبـــيره وحكمته سبحانه وتعالى لأول الحشر. فذهب بعضهم إلى أذرعات من أعالي

---

[1] البخاري (٩٧/٣) برقم (٤٠٢٩)

[2] سورة الحشر: آيات رقم (١ ــ ٤)

الشام، وهي أرض المحشر والمنشر، وعن ابن عباس قال: من شك أن أرض المحشر ههنا؛ يعني الشام فليقرأ هذه الآية (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) [1]

وإن إجلاءهم ما كان متوقعاً عند المؤمنين في مدة حصارهم وقصرها، وقد كانت ستة أيام مع شدة حصوهم ومنعتها.[2] وظن بنو النضير أن في حصوهم من المنعة والقوة ما يمنع المسلمين من دخولها واقتحامها، وبالتالي كانت المعادلة الظنية من الفريقين أن الأمر في غاية الصعوبة، ولكن جنود الله تعالى لا يحصيها أحد من خلقه، وسُبل نصره لا يحيط بها أحد من عباده، فهو المتفرد في كونه سبحانه وتعالى، يُقدِّر ما يشاء، ويصنع ما يشاء كيف شاء، فقذف في قلوب اليهود الرعب والخوف والهلع الذي زعزع قلوبهم وأفئدتهم، فتضاءلت القوة المادية؛ واضمحلت في عيونهم وتصاغرت، وأصبحوا يرونها لا تغني عنهم شيئاً، فأصبحت الشجاعة جبناً، والقوة ضعفاً، والمنعة مسلكاً ليناً هيناً مكشوفاً، وأضحى الفكر باهتاً عاجزاً، والحيلة غير مجدية، فخارت كل القوى، فصالحوا رسول الله ﷺ على أن لهم ما حملت الإبل، فأخذوا يخربون بيوتهم التي بنوها بأيديهم، ويُنقضون سقوفها وأبوابها، ليحملوا ما يستطيعون حمله. فذلك جزاء الظالمين، لتكون عبرة لأولى الأبصار الذين أمرهم الله تعالى بأخذ العبرة من هذا الأمر العظيم ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾

. فالعبرة من هذا الأمر العظيم للكافر في مآل الكفر والكافرين، ونصرة الله تعالى لدينه العظيم، وللمسلمين بأن لا يركنوا للأسباب المادية فقط،وأن لا تكون حساباتهم وتقديراتهم تتمحور في محيطها، فإن اتقوا وأخلصوا فدروب النصر عند الله أكثر من أن يدركها البشر، أو يُحيط بها أحد من العالمين.

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم(٣٥٣/٤،٣٥٥)

[2] المرجع السابق (٣٥٢/٤)

ولقد بين الله سبحانه وتعالى خلجات الأنفس في هذا الحدث؛ وما كنا لنعرفها لولا أن مَنَّ الله تعالى علينا ببيانها لنستفيد ونأخذ منها الدروس والعبر، فسبحانك اللهم تعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور.

وهـــذه الأحداث اليهودية تؤكد عملياً أن الكفار لا أمان لهم، وأن موالاتهم فساد على المسلمين، إذ يسري شرهم ومكرهم وكيدهم بين المسلمين وهم لا يشعرون بـــه . والمـــوالاة غـــير المعاملة في حدود الضوابط الشرعية. ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾[1]

غزوة بدر الموعد:

وعن ابن سعد[2] أنها كانت لهلال ذي القعدة، على رأس خمس وأربعين شهراً من مهاجره ﷺ

لَمَّا أراد أبو سفيان بن حرب أن ينصرف يوم أحد، نادى: الموعد بيننا وبينكم بـــدر الصفراء، رأس الحول، نلتقي بها، فنقتتل. فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: قل: نعم إن شاء الله، فافترق الناس على ذلك.[3]

وهـــذا يـــبين ما عزمت عليه قريش بعد نهاية غزوة أحد، وكذا يبين شجاعة رســـول الله ﷺ بقـــبول الموعـــد، وربطه اللقاء بمشيئة الله تعالى، الأمر الذي يربي في الإنسان المسلم ربط إرادته بمشيئة الله تعالى، فما شاء الله كان؛ وما لم يشأ لم يكن.

---

(1) سورة آل عمران: آية رقم (٢٨)

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٥٩ــ٦٠) وقد تم تلخيصه

(3) المرجع السابق (٢/٥٩)

ثم رجعت قريش فَخَبَّرُوا من قبَلَهم بالموعد؛ وتهيئوا للخروج. فلما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج، وقَدِم نُعيم بن مسعود الأشجعي مكة، فقال له أبو سفيان: إني قد واعدت محمداً، وأصحابه أن نلتقي ببدر، وقد جاء ذلك الوقت، هذا عام جدب، وإنما يُصلحنا عام خصب غيداق،وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج فيجترئ علينا، فنجعل لك عشرين فريضة يضمنها لك سهيل بن عمرو، على أن تقدم المدينة، فَتُخَذِّل أصحاب محمد، قال: نعم، ففعلوا وحملوه على بعير، فأسرع السير، فقدم المدينة، فأخبرهم بجمع أبي سفيان لهم، وما معه من العدة والسلاح.[١]

وهكذا عزمت قريش على إنفاذ وعدها، ولكن العوامل المناخية، جعلتهم يتراجعون عن مرادهم، وهنا تأتي عوامل التعلق بالأسباب فقط عند غير المسلمين، وهذا ما لا يكون عند المسلمين، حيث يربطون بين الأسباب ورب الأسباب، ولذلك خرج رسول الله ﷺ وأصحابه، إنفاذاً للموعد، وإظهاراً لقوة المسلمين التي هي إظهار لقوة الإسلام، غير مكترثين بالمناخ والجدب في ذلك الوقت.

ثم إن قريشاً أرسلت نُعيم ليخذل عنهم المسلمين، بتخويفهم من عتادهم وعددهم حتى لا يخرج المسلمون، فيعلم العرب بذلك، فيكون المسلمون هم السبب في عدم الالتقاء. ولكن رسول الله ﷺ قال: (والذي نفسي بيده لأخرجن وإن لم يخرج معي أحدٌ!) فنصر الله المسلمين وأذهب عنهم الرعب. فاستخلف رسول الله ﷺ على المدينة عبد الله بن رواحة، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، وسار في المسلمين. وهم ألف وخمسمائة، وكانت الخيل عشرة أفراس، وخرجوا ببضائع لهم وتجارات.[٢]

ثم ها هو رسول الله ﷺ يقسم بربه في الخروج إليهم ولو كان منفرداً، بثقة في الله تعالى، وعدم تَعَلُّقٍ بغير الله جلَّ جلاله، فنصر الله المسلمين بقوة الإيمان والشجاعة والإقدام، فخرجوا مع رسولهم ﷺ مما يبين أهمية أن يتمثل القائد بالشجاعة والإقدام،

---

[١] المرجع السابق (٢/٥٩)

[٢] المرجع السابق (٢/٥٩)

والتعلق بالله تعالى، فإن ذلك خير معين له على التفاف جنده معه، وهذا ينسحب على قرارات الإنسان في إدارته ومهنته وأسرته ومجتمعه.

ثم يكون استخلاف ابن رواحة على المدينة، وقد سبق بيان أهمية الاستخلاف وفوائده في معركة بدر الكبرى.

ثم ها هم المسلمون يغنمون هذا السفر بأن كف الله عنهم عدوهم، وحقق لهم مكاسب تجارية عظيمة، الدرهم بدرهم، فقد كانت بدر الصفراء مجتمعاً يجتمع فيه العرب، وسوقاً تقوم لهلال ذي القعدة، إلى ثمان تخلوا منه، ثم يفترق الناس إلى بلادهم، فانتهوا إلى بدر ليلة هلال ذي القعدة وقامت السوق صبيحة الهلال، فأقاموا بها ثمانية أيام، وباعوا ما خرجوا به من التجارات، فربحوا للدرهم درهماً وانصرفوا، وقد سمع الناس بسيرهم، وخرج أبو سفيان بن حرب من مكة في قريش وهم ألفان، ومعهم خمسون فرساً حتى انتهوا إلى مجنة، وهي مر الظهران، ثم قال: ارجعوا فإنه لا يُصلحنا إلا عام خصب غيداق نرعى فيه الشجر، ونشرب فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب فإني راجع فارجعوا.[1]

ولا شك أن مكاسب المسلمين في هذه الغزوة عظيمة، حيث خذل الله عدوهم برجوعه، وربحوا تجارة مادية عظيمة، ،وأطاعوا رسولهم ﷺ وَوَفّوا بوعدهم، وتدربوا على الصبر والجلادة، وانتشر خبرهم بين القبائل، خاصة وأن السوق قد انعقدت، وبالتالي قد عَلِمَ خَلْقٌ كثير بأمر رسول الله ﷺ وأصحابَه، مما يقوي شوكة المسلمين ويرفع من مهابتهم بين القبائل.

---

[1] المرجع السابق (٣/٦٠)

غزوة ذات الرقاع:

غزوة ذات الرقاع، وهي غزوة محارب خَصَفَةَ من بني ثعلبة من غطفان.[1]

وقد اختُلِفَ في تاريخها، وسبب تسميتها، وخصفة هو ابن قيس بن عيلان بن الياس بن مضر، ومحارب هو ابن خصفة، وهم بطن من قريش.[2]

(خـــرج النبي ﷺ إلى ذات الرقاع، من نخل، فلقي جمعاً من غطفان، فلم يكن قتال، وأخاف الناس بعضهم بعضا، فصلى النبي ﷺ ركعتي الخوف)[3]

ونخـــل هو موضع من نجد، من أراضي غطفان.[4] وقد كفى الله المؤمنين قتال عدوهـــم، حيث لم يكن قتال بين الطرفين. وقد صلى بهم ﷺ صلاة الخوف، لما أخاف الناس بعضهم بعضا، وفيه مشروعية صلاة الخوف إذا حصل الخوف.[5]

وفي الحديـــث التالي رواية لصفة صلاة الخوف (أن طائفة صَفَّت معه، وطائفة وُجَـــاهَ العـــدو، فصلى بالتي معه ركعة، ثم ثبت قائماً، وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا، فصفُّوا وُجَاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته، ثم ثبت جالساً، وأتموا لأنفسهم، ثم سلم بهم.)[6]

ومـــن أحـــداث هذه الغزوة ومشاقها ما رواه أبو موسى الأشعري ﷺ قال (خرجـــنا مـــع النبي ﷺ في غزاة ونحن في ستة نفر، بيننا بعير نعتقبه، فَنَقِبَت أقدامنا، ونَقِبَ قدماى، وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخِرَق، فسميت غزوة ذات الـــرِّقاع؛ لمـــا كنا نعصب من الخرق على أرجلنا. وحدَّث أبو موسى بهذا الحديث، ثم

---

[1] البخاري (٣/١٢٠) اسم الباب رقم (٣١)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٧/٤١٧ــ٤١٨)

[3] البخاري (٣/١٢٠) برقم (٤١٢٧)

[4] ابن حجر، فتح الباري (٧/٤٢١)

[5] ابن حجر، فتح الباري (٧/٤٢١)

[6] البخاري (٣/١٢١) برقم (٤١٢٩)

كره ذاك، قال ما كنت أصنع بأن أذكره، كأنه كره أن يكون شيء من عمله أفشاه.)[1]

وفي الحديث أن ممن كان مع أبي موسى الأشعري ستة نفر من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وكانوا يتعاقبون على بعير، أي يتناوبون عليه، هذا يركب قليلاً وهذا يركب بعده قليلاً، وفي هذا التعاقب ما يدل على الجهد وقلة الرواحل التي كان يمتلكها المسلمون، وأنها لا تفي بعدده، كما أن في ذلك صبر المسلمين وجلدهم، وتحملهم للمشقة في سبيل الله تعالى، حتى نقبت أقدامهم، أي خَفَّت من كثرة المشي عليها، فكانوا يُعالجون ذلك الأمر بلف الخِرَق عليها، ولذلك سُمِّيَت هذه الغزوة بذات الرقاع.

ويشير أبو موسى الأشعري ﷺ أنه قد حصل له ما حصل لمن معه، وأنه قد سقطت أظفاره رضي الله تعالى عنه، نتيجة ما بلغ به من جَهد المشي. وكل هذا يبين قدر المعاناة والمشقة التي كان يجدها الصحابة في سبيل الله تعالى، فقدموا لمن بعدهم القدوة الصالحة؛ المطيعة لله تعالى ولرسوله ﷺ مما يؤكد أن واجب من بعدهم أن يحفظوا هذا الدين بالقيام بواجباته؛ وحقوقه التي لا يسع المسلم التهاون فيها أمام الصحابة الذين بذلوا أنفسهم وأجسامهم وراحتهم، وتكبدوا المشاق والصعاب في سبيل هذا الدين، فكيف يسع المسلم أن يُضيع ذلك الجهد والصنيع العظيم.

ثم يضرب أبو موسى مثلاً رائعاً في الإخلاص لله تعالى، وحفظه لجناب التوحيد، وحمايته مما قد يؤثر فيه، كما جاء في الحديث (ثم كره ذاك، قال ما كنت أصنع بأن أذكره، كأنه كره أن يكون شيء من عمله أفشاه)

---

[1] البخاري (٣/١٢٠ــ١٢١) برقم (٤١٢٨)

ممـــا يؤكد أهمية العناية بالأعمال الصالحة التي يقوم بها المسلم، بأن لا يفشيها للـــناس، فماذا يستفيد من ذلك ؟ قال ابن حجر: إن كتمان العمل الصالح أفضل من إظهاره، إلا لمصلحة راجحة، كمن يُقتدى به.[1]

ومن وقائع هذه الغزوة وأحداثها ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، (أنـــه غـــزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنـــزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس في العِضاه، يستظلون بالشجر، ونـــزل رسول الله ﷺ تحت سمرة، فعلق بها سيفه. قال جابر: فنمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ : إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتاً، فقال لي: من يمنعك مني ؟ قلت: الله. فها هو ذا جالس، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ)[2]

يبين هذا الحديث، استظلال المسلمين بظلال الأشجار وقت الظهيره، التي هي القائلة، حتى لا يواجهوا شدة حرارة الشمس، وهذه من القضايا الصحية التي يعتني بها الناس، وقد استراحوا في واد كثير العضاة، وهو الشجر يعظم شوكه، وقيل هو العظيم مَن السمر مطلقاً

وفي الحديـــث شجاعته ﷺ وتوكله على الله تعالى، فقد علّق سيفه في الشجرة الـــتي استظل تحتها، لأنه من المعتاد أن لا يجرؤ الغريب على الدخول بين قوم متناثرين تحت الشجر، ولقد جاء ذلك الأعرابي فأخذ سيف المصطفى ﷺ وهو نائم فجرده من غمده فأصبح صلتاً، ويقول للنبي ﷺ من يمنعك مني ؟ فقال عليه الصلاة والسلام بثقة في ربـــه تـــبارك وتعـــالى: الله. وفي هذا الجواب المختصر ما يدل على قوة توكله ﷺ وشجاعته، وقال ابن حجر: وفي ذلك غاية التهكم به، وعدم المبالاة به أصلاً....وكأن

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٧/٤٢١)

[2] البخاري (٣/١٢١ــ١٢٢)

الأعرابي لما شاهد ذلك الثبات العظيم، وعَرَف أنه حيل بينه وبينه، تحقق صدقه، وعلم أنه لا يصل إليه، فألقى السلاح وأمكن من نفسه.[1]

ثم يأتي الحلم النبوي الكريم، حيث حَلِمَ على الأعرابي، ولم يعاقبه، فيوجهنا ﷺ بـــدرس تربوي عظيم في هذا الموقف، وهو العفو عند المقدرة والتمكن، وأجمل به من خُلُـــق في كل موقف! خاصة عندما يكون في داخل الأسرة، فيعفو عمن أساء إليه من الأهـــل والأقارب، وما أجمله وما أقوى أثره عندما يظهر في دائرة المهنة وإدارة العمل، وما أبهاه عندما يكون مع الأصدقاء والزملاء والجيران، وما أقوى أثره عندما يكون مع الكفار ؟ فإنه دعوة للإسلام في رسالة من العفو والصفح.

وقد ذُكر أن هذا الأعرابي قد أسلم ورجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير.[2]

غزوة دومة الجندل:

ثم غزا رسول الله ﷺ دُومة الجندل، ثم رجع قبل أن يصـــل إليهـــا، ولم يلـــق كيداً.[3]

غزوة المُرَيْسِيْع (بني المُصْطَلِق)

وقد كان ذلك في شعبان؛ سنةخمس من الهجرة.[4] وبني المُصْطَلِق من خُزَاعة[5] ولهم ماء يقال له المريسيع، من ناحية قديد إلى الساحل. وقد بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصـــطلق يجمعـــون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار، فلما سمع بهم النبي ﷺ خرج إليهم[6] وأغار عليهم، فقد جاء في الحديث (أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٧/٤٢٧)

(2) المرجع السابق (٧/٤٢٨)

(3) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٢٢٤)

(4) ابن حجر، فتح الباري (٧/٤٣٠)

(5) البخاري (٣/١٢٢)

(6) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٠٢)

غـــارُّون، وأنعـــامهم تُسقى على الماء، فقتل مُقَاتِلَتَهُم، وسبي ذراريهم، وأصاب يومئذ جويرية)[1]

وهي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية، فكانت بنت رئيس قبيلتها بـــني المصـــطلق، وقد وقعت في السبي، وقُتِلَ زوجها في الغزوة، ووقعت جويرية بنت الحـــارث في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، فكاتبها ثابت على نفسها على تســع أواق، فجـــاءت إلى رسول الله ﷺ تستعينه في فكاكها، فعرض عليها الزواج؛ وقضى عنها، فخرج الخبر إلى الناس، فقالوا: أصهار رسول الله ﷺ يُسْتَرَقُّون ! فأعتقوا مـــا كان في أيديهم من سبي بني المصطلق، فبلغ عتقهم مائة أهل بيت؛ بتزويجه إياها، فتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها: (فلا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها.)[2]

وقـــد حف بهذه الغزوة موقفان آثمان للمنافقين، تتكشف فيها مظاهر التخذل وإثارة الفتنة بين صفوف المسلمين، وهما :

موقف التأليب والوعيد الكاذب:

فعـــن زيد بن ارقم، قال: (كنت في غَزاة، فسمعت عبد الله بن أُبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده لَيُخرجن الأعـــزُّ مـــنها الأذل. فذكـــرتُ ذلك لعمِّي ــ أو لعمر ــ فذكره للنبي ﷺ فدعاني، فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذبني رســـول الله ﷺ وصدَّقه، فأصابني هم لم يُصبني مثلُهُ قط، فجلست في البيت، فقال لي

---

(1) البخاري (٢/٢١٩) برقم (٢٥٤١)

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٨/١١٦ــ١١٧)

عمـــي: مـــا أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومَقتَك، فأنزل الله تعالى (إذا جاءك المنافقون) فبعث إليَّ النبي ﷺ فقرأ فقال: إن الله صدَّقكَ يا زيد)[1]

إن هذا الموقف من ابن أبي يسجل ما في صدور المنافقين من غل، وأمنيات أن ينخذل رسول الله ﷺ وأصحابه، وأن يتم طردهم من المدينة، وما حَسِب أولئك أن الله ناصر دينه ونبيه ﷺ والمؤمنين. ثم يسجل الله تعالى تلك المقولة عليهم في القرآن الكريم؛ لـــتكون قرآناً يُتلى وهم يسمعونه، وفي هذا تتبين صورة من صور المعجزات، وهي أن الله تعـــالى عـــالم بما هم عليه، وبما قالوه، فوعاه زيد ﷺ وأخبر به النبي ﷺ فنـــزلت الآيات بالعبارات التي تلفظ بها عبد الله بن أبي، وقد أضيف إليها وصفاً جسمياً وخلقياً ونفســياً للمـــنافقين. فـــأخلاقهم مبنية على الكذب، إذ يُظهرون عكس ما يبطنون، ويبطـــنون عكـــس ما يُعلنون، مُتخذين أيمانهم وقاية لهم؛ وذريعة وستاراً يتخفون فيه، لـــتُحقَن دمـــاؤهم وتُحفظ أموالهم. وأما نفسياً، فإن هذا المسلك النفاقي يدلل على الطويـــة القلبـــية التي تعاني منها هذه الشخصيات، من الحسد والحقد، وحب الذات المتكـــبرة عـــن الحق، وهم جبناء وضعاف قلوب، يحسبون كل صيحة هي عليهم، لما يعرفون عن أنفسهم من الباطل الاعتقادي والخُلُقي. وأما جسمياً، فهي تلك الصفات البدنـــية التي تُعجب من يراها. قال تعالى عنهم ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ

---

[1] البخاري (٣/٣٠٩) برقم (٤٩٠٠)

لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾[1]

ومن فوائد الحديث السابق: قبول الظاهر من الإنسان، وقبول يمينه، فلقد قبل رسول الله ﷺ منهم ظاهرهم وأيمانهم، بأنهم لم يقولوا ذلك. قال ابن حجر: وفي الحديث من الفوائد ترك مؤاخذة كبراء القوم بالهفوات لئلا ينفر أتباعهم، والاقتصار على معاتبتهم، وقبول أعذارهم، وتصديق أيمانهم؛ وإن كانت القرائن تُرشد إلى خلاف ذلك، لما في ذلك من التأنيس والتأليف، وفيه جواز تبليغ ما لا يجوز للمقول فيه، ولا يُعد نميمة مذمومة إلا إن قصد بذلك الإفساد المطلق، أما إذا كانت فيه مصلحة ترجح على المفسدة فلا.[2]

وفي الحديث نصرة الله تعالى لزيد ﷺ على المنافقين الذين حلفوا أيماناً بأنهم ما قالوا. وفي هذا بيان لأهمية الإيمان والصبر أثناء الانزعاج؛ عندما يواجه المسلم ما يكره وما لا يحب في حياته، ويعلم أن الله تعالى ناصره عاجلاً أم آجلاً. كما يتبين من هذا الموقف أهمية تَقبل توجيه ولي الأمر وإن كان شاقاً، فإن عاقبته خير بإذن الله تعالى.

وعن سفيان، قال عمرو: سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال (كنّا في غَزاة ــ قال سفيان مرة في جيش ــ فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فسمع ذاك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى جاهلية ؟ قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: دعوها فإنها منتنة. فسمع بذلك عبد الله بن أبي، فقال: فعلوها ؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُ منها الأذل. فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا

---

[1] سورة المنافقون: آيات رقم (١ــ٨)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٦٤٦/٨)

رســـول الله دعني أضرب عُنقَ هذا المنافق، فقال النبي ﷺ : دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.)[1]

فهذا رجل من الأنصار يكسع رجلاً آخر، والكسع هو ضرب الدبر باليد أو الـــرجل، فينادي بقومه، وينادي الآخر بقومه، فيسمع رسول الله ﷺ تلك الكلمات، فيـــبين أن هـــذا مـــن دعوى الجاهلية، أي أن هذا الأمر الحزبي قد ولى وانتهى أمره، فالمســـلمون إخـــوة، في نصرة المُخْطَى عليه؛ حتى يأخذ حقه، فليست هناك قبلية ولا عرقية، ولا حزبية، مما يؤكد أهمية العناية بهذا الأمر تربوياً، لينصهر أفراد الأمة في نور الإسلام وحده.

وعـــندما سمـــع بذلك عبد الله بن أُبي، قال: فعلوها ؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخرجن الأعزُ منها الأذل. ليظهر المزيد من نفاقه، ولتكشف علانيتُه طويتَه، فلا تخفى على أحد، حتى وصفه عمر بن الخطاب ﷺ بالمنافق.

وفي مقولـــة المنافق عبد الله بن أبي ما يثير الفتنة وتفريق الكلمة بين المهاجرين والأنصـــار. وبالـــتالي فـــإن المؤمـــن يبتعد كل البعد عن هذه المنهجية السبئية أثناء الاجتماعات والمنتديات والمحافل المهنية والأسرية والاجتماعية، لأنها مما يبغضه الله تعالى ورسوله، ولأنها منهجية نفاقية خسيسة.

ثم تظهـــر عزيمة المؤمن القوي عمر بن الخطاب، فيطلب من رسول الله ﷺ أن يأذن له بضرب عنق المنافق، كَحَلٍ يراه رضي الله تعالى عنه؛ لهذا الباطل النفاقي، ولكن رسول الله ﷺ يُعَلِّم أمته الأسلوب الأمثل في مثل هذا الموقف، فقال النبي ﷺ : (دعه، لا يـــتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.) فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح. وهـــنا تظهر أهمية سعة الأفق عند اتخاذ القرار، وبعد النظر عند معالجة المواقف، بتأمل تبعاتها وآثارها، وهذا ما يجب أن تكون عليه العملية الإدارية والسياسية الحصيفة، بل

---

[1] البخاري (٣/٣١٠) برقم (٤٩٠٥)

وحــتى المعالجــة الدعوية والتربوية والاجتماعية؛ ينبغي أن تستفيد من هذا الموقف في تطبيقاتها العملية.

إن الحكمــة مطلــب شرعي، إذا غَفَلَ عنها المسلمُ، ولم يبحث القضايا التي تعترضــه من خلالها؛ حاد عن جادة الطريق، وكم من الأخطاء التي تقع فيها الأمة أو الأفراد بسبب فقدان تلك الرؤية الممتلئة بالحكمة المُحَققَة للمصلحة الراجحة.

ذكــر ابــن هشام: ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلــتهم حــتى أصبح، وصَدْرَ يَومهم ذلك حتى آذهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبــثوا أن وَجَــدوا مس الأرض، فوقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليُشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس.[1]

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٠٤)

حديث الإفك :

كان حديث الإفك سنة خمس، بعد نزول الحجاب؛ الذي كان في ذي القعدة سنة أربع. وكانت قصة الإفك في رجوعهم من غزوة المريسع.[1]

وتفصيل حديث الإفك كما ورد في صحيح البخاري، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها (كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما أُنزل الحجاب...)[2]

وفي الحديث مشروعية القرعة.[3] وعدله ﷺ بين أزواجه، بأن يقرع بينهن إذا أراد سفراً.

من مميزات أسلوب عرض المعلومة في هذا الخبر؛ أن أظهرت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها أولاً المبدَأ أو القاعدة التي يأخذ بها رسول الله ﷺ وهي القرعة، ثم بعد ذلك بينت تطبيقه لهذا المبدأ في الغزوة التي خرجت فيها. ثم من تناسق عرض الحدث وجمع أطرافه المتعلقة به أن ذكرت أمر الحجاب لما له من علاقة بتفاصيل سيأتي بيانها، وهذا من حذقها الفكري وجمال تراكيب تبعات الكلام وأحداثه، وسلامة منطقها وحُسْنِ حِسِّهَا اللغوي رضي الله تعالى عنها.

ثم تقول أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها (...فكنت أُحملُ في هودجي وأُنْزَلُ فيه. فسرنا حتى إذا فَرِغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقَفَل؛ ودنونا من المدينة قافلين؛ آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جَزْع ظَفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه. قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٧/٤٣٠)

(2) البخاري (٣/١٢٣ــ١٢٦) برقم (٤١٤١)

(3) ابن حجر، فتح الباري (٨/٤٥٨)

يُـــرَحِّلوني فاحـــتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه ـــ وهم يحســـبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يَهبُلْن ولم يَغشَهن اللحم، إنما يأكلن العُلقةَ من الطعام ـــ فلم يستنكر القوم خِفةَ الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثةَ السِّنّ، فبعثوا الجمل فساروا...)[1]

فتـــبين رضي الله تعالى عنها أسلوب حمل الهودج، بأنه كانت تُحمل وتُنْزَلُ في هودجهـــا وهـــم لا يروها، لما للهودج من أستار تُغطيه، وفي هذا دليل على حشمتها ووقارها رضي الله تعالى عنها، وكذا عناية من يقوم بحمل الهودج من أصحاب رسول الله ﷺ

ويتبين من الحديث أن واقعة حديث الإفك كانت عند عودهم من الغزوة وقد اقتربوا من المدينة. وأنها لما قضت حاجتها رضي الله تعالى عنها لمست صدرها فوجدت أن عقدهـــا لـــيس عليها، وهو من جَزْع ظَفار، وجَزْع أي خَرَز معروف؛ في سواده بياض؛ كالعروق، وأظَفار أحد أنواع القسط وهو طيب الرائحة يُتَبخر به، فلعله عُمل مـــثل الخرز، فأطلقت عليه جزعاً تشبيهاً به، ونظمته قلادة، إما لحسن لونه أو لطيب ريحه.[2]

وفي أثـــناء بحـــثها عن عقدها حمل المعنيون بالهودج الهودج؛ وهم يحسبون أنها رضي الله تعالى عنها بداخله؛ لخفة بنيتها الجسمية وصغر سنها، ثم تُبَيِّنُ رضي الله تعالى عـــنها ما غَلَب على النساء من خفة أجسامهن في ذلك الوقت، ولعله لشظف العيش، حيـــث يـــأكلن العلقة أي القليل الذي يُسكن الرمق، وبالتالي فإنهن لم يهبلن أي يكثر اللحم عليهن فتثقل حركتهن.

فقـــد بينت رضي الله تعالى عنها ما يمكن أن يقع من تساؤل عن رفع الهودج دون الشعور بأنه خالٍ من صاحبته، وهذا دليل على عمق وأثر ذلك الحديث النفاقي

---

[1] البخاري (٣/١٢٣ـــ١٢٦) برقم (٤١٤١)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٨/٤٥٨/٤٥٩)

على نفسيتها رضي الله تعالى عنها؛ حتى بينت دقائق وعلل القضية، فَتَجَسَّدَ في أسلوبها المنهجية التي يتعلم منها المتعلم والباحث والمظلوم في دعوته كيف يبين القضية وأطرافها؛ والعلل المتعلقة بها، بما يُجيب على كل تساؤل قد يرد.

كما أنها التمست للمعنيين بأمر الهودج العذر، ولم تحملهم مسؤولية رحيلهم براحلتها وهي ليست بداخل هودجها، وهذا من تمام أخلاقها وواقعيتها في التعامل، وهي في أحلك مصيبتها، ولكم يحتاج المرء هذا الخُلُق العظيم؛ في تقييمه وتعليله لكثير من قضاياه، دون أن يُحَمِّل غيره ما ليس منهم.

ويقول ابن حجر رحمة الله تعالى عليه: فكأنها تقول: كأنها لخفة جسمها بحيث أن الذين يحملون هودجها لا فرق عندهم بين وجودها فيه وعدمه، ولهذا أردفت ذلك بقولها: وكنت جارية حديثة السن.... ويستفاد من ذلك أيضا أن الذين كانوا يرحلون بعيرها كانوا في غاية الأدب معها، والمبالغة في ترك التنقيب عما في الهودج، بحيث أنها لم تكن فيه وهم يظنون أنها فيه....وكونها جارية حديثة السن؛ لأنها أُدخلت على النبي ﷺ بعد الهجرة في شوال، ولها تسع سنين، وأكثر ما قيل في المريسع .. أنها سنة ست فتكون لم تُكمل خمس عشرة. فإن كانت المريسع قبل ذلك فتكون أصغر من ذلك.[1]

ثم تقول رضي الله تعالى عنها: (...ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت. وكان صفوان بن المعطّل السُّلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سوادَ إنسان نائم، فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي، ووالله ما تكلمنا بكلمة واحدة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها، فقمت

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٨/٤٦٠)

إلــيها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغِرين في نحر الظهيرة وهم نُــزول...)

ومــن لطف الله تعالى بها أن وفقها الله تعالى إلى المكوث في مكانها الذي نزلوا فيه؛ وإلا ربما تاهت بين مفترقات الطرق، ومن كريم لطف الباري اللطيف الرحيم أن غلبــتها عيــنها ــ رضي الله تعالى عنها ــ في مكان ليس به أحد، وفي ليل مظلم في البرية، قال ابن حجر: يُحتمل أن يكون سبب النوم شدة الغم الذي حصل لها في تلك الحالة، ومن شأن الغم ــ وهو وقوع ما يكره ــ غلبة النوم؛ بخلاف الهم وهو توقع ما يكــره؛ فإنــه يقتضي السهر،...أو أن الله سبحانه وتعالى لطف بها فألقى عليها النوم لتســتريح مــن وحشة الإنفراد في البرية بالليل.[1] فما على المؤمن إلا الاستعانة بالله اللطــيف الخبير، فالنوم والسِنَةُ نعمة منه تبارك وتعالى، وحصولها وقت الشدائد تفضل منه ونعمة.

ومــن فوائــد وجود صفوان ﷺ وراء الجيش الحصول على ما ينساه الناس خلفهــم، ممــا خَفَّ حمله، نتيجة الكثرة، وإنها لعملية ذات أهمية بالغة حتى في نُزُهات الناس، وترحالهم ومعسكراهم.

ثم يتــبين كــرم أخــلاق صــفوان بن المعطل، وما تفاجَأ به، فيسترجع ﷺ والاسترجاع قول: إنا لله وإنا إليه راجعون. وعلاوة على ما في الاسترجاع من الخير، فــإن فيه تنبيه لأم المؤمنين بوجوده، حتى تتأهب فتختمر، كما قالت أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها (فخمَّرتُ وجهي بجلبابي) وفي هذا دليل على تغطية الوجه عن الأجانب، ثم تــبين أدب صــفوان الجم ﷺ وحشمتها رضي الله تعالى عنها إذ تقول: (ووالله ما تكلمــنا بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه.) فوالله إنه لغاية الأدب والتعظيم لأم المؤمنين رضي الله تعالى عنها. فقدَّم بذلك ﷺ صورة لما ينبغي أن يتخلق به المسلم من التأدب والحشمة الذي حري بأن يأخذ به ذوو المكارم الخُلُقية.

---

[1] المرجع السابق (٨/٤٦١)

ثم وطــئ على يد الراحلة ﷺ " ليكون أسهل لركوبها، ولا يحتاج إلى مسها عــند ركوبها"[1] وهكذا يكون المرء باحثاً عن الأسباب التي تحقق له مكارم الأخلاق والتورع؛ وتحقيق مهابة الله تعالى وإجلاله جلّ جلاله في تطبيق أوامره ونواهيه.

وقد وصلت أم المؤمنين الجيش في أول وقت الظهيرة، حيث قالت :(موغرين في نحر الظهيرة.) والوغر هو شدة الحر، ونحر الظهيرة أوله.[2]

ثم تقول عائشة رضي الله تعالى عنها: (...قالت: فهلك من هلك. وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أُبي بن سلول. قال عروة: أخبرت أنه كان يُشاع ويُتحدَّثُ به عنده فَيُقِرُّه ويستوشيه. وقال عروة أيضا: لم يُسمَّ من أهل الإفك أيضاً إلا حسان بن ثابــت ومِسطح بن أُثاثة وحَمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم، غير أنهم عصبة ــ كما قال تعالى ــ وإن كِبرَ ذلك عبد الله بن أُبي بن سلول. قال عروة: كانت عائشة تكره أن يُسبَّ عندها حسان، وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالدَه وعِرضي لعرض محمد منكم وِقاء...)[3]

ثم أشارت رضي الله تعالى عنها إلى من تولى كِبَر الإفك أنه عبد الله بن أُبي بن ســلول. وكان من أسلوبه في الحادثة أنه يُقر من يتحدث فيه ويستمع إليه ويستوشيه، أي يســتخرجه بالبحث عنه والتفتيش. وهذا الأسلوب من الدهاء والمكر الذي ينبغي أن يبــتعد عــنه المســلم، لما فيه من استجلاب الحديث وتشجيع المتحدث ليستهويه الكــلام، في أي مــن مجالات الحديث وقضاياه وموضوعاته المحرمة، أو التي قد تؤدي للوقوع في محرم أو مكروه.

كمــا أن هــذا الإفــك النفاقي من المنافقين كاد أن يشق صفوف المسلمين، ويغرس الخلاف بينهم، وجلب الهم للرسول ﷺ ولآل بيته الطيبين الطاهرين.

---

[1] المرجع السابق (٨/٤٦٣)

[2] المرجع السابق (٨/٤٦٣ــ٤٦٤)

[3] البخاري (٣/١٢٣ــ١٢٦) برقم (٤١٤١)

ومن عدلها وإنصافها مع حسان ﷺ، أنها تكره أن يُسَبّ عندها، محتفظة له بما قال عن رسول الله ﷺ وأهله؛ من فداء لهم بأبيه وجده وعرضه. فَتُقَدِّم رضي الله تعالى عنها المنهجية التطبيقية الإسلامية في حفظ الحقوق، وإن بدر ما يكدر ذلك. مبينة لمن ينسى فضل كل ذي فضل عند وقوع الخطأ والزلل منه، أن ذلك ليس من منهج الإنصاف.

(...قالت عائشة: فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يَريبُني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يَدْخُلُ عليَّ رسولُ الله ﷺ فَيسلم ثم يقول: كيف تيكم ؟ ثم ينصرف، فذلك يَريبني ولا أشعر بالشّر...)[1]

فتبين رضي الله تعالى عنها أنها حين قَدِمَتْ المدينة مَرِضَت، وأنها مَكَثت شهراً والناس يخوضون في الإفك وهي لا تعلم بذلك، وفَقَدَتْ ما اعتادته من تلطف رسول الله ﷺ بها؛ حين تشتكي، وهذا من حكمته ﷺ فلم يزدها على مرضها بشيء من حديث الإفك؛ بالرغم من أثره عليه ﷺ ومن مرور شهر والناس يفيضون فيه، وهو صابر، وإنه لدرس في الصبر ودرس في المعاملة، ودرس في الحلم، لحدث عظيم، وأمر ليس باليسير، يخص سيد البشرية في زوجته الطاهرة العفيفة أم المؤمنين بنت الصديق ثاني اثنين إذ هما في الغار، وإنه لأمر جلل، ومصاب عظيم وإفك مختلق مبين، ولكنه الابتلاء الاجتماعي الذي تظهر فيه أساليب النبوة في معالجة الأمر بحكمة وتُؤدة، ليتخذ منه المؤمنون درساً وعبرة، فلئن أُبْتُلِي به خير البشرية، فإنه قد يبتلى به من هو أدنى من ذلك.

ويُستفاد من ذلك أهمية ملاطفة الزوجة، وتركه إذا اقتضى واقع الحال ذلك، مع السؤال عن حالها، وكذا سلام الرجل على أهله، وأن لا يمنعه شيء عن ذلك، كما

---

[1] البخاري (٣/١٢٣ـ١٢٦) برقم (٤١٤١)

أن فيه أثر الكلام الاجتماعي والإشاعة السيئة على العلاقات الأسرية، وما تُحدثه من آلام نفسية شديدة. كما أن فيه من الفوائد عدم إخبار المريض بما يسوء حاله، ويزيد من مرضه.

قال ابن حجر: وفيه مراتب الهجران بالكلام والملاطفة.[1]

ثم تبين أم المؤمنين عائشة ــ رضي الله تعالى عنها ــ كيف وصل إلى علمها حديث الإفك، مبتدئة وصف ما كانوا عليه في قضاء الحاجة، فتقول: (...حتى خرجتُ نَقَهْتُ، فخرجتُ مع أم مِسطح ــ قِبَلَ المناصع ــ وكان مُتَبرزَنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى اليل ــ وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف قريباً من بيوتنا، قالت وأمْرُنَا أمرُ العرب الأول في البريَّة قِبَلَ الغائط، وكنا نتأذى بالكُنُف أن نتخذها عند بيوتنا...)[2]

فبعد أن أفاقت من مرضها؛ ولم تكتمل صحتها، وهو معنى نَقَهْتُ. خرجت مع أم مسطح، قبل المناصع، وهو سهل أو صعيد موضع للتبرز. وأن من عاداتهم أن لا يخرجوا إليه إلا ليلاً، وهذا من باب الحياء الذي يمنعهم من الذهاب إليه نهاراً، لئلا يراهُنَّ أحد. وذلك قبل أن تُتَّخذ الكُنُف أي الخلاء أو حمامات قضاء الحاجة قريباً من البيوت. كعادة العرب، وذلك أنهم يتأذون من الروائح فتكون بعيداً. وهذا التفصيل من أم المؤمنين عناية في الوصف؛ ودقة في البيان، فأفادت بما يوضح العلة في خروجها مع أم مسطح، لأن الذي لا يعرف العلة يحصل له التساؤل عن سبب الخروج، فدفعت بالبيان والإيضاح كُلَ لَبْسٍ متوقع. فأفادت عن ما اعتاده العرب في قضاء ذلك.

ثم مزيد من الوصف منها لأمر أم مسطح معها (... قالت: فانطلقت أنا وأم مِسطح ــ وهي ابنة أبي رُهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر، خالةُ أبي بكر الصدِّيق، وابنها مِسطح بن أُثاثة بن عباد بن عبد المطلب ــ فأقبلتُ أنا وأم مسطح قِبَل بيتي حين فرغنا من شأننا، فَعَثَرَتْ أم مسطح في مِرطِها، فقالت: تَعِس مِسطح، فقلت لها: بئس ما قلتِ، أتسُبِّين رجلاً شهد بدراً ؟ فقالت: أي هَنَتَاهُ ! ولم تسمعي ما قال ؟

---

[1] المرجع السابق (٤٧٩/٨).

[2] البخاري (١٢٣/٣ــ١٢٦) برقم (٤١٤١)

قالـــت: وقلـــت: مـــا قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك. قالت: فازددتُ مرضاً على مرضـــي، فلما رجعت إلى بيتي دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ فَسَلَّم ثم قال: كيف تِيكم ؟ فقلـــتُ له: أتـــأذن أن آتي أبوي ؟ قالت: وأُريد أن أستيقن الخبر من قِبَلِهما. فأذن لي رســـول الله ﷺ فقلـــت لأمي: يا أمتاهُ ! ماذا يتحدَّثُ الناس ؟ قالت: يا بنية ! هوني علـــيك. فـــو الله لقلّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يُحبها لها ضرائر إلا أكثرن علـــيها. قالـــت: فقلت: سبحان الله، أو لقد تحدَّث الناس بهذا ؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحتُ، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحتِ أبكي ...)[1]

ولمـــا علمت أم المؤمنين بالخبر الذي هالها سبَّحت الله تعالى، مُتعجبة من وقوع مـــثل ذلك في حقها، مع براءتها المتحققة، فبكت تلك الليلة بكاء لاينقطع لها به دمع، ولا تكتحل منه بنوم، وازدادت مرضاً على مرض.

وأن ما وقع من أم مسطح من سبِّها لابنها مسطح ما يدل على قناعتها ببهتان مـــا ذُكر عن عائشة رضي الله تعالى عنها، وفي هذا شهادة وتزكية لأم المؤمنين، خاصة وأنهـــا لم تُحاب ابنها وتجامله، وهذا نهج إسلامي اندفعت به أم مسطح رضي الله تعالى عنها إلى التطبيق العملي، مدركة لخطورة الظلم، بما يستوجب عدم المحاباة والمجاملة في الحق؛ حتى مع الابن الذي هو فلذة كبدها. فتعطي بذلك درساً عملياً في صدق الحكم وعـــدم المجاملة، فكيف بمن يجامل في أمور تافهة بسيطة؛ ليستجلب بها عواطف أناس على حساب آخرين من أمور الحياة الدنيا التي لا ترقى لمثل هذا الحدث العظيم، لذلك فمـــا يحـــتاجه الإنسان من الضبط السلوكي كثير جداً. قدمت منه أم مسطح صورة وقدوة في ذلك.

وفيه قول أم مسطح لعائشة رضي الله تعالى عنهما (أي هَنَتَاهُ) وهي كلمة تقال لمـــن كـــان غـــافلاً عن مثل هذا الأمر الذي قد شاع بين الناس، إذ أن أم المؤمنين قد

---

[1] البخاري (٣/١٢٣ـــ١٢٦) برقم (٤١٤١)

أنكـــرت عـــلى أم مسطح سب ابنها، وفي هذا الإنكار المُعلل بشهود بدرَ، دليل على حفظ مكانة صاحب المنـــزلة والمكانة، لأن مكانة من شهد بدر عظيمة القدر.

وقـــد استأذنت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها رسول الله ﷺ في إتيان أهلها، بما يفيد أن على المرأة أن تستأذن زوجها للخروج إلى أهلها.

وأن لـــلمرء أن يتثبت مما يُقال، كما فعلت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عـــنها. وأن الزوج يتأثر بما يقال في زوجته، ولكن عليه أن لا يتسرع في الحكم واتخاذ القـــرار، إذ لم يتخذ عليه الصلاة والسلام قراراً وقد مضى شهرٌ على حديث الإفك. وفيه ملاطفة الأم لابنتها، وتخفيف أحزانها وآلامها.

(...قالـــت: ودعـــا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد؛ حين اســـتَلْبَثَ الوحـــي يسألهما؛ ويستشيرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة فأشار على رســـول الله ﷺ بـــالذي يعلم من براءة أهله؛ وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة: أهلك ولا نعلم إلا خيراً. وأما عليٌّ فقال: يا رسول الله ! لم يُضيق الله عليك، والنساء ســـواها كـــثير، وسل الجارية تَصْدُقْك. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بُرَيرةَ، فقال: أي بُرَيـــرة! هـــل رأيت من شيء يريبك ؟ قالت: له بريرة: والذي بعثك بالحق، ما رأيت علـــيها أمـــراً قـــط أُغْمِصهُ، غير أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها؛ فتأتي الداجن فتأكله...)[1]

ثم هذا رسول الله ﷺ النبي المجتبى يستشير علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد في الأمـــر، بما يؤكد أهمية المشورة، فإذا كان رسول الله ﷺ يستشير فإنه من باب أولى أن يستشير من هو أدنى منه، مما يؤكد أهمية المشورة، وعدم الاسترسال في الأمر دونما أخذ ما لدى الغير من الرأي، فربما يفتح الله على أحد بما لم يخطر ببال صاحب الأمر.

---

(1) البخاري (٣/١٢٣ــ١٢٦) برقم (٤١٤١)

فيعطي كل واحد منهما ما يرى من المشورة؛ لينظر فيها رسول الله ﷺ ويتأملها، بل ولا يمنع الأمر أن يستشير من هو أصغر منه؛ كما فعل رسول الله ﷺ وكذلك أخذ ما لدى المرأة مما تعرف عن الشيء، فقد سأل رسول الله ﷺ بُرَيرة رضي الله تعالى عنها، والتي كانت تخدم أم المؤمنين عائشة ـــ رضي الله تعالى عنها ـــ فذكرت ما يدل على براءتها من واقع تصرفها، فأشارت أولاً إلى أنها لم تر عليها أمراً تغمصه أي تُعيبه عليها، غير أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله، قال ابن المنير: هذا الاستثناء البديع الذي يراد به المبالغة في نفي العيب. فَغَفْلَتها عن عجينها أبعد لها من مثل الذي رُميت به، وأقرب إلى أن تكون من الغافلات المؤمنات.(١)

قال ابن حجر في جواب أسامة بن زيد: أهلُك ولا نعلم إلا خيراً. أي أمسك، ومعناه: هم أهلُك أي العفيفة اللائقة بك.... وعن مشورة علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: أن هذا الذي قاله علي، حمله ترجيح جانب النبي ﷺ لما رأى عنده من الغم بسبب القول الذي قيل، وكان ﷺ شديد الغيرة، فرأى عليٌّ أنه إذا فارقها سكن ما عنده من القلق بسببها؛ إلى أن يتحقق براءتها، فيمكن رجعتها، ويُستفاد منه ارتكاب أخف الضررين لذهاب أشدهما، وقال النووي: رأى علي أن ذلك هو المصلحة في حق النبي ﷺ واعتقد ذلك لما رأى من انزعاجه، فبذل جهده في النصيحة؛ لإرادة راحة خاطره ﷺ وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: لم يجزم علي بالإشارة بفراقها لأنه عقب ذلك بقوله: وسل الجارية تصدقك. ففوض الأمر في ذلك إلى نظر النبي ﷺ (٢)

ويستفاد من هذه المشورة اختصاص المشورة بمن هم دراية بأطراف الموضوع الذي هو مكان المشورة، حتى لا يخوض فيها غير مُدْرِكٍ لجوانبها المختلفة، فعلي ﷺ

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٨/٤٧٠)

(٢) المرجع السابق (٨/٤٦٨)

تـــربى عند رسول الله ﷺ وهو عارف بالشؤون العامة لبيت رسول الله ﷺ وأسامة بن زيد كعلي في طول الملازمة. وفيه استشارة الأعلى لمن هو دونه.

ويُستفاد من ذلك عدم الجزم بما يقال حتى تتبين الحقيقة، وأخذ الأمر باهتمام لعلاقته بالعِرْض.

ثم تبين أم المؤمنين ما كان من رسول الله ﷺ مع من تولى أمر الإفك (...قالت: فقـــام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي، وهو على المنبر. فقال: يا معشر المسلمين ! من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهـــلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرا، وما يدخل على أهلي إلا معي. قالت: فقام سعد بن معاذ، أخو بني عبد الأشهل، فقال: أنا يا رسول الله أعذرك، فـــإن كـــان من الأوس ضربت عُنُقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمـــرك. قالـــت: فقام رجل من الخزرج، وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه، وهو ســـعد بـــن عـــبادة، وهو سيد الخزرج. قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتمَلَـــته الحميَّة. فقال لسعد: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان مـــن رهطك ما أحَببتَ أن يُقتل. فقام أُسيد بن حُضير، وهو ابن عم سعد، فقال لسعد بـــن عـــبادة: كذبت لعمر الله، لنقتلنه، فإنك منافق تُجادل عن المنافقين. قالت: فثار الحيان الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر. قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يُخفّضُهم حتى سكتوا وسكت...)[1]

وفي قيام الرسول ﷺ من يومه على المنبر بخصوص هذا الأمر، ما يبين أهمية معالجة مثل هذا الموضوع وعدم تركه، وكذا تمحيصه لدفع الظلم عن المظلوم.وكذلك إعلان ثقته بأهله وبصاحبه صفوان بن المعطل، وفي هذا ضربة قاسية للمنافقين، من أن ما أرادوا لم

---

[1] البخاري (٣/١٢٣ــ١٢٦) برقم (٤١٤١)

يـــتحقق. ويفيد هذا أن الأصل في المسلم البراءة حتى يثبت عكسه، وأن لا ينجر المرء بدعوى المغرضين الكاذبين.

وفـــيما دار بين الصحابة ما يبين أنهم بشر، يجري بينهم وعليهم ما يجري بين البشـــر، وبالتالي فإنهم غير معصومين، فيجتهدون، وقد يختلفون، وهم أقرب إلى الحق والصواب، ويمثلون الرعيل الأول، والسبق للخير، والأمينين الأخيار، وبالتالي على كل مسلم أن ينظر إليهم بعين الاحترام والتقدير، وأن يحفظ أعراضهم من الخوض فيها بما لا يلـــيق بمقامهم. والحقيقة إن هذا الدين نزل على البشر للبشرية، وليكون فيما وقع من أحداث دروس لمن بعدهم ليستفيدوا منها. وأما ما يجري بين الصحابة فليس لأحد من البشر أن يخوض فيه، بالحكم بينهم، أو التهاون في حقوقهم، فهم أصحاب رسول الله ﷺ ولهـــم من الفضل ما ليس لغيرهم، وليس للأدنى أن يحكم على الأعلى؛ ولكن ليستفيد المؤمن من ذلك بما يقربه من المولى سبحانه وتعالى.

فليتأمل المسلم أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، كما قال عروة: كانت عائشة تكره أن يُسَبَّ عندها حَسان، وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالدَه وعِرضي ... لعرض محمد منكم وِقاء

فهـــذا دلـــيل على أن من يتدخل في شؤنهم الخلافية فقد خاض في أمر عظيم، كمـــا يـــدل هـــذا من أم المؤمنين على مزيد صفائها وطهارة قلبها، وكريم أخلاقها، فتحسب للمحسنين إحسانهم، بما يُفيد المسلم أن لا تُنْسِيه الإساءةُ فضل صاحبها، وإنه والله لـــدرس خلقي عظيم تقدمه لنا أم المؤمنين، وقد كان حسان ﷺ يستأذن على أم المؤمنين، فقال لها:

حَصانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ ... وتُصبِحُ غَرثى من لحوم الغَوافِلِ[1]

---

[1] الـــبخاري (٣/٢٦٨) برقم (٤٧٥٦) حصان من التحصن، ورزان من الرزانة أي قلة الحركة، وما تزن أي تُرمى، وغرثى أي خميصة الظن أي لا تغتاب أحداً، والغوافل جمع غافلة أي العفيفة الغافلة عن الشر.

ومن فوائد ما دار بين الصحابة أمام الرسول ﷺ وهو على المنبر: أن أصحاب التُّقَى قد يحدث منهم غير ما أُعتيد منهم، وأن لا يُسْقِطَ ذلك حقَهُم في المكانة. ويتبين أسلوبه ﷺ في تهدئة الناس بحكمة وروية، وعدم الشّد عليهم بما يُعيدهم إلى حالتهم الطبيعية.وأن على الأعلى أن يتقبل ذلك بحكمة، كما فعل ﷺ وهو على المنبر، وبعض أصحابه يتنازعون فيما بينهم. ثم يتعامل معهم بحكمة، فلم يؤنب أو يجرح أحداً، أو يقول تفعلون ذلك أمامي، فبما أعطاه الله تعالى من الرحمة والحلم والحكمة تعامل معهم ﷺ فكم يحتاج الرئيس مع المرؤوسين ، والمدير مع العاملين والحاكم مع المحكومين إلى هذه الحكمة؛ وهذا العمل الكريم؛ عندما يحصل بحضرته من مرؤوسيه ما لا يتناسب مع مكانته، أو مكانة المكان.

ومن فوائد تعامله ﷺ فيما حصل من أصحابه أمامه، (حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.) أنه ﷺ يتعامل مع غيره بما اعتاده منهم؛ لا بما يطرأ على تصرفاتهم. بل كان ﷺ يُجري هذا الخُلُق العظيم حتى على ناقته القصواء، فيقول عنها وقد توقفت ولم تتحرك (ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخُلُق)[1] فحكم عليها بما اعتاده منها، ولم يحكم عليها بما طرأ عليها من سلوك. وخلأت الناقة خلاءً إذا حرنت، والحران أن يقف ولا يتحرك وإن ضُرِب.[2]

فالإنسان يجري عليه ما يجري على البشر من مخالفة العادة في سلوكه وتصرفاته، وأخلاقه، نتيجة مفاجآت المواقف والأحداث، ونتيجة التفاعلات العاطفية معها، وما يعتري أحوال النفس الإنسانية من ضعف أو قوة إيمانية. وهذا يوجه المؤمن في سلوكه مع غيره في دائرة عمله ومهنته، ومحيط أصدقائه، وبين أفراد أسرته، وأعضاء مجتمعه، أن يتعامل معهم وفق ما عرفه واعتاده من سلوكهم وأخلاقهم، لا بما يطرأ

---

(1) البخاري (٢٧٩/٢) برقم (٢٧٣١)

(2) الحربي، غريب الحديث والأثر (٤/٢)

عليهم من تقلبات نفسية؛ وظروف تفاعلية مع المواقف وأمور الحياة المختلفة والمتقلبة. إذ في ذلك تعزيز للسلوك المنضبط، وتقوية لأواصر العلاقات، بسبب الفهم والإدراك لتقلبات النفس البشرية، وفاعليتها على التصرفات الإنسانية.

فالفـــرد الذي يتعامل مع كل فرد بحسب ما يصدر عنه من تصرفات سيكون مُتقلب في سلوكه مع الفرد الواحد، فكيف بعشرات الناس الذين يتعامل معهم يومياً. وبالتالي تَسُوء أخلاقُه؛ نتيجة تعامله المتلون والمتغير بتغير أحوال من يخالطونه من الناس، ويكون هذا في رحاب العمل والمهنة، وفي ميدان المجتمع الفسيح، وفي محيط الأسرة من زوجة وأبناء وإخوة وأخوات، ثم في دائرة الأصدقاء.

ومن فوائد هذا الحديث أنه ﷺ لم يحكم لنفسه إلا بنـــزول الوحي الذي حكم وأجلى الأمر.ونبه لهذا الأمر الشيخ أبو محمد بن جمرة رحمة الله عليه.[1]

ثم تـــروي أم المؤمـــنين عائشة رضي الله تعالى عنها أحداث القضية في البيت؛ مبيـــنة مزيداً من ألم مصابها: (...قالت: فبكيت يومي ذلك كله، لا يَرقأُ لي دمع؛ ولا أكتحل بنوم. قالت: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوماً لا يرقأ لي دمع ولا أكـــتحل بـــنوم، حتى أني لأظن أن البكاء فالق كبدي.فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت عليَّ امرأة من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلست تبكي معي...)[2]

وتظهـــر هنا المشاركة الوجدانية من المرأة التي زارت أم المؤمنين ــ رضي الله تعالى عنهما ــ وأخذت تبكي لبكائها، وفي هذا ما يبين مدى حب النساء لعائشة زوج رسول الله ﷺ وفيه ما يفيد أهمية الصداقة وأهمية المشاركة الوجدانية للمصاب بمصيبة.

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٨/ ٤٨٠)

(2) البخاري (٣/١٢٣ــ١٢٦) برقم (٤١٤١)

كما يظهر في هذا المقام أهمية عناية الوالدين بالابن أو البنت عند المصاب، لما في ذلــك من الشفقة التي تساعد في التخفيف. كما يتبين من هذا الحديث التزام أبي بكر الصديق ﷺ وزوجته رضي الله تعالى عنها بغاية الصبر والتخلق بالخلق الذي لا يند منهما على ضده.

ثم تــبين أم المؤمنين دخول رسول الله ﷺ وهم على تلك الحال: (... قالت: فبيــنا نحــن على ذلك؛ دخل رسول الله ﷺ علينا؛ فسلم ثم جلس. قالت: ولم يجلس عــندي منذ قيل ما قيل قبلها، ولقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: أما بعد، يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيُبَرِّؤك الله، وإن كنت أَلْمَمْتُ بِذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العــبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه. قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَصَ دمعــي حتى ما أُحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال، فقال أبي: والله مــا أدري مــا أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال. قالــت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت، وأنا جارية حديثة السن، لا أقــرأ من القرآن كثيرا، : إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة، لا تُصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ ــ والله يعــلم أني منه بريئة ــ لتُصدِّقني، فو الله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حــين قــال: (فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون) ثم تحولتُ فاضطجعت على فراشي، والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مبِّرئي بالبريئات. ولكن والله ما كنت أظن أن الله تعــالى منــزِّلُ في شأني وحياً يُتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يُبَرِّؤني الله بها، فو الله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه؛ ولا خرج أحدٌ من أهل البيت حتى أُنــزل عليه...)[1]

---

[1] البخاري (٣/١٢٣ــ١٢٦) برقم (٤١٤١)

ويتــبين مــن هذا المشهد كريم خُلُق النبي ﷺ واكتفائه في حديثه مع عائشة وتســاؤلاته لها بالإشارة للحدث دون التصريح به، أو طلب تفاصيل لذلك. وهذا من نزاهة لسانه وعباراته وألفاظه ﷺ مما يُفيد ويبين أهمية هذا المسلك الخُلُقي العظيم الذي يــنم عــن السمو الخلقي لمن يسلكه في أحاديثه ومناقشاته وتعليمه وتدريسه وتَحْدِيثه وتَحَدُّثِه مع الناس.

وفي جواب أبي بكر وزوجته لعائشة في الرّد على سؤال رسول الله ﷺ الأدب مــع الــنبي ﷺ في غاية ما يكون، وعدم تقديم العاطفة الأبوية على رسول الله ﷺ في شــيء، بمــا يعطي درساً تربوياً في كيفية التعامل والانصياع والتأدب مع هذا الدين العظيم، وأن لا تجر العاطفة التعدي عليه بأي صورة من صور التعدي.

كما يدل جواب عائشة رضي الله تعالى عنها لرسول الله ﷺ بأن مثَلَهَا ومَثَلَهُم كأبي يوسف، تعني به يعقوب عليه السلام، ما يدل على فطنتها وذكائها واستحضارها وهــي في فــراش المــرض والهم يصارعها، كما يدل ذلك على عمق فهمها ودرايتها وعنايتها الفقهية والعلمية بما ينــزل من الوحي، واهتمامها بالقرآن الكريم، وهذا كله وهــي في ســن لا يتجاوز الخامسة عشر من عمرها، فكيف لمن هذا فهمها وإدراكها وعــلمها أن تُــرْمَى بــإفك مبين ؟ ولكن لله في خلقه حِكَمٌ وأسرار، فسبحانه وتعالى الحكيم العليم.

وفي هذا الحديث ما يبين تواضعها رضي الله تعالى عنها بأنها ما كانت تظن أن ينــزل فيها قرآن يُتلى، بل كان غاية توقعها أن يرى رسولُ الله ﷺ رؤيا تبرؤها. وفي هذا ما يدل على عدم الاغترار بالمنــزلة، وأن لا يرى الإنسان من قوة عبادته ما يجعله يتوقع لنفسه العظيم من الخير، لأن المرء يجتهد ويرى في نفسه التقصير، ومع كل ذلك أحســنت الظــن بربها عزَّ وجلَّ، حيث تقول: (وأن الله مبِّرئي ببراءتي) مما يفيد أهمية إحسان الظن بالله تعالى في الوقت الذي يرى الإنسان من نفسه التقصير الذي يحقر به عمله، حيث قالت رضي الله تعالى عنها: (لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله

فيَّ بأمر.) وهذا كله؛ وهي الصديقة بنت الصديق زوجة رسول الله ﷺ وما عُرف عنها من التقى والطهر والعبادة ومحبة رسول الله ﷺ لها، ومحبتها لرسول الله ﷺ.

ثم توضح أم المؤمنين في هذا الحديث نزول الوحي، وكشف الحقيقة من الله تعالى (...ولا خرج أحدٌ من أهل البيت حتى أُنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاءِ[1]، حتى أنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان ـ وهو في يوم شات ـ من ثِقل القول الذي أُنزِل عليه، قالت: فَسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: يا عائشة، أمَّا الله فقد برَّأك، قالت: فقالت: لي أمي: قومي إليه، فقلت: لا والله لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله عزَّ وجلَّ. قالت: وأنزل الله تعالى (النور:آية ١١) (إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم...) العشر الآيات. ثم أنزل الله تعالى هذا في براءتي. ...)[2]

وعندما وصل الهمُ بها ذِرْوَتَهُ، واشتد أمر التنقيب في الإفك، نزل الوحي من رب العالمين، المطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ليفصل الحق من الباطل. فتقول رضي الله عنها: (فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزِل عليه....فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: (يا عائشة، أمَّا الله فقد برأك.)

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ

---

[1] البرحاء: شدة الكرب مع العرق. ابن حجر، فتح الباري (٤٧٦/٨) وهو ما يكون عليه صلى الله عليه وسلم حال نزول الوحي بالقرآن الكريم.

[2] البخاري (١٢٣/٣ـ١٢٦) برقم (٤١٤١)

بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ
ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ
بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ
﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ
﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِۚ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

بهذه الآيات الكريمات العظيمات نزلت براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، إضافة إلى ما فيها من الفوائد والمواعظ الأخرى العظيمة (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين)

تفـيد هذه الآيات العظيمات الكريمات التي سجلت براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها فوائد جليلة، ودروساً غاية في التثبت والتـزام مكارم الأخلاق، فمن ذلك: أن هذا الحدث ليس شراً لمن لم يخض فيه، بل هو خير (لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم) ليتضح للمؤمنين في هذا التوجيه الكريم قصور العلم البشري، الذي لا يـرى في الحدث إلا صورة الشر، ليبين العليم العظيم أن في ذلك خيراً: من التنويه بذكـر أم المؤمـنين عائشـة رضي الله تعالى عنها، ورفع الدرجات وتكفير السيئات. وتعليم المؤمنين دروساً وعظات، والمنهجية الصحيحة في التثبت؛ ومنهجية التعامل مع الإشـاعات في مثل هذا الأمر. وتعظيم وعظم هذا البهتان الذي لولا فضل الله تعالى (لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم) وأن هذا الأمر عند الله عظيم؛ وفي أعين الناس أمر يسير (تحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم)

إن من خير هذا الأمر: أن يدرك المؤمنون في كل زمان أن هذا الدين نزل على بشر؛ غير معصومين، فيعلمهم ويربيهم بالمنهجية الربانية التي تربي المؤمن وتبين له المسلك الصحيح فيما يحدث من أمور تحطم العلاقات؛ وتفسد النيات بالظنون الكاذبة؛ والإشاعات والأراجيف الباطلة. بل ومن خير هذا الأمر معرفة مسلك المؤمن عندما يصاب بمثل هذا، في مثل ما تمثلت به أم المؤمنين، وكذا صفوان بن المعطل رضي الله تعالى عنهما. ومن خير هذا الأمر معرفة المنهج النبوي في التعامل مع هذا الحدث، وكيف عالجه ﷺ وما تجلى فيه وتحلى به من الصبر والحلم والتعقل والتثبت، وكذلك ما حصل من الأبوين أبي بكر وزوجته أم رمان رضي الله تعالى عنهما أثناء ذلك الحدث؛ كما سبق بيانه أثناء عرض هذه القصة. وكذلك ما ظهر من آثار خطيرة كادت أن توقع فتنة بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم. ومن خير هذا الأمر بيان العقوبة من الله تعالى لمن تولى كبر هذا الأمر، وإثم من خاض فيه.

ومن فوائد هذه الآيات العظيمات: تقديم الظن الحسن فيما يشاع عن المؤمنين والمؤمنات، وأن المبدأ الإسلامي يقوم على أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا، بما يدفعهم إلى تكذيب الإشاعات في محيطهم، وأن تكون القاعدة الخُلُقية للمؤمنين أن الأصل بهتان الإشاعة حتى تثبت بالدليل الشرعي القاطع. وفي هذه القاعدة فوائد جليلة تُدرَك بالتأمل فيها.

ومن فوائد هذه الآيات العظيمات: أن لا يُقبل القول في هذا الأمر إلا بأربعة شهود، ومن يقل بمثل ذلك دون أولئك الشهود فحكمه كاذب كائناً من كان.

كما تبين هذه الآيات الكريمات صفة الرحمن الرحيم، وحلمه ورحمته بعباده، إذ لولا ذلك (لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) بما يفيد المؤمن أن الله تعالى حليم رحيم، ولولا ذلك لتوالت العقوبات على ما يقترف العباد من الذنوب، فلله الحمد والمنة.

وتفيد هذه الآيات العظيمات: أن المنطلق الذي سار من خلاله هذا الحدث هو الاعتماد على الأقوال دون العلم بحقيقة الأمر (إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) مما يفيد أن القول ليس علماً إلا إذا كان حقيقة. والمنطلق الآخر هـــو الاســـتهانة بهذا القول في هذا الأمر (وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم) مما يفيد المؤمن والمؤمنة أن المرجعية في تعظيم الأمر هو ما عظمه الله تعالى، وأنه يجب تعظيم ما عظم الله تعالى، وعدم الاستخفاف به.

ثم تأتي منهجية التعامل التي سبقتها أولاً: الظن بالخيرية في أمر المؤمن والمؤمنة، ثم عدم التكلم والخوض في هذا الأمر، بأن يقول المؤمن والمؤمنة (ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم)

ثم تفـــيد الآيـــات العظيمات النهي الربانـــي من أن يعود المؤمنون لمثل هذا المسلك بعد هذا البيان والعظة (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين)

ثم نهـــى الأمة عن محبة إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا؛ فكيف بمن يسعى فيها (إن الذيـــن يُحبون أن تشيع الفاحشة قي الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة، والله يعـــلم وأنتم لا تعلمون) فلقد جاءت خاتمة الآيات موجهة ومربية بالترغيب بعد الترهيب (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم)

وفي مشهد آخر تبين رضي الله تعالى عنها موقف أبي بكر الصديق من مسطح؛ بعد نزول الوحي، فتقول: (... قال أبو بكر الصديق: وكان يُنفق على مِسطحِ بن أثاثة لقرابته منه وفقره،: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال. فأنـــزل الله تعـــالى (النور:٢٢) (ولا يأتل أولوا الفضل منكم ــ إلى قوله تعالى: غفور رحـــيم) قال أبو بكر الصديق: بلى. والله إني لأحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ ســـأل زينـــب بنـــت جحش عن أمري، فقال لزينب: ماذا علمت أو رأيت ؟ فقالـــت: يـــا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرا. قالت عائشة،:

وهـــي الـــتي كانت تُساميني من أزواج النبي ﷺ عصمها الله بالورع. قالت: وطَفِقت أخـــتُها حمـــنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك). قال ابن شهاب: فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط. ثم قال عروة: (قالت عائشة والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل لـــيقول: سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت من كنف أنثى قط. قالت: ثم قُتل بعد ذلك في سبيل الله)[1]

ويفـــيد هذا المشهد، حِلم أبي بكر الصديق ﷺ إذ لم يتخذ قراراً بشأن مسطح ﷺ إلا بعد نزول الوحي بتزكية أم المؤمنين عائشة ـــ رضي الله تعالى عنها ـــ مما يدلل على المنهجية الإسلامية التي قد تأصلت لديه ﷺ من التثبت وعدم الاستعجال، وهذا يؤكد المنهجية التربوية الإسلامية لأتباع هذا الدين، من الأخذ بالتؤدة والحلم والتثبت. ولكـــن سرعان ما يتراجع أبو بكر الصديق عن قراره بوقف ما كان يعطيه لمسطح ﷺ تجاوباً مع ما أنزل الله تبارك وتعالى، فيقول ﷺ (بلى. والله إني لأحب أن يغفر الله لي) فتـــتجاذب لتلك التوجيهات الربانية مسامع وفؤاد أبي بكر الصديق مع الرجل الذي خاض في الإفك.

وهـــذا التوجيه الإسلامي العظيم يفيد أهمية استمرارية جريان الخير، وما يتبعه أو يســـبقه من الصفح والعفو، مما يؤكد أن هذا الدين الإسلامي العظيم يُربي في أتباعه التســـامح والعفو عن المسيء، بل وإسدال الخير له. والذي طبقه على الفور أبو بكر الصديق ﷺ بل يقول أبو بكر ﷺ مؤكداً ذلك (والله لا أنزعها منه أبداً)

ويفـــيد كذلك هذا المشهد مصداقية أم المؤمنين زينب بنت جحش في ضرتها عائشـــة رضي الله تعالى عنهما. وهي التي كما تقول عائشة (تساميني) "أي تطلب من العلـــو والرفعة والحضوة عند النبي ﷺ ما أطلب"[2] وهذا يعطي درساً تربوياً عظيماً لما

---

[1] البخاري (٣/١٢٣ــ١٢٦) برقم (٤١٤١)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٨/٤٨٧)

يجـــب أن تتحـــلى به المرأة مع ضرائرها؛ من الصدق والعدل، وأن لا يحملها التنافس والغيرة إلى الفرح بالتهم الكاذبة وتأييدها.

وفي ختام هذا المشهد يتبين أيضاً حال الصحابي الجليل صفوان بن المعطل ﷺ ذلـــك الـــرجل الذي نقلت عنه أم المؤمنين قوله: (سبحان الله، فوالذي نفسي بيده ما كشفت من كنف أنثى قط، قالت: ثم قُتِل بعد ذلك في سبيل الله).

فلقـــد أعطى ﷺ درساً في نزاهة ثوبه، من أنه ما كشف عن ستر امرأة قط في حياته، ثم يختتم الله تعالى حياته بأن قُتل في سبيل الله تعالى. وإن في نزول القرآن الكريم بتبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، تبرئة له أيضاً ﷺ

الفصل الثامن

من غزوة الخندق
إلى غزوة الحديبية

غزوة الخندق (الأحزاب):

وفي شوال من سنة خمس للهجرة النبوية كانت غزوة الأحزاب.[1]

وكان سبب قدوم الأحزاب؛ أن نفراً من بني وائل ونفراً من أشراف يهود بني النضير الذين أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، قد اجتمعوا بأشراف قريش وألَّبوهم على حرب النبي ﷺ ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة؛ فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غَطَفَان فَدَعَوهم، فاستجابوا لهم أيضاً، وخرجت قريش في أحابيشها، ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان؛ صخر بن حرب، والجميع قرابة عشرة آلاف.[2] فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة.[3] بمشورة من سلمان الفارسي ﷺ كما قيل في بعض الروايات[4] فكان حفر الخندق عملاً إبداعياً لم تعرفه العرب من قبل، فكان ذلك أحد الأسباب في صد عساكر المشركين، بتوفيق الله تعالى ونصره.[5] ولقد انبهرت قريش بما رأت من هذا العمل الإبداعي الجديد الذي لم تعرفه العرب من قبل، مما يؤكد أهمية إمعان الذهن والفكر بما تتقوى به الأمة، لتعالج قلة العدد، بإبداع الفكر بعد توفيق الله تعالى والالتجاء إليه سبحانه وتعالى.

ويروي أنس ﷺ صورة من حال المسلمين وهم يحفرون ذلك الخندق؛ فيقول ﷺ (جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقلون التراب على متونهم، وهم يقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً ‏ ‏ ‏ ‏ على الإسلام ما بقينا أبدا

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٢٢٤)

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٤٧٨) وابن هشام، السيرة النبوية (٣/٢٢٥—٢٢٦)

(3) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٢٢٦)

(4) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٦٦) وابن حجر، فتح الباري (٧/٣٩٣)

(5) خالد بن حامد الحازمي، التربية الإبداعية، ص (١٧)

قال: يقول النبي ﷺ وهو يُجيبُهم: اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فبارك في الأنصار والمهاجرة. قال: يأتون بملء كفي من الشعير، فَيُصنع لهم بإهالة سَنِخة توضع بين يدى القوم، والقوم جياع، وهي بَشِعَة في الحلق، ولها ريح منتن)[1]

ويبين هذا الحديث أنه لم يكن لديهم من يقوم بهذا العمل المُجْهِد غيرهم، فكانوا يمارسون حفر الخندق بأنفسهم رضي الله تعالى عنهم، وهم يرتجزون بهذا البيت، فيجيبهم ﷺ بكلمات تبين لهم أن الخير الحقيقي هو خير الآخرة، مما يُحفزهم لبذل الجهد ابتغاء ذلك الأجر العظيم، بل فيها ما يدعو إلى تحقيق التوحيد، واستصحاب النية الصالحة، لأن تَذَكّر الآخرة أثناء ممارسة العمل ونعيمها الحقيقي يدفع المرء إلى ابتغائها، وكأنه يدفع ذلك ثمناً لها، وبالتالي تنصلح النية التي هي شرط في قبول العمل.

وهذا يُفيد أهمية التذكير والتشجيع للخير وبالخير، وشحذ الهمم في الأعمال الشاقة بمثل تلك الأقاويل، وأن على المسؤول أن يشارك من معه بالتشجيع والمماثلة، وأن يكون حريصا على مصلحتهم الأخروية من خلال اختيار العبارات ذات المضامين التي تحقق ذلك، وتذكرهم بها.

ثم يفيد هذا الحديث شظف العيش الذي كانوا عليه في تلك الفترة، أو في ذلك الزمن، فيأتون بملىء كفي من الشعير، فيصنع لهم بإهالة أي دُهن قد تغير طعمه لقدَمه، ولذلك وصفها بأنها سنخة؛ أي تغير لونها وطعمها من القِدَم، ولذلك فهي بشعة في الحلق، ولها ريح كريهة. مما يعني أنهم واجهوا مع شدة العمل شدة الطعام، فصبروا وبذلوا الوسع؛ حتى أنجزوا رضي الله تعالى عنهم أجمعين ذلك العمل العملاق، بما يعطي درساً في أهمية الصبر، وأن ما يلقاه المسلم من شظف الحياة لا يعني غضب الله تعالى على العبد، بل قد يكون فيه خير عظيم؛ وأجر جزيل؛ ودفع مصائب لا يعلمها العبد، إضافة إلى ما في ذلك من تدريب له على ما سيأتيه بعد ذلك مما يجهله من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الحق تبارك وتعالى.

---

[1] البخاري (٣/١١٥) برقم (٤١٠٠)

ومن الدروس المستفادة أيضاً، أنه إذا كان رسول الله ﷺ وأصحابه قد واجهوا ذلـــك، فحري بمن هو دونهم أن يجد نحو ذلك، فلا ييئس ولا يسخط. ثم لِيُقدِّر كُلُ مسلم لهم ما قدموه وبذلوه لهذا الدين حتى وصل إلينا، ففي الحديث ما يدل على أنهم ــ رضـــي الله تعالى عنهم ــ قد نقلوا لنا دقائق هذا الدين وأحداثه وتفاصيله حتى في وصف الدهن الذي يأدمون به شعيرهم، بل حتى درجة ما كانوا يستسيغونه من ذلك. مما يدل على دقة منهجية الوصف والنقل، والأمانة في ذلك، مما يلزم انعكاس أثره على الباحث والدارس المسلم، والصحفي الذي ينقل الحدث بأن ينقله بصدق وأمانة.

وفي مزيد من الوصف لأعمال الخندق وما يعترضهم من صعوبات، يقول أيمن (أتيت جابراً رضي الله عنه: فقال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كيدة شديدة، فجاؤا النبي ﷺ فقالوا: هذا كُدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل. ثم قام، وبطنه معصوب بحجر،...)[1]

فيـــبين هـــذا الحديث صعوبات الحفر التي كانت تواجههم بشدة، لقوة أرض المدينة، حتى أنهم يَعْجَزُون عن تفتيت بعض قوة الأرض بما عندهم من أدوات في ذلك الوقـــت، فَيَعْرِضُون أمر ذلك على النبي ﷺ الذي قد ربط على بطنه حجارة من شدة الجوع الذي يعاني منه ﷺ فيقول لهم ﷺ (أنا نازل) ليواجه تلك الكيدة، وهي القطعة الشديدة الصلبة من الأرض، ليضربها ﷺ فيريه الله تبارك وتعالى ما سيصل إليه أمر هذا الديـــن. ففـــي رواية لأحمد بن حنبل، أن النبي ﷺ (ضرب ضربة، فكسر ثُلُث الحجر وقال: الله أكبر أُعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا، ثم قـــال: بسم الله وضرب أخرى فكسر ثُلُث الحجر، فقال: الله أكبر أُعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن، وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا، ثم قال: بسم الله

[1] البخاري (٣/١١٥ــ١١٦) برقم (٤١٠١)

وضـــرب ضربة أخرى، فقلع بقية الحجر، فقال: الله أكبر أُعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا.)[1]

إن مضـــمون هذا الحديث الذي تحقق لهذه الأمة، يدلل على نبوته ﷺ بمعجزة قد كشفها الله تعالى له عليه الصلاة والسلام، وهو في ذلك المكان الجهادي، وفي تلك الحالـــة مـــن الجـــوع الشديد، الذي يضيف جابر ﷺ مزيداً من تفاصيله؛ بل ومزيد معجـــزة، فيقول: (... ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب في الكُديـــة، فعاد كثيباً أهيلا أو أهْيَم. فقلت: يا رسول الله إئذن لي إلى البيت. فقلت لامـــرأتي: رأيـــت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر، فعندك شيئ ؟ فقالت: عندي شعير وعَناق[2]. فذبحت العَناق، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحمة بالبرمة. ثم جئت الـــنبي ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضَجَ، فقلت: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان. قال: كم هو ؟ فذكرت له، فقال: كثير طيب، قال: قل لها لا تنـــزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتيَ، فقال: قوموا. فقام المهاجـــرون والأنصـــار. فلما دخل على امرأته قال: ويحك، جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصـــار ومن معهم. قالت: هل سألك ؟ قلت: نعم. فقال: أدخلوا ولا تضاغطوا. فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم، ويُخمِّر البرمة والتنور إذ أخذ منه، ويقرب إلى أصـــحابه ثم ينـــزع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقي، قال: كُلا هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة.)[3]

إن هـــذه الرواية تبين ما أصاب رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم مـــن المســـغبة، وهو ابتلاء من الحق تبارك وتعالى الذي بينه عزَّ وجلّ في كتابه الكريم

---

[1] أحمد (٣٠٣/٤)

[2] العناق الأنثى من ولد المعز قبل استكمالها الحول والجمع أَعْنُقُ وعُنُوق.

[3] البخاري (١١٥/٣ــ١١٦) برقم (٤١٠١)

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ (١)

وفي هذا درس عملي وتطبيقي على أن أفضل الخلق ﷺ وأصحابه الأخيار قد ابتلاهم الله تعالى بالجوع، فليكن ذلك تسلية وموعظة لكل من أصابته مخمصة.

ثم يظهر كرم هذا الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وقد آثر رسوله ﷺ على نفسه ، ثم هذا الأجر الذي تضاعف له بحبه لرسوله ﷺ وإيثاره فأطعم الله تعالى به عدداً كبيراً وهو طعام لا يكفي إلا لعدد ذكرهم لرسول الله ﷺ (أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان) فبلغ عددهم ألف رجل، كما في رواية جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال (... وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغُطُّ كما هي، وإن عجيننا ليُخبز كما هو)(٢) وفي ذلك معجزة نبوية عظيمة بتكثير الطعام القليل. وفيه تواضعه ﷺ إذ كان هو الذي يغرف لأصحابه، مما يبين أن المرء وإن علت رتبته فلا يضره ولا يُنقص من قدره خدمته للآخرين.

ومن صور حفر الخندق المشاركة الفعلية منه ﷺ لأصحابه في حفر الخندق، إذ لم يكن دوره إشرافي فقط، بل كان يجهد كما يجهدون في ذلك العمل الجهادي الكبير، فعن البراء (لما كان يوم الأحزاب وخَنْدَق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى التراب جلدة بطنه ـ وكان كثير الشعر ـ فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب، يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبِّتِ الأقدامَ إن لاقينا

إن الألى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

---

(١) سورة البقرة: آية رقم (١٥٥)

(٢) البخاري (١١٦/٣) برقم (٤١٠٢)

قال: ثم يَمُدُّ صوتَه بآخرها.)[1]

فلقـــد غطى التراب جلدة بطنه ﷺ من أثر عمله الجاد في ذلك الخندق، وهو نبي هذه الأمة، لِيُقدِّم درساً لأتباعه، بأن الكبير والرئيس قدوة في كل جانب، ومشاركٌ لأعوانـــه فـــيما يعملون ويجتهدون فيه، وإن في ذلك تشجيع، وعون ومساعدة لهم، وإشعارهم بالوحدة والتعاضد والتواضع. وبالتالي فإن الميدان الإداري الذي يفقد مثل هذه الصورة؛ قد يعجز عن رسم التآخي فيمن يعملون في إطاره، ومثله الميدان التربوي والأســـري، وكذلـــك في دائرة الأصدقاء والأصحاب. فإنها التربية النبوية في صورها الفاعلة المؤثرة، والتي تنسج للأمة أفضل وأعظم أسلوب تربوي.

ومزيد من المشاركة النبوية؛ بكلمات جميلات يَشِدُّ بها عزيمة من يعملون، حتى أنـــه ﷺ يمد صوته بآخرها، فيكون من ذلك زيادة في التأثير. وهذا يؤكد ويبين أنه لا بأس بمثل هذه الكلمات إذا ارتجز بها الناس في أعمالهم، وأنشدوا بها. بل إنها من السنة، لفعله ﷺ

وقد انتهى المسلمون من حفر الخندق في ستة أيام.[2]

ولكـــن لم يخـــلُ هذا العمل من تكاسل المنافقين، وتسللهم من ميدان العمل الكريم، ففي أثناء عمل المسلمين في الخندق كان رجال من المنافقين يستترون بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم رسول الله ﷺ بينما الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق بحاجـــته، فـــيأذن له، فـــإذا قضـــى حاجته رجع إلى ما كان من عمله، رغبة في الخير واحتساباً له.[3]

---

[1] البخاري (٣/١١٦ـــ١١٧) برقم (٤١٠٦)

[2] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٦٧)

[3] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٢٢٦ـــ٢٢٧)

وقد خرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى جبل سلع داخل المدينة، ووجوههم إلى الخندق الذي يفصل بينهم وبين المشركين الذين نزلوا بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة. وقد كان عدد جيش المسلمين ثلاثة آلاف مقاتل[1]

ويظهر هنا عدم التكافؤ بين عدد الأحزاب الذين بلغوا عشرة آلاف؛ وبين المسلمين الذين بلغ عدد جيشهم ثلاثة آلاف، ولكن التكافؤ العددي ليس هو سبيل النصر في الإسلام، فلم ينتصر الإسلام بالعدد، وإنما نَصْرُهُ بقوة الله تعالى ونُصْرَتِه لجنده إذا أخذوا بأسباب النصر؛ من الإيمان والتقوى والطاعة؛ مع الاستعداد المادي بما استطاعوا به من قوة.

وقد تفاجأت قريش بالخندق الذي واجههم، كحاجز لهم عن دخول المدينة ومحاربة المسلمين، فضربوا حصاراً على المدينة، وقد دام الحصار أكثر من عشرين يوماً، وأثناء هذا الحصار والمناوشات، تنبجس ثغرة جديدة على المسلمين، وهي نقض بني قريظة للعهد مع الرسول ﷺ وقد سمع رسول الله ﷺ بنقض بني قريظة العهد مع المسلمين في أحلك الظروف، وذلك عندما اشتد الكرب بالمسلمين، فأرسل ﷺ إليهم من يأتي بخبرهم.فأرسل الزبير ﷺ ثم أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير. وقد كان موقع بني قريظة في العوالي من المدينة، مما يمكنهم من السيطرة على المدينة في انشغال جيش المسلمين بالأحزاب.[2] وقد زاد هذا من كرب المسلمين، ذلك الكرب الذي وصفه الله تعالى في كتابه الكريم، فَبَيَّنَ فيه خلجات النفس وأحاسيسها التي لا يطّلع عليها أحد من البشر، ما لم يتكلم بها صاحبها، ويكشف عن مكنونها، وهي تلك الحالة الإيمانية التي ارتقوا بها في ذرى السمو والرِّفعة، وكذلك الحالة النفسية للمنافقين وما يختلج في نفوسهم، وما ظهر

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٢٣٠–٢٣١)

[2] انظر القصة من هذا الكتاب في إجلاء بني قريظة، بعد تمام هذه الغزوة.

منهم من تخاذل، قال تعالى ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩)﴾ (١)

فلقد كان الأحزاب من فوقهم، وبنو قريظة من أسفل منهم، يقول حذيفة: وما أتت علينا قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون : إن بيوتنا عورة وماهي بعورة، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم فيتسللون....قال متعب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط. وقال الحسن في قوله تعالى (وتظنون بالله الظنونا) ظنون مختلفة: ظن المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه يُستأصلون، وأيقن المؤمنون

---

(١) سورة الأحزاب: آيات (١٠ــ١٩)

أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون.[1]

فيتبين من مُجْمَل الآيات السابقات، انقسام الناس إلى فريقين بعد أن بلغ بهم الخوف كل مبلغ: فأما أهل النفاق فيبحثون عن الفرار والأعذار ويتسللون، وإنها منهجية عملية تدل على سوء الظن بالله تعالى في نصرة رسوله ﷺ وعباده المؤمنين. مما يبين أن على المسلم أن يصبر وقت الشدائد ويتصبر ويثبت، ويظن بالله كل خير، مهما بلغت به الشدة والكرب، فإن التمحيص أمر ظاهر في عباد الله تعالى، فيتخذ المسلم من هذه السيرة النبوية والمنهجية العملية قدوة وأسوة ودرساً ومنهجية يتعامل معها في أمور حياته على مستوى الفرد أو على مستوى الأمة فيما يصيبها.

ومن شدة البلاء الذي وقع على المسلمين بتجمع الأحزاب عليهم؛ أنهم شغلوهم عن صلاة العصر، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس، جعل يسب كفار قريش، وقال: يا رسول الله، ما كدت أن أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب. قال النبي ﷺ : والله ما صليتها: فنزلنا مع النبي ﷺ بُطْحان، فتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب.)[2]

وانزعاج عمر رضي الله عنه لتأخير الصلاة عن وقتها وعرضه ذلك على رسول الله ﷺ وكذا القسم من رسول الله ﷺ يبين مدى تعظيم رسول الله ﷺ وكذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعموم الصحابة لأداء الصلاة في أوقاتها حتى في الحرب، وفي أحلك الظروف، فكيف إذا كانت في غير مثل تلك الظروف. وهذا يؤكد ويبين أن المنهجية العظيمة التي كانت سائدة في أداء الصلوات أنها لا تؤخر عن وقتها، وأنهم يستعظمون التأخير، فَيُستَفاد من ذلك أن على الأمة أن تستشعر أهمية أداء الصلاة في أوقاتها وتستعظم ذلك، حتى ولو كانوا في أوقات عصيبة، فكيف بمن يؤخرها وهو في رخاء وبلا عذر.

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٤٨٠ـ٤٨١)

(2) البخاري (٣/١١٨) برقم (٤١١٢)

ويبين الله تعالى في آية أخرى منهجية أهل الإيمان التي أخذ بها أصحاب رسول الله ﷺ قال تعالى ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾[1] وبهذا الوصف الإيماني من الله تعالى لحالة المؤمنين، يبرز عامل الثبات على المحن والإبتلاء والثقة بالله تعالى في كل وقت وحين. وأما الوعد المذكور في الآية الكريمة الذي كانوا يقولون به؛ فيذكره ابن عباس وقتادة رضي الله تعالى عنهم، بأنه قوله تعالى في سورة البقرة ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾[2] أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب، وما زادهم ذلك الحال والضيق والشدة إلا إيماناً بالله تعالى وانقياداً لأوامره وطاعة رسوله ﷺ[3]

ويستفاد من هذا أن على المؤمن أن يتحلى بما تحلى به أصحاب رسول الله ﷺ عندما تواجهه بعض الكربات، التي بلغت بهم مبلغاً عظيما، وأن لا يستكثر على نفسه ما يصيبه من ابتلاء؛ ويرى في نفسه أنه لا يستحقه، أو ينتكس ظنه بالله تعالى، مما يؤكد أهمية الدعاء والإلتجاء إلى الله تعالى بالتثبيت في كل موقف، فالإنسان ضعيف إلا بعون من الله تعالى.

وقد كان ﷺ يواجه ذلك الكرب بالدعاء والإلتجاء إلى الله تعالى، فعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما، يقول (دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب، فقال: اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب. اللهم اهزمهم وزلزلهم.)[4]

---

(١) سورة الأحزاب: آية رقم (٢٢)

(٢) سورة البقرة: آية رقم (٢١٤)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٨٣/٣)

(٤) البخاري (١١٨/٣) برقم (٤١١٥)

فالدعـــاء سلاح المؤمن في جميع أحواله، لطلب نفع أو لدفع ضر، والمتأمل في هـــذا الدعـــاء يلاحـــظ فيه البدء بتمجيد الله تعالى، بذكره ووصفه بمحامد ومحاسن الصـــفات، (الـــلهم منـــزل الكتاب، سريع الحساب) ثم يلي التمجيد الطلب من الله تعالى.

وعـــن عن أبي هريرة ﷺ (أن رسول الله ﷺ كان يقول: لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده.)[1]

ثم عودة إلى بني قريظة، فلما سمع رسول الله ﷺ بخبرنقضهم للميثاق ارسل من يســـتوثق له الخـــبر، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، (قال رسول الله ﷺ يوم الأحـــزاب: من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير: أنا. ثم قال: من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير: أنا. ثم قال: من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير: أنا. ثم قال: إن لكل نبي حوارياً، وإن حواري الزبير.)[2] وقصة الزبير كانت لكشف خبر بني قريظة، هل نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين ؟ ووافقوا قريشاً على محاربة المسلمين ؟ [3]

وهذا الحديث يبين شجاعة الزبير ﷺ وقوته. فاستحق بذلك الإيمان والشجاعة ذلـــك الوصـــف والخصوصية من رسول الله ﷺ بأنه حواري النبي ﷺ أي خاصتي من أصحابي وأنصاري.[4]

ولقد كان ﷺ حريصاً أشد الحرص على الجوانب الأخرى؛ والثغور التي يمكن أن يؤتى المسلمون من خلالها، فقد أخذ الحيطة من بني قريظة، فكان ﷺ يبعث سلمة بـــن اسلم في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل؛ يحرسون المدينة، ويُظهرون التكبير، وذلك أنه كان يخاف على الذراري من بني قريظة.[5]

---

[1] البخاري (٣/١١٨) برقم (٤١١٤)

[2] البخاري (٣/١١٨) برقم (٤١١٣)

[3] ابن حجر، فتح الباري (٧/٤٠٧) وكذلك الحديث رقم (٣٧٢٠) من صخيح البخاري

[4] ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٤٥٧)

[5] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٦٧)

وهـــذا يؤكـــد أهمية القيادة في تحري جميع ما يمكن أن يحصل، وأخذ الحيطة والحـــذر، بل يفيد بأن يأخذ المسلم به في شؤنه إذا خشي على بعض أموره، كما يبين هذا أهمية اليقظة وقت الشدة للأعداء الذين يتربصون ويتحينون الفُرَص.

وللمزيد من الحرص فقد وضع رسول الله ﷺ النساء والأطفال في أُطُم حصين، فعن عبد الله بن الزبير، قال: (كنت أنا وعمر بن أبي سلمة يوم الخندق مع النِّسوة، في أُطُم حسان)[1]

وإزاء هذا الحصار الطويل يبين الله تعالى كيف نصر المسلمين وهزم الأحزاب وحده بقوته وجبروته سبحانه وتعالى، قال تبارك وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ ﴾[2]

عـــن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال (نُصرت بالصبا، وأُهلِكَت عاد بالدَّبور.)[3]

والصبا هي الريح الشرقية، والدَّبور هي الريح الغربية.[4] قال حذيفة ﷺ (لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وَقُرٌّ...)[5]

ولمـــا رأى أبو سفيان ما أصابهم أدرك أنه لا مقام ولا قدرة لهم، بل إن الأمر كلـــه علـــيهم قـــد انقلب، فقلوبٌ قد أصابها الفزع، وقدورٌ قد انجفت، ونيرانهم قد انطفت، وخيام قد اقتلعتها الصبا، فقال: يا معشر قريش ! إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقـــام، لقـــد هلك الكراع (الخيل) والخفّ، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكـــره، ولقيـــنا مـــن شدة الرِّيح ما ترون، ما تطمئن لنا قِدْر، ولا تقوم لنا نار، ولا

---

[1] مسلم (١٨٧٩/٤) برقم (٣٤١٦)

[2] سورة الأحزاب: آية رقم (٩)

[3] البخاري (١١٦/٣) برقم (٤١٠٥)

[4] ابن حجر، الباري (٤٠٢/٧)

[5] صحيح مسلم (١٤١٤/٣ــ١٤١٥) برقم(١٧٨٨)

يستمسك لنا بناء، فارتحلوا، فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم.[1]

وهذا الكلام لأبي سفيان يبين مقدار ما أصابهم، فانقلبوا خائبين. فلا رجعة لهم إلى المدينة بعد هذه الغزوة، كما بين ذلك رسول الله ﷺ فعن سليمان بن صُردٍ يقول (سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلَى الأحزاب عنه: الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم.)[2]

وأما فيما يتعلّق بمنعة الخندق وما دار بين المسلمين والأحزاب، فيذكر ابن هشام : أنه لم يكن بينهم قتال غير أن بعض فرسانهم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه، وخرج لهم علي بن أبي طالب ﷺ مع نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم. وقد بارز علي بن أبي طالب ﷺ عمرو بن عبد ود، فتنازلا وتجاولا فقتله علي ﷺ وخرجت خيلهم مُنهزمة، حتى اقتحمت من الخندق هاربة.[3]

وقد بين الله تبارك وتعالى أن المشركين لم ينالوا شيئاً، وعادوا خائبين خاسرين، قال تعالى ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾[4]

وقد استشهد ستة من المسلمين ، وقُتِل من المشركين ثلاثة نفر.[5]

وهذا يبين أن الله تعالى قد صدهم وهزمهم بريح الصبا التي اقتلعت خيامهم وقلبت قدورهم وأطفأت نيرانهم، وقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب؛ فخرجوا منهزمين، وكفى الله المؤمنين القتال، فكان ذلك القتلى من الطرفين. وإن في ذلك لعبرة

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (٢٤٣/٣)

(2) البخاري (١١٧/٣) برقم (٤١١٠)

(3) ابن هشام، السيرة النبوية (٢٣٤/٣ـــ٢٣٦)

(4) سورة الأحزاب: آية رم (٢٥)

(5) ابن هشام، السيرة النبوية (٢٦٤/٣)

بأن النصر من عند الله تعالى، وأن قوة الكفر لا تغني عنهم شيئاً إذا ما اتقى المسلمون ربهم؛ وأطاعوا أمره واجتنبوا نهيه، وجُنْدُ الله لا يحصيه أحد، وسُبُل النصر لا يَحدُها أحد. ولذلك فإن واجب المسلمين الاهتمام بالتربية الإسلامية، وتطبيق شريعة الله تعالى في أنفسهم ومجتمعاتهم ليكونوا سادة الأمم بالخير والصلاح والإصلاح.

وقد كان ﷺ ذاكراً لربه سبحانه وتعالى، مُتذكراً لنعمه، داعياً بها، والتي منها النصر في هذه الغزوة المباركة، كما في هذا الحديث العظيم، فعن عبد الله رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ كان إذا قَفَل من الغزو أو الحج أو العمرة، يبدأ فيكبر ثلاث مرارٍ، ثم يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. آيبون، تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون. صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.)[1]

غزوة بني قريظة:

عن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت (....فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق وضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل عليه السلام وهو ينفض رأسه من الغبار، فقال: قد وضعت السلاح، والله ما وضعتُه، أُخرج إليهم. قال النبي ﷺ: فأين؟ فأشار إلى بني قريظة...)[2] فتمت غزوة بني قريظة بعد غزوة الخندق في ذي القعدة؛ سنة خمس من مهاجره ﷺ [3]

وتفيد ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها: أن أمر يهود بني قريظة قد أمر الله تعالى به نبيه ﷺ وأن جبريل عليه السلام كان عوناً وجنداً من الله تعالى لرسوله ﷺ وأن اليهود بالمدينة قد طغوا بكفرهم وتعنتهم حتى أجلاهم الله تعالى من

---

[1] البخاري (١١٨/٣) برقم (٤١١٦)

[2] البخاري (١١٩/٣) برقم (٤١٢٢)

[3] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٧٤/٢)

مدينـــة رســـوله ﷺ وأن حياة رسول الله عليه الصلاة والسلام كانت مليئة بالجهاد، فينتهي من غزوة الخندق ويُؤمر ببني قريظة.

وفي هـــذا التتابع ما يفيد أهمية أن يتابع المسلم أمر الخير إذا شرع فيه، وأن لا يتوقف ما كان له في ذلك قدرة ونشاطاً، وفيه تشجيع جبريل للنبي ﷺ بأن قال له (قد وضـــعتَ السلاح، والله ما وضعتُه) وفي هذا تنشيط للنبي ﷺ وتشجيع بأن الله تعالى معهـــم، وأن جبريل معهم بسلاحه في غزوة الخندق، وكذلك سيكون معهم على بني قريظة، ويُستفاد من هذا أهمية العون والمساعدة من القائد لقواته، ومن المدير لموظفيه، وأن يُريهم من نفسه القوة والنشاط، فإن ذلك أدعى للعمل بقوة وهمة ونشاط.

وقـــد كان سبب غزوة بني قريظة نقضهم للميثاق والعهد مع رسول الله ﷺ بتحريض من عدو الله حُيَيُّ بن أخطب النَّضري، الذي جاء إلى كعب بن أسد القُرَظي، صـــاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه، وعاقده على ذلك وعاهده، فلما سمع كعب بحيى بن أخطب أغلق دونه الباب، فاستأذن عليه، فـــأبى أن يفـــتح له، فما زال يراوده على فتح الباب، وكعب القُرَظي يقول له: ويحك إنك امرؤ مشئوم، وإني قد عاهدت محمداً، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً، فرد عليه: ويحك ! افتح: وهو يراوده على فتح الباب، حتى فتح له، ومما قالـــه: جئتك بقريش وسادها؛ حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رُومة، وبغطفان على قادها وسادها؛ حتى أنزلتهم بذَنَب نَقْمى إلى جانب أحد، قد عاقدوني وعاهدوني على أن لا يـــبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه، ومما رد به عليه كعب : فدعني وما أنا عليه؛ فلم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء، فلم يزل حُيي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمح له، على أن أعطاه عهداً وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حِصنك حتى يُصيبني ما أصابك، فنقض كعب عهده وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ [1]

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٢٣٢)

وهكـــذا تحدث الخيانة من بني قريظة في وقت غزوة الخندق، التي اجتمع على المسلمين فيها عشرة آلاف مقاتل من الأحزاب، يُحاصرون المسلمين.

وهكذا الظانين بالمسلمين ظن السوء؛ يعتقدون أن الإسلام والمسلمين مقهورون بعدد وعُـــدَّة أعدائهم، وإنه لتقييم ساقط، واعتقاد فاسد، فلم يكن مصدر انتصار المسمين القـــوة وحدهـــا، بل توفيق الله تعالى ونصره. وهكذا عندما زُيِّن لليهود أمر اجتثاث الإسلام، نقضوا العهد والميثاق، بالرغم من أن كعب القُرَظي يقول عن رسول الله ﷺ: فدعـــني ومـــا أنا عليه؛ فلم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً..فهل جزاء الوفاء والصدق الخذلان والغدر ؟ وإنه لدرس يتكرر مع يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظه؛ من نقضـــهم للمواثيق، مما يؤكد أن هذا هو ديدن اليهود في المواثيق والعهود، فلا مواثيق لهم أبداً، وإنه لدرس للمسلمين في كل وقت وحين.

وكمـــا كـــان رسول الله ﷺ وفياً وصادقاً، فإنه عليه الصلاة والسلام تثبت وتأكد، من الخبر الذي انتهى إليه ﷺ وإلى المسلمين عن بني قريظة، ولم يتسرع مع قوم بيـــنه وبينهم ميثاق، فبعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ بن النعمان، وهو يومئذ سيد الأوس، وســـعد بن عبادة بن دُلَيم، أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وهو يومئذ ســـيد الخزرج، ومعهما عبدالله بن رواحة؛ أخو بني الحارث بن الخزرج، وخَوَّات بن جـــبير، أخو بني عمرو بن عوف، فقال: انطلقوا حتى تنظروا؛ أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحنا أعرفه[١] ولا تَفُتّوا في أعضاد الناس[٢] وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس، فخرجوا فوجدوهم على أخبث مـــا بلغهـــم عنهم. فأقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه، ثم

---

[١] اللحن : اللغز. وهو أن يخالف ظاهر الكلام معناه.

[٢] يقال: فت في عضده، أي أضعفه وأوهنه.

قــالوا: عَضَلٌ والقَارة. أي كغدر عَضَل والقارة بأصحاب الرجيع، خبيب وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين.[1]

وفي هــذا الحدث والنقض من بني قريظة، ما يبين أنه كانت تصيب المسلمين بعــض الابتلاءات، فهاهم أمام عشرة آلاف من الأحزاب، وإذا باليهود يخذلونهم من ورائهــم في المدينة، ويفتحون ثغرة في جدار الأمة، التي تواجه تكالب الأعداء عليها، ولكــن رسول الله ﷺ يعطينا من ذلك الدرس العظيم في مقابلة الأمور بحكمة وروية، ومراعاة لأحوال الذين معه من المسلمين، حتى لا يصيبهم الذعر والخوف، فيتثبت أولاً مــن صــحة الخبر، الأمر الذي يلزم أن يسلكه كل مسلم، حتى في أحلك الظروف وأصعبها، ثم يبعث بعدد من المسلمين ليتأكدوا من حقيقة الأمر، ثم يأمرهم ﷺ بأن لا يُعلــنوا النتيجة إن كانت الخيانة قد حصلت من بني قريظة، حتى يحافظ على معنويات المسلمين، ويحفظ تماسكهم، ويمنع ما قد يحدث من مغبة نشر الخبر. ثم يعلمهم الوسيلة في إخباره ﷺ، بأن يلحنوا بلغز يعرفه هو ﷺ ولا يدركه غيره من السامعين. فيبين عليه الصــلاة والسلام الوسيلة التعليمية لإيصال الخبر السري، مما يؤكد أهمية العمل على تماســك الأمــة في كل دائرة من دوائرها التي تعمل فيها، وأن القائد والحاكم والوالي والرئيس، قد لا يخبر أعوانه ببعض الأمور في الأوقات الحالكة إذا رأى في ذلك مصلحة راجحة للمسلمين. وعلى من تولى أمراً سرياً أن يحفظه ولا يبوح به لأحد.

ثم هاهم الرُّسُل من الصحابة يَقْدِمُون على رسول الله ﷺ فيخبرونه الخبر بلغز يعــرفه ﷺ ولا يدركــه من سمعه، ثم يقول عليه الصلاة والسلام متفائلاً :(الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين) إنها كلمات تحمل الثقة والبشرى وحُسن الاعتقاد وجماله في رب العالمين الذي لا يخذل رُسُلَه والصادقين المؤمنين. ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[2] ثم هكذا يكون المؤمن مستبشراً لا متشائماً،

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٢٣٢/٣)

[2] سورة غافر: آية رقم (٥١)

يبشـــر إخوانه ويتفاءل لهم، ولا يكدر خواطرهم في المواقف التي هم فيها اشد حاجة للـــتفاؤل، كمن يَقدِمُ على مكلوم أو مصاب أو مريض؛ فيبشره وينبسط له ومعه بما يشرح صدره من الصواب والمباح من الكلام.

ثم يَقْدِمُ رسول الله ﷺ وأصحابه على بني قريظة، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عـــنها (لما رجع النبي ﷺ من الخندق؛ ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل علـــيه السلام، فقال: قد وضعتَ السلاح، والله ما وضعناه، فاخرج إليهم. قال: فإلى أين، قال: ها هنا. وأشار إلى قريظة. فخرج النبي ﷺ إليهم)[1]

إنها أرادة الله سبحانه وتعالى بأولئك الغادرين الناكثين بالمواثيق، يتولى الله تعالى أمـــرهم، ليستأصل شرهم من المدينة المباركة. فيخرج رسول الله ﷺ يقول أنس رضي الله تعـــالى عنه (كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زُقاق بني غَنْم، موكب جبريل حين سار رسولُ الله ﷺإلى بني قريظة)[2]

فيصـــف لنا اعتلاء غبار جيش المسلمين وهو متجه إلى بني قريظة، وغباره قد عـــلا في زقـــاق أي سكة بني غَنْم، وهم بطن من الخزرج، وهم بنو غنم بن مالك بن النجار، منهم أبو أيوب الأنصاري وآخرون.[3]

وبعـــد أن وصل رسول الله ﷺ إلى بني قريظة حاصرهم ﷺ خمساً وعشـــرين ليلة[4]

حـــتى جهدهـــم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب.[5] فقال لهم رئيسهم كعب بن أســـد: يـــا معشر يهود ! قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً

---

(1) البخاري (٣/١١٨ــ١١٩) برقم (٤١١٧)

(2) البخاري (٣/١١٩) برقم (٤١١٨)

(3) فتح الباري (٦/٣١٠) وفي الحديث رقم (٣٢١٤) ورد بلفظ سكة بني غنم. وقال ابن حجر: ووهم من زعم أن المراد بهم هنا بنو غنم حي من بني تغلب، فإن أولئك لم يكونوا بالمدينة حينئذ.

(4) أحمد (٦/١٤٢)

(5) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٢٤٦)

ثلاثـــاً؛ فخذوا أيها شئتم: قالوا: وما هي ؟ قال: نتابع هذا الرجل ونُصَدِّقه، فوالله لقد تـــبين لكـــم أنـــه لـــنبي مُرْسَل، وأنه للّذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره، قـــال: فإذا أبيتم على هذه، فهلمَّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مُصْلَتِين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلاً، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نَهلَك نَهلِـــك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء، قـــالوا: نقتل هؤلاء المساكين ! فما خير العيش بعدهم ؟ قال: فإن أبيتم عليَّ هذه، فإن اللـــيلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نُصيب من محمد وأصحابه غِرّة، قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونُحدث فيه ما لم يحدث مَنْ كـــان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ ! قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً.[1]

يتـــبين مـــن هذا العرض الحالة النفسية الرديئة التي وصلوا إليها، من الخوف والفـــزع الذي ظهر في كلام سيدهم كعب بن أسد: حيث قال في مستهل كلامه: قد نـــزل بكم من الأمر ما ترون. ثم عدم قدرقم على التفكير والاختيار لما عرضه عليهم كعـــب بـــن أسد. فكل الثلاثة العروض رأوا أنها لا تُحقق مرادهم، ثم حكم سيدهم علـــيهم؛ بـــأن هذا هو ديدنهم، من الخلاف والاختلاف.الذي بينه الله تعالى في كتابه العزيز، فـــقـــال تعالى ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾[2] قـــال ابراهيم النخعي: يعني أهل الكتاب والمنافقين.[3] ثم إن كعب بن أسد قد بين لهم حقيقة مـــا يعرفون عن رسالة ونُبوة محمد ﷺ ولكنهم أبو ذلك، ورغبوا عما في التوراة، قال

---

(1) المرجع السابق (٣/٢٤٦ـــ٢٤٧)

(2) سورة الحشر: آية رقم (١٤)

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٣٦٤)

تعـالى عن نبوة محمد ورسالته في التوراة ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾(١)

فهاهم يكفرون بما لا يريدون من التوراة، ويختارون منها ما يريدون ويرغبون، فأنكروا نبوة محمد ﷺ وأخذوا بيوم السبت الذي قال الله تعالى عنه ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾(٢)

ولكـن إرادة الله تعـالى بأن يخذلهم بالرعب والخوف لقاء كفرهم وطغيانهم وغدرهـم، وسـوء نواياهم وأخلاقهم السيئة. وإنه لدرس لكل مؤمن ومؤمنة أن الله سـبحانه وتعـالى هو الناصر وهو القوي، ولا قوة فوق قوته، ولا ناصر من دونه؛ له الحكـم وإليه المصير سبحانه وتعالى، كما أنه درس عملي وبيان جلي لأخلاق اليهود وغدرهـم، وتعنتهم، وكفرهم، ونكرانهم لحقيقة الرسالة المحمدية، وقد بين ذلك أحد رجـال اليهود بعد أن منَّ الله تعالى عليه بالإسلام، وهو عبدالله بن سلام ﷺ فقد قال عند مجيئه لرسول الله ﷺ لِيُسْلِم (أشهد أنك رسول الله، وأنك جئت بحق. وقد علمتْ يهـود أني سيدهم وابنُ سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم عني قبل أن يعـلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت؛ قالوا فيَّ ما ليس فيَّ. فأرسل نبـيي الله ﷺ فأقـبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ يا معشر اليهود! ويلكم اتقـوا الله، فـوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحـق؛ فأسلموا. قالوا: ما نعلمه ـ قالوا للنبي ﷺ قالها ثلاثَ مرار ـ قال: فأي رجل فيكم عبدالله بن سلام ؟ قالوا: سيدُنا وابنُ سيدِنا، وأعلمُنا وابن أعلمِنا. قال: أفرأيتم إن أسـلم ؟ قالوا: حاشا لله ما كان لِيُسْلِم. قال: أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا: حاشا لله ما كان لِيُسلم. قال: أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم. قال: يا بن سلام

(١) سورة الصف: آية رقم (٦)

(٢) سورة البقرة: آية رقم (٦٦)

أخـــرج عليهم.. فخرج ، فقال: يا معشر اليهود! اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكـــم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت، فأخرجهم رســـول الله ﷺ) [١]

ثم بعـــد إبائهم على سيدهم كعب بن أسد، وعدم نزولهم عند أحد عروضه، أرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، وكانوا حلفاء الأوس؛ لنستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه، قام إليه الرجال، وجهش إلـــيه النســـاء والصبيان يبكون في وجهه، فرقّ لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة ! أترى أن نَـــنْـــزِل على حكم محمد ؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح. قال أبو لبابة: فـــوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفتُ أني قد خنت الله ورسوله ﷺ ثم انطلق أبـــو لـــبابة على وجهه، ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عَمـــده، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعتُ، وعاهد الله: أن لا أطأ بني قريظة أبداً، ولا أرى في بلد خُنْتُ الله ورسوله فيه أبداً.[٢]

يتبين من هذا العرض المزيد من حقيقة الحالة النفسية التي آلوا إليها من الخوف والرعب الذي أنزله الله تعالى في قلوبهم، فقد أجهشت النساء والصبيان يبكون في وجه الصحابي أبي لبابة ﷺ ولكنهم قوم بهت وكفر، اختاروا معصية الله تعالى ورسوله على الطاعة والامتثال الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور، فكانت عاقبة أمرهم خسرا.

ثم يتبين من موقف أبي لبابة رضي الله تعالى عنه، الطبيعة الإنسانية التي يمكن أن تحـــدث عند كل أحد، وهو الخطأ والرقة والشفقة التي قد تكون في غير محلها، ولكنه ﷺ استشعر الذنب، فيقول ﷺ فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنـــت الله ورســـوله. فـــلم يبحث ﷺ عن الأعذار والحيل النفسية التي تبرر الفعل،

---

(١) البخاري (٢/٧٢ــ٧٣) برقم (٣٩١١) وفي الحديث رقم (٣٣٢٩) يبين أن ابن سلام سأل رسول الله ﷺ أسئلة فأجابه عليها ﷺ فأسلم.

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية (٣/٢٤٧)

فيستشـــعر صواب العمل الخاطئ ويتأوله، ولكنه الإيمان الذي يتخلل القلب فيغمره؛ فيستشـــعر المرء الذنب إذا فعله؛ فيتوب إلى الله تعالى. فيخرج أبو لبابة رضي الله تعالى عنه إلى المسجد فيربط نفسه في أحد أعمدته، ويقول: : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعتُ، وعاهد الله: أن لا أطأ بني قريظة أبداً، ولا أُرى في بلد خُنْتُ الله ورسوله فيه أبداً.

فلقد ضرب لنا ﷺ مثلاً في استشعار الخطأ واللجوء إلى الله تعالى غافر الذنوب والـــزلات، ثم يأتي الموقف والدرس التربوي والعملي من رسول الله ﷺ فلم يؤنبه وقد استشـــعر خطـــأ صنيعه ﷺ ولم يؤلب عليه الناس، ولم يُحطم معنوياته، بل قال عليه الصلاة والسلام (أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، فأما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه).[1]

وإنه الدرس للوالد مع ولده والزوج مع زوجته، والمدير مع موظفيه، والرئيس مع مرؤوسيه، والحاكم مع رعيته، والصديق مع صديقه، والجار مع جيرانه، بأن يكون الصـــفح وقبول المخطئ واستيعابه وعدم تنفيره من المجتمع؛ وعدم تنفير الناس منه هو المسلك التربوي الصحيح الناجح ما لم يكن في حد من حدود الله تعالى، فيتم استيعابه بعـــد تطبـــيق الحد في حقه، فلا يسع المجتمع إلا قبوله واستيعابه ليكون لبنة صالحة في مجتمعه، بدلاً من التنفير الذي قد يجعله يتمادى في أخطائه.

ثم مكـــث أبو لبابة ﷺ في رباطه حتى تاب الله تعالى عليه، وأبى أن يُطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ فلما مر عليه ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه.[2]

---

(1) المرجع السابق (٣/٢٤٨)

(2) المرجع السابق (٣/٢٤٨) وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/٣١٣) عند تفسير للآية رقم ٢٧ من سورة الأنفال.

ثم بعـــد ذلـــك قَبِلَ بنوا قريظة أن يَـــنْــزِلوا على حكم سعد بن معاذ، فقال ســعد (فإني أحكم فيهم أن تُقْتل المقاتلةُ، وأن تُسبى النســـاء والذريـــة، وأن تُقســم أموالهم)[1] فقال رسول الله ﷺ (قضيت بحكم الله)[2]

فهكـــذا أحـــل الله بهم البوار وسوء العاقبة، فقد كذبوا برسول الله ﷺ وهم يعـــلمون أنـــه حق نبي لا ريب فيه، بما جاءهم عنه في التوراة، حتى أسلم حبر اليهود عبدالله بن سلام ﷺ وبما رأوا من صنيعه وفعله الذي يدل على نبوته ﷺ، حتى آمن به مـــن لا كـــتاب عـــندهم. ثم المهـــاودة بوثيقة قد حفظت حقوقهم في العيش والدين والدفاع، وكفالة مصالحهم، ثم ينقضون العهد والميثاق. ثم عدم اعتبارهم بما حل بيهود قيـــنقاع، ثم بيهود النضير. ثم خيانتهم لرسول الله ﷺ وللمسلمين في أحلك الظروف ليَسْـــبُوا نساء المسلمين ويعيثوا فيهم وفي المدينة فسادا. فهذه اعتبارات يستحقون بها هذا الجزاء

ونتيجة لتلك الخيانة ونقض العهد من يهود بني قريظة كانت تلك الغزوة التي حسمت أمرهم.

وفي حكم سعد بن معاذ ﷺ منقبة له، إذ قضى فيهم بحكم الله تعالى.

---

[1] البخاري (٣/١١٩) برقم (٤١٢٢)

[2] البخاري (٣/١١٩) برقم (٤١٢١)

ـ سرية قتل أبي رافع:

عن البراء بن عازب قال (بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصـــار، فأمَّر عليهم عبد الله بن عَتِيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويعين علـــيه، وكان في حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه ــ وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم[1] ــ فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلق ومُتَلَطِّف للبواب لعلي أن أدخل. فأقبَل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه[2]، كأنه يقضي حاجة، وقـــد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريـــد أن أُغلـــق الباب. فدخلت فكمنت[3]، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علَّق الأغاليق[4] على وَدّ. قال: فقمت إلى الأقاليد فأخذها، ففتحت الباب، وكان أبو رافع يُسْمَرُ عنده، وكان في علالي له، فلما ذهب عنه أهل سمره، صَعِدْتُ إليه، فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت عليَّ من داخل. قلت إن القوم نذروا بي[5] لم يخلصوا إليَّ حتى أقتله. فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت، فقلت: أبا رافع ! قال: من هذا ؟ فأهويت نحو الصوت، فأضربه ضربة بالسيف وأنا دَهِشٌ فما أغنيت شيئاً، وصاح، فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه فقلت: ما هـــذا الصـــوت يـــا أبا رافع ؟ فقال: لأمك الويل، إن رجلاً في البيت ضربني، قبل بالسيف. قال: فأضربه ضربة أثخنته، ولم أقتله. ثم وضعت ضبيب السيف في بطنه حتى أخـــذ في ظهـــره، فعرفت أني قتلته، فجعلت أفتح الأبواب، باباً باباً؛ حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة،

---

(1) سرحهم: أي مواشيهم.

(2) تقنع بثوبه: أي تغطى به ليتخفى حتى لا يُعرف

(3) كمنت: أي اختبأت

(4) الأغاليق، والأقاليد: المفاتيح

(5) نذروا بي: أي علموا

فانكسرت ساقي، فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته. فلما صاح الديك قام الناعي على السور فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابي فقلت النجاءَ، فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدثته، فقال لي: ابسُط رجلك، فبسطت رجلي فمسحها، فكأنها لم أشتكها قط.)[1]

ويستفاد من ذلك الحنكة وحسن التدبير في تنفيذ الأمر من الأنصار الستة الذين بعثهم رسول الله ﷺ حيث تخيروا الوقت المناسب، وهو غروب الشمس، ورواح الناس بمواشيهم، مع شجاعة عبد الله بن عتيك، وتحمله لمسؤولية تنفيذ أمر رسول الله ﷺ وكذلك فيه شجاعة الصحابي الجليل عبد الله بن عتيك ﷺ إذ دخل البيت وحده، وترصد لليهودي، وغَلّق الأبواب، وقال (قلت: إن القوم نذروا بي، لم يخلصوا إليّ حتى أقتله) وفي هذا دليل عزيمته على قتله وإن علم من عنده بوجوده، دون الاكتراث بما سيصيبه من جراء ذلك.

ومن الفوائد أن القائد قد يوجه ويترك طريقة التنفيذ للمجموعة ورئيسهم، وأن للمجموعة أن تجتهد بما يحقق التوجيه. حيث أن رسول الله ﷺ أمرهم ولم يبين لهم طريقة التنفيذ. ويعطي هذا دلالة عملية في أهمية توجيه المرؤس، وتركه يختار الطريقة المناسبة للتنفيذ إذا كان ممن يُحسن الاختيار.

ويستفاد من سرد تفاصيل هذه الرواية؛ الدقة في الوصف الذي يجده القارئ في عموم روايات الصحابة، مما يدلل على عنايتهم واهتمامهم بمنهجية الإفصاح الروائي عن القضية بدقة عالية، وهي من أبرز المهارات التي يحتاج إليها الباحث في رواية تفاصيل الحدث.

---

[1] البخاري (٣/١٠٠ـ١٠١) برقم (٤٠٣٩)

ومـــن فوائد أحداث هذه الرواية، أن رسول الله ﷺ اقتصر على قتل من يؤذيه ويؤلب عـــلى المسلمين، فَعَيَّن قتل أبي رافع لما يصدر عنه من أذى وتأليب على المسلمين، فقد أعان غطفان وغيرهم من مشركي العرب على رسول الله ﷺ [1]

ويتبين من هذا الحدث المعجزة الإلهية التي أجراها سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ بأن مسح على ساق عبد الله بن عتيك فَعُفِي من الكسر الذي أصابه ﷺ

وفي هـــذه الحادثة يتبين رحمة الإسلام، بأن رسول الله ﷺ اقتصر على قتل أبي رافـــع دون غيره من قومه أو أهله. مما يفيد أن على المسلم أن يتجنب القتل، وإزهاق الأنفس، ويحرص على ذلك كما حرص رسول الله ﷺ على ذلك، واقتصر القتل على من كان يصدر منه الأذى الذي لا يُعْدَم أن يستمر منه.

ـ سرية محمد بن مَسْلَمَة إلى القُرَطاء:

لعشر ليالٍ خلون من المحرم؛ على رأس تسعة وخمسين شهراً من هجرة رسول الله ﷺ خـــرج بعـــثه في ثلاثين راكباً إلى القُرَطاء، وهم بطن من بني بكر من كلاب، وكـــانوا يـــنـــزلون البَكَرات بناحية ضَرِيَّة، وأمَرَه أن يشن عليهم الغارة، فسار الليل وكمـــن النهار، واغتر عليهم فقتل نفراً منهم وهرب سائرهم، واستاق نعماً وشاء، ولم يعرض للطعن، وانحدر إلى المدينة.[2]

وفي هذا الحدث مزيد من التدريب للصحابة على القيادة، وتولي زمام الأمور، الأمـــر الـــذي يـــبين اهـــتمام الرسول ﷺ بأمر التدريب وبناء الثقة، مما يكشف عن الإمكانيات والقدرات القيادية، التي يمكن أن يُستفاد منها أثناء الحاجة، وهذا ما يفقده

[1] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٩١/٢)

[2] المرجع السابق (٧٨/٢)

بعض القياديين في الجانب الإداري والعسكري؛ وفي غيرهما من الجوانب. وهذا يكشف عن أهمية إعداد القيادات وكشف المواهب والقدرات وبناء الثقة.

ويلاحـــظ في السرايا النبوية التنويع في القيادة، وعدم التركيز على شخصية معينة. وفي هذا مبدأ إداري عظيم الفائدة، ذلك أن في التنويع توسيع لدائرة المتدربين، وكذا مَدُّ مساحة الثقة، وفيها التشجيع لأكبر قدر ممكن من الأعوان، وفي ذلك كشف لمـــزيد مـــن المواهب والقدرات. وهذا ما تغفل عنه كثير من المبادئ الإدارية، وبالتالي يَشْعُر الأعوان في الميدان الإداري أنه لا مجال لهم، وإن الأمر محصور فيه العدد، وبالتالي يُزَهّدون في القيادة؛ وتُقْتَل طموحات الكثير منهم.

ـ قصة ثمامة بن أُثَال:

عن أبي هريرة ﷺ قال (بعث النبي ﷺ خيلاً قِبَلَ نجدٍ، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة ابن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: ماذا عندك يا ثمامة ؟ فقال: عندي خير. يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تُنعِم تُنعِم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسلْ منه ما شئت. فتُرِكَ حتى كان الغد ثم قال له: ما عندك يا ثمامة ؟ فقال: ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد فقال: ما عندك ياثمامة ؟ فقال : عندي ما قلت لك...)[١]

وفي هـــذا المقطع من لحديث تظهر صورة من صور حلمه ﷺ إذ لم يتخذ قراراً ســـريعاً تجاه ثمامة، وفيه السؤال النبوي الكريم الذي يستثير ذهن ثمامة (ماذا عندك يا ثمامـــة ؟) وكأنـــه يقول له ﷺ ما تظن أني فاعل بك ؟ وفي هذا استثارة لذهن المسؤل، فيـــتعرف على الاحتمالات المتوقعة، ليكتشف فيما بعد الخيار النبوي من بين إمكانات متعددة من الخيارات التي يمكن أن ينفذ أقواها على ثمامة. فيجيب ثمامة: عندي خير. يا

---

(١) البخاري (٣/١٦٨) برقم (٤٣٧٢)

محمد إن تقتلني تقتل ذا دم.وإن تُنعم تُنعم على شاكر. فيبين ثمامة أنه ما يظن إلا خيراً أو لا يحمل إلا خيرا، فإن تقتل تقتل ذا دم، أي صاحب دم عظيم لمكانته أو حرمته عند قومـــه، ثم يبين الخيار الثاني الذي يمكن أن يتخذه رسول الله ﷺ وهو العفو عنه، وإن هذا العفو لرجل يشكر له ذلك؛ ويقدر هذا الصنيع، ثم يذكر خياراً ثالثاً وهو الإفتداء بالمـــال مقـــابل العفو عنه. ثم يتركه ﷺ فيأخذ مزيداً من التفكير في حاله وما يمكن أن يُحكم به عليه. ويكررعليه ﷺ السؤال من الغد، فيقتصر ثمامة في الجواب على ما يأمله من رسول الله ﷺ وهو العفو، ويرمز للخيارات الأخرى بقوله: ما قلت لك: إن تنعم تـــنعم على شاكر. ثم يتكرر السؤال في اليوم الثالث، فتكون الإجابة أكثر اختصاراً، حيث قال: ما قلت لك. وهنا يأتي العفو عنه من رسول الله ﷺ حيث يقول أبو هريرة عـــن رسول الله ﷺ وعن تمام القصة(...فقال: أطلقوا ثمامة. فانطلق إلى نخل قريب من المســـجد فاغتســـل، ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهـــك أحـــب الوجوه إلي. والله ماكان من دين أبغضَ إلي من دينك، فأصبح دينك أحـــب الدين إلي. والله ما كان من بلد أبغضَ إلي من بلدك، فأصبح بلدكَ أحب البلاد إلي. وأن خَيلكَ أخذتني، وأنا أريد العمرة، فماذا ترى ؟ فبشره رسول الله ﷺ ، وأمَرَه أن يعتمر. فلما قدم مكة قال له قائل: صبَوْتَ ؟ قال: لا والله ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ)[1]

فلقد تأثر ثمامة بهذا الصنيع النبوي الكريم، فتغير حاله من مُبغض للرسول ﷺ وللدين وللمكان إلى محب لكل ذلك. فلم يطمع ﷺ في مال، ولم يطمع في دم رجلٍ له من المكانة ما له عند قومه.

---

[1] البخاري (٣/١٦٨) برقم (٤٣٧٢)

فظهــرت بذلك مظاهر وانعكاسات المعاملة الحسنة، لتجعل من العدو اللدود محــباً حميماً، فَيُقَدِّم رسولُ الله ﷺ درساً عملياً تربوياً لهذا المسلك والمنهج الذي يعكس صفاء الإسلام، وصفاء قلب المسلم، وأنه ليس دين انتقام، بل هو دين رحمة وشفقة.

وفــيه مــن الفوائد أن القلوب سريعة التغير من البغض إلى الحب، والعكس كذلك، مما يؤكد إمكانية التغيير التربوي السريع، وأهمية المعالجة الحكيمة.

قــال ابــن حجــر رحمة الله عليه: وفي قصة ثمامة من الفوائد ربط الكافر في المســجد، والمن على الأسير الكافر، وتعظيم أمر العفو عن المسيء، لأن ثمامة أقسم أن بغضه انقلب حباً في ساعة واحدة، لِمَا أسداه النبي ﷺ إليه من العفو والمن بغير مقابل. وفــيه الاغتسال عند الإسلام، وأن الإحسان يُزيل البغض، ويُثبت الحب، وأن الكافر إذا أراد عمــل خير ثم أسلم شرع له أن يستمر في عمل ذلك الخير. وفيه الملاطفة بمن يُرجى إسلامه من الأسرى إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام.[1]

ــ غزوة بني لحيان:

وفي سنة ستٍّ، من مهاجره ﷺ استخلف رسول الله ﷺ على المدينة عبدالله بن أم مكــتوم واتجــه إلى بطن غران، وهي قريبة من عسفان، حيث وجد رسول الله ﷺ وجــداً شديداً على عاصم بن ثابت وأصحابه ــ رضي الله عنهم ــ مما حصل لهم في ســرية الرجيع ، وأراد أن يثأر لهم، ، فنــزل بها وترحم على أصحابه ودعا لهم. وقد هــرب بنوا لحيان في رؤوس الجبال، فأقام يوماً أو يومين، فبعث السرايا في كل ناحية، فــلم يقدروا على أحد، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة حيث غاب عنها أربع عشرة ليلة.[2]

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٨/٨٨)

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى(٢/٧٩ــ٨٠)

ـ سرية عُكَّاشَة ﷺ إلى الغَمْر:

وفي شـــهر ربيع الأول سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ وَجَّه عليه الصلاة والسلام عُكَّاشَة بن مِحْصَن الأسَدي إلى الغمر في أربعين رجلاً، ونَذِرَ به القوم فهربوا فاستاقوا مائتي بعير؛ وحدروا بها إلى المدينة.(١)

ـ سرية محمد بن مسلمة ﷺ إلى ذي القَصَّة:

وكانـــت في شهر ربيع الآخر؛ في سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ، حيث بعـــث علـــيه الصلاة والسلام إلى بني ثعلبة وبني عُوَال من ثعلبة، وهم بذي القصة في طريق الرَّبَذَة في عشرة نفر، فأحدق به القوم وهم مائة رجل فترامو ساعة من الليل؛ ثم حملـــت الأعراب عليهم بالرماح فقتلوهم، ووقع محمد بن مسلمة جريحاً، ومَرَّ به رجلٌ من المسلمين فحمله حتى وَرَدَ به المدينة، فبعث النبي ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في أربعين رجلاً إلى مصارع القوم، فلم يجدوا أحداً، ووجدوا نَعَماً وشاءً فساقه ورجع.(٢)

ـ سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى بني سُلَيْم بالجَموم:

وكانـــت في شهر ربيع الآخر سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ بعث عليه الصـــلاة والسلام زيد بن حارثة؛ فسار حتى وَرَدَ الجموم؛ ناحية بطن نخل عن يسارها، فأصـــابوا عليه امرأة من مزينة يقال لها حليمة، فدلتهم على مَحَلَّة من محال بني سليم، فأصـــابوا نعمـــاً وشاءً وأسرى، فكان فيهم زوجُ حليمة المُزَنِيَّة. فوهب رسول الله ﷺ للمُزَنية نفسها وزوجها.(٣) وفي هذا دلالة على وفائه وكرمه ﷺ .

---

(١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى(٢/٨٤ــ٨٥).

(٢) المرجع السابق (٢/٨٥)

(٣) المرجع السابق (٢/٨٦).

ـ سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى العيص:

وفي جمادى الأولى سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ بلغه عليه الصلاة والسلام أن عيراً لقريش قد أقبلت من الشام، فبعث زيد بن حارثة في سبعين ومائة راكب يتعرض لها، فأخذوها وما فيها، وأسروا ناساً ممن كان في العير، منهم أبو العاص بن الربيع فاستجار بزينب بنت رسول الله ﷺ ، فأجارته ونادت في الناس حين صلى رسول الله ﷺ الفجر: إني قد أجرت أبا العاص ! فقال رسول الله ﷺ : وما علمت بشيء من هذا، وقد أجرنا مَنْ أَجَرْتِ، وَرَدَّ عليه ما أخذ منه.[1]

وفي ذلك من الفوائد إكرام المرأة، وقبول جوارها.

ـ سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى الطَّرَف:

وفي جمادى الآخرة سنة ست من الهجرة؛ بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى الطرف، وهو ماء قريب من المراض دون النُّخيل، فخرج إلى بني ثعلبة في خمسة عشر رجلاً، فأصاب نعماً وشاءً وهربت الأعراب، ولم يلق كيداً.[2]

ـ سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى جُذَام:

وفي جمادى الآخرة سنة ست من الهجرة بعث رسول الله ﷺ زيد إلى الضليع، وهم بطن من جُذَام لتأديبهم.[3]

ـ سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى وادي القُرَى:

كانت في رجب سنة ست من الهجرة.[4]

---

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى(٢/٨٧).

(2) المرجع السابق(٢/٨٧)

(3) المرجع السابق، (٢/٨٨).

(4) المرجع السابق(٢/٨٩).

وفي تكـــرار اختيار زيد بن حارثة ﷺ قائداً للسرية، ما يفيد أن الشخص إذا وفقه الله تعالى في أمر يكرر عليه ذلك.

ـ سرية عبد الرحمن بن عوف ﷺ إلى دُومة الجندل :

كانت في شعبان سنة ست من الهجرة، حيث دعا رسول الله ﷺ عبدالرحمن بن عوف فأقعده بين يديه، وعمَّمَه بيده وقال: أغزُ بسم الله وفي سبيل الله، فقاتِل من كفر بـــالله ! لا تَغُلّ ولا تغدر ولا تقتل وليداً ! وبعثه إلى كلب في دومة الجندل، وقال: إن اســـتجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم. فسار عبدالرحمن حتى قدم دومة الجندل، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي، وكان نصرانياً، وكان رأســـهم، وأســـلم معه ناس كثير من قومه، وأقام من أقام على إعطاء الجزية، وتزوج عبدالرحمن تُمَاضِر بنت الأصبغ، وقدم بهـــا إلى المدينـــة، وهـــي أمّ أبي ســـلمة بـــن عبدالرحمن.[1]

وفي مجـــريات هـــذه السرية من الفوائد، أن تعميم أو إلباس الوالي أو الحاكم للقـــائد أو الجندي أو الإداري ما يرفع معنويته، وأنه أمر مطلوب؛ وليس على سبيل الديمومـــة. وكذلك توصيته بما ينير له الطريق ويحقق الخير في أداء مهمته. كما أن في ذلـــك عـــناية الإسلام واهتمامه بدماء الناس، وحفظها وصيانتها، حيث نهاه ﷺ عن الغدر، وقتل الولدان، كما نهاه عن الغل. وهذه من مكارم أخلاق الإسلام.

وفي زواج القائد من بنت ملكهم إن استجابوا ما يرفع معنوية ملكهم ويقوي الروابط، ويبين عناية المنهج الإسلامي بالجوانب المعنوية، وغرس الروابط الاجتماعية.

---

[1] المرجع السابق(٢/٨٩).

ـ سرية علي بن أبي طالب ﷺ إلى بني سعد بن بكر بِفَدَك:

كانــت في شعبان سنة ست من الهجرة، حيث بلغ رسولَ الله ﷺ أن لهم جمعاً، يــريدون أن يُمِــدُّوا يهود خيــبر، فبعث إليهم ﷺ علي بن أبي طالب في مائة رجل، فأغاروا عليهم، فأخذوا خمسمائةِ بعير، وألفي شاة، وهربت بنو سعد.(١)

ـ سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى أمّ قِرْفَة بوادي القُرَى:

وكانــت في شهر رمضان سنة ست من الهجرة، حيث خرج زيد بن حارثة في تجارة إلى الشام، ومعه بضائع لأصحاب النبي ﷺ فلما كان دون وادي القرى لقيه ناس مــن فزارة، من بني بدر، فضربوه وأصحابه، وأخذوا ما كان معهم، فَقَدِمَ على رسول الله ﷺ وأخــبره، فبعثه عليه الصلاة والسلام إليهم، فصبحهم زيد وأصحابُه، فكبروا وأحاطوا بالحاضر.(٢)

ـ سرية عبد الله بن رواحة ﷺ إلى أُسَيْر بن زارِم اليهودي:

وكانت في شوال سنة ست من الهجرة، ذلك أنه لما قُتِلَ أبو رافع سلام بن أبي الحُقَــيق أمَّــرت يهود عليهم أُسَيْر بن زارِم فسار في غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب الرســول ﷺ. ولمــا بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ وجَّهَ عبدالله بن رواحة في ثلاثين رجلاً، فقدمــوا على أُسَيْر، فقالوا: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ؟ قال: نعم، ولي مــنكم مــثل ذلــك ؟ وقالوا: نعم. فقلنا: إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ويُحْسِنُ إليك، فطمع في ذلك فخرج؛ وخرج معه ثلاثون رجلاً من اليهود، مع كل رجل رديف من المسلمين، حتى إذا كنا بقرقرة ثبار ندم أسير، فقال عبدالله بن أنيس، وكان في السرية: وأهوى بيده إلى سيفي ففطنتُ له ودفعت بعيري، وقلــت: غدراً أي عدو الله ! فعل ذلك مرتين، فنــزلتُ فسُقْتُ بالقوم حتى انفرد لي

---

(١) المرجع السابق(٢/٨٩ــ٩٠)

(٢) المرجع السابق (٢/٩٠ــ٩١)

أُسير فضربته بالسيف فَأَنْدَرْتُ عامة فخذه وساقه، وسقط عن بعيره، وبيده مِخْرَش من شَوْحَط[1] فضربني فشجني، وملنا على أصحابه فقتلناهم كلهم غير رجل واحد أعجزنا شداً، ولم يُصَبْ من المسلمين أحد، ثم أقبلنا على رسول الله ﷺ فحدثناه الحديث فقال: قد نجاكم الله من القوم الظالمين.[2].

ـ سرية كرز بن جابر الفهري ﷺ إلى العُرَنيين:

تبين هذه السرية الخيانة والغدر من أناس قدموا على رسول الله ﷺ من قبيلة عُكَل وعُرَيْنَة، وكان ذلك في شوال سنة ست من الهجرة.[3] وعُكَل قبيلة من تيم الرباب من عدنان، وعُرينة حي من قضاعة وحي من بجيلة من قحطان.[4] وقد أعلنت تلك المجموعة من الناس إسلامهم، وشكوا إلى رسول الله ﷺ ما بهم من السُقْم:

فعن قتادة أن أنساً ﷺ حدثهم (أن ناساً من عُكَل وعُرَيْنَة قدموا المدينة على النبي ﷺ وتكلموا بالإسلام، فقالوا: يا نبي الله إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله ﷺ بذود وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه، فيشربوا من ألبانها وأبوالها....)[5]

والظاهر أن السَقَم الذي كان بهم، هو الهزل الشديد، والجهد من الجوع،[6] وقد أرشدهم ﷺ وأعانهم، بأن أمر لهم بذود، أي إبل، كما في صحيح مسلم (...فقال لهم رسول الله ﷺ إن شئتم أن تخرجوا إلى إبل الصدقة فتشربوا من ألبانها وأبوالها ؟ ففعلوا، فَصَحُّوا...)[7] وهذا الصنيع منه ﷺ يدل على اهتمامه عليه الصلاة والسلام

---

(1) الشوحط شجر النبع، والمخرش شبه المقرعة.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٩٢ــ٩٣)

(3) المرجع السابق (٢/٩٣)

(4) ابن حجر، فتح الباري (١/٣٣٧)

(5) البخاري (٣/١٣٣ــ١٣٤) برقم (٤١٩٢)

(6) ابن حجر، فتح الباري (١/٢٢٧)

(7) مسلم (٣/١٢٩٦) برقم (١٦٧١)

وحرصه لشكوى الشاكين؛ وعنايته بأمر الناس؛ وبصحتهم وما يعانونه، مما يفيد أهمية عناية المسؤل بمن يقدم إليه طالباً عونه ومساعدته.

قال ابن حجر:"مشروعية الطب والتداوي بألبان الإبل وأبوالها".[1]

وبعد هذا الإكرام منه ﷺ والعناية بهم، يحدث منهم الغدر بما استؤمنوا عليه، (... فانطلقوا، حتى إذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا الذود، فبلغ النبي ﷺ فبعث الطلب في آثارهم، فأمر بهم، فسَمروا أعينهم، وقطعوا أيديهم، وتُركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم.) قال قتادة (بلغنا أن النبي ﷺ بعد ذلك كان يَحُث على الصدقة وينهى عن المثْلة.)[2]

فقد ورد في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ بعث إليهم شباباً من الأنصار، ففي الحديث: (...وعنده شباب من الأنصار قريب من عشرين، فأرسلهم إليهم، وبعث معهم قائفاً يقتص أثرهم)[3] مما يبين المهام العظام التي يقوم بها الشباب في عهده ﷺ كما يفيد استخدامه ﷺ للقائف أهمية استخدام المباح من الوسائل المعاصرة التي يمكن أن يتعقب أو يعرف بها رجل الأمن المطلوبين.

ثم تكون عقوبتهم من جنس ما فعلوا، حيث قام أولئك الناس بتسميل أعين الرعاء، كما ورد عن أنس ﷺ (إنما سَمَلَ النبي ﷺ أعين أولئك، لأنهم سَمَلُوا أعين الرعاء)[4]

وروى قتادة عن ابن سيرين أن قصتهم كانت قبل أن تنزل الحدود، ولموسى بن عقبة في المغازي: وذكروا أن النبي ﷺ نهى بعد ذلك عن المثلة بالآية في سورة المائدة.[5] وقال ابن حجر بعد استقراء: وقد تبين بهذا أن في الحديث الذي أخرجه

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٣٤١/١)

[2] البخاري (١٣٣/٣ـــ١٣٤) برقم (٤١٩٢)

[3] مسلم (١٢٩٨/٣) برقم (١٣ـــ١٦٧١)

[4] مسلم (١٢٩٨/٣) برقم (١٤ـــ ١٦٧١)

[5] ابن حجر، فتح الباري (٣٤١/١)

النسائي من طريق عبد الصمد بن عبد الوارث عن هشام عن قتادة عن أنس، قال (نهى رسول الله ﷺ عن المثلة) إدراجاً وأن هذا القدر من الحديث لم يسنده قتادة عن أنس؛ وإنما ذكره بلاغاً.[1]

وفـيه مـن الفوائـد: قدوم الوفود على الإمام، ونظره في مصالحهم، وفيه مشـروعية الطب والتداوي بألبان الإبل وأبوالها، وفيه أن كل جسد يطب بما اعتاده، وفـيه قتل الجماعة بالواحد، سواء قتلوه غيلة أو حرابة، إن كان قتلهم كان قصاصاً. وفـيه المماثلة في القصاص، وليس ذلك من المثلة المنهي عنها. وثبوت حكم المحاربة في الصـحراء، وفيه جواز استعمال أبناء السبيل إبل الصدقة في الشرب وفي غيره قياساً عليه؛ بإذن الإمام، وفيه العمل بقول القائف.[2]

ـ سرية عمرو بن أمية الضَّمْرِي ﷺ :

رغب أبو سفيان في إرسال من يقتل رسول الله ﷺ فوجد أعرابياً فاتكاً باطشاً، قد وافق على إنفاذ رغبة أبي سفيان، فزوده أبو سفيان بما يحتاج إليه، وأوصاه بكتمان الأمـر، فجـاء الـرجل إلى المديـنة، فاستدل على رسول الله ﷺ في مسجد بن عبد الأشـهب، فلما رآه رسولُ الله ﷺ قال: إن هذا ليريد غدراً، والله حائل بينه وبين ما يـريد. وعـندما انحـنى الرجل على الرسول ﷺ جبذه أُسيد بن الحضير ليتنحى عن الرسـول ﷺ فإذا الخنجر بداخل إزاره، فأسقط في يد الأعرابي، وعرض عليه الرسول ﷺ الأمـان إن هو صدقه، فأخبره بالقصة وما جعل له أبو سفيان، فخلّى عنه الرسول ﷺ فأسلم...[3]

وهـنا تظهـر معجزة أخرى من معجزات نبوته ﷺ حيث عرف مراد الرجل ومقصده. كما يظهر حب وإجلال الصحابة رضي الله تعالى عنهم لرسول الله ﷺ حيث

---

(1) المرجع السابق (٤٥٩/٧)

(2) المرجع السابق (٣٤١/١)

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٩٣/٢ــ٩٤)

يقوم أسيد بن الحضير لينحي هذا الرجل عن رسول الله ﷺ ثم تظهر صورة أخرى منه ﷺ في أحلــك المواقــف وأشدها، فيعفو عليه الصلاة والسلام عن الرجل، فيدخل في الإسلام.

فلقد قدَّم ﷺ في هذا الموقف ما يجب أن يستفيد منه المسلم من العفو والصفح عمن أساء إليه فيما هو مثل ذلك، أو فيما هو دونه وأبسط منه. فلكم يتأفف الإنسان عن الصفح في أمور صغيرة وحقيرة؛ مع أقرب الناس إليه من زوجة وإخوة وأصدقاء، فكـيف إذا كان ذلك مع غيرهم ؟ وكيف لو كان في مثل ذلك ؟ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[1]

وبعــد ذلك بعث الرسول ﷺ عمرو بن أمية وسلمة بن أسلم بن جريش إلى أبي سفيان ليقتلاه، فدخلا مكة، ومضى عمرو بن أمية يطوف بالبيت ليلاً فرآه معاوية بــن أبي سفيان فعرفه، فأخبر قريش بمكانه، فخافوه وطلبوه، وكان فاتكاً في الجاهلية، وقالوا : لم يَأْتِ عمرو لخير؛ فحشد له أهل مكة وتجمعوا، وهرب عمرو وسلمة.[2]

وفي هذا دلالة على أن الإنسان مهما بلغ درجة من الطاعة لله تعالى فإن مراده لا يحصــل له في كل وقت وحين، فالله يعلم ما لا يعلمه الإنسان، ولذلك فإن المسلم يلزمه إدراك ذلك حتى تَلْبَسُه الطمأنينة والسعادة بقضاء الله وقدره وتدبيره.

---

[1] سورة الأحزاب: آية رقم (٢١)

[2] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٩٣ـــ٩٤)

ـ سرية الخَبَط (سيف البحر)

عـــن وهـــب بن كيسان عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه قال (بعث رســـول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً قِبَل الساحل، وأمَّرَ عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهـــم ثلاثمائة ، فخرجنا وكنا ببعض الطريق فَنِيَ الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فَجُمِع، فكان مزودَي تمرٍ، فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني، فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة، فقلت: ما تغني عنكم تمرة ؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فَنِيَت...)[1]

وفي روايـــة أخـــرى يرويها عمرو بن دينار قال (سمعت جابر بن عبدالله ﷺ يقـــول: بعثـــنا رسول الله ﷺ ثلاثمائة راكب، أميرنا أبو عبيدة بن الجراح، نرصد عير قـــريش، فأقمنا بالساحل نصف شهر، فأصابنا جوع شديد؛ حتى أكلنا الخبط، فسمي ذلك الجيشُ جيشَ الخبط...)[2]

تـــبين هاتان الروايتان أن رسول الله ﷺ أمَّر أبا عبيدة بن الجراح على ثلاثمائة مـــن المسلمين، في بعثٍ تجاه الساحل، لرصد عير قريش. وفي هذا مزيد من إظهار قوة المســـلمين تجـــاه عدوهم الذي يترصد لهم، وقد فني الزاد الذي كان معهم، فأمر أبو عبـــيدة بجمع أزواد جيشه فكان قدر مزودين من التمر، فيعطيهم منه قليلاً قليلا. وفي هـــذا إظهـــار لمـــبدأ التكافل فيما بينهم، ولمبدأ العدل بين أفراد جيشه بعد التكافوء، ليتساووا في النفقة، دون أن يخص أحداً بمزيد فضل. فلما تناقص أصبح نصيب الواحد مـــنهم تمرة واحدة، ويحدث التساؤل ، ما تغني التمرة الواحدة ؟ وتأتي مزيد إجابة في مســـند الإمام أحمد (...قال فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة، قال: قلت: كيف كنتم تصـــنعون بها ؟ قال: نَمُصّهَا كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها الماء، فيكفينا يومنا إلى الليل، قال: وكنا نضرب بعصينا الخبط ثم نبله بالماء فنأكله...)[3]

---

(1) البخاري(٣/١٦٥) برقم (٤٣٦٠).

(2) البخاري(٣/١٦٥) برقم(٤٣٦١)

(3) المسند (٣/٣١١)

فهـذا يـبين مـا قد وجده أولئك الصحابة رضي الله تعالى عنهم من الفاقة والمسـغبة التي لحقتهم في سبيل الله تعالى، وصبروا على ذلك في طاعة الله تعالى؛ حتى أكلـوا الخبط الذي هو ورق السلم، وتمرة واحدة يمصها الرجل ويشرب عليه الماء، ليكـتفي بها طعام يوم واحد. وكيف بالمسلم الذي يعيش في رغد من العيش ولا يصبر عـلى أداء فـرائض الله تعـالى، ولا يصبر عن ارتكاب المعاصي. بل وفي هذا تسلية للمسـلم الـذي ألمَّ به الفقر والعوز أن يعرف ما أصاب أصحاب رسول الله ﷺ فلم يسرقوا ولم ينهبوا أحداً وهم ثلاثمائة رجل.

ثم عوضـهم الله تعالى بأمرين: أحدهما: ما كان من صنيع رجل منهم. (...قال جابـر: وكـان رجـل من القوم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه) وكان عمرو يقول: أخبرنا أبو صالح أن قيس بن سعد قال لأبـيه: (كنت في الجيش فجاعوا. قال: انحر ، قال: نحرت. قال: ثم جاعوا قال: انحر، قـال: نحـرت. قال: ثم جاعوا، قال: انحر. قال: نحرت. ثم جاعوا، قال: انحر، قال: نهيت).[1]

فـتظهر في هـذا المشهد صورة من صور الكرم والجود التي كانت من سمات أصحاب رسول الله ﷺ حيث قام قيس بن سعد بن عبادة ــ رضي الله تعالى عنهما ــ لمـا رأى ما بالناس من المسغبة والفاقة، قال: من يشتري مني تمراً بالمدينة بجزور هنا ؟ فقال له رجل من جهينة: من أنت ؟ فانتسب له، فقال عرفتُ نسبك، فابتاع منه خمس جزائر بخمسة أوسق، وأشهد له نفراً من الصحابة، فامتنع عمر لكون قيس لا مال له، فقال الأعرابي: ما كان سعد ليجني بإبنه في أوسق تمر، فبلغ ذلك سعداً فغضب ووهب لقيس أربع حوائط؛ أقلها يجذ خمسين وسقاً.[2] ويلاحظ هنا كرم قيس، إذ يكرم وهو لا مـال عـنده، ولكنه يعرف أن أباه يُحب مكارم الأخلاق، بل إن ذلك من مكارم

---

(1) البخاري(٣/١٦٥) برقم(٤٣٦١)

(2) ابن حجر، فتح الباري (٨١/٨) نقلاً عن الواقدي، المغازي (٧٧٥/٢)

البيت الذي ينتمي إليه قيس، ويبين ذلك أنه لما قدموا ذكروا شأن قيس، فقال النبي ﷺ (إن الجود من شيمة أهل ذلك البيت) وورد في حديث الواقدي: أن أهل المدينة بلغهم الجهَد الذي قد أصاب القوم، فقال سعد بن عبادة: إن يك قيس كما أعرف فسينحر للقوم.[1]

ثم يأتي دور القائد الموجه الخائف على قيس، فيوقفه عن التمادي في نحر الإبل عن العدد المذكور، رحمة ورفقاً وشفقة به وبكرمه.

ثم يأتي اجتهاد عمر رضي الله عنه فيتوقف، دون مجاملة لقيس رضي الله عنه، لعلمه بأنه لا مال له. مما يبين حالهم عند اجتهادهم، دون أن ينزعج أحد من أحد، عندما تتباين الاجتهادات، فرضي الله تعالى عنهم أجمعين، حيث قدموا لنا المنهجية السلوكية في التعامل والتآخي والتواد والقيادة والكرم والجود والتضحية.

وأما العوض الثاني الذي عوضهم الله تعالى به فيبينه تمام حديث جابر رضي الله عنه (...ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظَّرِب، فأكل منه القوم ثمان عشرة ليلة. ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا، ثم أمر براحلة فرحلت، ثم مرت تحتهما، فلم تصبهما)[2]

وفي رواية عمرو بن دينار رضي الله عنه (...فألقى لنا البحر دابة يُقال لها العنبر فأكلنا منه نصف شهر، وادَّهنّا من وَدَكِه حتى ثابت إلينا أجسامنا. فأخذ أبوا بُرَيْدَة ضلعاً من أضلاعه فنصبه، فعمد إلى أطول رجل معه. قال سفيان مرَّة: ضليعاً من أضلاعه فنصبه، وأخذ رجلاً وبعيراً فَمَرَّ تحته...)

فأكرمهم الله تعالى بعد هذا الجهد والعناء بحوت فيه من الضخامة والكبر، ما يغني وصفه في الحديث عن إعادة ذكره، وفي هذا كرامة بكرم الله تعالى وتوفيقه لعباده الصابرين، فيتبين من ذلك أن ثمار الصبر من الله تعالى جزيلة جداً.

---

[1] المرجع السابق (٨/٨١)

[2] البخاري(٣/١٦٥) برقم (٤٣٦٠).

الفصل التاسع

من غزوة الحديبية
إلى غزوة خيبر

غزوة الحديبية :

في شهر ذي القعدة من سنة ست للهجرة خرج رسول الله ﷺ للعمرة هو وأصحابه.[١]

والحديبية اسم بئر تقع على بُعد اثنين وعشرين كيلاً إلى الشمال الغربي من مكة، وتُعرف بالشميسي. وفيها حدائق الحديبية، ومسجد الرضوان.[٢]

وكان خروجه ﷺ وأصحابه ليس بهدف القتال، وإنما للعمرة، كما جاء عنه ﷺ في الحديث (...إنَّا لم نَجِئ لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين..)[٣]

وبالرغم من هذا الهدف غير القتالي إلا أن في خروجهم من الفوائد أنه مزيد إعلان بأن هذا الدين يُعَظِّم شعائر الله تعالى، وستعلم العرب بما صار عليه المسلمون من القوة التي تمكنهم من القدوم إلى مكة معتمرين؛ غير آبهين بقوة كفار قريش وتمردها، بل إن في ذلك كسر لتمرد كفار قريش وإعلان ضعفها من قبل المسلمين.

وفي هذا من الفوائد أن الدولة المسلمة المضطهدة يلزمها الصبر أولاً، وإعزاز قوتها ومكوناتها ثانياً، وأن لا تبادر بإثارة أعدائها عليها، وأن الحكمة مطلب في التعامل مع الأحداث، كما هو ظاهر في صلح الحديبية، وأن الأخذ بسنن الله تعالى مطلب يلزم الأخذ به، كما أخذ به ﷺ

قال ابن هشام: وخرج في ذي القعدة معتمراً، لا يريد حرباً. واستعمل على المدينة نُمَيلة بن عبد الله الليثي. واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب، ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش الذي صنعوا، أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من

---

[١] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٩٥)

[٢] أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢/٤٢٤)

[٣] البخاري (٢/٢٧٩_٢٨٤) برقم (٢٧٣٢،٢٧٣١)

المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، وساق معه الهدي، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له.(1)

وقد بين القرآن الكريم حقيقة نوايا الأعراب وما حصل منهم من تأخر وتباطؤ، قال تعالى ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾(2)

لقد كشف الله تعالى مكنون أنفسهم، وما كانوا عليه من سوء الظن بربهم سبحانه وتعالى وبنبيه ﷺ وبالنتيجة التي سيؤول إليها أمر الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم. و ما ظنَّه الأعراب يفيد أن استقراء الواقع في معزل عن سنن الله تعالى الكونية والشرعية؛ مع عدم ربط ذلك بقدرة الله تعالى وقدره يعطي نتائج مغلوطة وخاطئة. كما يفيد خبر الأعراب أن ضعف الإيمان يجعل المرء لا يثبت على مبادئه ويدافع عنها، بل تلعب به الأهواء والعواصف كيفما اتجهت وتحولت. كما أن التبرير الذي يقبله الناس نتيجة محدودية علمهم الدنيوي فقط، دون ربطه بالجانب الشرعي يُحدث شرخاً عظيماً في الاستقراء العلمي، ثم في نتائج ذلك. كما أن التبريرات النفسية وإظهار عكس ما يبطن المرء لا يخفى على الله تعالى وإن خفي عن الناس، فإن الله تعالى يعلم حقيقته بتفاصيله ودقائقه وبواعثه حتى وإن لم تُفصح عنه النفس البشرية. فليعلم الإنسان أنه لا أحد يستطيع أن يدفع ما أراده الله تعالى من نفع أو ضُرٍّ أراده الله تعالى قدراً وشرعاً.

---

(1) ابن هشام السيرة النبوية (٣/٣٢١ـ٣٢٢)

(2) سورة الفتح: آيات رقم (١١ـ١٢)

ولقد خرج المسلمون في كوكبة عظيمة، قوامها ألف وأربعمائة رجل، أو أكثر، كما جاء في الحديث عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنهما (أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة أو أكثر...)[1]

(خرج النبي ﷺ عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه. فلما أتى ذا الحليفة قلّد الهدى وأشعرَه، وأحرم منها بعمرة، وبعث عينا له من خزاعة...)[2] واسمه بشر بن سفيان الخزاعي.[3] ويبين هذا مدى أهمية أخذ الحيطة والحذر، وأهمية الأخذ بالأسباب، فهو رسول الله ﷺ ولكنه عليه الصلاة والسلام يأخذ بسنن الله تعالى التي يلزم المسلم العناية بها، وأن لا يكون متواكلاً.

(...وسار النبي ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، قال: إن قريشاً جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك...)[4]

وغدير الأشطاط: موضع بملتقى الطريقين من عُسفان للحاج إلى مكة.[5] وسياق الحديث التالي يوضح مزيداً من خبر قريش، (خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ : إن خالد بن الوليد بِالغَميمِ؛ في خيل لقريش طليعة[6]...)[7] وبعد أن علم رسول الله ﷺ بما اتخذته قريش، لم يتخذ قراراً من عنده ﷺ وهو النبي المجتبى؛ بل استشار أصحابه، وقد حصل منه ذلك كثيراً؛ كما ورد

---

[1] البخاري (٣/١٢٧-١٢٨) برقم (٤١٥١)

[2] البخاري (٣/١٣١) برقم (٤١٧٨، ٤١٧٩)

[3] ابن حجر، فتح الباري (٧/٤٥٤)

[4] البخاري (٣/١٣١) برقم (٤١٧٨، ٤١٧٩)

[5] ابن منظور، لسان العرب (٧/٣٣٥)

[6] قال ابن حجر: وسياق الحديث ظاهر في أنه كان قريباً من الحديبية، فهو غير كراع الغميم الذي وقع ذكره في الصيام، وهو الذي بين مكة والمدينة. والطليعة هي مقدمة الجيش، . ابن حجر، فتح الباري (٥/٣٣٥)

[7] البخاري (٣/١٣١) برقم (٤١٧٨، ٤١٧٩)

فيما سبق من أحداث السيرة النبوية العطرة. (...فقال: أشيروا أيها الناس عليَّ، أترون أن أميل إلى عِيالِم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ؟ فإن يأتونا كان الله عــزَّ وجــلَّ قد قطع عيناً من المشركين، وإلا تركناهم محروبين. قال أبو بكر: يا رسول الله خرجتَ عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه، قال: امضوا على اسم الله)[1] فسلك بهم رسول الله ﷺ طريقاً آخر وعرة، عبر ثنية المرار، وهذه الثنية عند الحديبية، قال الإمام النووي: قال الحازمي قال ابــن إسحاق: هي مهبط الحديبية.[2] حيث قال لهم ﷺ (...فخذوا ذات اليمين. فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش[3] فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حــتى إذا كـــان بالثنية التي يُهْبِطُ عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس، حَلْ حَلْ. فَأَلَحَّتْ. فقالوا خَلأَتِ القصواء. فقال النبي ﷺ : ما خَلأَتِ القصواء؛ وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل...)[4]

ويظهــر في هـــذا الموقف فوائد عديدة، منها أهمية اتخاذ المسلك المناسب في الوقت المناسب، وأن مقاتلة العدو ليست في كل وقت شجاعة وحنكة، بل ربما توخيه عــين الحكمـــة والسياسة. ومن الفوائد أن على المسلم أن يتخذ لنفسه ولغيره طريق السلامة؛ وإن كانت شاقة، كما أن مسار الحياة والدعوة فيه الكثير من المشقة.

ومـــن تلك الفوائد أنه عندما بركت راحلته ﷺ وحكم الناس عليها بما رأوا، فقـــالوا :حَلْ حَلْ وهي كلمة تقال إذا تركت الناقة السير، فألحت أي تمادت في عدم القـــيام، قال ﷺ منصفاً لأخلاق ناقته القصواء (ما خَلأَتِ القصواء وما ذاك لها بِخُلُق، ولكـــن حبســـها حابس الفيل) قال ابن بطال: جواز الحكم على الشيء بما عُرف من

---

[1] البخاري (٣/١٣١) برقم (٤١٧٨، ٤١٧٩)

[2] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/١٢٦)

[3] قترة الجيش: سواد غباره.

[4] البخاري (٢/٢٧٩) برقم (٢٧٣١ـــ٢٧٣٢)

عادتـــه، وإن جاز أن يطرأ عليه غيره، فإذا وقع من شخص هفوة لا يعهد منه مثلها لا يُنســـب إليها، ويُرَدُّ على من نسبه إليها، ومعذرة من نسبه إليها ممن لا يعرف صورة حالـــه...وقال : فيه جواز التصرف في ملك الغير بالمصلحة بغير إذنه الصريح إذا كان ســبق مـــنه ما يدل على الرضا بذلك، لأنهم قالوا: حل حل فزجروها بغير إذن، ولم يعاتبهم عليه.(١)

وإذا كـــان هذا العدل في حق سلوك الحيوان، فإن الإنسان أولى به، لما يلحقه مـــن الـــتأثر، وينعكس عليه مما نُسب إليه. ولَكم يُحْكَمُ على الإنسان بما نَدَرَ عنه من ســـلوك أخلاقـــي ليس من طبعه ولا من خُلُقه، فيتأذى بذلك الحكم والوصف، فما أحـــوج البشرية إلى هذه الدلالة الخُلُقية من رسول الله ﷺ مع ناقته القصواء. وفي هذا الموقـــف أيضـــاً أن للإنسان أن يتحدث بما يعرف وبما اعتاده عن الشيء، وإن خالف حقـــيقة مـــا يجهله. وأن على من له معرفة أن ينبه المتحدث إلى حقيقة الأمر، ليصحح حكمه وفهمه.

وبهـــذا فـــلا يوصف الإنسان بما يطرأ على تصرفاته من سلوك حميد أو ذميم، وإنمـــا العمدة على ما أصبح له سجية وطبعاً وعادة عُرِفَ بها. وإن كان الخطأ يُنسب إلـــيه، ولا يُنســـب هو للخطأ، وبالتالي لا يوصف به على أنه طبيعة له. وأما ما يتعلق بتطبيق العقوبات الشرعية والحكم القضائي؛ فيأخذ مجراه، وفق شريعة الله تعالى.(٢)

ويوضـــح جابر ﷺ كيفية صعود الثنية، قال: قال رسول الله ﷺ (من يصعد الثنية، ثنية المُرَار، فإنه يُحَطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل. قال: فكان أول من صعدها خيلـــنا، خيل بني الخزرج، ثمَّ تَتَامَّ الناسُ. فقال رسول الله ﷺ : وكلكم مغفور له، إلا صـــاحب الجمل الأحمر، فأتيناه فقلنا له: تعال. يستغفر لك رسول الله ﷺ فقال: والله لأن أجـــد ضالتي أحبُ إليَّ من أن يستغفر لي صاحبكم. قال: وكان رجل ينشد ضالة

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٣٣٥/٥)

(٢) خالد بن حامد الحازمي، أصول التربية الإسلامية، ص (١٦٧)

له.)[1] ويبين هذا الموقف شجاعة الخزرج، ومبادرتهم لفعل الخير، فَيُقَدِّمُون بذلك قدوة تـــربوية للمسلم، بأن يكون سباقاً في طاعة الله تعالى، وقد كانت المبادرة من جميع من كـــان مع رسول الله ﷺ وإن كان الخزرج هم أول من صعد الثنية، فحازوا جميعاً تلك البشارة من رسول الله ﷺ إلا صاحب الجمل الأحمر؛ قال الإمام النووي: قال القاضي: قيل هذا الرجل هو الجد بن قيس المنافق.[2]

وبعد أن استشار أصحابه ﷺ قال (...: والذي نفسي بيده، لا يسألوني خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فيها حُرُمَاتِ الله إلا أعطيتهم إياها...)[3]

فقـــد بين ﷺ لأصحابه في هذا الموقف مبدأ التعامل مع كفار قريش، بأنهم لن يسألوا خطة أي خصلة يعظمون فيها حرمات الله، من ترك القتال في الحرم إلا أجابهم إلـــيها، وهـــذا مـــن تعظيمه ﷺ للبيت الحرام؛ ولحرمات الله تعالى، وقد استهل هذا الإيضاح باليمين (والذي نفسي بيده) دليل على تقرير هذا المبدأ النبوي في التعامل.

فإذا كان هذا التعظيم لما يتوقع حدوثه من كفار قريش، فإن الأدعى للمسلم أن يعظم هذا البيت في كل وقت وحين، خاصة عندما يأمره بذلك القائمون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المسلمين، وأن لا يتعامل معهم بسوء أدب، أو جفاء، أو نحو ذلك، فكما عظَّم رسولُ الله ﷺ ما يمكن أن يصدر من كفار قريش حيال تعظيم الحرم، فإن في صدور ذلك من المسلم حتماً أولى.

(...ثم زجـــرها فوثبت. قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يَتَبَرَّضُهُ الناس تبرضاً، فلم يُلَبِّثْهُ الناس حتى نزحوه، وشُكِيَ إلى رسول الله ﷺ

---

[1] مسلم (٤/٢١٤٤ـــ ٢١٤٥) برقم (٢٨٨٠)

[2] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/١٢٦)

[3] البخاري (٢/٢٧٩ـــ٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

العطش، فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صَدَروا عنه...)[1]

يوضح هذا المشهد من الحديث ما كان من نزولهم الحديبية، فقد زجر ﷺ الناقة فقامت فنزل بأصحابه ﷺ أقصى الحديبية على ثمد أي حفرة فيها ماء مثمود، أي قليل، فيأخذه الناس قليلاً قليلا، وهو معنى يتبرضه. فلم يتركه الناس إلا وقد انتهى من نزحهم له.

وهذه مشكلة قد واجهت المسلمين في هذا الموقع، مما يدل على أن المؤمن مهما قوي إيمانه؛ ومهما كان صلاحه فإنه مُعَرَّض للابتلاء، فليس هناك خير من رسول الله ﷺ فيواجه صعوبة الثنية ثم يواجه قلة الماء، بل انتهاء الماء من مصدره، ولكن لطف الله تعالى وعنايته وولايته تحف عباده المؤمنين، فلقد أجرى الله على رسوله ﷺ معجزة أخرى، وهي تكثير الماء ونبعه على غير جريان العادة. فهاهو ﷺ ينتزع سهماً من جعبته أي من كنانته ﷺ ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فما زال يجيش بالماء أي يفور من كثرة تدفقه حتى رجعوا عنه، فكانوا يجلسون على شفيره يشربون ويروون. فهذه نعمة يمتن الله تعالى بها على نبيه ﷺ وصحابته الميامين، رضي الله تعالى عنهم.

وبمتابعة أحداث أمر الحديبية من الحديث السابق يأتي موقف التفاوض، حيث جاء فيه (....فبينما هم كذلك، إذ جاء بُدَيْلُ بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة ـ فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العُوذُ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت. فقال رسول الله ﷺ : إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا مُعْتَمِرِين،...)[2]

---

[1] البخاري (٢/٢٧٩ـ٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

[2] البخاري (٢/٢٧٩ـ٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

ويبين هذا المقطع من الحديث مكانة قبيلة خزاعة من رسول الله ﷺ فهم عيبة رسول الله ﷺ أي أنهم موضع النصح له والأمانة على سره، والعيبة ما توضع فيه الثياب لحفظها. قال ابن حجر رحمة الله تعالى عليه: زاد ابن اسحاق في روايته: وكانت خزاعة عيبة رسول الله ﷺ مسلمها ومشركها، لا يخفون عليه شيئاً كان بمكة. وقال ابن حجر: وكان الأصل في موالاة خزاعة للنبي ﷺ أن بني هاشم في الجاهلية كانوا تحالفوا مع خزاعة، فاستمروا على ذلك في الإسلام. وفيه جواز استنصاح بعض المعاهدين وأهل الذمة إذا دلت القرائن على نصحهم وشهدت التجربة بإيثارهم أهل الإسلام على غيرهم؛ ولو كانوا من أهل دينهم، ويستفاد منه جواز استنصاح بعض ملوك العدو استظهاراً على غيرهم، ولا يعد ذلك من موالاة الكفار ولا موادة أعداء الله، بل من قبيل استخدامهم وتقليل شوكة جمعهم، وإنكاء بعضهم ببعض، ولا يلزم من ذلك جواز الاستعانة بالمشركين على الإطلاق.(١)

وقد نصح بُدَيْل ومن معه لرسول الله ﷺ وأخبروه بما كان من أمر قريش، بأنهم تجمعوا في الحديبية واستحوذوا على أماكن المياه، وقوله نزلوا أعداد مياه الحديبية أي الماء الذي لا انقطاع له. وأن معهم ذوات الألبان من الإبل ليتزودوا بألبانه، ولا يرجعوا حتى يمنعوه، وهو ما عبر عنه بقوله: ومعهم العوذ المطافيل: فالعُوذُ الناقة ذات اللبن، والمطافيل: الأمهات اللاتي معها أطفالها. وإزاء هذا التجمهر من كفار قريش يبين ﷺ أنه لم يَأْتِ لقتال، وإنما جاء وأصحابه ليعتمروا، ثم يبين عليه أفضل الصلاة والتسليم لبديل بن ورقاء ما لحق بقريش من الحرب إزاء تعنت مشركيها، وما يقترحه عليهم من خير الرأي النبوي الكريم، فيقول عليه الصلاة والتسليم (....وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاؤا مادَدتهم مُدَّةً ويُخَلُّوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فَعَلوا، وإلا فقد جَمُّوا، وإن هم أبوا

(١) ابن حجر، فتح الباري (٥/٣٣٧—٣٣٨)

فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تَنْفَرِد سالِفَتي، ولَيُنْفِذَنَّ اللهُ أمره...)[1]

لقد بين رسول الله ﷺ أثر الحرب على قريش وما صنعت بهم، بما يستثير عقولهم من غفلتها؛ وعن ما لحق بهم من هلاك لرجالهم دون اعتبار، وفي هذا دليل حرصه ﷺ على حفظ الدماء حتى لأعداء الإسلام؛ ما لم يدخلوا معه في حرب، أو يكيدوا لدين الله تعالى. وهذا يوضح ويؤكد أهمية عناية الإسلام بالدماء وصيانتها وحفظها؛ ما كان لذلك سبيلا. ثم يظهر الأسلوب التفاوضي المملوء بالحق وتنبيه الغافل عن سجايا الإسلام وهديه، وهذا ما أكده عقلاء كفار قريش عندما سمعو مقالة رسول الله ﷺ هذه.

وقد خيرهم رسول الله ﷺ فإن شاءوا ماددهم ﷺ أي جعل بينه ﷺ وبينهم مدة من الزمن تتوقف فيها الحرب، وهنا سيحصل أحد أمرين: إما أن يظهر غيرُه عليه؛ فكفاهم المؤنة، وإما أن يظهر ﷺ فإن شاءوا دخلوا في دين الله تعالى؛ وإلا فلا تنقضي مدة الصلح إلا وقد جموا أي استراحوا وتقووا . قال ابن حجر رحمة الله تعالى عليه: وإنما ردد الأمر مع أنه جازم بأن الله تعالى سينصره ويُظهره، لوعد الله تعالى له بذلك، على طريق التنزل مع الخصم؛ وفرض الأمر على ما زعم الخصم.[2]

ومما يستفاد من هذا الأسلوب أن يُنْزِل المتفاوض الاحتمالات المتوقعة للعدو جميعها، ليريه الإنصاف، وليبين له العدل في الكلام أولاً، وليري الله من نفسه أنه تحت مشيئته سبحانه وتعالى ثانياً. وفيه من الفوائد أهمية التحدث بما يُدْرِكُه المقابل ويستوعبه.

---

[1] البخاري (٢/٢٧٩ـ٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٥/٣٣٨)

ثم يختم عرضه ﷺ بما يبين عزمه وقوته وشجاعته وثقته في الله سبحانه وتعالى، بأنه إن أبوا سيقاتلهم على هذا الأمر، أي الدين الذي جاء به؛ حتى تنفرد سالفته ﷺ أي حتى القتل؛ لأن القتيل تنفرد مقدمة عنقه، أي صفحة العنق.

وتبين هذه المقولة منه ﷺ أنه لا يريد منهم شيئاً سوى الإسلام، وأن مقاتلته ومحاربته لهم؛ ليس على سبيل حب النصر والاستحواذ على الأموال، أو المكانة، وإنما لأجل هذا الدين فقط. وفي ذلك بيان أهمية الإخلاص لله تعالى في العمل، حتى وإن كانت أبواب ذلك العمل تحقق خير الدنيا والآخرة، فلا ينظر إلا ما كان لله تعالى، ولذلك لم يستكثر ﷺ من الأموال وجمعها، وكذا من زخرف الدنيا ومتاعها، وقد جاءه من الخير ما يجعله كذلك، ولكنه ﷺ ما حفظ لنفسه أموالاً ولا ظهر على محياه حب الوجاهة، فما أحرى ذوي المناصب الاجتماعية بهذا المسلك النبوي العظيم.

ثم ينهي عرضه ﷺ بقوله (ولَيُنْفِذَنَّ اللهُ أمره) فيبين لكل لبيب فَطِن؛ أن كل احتمال غير هذا لا مكان له، فإن الله تعالى ناصر دينه ومظهره على الدين كله، وما الاحتمالات التي سبقت في العرض إلا على سبيل ما يدور في ذهن الخصم.

وبعد أن سمع بُدَيْل المشورة من رسول الله ﷺ عزم على أن يذهب بها إلى قريش (... فقال بُدَيْلٌ: سأبلغهم ما تقول، قال فانطلق حتى أتى قريشاً. قال: إنَّا جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نَعْرِضَه عليكم فعلنا. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء. وقال ذَوُو الرأي منهم: هات ما سمعتَه يقول. قال: سمعتُه يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي ﷺ ...)[1]

فلقد استخدم بُدَيْل أسلوب التشويق في عرض مقالة رسول الله ﷺ فلم يبادرهم بها، وإنما أفادهم بأنه قَدِمَ على رسول الله ﷺ وسمع منه عَرْضاً يعرضه عليهم إن اشتهوا سماعه ومعرفته، وكذلك في هذا الأسلوب من بُديل التقدير لهم، وهذا أدعى لسماعهم بحكمة. مما يوضح أهمية تقدير المخاطَب مهما كانت البغضاء له، حتى يسمع

---

[1] البخاري (٢/٢٧٩ــ٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

ويستوعب المقال. وهذا من الحنكة السياسية التفاوضية، والتي لها أثر بالغ وفاعل في تحقيق المقصد والمراد.

ثم يتبين أن سفهاء القوم قد يُبادرون مجالسهم بالحديث، ولكن لا حظ لهم دائم في صواب الكلام والرأي، وفيه كذلك أنه لا يلزم إذا بادر أحد برأي خاطىء أو ضعيف أن يستسلم له العقلاء. وعلى المبلغ أن لا ينزعج إذا رُدَّ كلامه ابتداء؛ بل يتأنى حتى يؤدي رسالته. ثم بعد أن طُلِبَ من بُدَيْل الحديث، تحدث بما قاله ﷺ

وهنا قام أحد عقلائهم كما جاء في الحديث (...فقام عروة بن مسعود فال: أي قوم، ألستم بالوالد ؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد ؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموني ؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أني استنفرتُ أهلَ عكاظ، فلمَّا بلَّحوا عَليَّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا: بلى...)[1]

وفي هذا الأسلوب الخطابي من عروة بن مسعود الثقفي، ما يبين أهمية تقرير إخلاص الناصح إذا ظن أنه قد يُفْهَم فهماً خاطئاً، أو أن لا يُدرك مبلغ كلامه ورأيه، خاصة وأنه قد سبقه من يُعارض مبدأ الاستماع؛ فضلاً عن قبول محتواه. وهذا يدلل على أن العرب كانت قديماً تفطن لمنهجية التعليم، والاستثارة البلاغية والكلامية؛ ليبلغ الكلام مبلغه، ولا ريب أن ينزل القرآن الكريم بهذه اللغة العظيمة على أناس بلغوا شأواً بعيداً في مضمار الخطاب اللساني، فجاء القرآن بما هو أعظم وأجمل مما وصلوا إليه.

فقوله ألستم بالوالد ؟ تقرير لهم وله بمنزلته منهم، بكون أمي منكم، وبكون كباركم بمنزلة الأب مني، وبالتالي لا يمكن أن يُقَدِّم الابن رأياً خائباً لآبائه، ثم يقرر الوجه الثاني: ألست بالولد ؟ لتتم المقابلة في العلاقة وتكتمل الصورة، وتستثير العواطف لاستماع مقالته والتفاعل معها. ثم ينتقل إلى مثير آخر، فهل تتهموني ؟ وهي عامة مطلقة؛ تكون في العقل والرأي؛ وفي الأمانة وغيرها، فيقررون له بنفي التهمة له،

---

[1] البخاري (٢/٢٧٩ــ٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

ثم ينـــتقل إلى مثير وبرهان آخر؛ يحمل ولاءه لهم؛ باستنفاره أهل عكاظ ودعوهم إلى نصـــرتكم، فلما بَلَّحوا عليَّ أي امتنعوا؛ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني. فأقروا له بذلك.

وبعد هذه المقدمة المثيرة؛ قال عن العرض النبوي الكريم (... قال: فإن هذا قد عَرَض عليكم خُطَّة رُشْدٍ اقبلوها ودعوني آتيه. قالوا ائته. فأتاه،...)[1]

وبهذا الأسلوب اللفظي البارع؛ استطاع أن يجمع رأي قريش على رأي واحد، وهو أن يذهب إلى رسول الله ﷺ

ثم يظهـــر أيضـــاً من وصفه لرأي رسول الله ﷺ قوة وعدل رسول الله ﷺ في حكمـــه وتعاملـــه، حتى أن عدوه وصف رأي رسول الله ﷺ بأنه خُطَّة رُشْد. وفي هذا أهمية العدل في الرأي وما يحويه من إنصاف حتى يقبله الطرف الآخر، وهو من الحكمة الـــتي لا تتجاهل فهم وإدراك الطرف الآخر، خاصة وأن رسول الله ﷺ يدرك أن الله ناصـــره، عندما قال في تمام كلامه لبُدَيل (ولَيُنْفِذَنَّ الله أمره) ومع ذلك وضعهم أمام الاحتمالات التي يتوقعونها.

وفي مشهد ساحة المسلمين نما إلى رسول الله ﷺ إشاعة، مفادها: أن عثمان بن عفـــان ﷺ قد قُتل، حيث بعثه ﷺ إلى قريش، لبيان موقفه عليه الصلاة والسلام، وأنه جاء إلى مكة بقصد العمرة، وهنا حدثت بيعة الرضوان، حيث بايع الصحابةُ رسولَ الله ﷺ جمـــيعاً؛ سوى الجد بن قيس؛ كما جاء في رواية جابر ﷺ أن أبا الزبير سمع جابراً يُسْأل : كم كانوا يوم الحديبية ؟ قال ﷺ (كنا أربع عشرة مائة. فبايعناه. وعمر آخذ بيده تحت الشجرة. وهي سمرة. فبايعناه. غير جد بن قيس الأنصاري. اختبأ تحت بطن بعيره.)[2] وقد كان منافقاً.

---

[1] البخاري (٢/٢٧٩ــ٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

[2] مسلم (١٤٨٣/٣) برقم (٦٩ــ١٨٥٦)

ويتبين من هذا المشهد تجسيد البيعة وتحقيقها وتعيينها، لما فيها من تقوية القلوب، وتحقيق المزيد من التعاضد. كما أن في هذا المشهد شجاعة عثمان بن عفان ﷺ خاصة وأن خِراش بن أمية الخزاعي قد بعثه ﷺ قبله وحَمَلَه على بعير له يقال له: الثعلب، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله، فمنعه الأحابيش، فَخَلَّوا سبيله، حتى أتى رسول الله ﷺ [1]

وقد قال ﷺ في أهل بيعة الرضوان (أنتم اليوم خير أهل الأرض)[2] وعن بيعة عثمان ﷺ في غيابه؛ سجلها له رسول الله ﷺ كما جاء في صحيح البخاري، أن عبد الله بن عمر قال (...أما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحدٌ أعزَّ ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: هذه يدُ عثمان، فضرب بها على يده، فقال: هذه لعثمان.)[3] وفي هذا وفاء النبي ﷺ لعثمان ﷺ الذي ذهب في مصلحتهم، مما يؤخذ منه: أنه يُقسم للمتغيب في حاجة القوم ما يصيبهم من خير حال غيابه. ثم عاد إلى المسلمين عثمان بن عفان ﷺ كما أن في صنيعه ذلك ﷺ ما يعطي مبدأً إدارياً، وهو الوفاء للغائب بكل خير.

كما يتبين من مشهد جد بن قيس حال المنافق؛ وما هو عليه من الضعف والهوان والذل؛ الذي تتلبس به أفعاله، بعكس المؤمن القوي البائن في أقواله وأفعاله.

ثم جاء عروة بن مسعود إلى النبي ﷺ (...فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لِبُدَيْل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلتَ أمرَ

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٢٨)

[2] مسلم (٣/١٤٨٤) برقم (٧١ــ١٨٥٦)

[3] البخاري (٣/١٩) برقم (٣٦٩٨)

قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى، فإني والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خَلِيقاً أن يَفِرُّوا ويدعوك،...)[1]

ويتبين من هذه المقابلة مع النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ تمسك بالعرض الذي ذكره لبديل؛ لما فيه من الخير للمسلمين والإسلام، ولما فيه من العدل مع الخصم، وليتمكن كفار قريش من التريث في التفكير خلال مدة الهدنة؛ فيعودوا إلى رشدهم. وفي هذا أهمية التمسك بالرأي إذا اكتملت عناصر جودته وقوته، كما هو رأي رسول الله ﷺ وهنا بدأ عروة بن مسعود يضع تصوراً أمام النبي ﷺ ولكن هذا التصور ظهر باهتاً، لأنه غير مستند إلى حقيقة، وإنما ينم عن دهاء، فقد استخدم الاستثارة العاطفية في قوله: أرأيت إن استأصلتَ أمرَ قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ وهذا الأمر ليس غائباً عن رسول الله ﷺ فلقد مَرَّ في السيرة قبل هجرته ﷺ أنه رفض أن يطبق عليهم مَلَك الجبال الأخشبين، بل إنه ﷺ كما سبق التنويه عنه في مواقف عديدة أنه ﷺ يتجنب إراقة الدماء، وما غزا غزوة إلا لمعرفته أن القوم يَعِدُّون له مكراً وشراً. وما أمر بقتل أحد إلا لمعرفته أنه يدبر أمر شرٍ للمسلمين، فيتوخى بقتله قتل نفوس كثيرة. ثم إن عروة حذف من كلامه انتصار قريش، وعبر عنها بقوله: وإن تكن الأخرى. وهذا والله تعالى أعلم لاستعطاف النبي ﷺ نحو رأيه بما لا يثيره، ثم يحكم على أصحاب رسول الله ﷺ بما لا يمكن أن يُقبل، فيصفهم عُرْوَة بأنهم ذاهبون عنه إن كانت الأخرى، فيقول عنهم: وإني لأرى أشواباً من الناس خَلِيقاً أن يَفِرُّوا ويدعوك. ومعنى أشواباً أي أخلاطاً من القبائل. ولم يدرك عروة بن مسعود أن أخوة الإسلام أقوى من كل أخوة، وأنها تمثلت في أصحاب رسول الله ﷺ أحسن وأكمل تمثيل، وأن محبتهم لرسول الله ﷺ تفوق محبتهم لأنفسهم وأهليهم وكنوز الدنيا بأجمعها، وقد عبر عنها الصحابي الجليل خبيب ﷺ عندما قتلته قريش.

---

(1) البخاري (٢/٢٧٩ـ٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

وهنا لم يسكت الصحابة الأجلاء عن كلامه، فرد عنهم أبو بكر ﷺ رداً قوياً، وكذلـــك الصحابة ردوا بالفعل الْمُبِّن ما يبين عمق محبتهم لرسول الله ﷺ كما سيأتي بيانه في سياق هذا النقل الحديثي (... فقال له أبو بكر: أمْصُصْ بَظْرَ اللات، أنحن نَفِرُ عـــنه ونَدَعُـــهُ ؟ فقال: من ذا ؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والَّذي نفسي بيده، لولا يَدٌ كانت لك عندي لم أجْزِكَ بها لأجَبْتُكَ...)[1]

لقد أجابه أبو بكر ﷺ بما كان سائداً في الجاهلية من الأجوبة المعتادة، فالبظر: قطعـــة تـــبقى بعد الختان في المرأة، وكانت عادة العرب الشتم بذلك، وأراد أبو بكر الصديق ﷺ المبالغة في السب لِمَا نسبه إلى المسلمين من الفرار عن رسول الله ﷺ [2] ثم بين عروة أن الذي يمنعه من الاجابة يَدُ معروفٍ لأبي بكر الصديق عنده. وهو أن عروة بن مسعود تحمل دية، فأعانه عليها أبو بكر الصديق ﷺ [3] وهذا يفيد أمرين: الأول: مـــا كـــان عليه أبو بكر الصديق من كريم الخُلُق، والإعانة على الخير، والثاني: حفظ العـــرب لصنائع المعروف، وعنايتهم بذلك، وعدم تناسي يد الخير التي تمتد من بعضهم لـــبعض، ويدفعهم إلى تقديم صنائع المعروف؛ تحسباً لنوائب الدهر، وإنها من الخصال الحمـــيدة التي تشد من تماسك المجتمع. وحري بالمسلم اليوم أن يأخذ بهذا الخُلُق الذي مكافأتـــه أكبر مما كان يُرْصَدُ له في الجاهلية، تلك المكافأة التي ينتظرها المسلم من ربه الكريم تبارك وتعالى.

ثم أخذ عروة بن مسعود يكلم النبي ﷺ (...قال: وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته، والمغيرة بن شُعْبَةَ قائمٌ على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه

---

[1] البخاري (٢/٢٧٩ــ٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٥/٣٤٠)

[3] المرجع السابق (٥/٣٤٠)

المِغْفَــرُ، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أَخِّرْ يَدَكَ عن لحية رسول الله ﷺ ...)[1]

فلقد كان من عادات العرب أن يتناول الرجل لحية من يكلمه، ولا سيما عند الملاطفــة، وفي الغالب إنما يصنع ذلك النظير بالنظير، والمغيرة بن شعبة ﷺ يمنع عُرْوَة مـــن لحية النبي ﷺ اجلالاً للنبي ﷺ وتعظيماً، وفي قيام المغيرة بن شعبة ﷺ على رأس الــنبي ﷺ جــواز القيام على رأس الأمير بالسيف بقصد الحراسة ونحوها من ترهيب العدو، ولا يعارضه النهي عن القيام على رأس الجالس، لأن محله ما إذا كان على وجه العظمة والكبر.[2]

ولقد تأثر عُرْوة بن مسعود بصنيع المغيرة بن شعبة ﷺ (...فرفع عُرْوَةُ رأسه فقـــال: مـــن هذا ؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أىْ غُدَر، ألستُ أسعى في غَدْرَتِك ؟ وكان المغيرة صَحِب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم؛ ثم جاء فأسلم. فقال النبي ﷺ : أما الإسلام فأقبلُ؛ وأما المال فلست منه في شيء...)[3]

ويفيد هذا البيان أن عروة كان يسعى في دفع شر ذلك القتل، حيث ذكر ابن هشام: أراد عُرْوَة بقوله هذا أن المغيرة بن شُعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بـــني مالك، من ثقيف، فتهايج الحَيَّان من ثقيف: بنو مالك رهط المقتولين، والأحلاف رهط المغيرة، فَودَى عُرْوَة المقتولين ثلاث عشرة دية، وأصلح ذلك الأمر.[4] ويفيد هذا بيان ما كان عليه العرب في الجاهلية من تعاون لدفع بعض الشر عنهم.

فقـــبل رسول الله ﷺ إسلام المغيرة بن شعبة ﷺ ولم يقبل المال. وجاء في فتح الـــباري: ويُســـتفاد أنـــه لا يحل أخذ أموال الكفار في حال الأمن غدراً، لأن الرفقة

---

[1] البخاري (٢/٢٧٩ــ٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

[2] المرجع السابق (٥/٣٤٠ــ٣٤١)

[3] البخاري (٢/٢٧٩ــ٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

[4] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٢٨)

يصـــطحبون على الأمانة، والأمانة تؤدى إلى أهلها؛ مسلماً كان أو كافراً، وأن أموال الكفـــار إنمـــا تحل بالمحاربة والمغالبة. ولعل النبي ﷺ ترك المال في يده لإمكان أن يُسلم قومـــه فيرد عليهم أموالهم، ويُستفاد من القصة أن الحربي إذا أتلف مال الحربي لم يكن عليه ضمان.[1]

ثم ينتقل المشهد وتنتقل الصورة إلى ما كان يشاهده عُرْوَة من صنيع أصحاب رســـول الله ﷺ وهـــم حوله وبجواره ـــ رضي الله تعالى عنهم ـــ فلقد رأى منهم أمراً عجباً. (...ثم إن عُروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه. قال: فوالله ما تنخَّم رسول الله ﷺ نخامـــة إلا وقعـــت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيماً له.فرجع عُرْوَةُ إلى أصحابه فقال: أيْ قوم، والله لقـــد وَفَدتُ على الملوك، ووفدتُ على قيصر، وكِسْرَى، والنجاشي، والله إنْ رأيت مَليكاً قطُّ يُعَظِّمُهُ أصحابُه ما يُعَظِّمُ أصحابُ محمَّدٍ ﷺ محمداً، والله إن يتنخم نُخامة إلا وقعـــت في كف رجل منهم فَدَلَك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضـــأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيماً له. وإنه قد عَرَض عليكم خُطَّة رُشْدٍ فاقبلوها...)[2]

يـــبين هذا المشهد من أصحاب رسول الله ﷺ مقدار محبتهم للنبي ﷺ وترجمة فاعلة لتلك المحبة بالفعل لا بالقول فقط، مما يبين أن مَنْ أحبه ﷺ يترجم محبته في طاعته واتباع أمره، وبذل الجهد في سلوك مسلكه العظيم. كما كان يفعله الصحابة ـــ رضي الله تعالى عنهم ـــ ولقد أجاب ورَدَّ هذا الفعل منهم ما زعمه عُرْوَة بن مسعود من أنهم أشـــواباً، خَلِيق بهم أن يفروا عن رسول الله ﷺ فترجموا بالفعل والقول محبتهم للرسول ﷺ ويفيد الحديث طهارة النخامة، والتبرك بما كان من رسول الله ﷺ

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٥/٣٤١)

[2] البخاري (٢/٢٧٩ـــ٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

كمـــا يفيد هذا المشهد أهمية اللُّحْمَة والتلاحم مع ولي الأمر المسلم، وإظهار المـــزيد من ذلك أمام العدو، في صور متعددة؛ تبين مقدار التماسك والتلاحم، حتى لا يطمع العدو فيهم، نتيجة تفرقهم وتمزقهم، وضعف العلاقة بين القائد والرعية.

ويفـــيد ذلـــك أيضـــاً أنّ على ولي الأمر أن يسعى مع رعيته فيما يحقق ذلك الـــتلاحم، لأنه لا يمكن أن يكون في صورته التامة إلا بسعي ولي الأمر في تحقيق ذلك. ويعلم أن قوته مرهونة بقوة رعيته وتماسكهم وتعاضدهم معه على الخير والتقوى.

ويـــبين كلام عُرْوَة بن مسعود لقومه أن ما تحقق من تلاحم وتعاضد بين النبي ﷺ وأصحابه ــ رضي الله تعالى عنهم ــ يعجز أن تحققه الدساتير والعطايا والقوة فيما ظهـــر مـــن واقع ملوك ذلك الزمن، وقد تحقق بصورة مذهلة ليس لها مثيل في مسيرة رسول الله ﷺ بمنهجه الإسلامي القويم، وهذا يؤكد أن من أراد من ولاة أمور المسلمين تحقيق ما لا يتحقق بأساليب ممالك الدنيا؛ أن ينهج منهج رسول الله ﷺ في مجال الحكم والإدارة والخُلُق، وتطبيق شريعة الله تعالى بالصورة التي كانت سائدة، فو الله ليست في تعسف ولا تشدد، بل إنها في غاية السماحة والبساطة.

وتفـــيد هذه الرواية المبينة لصورة عجيبة ومثيرة للغاية، أن العدو قد تأثر بها وامتدحها بأسلوب المقارنة مع غيره من ملوك الدنيا في ذلك الزمن، فظهر المدح والثناء بصورة غير مباشرة؛ أظهرت وأعلنت لهم حقيقة صورة محبة الصحابة للنبي ﷺ، فأثرت في حكمه، فقال لقومه: وإنه قد عَرَض عليكم خُطَّة رُشْدٍ فاقبلوها. ولكن رجلاً منهم توقـــع أن يحصل له غير ما حصل لعروة بن مسعود، فطلب من القوم أن يذهب للنبي ﷺ كما في رواية الحديث التالية:

(فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتيه، فقالوا: ائته. فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ : هذا فلان، وهو من قوم يُعَظِّمون البُدْن، فابعثوها له، فَبُعِثَـــت له، واستقبله الناس يلبون. فلما رأى ذلك، قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء

أن يُصَـــدُّوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدْنَ قد قُلِّدَت وأُشْعِرَت، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت...)[1]

ومما يمكن أن يُستفاد من هذا النص أهمية إدراك الخصائص البشرية ليحسن التعامل معها، فقد بين ﷺ أبرز خاصية للرجل المفاوض عندما أقبل عليه ، وما يمكن أن يناســبها في هـــذا الموقف، وقد ذكر اسمه ابن هشام، فقال: ثم بعثوا إليه الحُلَيس بن علقمة أو ابن زَبَّان، وكان يومئذ سيد الأحابيش.[2]

فمعرفة الخصائص البشرية من مفاتيح التعامل الإنساني، والتي يمكن الولوج من خلالها ما أمكن ذلك. وبالتالي تأثر الحُلَيس بما رأى وقال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَـــدُّوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدْنَ قد قُلِّدَت وأُشْعِرَت، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت.

وفي هذا ما يؤكد أن سياسة العدو بما يحقق المصلحة، ويدفع الشر؛ من الأمور التي يأخذ بها القائد أو ولي الأمر، حتى في إظهار ما كان لله تعالى أمام العدو، ليس من الـــرياء، ما كان فيه مصلحة للمسلمين، لأن النية منعقدة لله تعالى؛ وليس للعدو. كما يبين هذا الموقف أن قريشاً تُعَظِّم البيت، مع ما لديهم من الشرك والضلال والفساد.

وإزاء هذا الرأي من الحُلَيس، يقوم رجل آخر يتوقع أن يحصل منه خلاف ما حصل من حُلَيس، كما يتضح من رواية الحديث التالية:

(...فقـــام رجل منهم يُقال له مِكْرَزُ بن حَفْصٍ، فقال: دعوني آتيه، فقالوا: ائـــته. فـــلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ : هذا مِكْرَز، وهو رجل فاجر. فجعل يُكلم الـــنبي ﷺ فبيـــنما هو يكلمه إذ جاء سُهيل بنُ عمرو. قال مَعْمَرٌ: فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: قد سَهُلَ لكم من أمركم...)[3]

---

[1] البخاري (٢/٢٧٩ــ٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٢٦)

[3] البخاري (٢/٢٧٩ــ٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

وتتكرر أهمية معرفة الخصائص البشرية في مقدم مِكْرَز، حيث بين ﷺ ما عليه الرجل، وفي رواية ابن هشام أنه قال عنه ﷺ (غادر).[1]

وتتأكد كذلك في مَقْدَم سُهيل بن عمرو، التفاؤل باسمه، لما يتضمنه الاسم من السهولة. وكان كما قال ﷺ فَكُتِبَت المعاهدة على نحو المجريات التالية، التي توضحها رواية الحديث الصحيح:

(.... قال مَعْمَرٌ قال الزُّهْرِي في حديثه: فجاء سُهيل بن عمرو فقال: هاتِ أكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل: أما (الرحمن) فو الله ما أدري ما هي، ولكن أكتب (باسمك اللهم) كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال النبي ﷺ : أكتب (باسمك اللهم) ثم قال (هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله) فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن أكتب (محمد بن عبد الله) فقال النبي ﷺ : والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، أكتب محمد بن عبد الله. قال الزُّهْرِيُّ: وذلك لقوله (لا يسألونني خُطَّة يُعَظِّمون فيها حُرُمات الله إلا أعطيتهم إياها) فقال له النبي ﷺ : على أن تُخَلُّوا بيننا وبين البيت فنطوف به. فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنَّا أُخِذْنا ضُغْطَةً، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل ـ وإن كان على دينك ـ إلا رَدَدْتَهُ إلينا. قال المسلمون: سبحان الله، كيف يُردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً، فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قُيودِهِ، وقد خرج مِن أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه، أن ترده إليَّ. فقال النبي ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد. قال: فو الله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً. قال النبي ﷺ : فَأَجِزْهُ لِيَّ، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: بلى فافعِل، قال: ما أنا بفاعل. قال مِكْرَزٌ: بل قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٢٦)

معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً ؟ ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عُذِّب عذاباً شديداً في الله...)[1]

ويتبين من هذا المقطع التفاوضي مقصد رسول الله ﷺ السلْمي، وحقنه للدماء، ريثما تفكر قريش في أمرها، فربما يؤوب المشركون إلى رشدهم. كما يتبين التزامه ﷺ بما تعاهد عليه مع الخصوم. ويستفاد من ذلك أهمية السعي لحفظ الدماء، ما كان لذلك سبيلا، وكذا حفظ العهود والمواثيق.وأن الحرب في الإسلام ليست مطلوبة لذاتها، أو لأخذ الناس بالباطل، أو للاستحواذ على مقدراتهم.

ومما يؤكد عناية الإسلام بحقن الدماء ما جاء في الحديث الذي رواه مسلم رحمة الله تعالى عليه ، عن أنس ﷺ (أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين، يُرِيدُون غِرَّةَ النبي ﷺ وأصحابَه، فأخذهم سلماً، فاستحياهم. فأنزل الله عَزَّ وجلَّ (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم)سورة الفتح)[2] وكرر المحاولة ثلاثون شاباً عليهم السلاح أثناء إبرام الصلح، فخلى سبيلهم ﷺ [3]

وفي رواية أخرى يظهر موقف أدبي رائع وعظيم من علي بن أبي طالب ﷺ فقد جاء في صحيح مسلم (كتب علي بن أبي طالب الصلح بين النبي ﷺ وبين المشركين، يوم الحديبية، فكتب: هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله. فقالوا: لا تكتب رسول الله، فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك. فقال النبي ﷺ لعليٍّ: أمحه. فقال: ما أنا بالذي أمحاه. فمحاه النبي ﷺ بيده...)[4] وفي الرواية الأخرى قال النبي ﷺ (أرني مكانها، فأراه مكانها، فمحاها)[5] وفي رواية أخرى (...ثم قال لعلي: امح رسول الله.

---

(1) البخاري (٢/٢٧٩ـ٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

(2) مسلم (٣/١٤٤٢) برقم (١٨٠٨)

(3) أحمد (٤/٨٦ـ٨٧)

(4) مسلم (٣/١٤٠٩/١٤١٠) برقم (١٧٨٣)

(5) المرجع السابق برقم (٩٢ـ ١٧٨٣)

قال علي: لا والله لا أمحوك أبداً. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب ــ وليس يُحسن يكتب ــ فكتــب...)[1] فلم يجرؤ علي بن أبي طالب أن تمتد يده ﷺ لتمحو لفظ رسول الله ﷺ وهــذا دليل فطنته وحكمته، وانتباهه وهو في حالة كاتب بين متفاوضين، والموقف ليس باليسير، فرضي الله عنك، فقد علمت من بعدك درساً في تعظيم لفظ :رسول الله ﷺ وهو دليل على تعظيم صاحبه، وتعظيم الله سبحانه وتعالى بتعظيم نبيه ورسوله ﷺ ولــيس في هذا عصياناً منه ﷺ بل إجلالاً وتكريماً، إذ لم تجرؤ يده على أن تمحو لفظ رسول الله ﷺ كما أن في النص بيان أمية الرسول ﷺ

ثم إن بــنود هذا التفاوض قد أذهلت المسلمين (قال المسلمون: سبحان الله، كــيف يُردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً) قال ابن هشام: دخل على الناس من ذلك أمــر عظيم، حتى كادوا يُهلكون.[2] وقد أذهل ذلك عمر بن الخطاب ﷺ (...قال: فقــال عمــر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألستَ نبيَّ الله حقاً ؟ قال: بلى. قلــت: ألســنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال: بلى. قلتُ: فَلِمَ نُعْطي الدنية في دينــنا إذاً ؟ قــال: إني رسول الله ولستُ أعصيه، وهو ناصري. قُلْتُ: أو ليس كنتَ تُحدثــنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ قال: قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومُطَوِّفٌ به . قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقــاً ؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال: بلى. قلت: فَلِمَ نُعطي الدنية في ديننا إذاً ؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بِغَرْزِهِ فو الله إنه على الحق. قلت: أليس كان يُحدثنا أنا سنأتي البيــت ونطوف به ؟ قال: بلى. أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قُلتُ: لا. قال: فإنك آتيه ومُطَوِّفٌ به. قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً...)[3]

---

[1] البخاري (١٤٤/٣) برقم (٤٢٥١)

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (٣٣٢/٣)

[3] البخاري (٢٧٩/٢ــ٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

وظاهـــر قوله ﷺ (إني رسول الله ولستُ أعصيه) أنه عليه الصلاة والسلام لم يفعـــل من ذلك شيئاً إلا بالوحي. ويُستفاد من هذا الفصل جواز البحث في العلم حتى يظهـــر المعـــنى. وأن الكلام يُحمل على عمومه وإطلاقه حتى تظهر إرادة التخصيص والتقييد، وأن من حلف على فعل شيء ولم يذكر مدة معينة لم يحنث حتى تنقضي أيام حياته. وفي عدم مراجعة عمر بن الخطاب ﷺ غير أبي بكر ﷺ دليل على جلالة قدره وســعة عــلمه عنده، وفي جواب أبي بكر لعمر بنظير ما جاء به النبي ﷺ سواء؛ دلالة عـــلى أنه كان أكمل الصحابة وأعرفهم بأحوال رسول الله ﷺ وأعلمهم بأمور الدين، وأشدهم موافقة لأمر الله تعالى.[1] وفي نُصح أبي بكر ﷺ لعمر بأن يمسك غرزه[2] أي يتمســـك بأمره ويترك المخالفة له، ما يبين أهمية إعانة المنصوح بحرارة التعبير، ليحمله على الخير. كما يستفاد من بنود المعاهدة أن أمور الدين تشريعية؛ وليست عقلية، ولا ذوقـــية، فلو كانت بالعقل المجرد فإن ظاهر المعاهدة ليس في صالح المسلمين، ولكن الله تعـــالى يعـــلم ما لا يعلمه العباد. وفي هذا ما يوجب دلالة أسمائه وصفاته العظيمة، أنه العلـــيم؛ الخبير؛ الحكيم؛ اللطيف؛ العظيم؛ سبحانه وتعالى. فهو العالم بما تدركه وما لا تدركه عقول البشر، والخبير بخلجات النفوس ودقائق الأمور وصغائرها ونتائجها قبل حدوثهـــا وبعد جريانها، خبير بما هو أصلح للمسلمين من أنفسهم، فقد جرى من هذا الصلح بتلك الكيفية خير كبير سيأتي بيانه. وتجلت حكمة الباري العظيم في أنها كانت فـــتحاً مبينا، فحصل منها نتائج عظيمة، فكان عدد جيش المسلمين بعد عامين عشرة آلاف مسلم، وكانوا في هذه الغزوة ألف وخمسمائة. وهو اللطيف بعباده، فكف أيدي الفريقين عن القتال، وكان فتحاً عظيماً.

وفي المحادثـــة بـــين رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب ﷺ ما يفيد عدم إظهار الغضـــب للمـــتحدث الذي أشكل عليه الأمر، وقبول سؤالاته، والجواب عليها دون

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٣٤٦/٥)

[2] الغرز بمثابة ومنزلة الركب للفرس، وهو كالذي يمسك بركب الفارس فلا يفارقه. الفتح (٣٤٦/٥)

إهمال أو إعراض، وأن للأدنى أن يسأل الأعلى بأسلوب التقرير، ولا غضاضة في ذلك، وأن على المسؤول أن يُجيب ولا ينزعج. وفي هذا رحابة صدر رسول الله ﷺ لأصحابه رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ويستفاد من ذلك أيضاً إخلاص عمر بن الخطاب ﷺ وأن الصحابة بشر، يعتريهم ما يعتري البشر من الذهول عما لا يُدركون، ثم يتبين خوف عمر ﷺ من الذنب؛ فيعمل أعمالاً عظيمة من الطاعة، قال ابن هشام: فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعتُ يومئذ ! مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً.[1]

فيعطي ويقدم عمر ﷺ أنموذجاً للمسلم الذي يخاف من خطئه، ويعترف به، ولا يتأوله بتبريرات نفسية، بل ويُتْبِع ذلك بأعمال الخير المتنوعة؛ رجاء مغفرة الله تعالى له.

وفي هذا الحدث أن خزاعة كانت مثلاً صادقاً في أنهم عيبة رسول الله ﷺ حيث تواثبت خزاعة، فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.[2]

ثم يأتي بعد ذلك مشهد المسلمين بعد الفراغ من الكتاب (...قال: فلما فَرَغَ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال: فوالله ما قام منهم رجلٌ حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحدٌ دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحبُّ ذلك ؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَكَ، وتدعوا حالِقَك فَيَحْلِقَك. فخرج فلم يكلم

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٣١) وابن حجر، الفتح (٥/٣٤٦)

(2) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٣٢)

أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدْنَهُ ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غَمًّا...)[1]

إن علة توقف المسلمين وتأخرهم عن تنفيذ أمر رسول الله ﷺ قد بينته أمُ المؤمنين أم سلمة ــ رضي الله تعالى عنها ــ وهي من أعرف الناس بأحوالهم، فقد نقل ابن حجر عن ابن إسحاق، قالت أم سلمة ــ رضي الله تعالى عنها ــ (يا رسول الله لا تكلمهم، فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح؛ ورجوعهم بغير فتح)[2] فهذا البيان من أم المؤمنين أم سلمة ــ رضي الله تعالى عنها ــ يبين حقيقة ما أصابهم من الذهول، وهي الحصيفة اللبيبة التي أشارت على رسول الله ﷺ بالرأي الحصيف، الذي تقدمته مقدمة بيانية تدل على قوة بيانها، فقالت: (يا نبي الله أتحب ذلك ؟) ولم تنتظر الجواب لأنه متقرر عندها بسؤاله ﷺ لها واستعانته برأيها؛ فألحقت سؤالها بالجواب الممتلئ حكمة، والمبين لمعرفتها بأحوال الصحابة، وأنه ما أخرهم عن المبادرة إلا الذهول الذي أصابهم، وليعلم من بعدهم أن منهج الإسلام نزل على بشر يعتريهم ما يعتري غيرهم من الناس، وطبقوه أحسن تطبيق، فلا حجة لمن يتعذر بعدم القدرة على تكامل التطبيق كأصحاب رسول الله ﷺ لأنهم أصحاب رسول الله ﷺ

فهم خير الناس بعد الأنبياء والمرسلين، وخير الأصحاب وخير من طبق منهج الإسلام، وهم أهل صدر القرون المفضلة، وهم أسوة وقدوة لمن بعدهم.

ومما يُستفاد من ذلك علو مكانة المرأة في الإسلام، وأنها مظنة الرأي والاستشارة، وأن للرجل أن يستشير أهله إذا كانت أهلاً لذلك. وأن لا يستنكف الأعلى من استشارة الأدنى، وأن العطاء من الله تعالى، فقد أعطى أم سلمة رضي الله تعالى من الرأي ما طابت به نفس رسول الله ﷺ وأظهر على يديها رأياً صائباً مباركاً.

---

[1] البخاري (٢/٢٧٩ــ٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٥/٣٤٧)

وفي فعلــه ﷺ لِمَا أشارت به أم سلمة: أن واقع الحال مع المقال قد يكون في التأثير أقوى من المقال المجرد.

وفــيما يتعلق برد النساء من الصلح، فقد حسم القرآن الكريم أمر النساء من شــرط الرد، كما جاء في الصحيح (...ولم يأته أحدٌ من الرجال إلا ردَّه في تلك المدة وإن كـــان مســلماً، وجاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عُقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ ــ وهي عاتق[1] ــ فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يَــرجِعها إلــيهم، فــلم يرجعها إليهم؛ لما أنزل الله فيهن (إذا جاءكم المؤمنات مهاجــرات فامتحــنوهن الله أعــلم بإيمانهن ــ إلى قوله ــ ولا هم يحلون لهن) سورة الممتحنة:)[2]

وفي الحديث أيضاً (...ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله تعالى (الممتحنة: ١٠) (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ــ حتى بلغ ــ بعصم الكوافر) فطلّق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك. فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية...)[3]

ويفــيد ذلــك أهمية التثبت، وكان امتحانهن بالله ما خرجت من بغض زوج، وبـــالله مـــا خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجـــت إلا حباً لله ولرسوله. ومن وجه آخر؛ كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.[4]

كمـــا أن من فوائد ذلك أن المشركة لا تحل للمسلم، وكذلك المسلمة لا تحل للكافــر، ويــبين الحديث تجاوب عمر بن الخطاب ﷺ بتطليق امرأتين، دون تردد في

---

[1] عاتق: أي بالغة.

[2] البخاري (٢/٢٧٣) برقم (٢٧١١ ، ٢٧١٢)

[3] البخاري (٢/٢٧٩ــ٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

[4] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٣٧٥)

ذلـــك، جاء في الحديث (قال عروة: فأخبرتني عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن، وبلغـــنا أنـــه لمـــا أنزل الله تعالى أن يردوا إلى المشركين ما أنفقوا على من هاجر من أزواجهـــم، وحكم على المسلمين أن لا يُمسكوا بعصم الكوافر، أن عمر طلّق امرأتين ــ قريـــبة بنت أبي أمية. وابنة جَرْوَلٍ الخزاعي، فتزوج قريبة معاوية، وتزوج الأخرى أبـــو جهم. فلما أبى الكفار أن يُقروا بأداء ما أنفق المسلمون على أزواجهم أنزل الله تعـــالى (الممتحنة:١١) (وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم) والعَقِبُ ما يُـــؤدي المسلمون إلى من هاجرت امرأتُهُ من الكفار، فأمر أن يُعطى مَنْ ذَهَبَ له زوجٌ مـــن المســـلمين مـــا أنفق من صداق نساء الكفار اللائي هاجرن، وما نعلم أحداً من المهاجرات ارتدت بعد إيمانها...)[1]

ويفـــيد ذلك عدل الإسلام مع الكفار، بأن يُعطوا ما أنفقوا، ويأخذ المسلمون ما أنفقوا، ولكن الكفار أبوا الإقرار بما أنفق المسلمون. فأمر الله تبارك وتعالى أن يُعطى المســـلم ما أنفق من صداق، ولكن ولله الحمد والمنة لم يرتد أحد من المسلمات، حتى يســـتحق مـــا أنفق من الصداق. مما يفيد صدق من دخل منهن في الإسلام، وأن من يدخـــل الإســـلام يجد فيه دواعي حبه والتمسك به، لأنه دين الله تعالى الذي ارتضاه لعباده.

(...ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة. فجاءهُ أبو بَصير رجلٌ من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحُلِيفَة، فنـــزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى ســـيفك هـــذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت به ثمَّ جربت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى بَرَدَ، وفرَّ الآخـــر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يَعْدُو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذُعْرَاً، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتِلَ والله صاحبي وإني لمقتول. فجاء أبو بصير،

---

[1] البخاري (٢/٢٨٤) برقم (٢٧٣٣)

فقـــال: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمَّتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم. قال الـــنبي ﷺ : وَيـــلُ أمِّه مِسْعَرَ حَرْبٍ لو كان له أحد، فلما سمع ذلك عَرَفَ أنه سَيَرُدُّهُ إلـــيهم؛ فخرج حتى أتى سيف البحر. قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فَلَحِقَ بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجلٌ قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت مـــنهم عصـــابة، فـــوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها. فقـــتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تُناشدُهُ الله والرحم لما أرسل فمـــن أتـــاه فهو آمنٌ، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى (الفتح:٢٤) (هو الذي كـــف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ـــ حتى بلغ ـــ الحمـــية، حمية الجاهلية) وكانت حميتهم أهم لم يُقروا أنه نبي الله، ولم يُقرّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت)[1]

ففي موضوع أبي بصير وفاء النبي ﷺ بالكتاب الذي تعاهد عليه مع قريش، مما يفيد لزوم الوفاء للكافر بما يتعاقد معه عليه، وهو في حق المسلم مع المسلم أولى. وفيه شجاعة أبي بصير وحنكته وفطنته، وفي قوله ﷺ (وَيلُ أمِّه مِسْعَرَ حَرْبٍ لو كان له أحد) ما جعل أبو بصير يدرك أنه سيعيده إلى قريش (فلما سمع ذلك عَرَفَ أنه سَيَرُدُّهُ إليهم؛ فخـــرج حـــتى أتى سيف البحر) وهذا يدل على فطنته ﷺ ثم فَرَّ إليه أبو جندل بن سهيل بن عمرو، فأخذ يتوافد عليهم الفارون بدينهم ممن أسلم، فحصل منهم ما حصل لعـــير قـــريش، حتى أذعنت قريش لطرح ما اشترطته لنفسها على من يأتي المسلمين مســـلماً، وفي ذلك من الفوائد ما يبين حكمة الله تعالى في هذا الصلح الذي ظاهره أنه قهر للمسلمين؛ ولكن باطنه نصر للمسلمين، (والله يعلم وأنتم لا تعلمون)

ولقـــد دخل في تلك السنتين بعد صلح الحديبية مثل ما كان في الإسلام قبل ذلـــك أو أكثر. يقول الزهري: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القـــتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم

---

[1] البخاري (٢/٢٧٩ـــ٢٨٤) برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)

بعضـــا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثلَ مَنْ كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر. قال ابـــن هشـــام: والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربـــع مائـــة، في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف.[1]

وعـــن ابن هشام : اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض.[2]

وفي عـــودة المسلمين إلى المدينة نزلت سورة الفتح، قال عمر بن الخطاب ﷺ (...وجئـــت رســـول الله ﷺ فسلمت عليه ، فقال: لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طَلَعَت عليه الشمس، ثم قرأ (إنا فتحنا لك فتحاً مبينا)[3]

وعـــن مجمع بن جارية الأنصاري ــ وكان أحد القرَّاء الذين قرأوا القرآن ــ قـــال (شهدنا الحديبية مع رسول الله ﷺ فلما انصرفنا عنها إذ الناس يَهُزُّون الأباعر، فقال بعض الناس لبعض: ما للناس ؟ قالوا: أوحي إلى رسول الله ﷺ فخرجنا مع الناس نُوجِف، فوجدنا النبي ﷺ واقفاً على راحلته عند كُرَاع الْغَمِيم، فلما اجتمع عليه الناس قرأ عليهم (إنا فتحنا لك فتحاً مبينا) فقال رجل: يا رسول الله! أفتح هو ؟ قال: نعم، والذي نفسُ محمد بيده إنه لفتح. فقسمت خيبر على أهل الحديبية)[4]

عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما، قال: (قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبـــية: أنتم خير أهل الأرض، وكنا ألفاً وأربعمائة. ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة)[5]

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٣٦ــ٣٣٧)

[2] المرجع السابق (٣/٣٣٢)

[3] البخاري (٣/١٣١) برقم (٤١٧٧)

[4] ابو داود (٣/١٧٤) برقم (٢٧٣٦)

[5] البخاري (٣/١٢٨) برقم (٤١٥٤)

السرايا والغزوات ما بين الحديبية وخيبر:

ـ غزوة ذات قَرَد:

وهي الغزوة التي أغاروا فيها على لقاح النبي ﷺ قبل خيبر بثلاث، فعن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: (خرجت قبل أن يُؤَذَّنَ بالأولى، وكانت لقاح رسول الله ﷺ ترعى بذي قَرَد، قال: فلقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف فقال: أُخِذَت لقاحُ رسول الله ﷺ قلت: من أخذها ؟ قال: غَطَفان. قال فصرختُ ثلاثَ صرخات: يا صباحاه. قال: فأسمعت ما بين لابتي المدينة، ثم اندفعت على وجهي حتى أدركتُهم وقد أخذوا يستقون من الماء، فجعلت أرميهم بنبلي ــ وكنت رامياً ــ وأقول: أنا ابن الأكوع، اليوم يوم الرُّضَّع. وأرتجز حتى استنفذت اللقاح منهم، واستلبت منهم ثلاثين بُردة. قال وجاء النبي ﷺ والناس. فقلت: يا نبي الله قد حَميتُ القومَ الماء وهم عطاش، فابعث إليهم الساعة. فقال: يا ابن الأكوع، مَلكتَ فأسْجِع. قال: ثم رجعنا، ويُردِفني رسول الله ﷺ على ناقته حتى دخلنا المدينة.)[1]

يتبين أن هذه الغزوة كانت قبل خيبر بثلاث ليال. ويتضح من أحداثها يقظة سلمة بن الأكوع ﷺ وشجاعته، وأنه خرج قبل الأذان الأول للفجر، فلما أخبره غلام ابن عوف بما حصل للقاح رسول الله ﷺ وهي الإبل الحلوب، صرخ ثلاثاً، فأسمع ما بين لابتي المدينة، مما يدل على قوة صوته ﷺ ويفيد هذا أهمية إبلاغ القوم أو الجهة ذات الاختصاص بما يحصل من شر لإيقافه وتلافي أخطاره.

ويفيد صنيعه ﷺ أن على الشجاع مواجهة الأكثرية، والإسراع في ملاحقة العدو، وفيه أهمية تَعَلُّم ما يمكن أن يَصُدَّ به المسلم عدوه، وإن للإنسان أن يذكر بعض صفاته للعدو، حتى يُرْهبه، وأن يُخبر بما حصل من صنيعه وشجاعته على سبيل رواية الحدث، لا على سبيل الاغترار والرياء. وأن للمرء أن يرتجز عند ملاقاة العدو.

---

(١) البخاري (٣/١٣٤) برقم (٤١٩٤)

وقولـــه ﷺ (اليوم يوم الرضع) الرُّضَّع جمع راضع وهو اللئيم، سمي به لأنــه يرضع إبله أو غنمه ليلاً لئلا يُسْمَع صوتُ حلبه.[1]

ثم يــبين ابن الأكوع ﷺ شجاعته، بأنه بلغ بهم حتى منعهم الماء (حميتُ القومَ الماء) أي منعتهم من الشرب. كما يتبين من هذا الموقف تشجيع النبي ﷺ له وحِلمه ﷺ حيــث قال له (مَلَكْت فأسجع) أي اقتدرت عليهم فاصفح، وذلك عندما طلب من النبي ﷺ أن يستمر في طلبهم. ومن تشجيعه عليه الصلاة والسلام أن أردفه على ناقته ﷺ ممــا يفيد أهمية تشجيع المجد، وأن يُرى مكانته وقدره بين الناس. لا أن يغمطه حقه من الثناء والتكريم، وهذا ما يمكن أن يَفْعَله الرئيس مع مرؤوسيه، والمربي مع من يتولى أمر تربيتهم. وأن عكس ذلك ليس من هديه ﷺ

سرية أبان بن سعيد بن العاص:

عن أبي هريرة يخبر عن سعيد بن العاص، قال (بعث رسول الله ﷺ أبان على سرية من المدينة قِبَل نجد..)[2]

---

[1] ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٢٣٠)

[2] البخاري (٣/١٤٢) برقم (٤٢٣٨)

غزوة خيبر :

خرج بنو النضير إلى خيبر بعد أن أجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة، ومنهم من سار إلى الشام، ولما نزلوا بخيبر دان لهم أهلها.[1]

ولقد كان لأولئك اليهود أثر فاعل في تأليب وتأليف الأحزاب، قال ابن هشام: إنه كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود، منهم سلّام بن أبي الحُقيق النضري، وهوذة بن قيس الوائلي، في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، وهم الذين حزَّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ [2]

وهذا يؤكد ويبين خطورة خيبر ومن سكنها من اليهود، وما يَحْدُثُ من قاطنيها بحق الإسلام والمسلمين، إذ استثاروا بصنائع الشر والمكائد ما يوجب تأديبهم، وكسر شوكتهم، واقتلاع هذا الشر الذي يتأجج من أولئك اليهود، خاصة وأنَّ أمر الهدنة مع قريش قد أتاح هذه الفرصة.

فلما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية ونزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة؛ فأعطاه الله تعالى فيها خيبر؛ بقوله تعالى﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [3] يعني خيبر. وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع، وذُكر أنها سميت باسم رجل من العماليق نزلها.[4]

وفي المحرم سنة سبع خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر.[5]

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٢٠١)

(2) المرجع السابق (٣/٢٢٥)

(3) سورة الفتح: آية رقم (٢٠)

(4) ابن حجر، فتح الباري (٧/٤٦٤)

(5) ابن هشام ، السيرة النبوية (٣/٣٤٢)

ويصف سلمة بن الأكوع ﷺ خروج ذلك الركب المبارك؛ لرفع كلمة التوحيد، فيقول ﷺ (خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر، فسرنا ليلاً، فقال رجلٌ من القوم لعامر: يا عامر ألا تُسْمِعُنا من هُنَيهاتِك ؟ وكان عامرٌ رجلاً شاعراً، فنزل يحدو بالقوم، يقول:

اللهمَّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلينا

فاغفر فداءً لك ما اتقينا ... وثبت الأقدام إن لا قينا

وألقِيَنْ سكينة علينا ... إنَّا إذا صيح بنا أبينا

وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ : من هذا السائق ؟ قالوا: عامر بن الأكوع، قال: يرحمه الله. قال رجلٌ من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا أمتعتنا به....)[1]

ويفيد ذلك أن في المسير ليلاً ما يفوت على العدو معرفة قدومهم، ويقطع بذلك عليه الاستعانة بغطفان؛ على ما سيأتي بيانه، إضافة إلى ما في المسير ليلاً من حمده في الصباح، كما جاء في المثل. ــ في الصباح يحمد القوم السرى ــ ثم يتبين ما كان عليه العرب من عادة الحداء، لتنشيط الإبل ومن معها من الركب. مما يفيد بجوازه، وأنه لا بأس به؛ ما كان بطيب الكلام. قال الإمام النووي ــ رحمة الله تعالى عليه ــ عن قوله (ألا تسمعنا من هنياتك) : وفي بعض النسخ (هنيهاتك) أي أراجيزك، والهنة يقع على كل شيء، وفيه جواز إنشاء الأراجيز وغيرها من الشعر، وسماعها، ما لم يكن فيه كلام مذموم. والشعر كلام؛ حسنه حسن؛ وقبيحه قبيح. وفيه استحباب الحداء في الأسفار؛ لتنشيط النفوس والدواب على قطع الطريق، واشتغالها بسماعه عن الإحساس بألم السير.[2] قال ابن حجر ــ رحمة الله تعالى عليه ــ: قوله (يرحمه الله) وفي رواية إياس بن سلمة (قال غفر لك ربك) قال: وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان

---

(1) البخاري (٣/١٣٤ــ١٣٥) برقم (٤١٩٦)

(2) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٦٦)

يخصـــه إلا استشهد، وبهذه الزيادة يظهر السر في قول الرجل (لولا أمتعتنا به) وقوله (قـــال رجـــل من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا أمتعتنا به) اسم هذا الرجل عمر بن الخطاب.[1] قال النووي: معنى وجبت أي ثبتت له الشهادة، وسيقع قريباً، وكان هذا معلوم عندهم، أن من دعا له النبي ﷺ هذا الدعاء في هذا الموطن استشهد، فقالوا: هلا أمتعتنا به ؟ أي: وددنا أنك لو أخرت الدعاء له بهذا إلى وقت آخر؛ لنتمتع بمصاحبته ورؤيته مدة.[2] وقيل بشجاعته[4] ولا يمنع أن يكون بذلك كله. وبالفعل حدث لعامر ذلـــك، كمـــا جاء في حديث سلمة بن الأكوع قال (فلما تصاف القوم، كان سيف عامرٍ قصيراً، فتناول به ساق يهودي ليضربه، ويرجع ذباب سيفه؛ فأصاب عين ركبة عامـــر؛ فمات منه. قال: فلما قفلوا قال سلمة: رآني رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدي. قـــال: ما لك ؟ قلت له: فداك أبي وأمي، زعموا أن عامراً حَبِط عمله. قال النبي ﷺ : كـــذب مـــن قاله، إن له لأجرين ـــ وجمع بين أصبعيه ـــ إنه لجاهد مجاهد، قلَّ عربي مشى بها مثله)[5]

يـــبين هذا الحديث قصة مقتل عامر ﷺ بأن رجع عليه ذباب سيفه، أي طرفه الأعلى؛ وقيل حده، فأصاب عين ركبة عامر، أي طرف ركبته الأعلى فمات منه. وفي الحديث عناية رسول الله ﷺ بأصحابه، وما قد يجدونه ويظهر عليهم من حَزَنٍ. فيسأل ﷺ سلمة بن الأكوع (ما لك ؟) وهو ما ينبغي للقائد والرئيس بين أعوانه، والمربي بين مـــن يقوم على تربيتهم، أن يتأسى بهذا المنهج النبوي الكريم، فيما يصيبهم من هم أو حـــزن، كما فعل رسول الله ﷺ مع سلمة ﷺ فلعل في السؤال والجواب ما يمسح عنه شيئاً من ذلك.

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٤٦٦/٧)

(2) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٦٧/١٢)

(4) ابن حجر، فتح الباري (٤٦٦/٧)

(5) البخاري (١٣٤/٣ـــ١٣٥) برقم (٤١٩٦)

ويفـــيد الحديث شدة خوف الصحابي عن عاقبة ما أصاب عامر بن الأكوع، حيـــث اعتقد البعض أنه قَتَلَ نفسه، قال ابن حجر: وفي رواية إياس (بطل عمل عامر قـــتل نفسه) [1] فيجيبه رسول الله ﷺ (كذب من قاله) أي أخطأ (إن له لأجرين، إنه لجـــاهد مجـــاهد) وهذا يفيد التأكيد[2].(قلَّ عربي مشى بها مثله) وكل هذا زيادة في وصـــف حقيقة أمره ﷺ وتأكيد بيان لما له ﷺ من المكانة والأجر. مما يفيد أهمية بيان العالم للمتعلم ما قد يلتبس عليه، بمزيد من الإيضاح والبيان.

ولم يكن ديدن الصحابة الحداء، بل كان ذكر الله منهم كثير، فقد كانت تلهج ألســـنتهم رضـــي الله تعالى عنهم بذكر الله، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال (لما غزا رســـول الله ﷺ خيـــبر ــ أو قال: لما توجه رسول الله ﷺ ــ أشرف الناس على وادٍ فـــرفعوا أصـــواتهم بالتكبير: الله أكبر، الله أكبر. لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ : اربَعـــوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكـــم. وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ، فسمعني وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. فقـــال لي: يا عبد الله بن قيس. قلتُ: لبيك رسول الله. قال: ألا أدلك على كلمة من كـــنـــزٍ من كنوز الجنة ؟ قلت: بلى يا رسول الله، فداك أبي وأمي. قال: لا حول ولا قوة إلا بالله)[3]

قال ابن حجر: هذا السياق يوهم أن ذلك وقع وهم ذاهبون إلى خيبر، وليس كذلـــك، بـــل إنما وقع ذلك حال رجوعهم، لأن أبا موسى إنما قَدِم بعد فتح خيبر مع جعفر.[4] وفي توجيه النبي ﷺ للصحابة حال رفع صوتهم بذكرهم الله تعالى، بأن يربعوا بأنفسهم؛ ما يدل على أهمية ممارسة التوجيه والتعليم في المسير، وأنها عملية لا تتوقف،

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٤٦٧/٧)

(2) المرجع السابق (٤٦٧/٧)

(3) البخاري (١٣٦/٣ــ١٣٧) برقم (٤٢٠٥)

(4) ابن حجر، فتح الباري ٤٧٠/٠٧)

ويتعين ذلك كلما دعت الحاجة إليه، وأن المبادرة حال ما يقتضي الموقف أكمل في التعليم . وقال الإمام النووي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ: معناه أرفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم، فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه، وأنتم تدعون الله؛ وليس هو بأصم ولا غائب، بل هو سميع قريب، وهو معكم بالعلم والإحاطه، ففيه الندب إلى خفض الصوت بالذكر إذا لم تدع حاجة إلى رفعه، فإنه إذا خفضه كان أبلغ في توقيره وتعظيمه، فإن دعت حاجة إلى الرَّفع رفع، كما جاءت به أحاديث....قوله ﷺ (لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة) قال العلماء سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله تعالى، واعتراف بالإذعان له، وأنه لا صانع غيره، ولا راد لأمره، وأن العبد لا يملك شيئاً من الأمر، ومعنى الكنز هنا: أنه ثواب مُدَّخر في الجنة، وهو ثواب نفيس؛ كما أن الكنز أنفس أموالكم، قال أهل اللغة: الحول الحركة والحيلة، أي لا حركة، ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى، وقيل معناه لا حول في دفع شر ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله، وقيل لا حول عن معصية الله إلا بعصمته، ولا قوة على طاعته إلا بمعونته، وحكى هذا عن ابن مسعود ﷺ وكله متقارب.[1]

وكان رسول الله ﷺ حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عِصْر (جبل بين المدينة ووادي القرى) ثم على الصهباء[2] ثم أقبل رسول الله ﷺ بجيشه، حتى نزل بوادٍ يُقال له الرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يُمِدّوا أهل خيبر، وكانوا لهم مُظاهرين على رسول الله ﷺ [3]

وهذا يبين أهمية الحيطة والحذر، والأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، وكذلك من فوائد هذا المسلك للطريق ما يبين أهمية التفكير، والأخذ بكافة

---

[1] صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/٢٦ـ٢٧)

[2] جبل يطل على خيبر من الجنوب، ويسمى اليوم: جبل عطوه.

[3] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٤٤)

الاحتمالات المتوقعة، وأخذ الأمور بجد، وتجنيب الرفقة المخاطر، وذلك بقطع أسبابها ما أمكن. وكذلك الأخذ بأسباب النصر على العدو.

ومن وقفات الطريق إلى خيبر؛ يبين سويد بن النعمان ﷺ (أنه خرج مع النبي ﷺ عام خيبر حتى إذا كنا بالصهباء ـ وهي من أدنى خيبر ـ صلى العصر، ثم دعا بالأزواد فلم يُؤتَ إلا بالسويق، فأمر به فثُرِّي، فأكل وأكلنا، ثم قام إلى المغرب، فمضمض ومضمضنا، ثم صلى ولم يتوضأ)[١]

ومما تفيده هذه الرواية أهمية المحافظة على الصلوات، وأهمية ترويح الجيش، والعناية بمطعمه، وكذا أهمية وبركة الأكل الجماعي، إذ لم يتركهم ﷺ يأكلون أشتاتاً، وكذلك بركة تجميع الطعام، وما يحققه ذلك من تآخي وتواد ومساواة. ومن فوائد ذلك أهمية دور القائد في تحقيق هذا المسلك النبوي، ويُستفاد من ذلك أن يقاس على هذا الصنيع النبوي العظيم كل الأعمال الجماعية المماثلة، وليس حصراً على مسير الجيش. ومن فوائد ذلك المضمضة بعد الأكل؛ قبل الصلاة، والصلاة بوضوء الصلاة التي قبلها.

ويبين أنس ﷺ وقت وصول رسول الله ﷺ خيبر فيقول: (أن رسول الله ﷺ أتى خيبر ليلاً ـ وكان إذا أتى قوماً بليل لم يقرَبهم حتى يُصبح ـ ...)[٢]

أي أنه ﷺ اقترب من خيبر، ولم يدخلها، لأنه أغار عليهم صباحاً، قال ابن حجر: من وجه آخر عن حميد بلفظ (كان إذا غزا لم يغز بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذاناً كف عنهم وإلا أغار، قال: فخرجنا إلى خيبر، فانتهينا إليهم ليلاً، فلما أصبح ولم يسمع أذاناً ركب)[٣] وهذه الرواية تبين أهمية التثبت، وعصمة دم المسلم، وأن الهدف هو تحقيق الإسلام، وليس السيطرة على البلدان.

---

(١) البخاري (٣/١٣٤) برقم (٤١٩٥)

(٢) البخاري (٣/١٣٥) برقم (٤١٩٧)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٧/٤٦٨)

وعن أنس ﷺ (أن رسول الله ﷺ غزا خيبر. قال: فصلينا عندها صلاة الغداة بغلس...)[1]

وهـــذا الحديث يبين وقت صلاة الفجر، والغلس: ظلام آخر الليل، والغلس أول الصبح حتى ينتشر في الآفاق.[2]

ويـــبين أنس ﷺ لحظة قدومهم، حيث قال:(كنت رِدْفَ أبي طلحة يوم خيبر. وقدمـــي تَمَـــسُّ قَدَمَ رسول الله ﷺ قال: فأتيناهم حين بزغت الشمس. وقد أخرجوا مواشيهم، وخرجوا بفؤوسهم ومكاتلهم ومُرُورِهم. فقالوا: محمد والخميس. قال: وقال رســـول الله ﷺ خربـــت خيـــبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح الْمُنْذَرين، قال: فهزمهم الله عزَّ وجلَّ.)[3]

قـــال الإمام النووي ــ رحمة الله تعالى عليه ــ: فيه استحباب التبكير بالصلاة أول الوقت، وأنه لا يكره تسمية صلاة الصبح غداة...وفيه جواز الإرداف على الدابة إذا كانـــت مُطِـــيقَة... هذا مما استدل به أصحاب مالك ومن وافقهم على أن الفخذ ليست عورة من الرجل، ومذهبنا ومذهب آخرين أنها عورة، وقد جاءت بكونها عورة أحاديـــث كثيرة مشهورة، وتأول أصحابنا حديث أنس ﷺ هذا على أنه انحسر بغير اختـــياره لضرورة الإغارة والإجراء، وليس فيه أنه استدام كشف الفخذ، مع إمكان الســـتر، وأما قول أنس فإني لأرى بياض فخذه ﷺ فمحمول على أنه وقع بصره عليه فجأة، لا أنه تعمده....قوله (الله أكبر خربت خيبر) فيه استحباب التكبير عند اللقاء، قـــال القاضـــي: قـــيل: تفاءل بخرابها بما رآه في أيديهم من آلات الخراب من الفؤس والمســـاحي وغيرها، وقيل أخذه من إسمها، والأصح أنه أعلمه الله تعالى بذلك.[4] قال

---

(١) مسلم (٣/١٤٢٦ــ١٤٢٧) برقم (١٣٦٥)

(٢) ابن منظور، لسان العرب (٦/١٥٦)

(٣) مسلم (٣/١٤٢٧) برقم (١٢١ــ١٣٦٥)

(٤) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٦٣ــ١٦٤)

ابن حجر ــ رحمة الله تعالى عليه ــ: ويحتمل أن يكون قال (خربت خيبر) بطريق الوحي، ويؤيده قوله بعد ذلك (إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين)[1] ومن الفوائد، قال الإمام النووي ــ رحمة الله تعالى عليه ــ: جواز الاستشهاد في مثل هذا السياق بالقرآن في الأمور المحققة، وقد جاء لهذا نظائر كثيرة كما سبق قريباً في فتح مكة؛ أنه ﷺ جعل يطعن في الأصنام ويقول (جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد، جاء الحق وزهق الباطل) قال العلماء: يكره من ذلك ما كان على ضرب الأمثال في المحاورات والمزح ولغو الحديث؛ فيكره في ذلك تعظيماً لكتاب الله تعالى.

قوله (محمد والخميس) هو الجيش، وقد فسره بذلك في رواية البخاري، قالوا سمي خميساً لأنه خمسة أقسام: ميمنة؛ وميسرة؛ ومقدمة؛ ومؤخرة؛ وقلب. .. قوله (أصبناها عَنوة) هي بفتح العين أي قهراً لا صلحاً، قال القاضي: قال المازري: ظاهر هذا أنها كلها فتحت عنوة، وقد روى مالك عن ابن شهاب، أن بعضها فتح عنوة وبعضها صلحاً. قال وقد يُشكل ما روي في سنن أبي داود؛ أنه قسمها نصفين: نصفاً لنوائبه وحاجته، ونصفاً للمسلمين. قال: وجوابه ما قال بعضهم أنه كان حولها ضياع وقرى، أجلى عنها أهلها؛ فكانت خالصة للنبي ﷺ وما سواها للغانمين، فكان قدر الذي خلّوا عنه النصف، فلهذا قسم نصفين.

قال القاضي في هذا الحديث أن الإغارة على العدو يستحب كونها أول النهار عند الصبح؛ لأنه وقت غرتهم وغفلة أكثرهم، ثم يضيء لهم النهار لما يحتاج إليه، بخلاف ملاقاة الجيوش ومصافقتهم ومناصبة الحصون، فإن هذا يُستحب كونه بعد الزوال ليدوم النشاط ببرد الوقت، بخلاف ضده.

قوله (وخرجوا بفؤوسهم ومكاتلهم ومرورهم) الفؤوس بالهمزة جمع فأس، كرأس ورؤوس. والمكاتل جمع مكتل، بكسر الميم، وهو القفّه، يقال له مكتل وقفة وزبيل وزنبيل وعرق وسفيفة بالسين المهملة، وبفاءين. والمرور جمع مر، بفتح الميم،

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٤٦٨/٧)

وهـــي المســـاحي، قـــال القاضـــي: قيل هي حبالهم التي يعدون بها إلى النخل، وقيل مساحيهم، واحدها مر لا غير.[1]

ثم تبين الروايات مجريات انتصار المسلمين وتتابع ألويتها حتى تحقق لهم النصر بتوفـــيق الله تعالى وتمكينه، فعن سلمة بن الأكوع (....فأتينا خيبر فحاصرناهم، حتى أصابتنا مخمصةٌ شديدة: ثم إن الله فتحها عليهم...)[2]

ويتبين من هذه الرواية استخدام الرسول ﷺ الحصار في دخول الحصون، وهو الأجدى في فتحها واقتحامها، ثم يتبين الابتلاء الذي يرافق المؤمنين وهم في جهاد؛ ومع نبيهم ﷺ فتصيبهم مخمصة شديدة، أي مجاعة شديدة، فسبحان الله العظيم الذي بحكمته يبتلي عباده، ولئن حصل هذا للنبي ﷺ وأصحابه، وما تكاسلوا ولا أصابهم الوهن، ولا تذمـــروا ولا سخطوا، بل فتحوا الحصون واحداً بعد الآخر، فلجدير بالمسلم أن يأخذ مـــن ذلـــك دروساً وعظات فيما يصيبه من أبتلاء وصعوبات إزاء تحقيق مطالبه؛ وما يطمـــع بلوغه من الخير. ذكر ابن إسحاق: الحصار، فكان أول حصونهم افتُتح حِصن نـــاعم، وعنده قُتِل محمود بن مسلمة، أُلقيت عليه منه رحاً فقتلته، ثم القموص، حِصن بـــني الْحُقَـــيق، وأصاب رسول الله ﷺ منهم سبايا، منهن صفية بنت حيى بن أخطب، فاصـــطفاها رسول الله ﷺ لنفسه.وفتح الله تعالى عليهم حِصْن الصَّعب بن معاذ، وما بخيبر حِصْن كان أكثر طعاماً وودكاً منه، ثم انتهوا إلى حصنهم الوطيح والسُّلالم، وكان آخر حصون أهل خيبر افتتاحاً، فحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة.[3]

---

[1] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٦٤ــ١٦٥)

[2] البخاري (٣/١٣٤ــ١٣٥) برقم (٤١٩٦)

[3] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٤٤ــ٣٤٧)

ومن تفاصيل بعض ذلك ما رواه سلمة بن عمرو بن الأكوع ﷺ قال (بعث رسول الله ﷺ أبا بكر ﷺ إلى بعض حصون خيبر، فقاتل وجهد، ولم يكن فتح)[1]

وعن بريدة الأسلمي قال: (لما نزل رسول الله ﷺ بحصن أهل خيبر، أعطى رسول الله ﷺ اللواء عمر بن الخطاب، ونهض معه من نهض من المسلمين، فلقوا أهل خيبر، فقال رسول الله ﷺ : لأعطين اللواء غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله....)[2]

وتبين هاتان الروايتان أن النصر قد لا يأتي بالأمر السهل، من خلال طرقة واحدة فيتحقق للمرء أو للأمة ما أرادت، بل لا بد من كرة تعقبها كرات؛ حتى يتحقق النصر؛ ويتحقق المراد. ثم تتشوق القلوب إلى هذا الذي وصفه رسول الله ﷺ فتشرئب له قلوب المؤمنين، فيبيتون ليلتهم يترقبون صباحه، كل يرجو أن يكون هو. فعن سهل بن سعد ﷺ (أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله. قال: فبات الناس يدركون ليلتهم: أيهم يُعطاها ؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب ؟ فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه...)[3]

إن هذا الوصف اجتذب المسلمين واشتغلوا به ليلتهم، لأنه مطمع عزيز، وتقريبر لصاحبه من رسول أمين كريم، فكل واحد يتمنى أن يكون هو، فيحظى بهذه المنزلة العظيمة الكريمة، وبهذا النصر الموعود به تحقيقاً وتقريراً، أخبر به الصادق الأمين ﷺ (فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كُلُّهُم يرجوا أن يُعْطَاها)[4]

---

(1) الحاكم، المستدرك (٣٧/٣)

(2) أحمد (٣٥٨/٥)

(3) البخاري (١٣٧/٣ــ١٣٨) برقم (٤٢١٠)

(4) مسلم (١٨٧٢/٤) برقم (٢٤٠٦)

وهـــذا يدلـــل على حرص الصحابة ــ رضي الله تعالى عنهم ــ على الخير ومحبتهم لهذه المنـــزلة، وسعيهم إليها قولاً وعملاً. وما أحوج المسلم في كل وقت؛ وفي كـــل مكـــان أن يتطلع إلى ذلك بالاجتهاد في تقوى الله تعالى التي هي أساس سلامة الطاعة وترك المعصية، عسى أن يدرك هذه المنـــزلة العظيمة، ففضل الله واسع وعظيم.

ثم تـــبين مجريات هذا الحديث العظيم، أن رسول الله ﷺ سأل عن علي بن أبي طالـــب ﷺ ولكن كان من أمر علي ﷺ شيئاً عجباً، يذكر ذلك سلمة ﷺ قال (كان عـــلي ﷺ تخلّـــف عن النبي ﷺ في خيبر، وكان رَمداً، فقال: أنا أتخلّف عن النبي ﷺ ؟ فَلَحِقَ به...)[1]

فلقـــد رمدت عينه ﷺ، في ذلك الوقت، فدفعته محبته لله ولرسوله ﷺ أن لا يـــتخلف عـــن نبي الله ﷺ فجاء خيبر برمده ﷺ فعوضه الله تعالى بهذا الصنيع، وهذه المـــبادرة، بما لم يتوقعه، (... قال: فأرسلوا إليه، فأتى به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرئ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية...)[2]

فلقـــد أعطى الله تعالى ذلك لعلي ﷺ من غير تشوف منه، لأنه لم يكن مع من قَدِم عليه صباحاً، ولأن من به رمد في عينه لا يتوقع ذلك، ولكن إرادة الله تعالى فوق كـــل شيء. ويفيد هذا: بيان منـــزلة علي ﷺ ومكانته عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ (لأعطـــين هـــذه الـــراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله) ثم يتبن من هذا الموقف ما أجراه الله تعالى على نبيه ﷺ من معجزة شفاء عين علي ﷺ من الرمد الذي أصابها؛ ببصاق منه ﷺ. حتى كأنه لم يصبه شيء، وهذا دليل عـــلى بركـــته ﷺ وقد مَرَّ في صلح الحديبية أن الصحابة ــ رضي الله تعالى عنهم ــ يتسابقون على مخاطه ووضوئه ﷺ ثم من المعجزات إخباره ﷺ أن الله يفتح على يديه، ثم دعا له عليه الصلاة والسلام.

---

(1) البخاري (٣/١٣٧) برقم (٤٢٠٩)

(2) البخاري (٣/١٣٧ــ١٣٨) برقم (٤٢١٠)

وفـــيه من الفوائد أن ما كُتب للمرء من خير يصيبه ويأخذه ولو تدافع الكثير من الناس عليه، وغاب هو عنه. وهذا يملأ نفس المؤمن فيضاً من الطمأنينة النفسية فيما يتنافس الناس عليه من خير، وبالتالي يتحقق عنده أن ما كتبه الله تعالى يأتيه ولا يحبسه كثرة المنافسين. وإذا أدرك ذلك فلا يحسد، ولا يتعدى.

وأخذ علي ﷺ الراية، والراية بمعنى اللواء، وهو العلم الذي في الحرب، يُعرف به موضع صاحب الجيش.[1] ، ولم يذهب علي ﷺ حتى استعلم من رسول الله ﷺ أمراً مهماً (... فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. فقال: انْفُذ على رِسْلِك حـــتى تنـــزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم.)[2]

وفي سؤال علي بن أبي طالب ﷺ ما يبين أهمية أن يتعرف المتعلم على ما ينبغي أن يعرفه من العلم الذي يعينه على أداء مهمته، وكذلك أن يتعرف المرؤوس من رئيسه عـــلى ما يجب أن يقوم به، وما يتعلق بذلك من قضايا. فاستفسر علي ﷺ هل يكون قـــتالهم حتى يُسلموا فيكونون مثلنا ؟ وفي رواية عند مسلم (على ماذا أقاتل الناس ؟ قـــال قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله)[3]

وفي كـــل هذا دليل واضح على أن منهج الإسلام لا يتقصد الناس من أجل أموالهـــم وخيراتهم، بل من أجل توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، والإيمان بما جاء به نبـــيه ورسوله وخليله محمد ﷺ ولو كان غير ذلك لما أفهم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب بذلك، وهي خيبر الغنية بمزارعها. ولكن الهدف تبليغ رسالة الله تعالى كما أمر بهـــا رسوله محمد ﷺ بل جعل هداية الرجل الواحد خير للمسلم من حمر النعم، وهي

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٤٧٧/٧)

[2] البخاري (١٣٧/٣ـــ١٣٨) برقم (٤٢١٠)

[3] مسلم (١٨٧٢/٤) برقم (٢٤٠٦)

الإبل الحمر؛ التي كانت تتفاخر بها العرب، وهي أنفس أموالهم. وهذا دليل على علو منزلة الداعية، وفضيلة دعوة غير المسلمين، والتلطف بهم وتألفهم حتى يُسلموا، وبالمغايرة والمقابلة يكون الحذر من تنفيرهم من الإسلام بأي وسيلة كانت، ففي تطبيق مبادئ الإسلام ما يدفع الناس إليه؛ لأنه يحاكي الفطرة السليمة، ويوقظ الغافل الجاهل، ويستقطب العاقل الراغب.

وقد كان من علي بن أبي طالب أمراً عجباً، ذلك (أن علياً حمل الباب يوم خيبر، وأنه جُرِّب بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً)[1] وقال ابن هشام: نقلاً عن ابن إسحاق: عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: (خرجنا مع علي بن أبي طالب ﷺ حين بعثه رسول الله ﷺ برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود، فطاح ترْسه من يده، فتناول باباً كان عند الحصن فترَّس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتني في نفر سبعة معي، أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب؛ فما نقلبه.[2]

وفي هذا دلالة على شجاعة علي ﷺ وقوته، ولا يمنع أن يكون ذلك كرامة أجراها الله تعالى عليه، فهو (يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله)

وحاصر رسول الله ﷺ أهل خيبر في حصنهم الوطيح والسُّلالم حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم، وأن يحقن لهم دماءهم، ففعل، فلما سمع بهم أهل فَدَك بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم، ويُخلّوا له الأموال، ففعل.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: (أعطى النبي ﷺ خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها، ولهم شطر ما يخرج منها)[3]

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٧/٤٧٨)

(2) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٤٩ـــ٣٥٠)

(3) البخاري (٣/١٤٣) برقم (٤٢٤٨)

فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم في الأموال على النصف، فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، فصالحه أهل فَدَك على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئاً بين المسلمين، وكانت فَدَك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب.(١)

عن أبي هريرة ﷺ قال (افتتحنا خيبر ولم نغنم ذهباً ولا فضة، إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط، ثم انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلى وادي القُرى، ومعه عبدٌ له يقال له مِدْعَم، أهداه له أحد بني الضِّباب، فبينما هو يَحُطُّ رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائر حتى أصاب ذلك العبد، فقال الناس: هنيئاً له الشهادة، فقال رسول الله ﷺ : بلى، والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم؛ لم تُصِبْها المقاسم؛ لتشتعل عليه ناراً. فجاء رجل ـ حين سمع ذلك من النبي ﷺ ـ بشراك أو بشراكين، فقال: هذا شيء كنت أصبته، فقال رسول الله ﷺ : شراك أو شراكان من نار)(٢)

وفي الحديث تعظيم أمر الغلول، ـ وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها ـ وفيه كذلك: قبول الإمام الهدية، فإن كانت لأمر يختص به في نفسه أن لو كان غير وال فله التصرف فيها بما أراد، وإلا فلا يتصرف فيها إلا للمسلمين، وعلى هذا يحمل حديث (هدايا الأمراء غلول) فيخص بمن أخذها فاستبد بها.(٣)

عن أبي هريرة ﷺ قال: (لما فتحت خيبر أُهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم)(٤)

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٥١ـ٣٥٢)

(٢) البخاري (٣/١٤١) برقم (٤٢٣٤)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٧/٤٨٩ـ٤٩٠)

(٤) البخاري (٣/١٤٣) برقم (٤٢٤٩)

فقد أهدت إليه زينب بنت الحارث، امرأة سلاّم بن مِشْكم شاة مشوية، وقد سـألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ فقيل لها الذراع، فأكثرت فيها مـن السم، ثم سمَّت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تـناول الذراع فلاك منها مضغة، فلم يُسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، قد أخذ مـنها كما أخذ رسول الله ﷺ فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله ﷺ فَلَفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم، ثم دعا بها، فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك ؟ قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلتُ: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيُخبر، فتجاوز عنها رسول الله ﷺ ومات بشر من أكلته التي أكل.[1]

وفي هذا معجزة نبوية أجراها الله تعالى لنبيه ﷺ إذ جعل الله تعالى العظم يُخبر رسول الله ﷺ بأنه مسموم، فلقد تعاطفت معه ﷺ العظام، وأخبرته بما فيها، بقدرة الله تعالى وفضله ومَنِّه على نبيه ﷺ وفي هذا بيان لمكانة رسول الله ﷺ ومنـزلته عند ربه.

وفـيه كذلـك حلم وصفح رسول الله ﷺ عمن آذاه في نفسه بأشد الأذى. فكـان الصـفح منه ﷺ حتى على اليهودية التي أرادت قتله، ليعطي بذلك ﷺ درساً عظيماً في الصفح، الذي أولى الناس بتطبيقه المسلمون فيما بينهم، فضلاً عن عدوهم، فما أحوج الناس إلى سيرته ﷺ في كل باب من أبوابهم، وفي كل أمر من أمورهم.

وقد اختلفت الروايات في قتل اليهودية، وقد وُفِّق بين الروايتين: بأن النبي ﷺ عفا عنها فيما يخصه؛ فلم يقتلها، فلما مات بشر قتلها قصاصاً.[2]

وفي هذه الرواية يتضح الحقد اليهودي على الإسلام وعلى رسول الله ﷺ وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وفي هذا درس عظيم الفائدة.

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٥٢ـــ٣٥٣)

[2] ابن القيم، زاد المعاد (٣/٣٣٦)

الفصل العاشر

من مكاتبة النبي ﷺ للملوك والأمراء

إلى سرية مؤتة

مكاتبة النبي ﷺ للملوك والأمراء:

لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي الحجة سنة ست، أرسل الرُّسُل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتباً، فقيل: يا رسول الله ! إن الملوك لا يقرأون كتاباً إلا مختوماً، فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذٍ خاتماً من فضة، فَصُّه منه، نقشه ثلاثة أسطر: محمد رسول الله، وختم به الكتب، فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد، وذلك في المحرم سنة سبع. وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم، فكان أول رسول بعثه رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري ﷺ إلى النجاشي، ودحية بن خليفة الكلبي ﷺ إلى قيصر، وكتب معه كتاباً وأمره أن يدفعه إلى عظيم بُصْرى ليدفعه إلى قيصر، فدفعه عظيم بُصْرى إليه وهو يومئذ بحمص، وقيصر يومئذ ماش في نذر كان عليه. وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة السهمي ﷺ إلى كسرى؛ وكتب معه كتاباً، وبعث رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة اللخمي ﷺ إلى المقوقس صاحب الإسكندرية عظيم القبط، وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدي ﷺ إلى الحارث بن أبي شَمِر الغساني. وبعث رسول الله ﷺ سليط بن عمرو العامري ﷺ إلى هوذة بن علي الحنفي. وكان صلى الله عليه وسلم يدعوهم في هذه الكتب إلى الإسلام. وقد ذكر ابن سعد كُتُباً غيرها لغيرهم من الملوك والأمراء.[1]

فهذه الرسائل للملوك والأمراء تؤكد وتبين عالمية هذه الرسالة، بأنها للعالمين كافة، قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[2]

وكذلك تبين هذه الكتب شجاعة رسول الله ﷺ إذ لم يخش من أولئك أن يقاتلوه. وكذلك تفيد هذه المكاتبة أهمية الدعوة إلى الله تعالى بين أهل الأديان الأخرى،

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١/٢٥٨ــ٢٩١)

(٢) سورة سبأ: آية رقم (٣٤)

وكذلــك دعوة عِلْيَة القوم للإسلام؛ وذلك لولايتهم على غيرهم، فيحصل بإسلامهم إســلام أتــباعهم، وفي اتخاذ الخاتم من رسول الله ﷺ ما يفيد مراعاة عادات وأحوال الأمم في الأمور المباحة، وكذلك فيه اتخاذ الخاتم، واتخاذ الختم، والتختيم باللقب الذي منحه الله تعالى.

ويفــيد أن تطوير أساليب الإدارة يكون بحسب واقع الحال، وأخذ الأساليب والنظم المباحه من الغير، والإفادة منها.

وكذلــك تفيد نصوص كتبه ﷺ المنهجية في مضامين الدعوة والمكاتبة للغير في أمــر الإسلام، ومن ذلك نص كتابه ﷺ إلى هرقل عظيم الروم الذي نصه كما جاء في صحيح البخاري (بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الــروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أســلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (ويا أهل الكتاب تعــالوا إلى كــلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبدَ إلا الله ولا نشركَ به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) [1]

ومن الفوائد التي ذكرها ابن حجر ــ رحمة الله تعالى عليه ــ أن السنة أن يبدأ الكتاب بنفسه، وهو قول الجمهور. وفيه عدولٌ عن ذكر هرقل بالملك أو الإمارة، لأنه معزول بحكم الإسلام. لكنه لم يخله من إكرام؛ لمصلحة التأليف. وفيه أنه لم يبدأ الكافر بالســلام قصداً؛ وإن كان اللفظ يُشعر به، لكنه لم يدخل في المراد، لأنه ليس ممن اتبع الهدى، فلم يُسلّم عليه. وقوله ﷺ (أسلم تسلم) غاية في البلاغ، وفيه نوع من البديع، وهو الجناس الاشتقاقي. وإعطاؤه الأجر مرتين؛ لكونه كان مؤمناً بنبيه، ثم يؤمن بمحمد ﷺ ويحــتمل أن يكون تضعيف الأجر له من جهة إسلامه، ومن جهة أن إسلامه يكون ســبباً لدخول أتباعه. وقوله ﷺ (فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين) إي إثم الأكار، أي الفــلاح. وقــد جــاء مصــرحاً به في رواية إسحاق عن الزهري (فإن عليك إثم

---

[1] البخاري (١/١٦ــ١٩) برقم (٧)

الأكـــارين) قال أبو عبيدة: المراد بالفلاحين أهل مملكته، لأن كل من كان يزرع فهو عند العرب فلاح، سواء كان يلي ذلك بنفسه أو بغيره. قال الخطابي أراد أن عليك إثم الضعفاء، والأتباع إذا لم يسلموا؛ تقليداً له، لأن الأصاغر أتباع الأكابر.[1]

قـــال ابن حجر، ذكر السهيلي أنه بلغه أن هرقل وضع الكتاب في قصبة من ذهـــب، تعظـــيماً له. وأنهم لم يزالوا يتوارثونه حتى كان عند ملك الفرنج الذي تغلب على طليطلة، ثم كان عند سبطه.[2]

وجاء من أمر هرقل في صحيح البخاري (...فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية، وكان نظيره في العلم. وسار هرقل إلى حمص، فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب صاحبه؛ يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ وأنـــه نبي. فأَذِنَ هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فَغُلِّقت، ثم اطلـــع، فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفَلاح والرشد؛ وأن يَثْبُتْ مُلكُكم فَتُبَايِعُوا هذا النبي ؟ فحاصوا حيصة حُمُرِ الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غُلِّقت، فلما رأى هرقل نفرهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم عليَّ. وقال: إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بهـــا شدتكم على دينكم، فقد رأيتُ. فسجدوا له ورضوا عنه. فكان ذلك آخر شأن هرقل.)[3]

ويفيد هذا أن شهوة المناصب والمكانة قد تحول بين المرء وخير الآخرة، مما يفيد المســـلم؛ الانتباه واليقظة لشهوات الدنيا، وما قد تؤول به إلى الشر، وتحبسه عن خير الآخرة وثوابها. ويعلم أن النفس تتأثر بملذات الدنيا تأثراً عظيماً، فهرقل قد تحقق عنده نبوة محمدٍ ﷺ بما لا يدع لديه مجالاً للشك، ولكن حال بينه وبين الإيمان به الخوف على منصب الدنيا.

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (١/٣٨ــ٣٩)

(2) المرجع السابق (١/٤٤)

(3) البخاري (١/١٦ــ١٨) برقم (٧)

ما بين خيبر وعمرة القضاء:

ـ سرية عمر بن الخطاب ﷺ إلى تربة :

في شعبان سنة سبع من الهجرة، بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ في ثلاثين رجلاً إلى عَجُز هوازن بتربة، وهي بناحية العبلاء، على أربع ليال من مكة طريق صنعاء ونجران، فخرج وخرج معه دليل من بني هلال، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فأتى الخبر هوازن فهربوا، وجاء عمر بن الخطاب ﷺ محالّهم فلم يلق منهم أحداً، فانصرف راجعاً إلى المدينة.[1]

ـ سرية أبي بكر الصديق ﷺ إلى نجد:

في شعبان سنة سبع من الهجرة كانت سرية أبي بكر الصديق ﷺ إلى بني كلاب بنجد، ناحية ضَرِيّة.[2] فعن إياس بن سلمة عن أبيه، رضي الله تعالى عنهما، قال (غزونا فَزَارَة وعلينا أبو بكر، أمَّره رسول الله ﷺ علينا. فلما كان بيننا وبين الماء ساعة، أمرنا أبو بكر فعَّرسْنا، ثم شن الغارة. فورد الماء، فقتل من قتل عليه، وسَبَى، وأنظر إلى عُنُقٍ من الناس فيهم الذراري. فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل. فرميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، فجئت بهم أسُوقهم. وفيهم امرأة من بني فَزَارَة، عليها قَشْع من أدم (قال القشع النَّطع) معها ابنة لها من أحسن العرب. فَسُقْتُهم حتى أتيت بهم أبا بكر، فنفلني أبو بكر ابنتها. فقدمنا المدينة؛ وما كشفت لها ثوباً، فلقيني رسول الله ﷺ في السوق، فقال: يا سلمة ! هب لي المرأة. فقلت : يا رسول الله ! والله لقد أعجبتني، وما كشفت لها ثوباً. ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق. فقال لي : يا سلمة ! هب لي المرأة. لله أبوك. فقلت: هي لك يا رسول الله

---

[1] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١١٧/٢)

[2] المرجع السابق (١١٧/٢)

! فـــوالله ما كشفت لها ثوباً. فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، ففدى بها ناساً من المسلمين، كانوا أُسِرُوا بمكة.)[١]

جاء في الحديث لفظ (التعريس) وهو: النـــزول آخر الليل، وقوله (وأنظر إلى عـــنق مـــن الناس) أي جماعة، وفي الحديث من الفوائد، جواز التنفيل، وفيه استحباب الكـــناية عن الوقاع بما يفهمه، وجواز المفاداة، وجواز فداء الرجل بالنساء الكافرات، وفيه جواز استيهاب الإمام أهل جيشه بعض ما غنموه ليفادي به مسلماً، أو يصرفه في مصالح المسلمين، أو يتألف به من في تألفه مصلحة، كما فعل ﷺ هنا، وفي غنائم حنين، وفيه جواز قول الإنسان للآخر لله أبوك ولله درك.[٢] وهي كلمة مدح.

ـ سرية بشير بن سعد ﷺ إلى ناحية فَدَك :

في شـــعبان سنة سبع من الهجرة، بعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد في ثلاثين رجـــلاً إلى بـــني مرّة بفَدَك، فسأل عن الناس فقيل في بواديهم، فاستاق النعم والشاة وانحـــدر إلى المديـــنة، فلما علموا أدركوه؛ فأصابوا أصحاب بشير، وقاتل بشير حتى أصيب، فقيل قد مات، ورجعوا بنعمهم وشاتهم، وقدم عُلبة بن زيد الحارثي بخبرهم إلى رسول الله ﷺ ثم قدم من بعده بشير بن سعد.[٣]

ـ سرية غالب بن عبد الله ﷺ إلى الميفَعة :

عـــن أبي ظبـــيان قال سمعت أسامة بن زيد بن حارثة ﷺ يُحدِّث، قال (بعثنا رســـول الله ﷺ إلى الحُرَقة من جهينة، قال: فصبّحنا القوم، فهزمناهم. قال: ولحقت أنا ورجلٌ من الأنصار رجُلاً منهم، قال: فلما غَشيناه قال: لا إله إلا الله، قال: فكفَّ عنه الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته. قال:فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ قال: فقال: يا

---

[١] مسلم (٣/١٣٧٥ـــ١٣٧٦) برقم (١٧٥٥)

[٢] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/٦٨ـــ٦٩)

[٣] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١١٨ـــ١١٩)

أسامة أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله ؟ قال : قلت: يا رسول الله إنه إنما كان متعوذاً، قـــال: قتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله ؟ قال: فما زال يكررها عليَّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.)[١]

وهم بَطْن من جهينة، سموا بذلك لوقعة كانت بينهم وبين بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان فأحرقوهم بالسهام؛ لكثرة من قتلوا منهم، وهذه السرية يقال لها سرية غالب بن عبيد الله الليثي،[٢] وكانت في رمضان سنة سبع من الهجرة. قال ابن حجر: قـــال ابن التين: في هذا اللوم تعليم وإبلاغ في الموعظة حتى لا يقدم أحد على قتل من تلفـــظ بالتوحـــيد، وقال القرطبي: في تكريره ذلك؛ والإعراض عن قبول العذر زجر شديد عن الإقدام على مثل ذلك... وفيه ترتب الأحكام على الأسباب الظاهرة دون الباطنة.[٣]

وفي قوله (حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم) لأن الإسلام يجبُّ ما قبله، فتمنى أن يكون ذلك اليوم أول دخوله في الإسلام ليأمن من جريرة تلك الفعلة، ولم يـــرد أنـــه تمنى أن لا يكون مسلماً قبل ذلك، قال القرطبي: وفيه إشعار بأنه كان استصغر ما سبق له قبل ذلك من عمل صالح في مقابلة هذه الفعلة، لما سمع من الإنكار الشديد.[٤]

وفي الحديث دليل على منـــزلة وعِظَم لا إله إلا الله. فبها يعصم الإنسان نفسه ودمـــه ومالـــه وعرضـــه إلا بحقهـــا. كما يندرج عن ذلك ويلحق به مكانة التوحيد ومنـــزلـــته الرفيعة، فكان عليه الصلاة والسلام يردد ذلك على أسامة ﷺ (قال: فما زال يكررها عليَّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.)

---

[١] البخاري (٤/٢٦٧) برقم (٦٨٧٢)

[٢] وعند ابن سعد :عبدالله وليس عبيد الله. الطبقات الكبرى (٢/١١٩)

[٣] ابن حجر، فتح الباري (١٢/١٩٦)

[٤] المرجع السابق (١٢/١٩٦)

ومن مقتضيات لا إله إلا الله؛ الإقرار بتوحيد الله وتنزيهه عن الشرك في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

ويفيد الحديث أمانة أسامة بن زيد ــ رضي الله تعالى عنهما ــ إذ لم يمنعه ما حصل منه أن يطوي هذه القضية ولا يذكرها.بل ذكرها، ليستفيد منه غيره.

وهذا الأمر متعلق بحكم من قال لا إله إلا الله، ومنزلتها العظيمة. ويعني هذا أهمية إظهار العلم، وعدم إخفائه لينتفع الناس به. ويفيد كذلك شدة خوف أسامة ﷺ وتحسره على ما بدر منه، فيقدم ﷺ أنموذجاً وقدوة للمؤمن تجاه ما يكتسب من الذنوب، بأن يندم على فعله ويتوب ويعزم على أن لا يعود إليه.

ــ سرية بشير بن سعد ﷺ إلى الجِنَاب :

بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من غطفان بالجناب قد واعدهم عيينة بن حصن ليكون معهم، ليزحفوا إلى رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ بشير بن سعد، فعقد له لواء في شوال، سنة سبع من الهجرة، وبعث معه ثلاثمائة رجل، فساروا الليل وكمنوا النهار؛ حتى أتوا إلى يمن وجبار، وهي نحو الجناب، والجناب يعارض سَلاح وخيبر ووادي القرى، فنزلوا بسلاح، ثم دنوا من القوم، فأصابوا لهم نعماً كثيراً وتفرق الرعاء، وخرج بشير بن سعد في أصحابه حتى أتى محالهم؛ فيجدها ليس فيها أحد، فرجع بالنعم وأصاب منهم رجلين، فأسرهما وقدم بهما إلى رسول الله ﷺ فأسلما فأرسلهما.[1]

---

[1] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٢٠)

عمرة القضاء :

يبين مطلع الحديث التالي سبب هذه العمرة، وارتباطها بصلح الحديبية؛ الذي كـــان سبباً في إنشائها، فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما (أن رسول الله ﷺ خرج معـــتمراً، فحـــال كفّـــار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه، وحلق رأسه بالحديبية، وقاضـــاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحاً عليهم إلا سيوفاً، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا. فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم...)[1]

ومن أسماء هذه العمرة: القضاء، والقضية، والقصاص، والصلح.[2] [3]

وفي ذي القعدة سنة سبع دخل رسول الله ﷺ مكة، وقد خرج معه المسلمون، ممـــن صُـــدَّ معه في عمرته التي في سنة ست.[4] حيث أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يعتمروا قضاء لعمرتهم التي صدَّهم المشركون عنها بالحديبية، وأن لا يتخلَّف أحدٌ ممن شـــهد الحديبـــية، فـــلم يتخلف منهم أحدٌ إلا رجال استُشهدوا بخيبر، ورجال ماتوا. وخرج مع رسول الله ﷺ قومٌ من المسلمين عمَّاراً، فكانوا في عمرة القضية ألفين.[5]

وخـــرج ﷺ مستعداً بالسلاح، خشية أن يقع من قريش غدراً، فبلغهم ذلك ففـــزعوا، فلقيه مكرز فأخبره ﷺ أنه باق على شرطه، وأن لا يدخل مكة بسلاح إلا السيوف في أغمادها، وإنما خرج في تلك الهيئة احتياطاً، فوثق بذلك.[6]

---

(1) البخاري (٣/١٤٤) برقم (٤٢٥٢)

(2) ابن حجر، فتح الباري (٧/٥٠٠)

(3) في الحاشـــية (وَعُدَّت عمرة الحديبية في العمر لثبوت الأجر فيها، لا لأنها كملت. والخلاف مبني على الاختلاف في وجـــوب القضـــاء عـــلى من اعتمر فَصُدَّ عن البيت، فقال الجمهور، يجب عليه الهدي ولا قضاء عليه. وعن أبي حنيفه عكسه، وعن أحمد رواية أنه لا يلزمه هدي ولا قضاء، وأخرى يلزمه الهدي والقضاء...) انظر ابن حجر، فتح البـــاري (٧/٥٠٠)

(4) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/١٢)

(5) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٢٠)

(6) ابن حجر، فتح الباري (٧/٥٠٠) وابن سعد، الطبقات (٢/١٢٠ــ١٢١)

ويدل هذا على وفائه ﷺ بما التزم به مع كفار قريش، حيث ترك سلاح الحرب خارج مكة، كما يفيد هذا الاحتياط منه ﷺ أهمية أخذ الحيطة والحذر من الكفار، وأن يكون المسلم فطناً ونبيهاً، ومع ذلك يلتزم بما عاهد عليه الكفار، وأن يكون عادلاً منصفاً؛ غير جائرٍ ولا ناقضٍ لمواثيقه. وأن في الالتزام بهذا الخُلُق ما يعكس صورة الإسلام وهديه وأخلاقه التي تُرَغِّب وتُحَفِّز الكافر للدخول فيه، وهو مطلب من مطالب الدين، أن يدخل فيه غيرهم.

عن ابن عباس ــ رضي الله تعالى عنهما ــ قال (قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهنتهم حمى يثرب. قال المشركون: إنه يقدم عليكم غداً قومٌ قد وَهَنَتْهُم الحُمَّى؛ ولقوا منها شدة، فجلسوا مما يلي الحجر. وأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا ثلاثة أشواط، ويمشوا ما بين الركنين، ليرى المشركون جَلَدَهُم. فقال المشركون: هؤلاء الذين زعمتم أنَّ الحُمَّى قد وهنتهم. هؤلاء أجلد من كذا وكذا، قال ابن عباس: ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.)[1]

ومن فوائد هذا الحديث أهمية التحامل على النفس؛ بما يرى العدو القوة والجلادة من المسلمين، وأن في ذلك مهابة لهم، كما حصل ذلك في قلوب كفار قريش، حيث قالوا لما رأوا جلد المسلمين: هؤلاء أجلد من كذا وكذا.

وفي الحديث أهمية الشفقة والرحمة بالناس، وأن على القائد أن يحقق الهدف من خلال جهود أتباعه مع النظر إلى حالهم، وأن يشفق عليهم ما أمكن ذلك، وبمعنى أن يجمع بين تحقيق الهدف وبين حال الناس. كما جاء في الحديث السابق (ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم) وهذا ينطبق أيضاً على المدير الإداري مع منسوبي إدارته، وكذا المعلم مع تلاميذه، وفي كل دائرة من دوائر القيادة والمسؤولية، فيجمع في تعامله بين الشفقة وتحقيق المصلحة، فإذا كان ذلك النهج

---

(1) مسلم (٢/٩٢٣) برقم (١٢٦٦)

النبوي الكريم مع أصحابه لمواجهة ظنون الكافرين، فمن باب أولى أن يكون ذلك بين المسلمين في أحوالهم العامة.

وتبين الأحاديث التالية مزيد تفصيل لذلك النُسك وأحداثه: فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال (إنما سعى رسول الله ﷺ وَرَمَلَ بالبيت لِيُري المشركين قُوَّته)[1]

عن ابن عباس ــ رضي الله تعالى عنهما ــ قال (قدم رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفدٌ وَهَنَتْهُم حُمَّى يثرب، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم. وزاد ابن سلمة عن أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما قدِمَ النبي ﷺ لعامه الذي استأمن قال: ارملوا ليرى المشركون قوَّتكم، والمشركون من قِبَل قُعَيقِعان)[2] وجبل قُعَيقِعان يُشرف على الركنين الشاميين، ومن كان به لا يرى ما بين الركنين اليمانيين.[3]

ولقد كان من اهتمام الصحابة رضي الله تعالى عنهم أن خافوا على النبي ﷺ من أذى الصبية، الذين قد يدفعهم جهلهم وتأثرهم بآراء قومهم أن يؤذوا رسول الله ﷺ فعن أبي أوفى (لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غِلمان المشركين ومنهم أن يؤذوا رسول الله ﷺ)[4]

ويفيد هذا الاهتمام وهذا الصنيع منهم رضي الله عنهم، أهمية العناية والاهتمام بحفظ ولاة أمر المسلمين: العلماء والحكام، لأنهم القائمون على حفظ الدين بالعلم وبالسلاح دفاعاً عنه.

---

(1) مسلم (٢/٩٢٣) برقم (٢٤١ــ١٢٦٦)

(2) البخاري (٣/١٤٥) برقم (٤٢٥٦)

(3) ابن حجر، فتح الباري (٧/٥١٠)

(4) البخاري (٣/١٤٥) برقم (٤٢٥٥)

ولما انتهت المدة التي رآها المشركون، طلبوا من الرسول ﷺ الرحيل عن مكة، فلم يتلكأ عليه الصلاة والسلام، بل كان وفياً صادقاً حتى مع أعدائه، جاء في الحديث (...فلما أن أقام بها ثلاثاً؛ أمروه أن يخرج فخرج)[1] وعن البراء ﷺ قال (...فلما دخلها ومضى الأجل أتوا علياً؛ فقالوا: قل لصاحبك أخرج عنَّا فقد مضى الأجل. فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تُنادي: يا عم! يا عم !. فتناولها عليٌ؛ فأخذ بيدها؛ وقال لفاطمة عليها السلام: دُونك ابنة عمك حَمِّليها. فاختصم فيها عليٌّ وزيدٌ وجعفرٌ، قال علي : أنا أخذها وهي بنت عمي. وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيدٌ ابنة أخي. فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: الخالة بمنزلة الأم. وقال لعلي: أنت مني وأنا منك: وقال لجعفر: أشبهت خَلْقي وخُلُقي، وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا. وقال علي ألا تتزوج بنت حمزة ؟ قال: إنها ابنة أخي من الرضاعة)[2]

ويبين هذا الحديث موقفاً عاطفياً من ابنة حمزة ﷺ وهي تنادي يا عم! يا عم!، كأنها خاطبت النبي ﷺ بذلك إجلالاً له، وإلا فهو ابن عمها، كون حمزة ﷺ عم النبي ﷺ من النسب، وكذلك النبي ﷺ عمها، لأن حمزة ﷺ أخو النبي ﷺ من الرضاعة. فقدمت علاقة الرضاعة على غيرها. وقد أقرها عليٌ ﷺ بقوله لفاطمة بنت رسول الله ﷺ (دونك ابنة عمك)[3]

وقول راوي الحديث (فاختصم فيها عليٌّ وزيدٌ وجعفرٌ) دليل على محبتهم للخير، ودليل على أهمية صلة الرحم، وكل يرى أنه أحق وألصق وأقرب في صلة الرحم، وفيه دليل على محبتهم لحمزة ﷺ وإنها لصورة رائعة، إذ تبين مدى عمق التواصل الذي وصل إليه أولئك الأصحاب، حتى أنهم يتنازعون ذلك الخير للوفاء بصلة الرحم. وفي هذا بيان لصورة الأسرة الحميمة في ذلك الوقت.

---

[1] البخاري (٣/١٤٤) برقم (٤٢٥٢)

[2] البخاري (٣/١٤٤) برقم (٤٢٥١)

[3] ابن حجر، فتح الباري (٧/٥٠٥)

ثم يتـــبين من الحديث قوة البيان القضائي والحس التربوي في منهج رسول الله ﷺ حيث قضى بينهم، مع بيان علة الحكم ومستنده، وفي بيانه ذلك ما يعلم به القاضي والفقـــيه العلة التي يُستند إليها في مثل هذه القضية، وهو أسلوب تربوي عالي البيان والإيضاح، وأتبع ذلك ببيان منـــزلة كل واحد منهم عند رسول الله ﷺ فيكون ذلك علـــيهم جمـــيعاً نَســـيمٌ عليلٌ. فَيستفاد من هذا المنهج النبوي التربوي أهمية الأخذ في الاعتبار جوانب العواطف، ومعالجتها بالأسلوب الأمثل الذي يتناسب مع الحدث، فقد كانـــت المعالجـــة منه ﷺ بما يتناسب مع وضع ومنـــزلة أولئك الرجال منه ﷺ فيقاس على ذلك.

ومـــن الفوائد التي ذكرها ابن حجر رحمة الله تعالى عليه : قوله (وقال: الخالة بمنـــزلة الأم) أي في هذا الحكم الخاص، لأنها تقرب منها في الحنو والشفقة والاهتداء إلى ما يصلح الولد، لما دل عليه السياق، ويؤخذ منه أن الخالة مقدمة على العمة، لأن صفية بنت عبد المطلب كانت موجودة حينئذ، وإذا قُدِّمَتْ على العمة مع كونها أقرب العصـــبات مـــن النســـاء؛ فهي مقدمة على غيرها. وفيه أن الحاكم يبين دليل الحكم للخصم، وأن الخصم يدلي بحجته، وأن الحاضنة إذا تزوجت بقريب المحضونة لا تسقط حضانتها إذا كانت المحضونة أنثى، أخذاً بظاهر الحديث؛ قاله أحمد. وعنه: لا فرق بين الأنثى والذكر. ولا يشترط كونه محرماً، لكن يشترط أن يكون فيه مأموناً. ولا تسقط إلا إذا تزوجت بأجنبي.[1]

وفي عودتـــه ﷺ تزوج بميمونة؛ بعد تحلله عليه الصلاة والسلام، فعن ميمونة بنـــت الحـــارث (أن رسول الله ﷺ تزوجها وهو حلال.)[2] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: (تزوج النبي ﷺ ميمونة في عمرة القضاء)[3]

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٧/٥٠٦ــ٥٠٧)

(2) مسلم (٢/١٠٣٢) برقم (١٤١١)

(3) البخاري (٣/١٤٥) برقم (٤٢٥٩)

أحداث ما بين عمرة القضاء وسرية مؤتة:

سرية ابن أبي العوجاء السلمي إلى بني سليم:

بعث رسول الله ﷺ ابن أبي العوجاء السلمي في خمسين رجلاً إلى بني سليم، وتَقَدَّمَه عينٌ لهم كان معه، فحذَّرهم، فجمَّعوا، فدعاهم ابن أبي العوجاء إلى الإسلام، فقالوا لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا، فتراموا بالنبل ساعة حتى أتتهم الإمدادات فأحدقوا بهم من كل ناحية، فقاتل القوم قتالاً شديداً، حتى قُتِل عامتهم، وأصيب ابن أبي العوجاء جريحاً مع القتلى، ثم تحامل حتى بلغ رسول الله ﷺ فقدموا المدينة في أول يوم من صفر، سنة ثمان. وقد خرجوا في ذي الحجة سنة سبع.[١]

وتبين أحداث هذه السرية أن أمر المؤمن ليس كله حسب ما يتمنى ويرغب، فلله حِكَمٌ وأسرارٌ لا يعلمها إلا هو، فقد يكون باطنها خلاف ظاهرها، فالله يعلم ما لا يعلمه عباده، وبالتالي فإن مما يُستفاد من هذه الحادثة وأمثالها أن يدرك المسلمُ حال ما يمتنع عليه أو عنه ما أراد، فإن ذلك حصل لأصحاب رسول الله ﷺ وهم في جهاد في سبيل الله تعالى، فلله الحكمة البالغة، وهذه المشاعر إذا استشعرها المؤمن زادته طمأنينة، وجنبته الظنون والأوهام الرديئة.

إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد: رضي الله تعالى عنهما :

قال عمرو بن العاص: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق؛ جمعت رجالاً من قريش، كانوا يرون رأيي، ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله أني أرى أمر محمد يعلو الأمور علوّاً مُنكرا، وإني قد رأيت أمراً، فما ترون فيه ؟ قالوا: وماذا رأيت ؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي، فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يده أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر

---

[١] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٢٣)

قومنا؛ فنحن من قد عَرَفوا؛ فلن يأتينا منهم إلا خير، قالوا: إن هذا الرأي، قلت: فاجمعوا لنا ما نهديه له، وكان أحبَّ ما يُهدى إليه من أرضنا الأدم. فجمعنا له أدماً كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه.

فوالله إنا لعنده إذ جاءه عَمْرو بن أمية الضَّمْري، وكان رسولُ الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه. قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده. قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضَّمْري؛ لو قد دخلت على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني قد أجزأت عنها؛ حين قتلتُ رسولَ محمد. قال فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقي، أهديت إليَّ من بلادك شيئاً ؟ قال: قلت: نعم، أيها الملك، فقد أهديت إليك أدماً كثيراً. قال: ثم قربته إليه، فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك ! إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدوّ لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا. قال: فغضب، ثم مدَّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فَرَقاً منه؛ ثم قلت: أيها الملك ! والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه؛ قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله ! قال: قلت: أيها الملك ! أكذاك هو ؟ قال: ويحك يا عمرو، أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحقّ، وليَظْهَرَنَّ على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجُنُوده، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام ؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعتُه على الإسلام، ثم خرجتُ إلى أصحابي وقد حال رأيي عمَّا كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي.

ثم خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ فلقيت خالدَ بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان ؟ قال: والله لقد استقام المنسم، وإن الرجل لنبي، أذهب والله فأُسْلِم، فحتى متى ! قال: قلت: والله ما جئتُ إلا لأسلم. قال: فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت،

فقلت: يا رسول الله ! إني أبايعك على أن يغفر لي الله ما تقدَّم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر، فقال رسول الله ﷺ (يا عمرو ! بايع، فإن الإسلام يجب ما كان قبله، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها: فبايعته، ثم انصرفت.[1]

ـ سرية غالب بن عبدالله الليثي ﷺ إلى بني المُلَوِّح بالكديد:

بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثي، وأمرهم أن يشنوا الغارة على بني المُلَوِّح بالكديد، وهم من بني ليث، حتى إذا كانوا بِقُديد لقوا الحارث بن البرصاء الليثي فأخذوه، فقال: إنما جئت أريد الإسلام، وإنما خرجت إلى رسول الله ﷺ ، قلنا: إن تكن مسلماً لم يضرك رباطُنا يوم وليلة، وإن تكن على غير ذلك نستوثق منك. فَشَدُّوا وثاقه وتركوا عليه رجلاً أسود، وقالوا له: إن نازعك فاحتز رأسه. وأكملوا مسير غزوهم....[2]

يبين هذا القدر من مسيرهم أهمية الاستيثاق من المجهول أمره، أو ممن يُشك في أمره، وأن عملية الاحتراز من المهام التي ينبغي الأخذ بها، حتى لا يؤخذ المؤمن على غرة من أمره. وكذلك من فوائد هذا المقطع من أمر السرية، بيان العلة في اتخاذ الإجراء لمن اتخذ الإجراء في حقه، وأن المسلمين قبلوا منه ما يعصم به دمه؛ فلم يقتلوه، بل أخذوه معهم لرسول الله ﷺ ولعل هذا من فوائد ما سبق وأن مر بهم من أحداث قد تبين من خلالها عصمة دم من قال أنه مسلم أو نطق بالشهادة.

وقد اتخذ المسلمون في هذه السرية من يقوم برصد حركة العدو، ومعرفة ما يدور حولهم؛ حتى لا يأخذهم عدوهم على غرة من أمرهم؛ كما يتضح من هذه القصة الشجاعة، حيث يقول جندب بن مكيث الجهني: فسرنا حتى أتينا الكديد عند غروب الشمس، فكَمِنَّا في ناحية الوادي، وبعثني أصحابي ربيئة لهم، فخرجت حتى أتيت تلاً مشرفاً على الحاضر، يُطْلِعُني عليهم، حتى إذا أسندت عليهم فيه؛ علوت على رأسه

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٢٨٩ـــ٢٩١)

[2] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٢٤) وأبو داود (٣/١٢٨) برقم (٢٦٧٨)

واضطجعت عليه، قال: فإني لأنظر إذ خرج رجل منهم من خِبَاء له، فقال لامرأته: إني أرى على هذا الجبل سواداً ما رأيته من أول يومي هذا، فانظري إلى أوعيتك، لا تكون الكلاب جرَّت منها شيئاً. قال: فَنَظَرَتْ فقالت: والله لا أفقد من أوعيتي شيئاً، قال: فناوليني قوسي ونبلي، فناولَتْه قوسَه وسهمين معها، فأرسل سهماً فوالله ما أخطأ بين عيني، قال: فانتزعته وثَبَتُّ مكاني، ثم أرسل سهماً آخر فوضعه في منكبي؛ فانتزعته فوضعته، وثَبَتُّ مكاني. فقال لامرأته: والله لو كانت ربيئة لتحركت بعد ! والله لقد خالطها سَهْمَايَ لا أبا لك ! فإذا أصبحت فانظريهما لا تمضغهما الكلاب.[1]

فيبين هذا المقطع لهذه السرية، أهمية إتخاذ العيون التي ترقب حركة العدو، وأهمية أن يكون الرقيب شجاعاً مُقَدِّرَاً لقراراته وتحركاته، وأثر ذلك على كتيبته وسريته، حيث قَدَّم جندب ﷺ المثل الصادق والشجاع في محافظته على سريته، فلو تحرك بعد السهم الأول لعرف الرجل الرامي أنه ربيئة أي عيناً يتجسس عليهم، ولصاح في قومه فحصل ما لا يُمَكّن المسلمين من أمرهم. فلقد صبر جندب على سهمين أصابته ولم يتحرك، حفاظاً على المسلمين وأمرهم. وفيه من الفوائد التطبيق العملي لقاعدة: تحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام.

وبعد أن اطمأن العدو، شن المسلمون الغارة عليهم، واستاقوا النعم. فصرخ صريخ القوم في قومهم، فجاء ما لا قِبَلَ لهم به. ويقول جندب ﷺ فأدْرَكَنا القومُ حتى نظروا إلينا، ما بيننا وبينهم إلا الوادي، إذ جاء الله بالوادي من حيث شاء، يملأ جنبيه مـاء، والله ما رأينا يومئذ سحاباً ولا مطراً، فجاء بما لا يستطيع أحدٌ أن يجوزه. فلقد رأيتهم وقوفاً ينظرون إلينا، وقد أسندناها في المُشَلّل نحدرها، وفتناهم فتونا لا يقدرون فيه على طلبنا.[2]

---

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٢٤)

(2) المرجع السابق (٢/١٢٥)

وتبين خاتمة هذه السرية كيف نصر الله تعالى المسلمين بسيل لا يعرفون له سبباً، من سحاب أو مطر، فلقد أجرى الله تبارك وتعالى الوادي بقوته وقدرته، وبمنه وكرامته لعباده وجنوده المجاهدين، والعدو ينظر إليهم وإلى أنعامهم التي أخذها المسلمون، ولا يقدرون على استرجاع شيء منها، فلله الحكمة والقوة الباهرة. فسبحانه وتعالى ينصر عباده كيف شاء ومتى شاء.

ومن فوائد هذه السرية أن على الأمة أن تأخذ بالأسباب وتُعلّق النتائج على ربِّ الأسباب، وأن لا تنهزِم أمام العدو لكثرة عتاده وعدته، فالنصر بيد الله تعالى. وكذا إذا انهزمت، فلهم فيما حصل للمسلمين في هذه الغزوات والسرايا دروس وعبر، وأن لا يكون للضعف طريق إلى قلوبهم.

وأن الغزوات والسرايا النبوية وما بعدها من فتوحات تؤكد أن نصر المسلمين لم يكن بقوة السلاح فقط، بل كان بقوة الإيمان والصدق مع الله تعالى.

ومن فوائد هذه السرية أن العدو الكافر إذا بلغته الدعوة ولم يقبلها، وكان مهدداً للمسلمين، فلهم أن يأخذوه على غرة، لمكابرته ورفضه للحق.

ـ سرية غالب بن عبد الله الليثي ﷺ إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك:

هَيَّأ رسول الله ﷺ الزبير بن العوام؛ وقال له: سر حتى تنتهي إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد فإن أظفرك الله بهم فلا تُبْقِ فيهم، وهيأ معه مائتي رجل، وعقد له لواء، فقدم غالب بن عبدالله الليثي من الكَديد من سرية قد ظَفَّره الله عليهم، فقال رسول الله ﷺ للزبير: اجلس، وبعث غالب بن عبد الله في مائتي رجل، وخرج أسامة بن زيد فيها، حتى انتهى إلى مصاب أصحاب بشير، وخرج معه عُلبة بن زيد فيها، فأصابوا منهم نَعَماً وقتلوا منهم قتلى.[1]

---

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٢٦)

ـ سرية كعب بن عمير الغفاري ﷺ إلى قُضَاعَة بذات أطلاح :

وهـــي مـــن وراء وادي القُرى، وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان من الهجرة. حيث بعث رسول الله ﷺ كعب بن عمير الغفاري في خمسة عشر رجلاً، حتى انـــتهوا إلى ذات أطلاح من أرض الشام، فوجدوا جمعاً من جمعهم كثيراً، فدعوهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، ورشقوهم بالنبل، فلما رأى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ قـــاتلوهم أشد القتال؛ حتّى قُتلوا وأفلت منهم رجل جريح في القتلى، فلما برد عليه الليل تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فشق ذلك عليه وهمَّ بالبعث إليهم، فبلغه أنهم قد ساروا إلى موضع آخر فتركهم.(١)

ويتكرر الدرس مرة أخرى، من أن الأمور قد لا تكون كما يحب المرء ويتمنى، فلله حكم وأسرار لا يعلمها إلا هو، وقد يكون من حكم ذلك والله تعالى أعلم؛ ليتخذ مـــنهم شـــهداء، وليعـــلم من بعدهم أن الهزيمة لا تصد المسلمين عن متابعة أعمالهم ونشـــاطهم ودعوتهـــم ونشـــر الخير، فهاهي السرايا يعقب بعضها بعضاً، لنشر كلمة التوحـــيد، وإعلاء كلمة الله تعالى، فمن أسلم كان لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين.

ـ سرية شجاع بن وهب ﷺ إلى السِّيِّ :

في شهر ربيع الأول سنة ثمان من الهجرة، بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب في أربعة وعشرين رجلاً، إلى جمع من هوازن بالسي، من ناحية رُكبة؛ من وراء المَعدِن، وهـــي مـــن المدينة على خمس ليال، وأمره أن يغير عليهم، وكان يسير الليل ويكمن الـــنهار، حـــتى صبحهم وهم غارّون، فأصابوا نعماً كثيراً وشاء، واستاقوا ذلك حتى قدموا المدينة، واقتسموا الغنيمة، وكان غياب السرية خمس عشرة ليلة.(٢)

---

(١) المرجع السابق (١٢٨/٢)

(٢) المرجع السابق (١٢٧/٢)

الفصل الحادي عشر

من سرية مؤتة حتى فتح مكة

ـ سرية مؤتة :

في جماد الأولى سنة ثمان من الهجرة بعث رسول الله ﷺ بعثه إلى مؤتة.[1] وقد رتب الإمارة كما جاء في الحديث، عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال (أمَّرَ رسولُ الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ : إن قُتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة...)[2]

وفي هذا الترتيب جواز تعليق الإمارة بشرط، وتولية عدة أمراء بالترتيب.[3] حيث إمارة الثاني مشروطة بمقتل الأول، وإمارة الثالث مشروطة بمقتل الثاني. وفي هذا ممارسة عملية بيانية لمنهجية تولية القيادة عندما تكون هناك أخطار وفي منأى عن الوالي؛ فيصعب وصول القرار إليها مباشرة من قبل القائد الأعلى، وفي هذا سعة الدائرة المنهجية الإسلامية في دقائق الأعمال القيادية، والتحسب لما قد يطرأ.

وفيه أهمية وضع الخطط لما يتوقع له، ومن ذلك قتل القائد أو إصابته؛ كونه أمر مُتَوَقَّع في الحروب.

ويُذْكَرُ أن سبب هذه الغزوة المباركة؛ أنه بَعَثَ عليه الصلاة والسلام الحارث بن عُمير الأزدي ﷺ إلى ملك بُصرى بكتاب، فلما نزل مؤتة عرض له شُرَحبيل بن عمرو الغساني فقتله، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسولٌ غيره، فاشتد ذلك عليه وندب.[4] وشرحبيل من أمراء قيصر على الشام.[5]

فتجهز الناسُ ثم تهيئوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف. فلما حضر خروجُهم ودَّع الناسُ أمراءَ رسولِ الله ﷺ وسلموا عليهم. فلما وُدِّع عبد الله بن رواحة مع من وُدِّع

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (١٥/٤)

(2) البخاري (١٤٦/٣) برقم (٤٢٦١)

(3) ابن حجر، فتح الباري (٥١٣/٧)

(4) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٢٨/٢)

(5) ابن حجر، فتح الباري (٥١١/٧)

بكـــى، فقالوا: ما يُبكيك يا ابن رواحة ؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكـــم، ولكـــني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عزَّ وجلّ يذكر فيها النار ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾[1]

فلست أدري كيف لي بالصَّدَر بعد الورود...[2]

وفي هـــذا من الفوائد؛ أن التوديع كان سمة من سمات المسلمين، وفي الأخذ بها تقوية للروابط، وتحقيق للتآلف، وفيه كذلك سؤال الباكي عن ما يبكيه، وأن لا يترك عـــلى أنها خصوصية تخصه، أو أن في سؤاله حرج عليه، فلقد كشف سؤال الصحابة لابـــن رواحة أمراً في غاية الأهمية، وهو بكاء من دلالة آية في كتاب الله تعالى، وهذا يبين الخوف الذي ينتاب الصحابي الجليل ابن رواحة ﷺ وهو في حال طاعة لله تعالى، ومُتلـــبس بأمر الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام، فيعطي ﷺ درساً في الخوف من مقام الله تعالى، وليس محبة للدنيا وكراهية فراقها.

فقـــال المسلمون: صحبكم الله، ودفع عنكم، وَرَدَّكُم إلينا صالحين.[3] فكان رَدُّ المســـلمين علـــيهم بالدعـــاء لهم؛ بما يُحبون من معية الله تعالى ودفع الشر عنهم، والعودة صالحين. وهذا الدعاء حاجة المسلم إليه قائمة، وخاصة في السفر.

فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أســـأل الرحمن مغـــفرة   وضربة ذات فَرْغٍ تقذفُ الزَّبَدَا
أو طعنة بيدي حرَّانٌ مُجْهِزَةً   بحربة تُنْفذ الأحشـــاء والكبـــدا
حتى يُقال إذا مرُّوا على جَدَثي   أرشده الله من غازٍ وقد رشـــــدا

فأتى إلى رسولِ الله ﷺ عبد الله بن رواحة فودعه، ثم قال:

فثبَّتَ اللهُ مـــا آتاك من حَسَنٍ   تثبيتَ موسى ونصراً كالذي نُصروا

---

(١) سورة مريم: آية رقم (٧١)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١٥/٤)

(٣) المرجع السابق (١٥/٤)

إني تفرستُ فيك الخيرَ نافلـة   الله يعلـم أني ثابـت البصـــرَ
أنت الرسولُ فمن يُحرم نوافله   والوجه منه فقد أزرى بـه القـدرُ[1]

وفي هذا ما يدل على استيعاب الإسلام للشعر والكلام الجميل؛ الذي يعبر به المسلم عن أحاسيسه ومشاعره، كما عبر بها الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة ﷺ وفيه ما يدل على إنشاد الشعر أمام ولي الأمر، والتعبير به عن المشاعر، وكذلك المدح الصواب، وكذلك فيه إعلان رغبات النفس فيما عند الله ما لم يخالطها رياء ولا سمعة، ففي ذلك تشجيع للآخرين، وبيان لهم وترغيب.

ذكر ابن هشام: ..ثم سار المسلمون حتى نزلوا مَعَان من أرض الشام، فبلغ الناس أن هِرقل قد نزل مآب، من أرض البلقاء؛ في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لَخْم وجُذَام والقيْن وبَهْرَاء وبَلى مائة ألف، عليهم رجل من بلي، يُقال له مالك بن زَافِلة. فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له. فشجع ابن رواحة الناس، وقال: يا قوم ! والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة. فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة. فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيهم جموع هرقل، من الروم والعرب، بقرية مشارف من قرى البلقاء...[2]

وفي هذا الموقف العصيب مفارقات عجيبة، فعدد المسلمين ثلاثة آلاف، وعدد العدو أكثر من مائة ألف، ثم يتبين من هذا الموقف الإجرائي من المسلمين، تشاورهم فيما بينهم، والتفكير في ذلك يومين متتاليين، فلم يستعجلوا في أمرهم، ثم كان من

---

[1] المرجع السابق (٤/١٥ـ١٦)

[2] المرجع السابق (٤/١٦ـ١٧)

حـالهم؛ وضع الحلول المقترحة، بعد أن اجتمعت لديهم المعلومات التي يتشاورن من خلال معطياتها.

ثم يفتح الله تعالى على عبد الله بن رواحة ببيان حقيقة هذا الدين وحقيقة هذا القـتال، وحقيقة الإيمان الذي يخالج ويعايش نفوسهم بتلك العبارات التي ذكرها لهم: (فالتي تكرهون هي التي خرجتم من أجلها تطلبون) فكنى ﷺ عن الموت والهزيمة بالتي تكـرهون، والشـهادة هي التي تطلبون، ثم بين لهم ﷺ حقيقة الكثرة في منهج الجهاد الإسـلامي، بـأن المسلمين لا يقاتلون بعدد ولا عدة، ولكن يقاتلون بهذا الدين. وقد وافقوه بالإجماع على رأيه، وهذا يدل على قوة إيمان الصحابة وشجاعتهم التي دفعتهم إلى مقاتلـة جحافل الروم، وهم قلة في العدد والعدة، وكذلك يدل هذا الموقف على أهمـية التذكير بحقيقة الأمر؛ فإن المسلمين على الحق والحقيقة يجتمعون، كما اجتمعوا على عدوهم بهذه الحقيقة التي ذكَّرهم بها ابن رواحة رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وفي هـذا الموقف أهمية الاجتماع على الكلمة وعدم الفرقة، وفيه كذلك أن العبرة بالإيمان لا بقوة العدة وكثرة العتاد.

وإذا كان هذا البيان من ابن رواحة في مجال الحرب والجهاد، فإنه كذلك في ما هو أدنى من أمور الحياة، فالتاجر الرابح إنما يربح بتوفيق الله تعالى مع الأخذ بالأسباب، وهـذا يلزم أن لا يغتر بالفرص المتاحة من المكاسب، فيقدمها على عبادة الله وطاعته؛ جـرياً وراء المكاسـب. وكذا الطالب في استذكاره للعلم، إنما يزداد علماً بتوفيق الله تبارك وتعالى، فيلزمه أن لا يَغْتَرَّ بِسُبُل التحصيل عن طاعة الله. ويقاس على ذلك نجاح الإداري في إدارتـه، والـرجل في أسرته، وكل فرد أو جماعة في حقول الدنيا المتنوعة المتعددة.

ذكـر ابـن هشـام:.. ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة، وعبؤوا أنفسهم فيها. جعلوا على الميمنة قُطْبَة بن قتادة العذري، وعلى الميسرة عباية بن مالك الأنصاري، ويقال عبادة بن مالك. ثم التقى الناس واقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية

رســـول الله ﷺ حتى قُتِل ﷺ ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قُتل، ثم ابن رواحة، فقاتل حتى قُتل...[1]

وأما في المدينة؛ فقد كان رسول الله ﷺ معهم قلباً وعلماً بما يُوحَى إليه من ربه سبحانه وتعالى، فعن أنس ﷺ قال (أن النبي نعى زيداً وجعفر وابن رواحة للناس قبل أن يأتـــيهم خبرُهُم، فقال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـــ وعيناه تَذرِفان ـــ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم)[2]

وهـــذه معجـــزة من المعجزات النبوية التي أجراها الله تعالى لنبيه ﷺ قال ابن حجر: وذكر موسى بن عقبة في المغازي، أن يعلى بن أمية قَدِم بخبر أهل مؤتة، فقال له رســـول الله ﷺ (إن شـــئت فأخـــبرني وإن شئت أخبرك. قال فأخبرَني خبرَهم. فقال: والـــذي بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفاً لم تذكره) وفي الحديث جواز الإعلام بموت الميت؛ ولا يكون ذلك من النعي المنهي عنه.[3]

ويتبين من الحديث العاطفة الجياشة، والرحمة القوية التي يحملها ﷺ بين جوانحه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، حيث كان يُخبر أصحابه ﷺ وعيناه تذرفان، وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها (لما جاء قَتْلُ ابن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم جلس رسول الله ﷺ يُعرف فيه الحُزْنُ)[4] وذلك لما جعل الله فيه مـــن الرحمة، ولا ينافي ذلك الرضا بالقضاء. ويؤخذ منه أن ظهور الحزن على الإنسان إذا أصيب بمصيبة لا يُخرجه عن كونه راضياً إذا كان قلبه مطمئناً، بل قد يُقال إن من

---

(١) المرجع السابق (٤/١٩ـــ٢٢)

(٢) البخاري (٣/١٤٦) برقم (٤٢٦٢)

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٧/٥١٣)

(٤) البخاري (٣/١٤٦) برقم (٤٢٦٣)

كان ينـــزعج بالمصيبة؛ ويعالج نفسه على الرضا والصبر؛ أرفع رتبة ممن لا يبالي بوقوع المصيبة أصلاً، أشار إلى ذلك الطبري.(١)

وفي تمام الحديث فضيلة لخالد بن الوليد؛ ولمن ذُكر من الصحابة؛ وهم زيد بن حارثه، وجعفر بن أبي طالب، وابن رواحة، لأنه ﷺ لا يعلم ذلك إلا وحياً من الله تعالى لرســـول ﷺ وفيه كذلك منقبة لخالد بهذا الاسم والوصف العظيم (سيف من سيوف الله)

وفي الحديث ما يدل على هزيمة المشركين وانتصار المسلمين، من قوله ﷺ (حتى فتح الله عليهم)

وكـــان مـــن أمر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أمراً عجباً، فقد قاتل حتى إذا ألحمه القـــتال، اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها، ثم قاتل القوم حتى قُتِل، قال ابن إسحاق: فكان جعفر أولَ رجل من المسلمين عَقَرَ في الإسلام.(٢)

وفي هـــذا دلالة واضحة على شجاعة وبطولة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حيث عقر فرسه، فليس أمامه إلا النصر والظفر بعدوه أو الشهادة في سبيل الله تعالى. وربما أنـــه رضي الله عنه لم ير أمامه إلا الشهادة، فعقرها حتى لا يظفر بها العدو. وقال ابن كثير: وقد استدل منه جواز قتل الحيوان خشية أن ينتفع به العدو، كما يقول أبو حنيفة في الأغنام إذا لم تتبع في السير، ويخشى من لحوق العدو وانتفاعهم بها، أنها تُذْبَح وتُحْرَق، لِيُحَال بيـــنهم وبـــين ذلك، والله أعلم. قال السهيلي: ولم ينكر أحد على جعفر، فدل على جوازه إلا إذا أمن أخذ العدو له، ولا يدخل ذلك في النهي عن قتل الحيوان عبثا.(٣)

وكان رضي الله عنه يقاتل ويقول:

يا حبـــذا الجنة واقترابهـــا　　　طيبة وبارداً شرابها

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٧/٥١٤)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٢٠)

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية (٤/٢٤٤)

والروم رومٌ قد دنا عذابها كافرةٌ بعيدة أنسابها

عليَّ إذ لاقيتُها ضِرابُها[1]

وفيه إنشاد الشعر أثناء القتال، وبيان وإيضاح لما كان يشعر به ﷺ من ريح الجنة وطيبها؛ إما حقيقة، وإما إيماناً بذلك، وكلاهما غير ممتنع في حق رجل قطعت يداه في سبيل الله تعالى، كما في الرواية التالية:

وذكر ابن هشام: أن جعفر بن أبي طالب ﷺ أخذ اللواء بيمينه فقُطعت، فأخذه بشماله فقُطعت، فاحتضنه بعضده حتى قُتل ﷺ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة..[2]

وبهذه الصورة الرائعة الشجاعة الممتلئة إيماناً وحباً لله ولرسوله ولدينه، قدم الصحابي الجليل درساً من دروس التضحية والفداء، والقيادة الباسلة الشجاعة؛ التي لا تهاب الموت والأعداء، فقدم ﷺ درساً في الصبر على ملاقاة العدو، وتحمل أشد آلام القتال. فعوضه الله تعالى عن ذلك خير الجزاء، فعن أبي هريرة ﷺ قال (قال رسول الله ﷺ: مَرَّ بي جعفر الليلة في ملأ من الملائكة، وهو مخضب الجناحين بالدم، أبيض الفؤاد)[3] ولذلك فإن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (كان إذا سلم على ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين)[4] وفي هذه اللفتة التربوية الجميلة؛ من ابن عمر؛ ما تبين أهمية التشجيع؛ من خلال التذكير بمواقف البطولات للآباء، وبالنعم الخاصة التي تميز بها الإنسان.

وقد بلغ من شجاعة جعفر ﷺ أن الطعنات التي ارتسمت في جسده ﷺ أكثر من تسعين طعنة. فعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال: (...: كنت فيهم

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٢٠)

(2) المرجع السابق (٤/٢٠)

(3) الحاكم، المستدرك (٣/٢١٢)

(4) البخاري (٣/٢٤) برقم (٣٧٠٩)

في تلـــك الغـــزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب، فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية)[1]

فـــلما قُـــتل جعفر ﷺ أخذ عبد الله بن رواحة الراية، ثم تقدم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنـــزل نفسه، ويتردد بعض التردد، ثم قال :

أقسمتُ يـــا نفسُ لَتَنْزِلَنّـــهُ   لَتَنْزِلِنَّ أو لَـــتُكْرَهِـــنَّـــهْ
إن أَجْلَبَ الناسُ وشدّوا الرَّنّة   مالي أراك تَكرهين الجنـــةْ
قد طال ما قد كنت مطمئنة   هل أنت إلا نُطفة في شنة

وفي هـــذه الأبيات ما يدل على أن النفس تكره الموت، وتخاف القتل، ولكن يرخص ذاك للجنة، وفيه مجاهدة النفس على نقيض هواها، والقسم على الذات بفعل الخـــير وسلوكه، وفيه تصبير النفس وتشجيعها، ومعاتبتها على ما تهابه من سُبُل الجنة. وفيه تذكير النفس بحقيقة خلقتها؛ لتندفع للخير اندفاع المحب للجنة. فقدم ابن رواحة ﷺ أُسُسَـــاً تـــربوية ونفسية عميقة؛ لتفعيل كوامن النفس نحو الخير؛ بمضامين غاية في الدقة والانسجام، وممتلئة بمصارحة النفس، مع استبعاد تبريرات الخذلان التي تحول بين المرء وبين إدراك الحقيقة التي تفضي إلى مراتب العلو.

وقال أيضاً :

يا نفس إلا تُقْتَلي تموتي   هذا حِمَام الموت قد صَليت
وما تمنيت فقد أُعْطيت   إن تفعلي فِعْلهما هُديـــت

يريد صاحبيه: زيد وجعفر، ثم نـــزل. فلما نـــزل أتاه ابنُ عَمٍّ له بِعَرْق من لَحمٍ، فقـــال شُـــدَّ بهذا صُلبَك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده، ثم انْـــتَهَس منه نهسة، ثم سمع الحَطْمَة في ناحية الناس، فقال: وأنت في الدنيا ؟ ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قُتل.[2]

---

[1] البخاري (١٤٦/٣) برقم (٤٢٦١)

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (٢١/٤)

وفي هذا المشهد من الفوائد: التراحم ما بين القريب وقريبه، والشفقة عليه من خلال ما يلمسه ويشاهده عليه من الفاقة والحاجة، وفيه كذلك تزويد المجاهد بما يُقَوّم صـــلبه، حتى يتقوى به على العدو. وفيه شجاعة ابن رواحة وإقدامه، وإيثار الجنة على الدنـــيا، فلما سمع الحَطْمَة في ناحية الناس، أي أخذوا يحطم بعضهم بعضاً، عاتب نفسه على تلك النهسات من ذلك اللحم. وفيه أيضاً معاتبة النفس عند المجاهدة لتتحفز إلى المـــزيد من فعل الخير، من خلال إشعارها بالتواني والتراخي عن الخير. فلقد كرر ابن رواحـــة ﷺ أسلوب لوم الذات؛ بما يدفع النفس المؤمنة للخير وسلوكه، فلله درك يا ابن رواحة على هذا الأسلوب التربوي العملاق، الذي يتدفق أثره وتأثيره الإيماني.

وقـــد قال ﷺ عن شهداء مؤتة (...وما يَسرُّنِي ــ أو قال : ما يَسُرُّهُم ــ أنهم عندنا...)[١]

(...ثم أخذها خالد بن الوليد عن غير إمرة، ففتح الله عليه...)[٢] وفي هذا من الفوائـــد، ما نقله ابن حجر عن ابن المنير، قوله: يؤخذ من حديث الباب؛ أن من تعين لولايـــة وتعـــذرت مراجعة الإمام، أن الولاية تثبت لذلك المعين شرعاً، وتجب طاعته حكماً. ثم قال ابن حجر: كذا قال، ولا يخفى أن محله ما إذا اتفق الحاضرون عليه.[٣]

وذكر ابن هشام طريق وصول الراية إلى خالد بن الوليد، حيث قال: ثم أخذ الراية ثابت بن أقْرم أخو بني العجلان، فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد. فلما أخذ الراية دافع القوم، وحاشى بهم، ثم انحاز وانحِيز عنه، حتى انصرف بالناس.[٤]

---

[١] البخاري (٢/٣٧٧) برقم (٣٠٦٣)

[٢] البخاري (٢/٣٧٧) برقم (٣٠٦٣)

[٣] ابن حجر، فتح الباري (٦/١٨٠)

[٤] ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٢١ــ٢٢)

وفي مزيد عن كيفية صورة نهاية الغزوة، يقول ابن حجر رحمة الله تعالى عليه: وقد وقع في المغازي لموسى بن عقبة ـ وهي أصح المغازي كما تقدم ـ ما نصه: ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فَقُتل، ثم اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد، فهزم الله العدو وأظهر المسلمين، قال العماد ابن كثير: يمكن الجمع أن خالدا لما حاز المسلمين وبات، ثم أصبح وقد غير هيئة العسكر كما تقدم (أي جعل مقدمته ساقة، وميمنته ميسرة) وتوهم العدو أنهم قد جاء لهم مدد، حمل عليهم خالد حينئذ فولوا، فلم يتبعهم، ورأى الرجوع بالمسلمين هي الغنيمة الكبرى.[١]

وفي اختيار خالد بن الوليد ﷺ من قبل الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ وطريقة ذلك؛ ما يدل على أهمية وظيفة الإمارة والقيادة؛ وأن لا تترك شاغرة.

ومن فوائد هذا المشهد أن تُعْطَى القيادة والإمارة للأكفأ، وأن الزهد فيها أمام الجدير بها من كمال النفس، ودلالة الخُلُق الكريم؛ ومن فعل من يُقْتَدَى بهم.

وقد قاتل خالد بن الوليد ﷺ قتالاً باسلاً في هذه المعركة، يروي ذلك قيس ﷺ قال (سمعت خالد بن الوليد يقول: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية)[٢]

وفي هذا الحديث دلالة على قوة خالد بن الوليد الإيمانية والجسمية، وشجاعته القلبية، بما يجعله نموذجاً للقائد المسلم.

وبالرغم من ضراوة هذه المعركة إلا أن الذين قُتلُوا من المسلمين اثنا عشر رجلاً هم شهداء غزوة مؤتة، ذكر أسماءهم ابن هشام.[٣] وأما المقتولين من الأعداء، فيظهر أنهم كثير جداً؛ يدل عليه قول خالد بن الوليد ﷺ (لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف) فما انقطعت إلا من الضرب والقتل، فكيف ببقية المسلمين،

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٧/٥١٣ـ٥١٤)

(٢) البخاري (٣/١٤٦) برقم (٤٢٦٥)

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٣٠)

وجعفر الذي عقر فرسه، وقاتل حتى قُتِل، وابن رواحة الذي ترك نهسه للحمة في يده؛ وقاتل حتى قُتِل، وقبلهما زيد بن حارثة الذي قاتل حتى سال دمه في رماح القوم. فرضي الله تعالى عنهم أجمعين، فقد ضحوا بدمائهم في سبيل هذا الدين القويم، وأعطوا المثال الصادق للتربية النبوية المباركة، التي أخرجت هذه الكوكبة من المجاهدين الأفذاذ، أصحاب الهمم العالية؛ والإيمان الصادق؛ والفهم الثاقب؛ والعلم الذي أناروا به الطريق لمن بعدهم. فرضي الله تعالى عنهم أجمعين.

السرايا ما بين مؤتة وفتح مكة:

ـ سرية ذات السلاسل :

قـــيل في تسمية هذه السرية: أنها سميت بذات السلاسل لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفرّوا.[١] وقيل: وهو ماء لبني جذام بناحية الشام...وكانت هـــذه الغـــزوة في جمادى الأخرى، سنة ثمان من الهجرة، وكانت مؤتة قبله؛ في جمادى لأولى مـــن سنة ثمان أيضاً، قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: كانت ذات السلاسل بعد مؤتة فيما ذكره أهل المغازي إلا ابن اسحاق فقال قبلها.[٢]

فقـــد بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من قضاعة قد تجمعوا، يريدون أن يدنوا إلى أطـــراف المدينة، فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ﷺ فعقد له لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصـــار، ومعهـــم ثلاثـــون فرساً.[٣]

ويـــروي عمرو بن العاص خبر تأمير الرسول ﷺ له على هذه السرية، فيقول: (بعث إليّ رسول الله ﷺ فقال: خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني. فأتيته وهو يتوضأ، فَصَعَّدَ فيَّ النظر ثم طأطأه، فقال: إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغـــب لـــك من المال رغبة صالحة، قال: قلت: يا رسول الله ! ما أسلمت من أجل المـــال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ فقال: يا عمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح)[٤]

ويتـــبين من هذا الحديث معرفة الرسول ﷺ لقدرات عمرو بن العاص القيادية وشـــجاعته، وما سيكون منه من تفاعل لأمر رسول الله ﷺ إذ لم يخبره إلا بعد أن تجهز

---

[١] ابن حجر، فتح الباري (٧٤/٨)

[٢] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥٣/١٥)

[٣] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٣١/٢)

[٤] أحمد، المسند (١٩٧/٤) والحاكم (٢٣٦/٢)

عمـــرو بن العاص بسلاح الجهاد. ويستفاد من ذلك أن لولي الأمر أن يصدر أمره لمن يتوســـم فـــيه خصائص وظيفية معينة دون أن يستشيره. وأن على من كُلِّف بمهمة أو عمـــل لمصـــلحة المسلمين أن يقبلها. وفي الحديث معجزة نبوية؛ إذ أخبر الرسول ﷺ عمـــرو بـــن العـــاص ﷺ بما سيكون من أمره وأمر السرية، فقال ﷺ (فيسلمك الله ويغـــنمك) وفيه المحبة الصالحة من الرسول ﷺ للمال في يد عمرو بن العاص ﷺ وأن المـــال الصـــالح في يد المرء الصالح نعمة عظيمة، وكذلك فيه التمني للمرء الصالح بأن يرزقه الله تعالى المال الطيب المبارك.

وفي الحديث تزكية من النبي ﷺ لعمرو بن العاص ﷺ بأنه رجل صالح، حيث تمـــنى له النبي ﷺ المال، وأردف ذلك بقوله (يا عمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح) وفي الحديث أيضاً حسن الجواب من ابن العاص ﷺ والذي يدل على صلاحه، حيث قـــال ﷺ (يا رسول الله ! ما أسلمت من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ)

وفـــيه بيان حقيقة نعمة كثرة المال عند المسلم الصالح، وأنه مطلوب لمن كان صـــالحاً، لمـــا سيكون من صرفه في أوجه الخير، والاستعانة به على الخير. وأن المال لا يمدح كثرته عند الفاجر، ويمدح في يد الصالحين.

فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافع بن مَكيث الجهني إلى رســـول الله ﷺ يســـتمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين، وعقد له لواء، وبعـــث معه سراة المهاجرين والأنصار، وفيهم أبو بكر وعمر، وأمره أن يلحق بعمرو، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا.[1]

وفي هـــذا المشهد حَذَرُ عمرو ابن العاص من لقاء الجمع الكثير للعدو بما معه من المسلمين، مما يبين أن الحذر والاستعداد مما يستعان به على النصر.

---

[1] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٣١)

ولما أن في الجيش أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما تحت قيادة أبي عبيدة؛ ثم تحت قيادة عمرو بن العاص، دل ذلك كما قال ابن حجر على جواز تأمير المفضول على الفاضل إذا امتاز المفضول بصفة تتعلق بتلك الولاية. ومنقبة لعمرو بن العاص لتأميره على جيش فيهم أبو بكر وعمر، وإن كان ذلك لا يقتضي أفضليته عليهم، لكن يقتضي أن له فضلاً في الجملة.[1] وكذلك فيه فضيلة لأبي عبيدة بن الجراح ﷺ.

وهذا يبين أن على الفاضل القبول بأن يكون تحت إمرة المفضول، وليس في ذلك غضاضة عليه، ففضله محفوظ. وفيه كذلك المنهجية الإدارية الإسلامية الراقية؛ التي تعنى بالخصائص المختلفة للناس، واستثمارها في أخوة بينية راقية كذلك. وفيه تدريب وتوطين النفس على الرئاسة وعلى التبعية للمرؤوس. وفيه أهمية مراعاة الفوارق الفردية والخصائص الإنسانية في الجوانب الإدارية والقيادية.

وفي المشهد كذلك النصيحة والوصاية من ولي الأمر لأتباعه بما يناسب واقع الأمر وحاله. وفيه كذلك عدم المجاملة في الجوانب القيادية وفي مصلحة المسلمين، لأن رسول الله ﷺ لم يجامل في أمر القيادة الصحابيين الجليلين أبا بكر وعمر على ما لهما عنده من مكانة رفيعة، فرضي الله تعالى عن الجميع.

وهذا الأمر من التأمير أحدث في نفس عمرو شيئاً ﷺ قال عنه: (بعثني رسول الله ﷺ على جيش ذات السلاسل، وفي القوم أبو بكر وعمر، فحدثت نفسي أنه لم يبعثني على أبي بكر وعمر إلا لمنزلة لي عنده، قال: فأتيته حتى قعدت بين يديه، فقلت يا رسول الله من أحب الناس إليك ؟ ...)[2] وهذا نص السؤال والجواب من صحيح البخاري، عن أبي عثمان ﷺ (أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته فقلت: أي الناس أحبُّ إليك ؟ قال: عائشة. قلت: من

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٧٥/٨)

[2] ابن كثير، البداية والنهاية (٢٧٤/٤)

الـــرجال ؟ قال: أبوها. قلت: ثم من ؟ قال: عمر. فعدَّ رجالاً. فسكتُّ مخافة أن يجعلني في آخرهم)[1]

وفي هذا البيان من عمرو بن العاص ﷺ وفي هذه المحادثة مع رسول الله ﷺ ما يـــدل على صلاح عمرو بن العاص ﷺ إذ أفصح للناس عن ما كان يدور في خلجاته، ولم يخــف عـــن الناس جواب رسول الله ﷺ الذي عدَّ رجالاً سابقين في مكانتهم له، وكذلـــك يتبين عدم مجاملة رسول الله ﷺ له، مما يفيد المسلم؛ أن عليه التزام الصدق وعدم المجاملة في أي دائرة من دوائر الحياة الاجتماعية،، وأن لا تَحُول محبته لأحد دون تحقـــيق مصـــلحة المسلمين، أو أن تكون المجاملة على حساب أمر من أمور الدولة أو الإدارة أو الجهـــة التي يعمل فيها الإنسان. كذلك أن من كُلّف بعمل وأُضيف إليه من هو أفضل منه، أن يبقى الفاضل والمفضول على ما هما عليه.

وبالـــتالي فإن من المبادئ الإدارية التي يمكن أن تُستفاد أيضاً، أن على المرء أن يقـــبل حقـــيقة الأمر، ويدرك أن هناك فرق بين المحبة وإعطاء الوظيفة أو المهمة، وأن إعطاءهـــا لا ينـــبجس في الإسلام من المحبة، بل تنطلق من اعتبارات المصلحة ومقدار تحققها في المكلف.

وفـــيه كذلك الاستفهام عن حقيقة الأمر إذا اختلج في النفس شيء؛ مخافة ما يترتـــب على ذلك الاختلاج. وفي جوابه ﷺ منقبة ومنـــزلة رفيعة لأم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، وفيه كذلك أنه لا حياء في الدين، ولا عيب في ذكر مقدار حب الـــرجل لزوجته، وكذلك ذكر اسمها على الناس. وفيه كذلك منقبة لأبي بكر الصديق ﷺ إذ هو أحب الرجال لرسول الله ﷺ وأنعم وأعظم بها من منقبة، وفيه كذلك منقبة شريفة وعظيمة لعمر الفاروق ﷺ إذ أنه الثاني محبة عند رسول الله ﷺ

---

[1] البخاري (٣/١٦٤) برقم (٤٣٥٨)

وبعد الالتقاء أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس. فقال عمرو: إنما قدمت عليَّ مدداً، وأنا الأمير، فأطاع له بذلك أبو عبيدة، وكان عمرو يصلي بالناس.[1]

وفي هذا النص ما يدل على أن للقائد أن لا يتنازل عن حقوقه الوظيفية أو عن شيء منها، وله أن يسترجع أو يمنع ما يؤخذ منها، ولا غضاضة في ذلك، وأن على من منعه القائد من بعض أو كل صلاحياته أن يقبل بذلك ويطيع ولا يتأثر، حيث ضرب أبو عبيدة بن الجراح ﷺ المثل الإسلامي في هذا الباب، فأطاع لعمرو بن العاص في ذلك، فرضي الله تعالى عن الجميع.

وكان عمرو هو الذي يتولى إمامة المسلمين في تلك الغزوة، وفي البخاري (يذكر أن عمرو بن العاص أجنب في ليلة باردة فتيمم وتلا (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما) فذكر للنبي ﷺ فلم يُعنِّف)[2]

وفي عدم تعنيف الرسول ﷺ لعمرو دلالة على أن الجنب إذا خاف على نفسه المرض أو الموت؛ أو خاف العطش تيمم، كما هو تبويب الإمام البخاري[3] وقال ابن حجر: وجواز صلاة المتيمم بالمتوضئين.[4] وفيه كذلك الاجتهاد بالدليل لا بالرأي.

وسار حتى وطئ بلاد بَليّ وَدَوّخهَا حتى أتى إلى أقصى بلادهم، وبلاد عُذرة وبلقين،[5] ولقي في آخر ذلك جمعاً فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا.[6]

---

[1] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٣١) وابن حجر، فتح الباري (٧٤/٨)

[2] البخاري (١٣٠/١) باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش. وعند الحاكم مفصلاً (١٧٧/١)

[3] من تبويب البخاري (١٣٠/١)

[4] ابن حجر، فتح الباري (٤٥٤/١)

[5] وأما القبائل المذكورة فالثلاثة البطون من قضاعة، أما بَلِي: فهي قبيلة كبيرة يُنسبون إلى بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، وأما عُذْرة فقبيلة كبيرة يُنسبون إلى عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن ليث بن سويد بن أسلم.. وأما بنو القين: فقبيلة كبيرة يُنسبون إلى القين بن جسر. ابن حجر، فتح الباري (٧٤/٨)

[6] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٣١/٢)

عن بريدة عن أبيه رضي الله تعالى عنهما قال (... فلما انتهوا إلى مكان الحرب أمــرهم عمــرو أن لا ينوروا ناراً، فغضب عمر وهَمَّ أن ينال منه، فنهاه أبو بكر ﷺ وأخبره أنه لم يستعمله رسول الله ﷺ عليك إلا لعلمه بالحرب، فَهَدَأ عنه عمر ﷺ)[1]

فــلما انصــرفوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فسأله، فقال: كرهتُ أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد. فحمد أمره.[2]

ويدل هذا على عمق تفكير عمرو بن العاص؛ وتحسبه للعدو، والأخذ بالحذر بمـا يحقــق المصلحة. ويستفاد من ذلك أنه يلزم القائد أن يمعن النظر والفكر بما يحقق سلامة المسلمين من عدوهم، وأن يكون حذراً فطناً.

ويســتفاد من ذلك تباين الناس في الآراء والأفهام للقضية الواحدة. وكذلك أهمية النصيحة وعدم التشجيع على الفرقة، وفيه كذلك الإذعان من الصحابة لتوجيه رسول الله ﷺ وتسليمهم للقائد أو الأمير، وإن اختلفوا معه في أمر. وفيه أن للقائد أن لا يُخبر بعلة النهي أو الأمر.

ثم قفــل عمــرو بــن العاص ﷺ وبعث عوف بن مالك الأشجعي بريداً إلى رسول الله ﷺ فأخبره بِقُفُلِهم وسلامتهم، وما كان في غزاتهم.[3]

سرية أبي حَدْرَد إلى الغابة :

أقــبل رجــل من بني جُشَم بن معاوية، يقال له : رفاعة بن قيس أو قيس بن رفاعــة في بطــن عظيم من بني جُشَم، حتى نــزل بقومه ومن معه من الغابة، يريد أن يجمع قيساً على حرب رسول الله ﷺ وكان ذا اسم في جُشَم وشرف. فدعا رسول الله

---

[1] الحاكم، المستدرك (٣/٤٢ـــ٤٣)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٨/٧٥)

[3] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٣١)

ﷺ أبا حدرد الأسلمي ورجلين من المسلمين ليخرجوا إليه، فخرجوا؛ وتمكن أبو حدرد من قتل رفاعة بن قيس، وهرب قومُه، واستاقوا إبلاً عظيمة وغنماً كثيرة.[1]

سرية أبي قتادة إلى بَطْن إضم :

عــن عـــبد الله بـــن أبي حدرد، قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى اضم في نفر من المســـلمين، فيهم أبو قتادة، الحارث بن ربعي، ومحلّم بن جثامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كـــنا بـــبطن اضم مرَّ بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قَعُود له، ومعه مُتَيِّع له، ووطـــب مـــن لـــبن، (أي وعاء من لبن) قال: فلما مر بنا سلَّم علينا بتحية الإسلام، فأمســـكنا عـــنه، وحمل عليه محلّم بن جثامة، فقتله لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومُتَيِّعَه، قـــال: فلما قدمنا على رســـول الله ﷺ وأخبرناه الخبر نـــزل فينا قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤﴾[2][3]

وفي هذه الآية القرآنية الكريمة ما يؤكد عناية الإسلام بالتبين والتأكد، وأن لا يُـــتَّخَذ التكفير وسيلة لابتغاء عرض الدنيا، وذلك بنفي الإيمان عنه. قال ابن سعدي: فـــلا يحملنكم العرض الفاني القليل على ارتكاب ما لا ينبغي، فيفوتكم ما عند الله من الـــثواب الجزيل الباقي، فما عند الله خير وأبقى. وفي هذا إشارة إلى أن العبد ينبغي له إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة فيها هوى ـــ وهي مضرة ـــ أن يذكرها ما أعد

---

[1] ابـــن هشـــام، السيرة النبوية (٤/٢٧٨ــ ٢٧٩) والمسند لأحمد (٦/١١ــ١٢) وقال محققوا المسند، الشيخ شعيب الأرنؤوط وآخرون: إسناده ضعيف (٣٩/٣١٠ــ٣١٣) طبعة الموسوعة الحديثية.

[2] سورة النساء: آية رقم (٩٤)

[3] ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٢٧٥)

الله لمـــن نهى نفسه عن هواها، وقدم مرضاة الله على رضا نفسه، فإن في ذلك ترغيب للنفس في امتثال أمر الله وإن شق ذلك عليها.[1]

ومــا مَكَث محلم بن جثامة إلا سبعاً حتى مات، فلفظته الأرض، ثم عادوا له، فلفظته الأرض، ثم عادوا فلفظته، فلما غُلب قومه؛ عمدوا إلى صُدَّين ـ أي جبلين ـ فسطَحوه بينهما، ثم رضموا عليه الحجارة حتى وارَوْه، فبلغ رسولَ الله ﷺ شأنه، فقال: (والله إن الأرض لـــتطابق على من هو شر منه، ولكن الله أراد أن يَعِظكم في حُرْم ما بينكم بما أراكم منه)[2]

ويســـتفاد من ذلك شناعة قتل النفس المؤمنة، وأثر الموعظة الحسية، وأن الله لطيف بعباده إذ يعظهم بما يحفظهم به، وأنه يلزم المؤمن أن يحفظ حدود الله، والتي منها حفظ الدماء المعصومة، ويعلم أن الله على كل شيء قدير.

---

(1) عبد الرحمن بن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٨٩/١)

(2) ابن هشام، السيرة النبوية (٣٧٧/٤)

الفصل الثاني عشر

من غزوة فتح مكة إلى غزوة حنين

غزوة فتح مكـــة:

كان من شروط صلح الحديبية: أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل فيه. ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه. فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده. فلما كانت الهدنة عَدَت بنو بكر على خزاعة وهم على الوتيرـ وهو ماء لهم أسفل مكة ـ فأصابوا منهم. وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم.

فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منهم ما أصابوا، ونقضوا مـــا كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق؛ بما استحلوا من خزاعة؛ خرج عمـــرو بن سالم الخزاعي حتى قَدِمَ على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: (نُصِرْتَ يـــا عمرو بن سالم، ثم عرض لرسول الله ﷺ عَنان من السماء، فقال: إنَّ هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب)

ثم خـــرج بُدَيـــل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فأخبروه بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم.[١]

وفي جواب رسول الله ﷺ لعمرو بن سالم الخزاعي ما يفيد نُصْرَة الحليف على من خان الميثاق، وأن لا يخذلهم، بما يؤكد أن منهج الإسلام يحترم المواثيق والأحلاف، ويعطيها من الحق والنصرة ما تستحق. فكيف لو كان هذا الحلف مع جماعة مسلمة ؟ لكان ذلك أدعى.قال ابن قيم الجوزية رحمة الله عليه: أن أهل العهد إذا حاربوا من هم في ذمة الإمام وجواره وعهده صاروا حرباً له بذلك، ولم يبق بينهم وبينه عهد.[٢]

---

[١] ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٣١ــ٣٧) وابن حجر، فتح الباري (٧/٥١٩ــ٥٢٠)

[٢] ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٣/٤٢٠)

ولم يغز رسول الله ﷺ قريشاً حتى بعث إليهم ضمرة يخيرهم بين إحدى ثلاث: أن يودوا قتيل خزاعة، وبين أن يبرأوا من حلف بكر، أو ينبذ إليهم على سواء. فأتاهم ضمرة فخيرهم، فقال قرظة بن عمرو: لا نودي ولا نبرأ، ولكننا ننبذ إليه على سواء، فانصرف ضمرة بذلك. فأرسلت قريش أبا سفيان يسأل رسول الله ﷺ في تجديد العهد.[1]

ويفيد هذا أن للإمام أن يخير من نقض العهد والميثاق بما يراه مناسباً، ويحقق مصلحة المسلمين، وقد اختارت قريش القتال.

فخافت قريش، فانطلق أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية ! ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر.[2]

لقد بينت أم حبيبة زوج النبي ﷺ بهذا السلوك التطبيق الشرعي لمنهج الإسلام، فبينت نجاسة المشرك، وتقديم محبة رسول الله ﷺ على محبة أبيها، وعدم الاكتراث بمنزلة والدها طالما أنه مشرك، وفيه المجاهرة بقول الحق لأبيها. وفيه اختلاف أحكام الناس باختلاف المقاييس المتأثرة بنوع الدين، فأبو سفيان يرى أن هذا التصرف من ابنته شر قد أصابها؛ وهي ترى من خلال منهج الإسلام أن هذا هو المسلك الحقيقي والطبيعي. وفيه كذلك الجمال اللفظي لأسلوب أبي سفيان حيث قال لابنته: ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ فالجمال اللفظي كان في حسن تركيب الكلمات التي تساءل بها.

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٦/٨)

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (٣٨/٤)

وبعد لقائه بابنته توجه إلى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئاً. ثم ذهب إلى أبي بكر ﷺ فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب ﷺ فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به. ثم خرج فدخل على عليٍّ بن أبي طالب ﷺ ...فقال له: فاشفع لي إلى رسول الله. فقال: ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة فقال: يا بنت محمد ! هل لك أن تأمري بُنَيِّك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت: والله ما بلغ بُنيَّ ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحدٌ على رسول الله ﷺ قال: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت عليَّ فانصحني، فقال: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك. قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً ؟ قال: لا والله؛ ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيها الناس إني قد أجرتُ بين الناس، ثم ركب بعيره فانطلق. فأخبر قريشاً بذلك، فقالوا له: فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال: لا. قالوا: ويلك ! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت. قال: لا والله، ما وجدت غير ذلك.[1]

وفي رواية: فقال لأبي بكر: جدد لنا الحلف، قال: ليس الأمر إليَّ. ثم أتى عمر فأغلظ له عمر. ثم أتى فاطمة فقالت له: ليس الأمر إليَّ.[2]

وفي هذه الإجابات من أصحاب رسول الله ﷺ ما يدل على صدقهم في الحديث؛ وعدم مجاملتهم لأقاربهم من الكفار. واحترامهم لإرادة رسول الله ﷺ فلم يخاطبوه في هذا الأمر الذي جاء من أجله أبو سفيان. وفي قول قريش لأبي سفيان: ويلك ! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت. فيه ما يدل على صدق وذكاء وفطنة علي بن أبي طالب ﷺ

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٣٨ـ٣٩) وفي الفتح مختصراً.(٨/٧)

(2) ابن حجر، فتح الباري (٨/٦ـ٧)

وفيه من الفوائد أن رسول الكفار لا يُقتل، فإن أبا سفيان كان ممن جَرَى عليه حكم انتقاض العهد؛ ولم يقتله رسول الله ﷺ [1]

وأمَرَ رسول الله ﷺ بالجهاز، وأمَرَ أهله أن يجهزوه، ثم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجِدِّ والتهيؤ، وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نَبْغَتها في بلادها، فتجهز الناس.[2]

وتفيد هذه الرواية أن لولي الأمر أن يباغت العدو الذي نقض الميثاق والعهد. قال ابن القيم: ولا يحتاج أن يعلمهم على سواء.[3]

وفي أثناء ذلك حدث موقف عجيب من صحابي جليل، قد شهد بدراً، ويروي ذلك المحدث عبد الله بن أبي رافع، فيقول (سمعت علياً رضي الله عنه يقول: بَعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[4] ، فإن بها ظعينة[5] معها كتاب فخذوه منها، قال: فانطلقنا تَعادَى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتُخرِجَنَّ الكتاب أو لنُلقِينَّ الثياب، قال: فأخرجته من عِقاصها[6] ، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة ــ إلى ناس بمكة من المشركين ــ يُخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ ...)[7]

---

[1] ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٣/٤٢٢)

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٣٩ــ٤٠)

[3] ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٣/٤٢٠)

[4] موضع بين مكة والمدينة. النووي،صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/٥٥)

[5] الظعينة هنا الجارية،وأصلها الهودج، وسميت بها الجارية لأنها تكون فيه، واسم هذه الظعينة سارة مولاة لعمران بن أبي صيفي القرشي. النووي،صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/٥٥)

[6] أي شعرها المضفور، وهو جمع عقيصة النووي،صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/٥٦)

[7] البخاري (٣/١٤٧ــ١٤٨) برقم (٤٢٧٤)

وفي هــذا معجــزة ظاهرة لرسول الله ﷺ وفيه هتك أستار الجواسيس بقراءة كتــبهم؛ سواء كان رجلاً أو امرأة، وفيه هتك ستر المفسدة إذا كان فيه مصلحة، أو كان في الستر مفسدة، وإنما يندب الستر إذا لم يكن فيه مفسدة ولا يفوت به مصلحة، وعلى هذا تحمل الأحاديث الواردة في الندب إلى الستر.[1]

وفي تعامله ﷺ مع القضية درسٌ تربويٌ وإداريٌ وخُلُقيٌ، كما يتضح من نص مــتابعة الحديــث (...فقال رسول الله ﷺ : يا حاطب ما هذا ؟ قال: يا رسول الله لا تعجــل عليَّ، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش ــ يقول: كنت حليفاً ــ ولم أكن من أنفُســها، وكــان من معكَ من المهاجرين مَن لهم بها قَراباتٌ يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببــت إذا فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يَحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام،...)[2]

وفي الحديث المنهجية الخُلُقية والتربوية والإدارية الإسلامية في التعامل مع هذا الموقــف. ففيه السؤال عن علة الصنيع، وتقديمه على الحكم، وعدم التسرع في تفسير الحــدث، وفــيه طيب المعاملة منه ﷺ أن باشر عليه الصلاة والسلام سؤاله بلفظ (يا حاطب)

وفي تعلــيل حاطــب ﷺ لمــا قام به بيان لما قد يحدث للنفس البشرية؛ وما يعترضها. ويقابل ذلك المنهج الإسلامي؛ الذي يتعامل معها وفق طبيعتها، ولا يُجَرّدْها ممــا قد يعترضها ويعتريها، بل ينصفها حتى في أحلك الظروف وأصعب المواقف، كما يتبين من جواب رسول الله ﷺ التالي: (... فقال رسول الله ﷺ : أما إنه قد صدَقَكم. فقــال عمــرُ: يا رسول الله، دعني أضربُ عُنُقَ هذا المنافق. فقال إنه شهد بدراً، وما يدريــك لعــل الله اطلّع على من شهد بدراً، قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. فأنزل الله السورة (الممتحنة:١) (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء

---

[1] النووي،صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/٥٥)

[2] البخاري (٣/١٤٧ــ١٤٨) برقم (٤٢٧٤)

تُلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ــ إلى قوله ــ فقد ضل سواء السبيل)[١] ففي جواب حاطب ﷺ الصدق، كما شهد له رسول الله ﷺ بذلك.

وفي هذه المسألة باب عظيم من أبواب معرفة الله سبحانه وتعالى وحكمته في خلقه وأمره وثوابه وعقابه، وأحكام الموازنة.[٢] فبقدرة الله تعالى وعلمه ومَنِّه وكرمه وجوده كان حاطب بن أبي بلتعة ضمن من شهد بدر، وهو العالم سبحانه وتعالى بما سيصدر عنه من هذا الأمر ومن غيره. فلله الحكمة البالغة. فلقد علمنا ربنا جلَّ جلاله بهذا الموقف أنه فعال لما يريد. وقد علمنا ﷺ الإذعان لأمر الله تعالى، بالرغم مما حصل من حاطب في حق رسول الله ﷺ فأنزل النبي الكريم ﷺ حاطب في المنزلة التي أرادها الله تعالى لأهل بدر. وهو الصحابي الذي قاتل المشركين يوم بدر، وقرابته بين أظهر المشركين في مكة، قال ابن القيم: فتأمل قوة إيمان حاطب التي حملته على شهود بدر، وبذله نفسه مع رسول الله ﷺ وإيثاره الله ورسوله على قومه وعشيرته وقرابته، وهم بين ظهراني العدو، وفي بلدهم، ولم يثن ذلك عِنان عزمه، ولا فَلَّ من حَدِّ إيمانه ومواجهته للقتال.[٣] وفيه كذلك فضيلة أهل بدر، وكذلك فضيلة حاطب كونه من أهل بدر، وشهد الحديبية.

وفيه من الفوائد أن يُنْظَرَ في الحكم العام على الأشخاص من خلال جميع معطياهم، لا من خلال آخر زلاهم. وهذا لا يعني الغاء الحكم الشرعي من خلال النظرة العامة. ولكن أن لا تُسقط محاسن الفرد بالزلة الواحدة؛ فَيُذَم ويُرمى بآخر ما صدر عنه من زلة أو هفوة، فيتم التعامل معه من خلال ذلك. وفيه أهمية استيعاب ولي الأمر والأمة وأفراد المجتمع لمن يخطئ من المسلمين، أو يصدر فيه حكم شرعي.

---

[١] البخاري (٣/١٤٧ــ١٤٨) برقم (٤٢٧٤)

[٢] ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٣/٤٢٧)

[٣] المرجع السابق (٣/٤٢٦)

وحتى في حالة إقامة الحد فإنه لا يُسْقَط من المجتمع؛ بل يَلزم قبوله واحتواؤه، فلقد طُبِّق الحد على من كان بدرياً؛ ولم يسقط عنه عطاء الله تعالى، قال الإمام النووي عند قوله ﷺ (لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) قال العلماء: معناه الغفران لهم في الآخرة، وإلا فإن تَوَجَّه على أحد منهم حدّ أو غيره أقيم عليه في الدنيا، ونقل القاضي عياض الإجماع على إقامة الحد، وأقامه عمر على بعضهم، قال وضرب النبي ﷺ مسطحاً الحد وكان بدرياً.[١]

ومن فوائد الأحكام ما قاله الإمام النووي: فيه أن الجاسوس وغيره من أصحاب الكبائر لا يكفرون بذلك. وهذا الجنس كبيرة قطعاً، لأنه يتضمن إيذاء النبي ﷺ وهو كبيرة بلا شك. وفيه أنه لا يُحد العاصي ولا يُعزَّر إلا بإذن الإمام، وفيه إشارة جلساء الإمام والحاكم بما يرونه، كما أشار عمر بضرب عنق حاطب.[٢] وفيه أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تُكَفَّر بالحسنة الكبيرة الماحية، كما وقع الجَسُّ من حاطب مكفراً بشهوده بدراً.[٣]

ثم تَتَتابع أمور غزوة مكة المباركة، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (أن النبي ﷺ خرج في رمضان من المدينة؛ ومعه عشرة آلاف، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمه المدينة، فسار هو ومن معه من المسلمين إلى مكة، يصوم ويصومون، حتى بلغ الكديد ـــ وهو ماء بين عسفان وقُديد ـــ أفطر وأفطروا)[٤]

وفي هذا الحديث ما يدل على تكاثر عدد المسلمين، فقد تضاعف ما بين صلح الحديبية إلى مسيرة مكة، فكان في صلح الحديبية ألف وخمسمائة تقريباً، ثم بلغ عشرة

---

[١] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/٥٦ـــ٥٧)

[٢] النووي،صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/٥٥)

[٣] ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٣/٤٢٣ـــ٤٢٤)

[٤] البخاري (٣/١٤٨) برقم (٤٢٧٦)

آلاف خــلال ســنتين، حيــث كان صلح الحديبية في مستهل ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة النبوية المباركة. وفيه من الفوائد الفطر للصائم في السفر.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (سافر رسول الله ﷺ في رمضان، فصام حتى بلغ عسفان، ثم دعا بإناء من ماء، فشرب نهاراً ليراه الناس، فأفطر حــتى قَــدِم مكة)[1] وفي هذا الحديث التوجيه بالفعل والقدوة، حيث دعا بإناء ﷺ من ماء فشرب نهــاراً ليراه الناس. وهذا يؤكد أهمية الإعلام والتوجيه بالقدوة، فإن تأثيرها أبلغ.وهو الأسلوب الذي يُركز عليه المنهج الإسلامي.

وفي الجحفــة لقي النبي ﷺ العباس مهاجراً بعياله، وكان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته، ورسول الله ﷺ عنه راضٍ[2] وقد أسلم قبل فتح خيبر.[3] ولعل بقاءه في مكة كان لمصلحة رآها رسول الله ﷺ فكان عنه راضٍ.

عــن هشام عن أبيه قال (لما سار رسول الله ﷺ عام الفتح، فبلغ ذلك قريشاً، خــرج أبــو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبُدَيل بن ورقاء، يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مرَّ الظهران، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة، فقال أبو سفيان: ما هذه ؟ لكأنها نيران عرفة. فقال بُدَيل بن ورقاء: نيران بني عمرو. فقال أبو سفيان: عمرو أقل من ذلك. فرآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم، فأتوا بهم رسول الله ﷺ ...)[4]

وفي هذا بيان أهمية أثر إظهار قوة المسلمين أمام الكفار، لما تُحدثه من أثر فاعل في قلوب الأعداء، وتغرس هيبة ومهابة في نفوسهم للمسلين. وفيه أهمية اتخاذ الحراسة المــتحركة. وأن من قُبِض عليه من الأعداء يُبَلَّغ به ولي الأمر، لأنه المعني باتخاذ ما يراه

---

[1] البخاري (١٤٨/٣) برقم (٤٢٧٩)

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (٤٢/٤)

[3] أحمد، المسند (١٣٨/٣ــ١٣٩)

[4] البخاري (١٤٩/٣) برقم (٤٢٨٠)

مناسباً؛ ولتكتمل أيضاً الصورة في ذهنه عن ما يدور حول المسلمين، وما يقوم به العدو من أعمال أو تجهيزات.

وقد كان في قدوم هؤلاء النفر خير للمسلمين؛ حيث أسلم أبو سفيان، فعن هشام عن أبيه، قال:(...فأسلم أبو سفيان...)[1] فدخل بديل وحكيم على رسول الله ﷺ فأسلما.[2]

ولما أسلم أبو سفيان، قال العباس رضي الله عنه للنبي ﷺ : يا رسول الله ! إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر؛ فاجعل له شيئاً، قال: نعم. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن؛ ومن دخل المسجد فهو آمن.[3]

وفي هذا الاقتراح من العباس رضي الله عنه وقبوله من النبي ﷺ ما يدل على أهمية مراعاة الجوانب النفسية؛ وخصائص الطبائع البشرية في مجال الخير، واستغلالها بما يربي النفس ويثبتها على الطاعة؛ ويشحذها بما تُحب إلى ما يحبه الله ورسوله من أعمال الخير والبر، والتي في مقدمتها إخراج الإنسان من الكفر إلى الإيمان.

وقبل رحيل أبي سفيان إلى قومه وجَّه النبي ﷺ العباس رضي الله عنه بتوجيه حيال أبي سفيان : (...فلما سار قال للعباس: أحبس أبا سفيان عند خطم الجبل؛ حتى ينظر إلى المسلمين. فحبسه العباس، فجعلَت القبائل تمر مع النبي ﷺ : تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان، فمرت كتيبة، فقال: يا عباس من هذه ؟ فقال: هذه غِفار، قال: مالي ولغفار. ثم مرت جهينة، قال: مثل ذلك. ثم مرت سعد بن هذيل، فقال: مثل ذلك. ومرت سليم، فقال: مثل ذلك. حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، قال: من هذه ؟ قال: هؤلاء الأنصار، عليهم سعد بن عبادة؛ معه الراية، فقال سعد بن عبادة: يا أبا سفيان اليوم

---

[1] البخاري (٣/١٤٩) برقم (٤٢٨٠)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٨/٧)

[3] ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٤٦)

يوم الملحمة، اليوم تُستحل الكعبة. فقال أبو سفيان: يا عباس ! حبذا يوم الذمار.[1] ثم جــاءت كتيبة ــ وهي أقل الكتائب ــ فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وراية النبي ﷺ مع الزبير بن العوام...)[2]

وفي حــبس أبي سفيان عند أنف الجبل، لكونه مضيقاً للوادي، وليرى كتائب المســلمين وقوتهــم فيخــبر بها قريش، وفي هذا أهمية النشر الإعلامي لقوة المسلمين، وإظهار ترسانتهم الحربية وكتائبهم للعدو، وإجراء الاستعراضات التي تُرهب عدو الله، واتخاذ الوسائل والسُبُل التي تحقق النشر الإعلامي، وتُوصِل الرسالة العسكرية للعدو.

وتــبين روايــة هشام عن أبيه مزيداً من تفاصيل تواجد أبي سفيان في معسكر المسلمين: (...فلما مرَّ رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة ؟ قال: ما قال ؟ قال: قال: كذا وكذا. فقال: كذب سعد، ولكن هذا يومٌ يُعَظِّم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة...)[3]

ويتــبين مــن جواب رسول الله ﷺ لأبي سفيان أهمية تصويب الخطأ لفظاً أو فكــراً، وقوله ﷺ عن كلام سعد (كذب) أي أخطأ. وفيه من الفوائد: إطلاق الكذب على الإخبار بغير ما سيقع؛ ولو كان قائله قد بناه على غلبة ظنه؛ وقوة القرينة، وقوله ﷺ (يــوم يعظــم فــيه الكعبة) يشير إلى ما وقع من إظهار الإسلام وأذان بلال على ظهــرها، وغير ذلك مما أُزيل عنها مما كان فيها من الأصنام؛ ومحو ما فيها من الصور وغير ذلك. وقوله ﷺ (ويوم تُكْسَى فيه الكعبة) قيل أن قريشاً كانوا يكسون الكعبة في رمضان؛ فصادف ذلك اليوم، فأشار النبي ﷺ أنه هو الذي يكسوها ذلك العام، ووقع ذلك.[4]

---

[1] أي يوم الهلاك. ابن حجر، فتح الباري (٨/٨)

[2] البخاري (٣/١٤٩) برقم (٤٢٨٠)

[3] البخاري (٣/١٤٩) برقم (٤٢٨٠)

[4] ابن حجر، فتح الباري (٨/٩ـــ١٠)

وفي جوابه ﷺ تواضعه ومحبته لأن تكون الأمور كما يجب أن تكون دون مبالغة. ففي قوهم ما يغنيهم عن التهويل والتضخيم.

وقد أخذ ﷺ الراية من سعد بن عبادة، ودفعها لابنه قيس، وقيل أنه دفع الراية إلى الزبير بن العوام. قال ابن حجر في الجمع بين الروايات في موضوع الراية التي أخذها رسول الله ﷺ من سعد بن عبادة: والذي يظهر في الجمع أن علياً أُرسل بنزعها؛ وأن يدخل بها، ثم خشي تغير خاطر سعد، فأمر بدفعها لابنه قيس، ثم أن سعد خشى أن يقع من ابنه شيء ينكره النبي ﷺ فسأل النبيَ ﷺ أن يأخذها منه، فحينئذ أخذها الزبير.[1]

وفي سبب هذا التعليل لابن حجر ــ رحمة الله تعالى عليه ــ لما ترسخ عنده من مراعاة رسول الله ﷺ لأحوال أصحابه، وعنايته بهم، وفي نفس الوقت لا يجامل منهم أحداً فيما يجهلون، وهذا الأثر التربوي قد تركز في طباعهم؛ وانعكس على سلوكهم، حتى أن سعداً ﷺ يطلب من رسول الله ﷺ أن يأخذ الراية من ابنه خشية أن يقع منه ما ينكره رسولُ الله ﷺ

وفي هذا الموقف تظهر عظمة خُلُقه ﷺ وحرصه على سعد وعلى مجريات الفتح، ثم مراعاته لنفسية الصحابي سعد بن عبادة ﷺ فيعطي الراية لابنه قيس ﷺ فيظهر العجب من سعد في محبته للرسول ﷺ من أن يظهر من ابنه ما لا يرضاه رسولُ الله ﷺ فيطلب أن تؤخذ الراية منه، فهي محبة متبادلة. وإنه لمجتمع قد حوته وتخللته وتنسمته الروح الاجتماعية الإسلامية؛ بكل أنفاسها العطرة، ليقدموا القدوة لمن بعدهم في دائرة الإدارة والقيادة، وغيرها من مساحات التعامل العريضة.

ثم إن في هذا النمط من التعامل ما يربي في الأعوان الرضا بتبادل الأدوار القيادية وغيرها من المهام؛ حسب ما تقتضيه المصلحة، مما يزكو بالنفس ويرتقي بها إلى السمو في السلوك الإداري، وينتزع منها بواعث الكبر وحب الذات؛ والاستئثار على

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٩/٨)

الإخــوان، بل ويغرس فيها عمقاً فكرياً تظهر مظاهره في الاستقرار النفسي أثناء تبادل الأدوار، فيسلك بها مسلكاً نفسياً عميق الأثر، ومن ثَمَّ يتقوى بها المسلك الإداري.

ويفـيـد هــذا أهمــية تغيير القرار بما تقتضيه المصلحة، وبما يتبين مما يطرأ من التصــرفات. وفــيه أن يقــبل المرء بما يؤخذ منه أو يوكل إليه من مهام. وفيه مراعاة المصلحة، مع مراعاة تطيب النفس أثناء اتخاذ القرار. وفيه أهمية تربية النفس على مثل هــذه المواطن؛ والتي لا يمكن أن يحصل عليها الإنسان إلا بصحة الهدف الذي يغرسه الإخلاص لله تعالى لا شريك له.

وفي تقسيم الجيش يذكر أبو هريرة ﷺ وصفاً لذلك، حيث يقول (أقبل رسول الله ﷺ حــتى قَــدِمَ مكة. فبعث الزبير على إحدى المُجَنِّبَتَيْن. وبعث خالد على المجنبة الأخــرى. وبعــث أبــا عبيدة على الحُسَّر، فأخذوا بطن الوادي، ورسول الله ﷺ في كتيبة...)[1]

ثم صــدرت التوجيهات النبوية الكريمة لقادته: (... قال: وأمر رسول الله ﷺ أن تُركَــزَ رايــته بالحجونَ...)[2] وقد (دخل النبي ﷺ عام الفتح من أعلى مكة؛ من كــداء) [3] وأمــرهم أن يكفــوا أيديهم؛ ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم.[4] وفي الكتيبة الأنصارية التي في مقدمة رسول الله ﷺ يصدر توجيهاً نبوياً كريماً لأبي هريرة، كما قاله أبــو هريرة ﷺ (...قال: فنظر فرآني. فقال: أبو هريرة ؟ قلت: لبيك يا رسول الله ! فقال: لا يأتيني إلا أنصاري... فقال: اهتف بالأنصار. قال: فأطافوا به...)[5]

وفي طــواف الأنصار به ﷺ دليل عمق محبتهم لرسول الله ﷺ وسرعة تجاوبهم لأمــره وتوجــيهه علــيه الصلاة والسلام. وفي التوجيه والحصر النبوي بأن يهتف له

---

[1] مسلم (٣/١٤٠٥ـ١٤٠٦) برقم (١٧٨٠)

[2] البخاري (٢/١٤٩) برقم (٤٢٨٠)

[3] البخاري (٣/١٥١) برقم (٤٢٩٠) ورقم (٤٢٩١)

[4] ابن حجر، فتح الباري (٨/١٠) البيهقي، الدلائل (٥/٤١)

[5] مسلم (٣/١٤٠٥ـ١٤٠٦) برقم (١٧٨٠)

بالأنصار ما يدل على عمق الثقة بهم ورفعاً لمراتبهم وإظهاراً لجلالتهم وخصوصيتهم.(١) ولعـــل من أسباب ودواعي ذلك أنهم الأنصار الذين نصروه بعد أن تحامل عليه كفار قريش؛ وردوا دعوته وكذبوه، فأراد ﷺ أن يظهرهم أمامهم، وليبين للأنصار أنه معهم وإن فُتِحَـــتْ مكـــة. وفي هذا أهمية إبراز وإظهار من كان لهم قدم سبق في الخير. وأن تثبـــت العلاقـــة الصادقة ولا تتبدل بتبدل الأحوال؛ طالما أن أسسها قائمة. وهذا ما أظهرته رواية أبي هريرة التي سيأتي الوصول إلى تمامها بإذن الله تعالى.

ثم يضـــيف أبـــو هريـــرة رضـــي الله تعالى عنه مزيداً من الوصف، فيقول: (...ووبَّشَـــتْ قريش أوباشاً لها وأتباعاً. فقالوا : نُقَدِّمُ هؤلاء. فإن كان لهم شيء كنا معهم. وإن أُصيبوا أعطينا الذي سُئلنا. فقال رسول الله ﷺ : أترون إلى أوباش قريش وأتـــباعهم. ثم قـــال بـــيديه، إحداهما على الأخرى. ثم قال : تُوافوني بالصفا، قال: فانطلقنا. فما شاء أحدٌ منا أن يقتل أحداً إلا قتله. ومـــا أحـــدٌ منـــهم يُوجِّـــه إلينـــا شيئاً....)(٢)

ودلالة هذا ومعناه: أن قريشاً قد جمعت جموعاً من قبائل شتى لصد المسلمين. وقد قابل ذلك ﷺ بقوله (...يا معشر الأنصار ! هل ترون أوباش قريش ؟ قالوا: نعم. قال: انظروا؛ إذا لقيتموهم غداً أن تحصدوهم حصدا..)(٣) وقد استُدل بهذا على أن مكة فُتِحت عنوة، قال بذلك مالك وأبو حنيفة وأحمد وجماهير العلماء.(٤)

---

(١) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٢٧)

(٢) مسلم (٣/١٤٠٥ــ١٤٠٦) برقم (١٧٨٠)

(٣) مسلم (٣/١٤٠٧ــ١٤٠٨) برقم (٨٦ــ١٧٨٠)

(٤) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٣٠) وفتح الباري (٨/١٢ــ١٣)

(...قال: فجاء أبو سفيان، فقال: يا رسول الله ! أُبيحت خضراءُ قريش[1] لا قريش بعد اليوم. ثم قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن...)[2]

وفي هذا ما يدل على قوة المسلمين وتمكين الله تعالى لهم، وفي كلام أبي سفيان ﷺ مـــا يدل على الخوف والرعب الذي حصل عند مشركي أهل مكة، وإلا فما قُتِلَ من المشركين فهو أربعة وعشرون رجلاً من قريش، وأربعة من هذيل.[3] وقتل من خيل خالد بن الوليد ﷺ يومئذ رجلان: حُبيش بن الأشعر، وكُرز بن جابر الفهري، رضي الله تعالى عنهما.[4]

فــلما ظهــر رســول الله ﷺ على ثنية أذاخر رأى البارقة، فقال: (ألم أنه عن القتال؟ فقيل: خالد قوتل فقاتل. فقال: قضاء الله خيرٌ.)[5]

وفي هـــذا دلالة على نهي النبي ﷺ عن القتال ما لم يقاتلهم أحد. حتى أن خالد بن الوليد ﷺ لم يقاتل إلا بعد أن قوتل كما هو واضح من النص السابق. وقد عفا ﷺ عـــن أهـــل مكة بالرغم مما فعلوا به أثناء وجوده في مكة، ومحاربتهم له ولأصحابه في المدينة، فقال رسول الله ﷺ (يا معشر قريش ! ما ترون أني فاعل فيكم ؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم. قال : اذهبوا فأنتم الطلاقاء)[6]

غـــير أنه أهدر دم نفر من الرجال والنساء: هم تسعة من الرجال، وست أو ثمان من النساء، فمنهم من قُتل ومنهم من أسلم.[7]

---

[1] خضراء قريش أي بمعنى جماعتهم ويُعبر عن الجماعة المجتمعة بالسواد والخضرة. النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢٧/١٢).

[2] مسلم (١٤٠٥/٣ــ١٤٠٦) برقم (١٧٨٠)

[3] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٣٦/٢) وابن حجر، فتح الباري (١١/٨)

[4] البخاري (٣/ ١٤٩) برقم (٤٢٨٠)

[5] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٣٦/٢)

[6] ابن هشام، السيرة النبوية (٥٥/٤)

[7] ابن حجر، فتح الباري (١١/٨ــ١٢)

وفي قبوله إسلام من أسلم؛ دليل واضح على أن ما كان يرجوه ﷺ من الناس هو أن يدخلوا في دين الله تعالى، وإلا لما قبل إسلام من أسلم، وقد أهدر دماءهم لما كان منهم من أذى للمسلمين. فليدرك كل ظالم أن الإسلام لا يقبل الظلم؛ ويتعامل معه بما يبتر ظلمه وطغيانه.

ولم تُعامَل مكة معاملة البلاد المفتوحة عنوة لقدسيتها ومكانتها الدينية، فقد استثنى النبي ﷺ فحرم القتل والسبي فيها، وأبقى الأموال الثابتة والمنقولة في أيدي أصحابها، ولم يفرض عليها خراجاً.[1] وهذا دليل على خصوصية مكة؛ ومكانتها المعظمة، والتي امتدت إلى أهلها. فيستفاد منه احترام وإجلال هذا البيت المقدس، وتحصينه من شرور النفس؛ ورذائل الأخلاق في كل تعاملات الإنسان ونشاطه. وكذا إكرام أهله.

ومن الفوائد: التطبيق العملي للعفو عند المقدرة، كما هو معهود منه ﷺ فيقدم لأمته النموذج التطبيقي في ذلك، الذي تحتاجه الأمة في معاملتها مع بعضها البعض، ومَدّ سلطان العفو للآخرين؛ حتى يدركوا رحمة الإسلام وسمو أخلاقه، الذي تندفع به النفوس للدخول في دين الله تعالى.

وفي قوله ﷺ (يا معشر قريش ! ما ترون أني فاعل فيكم ؟) يظهر فيه الأسلوب الحواري التربوي، الذي يستثير من خلاله الفكر والوجدان، حتى يُدرك العدو إمكانات القرار المتاحة له ﷺ وبالرغم من ذلك يختار ما يؤكد رحمة الإسلام ورحمة النبي الأمي، والهدف الذي يسعى من خلاله ﷺ

وفي قول قريش للنبي ﷺ : أخ كريم وابن أخ كريم. ما يؤكد ويبين ما اتصف به النبي ﷺ وما عُرِف عنه بين قومه، وكذا والده. من كرم النفس، وكرم الخُلُق، ومحاسن الأخلاق المجتمعة في رسول الله ﷺ

---

[1] فتح الباري (١٣/٨) أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة(٢/٤٨١ــ٤٨٢) ومهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية، ص (٥٦٩ــ٥٧٠)

وفي قوله عليه الصلاة والسلام لقريش (اذهبوا فأنتم الطلقاء) الغاية في الكرم والعفو والصفح والرحمة، بما يفيد أن سمو الهدف يسمو بالأخلاق والأفعال والقرارات. فلسمو الهدف الذي منطلقه هداية الناس، أَثرٌ في أخلاقيات القرار، الذي انتفت منه حظوظ النفس، ولذلك علا وارتفع السمو الخُلُقي في القرار النبوي، فعفا عمن ظلمه وأساء إليه وللمسلمين والإسلام.

ويفيد هذا ويعطي قاعدة سلوكية غاية في الأهمية، وهي: سمو الأهداف يولد سمو القرارات، أو سمو القرارات يتولد من سمو الأهداف. وأن كرم الأخلاق في الأفعال والأقوال مرتبط بصحة الأهداف وعلوها.

وبهذا يتأكد أن العفو من أهم ركائز السلوك الإنساني الذي اهتم به المنهج الإسلامي في نصوصه من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وتطبيقاته العملية التي طبقها النبي ﷺ

(... فقالت الأنصار، بعضهم لبعض: أمَّا الرجل فأدركته رغبةٌ في قريته، ورأفةٌ بعشيرته. قال أبو هريرة: وجاء الوحي. وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا، فإذا جاء فليس أحدٌ يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي. فلما انقضى الوحي؛ قال رسول الله ﷺ يا معشر الأنصار ! قالوا: لبيك يا رسول الله ! قال: قلتم: أما الرجل فأدركته رغبةٌ في قريته. قالوا: قد كان ذاك. قال: كلا. إني عبد الله ورسوله. هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم، والممات مماتكم. فَأَقْبَلُوا إليه يبكون؛ ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضنَّ بالله وبرسوله. فقال رسول الله ﷺ: إن الله ورسوله يُصَدِّقانكُم ويَعْذِرانكم...)[1]

قال الإمام النووي: معنى هذه الجملة: أنهم رأوا رأفة النبي ﷺ بأهل مكة، وكف القتل عنهم، فظنوا أنه يرجع إلى سكنى مكة؛ والمقام فيها دائماً، ويرحل عنهم، ويهجر المدينة، فشق ذلك عليهم، فأوحى الله تعالى إليه ﷺ فأعلمهم بذلك، فقال لهم

---

[1] مسلم (٣/١٤٠٥-١٤٠٦) برقم (١٧٨٠)

رسول الله ﷺ : قلتم كذا وكذا، قالوا: نعم، قد قلنا هذا. فهذه معجزة من معجزات النبوة. فقال: كلا إني عبد الله ورسوله. ومعنى كلا هنا: حقاً. ولها معنيان: أحدهما حقاً والأخرى النفي. وأما قوله ﷺ (إني عبد الله ورسوله) فيحتمل وجهين: أحدهما: أني رسول الله حقاً فيأتيني الوحي، وأخبر بالمغيبات؛ كهذه القضية وشبهها، فثقوا بما أقول لكم وأخبركم به في جميع الأحوال، والآخر: لا تفتتنوا بإخباري إياكم بالمغيبات، وتطروني كما أطرت النصارى عيسى صلوات الله عليه، فإني عبد الله ورسوله.[1]

ويحتمل أيضاً أن مدلولها هو: أنه طالما أنني عبد لله ورسوله فإنه يمتنع مني التحيز الْقَبَلِي أو المكاني، أو أن يكون هناك ولاء تبع لذلك. فمقتضى العبودية لله تعالى، والرسالة تمنعان ذلك. ولعل مما يؤكد ذلك ما بعده (المحيا محياكم والممات مماتكم) وفي هذا تقديم أخوة الدين على أخوة النسب إذا افترقت.

وقال الإمام النووي ــ رحمة الله تعالى عليه ــ : وأما قوله ﷺ (هاجرت إلى الله وإليكم، المحيا محياكم، والممات مماتكم) فمعناه: هاجرت إلى الله وإلى دياركم لاستيطانها، فلا أتركها، ولا أرجع عن هجرتي الواقعة لله تعالى، بل أنا ملازم لكم، المحيا محياكم، والممات مماتكم. أي لا أحيا إلا عندكم، ولا أموت إلا عندكم، وهذا أيضاً من المعجزات. فلما قال لهم هذا بكوا واعتذروا، وقالوا: والله ما قلنا كلامنا السابق إلا حرصاً عليك وعلى مصاحبتك، ودوامك عندنا؛ لنستفيد منك؛ ونتبرك بك؛ وتهدينا الصراط المستقيم، كما قال الله تعالى (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) وهذا معنى قولهم: ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بك، وهو بكسر الضاد، أي شحاً بك أن تفارقنا ويختص بك غيرنا، وكان بكاؤهم فرحاً بما قال لهم، وحياء مما خافوا أن يكون بلغه عنهم مما يُستحيى منه.[2]

---

[1] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٢٨ــ١٢٩)

[2] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٢٨ــ١٢٩)

وفي هــذا الحــدث من الفوائد: أن من مكارم الأخلاق العفو والصفح عند المقــدرة. وأن لا يرغب المسلم عن العالم ويزهد فيه، بل يجله ويرغب فيه، فلئن توفي رســول الله ﷺ فإن العلماء ورثة الأنبياء. وفيه الفخر بالعبودية لله تعالى وإعلانها، كما قــال ﷺ (إني عبد الله ورسوله). ويستفاد كذلك أن لا يُفتتن المرء بالعالم، فينــزله في مــنــزلة الربوبية أو الألوهية؛ في حياته أو بعد مماته. وإذا كان ذلك لا يصح في حق النبي ﷺ فإنه لا يصح في حق غيره.

وفــيه أن يحفظ المرء حقوق الأخوة، ولا يستبدلها بآخرين، وإنما يضيف عليها الآخــرين. وفــيه القوة العاطفية الإسلامية عند الأنصار، وهو ما يجب أن يكون عند المســلم. ومــن فوائد ذلك أن على العالم أن يدفع ما قد يدور في أذهان الآخرين من مفاهــيم وتوقعــات غير صحيحة، وهذا يكون بجهده وقوة خبرته وتحسبه، لأن زمن الوحــي قد انقطع. وفيه أثر التربية النبوية على مسلك وسلوك الأنصار. وأن من أراد الخير في غير مسلك ومنهج التربية الإسلامية فقد بحث في المجهول الذي نهايته الظلام.

(... قال: فأقبل الناس إلى دار أبي سفيان. وأغلق الناس أبوابهم. قال: وأقبل رسول الله ﷺ حتى أقبل على الحَجَر فاستلمه ثم طاف بالبيت. قال: فأتى على صنم إلى جنب البيت كانوا يعبدونه. قال: وفي يد رسول الله ﷺ قوسٌ؛ وهــو آخــذ بِسِــيَةِ القوس[1]. فلما أتى على الصنم جعل يطعنه في عينه ويقول: جاء الحق وزهق الباطل. فلما فرغ من طوافه أتى الصفا، فعلا عليه حتى نظر إلى البيت، ورفع يديه؛ فجعل يحمد الله ويدعو بما شاء أن يدعو)[2]

وفي ذلك من الفوائد: الابتداء بالطواف في أول دخول مكة، سواء كان محرماً بحــج أو عمــرة أو غــير محــرم، وقد دخلها النبي ﷺ في هذا اليوم غير محرم بإجماع

---

(١) أي المنعطف من طرف القوس

(٢) مسلم (٣/١٤٠٥ــ١٤٠٦) برقم (١٧٨٠)

المسـلمين، وكان على رأسه المغفر.[1] كما جاء في صحيح البخاري عن أنس ﷺ (أن النبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه المغفر...)[2]

وفي تحطـيم الصنم بيان لبطلانها وإذلال لها ولعابديها، وأنها لا تضر ولا تنفع؛ ولا تدفـع عن نفسها ضراً ولا تجلب لها نفعاً. وجاء في عدد الأصنام التي كانت حول البيت؛ عن عبد الله ﷺ (دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح؛ وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصُـب، فجعـل يطعنها بعود في يده ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد)[3] ولمسلم (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا؛ جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد...)[4] وفي هذا استحباب قراءة هاتين الآيتين عند إزالة المـنكر.[5] وفـيه من الفوائد حمد الله تعالى والثناء عليه عند حدوث النعم، وكذلك الدعـاء. كمـا أن فـيه إزالة المنكر إذا تحققت المصلحة ووجدت القدرة، إذ لم تُزل الأصنام إلا بعد أن مكنه الله تعالى بالفتح. مما يفيد أهمية مراعاة ذلك في التطبيق العملي

ومما قام به ﷺ في تطهير الكعبة ما جاء عن ابن عباس ــ رضي الله تعالى عنهما ــ (أن رسول الله ﷺ لما قَدِم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت، فأخـرج سورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما من الأزلام، فقال النبي ﷺ : قاتلهم الله، لقد علموا ما استقسما بها قط، ثم دخل البيت فكبر في نواحي البيت، وخرج ولم يصل فيه)[6] فقد أمر النبي ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ أن يأتي الكعبة فيمحو كل صورة فيها، فلم يدخلها حتى محيت الصور، وكان عمر ﷺ هو الذي أخرجها، والذي يظهر أنه محا

---

(1) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٢٩)

(2) البخاري (٣/١٥٠) برقم (٤٢٨٦)

(3) البخاري (٣/١٥٠) برقم (٤٢٨٧)

(4) مسلم (٣/١٤٠٨) برقم (١٧٨١)

(5) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٣٠)

(6) البخاري (٣/١٥٠) برقم (٤٢٨٨)

مـــا كان من الصور مدهوناً مثلاً، وأخرج ما كان مخروطاً. فبقيت بقية،[1] فأزالها ﷺ كما في الحديث الذي قبل السابق.

وفي هيـــئة دخوله ﷺ البيت العتيق، يقول أنس ﷺ (دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على رحله متخشعاً)[2] وفي ذلك صورة من صور تواضعه ﷺ حتى في لحظـــات النصر، حيث يزداد تواضعاً لله تعالى، حتى كانت ذقنه ﷺ على رحله، وكان خشـــوعه ﷺ خشوع المتعبد. وفي هذا دلالة على أن الإسلام يربي في المسلم التذلل لله سبحانه وتعالى، والتقرير بأن النصر من الله جلّ جلاله. وأن على المسلم أن يُعلن ذلك بأفعالـــه حالة النصر وحصول النعم. وفيه دلالة على أن منهج الإسلام يربي في أتباعه التواضـــع والانكسار للحق تبارك وتعالى. وهو ما يلزم المسلم أن يسلكه فيما يحصل علـــيه من نعم، بأن يزداد بها تواضعاً، لأن المعطي لها الله تبارك وتعالى، بحوله وقوته، إذ لو شاء لمنعها وما بسطها لعبده.

وعـــن عبد الله بن مغفل يقول (رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يُرَجِّعُ)[3]

ويذكر نافع عن ابن عمر ـــ رضي الله تعالى عنهما ـــ (أن رسول الله ﷺ أقبل يـــوم الفتح من أعلى مكة على راحلته؛ مُرْدِفَاً أسامة بن زيد، ومعه بلال؛ ومعه عثمان بن طلحة من الحجبة؛ حتى أناخ في المسجد، فأمره أن يأتي بمفتاح البيت، فدخل رسول الله ﷺ ومعه أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة، فمكث فيه نهاراً طويلاً، ثم خرج فاســـتبق الناس، فكان عبد الله بن عمر أول من دخل، فوجد بلالاً وراء الباب قائماً،

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (١٧/٨)

[2] الحاكم، المستدرك (٤٧/٣)

[3] البخاري (١٤٩/٣) برقم (٤٢٨١)

فســـأله: أين صلى رسول الله ﷺ ؟ فأشار له إلى المكان الذي صلى فيه. قال عبد الله : فنسيت أن أسأله: كم صلى سجدة.)[1]

وفي هذا الحديث من الفوائد: الحرص على فعل السُّنَّة، التي مَثَّلَ الحرص على معرفــتها وعلى أدائها عبد الله بن عمر ــ رضي الله تعالى عنهما ــ وهذا دليل على حرص ابن عمر ﷺ على متابعة النبي ﷺ حتى أنه أول من دخل.

ويفيد هذا الحديث أن للكعبة باباً ومفتاحاً قبل الإسلام. ونقل ابن حجر: أن النبي ﷺ دفع مفتاح الكعبة إلى عثمان، فقال: (خذها خالدة مخلدة، إني لم أدفعها إليكم ولكــن الله دفعها إليكم، ولا ينــزعها منكم إلا ظالم) وفي رواية (فدعا عثمان فقال: خذوها يا بني شيبة خالدة تالدة؛ لا ينــزعها منكم إلا ظالم)[2]

وعن ابن أبي ليلى قال (ما أخبرنا أحدٌ أنه رأى النبي ﷺ يصلي الضحى غير أم هانئ، فإنها ذكرت أنه يوم فتح مكة اغتسل في بيتها، ثم صلى ثمانيَ ركعات، قالت: لم أره صلى صلاة أخف منها، غير أنه يتم الركوع والسجود)[3]

وفي الحديــث عــناية النبي ﷺ بالنظافة البدنية، حيث اغتسل ﷺ وكذا عنايته بصــلاة الضــحى، ويســتفاد من ذلك أهمية الاهتمام بنظافة البدن عند حصول ما يســتدعي ذلــك، وكذا الاهتمام بالصلاة، كما اهتم بها ﷺ في ذلك الحال والموقف، سواء كانت صلاة الضحى أو صلاة شكر لله على ما فتح عليهم[4] .

---

(1) البخاري (٣/١٥٠ــ١٥١) برقم (٤٢٨٩)

(2) ابن حجر، فتح الباري (٨/١٨)

(3) البخاري (٣/١٥١) برقم (٤٢٩٢)

(4) قــال ابن قيم الجوزية ــ رحمة الله تعالى عليه ــ عن تلك الصلاة : فظنها من ظنها صلاة الضحى، وإنما هذه صلاة الفتح، وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا حصناً أو بلداً صلوا عَقِبَ الفتح هذه الصلاة، اقتداء برسول الله ﷺ ابن القيم، زاد المعاد (٣/٤١٠)

ثم إنه عليه الصلاة والسلام رجع حيث ضربت خيمته، فعن أبي هريرة ﷺ قال (قال رسول الله ﷺ : منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله الخيف حيث تقاسموا على الكفر)[1]

قال ابن حجر: أنه ﷺ لم يقم في بيت أم هانئ وإنما نزل به حتى اغتسل وصلى؛ ثم رجع إلى حيث ضربت خيمته عند شعب أبي طالب، وهو المكان الذي حصرت فيه قريش المسلمين.[2]

وجاء في الحديث عن عمرو بن عثمان (عن أسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح: يا رسول الله أين ننزل ؟ قال النبي ﷺ وهل ترك لنا عقيل من منزل ؟)[3] وفي لفظ آخر، عن أسامة بن زيد ـ رضي الله تعالى عنهما، أنه قال (يا رسول الله ! أين تنزل؛ في دارك بمكة ؟ فقال: وهل ترك عقيل من رِبَاع[4] أو دور ؟ وكان عقيل وَرِثَ أبا طالب؛ هو وطالب، ولم يرثه جعفر ولا علي ـ رضي الله عنهما ـ شيئاً، لأنهما كانا مسلمين، وكان عقيل وطالب كافرين...)[5] قال ﷺ (لا يرث المؤمن الكافر، ولا يرث الكافر المؤمن. قيل للزهري: ومن ورث أبا طالب ؟ قال: ورثَهُ عقيل وطالب)[6]

فلم ينزل ﷺ في بيته، مبيناً لأسامة بن زيد العلة. وكان عقيل قد ورث أبا طالب، هو وأخوه، وباع الدور كلها.[7]

---

(1) البخاري (٢/١٥٠) برقم (٤٢٨٤)

(2) ابن حجر، فتح الباري (١٩/٨)

(3) البخاري (١٤٩/٣) برقم (٤٢٨٢)

(4) الرباع: هو المترل المشتمل على أبيات. وقيل هو الدار. وعلى هذا فقوله (أو دور) إما للتأكيد أو من شك الراوي. ابن حجر، فتح الباري (٤٥٢/٣)

(5) البخاري (٤٨٩/١ـ٤٩٠) برقم (١٥٨٨)

(6) البخاري (١٥٠/٣) برقم (٤٢٨٣)

(7) ابن حجر، فتح الباري (١٤/٨ـ١٥)

فلما كان الغد من يوم الفتح خطب رسول الله ﷺ في الناس (أنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن مكة حَرَّمها الله ولم يحرمها الناس. لا يحل لا مرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها شجراً. فإن أحدٌ ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها؛ فقولوا له: إن الله أَذِنَ لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أُذِنَ له فيه ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب.)[١]

وهذا دليل على عظيم قدسية مكة؛ شرفها الله تعالى، بما يغرس في نفس المؤمن إجلالها من أن يعمل فيها ما يُسخط الله تعالى من المنكرات، وأن يحمي جنابها من منكرات الأخلاق، وأن يتخلق فيها بما يتناسب وقدسيتها. فضلاً عن القتال فيها.

وفيه من الفوائد أن هذا التحريم لمكة المشرفة من الله تعالى، وليس لأحد من خلقه. وفيه كذلك عظيم حرمة سفك الدماء، وعضد الشجر فيها.

وفيه من الفوائد أن على شاهد العلم والخير أن يبلغ به غيره ممن غاب ولم يحضر.

وعن إقامة الرسول ﷺ بمكة وصلاته فيها؛ يقول ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ (أقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً يصلي ركعتين)[٢] وفيه أن المسافر يقصر الصلاة.

وعن عبد الله بن مطيع عن أبيه، قال (سمعت النبي ﷺ يقول يوم فتح مكة: لا يُقتل قرشي صبراً بعد هذا اليوم، إلى يوم القيامة)[٣]

قال الإمام النووي: قال العلماء: معناه الإعلام بأن قريشاً يُسلمون ولا يرتد أحد منهم كما ارتد غيرهم بعده ﷺ ممن حورب وقُتل صبراً.[٤]

---

[١] البخاري (٣/١٥١ـ١٥٢) برقم (٤٢٩٥)

[٢] البخاري (٣/١٥٢) برقم (٤٢٩٨)

[٣] مسلم(٣/١٤٠٩) برقم (١٧٨٢)

[٤] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٣٤)

وكـــلُ ذي روح يوثق حتى يُقتل؛ فقد قُتِل صبراً.[1] وفي هذا الإخبار بمغيبات المستقبل معجزة نبوية.

وفي فتح مكة نزلت سورة: النصر. قال فيها ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (...هــو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه الله له، إذا جاء نصر الله، والفتح فتح مكة، فذاك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان توابا، قال عمر: ما أعلم منها إلا مــا تعلم)[2] وفي هذا بيان منــزلة ابن عباس وسعة علمه ﷺ وأن المرء بأصغريه قلبه ولسانه، كما أن فيه اهتمام عمر ﷺ بأصحاب القدرات، وإنــزال الناس منازلهم.

وقــد اجــتمع الناس لمبايعة الرسول ﷺ بعد هذا الفتح العظيم، كما جاء في صــحيح البخاري (..وكانت العرب تَلوَّمُ بإسلامهم الفتح؛ فيقولون : اتركوه وقومه، فإنـــه إن ظهــر علــيهم فهو نبيٌ صادق. فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كلُّ قوم بإسلامهم...)[3]

وفي هذا بيان أن العرب كانت تَلوَّم، أي تنتظر بإسلامها الفتح؛ وانتصار النبي ﷺ فلما حدث هذا بادر كل قوم بإسلامهم. وفي هذا من الفوائد حاجة الكفار للتطبيق العمــلي من المسلمين للإسلام، في اقتصادهم وأخلاقهم وسياستهم وسلمهم وحربهم؛ وفي جميع شؤونهم، حتى يروا في تطبيقه منهج الله تعالى؛ الذي لا يراه عاقل إلا ويدرك أن هذا المنهج لا يكون إلا من رب العالمين الرحمن الرحيم.

وعــن مجاشــع بن مسعود السلمي، قال: (أتيت النبي ﷺ أبايعه على الهجرة، فقال: إن الهجرة قد مضت لأهلها؛ ولكن على الإسلام والجهاد والخير.)[4]

---

(1) الفيومي، المصباح المنير (٤٥٢/١)

(2) البخاري (١٥١/٣) برقم (٤٢٩٤)

(3) البخاري (١٥٢/٣) برقم (٤٢٠٣)

(4) مسلم (١٤٨٧/٣) برقم (١٨٦٣)

وعن مجاشع بن مسعود السلمي، قال: (جئت بأخي، أبي معبد إلى رسول الله ﷺ بعد الفتح. فقلت: يا رسول الله ! بايعه على الهجرة. قال: قد مضت الهجرة بأهلها. قلتُ: فبأي شيء تبايعه ؟ قال: على الإسلام والجهاد والخير.)[1]

وفي هذا بيان أن مكة قد أصبحت دار إسلام وأمان بعد الفتح، وأن الإسلام دين جهاد وخير. وفي الجمع بين الإسلام والجهاد والخير للمبايعة ما يدل على أن الإسلام والجهاد قائم على الخير، قولاً وعملاً، لا ينفك عن ذلك أبداً. وأن الجهاد في الإسلام قائم على ما يحبه الله تعالى ويرضاه.

وفي الحديث فوائد عظيمة، منها: بيان الترابط الوثيق بين أجزاء منهج الإسلام، ككل لا يتجزأ؛ فلا يقبل الإيمان ببعض وترك البعض، بل هو الإسلام جملة منهج واحد لا يتبعض أبداً. ثم ترابطه مع ذروة سنامه؛ وهو الجهاد. ثم يعانق ذلك بالخير كله؛ فلا شر في الإسلام، بل هو خير محض، والجهاد خير بهدف الخير، ليس لأكل أموال ومدخرات الشعوب، أو لهضمها واستعبادها من أجل مصالح الدنيا، وإنما الجهاد باب لدخول الناس في دين الله تعالى، ولصد أذى الكفر من أن يصيب الإسلام وأهله.

إن لفظ (الخير) في الحديث يدل على أنه ثوب الإسلام ورداؤه العظيم ؛ ومسلكه الذي يسير به. وبالتالي فإن المسلم يسلك مسلك الخير في أكله وشرابه، وقيامه وجلوسه، وفي سره وعلانيته، وفي جهاده واجتهاده، وفي مهنته وفي كل حياته، فالخير لا يخفى على أحد من الناس ما ابتغاه وطلبه.

وقد خطب رسول الله ﷺ في هذا الفتح العظيم عدة خُطب، بين فيها مزيداً من شرائع الإسلام الحنيف، سبق أن ذُكِرَت خطبة، وهذه أخرى : قال ﷺ (لا إله إلا الله وحده؛ نصر عبده؛ وهزم الأحزاب وحده، ـ قال هشيم: مرة أخرى: الحمد لله الذي

---

[1] مسلم (١٤٨٧/٣) برقم (٨٤ــ١٨٦٣)

صدق وعده ونصر عبده ـ ألا إن كُلّ مَأْثرةٍ[1] كانت في الجاهلية تُعَدُّ وتُدعى، وكل دم أو دعوى موضوعة تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج، ألا وإن قَتِيلَ خَطَأ العمد. قال هشيم مرة : بالسوط والعصا والحجر دية مغلظة مائة من الإبل، منها أربعون في بطونها أولادها.)[2]

وفي هـــذا الحديث نسخ لقوانين الجاهلية، وبيان لشريعة الله تعالى فيما تضمنته الخطبة. وفيه تدرج نـــزول الأحكام التشريعية، إذ لم تنـــزل جميعها جملة واحدة، وأن مـــا جاء في الخطبة هو شيئ منها، وفي هذا دليل على أهمية أسلوب التدرج في الميدان التربوي والدعوي، كمبدأ تعليمي وتوجيهي. بل وفي تعدد خطبه ﷺ في فتح مكة، وما تضمنته كل خطبة من بيانات تشريعية دليل على مبدأ التدرج أيضاً كمنهج إسلامي.

ومـــن فوائـــد هذه الخطبة النبوية الكريمة، إبطال مفاخر الجاهلية بالأحساب والمكـــارم، وكذلـــك إبطـــال الأخذ بالثأر الذي أبْرَمَ في الجاهلية سلسلة من السفك الدمـــوي؛ فَحَـــلَّ مكانه القصاص، أو العفو مقابل المثوبة من الله تعالى. وفي هذا بيان وتوضيح بأن مسلك الإسلام التربوي هو بناء المكارم وتطبيقها لله تعالى لا للمفاخرة. لتتربى النفوس على الأدب الإسلامي الرفيع.

وفـــيما تضمنته الخطبة الأخرى قوله ﷺ (بعد أن أثنى على الله: يا أيها الناس كل حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة، ولا حلف في الإسلام، ولا هجرة بعـــد الفـــتح، يد المسلمين واحدة على من سواهم، تتكافأ دماؤهم، ولا يُقتل مؤمن

---

[1] المآثر: القدم في الحسب، ومآثر العرب مكارمها ومفاخرها التي تُؤثر عنها، أي تُذكر وتروى. ابن منظور، لسان العرب (٤/٧)

[2] أحمد، المسند (٣/٤١٠) وانظر تخريج الأحاديث الواردة بهذا الشأن، المسند (٢٤/١٠٨ــ١١١) بأرقام (١٥٣٨٨، ١٥٣٨٩، ١٥٣٩٠) طبعة الموسوعة الحديثية. وقال محققوا الطبعة، شعيب الأونؤوط وآخرون : صحيح. وكذلك من نفس الطبعة (٣٨/٤٧٨) برقم (٢٣٤٩٣)

بكافــر، ودية الكافر كنصف دية المسلم، ألا ولا شغار في الإسلام، ولا جَنَبَ[1] ولا جلــب[2] وتؤخذ صدقاتهم في ديارهم، يجير على المسلمين أدناهم، ويرد على المسلمين أقصــاهم. ثم نــزل.)[3] وفي صحيح مسلم (لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية، لم يزده الإسلام إلا شدة)[4]

قــال الإمام النووي ــ رحمة الله تعالى عليه ــ أما المؤاخاة في الإسلام والمحالفة عــلى طاعة الله تعالى، والتناصر في الدين، والتعاون على البر والتقوى، وإقامة الحق؛ فهذا باق لم يُنسخ، وهذا معنى قوله ﷺ في هذه الأحاديث، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يــزده الإســلام إلا شــدة. وأمــا قوله ﷺ (لا حلف في الإسلام) فالمراد به حلف التوارث، والحلف على ما منع الشرع منه، والله تعالى أعلم.[5]

فلقــد بينت الخطبة النبوية المزيد من التشريع الذي يبين الحقوق الأخوية بين المســلمين، وتكافؤهم في الدماء. لا فرق بين أسود وأبيض وأحمر، وغني وفقير، وأمير ومأمور، وصغير وكبير.

وكذلــك بينت خطبته ﷺ: عدم التكافؤ بين المسلم والكافر؛ فلا يُقتل مسلم بكافر، فكما أنه لا تكافؤ بين الإسلام والكفر؛ فكذلك لا تكافؤ بين المسلم والكافر، ومــع ذلــك حفــظ الإسلام للكافر حقه، فدية الكافر نصف دية المسلم، فلم يُهمل التشريع الإسلامي حقوق غير المسلمين، وهذا دليل واضح على حق الكافر في الحياة

---

(1) الجنب: هو الذي يجب عليه الغسل من الجماع وخروج المني. ابن الأثير، النهايــة في غريــب الحــديث والأثــر. (٣٠٢/١)

(2) الجلــب: يكون في شيئين: أحدهما في الزكاة، وهو أن يقدم المُصَدِّق على أهل الزكاة؛ فينــزل موضعاً ثم يرسل من يجلب إليه الأموال من أماكنها، ليأخذ صدقتها، فَنُهِي عن ذلك. وأُمِر أن تؤخذ صدقاتهم على مياههم وأماكنهم. والثاني أن يكون في السباق: وهو أن يتبع الرجل فرسه فيزجره؛ ويجلب عليه، ويصيح حثاً له على الجري، فنهي عن ذلك. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٨١/١)

(3) أحمد (٢١٥/٢)

(4) مسلم (١٩٦١/٤) برقم (٢٥٣٠)

(5) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٨٢/١٦)

والعيش والتكسب، وأن دمه مُصان في الإسلام إلا بموجبه. وفيه أن الإسلام لا يظلم أحداً، وأنه كله خير، حتى لغير المسلم فإنه خير؛ إما أن يتأمله فيدخل فيه، أو أنه يحفظ له حقوقه. ويستفاد من ذلك أهمية تحقيق هدي الإسلام في التعامل مع غير المسلمين لأن ذلك باب يلجون من خلاله إلى الإسلام.

كما تضمنت الخطبة فساد نكاح الجاهلية: الشغار، وهو نوع من النكاح الجاهلي: يقول الرجل: زوجني أختك؛ أو ابنتك؛ أو من تلي أمرها، حتى أزوجك أختي؛ أو ابنتي؛ أو من ألي أمرها.[1] وفي هذا التحريم حفظ للمرأة وإعزاز لها.

كما تضمنت الخطبة مكانة المسلمين فيما بينهم، والتي تبين أن الأدنى له من الحق ما يقبله ويحفظه أعلاهم، فله أن يُجير، وأن على المسلمين قبول ذلك. بل حتى للمرأة أن تجير، كما قال ﷺ لأم هاني (قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ)[2] قال ابن حجر ــ رحمة الله تعالى عليه ــ أجمع أهل العلم على جواز أمان المرأة.[3] وفي هذا بيان لمكانة المرأة، وحفظ لتلك المعنوية بإمضاء أمانها.

ويستفاد من ذلك الأهمية التربوية في حفظ ورفع معنوية الأدنى من المسلمين، وأن يُشعر بأن مكانته محفوظة عند إخوانه المسلمين، مهما تباينت بهم أموال الدنيا وحطامها، أو جاهها وعلاقاتها، أو تباعدت بهم أصقاع الأرض ومسافاتها؛ فتباعد المسافات بين المسلمين لا يحجب تعاونهم وتعاضدهم، فكلهم كالجسد الواحد.

وقد طُبِّق في هذا الفتح إحدى العقوبات الشرعية؛ على امرأة سرقت. فعن عروة بن الزبير (أن امرأة سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة فتح مكة، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه، قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلوَّن وجه

---

(1) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/٤٨٢)

(2) البخاري (٢/٤١١) برقم (٣١٧١)

(3) ابن حجر، فتح الباري (٦/٢٧٣)

رسول الله ﷺ فقال: أتكلمني في حد من حدود الله ؟ قال أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ خطيباً، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعـــدُ. فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضـــعيف أقاموا عليه الحد. والذي نفسُ محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعـــت يدهـــا. ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها. فحسنت توبتها بعد ذلـــك وتـــزوجت. قالت عائشة فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ)[1]

وفي هـــذا الحديث بيان للعدل الذي ساد الأمة بمنهج الإسلام، الذي جاء به وطـــبقه رســـول الله ﷺ وفـــيه أن المحاباة وعدم إقامة العدل عنوان هلاك الأمم، وبه تـــزول النعم وتأتي النقم. وفيه بيان شناعة المجاملة في إقامة الحدود وتحريمها (والذي نفـــسُ محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها). وفيه كذلك تحريم الشفاعة في الحدود. وفيه ضرب المثل بالنفس والولد. وفيه التهديد والوعيد لمن يغترف حداً من حدود الله تعالى. وفيه مكانة فاطمة رضي الله تعالى عنها، حيث ضرب بها مثلاً لـــو حصـــل منها ذلك، وحاشاها ذلك. وفيه وجوب تطبيق الحدِ ولو كان على ابن الســـلطان. وفيه أن في الحدود تهذيب وتأديب، كما حصل للمرأة إذ حَسُنَتْ توبَتُها، وكذلك أن وفقها الله تعالى وتزوجت.

وفيه كذلك إكرام التائب ومن طُبِّقَ عليه الحد، وكذا احتواؤه وعدم هجره، حيـــث كانـــت تأتي تلك المرأة لعائشة رضي الله تعالى عنها، فترفع حاجتها للنبي ﷺ وكذلـــك أن لا يَنْبُذْ المجتمعُ من طُبِّق عليه الحد، حيث قد تـــزوجت تلك المرأة، ولم تؤخـــذ بمـــا كان منها، ولم تُسحب عليها جريرتها طوال حياتها حتى يزهد الناس فيها. فيزهد الخُطَّاب عنها.

---

(1) البخاري (٣/١٥٣) برقم (٤٣٠٤)

البعوث والسريا بعد غزوة الفتح :

البعوث والسريا لإزالة الأصنام :

عندما تم تطهير البيت العتيق من الأصنام والأزلام والصور، أرسل رسول الله ﷺ البعوث لإزالة الأصنام، فأرسل خالد بن الوليد في سرية إلى بطن نخلة من ديار بني ثقيف؛ لهدم العزى. وبعث عمرو بن العاص في سرية إلى سُواع، صنم هذيل فهدمه. وبعث سعد بن زيد الأشهلي في سرية لهدم مَناة، وكانت بالمشلل من ناحية قديد للأوس والخزرج وغسان؛ فهدمه.[1]

ومن فوائد تحطيم هذه الأصنام بيان ضعفها وسخافة عقول من يعبدها، فلو كانت آلهة كما يقولون لدافعت عن نفسها التحطيم والتخريب. ولا شك أن في هذا بيان وإعلان واضح للعرب ببطلان هذه الآلهة وقيام دولة الإسلام.

بعث خالد بن الوليد ﷺ إلى بني جذيمة:

لما رجع خالد بن الوليد ﷺ من هدم العزى ورسول الله ﷺ بمكة؛ بعثه إلى بني جذيمة داعياً إلى الإسلام، ولم يبعثه مقاتلاً، فخرج في ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سُليم. فانتهى إليهم خالد.[2]

قال ابن عمر ــ رضي الله تعالى عنهما ــ (فجعل خالد يقتل ، فقال النبي ﷺ : أبرأ إليك مما صنع خالد.)[3] وعن سالم عن أبيه قال (بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يُحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا. فجعل خالدٌ يقتل منهم ويأسر. ودفع إلى كل رجل منا أسيره. حتى إذا كان يومٌ أمر خالد بقتل كلُّ رجلٍ منا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري؛ ولا يقتل

---

[1] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٤٥ــ١٤٧)

[2] المرجع السابق(٢/١٤٧)

[3] البخاري (٣/٤١٢) باب: إذا قالوا: صبأنا و لم يُحسنوا أسلمنا.

رجل من أصحابي أسيره. حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه، فرفع النبي ﷺ يديه فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد؛ مرتين.)[١]

فدل الحديث على أنه يكتفى من كل قوم بما يعرف من لغتهم، قال ابن بطال: لا خلاف أن الحاكم إذا قضى بجور أو بخلاف أهل العلم أنه مردود. لكن يُنظر فإن كان على وجه الاجتهاد فإن الإثم ساقط؛ وأما الضمان فيلزم عند الأكثر.[٢] وذكر ابن حجر: وزاد الباقر في روايته (ثم دعا رسول الله ﷺ علياً، فقال: اخرج إلى هؤلاء القوم؛ واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك، فخرج حتى جاءهم، ومعه مال؛ فلم يبق لهم أحد إلا وداه)[٣]

وفي هذا دليل على وجوب الضمان، وتطييب نفوس من حصل الخطأ عليهم، وبيان اهتمام الإسلام بالحقوق والعواطف والخواطر، وأنه دين رحمة وشفقة.

وفيه جواز الحلف على نفي فعل الغير إذا وثق بطواعيته[٤] (والله لا أقتل أسيري؛ ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره).

وقد عذر النبي ﷺ خالد بن الوليد في اجتهاده، ولذلك لم يقد منه.[٥] ويستفاد من إعذاره ﷺ أن صاحب الأمر كالوالي والقائد والمدير والرئيس يعذر إذا اجتهد فأخطأ، ويكفيه من اللوم سماع ما يبين خطأ صنيعه. وكذلك من الفوائد أن البراءة من صنيع العامل أو الموظف بيان يشتمل على الإيضاح والزجر.

وفيه من الفوائد أن المصطلح إذا اشتهر بين قوم قد تُشْكِل دلالته عند من لم يدركه، فقريش تقول لكل من أسلم صبأ، حتى اشتهرت هذه اللفظة، وصاروا

---

[١] البخاري (٣/١٦٠) برقم (٤٣٣٩)

[٢] ابن حجر، فتح الباري (٦/٢٧٤)

[٣] المرجع السابق (٨/٥٨)

[٤] المرجع السابق (٨/٥٧)

[٥] المرجع السابق (٦/٢٧٤)

يطلقونهـــا في مقام الذم، فلما قال بنو جذيمة صبأنا فهمها خالد ﷺ على ظاهرها، لأن قولهم صبأنا أي خرجنا من دين إلى دين. [1]

وفيه من الفوائد أن المرؤوس لا يطيع رئيسه في كبيرة؛ إذا تحقق عنده ارتكابه لكبيرة قد خفيت على رئيسه أو قائده، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

---

[1] المرجع السابق (٥٧/٨)

الفصل الثالث عشر

غزوتا حنين والطائف

غزوة حنين:

لمـــا سمعت هوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكة، جمعها مالك بن عـــوف النَّضْرِي، فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها، واجتمعت نَضر وجُشَم كلها، وســـعد بـــن بكـــر، وناس من بني هلال؛ وهم قليل. ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء، وغاب عنها ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب.[١]

يقـــول أنس بن مالك ﷺ (لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنَعَمِهم وذراريهم، ومع النبي ﷺ عشرة آلاف ومن الطلقـــاء...)[٢] ومـــن الطلقـــاء ألفان.[٣] وأما العدو فكان عددهم ضعف عدد المسلمين وأكثر.[٤]

وهـــذا النبأ يبين أن هوازن قد خشيت من غزو النبي ﷺ لها، بعد أن فتح الله تعـــالى عليه مكة. فخرجت بالنساء والغنم والإبل، في حشود عظيمة، وذلك إمعاناً في التهيؤ ليشتد قتالهم، وكان مالك بن النضر، وهو شاب في الثلاثين من عمره، قد ألّب القـــوم وشـــجعهم، وجمعهم على ذلك، بينما أنكر دُرَيد بن الصِّمَّة ذلك على مالك، وكان شيخاً كبيراً، وذو تجربة.[٥]

وفي هـــذا الإقـــدام من مالك، والإنكار من دُرَيد ما يفيد أن مرحلة الشباب تتميز بالاندفاع؛ نتيجة القوة والجلادة؛ مع قلة الخبرة والتجربة، وأن الشيخ فيه التأني؛ والإفـــادة من الخبرة؛ وبالتالي يأتي الرأي بعد التفكير؛ ، مما يبين أهمية العناية بالشباب وربطهـــم بالكبار في السن، والإفادة من خصائص كل مرحلة بما لديها من مكتسبات؛

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٨٠)

(٢) البخاري (٣/١٥٩) برقم (٤٣٣٧)

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٨٣) وابن سعد، الطبقات (٢/١٥٠)

(٤) ابن حجر، فتح الباري (٨/٢٩)

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٨٠ــ٨١)

لتتضافر قوة الرأي مع قوة الاندفاع، أو لتنضبط قوة الاندفاع الشبابي بقوة الرأي والتأني عند الكبير الخبير المجرب. وهذا ليس على إطلاقه.

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال (...فلما سمع بهم رسول الله ﷺ بعث عبد الرحمن بن أبي حدرد الأسلمي، فقال: اذهب فادخل بالقوم حتى تعلم لنا من علمهم، فدخل فمكث يوماً أو يومين، ثم أقبل فأخبره الخبر...)[1]

وفي هذا بيان للمنهجية الصحيحة في التثبت من الخبر، وإرسال العيون على العدو، لمعرفة حقيقة ما يُكاد للمسلمين. وفيه الأخذ بخبر المسلم الواحد، وتصديقه بما يخبر عنه. وفيه بيان لحكم التجسس على العدو؛ بقصد معرفة ما يرصد للمسلمين.

(... ثم بعث رسول الله ﷺ إلى صفوان بن أمية؛ فسأله أدراعاً، مائة درع، وما يصلحها من عدتها. فقال: أغصباً يا محمد ؟ قال: بل عارية مضمونة؛ حتى نؤديها إليك. ثم خرج رسول الله ﷺ سائرا.)[2] وصفوان بن أمية يومئذ مشرك.[3]

وفي هذا الحديث من الفوائد ما يبين إباحة التعامل مع الكافر في البيع والشراء، والاستعارة منه. وكذلك فيه سماحة الإسلام في التعامل، ولم يستخدم عليه الصلاة والسلام قوة المنتصر مع صفوان، بل استخدم معه أسلوب السماحة، وفيه من الفوائد ضمان العارية.

فخرج رسول الله ﷺ من مكة يوم السبت لست ليال خلون من شوال.[4] وقيل لليلتين بقيتا من رمضان، وجمع بعضهم بأنه بدأ بالخروج في أواخر رمضان، وسار سادس شوال، وكان وصوله إليها في عاشره.[5]

---

(1) الحاكم، المستدرك (٣/٤٨ـ٤٩)

(2) الحاكم، المستدرك (٣/٤٨ـ٤٩)

(3) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٨٣)

(4) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٥٠)

(5) ابن حجر، فتح الباري (٨/٢٧)

واستعمل رسول الله ﷺ عَتَّاب بن أَسِيد بن أبي العاص على مكة.[1]

وحنين: وادٍ بينه وبين مكة ثلاث ليال.[2] وتعرف الآن بالشرائع.[3]

وأما عن صفة مسيرهم وحراسة الجيش، فيقول سهل بن الحنظلية ﷺ (أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فأطنبوا السير...)[4] ويفيد لفظ (فأطنبوا السير) أنهم أسرعوا في السير، فالإطناب في السير هو الاجتهاد والمبالغة في المسير. غير أنهم وصلوا إلى حنين في اليوم العاشر من شوال، وقد تحركوا من مكة في اليوم السادس. ويبدوا من ذلك أنهم كلما اقتربوا من حنين ساروا ببطء وحذر، فإنها لا تبعد عن مكة سوى عشرين كيلاً، شرقي مكة، [5] وفي هذا من الفوائد أهمية الحذر واتخاذ أسبابه.

وفي طريقهم ومسيرهم حدث مشهد ممن كان حديث عهد بالجاهلية، فعن أبي واقد الليثي (أنهم خرجوا عن مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين، قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها ذات أنواط، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ : قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون، إنها لسنن، لتركبن سنن من كان قبلكم سنة سنة.)[6]

فالذين سألوا رسول الله ﷺ هذا المطلب هم الذين كانوا حديث عهد بالجاهلية، كما جاء في رواية ابن هشام.[7]

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (٨٣/٤)

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٤٩/٢)

(3) أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٤٩٦/٢)

(4) أبو داود (٢٠/٣ــ٢٢) برقم (٢٥٠١)

(5) أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٤٩٦/٢)

(6) أحمد، المسند (٢١٨/٥)

(7) ابن هشام، السيرة النبوية (٨٤/٤ــ٨٥)

وفي هـــذا من الفوائد، أهمية وجود القدوة الصالحة أمام القدوة المنحرفة، حتى تنصح وتبين لها، وأن المرء يتأثر بما كان عليه؛ وما اعتاده من الجهل، فيحتاج إلى عناية ومتابعة، وكذلك من كان حديث عهد بكفر يحتاج إلى مزيد توجيه وقدوة يراها فيتعلم منها.

وفـــيه كذلـــك أن الحـــدث قد يتكرر نفسه من البشر؛ إذا وُجِدَت العوامل والقواســـم المشـــتركة، وهي السنن الاجتماعية، كما حدث ذلك من قوم موسى مع نبـــيهم موسى عليه السلام. وبالتالي تظهر أهمية الاستفادة مما يحصل من الغير، للحذر منه. لأن هناك سنن اجتماعية تتكرر بتكرر عواملها.

وفيه أن طلب منهج الكفر دليل على جهل الطالب، وبالتالي كلما زاد ظهور القـــدوة السيئة لزم مقابل ذلك أن تظهر القدوة الصالحة؛ وأن تبرز للعيان بكل أوجه وزوايا الصلاح؛ لشدة حاجة الناس إلى ذلك.

ثم اُسْتُكْمِلَ المسير كما جاء في الحديث (...فأطنبوا السير، حتى كانت عشية، فحضـــرت الصـــلاة عند رسول الله ﷺ فجاء رجل فارس، فقال: يا رسول الله ! إني انطلقـــت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم، بظُعُـــنهم ونعَمِهم وشائهم، اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله...)[1]

وفي هـــذا البـــيان من الصحابي الذي رصد قوة هوازن ما يفيد أن هوازن قد حضرت بكامل قوها، وهو قوله (على بكرة أبيها) أي أنهم جاؤا جميعاً؛ لم يتخلف منهم أحد. وهي كلمة تستخدمها العرب للتعبير عن الكثرة في العدد. وقوله (بظعنهم) أي نسائهم، وواحدها ظعينة. وقوله (ونعمهم) أي الإبل والشاة، أو خاص بالإبل.[2]

---

(1) أبو داود (٣/٢٠ــ٢٢) برقم (٢٥٠١)

(2) أبو الطيب أبادي، عون المعبود (١٧٩/٧)

وفي هـــذه المكونـــات مـــا يـــدل على أنه لم يتخلف منهم أحد؛ حتى النساء والبهائم. وقد قابل رسول الله ﷺ هذا الخبر بابتسامة، وقال (تلك غنيمة المسلمين غداً إن شـــاء الله) وفي هـــذا أهمية التفاؤل، وتشجيع الجيش أمام كثرة الأعداء، لأن نصر المسلمين بتوفيق الله تعالى؛ وليس بكثرة عددهم وعتادهم، وفيه كذلك تحقيق التوحيد، أن ربط رسول الله ذلك بمشيئة الله تعالى. وهو ما يجب أن يدركه المسلم في كل توقعاته ونواياه المستقبلية.

ثم تأتي مهمة حراسة الجيش، فيقول سهل بن الحَنْظَلِيَّة (... ثم قال: من يحرسُنا اللـــيلة ؟ قال أنس بن أبي مرثد الغنوي: أنا يا رسول الله، قال: فاركب، فركب فرساً لـــه، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعـــلاه، ولا نُغَـــرَّنَّ من قبلك الليلة. فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه فـــركع ركعـــتين، ثم قال: هل أحسستم فارسكم ؟ قالوا: يا رسول الله ما أحسسناه، فثُوِّب بالصلاة،[1] فجعل رسول الله ﷺ يصلي وهو يلتفت إلى الشعب ...)[2]

وفي هـــذا الجزء من الحديث: سرعة المبادرة من الصحابي الجليل أنس بن أبي مرثد الغنوي ﷺ، مما يفيد أهمية المبادرة في فعل الخير وعدم التواني عنها. وفيه كذلك أهمية إدراك القائد لمنطقة المعركة حتى يستطيع أن يوجه أفراد جيشه لما ينبغي أن يقوموا بـــه، كما وجه النبي ﷺ أنس بن أبي مرثد ﷺ إلى أعلى الشعب. وفيه أهمية توجيه من أوكلـــت له مهمـــة، وإن كان ذلك متقرر عنده، فقد قال له ﷺ (ولا نُغَرَّنَّ من قبلك اللـــيلة) ومن فوائد هذا الحديث أهمية ركعتي سنة الفجر؛ حيث صلاها عليه الصلاة والســـلام وهـــو في ذلك الموقف (فركع ركعتين) حتى أنه يلتفت إلى الشعب وهو في صـــلاة الصبح. مما يدل على أهمية المحافظة على هاتين الركعتين. ويستفاد أيضاً أنه لا بأس بالالتفات في الصلاة إن كان لخوف ونحوه.

---

[1] التثويب هنا: إقامة الصلاة. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٢٢٦)

[2] أبو داود (٣/٢٠ــ٢٢) برقم (٢٥٠١)

والالتفات في الصلاة مكروه إلا لحاجة، وقد جاءت الأحاديث تنهى عن ذلك.[1]

ثم يقول راوي الحديث (...حتى إذا قضى صلاته وسلم، قال: أبشروا فقد جاءكم فارسكم. فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب، فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ فسلم، فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب؛ حيث أمرني رسول الله ﷺ فلما أصبحت اطّلعتُ الشعبين كليهما، فنظرت فلم أر أحداً، فقال له رسول الله ﷺ : هل نزلت الليلة ؟ قال: لا، إلا مصلياً أو قاضياً حاجة، فقال له رسول الله ﷺ : قد أوجَبت فلا عليك أن لاتعمل بعدها.)[2]

وفي الحديث من الفوائد: طيب خُلُقه ﷺ حيث يبشر أصحابه بقدوم الفارس. وهذا يبين أهمية البشارة بالخير، وفي سؤاله وتلفته ﷺ ما يدل على مسؤولية القيادة، وأهمية استشعارها ببذل أقصى الجهد. وفي الحديث عناية الصحابة بصلاة الليل، حتى عند من كان في الحراسة، وفيه كذلك بيان الفضيلة العظيمة لحراسة الجيش، حتى قال له ﷺ (قد أوجَبت؛ فلا عليك أن لاتعمل بعدها.) قال أبو الطيب أبادي: أي عملت عملاً يوجب لك الجنة.[3] وفيه كذلك الثناء في الوجه لمن قام بعمل جليل، إذا لم يخش عليه فتة.

ولقد كان عدد جيش المسلمين كبير في هذه المعركة. فقال رجل يوم حنين: لن نُغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي ﷺ[4] فقص عليه الصلاة والسلام لأصحابه قصة نبي أعجبتهم كثرتهم، فعن صهيب (أن رسول الله ﷺ كان أيام حنين يحرك شفتيه بعد صلاة الفجر بشيء لم نكن نراه يفعله، فقلنا: يا رسول الله ! إنا نراك

---

(1) عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع، (٢/٨٧ـ٨٨)

(2) أبو داود (٣/٢٠ـ٢٢) برقم (٢٥٠١)

(3) أبو الطيب أبادي، عون المعبود (٧/١٨١)

(4) ابن حجر، فتح الباري (٨/٢٧)

تفعل شيئاً لم تكن تفعله، فما هذا الذي تحرك شفتيك ؟ قال: إن نبياً فيمن كان قبلكم أعجبته كثرة أمته، فقال: لن يروم هؤلاء شيء. فأوحى الله إليه أن خيّر أمتك بين إحدى ثلاث: إما أن نسلط عليهم عدواً من غيرهم فيستبيحهم، أو الجوع، وإما أن أرسل عليهم الموت، فشاورهم، فقالوا أما العدو فلا طاقة لنا بهم، وأما الجوع فلا صبر لنا عليه، ولكن الموت. فأرسل عليهم الموت، فمات منهم في ثلاثة أيام سبعون ألفاً. قال رسول الله ﷺ فأنا أقول: الآن حيث رأى كثرتهم: اللهم بك أحاول، وبك أصاول، وبك أقاتل)[1]

وفي هذا الحديث التحذير من أن يغتر المسلم بقوته، أو بماله في تحقيق مطالبه، أو بقوة أعوانه ووسطائه في قضاء حوائجه، أو بقدرته العقلية وملكاته العلمية في النجاح والتقدم، وأن لا يُعجب بما عنده من الخير والقوة وسُبُل تحقيق الأهداف. بل يعلم أنه لا تُغني عنه قوته شيئاً؛ مهما كبرت وكثرت، فلا حول ولا قوة لكل مخلوق إلا بالله. وبالمقابل لا يَضْعُف ولا يحزن لقلة الأسباب أو ضعفها؛ فلا حول له ولا قوة إلا بالله. وفيه من الفوائد أن الله يحب من يعتمد عليه لا على ما به من قوة ونعمة، وأن الله يُبغض من يغتر بالأسباب وينخدع بها. وفيه كذلك فضل: لا حول ولا قوة إلا بالله. التي دلت عليها الألفاظ الأخرى التي استخدمها ﷺ وهي (: اللهم بك أحاول، وبك أصاول،[2] وبك أقاتل) وفيه كذلك فضل هذا الدعاء.

وفي هذا البيان النبوي الكريم من الفوائد، استخدام القصة الصحيحة كوسيلة للبيان والموعظة والدرس، بما يُغني عن النهي المباشر.

---

[1] أحمد، المسند (٣٣٣/٤) وقال محققوا المسند طبعة الموسوعة الحديثية، شعيب الأرنؤوط وآخرون: اسناده صحيح على شرط مسلم (٢٦٢/٣١-٢٦٣)

[2] أصاول. وفي رواية (أصول) أي أسطوا وأقهر. والصولة: الحملة والوثبة. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٦١/٣)

وأمـــا عن سير المعركة، فيقول أنس بن مالك ﷺ (افتتحنا مكة. ثم إنا غزونا حنينا. فجاء المشركون بأحسن صفوف رأيت. قال: فصُفَّت الخيل، ثم صُفَّت المقاتلة، ثم صُـــفَّت النساء من وراء ذلك، ثم صُفَّت الغنم، ثم صُفَّت النَّعَم...)[1] وفي هذا بيان لِحُسن استعداد العدو، وفيه كذلك العدل في الوصف؛ والمدح والبيان؛ حتى ولو كان في حق العدو. فكيف إذا كان في حق المسلم، فإنه أوجب.

وهذا الوصف يعطي المنهجية الإسلامية في وصف الحدث، بأن يكون صادقاً، وأن يكون الواصف عادلاً؛ فلا يغمط الناس حقوقها من الحسن أو الإبداع. وإذا كان هـــذا في حق العدو فإنه يتحقق لزوماً في حق المسلم، بأن لا تُغمط خصائصه ومميزاته ومنجزاته وإبداعاته، حتى وإن كان في النفس عليه شيء.

عن أبي إسحاق، قال سمعت البراء (...وإنَّا لَمَّا حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام...)[2]

وهـــذه الـــرواية تَدُل على سير المعركة عند بدايتها، بأنه حصل بين المسلمين وعدوهـــم قـــتال، فانكشف العدو فأكب المسلمون على الغنائم، فَكَرَّ عليهم العدو بالسهام.

وعن جابر بن عبد الله قال: (لما استقبلنا وادي حنين: انحدرنا في واد من أودية تهامة، أجوف حَطوط، إنما ننحدر فيه انحداراً، قال: وفي عماية الصبح، وقد كان القوم كَمَـــنُوا لنا في شعابه وفي أحنائه، ومضايقه، قد أجمعوا وتهيأوا وأعدوا، قال: فوالله ما راعـــنا ونحـــن منحطُّون إلا الكتائب قد شدت علينا شَدَّة رجلٍ واحد، وانهزم الناس راجعين، فاستمروا لا يلوي أحد منهم على أحد...)[3]

---

[1] مسلم (٧٣٦/٢) برقم (١٣٦ـــ١٠٥٩)

[2] مسلم (١٤٠١/٣) برقم (٨٠ ـــ١٧٧٦)

[3] أحمد، المسند (٣٧٦/٣ـــ٣٧٧). وقال محققوا طبعة الموسوعة الحديثية، شُعيب الأرنؤوط وآخرون: إسناده حســـن (٢٧٥/٢٣) برقم (١٥٠٢٧)

وفي هذا الوصف ما يدل على تضافر بعض الأمور التي أدت إلى انتصار العدو أول المعركة، منها تفرق العدو في الشعاب ومنعطفاته ومضايقه؛ واختفاؤهم فيها، وهو معنى (كمنوا لنا) وكذلك هيؤهم لذلك الأمر. وفي نفس الوقت كان نـــزول المسلمين مع الوادي؛ وهو (أجوف) أي واسع كبير، (وحَطوط) أي فيه نـــزول وتَسَفُّل، فهذا جعلهم ينحدرون فيه انحدارا، وفي (عماية الصبح) أي بقيت فيه ظلمة من الليل.

وهـــنا تفاجأ المسلمون بكتائب عدوهم، قد شدت عليهم شدة رجل واحد، إضـــافة إلى أن بعض المسلمين لم يكن متهيئاً بالسلاح، فعن البراء ﷺ (...ولكنه خرج شبان أصحابه وخِفَافُهُم حُسْراً ليس بسلاح، فأتوا قوماً رماة...)[1] وانهزم الناس، حتى أنه لا يلوي أحدٌ على أحد.

ومـــزيد مـــن التفصيل فيما رواه أنس ﷺ (...وعلى مجنبة خيلنا خالد بن الولـــيد، فجعلـــت خيلنا تلوي خلف ظهورنا، فلم نلبث أن انكشفت خيلنا، وفرت الأعراب، ومن نعلم من الناس..)[2]

فلـــئن كانـــت تلك المحاور التخطيطية؛ وانكباب بعض المسلمين على الغنائم؛ والمفاجـــأة مـــن العدو بالكمين لهم؛ كانت سبباً مادياً، لتظهر سنن الله تعالى الكونية والاجتماعـــية، فإن هناك ثمة سبب آخر؛ هو أقوى من كل تلك الأسباب، قد بينه الله تعالى، ليتعلم المؤمنون منه درساً عظيماً عبر تاريخهم الطويل الذي سيمتد بهم حتى قيام الساعة؛ بإذن الله تعالى. قال تعالى ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾[3]

---

[1] البخاري (٢/٣٤٠) برقم (٢٩٣٠)

[2] مسلم (٢/٧٣٦ـ٧٣٧) برقم (١٣٦ـ١٠٥٩)

[3] سورة التوبة: آية رقم (٢٥)

يَذْكُـرُ اللهُ تعـالى للمؤمنين فضلَه عليهم وإحسانَه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة؛ من غزواتهم مع رسوله ﷺ وأن ذلك من عنده تعالى؛ وبتأييده وتقديره؛ لا بعددهم ولا بعدتهم، وأن النصر من عنده سبحانه وتعالى؛ سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً، فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ثم أنـزل نصره وتأييده على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين الذين معه.[1]

وفي خضـم ذلك يبـرز موقف لامرأة من المسلمين؛ هي أُمُّ سُلَيْم. فعن أنس ﷺ (أن أُمَّ سُـلَيْمٍ اتخـذت يوم حنين خنجراً، فكان معها. فرآها أبو طلحة. فقال يا رسـول الله ! هـذه أُمُّ سُلَيْمٍ معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ : ما هذا الخنجر ؟ قالـت: اتخذتـه إن دنا مِنِّي أحدٌ من المشركين بقرت به بطنه. فجعل رسول الله ﷺ يضـحك. قالت: يا رسول الله ! أقتل مَنْ بعدَنا من الطلقاء، انهزموا بك. فقال رسول الله ﷺ : يا أُمَّ سُلَيْمٍ ! إن الله قد كفى وأحسن)[2]

قـال الإمام النووي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ :وفي هذا: الغزو بالنساء وهو مُجْمَـع عليه... والطلقاء هم الذين أسلموا من أهل مكة يوم الفتح، سموا بذلك لأن الـنبي ﷺ مَـنَّ عليهم وأطلقهم، وكان في إسلامهم ضعف، فاعتقدت أم سُلَيْم أنهم منافقون، وأنهم استحقوا القتل بانهزامهم وغيرهم؛ وقولها من بعدنا أي من سوانا.[3]

وفي هذا دليل على شجاعة أم سليم رضي الله تعالى عنها. وكذلك فيه بيان أن مـن أسـباب هزيمة المسلمين تصرف الطلقاء بانهزامهم. إذ تقول (أَقْتُلُ مَنْ بعدَنا من الطلقـاء، انهزموا بك) وفيه كذلك إخبار المرؤوس للقائد بما يراه. وفيه من الفوائد أهمـية السؤال عن العلة قبل اتخاذ الحكم من قوله ﷺ لأم سليم (ما هذا الخنجر ؟)

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٥٦ـ٣٥٧)

[2] مسلم (٣/١٤٤٢ـ١٤٤٣) برقم (١٨٠٩)

[3] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١٨٨)

وفيه كذلك كريم خُلُقه ﷺ حيث ابتسم لأم سُلَيْم لصنيعها وتعليلها، مما يؤكد أهمية الابتسامة حتى في أحلك الأوقات. وفيه كذلك عدم التعنيف وتسليط الكلام على ما حدث من أخطاء؛ حيث اكتفى رسول الله ﷺ لأم سُلَيْم بقوله (إن الله قد كفى وأحسن) وفي هذا بيان الاكتفاء بنصر الله وإحسانه، والاستغناء عن العتاب والتأنيب. وفيه إسدال النصر والإحسان إلى الله تعالى،المتفضل بالنصر والإنعام. ومن فوائد إجابته ﷺ تعليم المتعلم بجماع اللفظ ودلالاته الغزيرة. وأنه ﷺ قد أعطي جوامع الكلم.

وأما ما كان من حال رسول الله ﷺ فيقول أنس ﷺ (...ومع النبي يومئذ عشرة آلاف، ومعه الطلقاء، فأدبروا عنه. حتى بقي وحده...)[١]

فالنبي محمد ﷺ لم يتراجع؛ وبقي عليه الصلاة والسلام مِقْدَامَاً شجاعاً واثقاً بربه سبحانه وتعالى، مُقَدِّماً للأمة الأنموذج القيادي الفريد. يذكر ابن حجر في جمعه بين الروايات: (حتى بقي وحده) وبين الأخبار الدالة على أنه بقي معه جماعة، بأن المراد؛ بقي وحده متقدماً مقبلاً على العدو، والذين ثبتوا معه كانوا وراءه.[٢] فعن جابر بن عبد الله (...فانطلق الناس، إلا أن مع رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته غَير كثير، ثبت معه ﷺ أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وابنه الفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وربيعة بن الحارث، وأيمن بن عبيد؛ وهو ابن أم أيمن، وأسامة بن زيد...)[٣]

وعن كثير بن عباس بن عبد المطلب، قال: قال عباس: (شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين؛ فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسولَ الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، أهداها له فروة بن نُفاثَة الجُذَامِيُّ. فلما التقى المسلمون والكفار، ولَّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته

---

[١] مسلم (٢/٧٣٥—٧٣٦) برقم (١٣٥—١٠٥٩)

[٢] ابن حجر، فتح الباري (٨/٢٩)

[٣] أحمد، المسند (٣/٣٧٦—٣٧٧)

قَبَلَ الكفار، قال عباس، وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة ألا تُسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ ...)[١]

وفي هـذا المشهد البطولي من رسول الله ﷺ يبين شجاعته التي ليس لها نظير، وبسالته وثقته بربه وبنصره وتأييده؛ وقوة إيمانه التي جعلته يتقدم صوب العدو ببغلته البيضاء، وليست البغلة كالفرس في الحرب، وبالرغم من ذلك يتقدم بها مسرعاً؛ حتى أن العباس ﷺ يقول (وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة ألا تُسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ) ويمكن الجمع بأن أبا سفيان آخذٌ أولاً بزمامها؛ فلما ركضها النبي ﷺ إلى جهة المشركين خشي العباس فأخذ بلجام البغلة يكفها، وأخذ أبو سفيان الركاب وترك اللجام للعباس إجلالاً له؛ لأنه كان عمه. بل ومن شجاعته ﷺ أن الصحابة يلوذون به إذ اشتدت الحرب[٢] قال (... البراء: كنا والله ! إذا احْمَرَّ البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به. يعني النبي ﷺ)[٣]

وهذا الوصف غاية في شجاعته ﷺ وقوته التي لا يجاريه فيها أحد من الشجعان أبداً، وأن غاية الشجاع من الصحابة الذي يحاذيه وهو متق به ﷺ. مما يفيد أن الذي يُقتدى به؛ يلزمه مزيد قدوة لغيره، حسب الموطن الذي هو فيه. وهذا مبدأ قيادي وإداري وتربوي ودعوي، في غاية الأهمية لميدان النجاح العملي.

وقوله (بغلته) هي البغلة البيضاء، وله من حديث سلمة (وكان على بغلته الشهباء) ووقع عند ابن سعد وتبعه جماعة ممن صنَّف في السيرة أنه ﷺ كان على بغلته دلدل، ودلدل أهداها له المقوقس. ويحتمل أن يكون يومئذ ركب كلاً من البغلتين إن ثبت أنها كانت صحبته. وإلا فما في الصحيح أصح.[٤]

---

(١) مسلم (٣/١٣٩٨ــ١٣٩٩) برقم (١٧٧٥)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٨/٣٠)

(٣) مسلم (٣/١٤٠١) برقم (٧٩ــ١٧٧٦)

(٤) ابن حجر، فتح الباري (٨/٣٠ــ٣١)

قال العلماء: ركوبه ﷺ البغلة في موطن الحرب؛ وعند اشتداد الناس هو النهاية في الشجاعة والثبات، ولأنه أيضاً يكون معتمداً يرجع المسلمون إليه، وتطمئن قلوبهم به وبمكانه، وإنما فعل هذا عمداً؛ وإلا فقد كانت له ﷺ أفراس معروفة، ومما ذكره في هذا الحديث من شجاعته ﷺ تقدمه يركض بغلته إلى جمع المشركين، وقد فَرَّ الناس عنه، وفي الرواية الأخرى أنه نزل إلى الأرض حين غشوه، وهذه مبالغة في الثبات والشجاعة والصبر، وقيل فعل ذلك مواساة لمن كان نازلاً على الأرض من المسلمين. وقد أخبر الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ بشجاعته ﷺ في جميع المواطن.[١]

وبالتالي فإن على القائد أياً كان موقعه ومهمته أن يكون مثالاً فيما هو قائد وقدوة فيه. وأن يبذل كل ما في وسعه وقدرته من الشجاعة أو المثابرة والعمل، مع الدقة فيما يقوم به من أداء .

وفيما يخص قَبولَه ﷺ الهدية من الكافر؛ ذكر الإمام النووي: فإن قيل في الحديث قبوله ﷺ هدية الكافر، وفي الحديث الآخر (هدايا العمال غلول) وفي حديث آخر أنه ردَّ بعض هدايا المشركين، وقال (إنا لا نقبل زبد المشركين) أي رفدهم، فكيف يُجمع بين هذه الأحاديث ؟ قال الجمهور: لا نسخ بل سبب القبول أن النبي ﷺ مخصوص بالفيء الحاصل بلا قتال؛ بخلاف غيره، فقبل النبي ﷺ ممن طمع في إسلامه وتأليفه لمصلحة يرجوها للمسلمين، وكافأ بعضهم، وردَّ هدية من لم يطمع في إسلامه، ولم يكن في قبولها مصلحة. وأما غير النبي ﷺ من العمال والولاة فلا يحل له قبولها لنفسه عند جمهور العلماء، فإن قبلها كانت فيئاً للمسلمين، فإنه لم يهدها إليه إلا لكونه إمامهم. وإن كانت من قوم هو محاصرهم فهي غنيمة. وقيل إنما قبل النبي ﷺ هدايا كفار أهل الكتاب ممن كان على النصرانية كالمقوقس وملوك الشام، فلا معارضة بينه

---

[١] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١١٥)

وبـــين قوله ﷺ (لا نقبل زبد المشركين) وقد أبيح لنا ذبائح أهل الكتاب ومناكحتهم بخلاف المشركين عبدة الأوثان.[1]

ثم بعد هذه الشجاعة والإقدام منه ﷺ يقول عباس ﷺ (...فقال رســـول الله ﷺ: أي عـــباس ! ناد أصحاب السَّمُرَةِ. فقال عباس: ــ وكان رجلاً صيتاً ــ فقلت بأعــلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرَةِ ؟ قال: فوالله ! لكأن عَطْفَتَهُمْ حين سمعوا صوتي عَطْفَةُ البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك ! يا لبيك ! قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصـــار، يقولون: يا معشر الأنصار ! يا معشر الأنصار ! قال: ثم قُصِرَتِ الدّعوة عــلى بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج ! يا بني الحارث بن الخزرج !...)[2]

وفي تعـــيين العباس بذلك ما يفيد أهمية الاستفادة من خصائص الأعوان، فقد كـــان ﷺ صيتاً : قال الإمام النووي: ذكر الحازمي في المؤتلف: كان يقف على سلع فيـــنادي غلمانه في آخر الليل؛ وهم في الغابة؛ فَيُسْمِعُهُم. قال وبين سلع والغابة ثمانية أميال.[3]

وأهـــل السَّمُرَة هم أهل بيعة الرضوان يوم الحديبية، وهي الشجرة التي بايعوا تحـــتها بيعة الرضوان.[4] وفي انعطافهم بتلك الصورة والمثال المذكور من عباس ﷺ ما يفيد سرعة استجابتهم، وقربهم من رسول الله ﷺ وأنهم لم يفروا عنه ببعيد، وفيه كذلك مكانتهم العالية إذ بدأ النداء بهم.

ومـــن فوائد هذا الحديث حُسن التصوير اللفظي من عباس ﷺ وأهمية البيان والفصاحة الموجزة في الوصف الذي يغني عن كثرة الكلام.

---

(١) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١١٤/١٢)

(٢) مسلم (١٣٩٨/٣ــ١٣٩٩) برقم (١٧٧٥)

(٣) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١١٥/١٢)

(٤) المرجع السابق (١١٥/١٢)

قال العلماء : في هذا الحديث دليل على أن فرارهم لم يكن بعيداً، وأنه لم يحصل الفرار من جميعهم.[1]

ومن ثم المناداة بالأنصار، وهم داخلون في أهل بيعة الرضوان، ولعله من التخصيص بعد ذكر العام للأهمية والعناية . والله تعالى أعلم. وفي ذلك من الفوائد أهمية الوصف الجميل والتذكير بالفعل العظيم عند المناداة، وذلك من قوله ﷺ (ناد أصحاب السَّمُرَةِ) وفيه أهمية الألقاب الطيبة والمناداة بها، وأثرها الحميد؛ لما ارتبطت به من المعاني أو الدلالات العظيمة أو الجميلة.

وقد كان من شدة وسرعة انعطافهم إلى رسول الله ﷺ أن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع؛ لبس درعه ثم انحدر عنه؛ وأرسله؛ ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ [2]

وفي صورة أخرى يرويها ابن إسحاق، قال (جاء رجل إلى البراء، فقال: أكنتم وليتم يوم حنين ؟ يا أبا عمارة ! قال: أشهد على نبي الله ﷺ ما وَلَّى، ولكنه انطلق أخِفَّاءُ من الناس، وَحُسَّرٌ إلى هذا الحي من هوازن، وهم قوم رماة، فرموهم برشق من نَبْلٍ كأنها رِجْلٌ من جراد، فانكشفوا، فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلته، فَنَزَلَ وَدَعَا، واستنصر، وهو يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، اللهم نَزِّل نصرك...)[3]

وقد تضمن جواب البراء إثبات الفرار لهم، لكن لا على طريق التعميم.[4] وهذا من بديع الأدب؛ لأن تقدير الكلام: فررتم كلكم؛ فيقتضي أن النبي ﷺ وافقهم

---

[1] المرجع السابق (١١١٥/١٢)

[2] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٧/٢)

[3] مسلم (١٤٠١/٣) برقم (٧٩ـــ١٧٧٦)

[4] ابن حجر، فتح الباري (٢٨/٨)

في ذلك، فقال البراء: لا والله ما فَرَّ رسول الله ﷺ ولكن جماعة من الصحابة جرى لهم كذا وكذا.[1]

وفي هــذا مــن الفوائد حُسْنُ الجواب بما يقتضي المقام، والاستثناء بما يقتضي واقــع الحــال. وقوله (أخفاء) جمع خفيف، وهم المسارعون المستعجلون، وأما قوله (حُسَّراً) أي بغير دروع.[2]

وفــيه من الفوائد أيضاً: أهمية احتواء المناهج التعليمية على نماذج من حُسن الجــواب اللفظي، وبيان أهميته، وممارسة تطبيقه، لما في ذلك من بديع الجواب وحُسنه وأدبه الذي يتوافق مع أخلاقيات ديننا العظيم.

وقوــله ﷺ (أنــا النبي لا كذب) فيه إشارة إلى أن صفة النبوة يستحيل معها الكذب، فكأنه قال: أنا النبي، والنبي لا يكذب، فلست بكاذب فيما أقول حتى أنهزم، وأنا متيقنٌ بأن الذي وعدني الله به من النصر حق، فلا يجوز عليَّ الفرار.[3]

وأمــا نسبته إلى عبد المطلب دون أبيه عبد الله، فكأنها لشهرة عبد المطلب بين الــناس، لما رُزِق من نباهة الذكر وطول العمر، بخلاف عبد الله فإنه مات شاباً، ولهذا كــان كــثير من العرب يدعونه ابن عبد المطلب. وفيه جواز الانتساب إلى الآباء ولو مــاتوا في الجاهلية. والنهي عن ذلك محمول على ما هو خارج الحرب، ومثله الرخصة في الخيلاء في الحرب دون غيرها، وجواز التعرض إلى الهلاك في سبيل الله.[4]

وفي نــزوله ﷺ ودعائه واستنصاره استحباب الدعاء عند قيام الحرب.[5]

---

[1] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١١٧)

[2] المرجع السابق (١٢/١١٧ـــ١١٨)

[3] ابن حجر، فتح الباري (٨/٣١)

[4] المرجع السابق (٨/٣١ـــ٣٢)

[5] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١١٨)

ثم هـــذا مـــزيد تفصيل للعباس ﷺ (... فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته، كالمـــتطاول عليها إلى قتالهم. فقال رسول الله ﷺ : هذا حين حَمِيَ الوطيس. قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال : إنْهَزَمُوا ورب محمد !. قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى. قال: فوالله ! ما هو إلا أن رماهم بحصياته؛ فما زلت أرى حدَّهم كليلا، وَأَمْرَهُم مُدْبرا.)[١]

فيـــبين هـــذا المقطـــع من الحديث مزيداً من شجاعته ﷺ وإقدامه، فقد كان كالمتطاول على بغلته لقتالهم، والتطاول التَمَدُّد إلى الشيء ينظر نحوه.[٢]

وقوله ﷺ (هذا حين حمى الوطيس) قال الأكثرون: هو شبه التَّنور، يُسجر فيه، ويضـــرب مـــثلاً لشدة الحرب التي يُشْبِه حرَّها حَرُّه. وهذِه اللفظة من فصيح الكلام وبديعه؛ الذي لم يُسمع من أحد قبل رسول الله ﷺ.[٣]

(...ثم قـــبض قبضـــة من تراب من الأرض؛ ثم استقبل به وجوههم، فقال: شـــاهت الوجـــوه. فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة. فوَلَّوا مدبرين، فهزمهم الله عزَّ وجلَّ. وقَسَمَ رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين.)[٤]

وفي هـــذا الحديـــث والذي قبله معجزات له ﷺ الأولى : الإخبار بانهزامهم، والثانـــية: أن قبضة من التراب قد أحدثت أثراً فاعلاً في أعينهم، كما جاء في الحديث (فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة) والمعجزة الثالثة: ما حصل للعـــدو من آثار ظاهرة عليهم، من أن حدهم كان كليلاً، أي أن قوتهم كانت ضعيفة، ويشـــاهد ذلك الصحابة، فيرونه بأعينهم، وبالتالي عرف الصحابي راوي الحديث أن

---

[١] مسلم (٣/١٣٩٨ـــ١٣٩٩) برقم (١٧٧٥)

[٢] ابن منظور، لسان العرب (٤١٢/١١)

[٣] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١١٦/١٢)

[٤] مسلم (١٤٠٢/٣) برقم (١٧٧٧)

أمـــرهم مُدْبِرًا. فولوا مدبرين، قد هزمهم الله تعالى بمنه وفضله وجوده وكرمه سبحانه وتعالى.

وفي هـــذا بيان أهمية التوكل على الله تعالى، والأخذ بالأسباب، والعلم اليقيني بـــأن النصـــر في كـــل أمـــر لا يكون إلا بالله، وفيه كذلك أهمية التعلق بالله تعالى لا بالأسباب، وإنما يؤخذ بها دون التعلُّق بها. فترك الأسباب قدح في التشريع، والاعتماد على الأسباب قدح في التوحيد.

وفـــيه مـــن الفوائد، أن العبد المسلم الموحد لا يقيس التفعيل بكثرة الأسباب وقوتهـــا، بل بقوة خالق الأسباب وإرادته. وفيه كذلك أهمية التربية الإيمانية، لما تُحدثه مـــن قوة قلبية؛ يتحقق بها الفوز والنجاح والقوة في الإقدام، والطمأنينة والاستقرار؛ بإذن الله تعالى وتوفيقه وكرمه وجوده.

ومـــا حصل من اطمئنان نفسي عند رسول الله ﷺ وعند المؤمنين؛ كان بفضل من الله تعالى؛ وامتنان منه عزَّ وجلَّ، قال تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]

وفي الآية الأولى ما يفيد أن طمأنينة النفس وسكينتها، والإقدام رزق وهبة من الله تعـــالى، يلـــزم المؤمـــن أن يطلبها مِنْ مُعْطِيْهَا ورازِقها؛ آخذاً بالأسباب المحققة لها؛ والجالبة لمقتضاها؛ من الطاعة والدعاء والتوكل عليه سبحانه وتعالى. وفيها كذلك أن جـــنود الله كـــثير، لا يعرف حدودهم أحد، ولا يدرك كنه قوهم أحد، تتنـــزل بين

---

[1] سورة التوبة: الآيتان رقم (٢٦، ٢٧)

عـــباده. إذ قد لا يراها أحد، فينصر الله تعالى بها من شاء من المؤمنين؛ ويعذب بها من يشاء، ويهزم بها أعداء الدين.

وفي هذا من الفوائد: أهمية التوكل على رب البرية، واستنـــزال النصر والعون والمـــدد مـــنه جلَّ جلاله؛ بالطاعة والدعاء والثقة به سبحانه وتعالى، كما ترجم ذلك رســـول الله ﷺ قولاً وعملاً، فحقق الله سبحانه وتعالى له وللمؤمنين معه من السكينة والنصر والتأييد والجند ما كسر له قوة عدوه الضارية، وجعلهم غنيمة للمسلمين كما قـــال جابر بن عبد الله ﷺ (...فوالله ما رَجَعَتْ رَاجِعَةُ الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسرى مُكَتَّفِين عند رسول الله ﷺ)[1]

تعقب المسلمين للفارين بأوطاس والنخلة:

وبعـــد انتصار المسلمين في حنين أمر رسول الله ﷺ بتعقبهم، قال ابن إسحاق: ولمـــا انهزم المشركون أتَوا الطائف؛ ومعهم مالك بن عوف، وعسكر بعضهم بأوطاس، وتوجـــه بعضهم نحو نخلة. وتبعت خيل رسول الله ﷺ من سلك في نخلة من الناس، ولم تتبع من سلك الثنايا.[2]

وعـــن أبي بُردةَ عن أبي موسى ﷺ (لما فرغ النبي ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقيَ دُرَيدَ بن الصِّمَّة، فَقُتِل دُريد، وهزم الله أصحابه. قال أبو موســـى: وبعثني مع أبي عامر، فَرُمِيَ أبو عامر في ركبته. رماه جُشَمِّي بسهم فأثبته في ركبته، فانتهيت إليه فقلت: يا عمَّ من رماك ؟ فأشار إلى أبي موسى، فقال: ذاك قاتلي الـــذي رمـــاني، فَقَصَدتُ له، فَلَحِقتُه، فلما رآني ولّى، فأتبعتُه؛ وجعلت أقول له: ألا تستحي ! ألا تثبت ! فكفَّ. فاختلفنا ضربتين بالسيف، فقتلته...)[3]

---

[1] أحمد، المسند (٣/٣٧٦ـــ٣٧٧)

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٩٥)

[3] البخاري (٣/١٥٦ـــ١٥٧) برقم (٤٣٢٣)

وفي هذا المقطع من هذا الحديث؛ يتبين ملاحقة النبي ﷺ لهوازن، مما يدلل على الانتصار الساحق للمسلمين، حتى هربت هوازن ومن معها إلى نخلة وأوطاس، وهو واد في ديار هوازن، وهناك عسكروا هم وثقيف؛ ثم التقوا بحنين.[1] ويفيد هذا التعقب من المسلمين؛ أهمية إظهار القوة لكسر شوكة العدو، لما في ذلك من المصلحة.ويبين هذا الحديث كذلك انهزام العدو في هذه المعركة.

وقد قُتِل منهم ثلاثمائة، وأن الذي قتل دريد بن الصمة هو الزبير بن العوام ﷺ وأن دريداً عندما رأى الزبير قال خلّوه لي، فقال: هذا الزبير بن العوام، وهو قاتلكم ومخرجكم من مكانكم هذا.[2]

وفي كلام دريد ما يدل على شجاعة وإقدام الزبير بن العوام ﷺ وأنه معروف ومشهود له بذلك.

وأما الصحابي الجليل؛ أبو عامر ﷺ فهو عبيد بن سليم بن حضار الأشعري، وهو عم أبي موسى.[3] وفي سؤال أبي موسى لعمه أبي عامر عمن قتله ما يفيد أهمية العناية والمواساة للعم حتى في أرض المعركة. ثم يتبين شجاعة أبي موسى حيث تعقب الرجل، وقد تولى واستوقفه باستثارة بواعث الحياء من الهرب، فتقاتلا حتى أظفره الله تعالى بعدوه فقتل الجُشَمي.

و الجُشَمّي نسبة إلى بني جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن.[4]

ثم يقول أبو موسى ﷺ (... ثم قلت لأبي عامر: قَتَل الله صاحبك. قال: فانزع هذا السهم، فنزعته؛ فنزل منه الماء. قال: يا ابن أخي، أقرئ النبي ﷺ السلام، وقل له: استغفر لي. واستخلفني أبو عامر على الناس. فمكث يسيراً ثم مات.

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٨/٤٢)

(2) المرجع السابق (٨/٤٢) وقال رواه البزار في مسند أنس بإسناد حسن.

(3) المرجع السابق (٨/٤٢)

(4) المرجع السابق (٨/٤٢)

فرجعتُ فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مُرمَلٍ، وعليه فراش؛ قد أثّرَ رمالُ السرير بظهره وجنبيه. فأخبرته بخبرِنا؛ وخبر أبي عامر، وقال: قل له يستغفر لي، فدعا بماء فتوضأ، ثم رفع يديه فقال: اللهم اغفر لعُبيد أبي عامر، ورأيت بياض إبطيه. ثم قال: اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس. فقلت: ولي فاستغفر. فقال: اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مُدْخَلاً كريماً. قال أبو بُردة: إحداهما لأبي عامر، والأخرى لأبي موسى.)[١]

وفي الحديث زُهْدُ رسولِ الله ﷺ حيث كان (على سرير مُرمَلٍ) أي معمول بالرمال، وهي حبال الحصير التي تُضفّر بها الأسرة.[٢] وعليه فراش، ولكن الفراش لم يكن وثيراً يمنع تأثير حبال السرير على الجسم، فأثر ذلك على ظهره وجنبيه ﷺ

وفي الحديث استحباب الوضوء عند الدعاء، ورفع اليدين كذلك، وقد ظهر بياض إبطيه ﷺ كما جاء في الحديث (ورأيت بياض إبطيه) . وفيه الاستجابة للوصية، ورفع الصوت بالدعاء، وطلب الدعاء من الفاضل للمفضول، وفيه كذلك حرص الصحابة على دعاء النبي ﷺ لهم، كما حَرِصَ أبو عامر؛ ثم حَرِصَ أبو موسى رضي الله تعالى عنهم على ذلك. وفيه كذلك كرم النبي ﷺ حيث زاد في الدعاء عن ما طُلب منه، سواء لأبي عامر أو لأبي موسى. ومن فوائده تطييب خاطر المقتول قبل وفاته بقتل قاتله الكافر ما أمكن ذلك؛ ويقاس عليه الاجتهاد في تطييب خاطر من حاله مدبر عن الدنيا؛ مقبل على الآخرة؛كالمريض.

وقد أسفرت هزيمة عدوهم عن مقتل سبعين من بني مالك من ثقيف، وقُتِلَ من الأحلاف من ثقيف رجلين.[٣] وقُتِل بأوطاس ثلاثمائة كما سبق بيانه. وقُتِل آخرون.

---

[١] البخاري (٣/١٥٦ــ١٥٧) برقم (٤٣٢٣)

[٢] وفي لسان العرب: وقد رمل سريره وأرمله إذا رمل شريطاً أو غيره فجعله ظهراً له. (١١/٢٩٥) ابن حجر، فتح الباري (٨/٤٣)

[٣] ابن هشام، السيرة النبوية(٤/٩٢)

وأما من المسلمين فقد استشهد أربعة، وهم: أيمن بن عبيد، ويزيد بن زَمْعَة بن الأسود، وسراقة بن الحارث، وأبو عامر الأشعري.[1]

وكـــان السبي ستة آلاف، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة.[2]

ومـــن أحـــداث هـــذه الغزوة أنه روي أن الشيماء بنت الحارث ممن وقع في الأسر، فقالت لرسول الله ﷺ إني أختك من الرضاعة، فبسط لها رسول الله ﷺ رداءه، فأجلسها عليه. وخيرها ﷺ بين البقاء معه أو أن تلحق بقومها، فقالت تمتعني وتردني إلى قومي، فمتعها رسول الله ﷺ وردها إلى قومها.[3]

ويســـتفاد من هذه الرواية كريم خُلُقه ﷺ وعنايته وحفاوته بصلة الرحم. مما يؤكد أهمية الأخوة من الرضاعة ومنـــزلتها، وما ينبغي من إكرام لها.

ومن أحداث هذه الغزوة أيضاً ما رواه أبو الطفيل ﷺ قال (رأيت رسول الله ﷺ بالجعـــرانة، فجاءتـــه امرأة وأنا يومئذ غلام، فلما دنت من رسول الله ﷺ بسط لها رداءه، فجلست عليه، فقلت: من هذه ؟ قالوا: أمه التي أرضعته)[4]

ويســـتفاد من هذه الرواية كريم خُلُقه ﷺ وعنايته وتقديره لأمه التي أرضعته، حـــتى بسط لها رداءه ﷺ مما يبين أهمية إكرام الأم للرضاعة والحفاوة بها. وفيه كذلك فطنة واهتمام الصحابي أبي الطفيل ﷺ حيث سأل عن تلك المرأة وهو صغير؛ لِمَا رأى من حفاوة الرسول ﷺ بها. وفي هذا دليل على العناية التربوية لذلك الجيل حتى جعلته يفطن لهذا الأمر.

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (١٠١/٤)

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٥٢/٢)

(3) ابن هشام، السيرة النبوية (١٠١/٤)

(4) الحاكم، المستدرك (١٦٤/٤) وقال: هذا حديث صحيح و لم يخرجاه.

غزوة الطائف :

بعـــد تعقب الفارين في نخلة وأوطاس توجه رسول الله ﷺ إلى الطائف، فسلك عـــلى نخلـــة اليمانية، ثم على قرن، ثم على المليح، ثم على بُحْرَة الرغاء من لية، فابتنى مســـجداً فصلى فيه.[1] ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نـــزل قريباً من الطائف، فاقترب العسكر من حائط الطائف، فَقُتِل به ناس من الصحابة بالنَّبل، ولم يتمكن المسلمون من دخـــول الحصـــن، فلما أصيب أولئك النفر من الصحابة ــ رضي الله تعالى عنهم ــ بالنـــبل، وضع عسكره عند مسجده الذي بالطائف اليوم، فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة، ويقال: سبع عشرة ليلة.[2]

ويُســـتفاد من ذلك المشهد عنايته ﷺ بالمسجد لإقامة ذكر الله تعالى، مما يفيد الأهمـــية العظمـــى للصـــلاة التي من أجلها تُتخذ المساجد، إضافة إلى أهمية أدائها مع الجماعة التي ما اتُّخِذَ المسجدُ إلا من أجل أن تقام الجماعة.

وفي هذا المشهد من الفوائد أهمية الصبر على أداء المهام العملية، سواء أكانت جهادية أم إدارية. وأن ما يريده ويرغبه المسلم لا يأتِ إليه في كل حين على بساط من السهولة والدعة، بل لا بد من حدوث العناء والمشقة، فها هو رسول الله ﷺ وصحابته الكرام يُحَاصِرُون الطائف فلا ينالونها، ويُستشهد منهم اثنا عشر رجلاً.[3] بِنَبْلِ العدو.

وبالـــرغم مما لقي المسلمون من تعنت ثقيف ورشقها للمسلمين بالسهام، حتى استشـــهد منهم اثنا عشر صحابياً، إلا أن رسول الله ﷺ كان يطمع في إسلامهم، وهم الذيـــن طـــردوه من الطائف؛ عندما جاءهم داعياً، بعد أن رغبت قريش عن دعوته، فَيُقَال له في هذا الحصار أدع عليهم يا رسول الله ! فيقول عليه الصلاة والسلام؛ كما جـــاء في الحديـــث الذي رواه جابر (قالوا: يا رسول الله أَحْرَقَتْنَا نِبَالُ ثقيف فادع الله

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (١٢٤/٤)

(2) المرجع السابق (١٢٥/٤)

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٥٨/٢)

علــيهم. قال: اللهم اهد ثقيفاً)[1] فيدل هذا الحديث على سمو خُلُقه ﷺ وعلو فضله، وطيبة قلبه، وكرمه وجوده وعفوه، ونــزاهته من الحقد والضغينة؛ عليه أفضل الصلاة والسلام. مما يلزم المسلم الاقتداء والتأسي بهذا الخُلُق النبوي العظيم.

ويفــيد كذلك هذا الصنيع النبوي الكريم أن الهدف الذي يرجوه ﷺ من كل أحــد؛ وحتى من أَلَدِّ أعدائه هو الدخول في الإسلام، ليحقق مراد ربه سبحانه وتعالى، ويــؤدي واجــب الرسالة الذي كان فيها حقاً أميناً أميناً ﷺ وفيه من الفوائد كذلك منــزلة ثقيف ومكانتها، وما تميزت به. مما يدل على أن يحرص المسلم على من يتوخى فيهم الخير، لطيب معدهم، أو لميزة يستفيد وينتفع بها الإسلام والمسلمون. وأن يدعوا لهم بالهداية؛ حتى ولو كانوا كفاراً؛ كما دعا عليه الصلاة والسلام لثقيف (اللهم اهد ثقــيفاً) . وفــيه من الفوائد أن على الداعية؛ بل وعلى كل مسلم أن لا يجعل الحقد والبغضــاء مانعــان له عن الخير أثناء الدعوة أو الجهاد، فيمنعانه ويُغيبان عنه الهدف الدعوي الذي هو إخراج الناس من الكفر إلى الإسلام.

وفيه من الفوائد أن سلامة الهدف يحقق سلامة الفكر وبعد النظر. وفيه كذلك أهمــية ممارسة العملية التربوية في كل لحظة من لحظات الحياة، ليتعلم بالقدوة والأسوة من يحيطون به. وفيه كذلك أن على القائد أن يكون بعيد النظر، يحسب ويقدر الأشياء والتبعات، ويدرك أن الْمُصَابَ قد يطلب ما يعزِّيه في مصابه. حيث قالوا للنبي ﷺ (يا رسول الله أحرقتنا نِبَالُ ثقيف فادع الله عليهم.)

وقــد استخدم المسلمون في حصارهم الطائف المنجنيق، حيث رموا به العدو، وهم أول من رمى به في الإسلام. كما أنهم استخدموا الدبابة ليحتموا بها عن السهام، ثم زحفــوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف سكَكَ الحديد، محماة

---

[1] الترمذي (٤/٦٨٥) برقم (٣٩٤٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

بالـــنار، فخـــرجوا من تحتها، فرمتهم ثقيف بالنبل. فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف.[١] ثم سألوه أن يدعها لله وللرحم، فقال رسول الله ﷺ إني أدعها لله وللرحم.[٢]

ومـــن فوائد هذا المقطع من حصار الطائف: الاستفادة من مستجدات آلات الحـــرب لكســـر الحصـــون، ومن الابتكارات التي تكون عند الغير من الناس، حيث اشـــتهرت جـــرش اليمانية التي لا تـــزال أطلالها قائمة في أعلى وادي بيشة اشتهرت بصناعة الدبابات والمنجانيق.[٣] وفيه كذلك تهديد العدو باجتثاث ما يحب من الثمار، والشروع فيه، بُغْيَةَ استسلامه أو التفاوض، وليس بهدف العبث والفساد. وفيه كذلك مـــنزلة الرحم، والعدول عن الفعل مراعاة للمستجار به، وهو الله سبحانه وتعالى، والرحم. وفي هذا تقديس للرب تبارك وتعالى، ولمنـــزلة الرحم ومكانتها في الإسلام.

ومـــن مشاهد هذا الحصار أن نادى منادي رسول الله ﷺ أيما عبد نـــزل من الحصن وخرج إلينا فهو حُرّ ! فخرج منهم بضعة عشر رجلاً، منهم أبو بكرة، نـــزل في بكـــرة، فأعتقهم رسول الله ﷺ.[٤] وفي صحيح البخاري (...فنـــزل إلى النبي ﷺ ثالث ثلاثة وعشرين من الطائف) وهو الأصح.[٥]

وفي هذا من الفوائد أهمية استخدام الحكمة والسُبُل لإضعاف العدو، وقد ذكر ابن سعد أن ذلك شَقّ على أهل الطائف مشقة شديدة.[٦]

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١٢٦/٤)

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٥٨/٢)

(٣) أكـــرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٥٠٩/٢) ومكونات المنجنيق من عمود طويل موضوع على عربة ذات عجلتين، في رأسها حلقة أو بكرة، يمر بها حبل متين، في طرفه الأعلى شبكة في هيئة كيس، توضع فيها حجارة أو مواد محترقة، ثم تُحرك بواسطة العمود والحبل، فيندفع ما وُضع في الشبكة ويسقط على الأسوار. حاشية المرجع نقلاً عن محمود شيت خطاب، الرسول القائد، ص ٢٥٤.

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٥٨/٢ــ١٥٩)

(٥) البخاري (١٥٧/٣) برقم (٤٣٢٦، ٤٣٢٧)

(٦) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٥٩/٢)

وفيه من الفوائد كذلك: الوفاء بالعهد وعدم الغدر، حيث وَفَّى رسول الله ﷺ بما عَهِد به. وفيه كذلك أن القائد لا يباشر كل عمل هو بنفسه؛ بل يمارس بعض مهامه من خلال أعوانه ومساعديه، حيث أن الذي نادى هو منادي رسول الله ﷺ

(لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف فلم ينل منهم شيئاً، قال: إنا قافلون إن شاء الله، فَثَقُل عليهم، وقالوا: نذهب ولا نَفْتَحه ؟ وقال مرة: نقفل، فقال: اغدوا على القتال، فغدوا؛ فأصابهم جراح، فقال: إنا قافلون غداً إن شاء الله، فأعجبهم، فضحك النبي ﷺ وقال سفيان مرة: فتبسم.)[١]

وفي الحديث رَبْطُ النبي ﷺ مراده بمشيئة الله تعالى، وهو ما يلزم المؤمن الأخذ به في كل ما يعزم عليه. وفيه كذلك أن كل مراد للإنسان لا يتحقق إلا بمشيئة اللطيف الحكيم الخبير سبحانه وتعالى. وفيه كذلك من الفوائد مراعاة القائد الحربي أو الإداري لمطالب من معه؛ وإن كانت على غير مطلبه، وفي ذلك تطييب لخواطرهم. وفيه قبول الرأي الجماعي في الإدارة وإن كان مرجوحاً على رأي الرئيس أو القائد أو المدير. وفيه مراعاة الجوانب النفسية للعاملين مع القائد أو المدير والرئيس. وفيه كذلك شفقته ورفقه بأصحابه ﷺ لما رأى شدة تَحَصّن العدو، ثمّ ما حصل لهم بعد تحقيق مطلبهم من استمرار محاولة الفتح.

وفيه من الفوائد أن القائد أو المدير أو المربي لا يُعَنِّف ويُذَكِّرُ أتباعه بخطأ رأيهم إذا تبين بعد ذلك مرجوحيته لهم، وتكفيه منه الابتسامة لهم؛ كما فعل ﷺ وكذلك أن لا ينزعج من مخالفة رأي أعوانه له. وفيه كريم خُلُقه ﷺ ومراعاته لمشاعر من معه ﷺ وأنه لا ينطق عن الهوى ﷺ وأنه ليس بالشديد ولا العنيف، بل لطيف وكريم في تعامله ﷺ فمنهجه فيما يحصل مبني على (قَدَرُ الله خير).

---

[١] البخاري (٣/١٥٧) برقم (٤٣٢٥)

وقد كان حصار الطائف أربعين ليلة.[1] وعند أهل السير اختلاف، قيل عشرين يوماً وقيل بضع عشرة، وقيل ثمانية عشر، وقيل خمسة عشر.[2]

تقسيم الغنائم وإسلام هوازن:

لقد انصرف رسول الله ﷺ من الطائف في شوال إلى الجعرانة.[3] حيث ترك رسول الله ﷺ غنائم حنين في الجعرانة، قبل أن يتحرك لحصار الطائف، وبعد عودته ﷺ من الطائف إلى الجعرانة لم يستعجل في تقسيم تلك الغنائم لأمر كان يتوقعه ﷺ وهو إسلام هوازن، على ما سيأتي تفصيله وبيانه قريباً إن شاء الله تعالى.

فلقد انتظر رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة ينتظر هوازن، فلما تأخرت جاء تقسيم الغنائم، ولقد قسّم رسول الله ﷺ تلك الغنائم قسمة يتبين منها منهجية الإسلام، والمقصد الأسمى حتى في العطايا، أنها لإخراج الناس من الكفر إلى الإيمان، وتقوية قلوب من دخل في الإسلام حديثاً، حتى لا يرتد عن هذا الدين العظيم، فلقد كان يعطي ﷺ من تلك الغنائم ما يذهل له العقل، لما تضمنه من السخاء في العطاء، حيث أعطى بعض الأفراد المائة من الإبل، وقد سمى ابن إسحاق اثنا عشر رجلاً؛ قد أعطى رسولُ الله ﷺ كلَّ واحد منهم مائة من الإبل.[4] ومن أولئك من سمّاهم رافع بن خديج ﷺ كما في صحيح البخاري، قال (أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، كلَّ إنسان منهم مائة من الإبل، وأعطى عبَّاس بن مرداس دون ذلك، فقال عبَّاس بن مرداس:

أتجعل نهبي ونهب العُبَيْدِ   بين عيينة والأقرع ؟

---

(1) مسلم (٢/٧٣٧) برقم (١٣٦ــ١٠٥٩)

(2) ابن حجر، فتح الباري (٨/٤٥)

(3) المرجع السابق (٨/٣٣)

(4) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/١٣٥ــ١٣٧)

فما كان بَــدْرٌ ولا حابسٌ يفوقان مِرداس في المجمــع
وما كنت دون امرئ مِنْهما ومن تَخْفِضِ اليوم لا يُرْفَعِ

قال: فأتم له رسول الله ﷺ مائة)[1]

وفي هـــذا الموقــف العطائي من النبي ﷺ ما يفيد ويبين كرم النبي ﷺ ومعرفته لحقــيقة المال في الدنيا، وتسخيره لما فيه خير الإسلام. وفيه إنــزال الناس منازلهم من العطاء. وفيه مراعاة الطبائع النفسية، حيث زاد لعباس بن مرداس بما جعله يتساوى مع مـــن قـــارن نفســـه بهم في الأبيات المذكورة آنفاً. ومن الفوائد عناية العرب بالشعر، واســـتخدامه في مطالبهم ومناقشاتهم، وبه يعبرون عن مشاعرهم وانفعالاتهم، وكذلك فيه الاستماع إلى الكلام المسبوك شعراً، وفيه التجاوب مع المطالب إذا كان في تلبيتها خـــير للطالـــب في دينه. وأما علة العطاء فيوضحها قوله ﷺ للأنصار (...فإني أعطي رجـــالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم...)[2] وفي رواية (...إن قريشاً حديث عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أن أجبُرَهم وأتألفهم...)[3]

وهـــذا يبين أهمية الحكمة وأهمية مراعاة الجوانب النفسية عند الناس، في مجال الدعـــوة والتربـــية والإدارة والسياسة، مما يؤكد عمق المنهج الإسلامي وتفهمه لواقع الـــنفوس وخصائصها، ومراعاة ذلك أثناء التعامل معها. ولئن كان المفهوم النفسي لم يأخذ مصطلحاً، فلقد كان تفعيله في الحياة العامة يرسم منهجية إسلامية بكل أبعادها.

وفي فعلـــه هذا ﷺ ما يبين أهمية تقديم المصلحة العامة أو مصلحة الإسلام على المصالح الذاتية. أو مصالح بعض الجماعات.

قـــال ابـــن حجر: ثم اقتضت تلك الحكمة أن تُقسم تلك الغنائم في المؤلفة، ويوكـــل مـــن قلبه ممتلئ بالإيمان إلى إيمانه...وجبر ذلك قلوب أهل مكة بما نالهم من

---

[1] مسلم (٢/٧٣٧ــ٧٣٨) برقم (١٣٧ــ١٠٦٠)

[2] البخاري (٣/١٥٨) برقم (٤٣٣١)

[3] البخاري (٣/١٥٩) برقم (٤٣٣٤)

النصـــر والغنـــيمة عمـــا حصل لهم من الكسر والرُّعب، فصرف عنهم شر من كان يجـــاورهم من أشد العرب، من هوازن وثقيف؛ بما وقع بهم من الكسرة، وبما قيض لهم من الدخول في الإسلام.[1]

وإزاء هذا العطاء الكبير؛ وعدم إدراك مغزاه البعيد؛ يحدث موقف من أحداث الأنصـــار ــ رضـــي الله تعالى عنهم أجمعين ــ فعن أنس بن مالك ﷺ (أن أناساً من الأنصـــار قـــالوا يوم حنين، حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق رســـول الله ﷺ يُعطـــي رجالاً من قريش؛ المائة من الإبل. قالوا: يغفر اللهُ لرسول الله، يُعطي قريشاً ويتركنا؛ وسيوفنا تقطر من دمائهم ! ...)[2]

وفي هـــذا الموقف من أحداث الأنصار؛ تظهر صورة من صور البشرية؛ التي تحـــدث عـــندما يغيب عنها الحكمة البعيدة من الفعل. ولكنه قول قد امتـــزج بالحب للنبي ﷺ وكأنه كيف يحدث هذا ممن نحبه أكثر من أنفسنا، وكأنه قولٌ أراد الله تعالى به تربـــية مَنْ بَعْدَهُم من المسلمين، بأن المسلم قد يحدث منه التصور القاصر بِقَدْر غياب الحكمة من الفعل عن تصوره. وكلما غابت عنه الحكمة من القول أو الفعل حصل له التســـاؤل، بما يُؤكد أهمية إبراز الحكمة للغير من التصرف؛ حال اتخاذ القرار الذي قد لا تدرك مغزاه وأبعاده العقول مباشرة. وهو ما بينه ﷺ في هذا الموقف (...قال أنس بـــن مالك ﷺ : فَحُدِّث ذلك رسولُ الله ﷺ من قولهم. فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قـــبة من أدم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: ما حديث بلغني عنكم ؟ فقـــال له فقهاء الأنصار: أمَّا ذوو رأينا يا رسول الله ! فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس مِنَّا حديـــثة أســـنانهم، قالوا: يغفر الله لرسوله، يُعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفُنا تقطر من دمـــائهم ! فقـــال رسول الله ﷺ : فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر. أتألفهم. أفلا ترضـــون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعون إلى رحالكم برسول الله ؟ فوالله ! لَمَا

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٤٩/٨)

(2) مسلم (٧٣٣/٢ــ٧٣٤) برقم (١٠٥٩)

تنقلـــبون بـــه خير مما ينقلبون به. فقالوا: بلى يا رسول الله ! قد رضينا. قال: فإنكم ســـتجدون أُثْرَةً شديدةً،[1] فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله. فإني على الحوض. قالوا: سنصبر)[2]

وفي روايـــة أخرى عن أنس بن مالك ﷺ قال: (جمع رسول الله ﷺ الأنصار. فقال: أفيكم أحد من غيركم ؟ فقالوا: لا. إلا ابن أخت لنا. فقال رسول الله ﷺ : إن ابـــن أخت القوم منهم. فقال: إن قريشاً حديث عهد بجاهلية ومصيبة. وإني أردت أن أجـــبرهم وأتـــألفهم. أمـــا ترضون أن يرجع الناس بالدنيا، وترجعون برسول الله إلى بيوتكم؟ لو سلك الناس وادياً، وسلك الأنصار شعباً؛ لسلكت شِعْبَ الأنصار.)[3]

وفي هاتين الروايتين تتبين حكم وفوائد عظيمة وجليلة، منها: أن رسول الله ﷺ لم يـــتخذ أي موقف تجاه مقولة أحداث الأنصار؛ إلا بعد أن استمع لمن أُخْبِر عنهم، مما يؤكد أهمية هذا المسلك الإداري القيادي؛ بأن لا يحمل القائد أو المدير أو رب الأسرة أو السيد في قومه على من بلغته عنهم مقالة حتى يواجههم ويسمع منهم، ليعرف العلة والسبب، وهو المسلك النبوي الإسلامي، الذي تبرز فوائده في مجالات الحياة المختلفة؛ سواء ما كان منها مهنياً أو اجتماعياً أو سياسياً، أو إدارياً، أو تربوياً.

ثم يتبين أن أهل الرأي والمشورة لم يصدر عنهم شيء، وإنما صدر ذلك القول مـــن أنـــاس حديـــثة أسنانهم. مما يفيد أن إدراك حديث السن لا يتساوى مع إدراك الشـــيوخ؛ لما أضيف إلى تفكيرهم من العلم وسعة الخبرة؛ التي ينطلق منها بُعد النظر. وهـــذا ليس لكل مُتقدم في السن، وذاك ليس في كل شاب حديث السن، ولكن على الغالب.

---

[1] الأثرة أي الإنفراد بالشيء المشترك دون من يشركه فيه. والمعنى أنه يستأثر عليهم بما لهم فيه اشتراك في الاستحقاق. ابن حجر، فتح الباري (٥٢/٨)

[2] مسلم (٧٣٣/٢ــ٧٣٤) برقم (١٠٥٩)

[3] مسلم (٧٣٥/٢) برقم (١٣٣ــ١٠٥٩)

وهنا يُلاحَظ أن الأنصار ـ رضي الله تعالى عنهم ـ لم يخفوا شيئاً مما قالوا عن رسول الله ﷺ وذلك لما اتصفوا به من الصدق، حيث بين أنس ﷺ تلك الصفة في قوله عنهم (قالوا: هو الذي بلغك. وكانوا لا يكذبون)[1] حتى أنه دخل سعد بن عبادة ﷺ فأخـبر رسول الله ﷺ بما حصل من قومه. وعندما سأله رسول الله ﷺ (فأين أنت من ذلـك يا سعد ؟ قال: يا رسول الله ! ما أنا إلا امرؤ من قومي...)[2] فكان صادقاً ﷺ في قوله؛ ولم يبحث عن ما يتأول به. بما يعطي درساً تربوياً؛ بأن يكون المسلم صادقاً في كـل تصـرفاته، وإذا كـان الناس يدركون من الإنسان ظاهره، فإن الله تعالى يدرك حقيقته، وإن خفيت على المخلوقين.

وفـيه كذلك أن للقائد أن يخص القوم بالتوجيه دون غيرهم إذا كان في الأمر خصوصية، ولذلك قال ﷺ (أفيكم أحد من غيركم ؟). ثم تفيد الرواية الثانية منـزلة ومكانـة ابن أخت القوم، حيث قال ﷺ (: إن ابن أخت القوم منهم.) وفي هذا القول مـنه ﷺ مـا يفيد مكانة المرأة من قومها إذا كان زوجها ليس منهم، وكذلك مكانة أبنائها عند أخوالهم. فهم من أخوالهم كذلك.[3]

ثم يتـبين منهجـية التدرج في طرح المسألة منه ﷺ حيث بدأ بالجمع، أي جمع الأنصار، ثم السؤال، ثم الاستماع إلى الجواب، ثم ذكر لهم مبررات فعله ﷺ والحكمة الـتي جـاءت من هذا الصنيع النبوي الكريم (فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر. أتألفهم.) (إن قريشاً حديث عهد بجاهلية ومصيبة. وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم.) ثم بعد ذلك يبين مميزاقم ﷺ ومنها أنه أعطى الناس ووكل الأنصار إلى إيمانهم، فأنعم به من وصف ومنقبة للأنصار (...فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل، ثم قال: يا معشر الأنصار ! ما قالة بلغتني عنكم ؟ وجْدَةٌ وجدتموها في أنفسكم !

---

(1) مسلم (٧٣٥/٢) برقم (١٣٤ـ١٠٥٩)

(2) أحمد، المسند (٣/٧٦ـ٧٧)

(3) ذكرت ما يتعلق بمكانة المرأة: خلود بنت خالد الحازمي.

ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا: بل الله ورسوله أَمَنّ وأفضل، قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار ؟ قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله ! ولله ولرسوله المنّ والفضل. قال: أما والله لو شئتم لقلتم؛ فَلَصَدَقْتم وصُدِّقْتم، أتيتنا مُكَذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأغنيناك، وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة[1] من الدنيا؛ تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير؛ وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً؛ وسلكت الأنصار شعباً؛ لسلكت شعْب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، قال فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقنا)[2] (...أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا، وترجعون برسول الله إلى بيوتكم ؟ لو سلك الناس وادياً، وسلك الأنصار شعباً؛ لسلكت شِعْبَ الأنصار.)[3]

وفي هذا بيان لمكانة الأنصار العظيمة منه ﷺ ففي الصحيح أنه ﷺ قال (الأنصار شعار؛ والناس دثار)[4] والشعار الثوب الذي يلي الجسد، والدثار الذي فوقه. وفيه تخصيص الأنصار بالدعاء لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم، وهذه والله خير من تلك العطايا.

---

(١) ومنه قيل في الحديث: إنما الدنيا لعاعة، يعني أن الدنيا كالنبات الأخضر قليل البقاء، ومنه قولهم: ما بقي في الدنيا إلا لعاعة أي بقية يسيرة. ابن منظور، لسان العرب (٣١٩/٨)

(٢) أحمد، المسند (٧٦/٣ـ٧٧)

(٣) مسلم (٧٣٥/٢) برقم (١٣٣ـ١٠٥٩)

(٤) البخاري (١٥٨/٣) برقم (٤٣٣٠)

وفيه كذلك قوة إيمان الأنصار، لأنه ﷺ وكلهم لإسلامهم، وَلَمَا حدث منهم في صدق القول والرضا والبكاء والمحبة العظيمة لرسول الله ﷺ وللمناقب التي ذكرها لهم رسول الله ﷺ

وفـــيه كذلـــك العدل في فصل الخطاب، فلم يهضمهم حقهم ﷺ بل بين ما قدَّمُـــوه للرســـول ﷺ وإن كان ما قدموه لا يعادل ما أصابهم من خير الدنيا والآخرة بهجرته ﷺ إليهم، ولكنه الكرم والخلق النبوي الكريم. وفي قول النبي ﷺ هذا؛ ما يفيد أهمـــية العدل في الحقوق؛ وفي الوصف؛ وفي ذكر المناقب، وأن لا يؤاخذ الإنسان بما لم يُعهد منه.

وفيه كذلك فضل الإيمان على الغنائم المادية، مما يفيد ويبين أن من تفضل الله علـــيه بقوة الإيمان وقلة المال، فقد أغدق الله تعالى عليه وتفضل بخير النعيم. ولكن من يجهل نعمة الإيمان لا يرى النعمة إلا في المال.

قال ابن حجر عن فوائد ذلك: وفيه المعاتبة، واستعطاف المعاتب، واعتابه عن عَتَبِه بإقامة حجة من عتب عليه، والاعتذار والاعتراف. ويوضح له وجه الشبه ليرجع إلى الحـــق. وفـــيه علم من أعلام النبوة لقوله ﷺ (ستلقون بعدي أثرة) وفيه أن للإمام تفضـــيل بعـــض الـــناس عـــلى بعض في مصارف الفيء، وأن له أن يُعطي الغني منه للمصـــلحة. وأن من طلب حقه من الدنيا لا عتب عليه في ذلك. ومشروعية الخطبة عـــند الأمر الذي يحدث، سواء كان خاصاً أم عاماً. وفيه جواز تخصيص المخاطبين في الخطـــبة، وفيه تسلية من فاته شيء من الدنيا بما حصل له من ثواب الآخرة. والحض عـــلى طلـــب الهداية والألفة والغنى، وأن المنة لله ولرسوله ﷺ على الإطلاق. وتقديم جانب الآخرة على الدنيا، والصبر عَمَّا فات منها ليدخر ذلك في الآخرة، والآخرة خير وأبقى.[1]

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٥٢/٨)

وفيه ضرب المثال لتوضيح عمق مكانتهم، وهو ما تقرر في منهجه التربوي ﷺ لأصحابه. (لو سلكَ الناس وادياً، وسلك الأنصار شعباً؛ لسلكت شِعْبَ الأنصار.) ويتميز هذا المثل بأن ذكر الوادي والشعب، والوادي أوسع من الشعب وأرحب، والشعب نهايته جبلان متعانقان، والغالب أن طريق الشعب أصعب لما فيه من الصعود. وبالرغم من جميع تلك المميزات للوادي؛ إلا أن الأنصار لو سلكوا الشعب لسلكه معهم ﷺ واختارهم عن غيرهم وعن الوادي الفسيح. فما أعذب أمثلته وأقواله وتراكيب كلامه ﷺ وصدق محبته وكمال وفائه وعظيم أخلاقه ﷺ

وفي مشهد العطاء النبوي تتبين مشاهد وحِكَم، فقد بلغ تأثير هذا الصنيع النبوي مبلغاً عجيباً في النفوس، ذلك (أن صفوان قال: والله ! لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يُعطيني حتى إنه لأحبُّ الناس إليَّ)[١] (وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائة من النعم، ثم مائة، ثم مائة)[٢] قال أنس رضي الله عنه (إن كان الرجل ليُسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يُسلم حتى يكون الإسلام أحبَّ إليه من الدنيا وما عليها)[٣]

وفي هذا العطاء والاختصاص به لأناس دون غيرهم ما يبين الحكمة النبوية العظيمة، والمنهجية التربوية السديدة، وما ينبغي أن تُعالج به النفوس من العطاء المادي الذي يتناسب مع تطلعاتها، وفي ذلك بيان لأحوال النفس البشرية؛ وأهمية مراعاتها أثناء التعامل مع الخلق. وفيه أيضاً أهمية تأليف القلوب على الإسلام بالمال إذا لزم الأمر ذلك، وأن من دخل في الإسلام طمعاً في لعاعة سيتخلى عن ذلك؛ بإذن الله تعالى، لما يجده في الإسلام من منهجية تغيب معها الأطماع الدنيوية. وبهذا تتبين المنهجية التربوية

---

(١) مسلم (٤/١٨٠٦) برقم (٢٣١٣)

(٢) مسلم (٤/١٨٠٦) برقم (٢٣١٣)

(٣) مسلم (٤/١٨٠٦) برقم (٥٨ـ٢٣١٢)

الإسلامية التي تتعامل مع الإنسان من خلال طبيعته النفسية، وما جُبِلت عليه النفوس من الرغبة في الأموال.

وفي صورة تربوية أخرى تتضح المنهجية العلاجية للنهم والطمع المادي، حيث يقتلع المسلك العلاجي الإسلامي جذور ذلك بتصوير الحال تصويراً بليغاً، حتى لا يبقى منه شيء من إشراف النفس المتجاوزة للحد، أو المخالفة للخُلُق الإسلامي. فهذا حكيم بن حزام ﷺ يذكر منهجية ذلك؛ والتي يرويها عنه سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير، قال حكيم (سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال لي: يا حكيم ! إن هذا المال خَضِرٌ حُلْوٌ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبَارَكْ لَه فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى. قال حكيم: فقلت يا رسول الله ! والذي بعثك بالحق لا أَرْزَأُ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر يدعوا حكيماً ليعطيه العطاء، فيأبى أن يقبل منه شيئاً، ثم إن عمر دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه، فقال: يا معشر المسلمين ! إني أعرض عليه حقه الذي قسم الله له من هذا الفيء؛ فيأبى أن يأخذه، فلم يَرْزَأ حكيمٌ أحداً من الناس شيئاً بعد النبي ﷺ حتى توفي.)[1]

يبين هذا الموقف التربوي من النبي ﷺ مع حكيم بن حزام ﷺ فوائد عديدة جليلة، منها: أن تلك الصفة التي مرَّ بها حكيم بن حزام ﷺ لم تمنعه أن يذكرها للعلم والفائدة، مما يبين تربوياً أهمية نقل التجارب الشخصية للآخرين، بقصد أخذ الفائدة والعلم منها.

ثم يبين هذا الموقف كَرَمَ رسولِ الله ﷺ بتكرار عطائه لحكيم بن حزام ﷺ ثم تلا ذلك التوجيه التربوي منه ﷺ بعد أن أجزل له العطاء؛ فبلغ تأثيره أعماق نفسية حكيم؛ إذ لم يكن التوجيه قبل العطاء،مما يفيد في مثل هذا الموقف أن يكون التعليم والتوجيه بعد العطاء، أو قضاء الحاجة؛ حيث تكون النفس في تلك الحال متجهة

---

[1] البخاري (٢/٤٠٢) برقم (٣١٤٣)

ومـــتعلقة بمـــا تطلـــب حـــتى تناله، وربما متأولة للنصيحة والتوجيه. وأما بعد العطاء والإشـــباع يـــزول ذلك التفسير أو التأويل المتوقع؛ الذي يحول بين المرء وبين إدراك النصيحة والتوجيه. مما يفيد تربوياً تقديم العطاء، أو قضاء حاجة الشخص، ثم التوجيه بعد ذلك، فإنها أبلغ في التأثير.

فكانـــت المنهجـــية التربوية العلاجية لاستشراف النفس؛ في أحسن صورة وأبلغ تأثير، حيث عالج ذلك عليه الصلاة والسلام بعدة ركائز:

أولاً: بيـــان الصـــفة الملازمة للمال؛ واحتكامها منه كاحتكام حب الخُضْرَةِ والحلاوة في النفوس. فالخضرة والحلاوة تَستَلِذُّ بها ولها الطبائع البشرية، وقد لازَمَ ذلك المحـــبوب مـــن الخضرة والحلاوة تلك الأموال، فتتجاذب لها النفوس وتتوق، وفي هذا تقريـــر لهذه الحالة النفسية التي يكشفها رسول الله ﷺ ولم ينفيها عن الطبيعة البشرية، لأن انعدامها في الطبائع الإنسانية يقتل العمل والتطلع، ولكن منهجية الإسلام التربوية تضبط ذلك بالمسلك التربوي الذي يحد من عملية التأثر ببريق المال.

وثانياً في هذه المنهجية العلاجية: يقرر رسول الله ﷺ حالات التعامل البشرية مع هذا المال الفتان بلونه وحلاوته: فآخذ له بسخاوة نفس، أي بغير شَرَهٍ ولا إلحاح، وآخذ له بإشراف نفس، أي بشره وإلحاح، فمن أخذه بالحالة الأولى حفت ذلك المال الـــبركة من الغني الكريم سبحانه وتعالى، ومن أخذه بالحالة والصورة الثانية انتفت منه البركة التي هي أساس صلاح المال.

وثالث هذه الخطوات العلاجية: تشبيه حال الشَّرِه المُلِح المُستَشرِفَة نفسه له؛ والـــتي قـــد فقدت بركة المال؛ بذلك الذي يأكل ولا يشبع. وفي هذا التشبيه النبويَ الكـــريم مـــا يجسد للمستمع والقارئ للحديث حقيقة هذا التعامل في صورة متكاملة المشهد، في جميع وجوهه بأسلوب غاية في الدقة والإيضاح. وهذا الوصف النبوي يبين سبب شراهة البعض تجاه المال، حتى قد يصل به الحال إلى أن لا يتردد في أخذه من غير

حلّه، وبالتالي فإن علاجه في أبسط صور العلاج، أن يُعَوِّد نفسه على عدم استشراف المال بنهم وجشع. ثم تمام العلاج ببيان المفاضلة بين من يأخذ ومن يُعطي (واليد العليا خير من اليد السفلى) لترتسم في ذهن المتعلم ومن يستمع ويقرأ هذا التوجيه النبوي الكريم صورة العطاء وما يلازمه من الخيرية، وصورة السؤال وما يلازمه من الدونية.

ثم يأتي بعد ذلك أثر هذا المنهج العلاجي الكريم كسرعة البرق في ضوئه، والرعد في صوته، ليقتلع ما كان عند حكيم بن حزام ﷺ من ذلك السلوك، فيقول حالاً في مجلسه (والذي بعثك بالحق لا أَرْزَأُ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا) فقد بدأ تأثره وتجاوبه ﷺ مع هذا المنهج النبوي العلاجي: بقسم على أن لا يسأل أحداً شيئاً بعد رسول الله ﷺ حتى مفارقة الدنيا. وكلمة (شيئاً) تعني العموم، ليس المال فقط؛ بل كُلّ شيء، وليس فيه استثناء لزمن أو حالة؛ بل حتى مفارقة الدنيا.

ثم تأتي الممارسة والتطبيق العملي من حكيم ﷺ في صورة من يأتيه المال دونما طلب منه أو استشراف نفس؛ فيرفضه ﷺ، وكأني به ﷺ قد تذكر قول النبي ﷺ (واليد العليا خير من اليد السفلى) بل يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ (يا معشر المسلمين ! إني أعرض عليه حقه الذي قسم الله له من هذا الفيء، فيأبى أن يأخذه) إنها صورة المتعلم والمتربي؛ الملتزم بما تعلمه من نبيه محمد ﷺ إلى درجة التورّع عن ما يجوز له أخذه، وإنها كذلك صورة المنهجية التربوية العلاجية العظيمة التي تضمنها المنهج الإسلامي العظيم. (فمات حين مات وإنه لمن أكثر قريش مالاً)[1]

ثم في مشهد آخر تظهر منهجية نبوية علاجية عظيمة الأثر على النفس البشرية، إذ تستثير فيها مكامن الخير، والبعد عن النهم والجشع، فعن عمرو بن تَغْلَبَ ﷺ قال (أعطى رسول الله ﷺ قوماً ومنع آخرين فكأنهم عتبوا عليه، فقال: إني أُعْطِي قوماً أخاف ظَلَعَهُم وجَزَعَهُم، وأَكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى،

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٣/٣٣٧)

منهم عمرو بن تَغْلَبَ. فقال عمرو بن تغلب: ما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حُمُرَ النَّعَم.)[١]

ففي هذا الحديث ما يدل على أهمية مراعاة الجوانب النفسية والإيمانية عند التعامل مع الآخرين، وفيه ما يدل على الأثر الإيماني العظيم على النفس البشرية؛ في قبولها وإذعانها وهدوئها وانبساطها ورضاها وطاعتها. وهذا يؤكد أهمية التربية الإيمانية إذ هي المرتكز في البناء السلوكي، فلا بناء تربوي من غير بناء إيماني. وفي الحديث دلالة لِمَا يجب على المربي والمدير والحاكم والرئيس والأمير من مراعاة الأحوال الإنسانية عند التعامل؛ في غير إهمال لها. لما يترتب على ذلك من المصالح والمفاسد.

وفيه كذلك أن العتاب قد يصدر ممن غابت عنه حكمة القول أو العمل، وأن ليس للمرء إلا بما علم، وفيه كذلك أن القلب هو مكمن الخير وصندوق الغنى، لقوله ﷺ (وأَكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى) مما يؤكد أهمية العناية التربوية به، وأن من أراد معالجة سلوكه، فعليه أن يبدأ بقلبه أولاً، فهو ميدان العلاج والتأسيس البنائي للسلوك الإنساني، وفي الحديث ما يفيد استغلال الموقف في التربية والتوجيه. وفيه من الفوائد أن الغني ليس المكتنز للأموال؛ المستشرف لها، بل من يملك الغنى النفسي.

وأما المنهجية العلاجية التي تضمنها هذا الموقف، فإنه ﷺ قد بدأ أولاً: ببيان علة العطاء والترك (إني أُعْطِي قوماً أخاف ظَلَعَهُم وجَزَعَهُم، وأَكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى) أخاف ظَلَعَهُم وجَزَعَهُم، أي اعوجاجهم وعدم صبرهم. فعلة العطاء مبنية على النقص عند المُعْطَى، وعلة المنع مبنية على كمال الخير والغنى عند من لم يُعط، والذي أساسه قوة الإيمان ورسوخه. وثاني خطوات العلاج: اختيار شخصية من الصحابة الأجلاء الذين تميزوا بهذه المنقبة الإيمانية كمثل لذلك،

---

[١] البخاري (٢/٤٠٢–٤٠٣) برقم (٣١٤٥)

حـــتى يسري أثر هذا العلاج عند كل من لم يُعط؛ قياساً علي الوصفة الإيمانية النبوية (منهم عمرو بن تَغْلَبَ.) وكلمة (منهم) تفيد أن عمرو واحد من كثير، فكان أثر هذا البـــيان النبوي، أن قال (عمرو بن تغلب: ما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حُمْرَ النَّعَم.) إنها شهادة النبي ﷺ له بالخير الذي يغنيه عن مال الدنيا بأسرها، مما يؤكد ويبين أن الرصـــيد الإيمـــاني لا تعادله أرصدة الدنيا من الأموال ونحوها. وهذا فهم الصحابة الأجـــلاء لذلك، والذي ترجمه في هذا الحديث عمرو بن تغلب ﷺ مما جعل عمرو بن تغلب ﷺ يُثمِّن مقولة النبي ﷺ بأنها أغلى في ميزانه من حُمُرَ النَّعَم التي تُعد عند العرب من أنفس الأموال وأمتعها.

وهـــذا المـــنهج العلاجي يؤكد أهمية بيان حقيقة الدنيا؛ وحقيقة المال؛ عندما تستشـــرفه القلوب وتستطمعه النفوس، وبيان المناقب الإيمانيه والتعبدية؛ وما أنعم الله تعـــالى به على العبد من نِعَمٍ قد غابت عنه أمام فتنة الدنيا وزخرفها، لتستكين النفس وتعود إلى رشدها، وتنقمع عن توقانها واستطالتها لِعَرَض الدنيا.

ثم يـــأتي مشهد آخر لموقف الامتثال للخبر الواحد المنقول عن النبي ﷺ في أمر لا يقـــل أثراً في استحكامه عن المال، وربما أشد أثراً واحتكاماً منه، فعن نافع ﷺ (أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: يا رسول الله إنه كان عليَّ اعتكاف يوم في الجاهلية، فأمره أن يفي به، قال: وأصاب عمر جاريتين من سبي حنين فوضعهما في بعض بيوت مكة، قـــال فَمَنَّ رسول الله ﷺ على سبي حنين، فجعلوا يسعون في السكك، فقال عمر: يا عـــبد الله انظـــر مـــا هذا ؟ قال: مَنَّ رسول الله ﷺ على السبي، قال: اذهب فأرسل الجاريتين..)[1]

---

[1] البخاري (٢/٤٠٢) برقم (٣١٤٤)

وفي الحديث من نذر بطاعة قبل إسلامه أتمها بعد إسلامه.[1] وفي هذا الحديث مــا يبين سرعة تجاوب المسلمين مع توجيه رسول الله ﷺ دون تردد أو تلكؤ، حتى أنه من كثرة السبي وانطلاقهم في وقت واحد؛ وهم يسيرون في سكك مكة أن لهم حركة ظاهــرة ، فلما سمع عمر ﷺ بحركتهم في السكك أمر ابنه أن يستطلع الأمر، فأخبره، أن رسول الله ﷺ قد منَّ على سبي حنين. فأمره بإطلاق الجاريتين حالاً دون تردد. مما يفيد أهمية سرعة الامتثال لأمر رسول الله ﷺ إذا عَرَفه المسلم؛ دون تردد، وفيه كذلك أهمــية الزهد في الشيء إذا علم المسلم نهي الإسلام عنه. ثم قبل عمر ﷺ خبر الواحد وهو ابنه، ولم يقل أستوثق وأتأكد، وإنما امتثل للخبر عن النبي ﷺ كما قال ابن حجر: يُستفاد منه الأخذ بخبر الواحد.[2]

وقد أمر الرسول ﷺ بإطلاق السبي عن طيب نفس، أو بعوض لقوله ﷺ (وإني قــد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل. ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل)

ويبين المشهد التالي تدافع الأعراب على النبي ﷺ حين فَرَغ من حنين، يطلبون الغــنائم، كمــا يرويه محمد بن جبير فيقول : (أخبرني جبير بن مُطْعَمٍ أنه بَيْنَا هو مع رســول الله ﷺ ومعه الناس مقبلاً من حنين؛ عَلِقَتْ رسولَ الله ﷺ الأعرابُ يسألونه؛ حتى اضطروه إلى سَمُرَة؛ فخطفت رداءه، فوقف رسول الله ﷺ فقال: أعطوني ردائي،

---

[1] وللفقهاء اختلاف هل هي واجبه أم أنها على سبيل الندب، والذي رجحه ابن حجر ما ذهب إليه أبو ثور ومن قال بقوله، فمن نذر أو حلف قبل أن يسلم على شيء يجب الوفاء به لو كان مسلماً، فإنه إذا أسلم يجب عليه، على ظاهر قصة عمر، قال: وبه يقول الشافعي وأبو ثور. وكذا نقله ابن حزم عن الإمام الشافعي، والمشهور عند الشافعية أنه وجه لبعضهم، وأن الشافعي وجل أصحابه على أنه لا يجب، بل يستحب، وكذا قال المالكية والحنفية، وعن أحمد في رواية، يجب، وبه جزم الطبري والمغيرة بن عبد الرحمن من المالكية والبخاري وداود وأتباعه. فتح الباري (١١/٥٨٢ــ٥٨٣)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٦/٢٥٣)

فلــو كان عدد هذه العِضاه[1] نَعَماً لَقَسَمْتُه بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كَذُوباً ولا جباناً.)[2]

وفي هـــذا الحديث ما يدل على كثرة الأعراب الذين تدافعوا على رسول الله ﷺ يسألونه العطاء حتى ضاق به المكان، فاضطروه إلى الاقتراب من سَمُرَة فَعَلق رداؤه ﷺ بالسَــمُرَة: وهي شجرةٌ صحراوية صغيرة الورق وكثيرة الشوك. وهذا دليل على تواضعه ﷺ إذ لم يكن معه حاشية من الناس تَدْفَع عنه مثل هؤلاء، بل كان متواضعاً في سيره ورحله وركبه ﷺ وفي ذلك صورة من صور مسلكه الخُلُقي الرَّفيع مع الأعراب، إذ لم يزجــرهم لقـــاء ما حصل له، بل طلب رداءه، ثم بين ما يحمله من صفات خُلُقية رفـــيعة؛ قـــد يجهلها الأعراب، مما يفيد أن للمرء أن يبين ما يحتاج إلى بيانه من صفاته وقدراته لمن يجهلها. فبين ﷺ أنه ليس بخيلاً؛ فيمنع الخير عن الناس ويستأثر به لنفسه، وضرب لذلك مثالاً، بأنه لو كانت العضاه وهي الشجر الكبير نَعَماً لَقَسَّمَه بينهم، ولم يستأثر به لنفسه، أو بشيء منه، وأنه ﷺ ليس كذوباً، فقد أَمَّنَهُ الله تعالى على رسالته، فكـــان أميـــناً صادقاً ﷺ وهو ما اتصف به قبل البعثة ﷺ فكيف يكون بعد البعثة إلا كذلك. وما جُرِّب عليه كَذِب قط. ثم بين ﷺ الصفة الثالثة؛ وهي الشجاعة التي ضد الجبن، وكانت مواقفه القتالية دليل ذلك، كما سبق بيانه في مواقع ذلك من الكتاب، ومن أقربها غزوة حنين.

وفي هـــذا مـــن الفوائـــد كما قال ابن حجر ــ رحمة الله تعالى عليه ــ : ذم الخصال المذكورة في الحديث: البخل والكذب والجبن، وأن إمام المسلمين لا يصلح أن يكـــون فيه خصلة منه، وفيه ما كان في النبي ﷺ من الحلم وحُسن الخُلُق، وسعة الجود والصـــبر عـــلى جفاة الأعراب. وفيه جواز وصف المرء لنفسه بالخصال الحميدة عند

---

[1] العِضاه: هو ما عَظُم من الشجر، وقيل كل شجرة حازت البقول، كالزيتون والنخل، وقيل يقع على شجر من أشجار الشوك، وما صَغُرَ من شجر الشوك يقال له: العِضُّ. ابن منظور، لسان العرب (٥١٧/١٣)

[2] البخاري (٤٠٣/٢ــ٤٠٤) برقم (٣١٤٨)

الحاجـــة، كخوف ظن أهل الجهل به خلاف ذلك، ولا يكون ذلك من الفخر المذموم. وفيه أن الإمام مخير بين قسمة الغنيمة بعد فراغ الحرب، أو بعد ذلك.[1]

وفي صـــورة أخرى لكريم خُلُقه ﷺ مع أحد الأعراب، الذي ما عَرَف منهج الـــتعامل مع مقام النبي ﷺ فيقول أنس بن مالك ﷺ (كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُرْدٌ نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة، حتى نَظَرْتُ إلى صفحة عـــاتق النبي ﷺ قد أثَّرَت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: مُر لي من مالِ الله الذي عندك. فالتفت إليه، فضحك، ثم أمر له بعَطَاء.)[2]

ففي هذا الحديث ما يدل على تواضع ملبسه ﷺ فكان عليه رداء نجراني، نسبة إلى مدينة نجران، وكان غليظ الحاشية، ليس بناعم كما يختاره أهل المال واليسار، وفي الحديـــث ما يدل على اختلاف الطبائع والتأدب، وقصورها عند أقوام، مما يدل على أهمـــية التربية الخُلُقية وتطبيقاتها السلوكية، وفيه ما يبين منهجية التعامل مع من يجهل الآداب ويُـــنْـــزِل الناس منازلهم، بأن لا يؤاخذ بجهله، فَيُجْهَل عليه، فتكون منه قدوة هادمة لا عامرة بناءة. وفيه كذلك الإحسان لمن أساء الأدب، فإما جاهلاً فيتعلم، وإما عارفـــاً فيتأدب بالحُسْنِ المقابل للإساءة، فقد التفت إليه ضاحكاً ﷺ، ثم أمر له بعطاء، وفي هذا غاية الكرم والحلم والجود والصفح، وفيه غاية التعليم والتربية للأعرابي، ولمن شـــاهد الموقـــف، ولمـــن عرفه رواية أو قراءة. وفيه صورة للداعية وللمربي وللمعلم وللحاكم والإداري الذي يتعامل مع الناس بالحلم والأناة والتواضع، ومقابلة الإساءة بالحسنة.

ثم هذه صورة لمن تعدى عليه باللفظ والوصف المجحف في حقه ومقامه ﷺ بل والطعـــن في عدلـــه ﷺ فيقابل ذلك ببيان تأسيه ﷺ بموسى عليه السلام. فعن أنس بن مـــالك ﷺ قال (لَمَّا كان يومُ حنين آثر النبي ﷺ أناساً في القسمة: فأعطى الأقرع بن

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٦/٢٥٤)

[2] البخاري (٢/٤٠٤) برقم (٣١٤٩)

حـابس مائـة من الإبل، وأعطى عيينة مثلَ ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب، فآثـرهم يومئذ في القسمة، قال رجل: والله إن هذه القسمة ما عُدلَ فيها وما أريد بها وجـه الله. فقلـت والله لأخبرن رسول الله ﷺ فأتيته فأخبرته. فقال: فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ رحم الله موسى قد أُوذيَ بأكثر من هذا فصبر.)[١] وعن جابر بن عـبد الله قال (أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ بالجعرانة، مُنْصَرَفَهُ من حنين؛ وفي ثوب بلال فضـةٌ. ورسول الله ﷺ منها يُعطي الناس، فقال: يا محمد ! اعدل. قال: ويلك ! ومن يَعْدِلُ إذا لم أكن أعدل ؟ لقد خِبْتَ وخَسِرْتَ إن لم أكن أعدل. فقال عمر بن الخطاب ﷺ : دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق. فقال: مَعَاذَ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي. إنَّ هذا وأصحابه يقرؤون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرَّمِيَّةِ.)[٢] والرمية هي الصيد المرمى.[٣]

فيـبين هذا الحديث مشارب وآراء الناس، وأن إرضاء الناس غاية لا تُدرك، فَخيرُ مسلك هو إرضاء الله تعالى. وإذا كان رسول الله ﷺ قد وصفه هذا الرجل بعدم العـدل، فمـن باب أولى أن يجد غيره من يصف بهذا الوصف وزيادة، مما يبين أهمية التأسـي بفعله وقوله ﷺ كما تأسى عليه الصلاة والسلام بموسى عليه السلام، فقال: (رحم الله موسى قد أُوذيَ بأكثر من هذا فصبر)

وفيه من الفوائد نقل الخبر من أجل النصيحة، وأن المذموم من نقل الأخبار من يقصد الإفساد، وأما من يقصد النصيحة ويتحرى الصدق ويجتنب الأذى فلا، وقَلَّ من يُفرق بين البابين.[٤] وفيه من الفوائد: جواز إخبار الإمام وأهل الفضل بما يقال فيهم، ممـا لا يليق بهم؛ ليحذروا القائل. وفيه بيان ما يباح من الغيبة والنميمة، لأن صورتهما

---

[١] البخاري (٤٠٤/٢) برقم (٣١٥٠)

[٢] مسلم (٧٤٠/٢) برقم (١٠٦٣)

[٣] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥٩/٧)

[٤] ابن حجر، فتح الباري (٤٧٥/٨ــ٤٧٦)

موجودة في صنيع ابن مسعود هذا، ولم ينكره النبي ﷺ ذلك أن قصد ابن مسعود ﷺ ـ أي للحديث الذي رواه ابن مسعود، وسيأتي قريباً ـ[1] كان نصح النبي ﷺ وإعلامه بمن يطعن فيه ممن يُظهر الإسلام ويبطن النفاق، ليحذر منه. وهذا جائز كما يجوز التحسس من الكفار ليؤمن من كيدهم. وقد ارتكب هذا الرجل المذكور بما قال إثماً عظيماً، فلم يكن له حرمة. وفيه أن أهل الفضل قد يغضبهم ما يقال فيهم مما ليس فيهم؛ ومع ذلك يتلقونه بالصبر والحلم، كما صنع رسول الله ﷺ اقتداء بموسى عليه السلام.[2] وفي رواية ابن مسعود ﷺ (...فساررته، فشق ذلك على النبي ﷺ وتغير وجهه وغضب، حتى وددت أني لم أكن أخبرته...)[3].

وفي الحديث بيان لحال من اعتقد اعتقاداً لا يليق برسول الله ﷺ وفيه بعد النظر لرسول الله ﷺ إذ نهى عمر عن قتل الرجل حتى لا يُقال أن رسول الله يقتل أصحابه. مما يُعَلِّمُ المسلم أهمية بُعْد النظر في مغبة الأمر قبل أن يَقْدِم عليه، وأن يُقَدِّم درء المفاسد، وأهمية الحلم والصبر على أذى الغير.

وفي الحديث بيان الحالة الدينية لهذا الصنف من الناس (. إنَّ هذا وأصحابه يقرؤون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرَّمِيَّةِ.) مما يؤكد أهمية سلامة المعتقد وصحته، وعدم التساهل في ذلك، وهذا يؤكد أهمية التربية الاعتقادية، إذ يترتب عليها قبول العمل من عدمه.

وقوله ﷺ (يقرؤون القرآن، لا يجاوز حناجرهم) في معناه تأويلان: أي لا تفقه قلوبهم، ولا ينتفعون بما تلوا منه، ولا لهم حظ سوى تلاوة الفم والحنجرة والحلق، إذ بهما تقطيع الحروف. والتأويل الثاني: معناه لا يصعد لهم عمل ولا تلاوة، ولا يتقبل.

---

[1] فتح الباري (١٠/٥١١) برقم (٦١٠٠)

[2] ابن حجر، فتح الباري (١٠/٥١٢)

[3] البخاري (٤/١١٠) برقم (٦١٠٠)

وقوله ﷺ (يمرقون منه كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة.) وفي رواية (يمرقون من الإسلام)[1] وفي رواية (يمرقون من الدين)[2] أي يخرجون منه خروج السهم إذا نفذ الصيد من جهة أخرى؛ ولم يتعلق به شيء منه. والرمية هي الصيد والمرمى.[3] وقد وردت الأحاديث الخاصة بمن هذه صفتهم في صحيح مسلم تحت باب: ذكر الخوارج وصفاهم.[4]

وعودة إلى مشهد قدوم وفد هوازن، حيث جاء في الصحيح (أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: معي من ترون، وأحب الحديث إلي أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين، إما السبي وإما المال. وقد كنت استأنيت بكم ــ وكان أنظرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف...)[5].

ويتبين من هذا الحديث أن رسول الله ﷺ لم يكن يهدف من غزواته حصول الغنائم، وإن كان ذلك نتيجة تتحقق بالغزو، وحال حصولها لا يبتغي منها تكثراً. فبالرغم من كثرة تلك الغنائم التي بلغت: من السبي ستة آلاف، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة.[6] إلا أن مقصده عليه الصلاة والسلام هو دخول الناس في هذا الدين العظيم، الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن النار إلى الجنة. فانتظرهم بضع عشرة ليلة، فلما تأخروا قَسَّم الغنائم.

---

[1] مسلم (٢/٧٤١ــ٧٤٢) برقم (١٠٦٤)

[2] مسلم (٧٤٢) برقم (١٤٤ ــ ١٠٦٤)

[3] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥٩/٧)

[4] مسلم، صحيح مسلم (٧٤٠/٢) كتاب الزكاة، باب رقم (٤٧) باب ذكر الخوارج وصفاهم.

[5] البخاري (١٥٥/٣) رقم(٤٣١٨)

[6] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٥٢/٢)

وقد جاء وفد هوازن مسلمين، فيهم تسعة نفر من أشرافهم، فأسلموا وبايعوا، ثم كلموه ﷺ.[1] أن يرد سبيهم وأموالهم، فخيرهم ﷺ بين السبي أو الأموال، فاختاروا أن يُعيد عليهم السبي. وقيل أن الوفد كانوا أربعة وعشرين.[2]

ويتبين من حديثه ﷺ مع وفد هوازن فوائد عديدة، منها: العناية بأمر الجماعة ورأيهم، حيث قال لهم ﷺ (معي من ترون) ويستفاد منه في الجانب الإداري أهمية إشراك الأعوان وأصحاب الحق في اتخاذ القرار، وعدم تجاهلهم؛ كون زمام الأمر بيد القائد أو الرئيس أو الأمير أو المدير. وفيه كذلك التنويه والتذكير بالفضيلة المناسبة لواقع الحال (وأحب الحديث إليّ أصدقه) وهذا البيان منه ﷺ منهجية تربوية ودعوية يُعلن فيها ﷺ المبدأ الإسلامي في التعامل؛ وكذلك من الفوائد استغلال المواقف بما يؤكد مسلك هذا الدين؛ أنه قائم على الصدق.

وفيه كذلك أن الرسول ﷺ بشر لا يعلم الغيب، إلا بما يوحى إليه من الله تعالى، حيث انتظرهم ـــ وهو معنى قوله ﷺ (استأنيت بكم) ـــ رجاء مقدمهم مسلمين بضع عشرة ليلة، فلما تأخروا بدأ في أمر التقسيم، ثم جاؤوا بعد ذلك.

وفيه كذلك أن منهج الإسلام الذي يمثله النبي ﷺ ليس منهج تعسف؛ يتجه نحو أموال الناس، واستلاب خيراتهم، بل الهدف والمقصد هو إخراج الناس من الكفر إلى الإيمان.

(... ـــ فَلَمَّا تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير راد إليهم إلا إحدى الطائفتين، قالوا: فإنا نختار سَبيَنَا، فقام رسول الله ﷺ في المسلمين ، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد: فإن إخوانكم قد جاءونا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل. ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل. فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله. فقال

[1] ابن حجر، فتح الباري (٣٣/٨)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٣٤/٨)

رسول الله ﷺ إنا لا ندري مَن أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن؛ فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم. فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا. هذا الذي بلغني عن سبي هوازن)[1]

وفي ذلك مزيد إيضاح لمقاصد الجهاد في الإسلام؛ أنه لإخراج الناس من الكفر إلى الإسلام، حيث رَدَّ ﷺ سبيهم عليهم، وهم ستة ألاف، وهذا من تمام تأليفهم على الإسلام، بل إن منهجية التعامل مع هوازن تضمنت كافة سُبُل التأليف، حيث بين لهم ﷺ انتظاره وتأخيره تقسيم الغنيمة رجاء أن يسلموا، ثم خطبته لأصحابه في إعادة السبي، . (ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل.)

وكذلك في هذا المشهد من الفوائد أن سماهم ﷺ (إخوانكم) بمجرد دخولهم في الإسلام، فانتفت التفرقة بدخولهم هذا الدين، وتحققت لهم أخوة الإسلام (فإن إخوانكم قد جاءونا تائبين) وهذا بيان أن الكافر إذا دخل في الإسلام قد أصبح أخاً للمسلمين. وفي هذا المنهج الإسلامي قضاء على كل عداء وبغضاء للكافر بعد إسلامه.

وفيه العدل مع من أخذ نصيبه من السبي، إما التنازل بطيب نفس، أو أخذ المقابل عند تحققه. وفيه كريم خُلُق المسلمين حيث تنازلوا عن ذلك (أنهم قد طيبوا وأذنوا)

وفيه من الفوائد كذلك؛ المسلك التنظيمي الإداري؛ الذي كان عليه المسلمون، حيث كان لهم عُرَفَاء يُخَاطَبُونَ من خلالهم، وفيه ما يَدُلُّ على حُسن التنظيم حتى في المخاطبة التي تتخذ التدرج الوظيفي؛ تبعاً للمسؤولية التي يقوم بها العرفاء. وهذا دليل على أن منهجية التنظيم مطلب إسلامي يتخذه المسلمون حسب مقتضيات العمل الجماعي.

---

[1] البخاري (٣/١٥٥) رقم(٤٣١٨).

ومن فوائد الحديث التثبت من الأمر (فقال رسول الله ﷺ إنا لا ندري مَن أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم. فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم) وفيه كذلك أن العريف أو رئيس المجموعة مأمون على مجموعته، ينقل عنهم ما يرون. وفيه مبدأ التفويض الإداري.

قال ابن بطال: وفي الحديث مشروعية إقامة العرفاء، لأن الإمام لا يمكنه أن يباشر جميع الأمور بنفسه، فيحتاج إلى إقامة من يعاونه، ليكفيه ما يقيمه فيه. وقال ابن المنير: وفيه أن الحاكم يرفع حكمه إلى حاكم آخر مشافهة فينفذه؛ إذا كان كل منهما في محل ولا يته.[1]

ثم خرج رسول الله ﷺ من الجعرانة إلى مكة معتمراً، فعن قتادة (سألت أنساً ﷺ كم اعتمر النبي ﷺ ؟ قال: أربع: عمرةُ الحديبية في ذي القعدة؛ حيثُ صَدَّهُ المشركون، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة؛ حيث صالحهم، وعمرة الجعرانة إذ قَسَمَ غنيمة ــ أُراه ــ حنين. قلت: كم حج ؟ قال: واحدة.)[2] وعن قتادة قال (سألت أنساً ﷺ فقال: اعتمر النبي ﷺ حيث ردُّوه، ومن القابل عمرة الحديبية، وعمرة في ذي القعدة، وعمرة مع حجة.)[3]

ومن فوائد ذلك بيان عدد ما اعتمر النبي ﷺ، أنها أربع: عمرة الحديبية؛ التي كان فيها صلح الحديبية، وعمرة القضاء التي كانت من العام التالي؛ على ما اصطلح عليه النبي ﷺ مع قريش، وعمرة الجعرانة، بعد غزوة الطائف، وذلك في عودته ﷺ بعد أن قسم غنائم حنين. والرابعة عمرته ﷺ في حجة الوداع.

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (١٣/١٦٩)

(2) البخاري (١/٥٣٨) برقم (١٧٧٨)

(3) البخاري (١/٥٣٨) برقم (١٧٧٩)

الفصل الرابع عشر

السرايا والأحداث بين غزوتي الطائف وتبوك

السرايا والأحداث بين غزوتي الطائف وتبوك:

سرية الطفيل بن عمرو إلى ذي الكَفَّين:

لما أراد رسول الله ﷺ السير إلى الطائف؛ بعث الطفيل بن عمرو إلى ذي الكَفَّين، صنم عمرو بن حُمَمَة الدّوسي، ليهدمه، وأمره أن يوافيه بالطائف، فخرج سريعاً إلى قومه، فهدم ذا الكَفَّين، وجعل يحش النار في وجهه ويحرقه. وقد انحدر معه من قومه أربعمائة، فوافوا النبي ﷺ بالطائف؛ بعد مقدمه بأربعة أيام، وقدم بدبابة ومنجنيق.(١)

وفي هذا دليل على معرفة العرب قديماً للمنجنيق، وكذا اختراعهم لفكرة الدبابة، واستخدامها.

إسلام كَعب بن زهير:

لما قدم رسولِ الله ﷺ من الطائف كتب بجير بن زُهير بن أبي سُلمَى إلى أخيه كعب، إن كانت لك في نفسك حاجة فَطِر إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً، وكان كعب ممن يهجو النبي ﷺ ويؤذيه.(٢)

وهذا المقطع يبين ما عُرف به رسول الله ﷺ من أخلاق العفو عمن أساء إليه، إذا جاء تائباً مسلماً، مما يبين منهجية العفو التي كان يسلكها رسول الله ﷺ عند المقدرة من الفعل، وهو الخُلُق الإسلامي الذي حث عليه. وهذا يفيد أهمية الأخذ بهذا المسلك النبوي الكريم؛ عندما يَبلُغ الإنسانُ المقدرةَ في دوائر ومجالات الحياة المختلفة: المهنية والأسرية والاجتماعية، أو غيرها.

فلما بلغ الكتابُ كعباً ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأرجف به من كان في حاضره من عَدُوِّه، فقالوا: هو مقتول. فقال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ مبيناً

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٥٧/٢)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١٤٤/٤ــ١٤٥)

خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه. ثم خرج حتى قدم المدينة، فصلى مع رسول الله ﷺ الصبح، فقام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله ! إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك؛ تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال رسول الله ﷺ (نعم) قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير. فقال في قصيدته التي قال حين قدم على رسول الله ﷺ

بانت سعاد فقلبي اليومَ متبولُ   مُتَيَّمٌ إثرها لم يُفْدَ مَكْبُولُ
وما سعادُ غداةَ البَيْن إذْ رحلوا   إلا أغَنَّ غَضيض الطَّرْفِ مَكْحُولُ

وقال فيها:

وقال كلُ صديقٍ كنت آمله   لا أُلْهِيَنَّك إني عنك مشغولُ
فقلتُ خلوا سبيلي لا أبا لكم   فكلُ ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته   يوماً على آلة حدباء محمولُ
نُبِّئتُ أن رسول الله أوعدني   والعفو عند رسول الله مأمولُ
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيلُ
لا تأخذنِّي بأقوال الوشاة ولم   أُذنب ولو كثُرت فيَّ الأقاويلُ

وقال أيضاً:

إن الرسولَ لنور يُستضاء به   مهند من سيوف الله مسلولُ

وذكر ابن هشام: أنه أنشد كعب بن زهير رسولَ الله ﷺ في المسجد.[1]

وفي ذلك من الفوائد: إنشاد الشعر في المسجد، وفيه المدح الصحيح، والثناء بما هو حقيقة. وأن الشعر وسيلة للتعبير عن مراد الإنسان وما تجيش به مشاعره. وفيه كذلك قوة القريحة الشعرية لدى كعب، بهذه القصيدة الرائعة في مبناها ومعناها، وجمال مقاطعها ومحتواها. وفي الأبيات ما يدل على أن كعب قد سمع أو اطلع على شيء من القرآن الكريم كما يوضحه البيت السابع من المقاطع السابقة. وفي القصيدة

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٤/١٤٦ــ١٥٨) والحاكم، المستدرك (٣/٥٧٩ــ٥٨٦)

بعض الحكم كما في البيت الخامس، وكذلك صورة لما كان عليه الشعراء من استطلاع القصيدة بشيء من الوجد، كما هو البيت الأول والثاني.

ومن الفوائد: حلم رسول الله ﷺ وما عُرف به من العفو وكريم الخصال والأخلاق، والتي ذكر كعب شيئاً منها في قصيدته المذكورة.

سرية عيينة بن حِصن إلى بني العنبر:

في المحرم سنة تسع من الهجرة بعث رسول الله ﷺ عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم، في خمسين فارساً من العرب، ليس فيهم مُهاجري ولا أنصاري، فهجم عليهم في صحراء، فلما رأوا الجمع ولّوا، وأخذ منهم أحد عشر رجلاً، وإحدى عشرة امرأة، وثلاثين صبياً، فجلبهم إلى المدينة، فقدم فيهم عدَّة من رؤسائهم، فجاؤوا إلى باب النبي ﷺ فنادوا: يا محمد ! أخرج إلينا. فخرج رسول الله ﷺ وأقام بلال الصلاة، وتعلقوا برسول الله ﷺ يكلمونه فوقف معهم، ثم مضى فصلى الظهر. ونزل فيهم قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ ﴾[1]

فَرَدَّ رسول الله ﷺ الأسرى والسبي.[2]

نزلت هذه الآيات الكريمات في ناس من الأعراب، الذين وصفهم الله بالجفاء، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.[3] فقد ذم تبارك وتعالى الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهي بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فأرشدهم تبارك وتعالى إلى الأدب في ذلك، ولو صبروا حتى يخرج إليهم الرسول ﷺ

---

(1) سورة الحجرات: الآية رقم (٤)

(2) ابن سعد، الطبقات (٢/١٦٠ـ١٦٢)

(3) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/٦٨)

لكان لهم في ذلك الخير والمصلحة في الدنيا والآخرة. ثم دعاهم سبحانه وتعالى في ختام الآيات الكريمة إلى التوبة والإنابة.[1]

وفي هذا التوجيه الرباني من الله سبحانه وتعالى، يتبين أن هذا الدين دين خُلُق وأدب، فـباخُلُق والدين تسود المحبة والألفة بين الناس، نتيجة الحقوق التي تُعطى لكل ذي حق، بما فيها الحقوق الأدبية؛ التي منها هذا التوجيه الرباني العظيم.

ومن جملة ما بينته الآيات الكريمات السابقة لهذه الآية في التأدب مع النبي ﷺ أن لا يـرفع المخاطِـب صوته على النبي ﷺ ولا يجهر له بالقول، بل يغض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين، وتعظيم وتكريم، وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحدهم، بـل يميـزونه في خطابهم، كما تَميَّز عن غيره؛ في وجوب حقه على الأمة؛ ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به.[2]

ويُستَنتَج من هذا التوجيه الرباني، أن من محبة رسول الله ﷺ بعد وفاته في هذا الصدد، أن يُجلِّ المسلمُ اسمه وذكره، فإذا ذكره؛ ذكره بأدب، وصلى عليه، ومجده بما يليق بمقامه ﷺ وإذا ذكره أحدٌ عنده صلى وسلم عليه، وإن زار قبره، وقف عند قبره بـأدب، وسلم وصلى عليه بأدب، وإن سمع حديثاً له ﷺ أنصت واستمع ونوى وعزم أن يطبقه ويمتثل به، واجتهد في العمل به كما أمر أو نهى ﷺ

ويُستفاد كذلك توقير العلماء وإنـزالهم منازلهم، لأنهم ورثة الأنبياء. فليسوا كغيرهم من الناس، لفضلهم على غيرهم بميراث رسول الله ﷺ ولا يُبالغ بتجاوز الحد؛ فيُرفعون فوق منـزلة العلماء لأنهم بشر. فالخُلُق الإسلامي ينهى عن الغلو، وينهى عن الجفاء.

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢٢٢ــ٢٢٣) .

[2] ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/٦٨)

سرية قُطْبة بن عامر بن حديدة إلى خثعم :

بعث رسول الله ﷺ قُطْبة بن عامر في عشرين رجلاً إلى حيّ من خثعم، بناحية تَبالة، بناحية بيشة، قريباً من تربة، في صفر سنة تسع من الهجرة. وأمره ﷺ أن يشن الغارة عليهم. فغاروا عليهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً؛ حتى كثر الجرحى في الفريقين، وقَتَل قُطبة بن عامر من قتل، وساقوا النَّعَم والشاء والنساء إلى المدينة. وجاء سيل فحال بينهم وبينه فما يجدون إليه سبيلا.[١]

وتبين مجريات هذه السرية توفيق الله تعالى بانهزام عدوهم، وما حصلوا عليه من الغنيمة، ثم بما أكرمهم الله تعالى به من جريان السيل بينهم وبين عدوهم من بعد أن أصابوا ما أصابوا من الغنائم.

سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب :

في شهر ربيع الأول؛ سنة تسع من الهجرة، بعث رسول الله ﷺ جيشاً إلى القُرَطاء. عليهم الضحاك بن سفيان بن عوف الكلابي، ومعه الأصيد بن سلمة بن قرط، فلقوهم بالزُّجّ زُجّ لاوة، فدعوهم إلى الإسلام فأبوا، فقاتلوهم، فهزموهم، فلحق الأصيد أباه سلمة، وسلمة على فرس له؛ في غدير بالزّج، فدعا أباه إلى الإسلام وأعطاه الأمان، فسبّه وسبّ دينه، فضرب الأصيد عُرْقُبي فرس أبيه، فلما وقع الفرس على عُرْقُبيه ارتكز سلمة على رمحه في الماء، ثم استمسك به حتى جاءه أحدهم فقتله، ولم يقتله ابنه.[٢]

---

[١] ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٦٢/٢)

[٢] المرجع السابق (١٦٢/٢ـــ١٦٣)

سرية عبد الله بن حُذَافَة السَهْمِي، وعلقمة بن مُجزِّزُ المدلجي، ويُقال أنها سرية الأنصاري :[1]

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال (بعث رسول الله ﷺ علقمة بن محرز على بعث أنا فيهم، حتى انتهينا إلى رأس غزَاتنا...)[2] ذكر ابن سعد في الطبقات: ثم سرية علقمة بن مُجَزِّز المُدْلجي إلى الحبشة؛ في شهر ربيع الآخر، سنة تسع من الهجرة. فقد بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من الحبشة؛ تراياهم أهل جُدَّة، فبعث إليهم علقمة في ثلاثمائة. فانتهى إلى جزيرة في البحر، وقد خاض إليهم البحر؛ فهربوا منه. فلما رجع تعجَّل بعض القوم إلى أهليهم، فأذن لهم، فتعجل عبد الله بن حُذافة السهمي فيهم، فأمَّره على من تعجل.[3]

ويفيد هذا البعث النبوي: القوة والقدرة التي أعطاها الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ والمؤمنين، بما مكنهم من حفظ ثغور المناطق المفتوحة، وصَد أي عدوان مُحْتَمل.

ويصف راوي الحديث أبو سعيد الخدري ﷺ ما بعد ذلك فيقول (... أو كنا ببعض الطريق أذن لطائفة من الجيش وأَمَّر عليهم عبد الله بن حُذافَة بن قيس السهمي، وكان من أصحاب بدر، وكانت فيه دعابة، يعني مِزاحاً، وكنت ممن رجع معه، فنزلنا ببعض الطريق، قال: وأوقد القوم ناراً ليصنعوا عليها صنيعاً لهم، أو يصطلون، قال: فقال لهم : أليس عليكم السمع والطاعة ؟ قالوا : بلى. قال: فما أنا آمركم بشيء إن صنعتموه ؟ قالوا: بلى. قال: أعَزِم عليكم بحقي وطاعتي لما تواثبتم في هذه النار. فقام ناس فَتَحَجَّزوا حتى ظن أنهم واثبون، قال: أحبسوا أنفسكم. فإنما كنت

---

(1) البخاري (٣/١٦٠)

(2) أحمد، المسند (٣/٦٧)

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٦٣) وذكر ذلك ابن حجر، نقلاً عن بعض المصادر (٨/٥٨ـ٥٩)

أضــحك معكــم. فذكروا ذلك للنبي ﷺ بعد أن قَدِموا، فقال النبي ﷺ : من أمركم منهم بمعصية فلا تُطيعوه)[1]

وفي روايــة للبخاري ــ رحمة الله تعالى عليه ــ عن علي ﷺ قال:(بعث النبي ﷺ ســرية، فاســتعمل رجلاً من الأنصار، وأمَرَهم أن يُطيعوه، فغضب؛ فقال: أليس أمَــرَكم الــنبي ﷺ أن تُطيعوني ؟ قالوا: بلى. قال: فأجمعوا لِيَّ حطباً. فجمعوا. فقال: أوقِــدوا نــاراً، فأوقدوهــا. فقال: ادخلوها. فَهَمُّوا. وجعل بعضهم يُمسكُ بعضاً؛ ويقولون: فَرَرْنا إلى النبي ﷺ من النار. فمازالوا حتى خَمَدَتِ النار، فسكن غَضبُه. فبلغ النبي ﷺ فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة. والطاعة في المعروف.)[2]

وفي روايــة لمسلم ــ رحمة الله تعالى عليه ــ أنهم أغضبوه، فعن علي ﷺ قال (بعث رسول الله ﷺ سرية. واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار. وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا. فأغضبوه في شيء...)[3]

وليس هناك ما يمنع أنه اجتمع في هذا الموقف على ما اتصف به من دعابة أن أغضــبوه فغضــب، فأحب أن يمازحهم بدعابته ﷺ لقاء ما حصل عنده من الغضب. وقال الإمام النووي: هذا الذي فعله هذا الأمير قيل: أراد امتحانهم، وقيل كان مازحاً، قــيل أن هذا الرجل عبدالله بن حذافة السهمي، وهذا ضعيف لأنه قال في الرواية التي بعدها: أنه رجل من الأنصار، فدل على أنه غيره.[4]

وأشــار ابن حجر إلى: أن الذي يظهر هو تعدد القصة لاختلاف سياقها واسم أميرهما.[5] وابن حذافة قرشي مهاجري. ويُحتمل الحمل على المعنى الأعم؛ أي أنه نصر

---

[1] أحمد، المسند (٦٧/٣)

[2] البخاري (١٦٠/٣) برقم (٤٣٤٠)

[3] مسلم (١٤٦٩/٣) برقم (٤٠ــ١٨٤٠)

[4] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٢٢٧/١٢)

[5] ابن حجر، فتح الباري (٥٩/٨)

رسول الله ﷺ في الجملة. وإلى التعدد ذهب ابن القيم، وأما ابن الجوزي فقال: قوله من الأنصار؛ وهم من بعض الرواة، وإنما هو سهمي.[1]

والفوائد واردة من أوجه هذه السرية، فمنها ما تمثل به أصحاب رسول الله ﷺ من الطاعة لولي الأمر، حتى هموا أن يثبوا فيها، لعدم معرفتهم بحدود الطاعة لولي الأمر. وفيه كذلك الاجتهاد من الصحابة، والاختلاف أيضاً في الاجتهاد، فقد جاء في رواية (...فأراد ناسٌ أن يدخلوها، وقال الآخرون: إنا قد فررنا منها...)[2]

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي، إذ بعثه النبي ﷺ في سرية)[3]

وفي ذلك من الفوائد أن الاختلاف وارد بين الناس، وفي حالة وروده بين المسلمين، فإن مرجعهم هو الكتاب والسنة. لقوله تعالى في تمام هذه الآية ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾[4]

قال الإمام النووي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ عن طاعة ولي الأمر : أجمع العلماء على وجوبها في غير معصية، وعلى تحريمها في المعصية، نقل الإجماع على هذا القاضي عياض وآخرون. قال العلماء: المراد بأولي الأمر مَنْ أوجب اللهُ طاعته من الولاة والأمراء، هذا قول جماهير السلف والخلف من المفسرين والفقهاء وغيرهم، وقيل هم العلماء، وقيل الأمراء والعلماء.[5]

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (٥٩/٨)

(2) مسلم (١٤٦٩/٣) برقم (٣٩ـ١٨٤٠)

(3) البخاري (٢١٨/٣) برقم (٤٥٨٤)

(4) سورة النساء: آية رقم (٥٩)

(5) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٢٢٢/١٢ـ٢٢٣)

ومـــن فوائد ذلك أن من يتقي الله تعالى يجعل له مخرجا، إذ كيف خمدت النار أثناء تفاوضهم في دخولها، وهذا على أن الأمر كان جداً.

وفي ذلـــك مـــن الفوائـــد أن الْحُكْمَ في حال الغضب ينفذ منه ما قد يخالف الشـــرع. وأن الغضب يُغطي على ذوي العقول. وفيه أن من كان صادق النية لا يقع إلا في خير، ولو قصد الشر فإن الله يصرفه عنه، ولهذا قيل: من صدق مع الله وقاه الله، ومن توكل على الله كفاه الله.[1]

سرية علي بن أبي طالب إلى الفُلْس.

بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ في خمسين ومائة رجل من الأنصار إلى الفُلْس، صنم طيء؛ ليهدمه، وذلك في شهر ربيع الآخر؛ سنة تسع من الهجرة.

فشنوا الغارة على آل حاتم مع الفجر، فهدموا الفُلس، وخرَّبوه وملأوا أيديهم من السبي والنَّعَم والشاء، وفي السبي أخت عدي بن حاتم، وهرب عدي إلى الشام.[2]

وهـــذا يدل على امتداد غزوات النبي ﷺ وتوسعها في هذا التاريخ حتى ذلك المكـــان. ومـــا يمثله ذلك من بسط الولاية ونفوذ الأمر النبوي ﷺ واتساعه، وما يدل عليه من انتشار خبر وخير بعثته ﷺ

ولمـــا مَرَّ رسول الله ﷺ بابنة حاتم، وكانت امرأة جزلة، فقالت: يا رسول الله! هلـــك الولد، وغاب الوافد[3] فامنُنْ عليَّ مَنَّ الله عليك. قال: (ومن وافدك ؟ قالت: عـــدي بـــن حاتم. قال: (الفار من الله ورسوله ؟) فلما كان الغد، قلت له مثل ذلك. وقـــال لي مثل ما قال بالأمس، حتى إذا كان بعد الغد؛ قلت له مثل ذلك، فقال: (فلا تعجـــلي بخـــروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة، حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذنـــيني.) وأقمت حتى قَدِمَ ركب من بلي أو قضاعة. فقلت لرسول الله ﷺ قدم رهط

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٨/٦٠)

[2] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٦٤)

[3] أي الزائر.

مـــن قومـــي، فيهم ثقة وبلاغ. قالت: فكساني رسول الله ﷺ وحَمَلَني وأعطاني نفقة، فخرجت معهم حتى قَدِمت الشام.[1]

ويـــبين هـــذا الحدث، عناية رسول الله ﷺ وإكرامه لذوي المكانة والجاه بعد ســـقوطهم، وتجاوبـــه مع الكلمة الطيبة والرجاء الحسن الذي رَجَتْهُ أخت عدي من رســـول الله ﷺ وعنايته ﷺ بأمر الثقة في أمرها، مما يؤكد أهمية العناية بالمرأة والحفاظ عليها، وأهمية إكرام ذوي المكانة بعد سقوطهم. ومن فوائد هذا الحدث، اهتمام العرب بالتراكيـــب الكلامـــية، وجمال الألفاظ والعبارات المؤدية للمقصود بأحسن تراكيبها اللفظية، كمثل ما حَصَل من بنت حاتم، أخت عدي.

قصة إسلام عدي بن حاتم :

وأما عدي فقد كان مبغضاً لأمر رسول الله ﷺ فاراً إلى الشام؛ لحوقاً بأهل دينه مـــن النصـــارى في الشام. يقول عدي: فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت: ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام، وخلّفت بنتاً لحاتم في الحاضر. فلما قدمت الشام أقمت بها. وتخالفني خيل رسول الله ﷺ .[2]

فهكـــذا بَـــيَّنَ عدي مقدار بغضه لرسول الله ﷺ ولكن للمعروف صنائع في القلـــوب، وأثر بالغ في النفوس، وهداية الله فوق كل سبب، إذ يقول عدي: فوالله إني لقـــاعد في أهلي؛ إذ نظرت إلى ظعينة، أي المرأة في هودجها، تَصُوب إليّ تَؤُمُّنا. قال: فقلت ابنة حاتم. قال: فإذا هي هي. فَعَاتَبْته على تركها، فسألها عن أمر رسول الله ﷺ فقالت له: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضلة، وإن يكن ملكاً فلن تَذِل في عز اليمن، وأنت أنت. قال: قلت: والله إن هذا لرأي.[3]

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٢٢٦)

[2] المرجع السابق (٤/٢٢٥)

[3] المرجع السابق (٤/٢٢٦)

فلقـــد أثـــر الخُلُق والصنيع النبوي الكريم في نفس ابنة حاتم، حتى طلبت من أخيها أن يُسرع في أمر القدوم على النبي ﷺ فيقابل ذلك عدي بالقبول جراء ما رأى مـــن صـــنيعه ﷺ بأخـــته؛ وبما أخبرته عن النبي ﷺ مما يفيد أهمية أعمال المعروف من الداعـــية، لـــيكون له عونـــاً على أداء مهمته الدعوية، إذ أن النفوس تميل إلى صنائع المعروف، وترغب في مكارم الأخلاق. والتي هي حقيقة من حقائق الإسلام.

ثم يأتي عدي إلى النبي ﷺ فيرى منه خُلُقاً عجباً، يقول عدي بن حاتم: فدخلت علـــيه وهو في مسجده، فسلمت عليه، فقال: (من الرجل ؟) فقلت: عدي بن حاتم. فقـــام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه، إذ لقيته امرأة ضعيفة كـــبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها، قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بملك.

قـــال: مضـــى بي رسول الله ﷺ حتى دخل بي بيته، فتناول وسادة من أدم؛ محشـــوة لـــيفا، فقذفها إليَّ، فقال: (اجلس على هذه.) قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقـــال: (بـــل أنت) فجلست عليها وجلس رسول الله بالأرض. قال: قلت في نفسي، والله ما هذا بأمر ملك.[1]

ويـــدل المشـــهد على تواضعه ﷺ ورحمته بالضعيف، وصبره على كلام المرأة الذي استقطع وقتاً طويلاً؛ وهو يستمع إليها دون انـــزعاج منه ﷺ أو تشاغل بضيفه عنها. وفيه أن الخُلُق الكريم يؤثر في أحكام الناس على الآخرين، ويُكَوّن لديهم أحكاماً يحكمون بها، ويستنتجون منها.

كمـــا يـــدل هـــذا المقطع من اللقاء برسول الله ﷺ على كريم خُلُق النبي ﷺ وإكـــرامه للضيف، وإكرامه للمرأة التي تتكلم معه طويلاً وهو يستمع لها ﷺ بما يفيد المســـلم أن يـــأخذ حظـــه ونصيبه من هذا الكرم النبوي العظيم، بمساعدة الضعيف والكبير، وإكرام الضيف، وتقديم ما يحتاج إليه، وإن كان أقل منه مكانة وسناً، فليس

---

(1) المرجع السابق (٤/٢٢٧)

هناك أكبر مقاماً من رسول الله ﷺ فيعطي عدي الوسادة ليجلس عليها الضيف، ويَقْعُد هو ﷺ على الأرض.

وبعد هذه المقابلة التي امتلأت خُلُقاً، ودروساً دعوية وتربوية؛ في كيفية معالجة الداعية للمدعو وتأليفه؛ وفتح الأبواب الموصلة لخير الدنيا والآخرة أمامه، حتى أدرك عـدي أن أسلوب التعامل النبوي ليس بأسلوب الملوك، وإنما أسلوب الداعي إلى ربه تـبارك وتعـالى. مما يبين أن منهجية الداعية تنطلق من الهدف؛ وليس من المكانة التي يتبوؤها، ويريد أن يحققها لنفسه بالتعالي ونفخ الذات؛ بل بالبساطة ورحابة الأخلاق. ثم قـال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم : (إيه يا عديُّ بنَ حاتم، ألم تكن رَكوسياً ؟)[1] قـال: قلـت: بلى. قال: (أو لم تكن تسير في قومك بالمِرْباع ؟ [2]) قال: قلت: بلى. قال: (فإن ذلك لم يكن يَحِل لك في دينك.) قال: قلت: أجل والله، وقال: وعرفت أنه نبي مُرْسَل، يعلم ما يُجهل.[3]

ويستفاد من هذا الأسلوب النبوي الدعوي التربوي، أهمية التدرج مع المدعو بمـا يتناسب مع حاله، وأهمية معرفة الداعية لأحوال المدعو الدينية، حتى يستطيع أن يكشـف عَوَار وزيف ديانته. ولا يكون ذلك إلا بالاطلاع على حقيقتها. كما يُستفاد مـن ذلك أن النفس البشرية تتجاذب مع المتحدث إذا قَدَّم لأمره بمقدمات صحيحة، ومقدمات تبين صدقه وصدق دعوته من خلال كريم تعامله.

ثم يكشـف له الـنبي ﷺ عن أمور وأحوال عائقة لدخوله في الإسلام. يقول عـدي بن حاتم: ثم قال: (لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجـتهم، فـوالله لَيُوشِكَنَّ المالُ أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه. ولعلك إنما

---

[1] هي ديانة بين دين النصارى والصابئين

[2] المـرباع: الرُّبع. كانوا في الجاهلية إذا غَزا بعضهم بعضا، وغنموا؛ أخذ الرئيس ربع الغنيمة، خالصاً دون أصحابه، وذلك الربع يسمى المرباع. ابن منظور، لسان العرب (١٠١/٨)

[3] ابن هشام، السيرة النبوية (٢٢٧/٤)

يمنعك من دخولٍ فيه ما ترى من كثرة عدوهم، وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف. ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتِحَت عليهم.) قال: فأسلمت.[1]

ويتبين من هذه المحادثة النبوية الكريمة؛ أهمية المعالجة الداخلية للمدعو، وبيان حقيقة ما يجهل، لأن الكافر لا ينظر لهذا الدين إلا من خلال رؤيته المادية. ولئن أخبره ﷺ بأمور غيبية ليست من خصائص غيره ﷺ فإن من مقدور الداعية أن يكشف للمدعو حقيقة هذا الدين والشُبَه التي يثيرها أعداؤه، أو التي يتوقع أنها في ذهنه؛ من خلال معرفة دينه الكفري، وبيئته التي هو منها، وثقافته ومعرفته العلمية، وغيرها مما يعين على إدراك ما يدور في ذهن المدعو. ومن الفوائد كذلك البيان الإعجازي من النبي ﷺ لما سيحدث من أمور مستقبلية غيبية، قد أجراها الله تعالى في علم نبيه ﷺ

وكان عدي يقول: قد مضت اثنتان، وبقيت الثالثة، والله لتكونن. قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فُتِحت، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف، حتى تحج هذا البيت، وايم الله لتكونن الثالثة، ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذه.[2]

سرية عكاشة رضي الله عنه إلى الجِناب :

سرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى الجِناب، أرض عُذْرة وبليٍّ، في شهر ربيع الآخر، سنة تسع من مهاجر رسول الله ﷺ [3]

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٢٢٧)

[2] ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٢٢٧ ــ ٢٢٨) وذكر قريباً من ألفاظه ابن كثير، في كتابه تفسير القرآن العظيم (٢/٣٦٣)

[3] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٦٤)

الفصل الخامس عشر

غزوة تبوك

غزوة تبوك، وهي غزوة العسرة :[1]

كانت هذه الغزوة في رجب من سنة تسع للهجرة النبوية المباركة.[2] فقد بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأجلبت معها لَخْم وجُذام وعاملة وغسان، وقدّموا مقدّماتهم إلى البلقاء.[3] وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[4]

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام. ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرَغ منهم...ودخل الناس في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم، الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام؛ لأنهم أهل الكتاب.[5]

ولعل اجتماع الروم ومن والاهم من قبائل العرب لمقاتلة المسلمين؛ كان سبباً في نفرة المسلمين في وقتٍ شديدِ الحرِ، مع قلة ما لدى المسلمين من تجهيزات، وذلك استجابة لأمر الله تعالى من دلالة الآية السابقة الذكر، والتي أشار إليها ابن كثير رحمة الله تعالى عليه.

كما يستفاد من تسمية هذه الغزوة (العسرة) أنها كانت في شدة وعسرة من حال المسلمين، مما يدل على أن الشدائد التي تصيب المسلم أو المسلمين ليست في كل الأحوال دلالة غضب من الله تعالى، بل إن حكمته متضمنة للرحمة حتى وهي في وقت

---

(1) البخاري (٣/١٧٦)

(2) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/١٥٩)

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٦٥)

(4) سورة التوبة: آية رقم (١٢٣)

(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤١٦)

الشـــدة؛ الـــتي لا يدركها العبد بمقاييسه المحدودة، فنبي الله ﷺ وصحابته، وهم أفضل القرون، يمرون بهذه الشدة والعسرة. مما يفيد المسلمين حين تشتد عليهم الخُطوب وهم في غـــير معصـــية، أن يصـــبروا ويلتمسوا الحكمة في ذلك، وأن المحبوب قد يأتي من المكروه. فلله وحده الحكمة البالغة.

فجـــاء تجهـــيز جيش العسرة والدعوة إلى ذلك حيث قال النبي ﷺ (من جهز جيش العُسْرَة فله الجَنَّة، فجهزه عثمان) [(١)]

وفي هـــذا الحديث ما يفيد أهمية ومكانة النفقة وقت الشدة والقلة والحاجة، وأنـــه كـــلما عظمت الحاجة والفاقة ازداد الأجر والثواب، وفيه منقبة عظيمة جليلة لعثمان بن عفان ﷺ إذ جهز الجيش فحظي بالجنة ﷺ مما يجسد تربوياً أهمية هذا الموقف في القـــدوة من هذا الصحابي الجليل الذي امتدت يداه ﷺ لينفق بها أمواله في الوقت الـــذي تضـــاعفت فيه الأرباح الدنيوية؛ نتيجة أحوال الناس التي بلغت فيها المقدرة الإنفاقـــية أضعف ما تكون؛ بسبب القلة والفاقة التي أصابت المسلمين ذلك الوقت، كمـــا يـــروي ذلك أبو مسعود ﷺ فيقول (لما أُمرنا بالصدقة، كنا نتحامل، فجاء أبو عقـــيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هـــذا، وما فعل هذا الآخر إلا رئاء، فنـــزلت (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جُهدَهم))[(٢)]

وفي هذا الحال من الناس؛ يقول عبد الرحمن بن سمرة (جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه، حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فصبها في حجر الـــنبي ﷺ فجعـــل النبي ﷺ يُقلّبُها بيده، ويقول: ما ضَرَّ ابن عفان ما عَمِلَ بعد اليوم، يـــرددها مـــراراً)[(٣)] وفي روايـــة عـــند الـــترمذي (جـــاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف

[(١)] البخاري (١٨/٣) ترجمة الباب. والبخاري (٢/٢٩٨ــ٢٩٩) برقم (٢٧٧٨)

[(٢)] البخاري (٢٣٧/٣) برقم (٤٦٦٨)

[(٣)] أحمد (٦٣/٥)

ديــنار...فرأيــت النبي ﷺ يُقلِّبُنا في حجره ويقول: ما ضَرَّ عُثمان ما عَمِلَ بعد اليوم، مرتين)[١]

ويفــيد هــذا الموقف العثماني من عثمان ﷺ أن الجزالة في العطاء دلالة قوة الإيمــان، التي أعطته هذه الميزة والشهادة له من النبي ﷺ وأن الإنفاق لا يزيد المسلم عــند ربه إلا مكانة وصفحاً وغفراناً، وفيه ما يفيد أن العمل الصالح يُكَفِّرَ اللهُ به ما تقَــدَّم من الذنوب، ولكن ليس لأحد أن يشهد لنفسه ولا لغيره، فعِلْمُ ذلك عند الله، إلا شهادة رسول الله ﷺ لمن شهد له.

كمــا أن تلك الشهادة لعثمان ﷺ لم تكن دافعاً للتهاون في الطاعة، بل كانت قــوة دافعة للمزيد من الحرص على الطاعة. مما يؤكد للمسلم أن يتابع في أعمال الخير دون تهاون أو اغترار.

ويقــول عــبد الرحمن بن خَبَّاب (شهدت مع النبي ﷺ وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان، فقال: يا رسول الله عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثُمَّ حض على الجيش، فقام عثمان بن عفان، فقال: يا رسول الله عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. ثُمَّ حض على الجيش، فقام عثمان بن عفان، فقال: يــا رسول الله ! لله عليَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. فأنا رأيت رسول الله ﷺ يــنــزل عن المنبر وهو يقول: ما على عثمان ما عَمِل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه.)[٢]

وهكــذا كرر عثمان بن عفان ﷺ فعل الخير في مواقف متتالية، يتجاوب فيها مــع نــداء رســول الله ﷺ فضــاعف ﷺ عطاءه من مائة إلى مائتين إلى ثلاثمائة بعير

---

[١] الترمذي (٥/٥٨٥) برقم (٣٧٠١)

[٢] الترمذي (٥/٥٨٤) برقم (٣٧٠٠)

بأحلاسها أي كل ما على ظهر البعير.[1] بما فيها الأقتاب، التي هي إكاف البعير، الذي هو قدر سنامه، وقيل هو رحلٌ صغيرٌ على قدر سنام البعير.[2]

ويَشـــهد لهذا العمل الكريم والكبير الصحابة ﷺ عندما استشهدهم عثمان بن عفـــان ﷺ فأنشـــدهم الله في بيان ذلك، فعن أبي عبد الرحمن (أن عثمان ﷺ حيث حُوصِـــر أشرف عليهم، وقال: أُنشدكم الله ! ولا أُنشد إلا أصحاب النبي ﷺ ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: من حفر رُومَةَ فله الجنة! فحفرتُها ؟ ألستم تعلمون أنه قال: من جَهَّز جيش العُسْرة فله الجنة ! فجهزتُه ؟ قال: فَصَدَّقوه بما قال.)[3]

فيـــبين هـــذا الموقف ويفيد أن للمرء أن يذكر ما قَدَّمَهُ من طاعة لله تعالى إذا احتاج إلى دفع ضُرٍّ عن نفسه، لا لرياء ولا لسمعة وتباه. وفيه كذلك أن المؤمن مبتلى بغيره، وأن الابتلاء ليس متوقف على غير المؤمنين والصالحين، والمشهود لهم بالجنة. مما يفـــيد أن المسلم الصالح، لا يمنع عنه صلاحه وإيمانه الابتلاء، وأن في الابتلاء حِكَمٌ لا يدرك حقائقها إلا الله تبارك وتعالى، العليم الحكيم، يبتلي من يشاء من عباده بما يشاء، كيف يشاء؛ سبحانه وتعالى له الحكمة البالغة.

ولقـــد كـــان موقف المسلمين من الصدقة وتجهيز الجيش، ما هو معهود منهم لربهم سبحانه وتعالى ولنبيه ورسوله ﷺ ولكن الفاقة بلغت منهم مبلغاً، يقول عن ذلك أبـــو مسعود، عقبة بن عمرو البدري (لما أُمرنا بالصدقة، كنا نتحامل، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعـــل هذا الآخر إلا رئاء، فنـــزلت (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جُهدَهم))[4]

---

(1) ابن منظور، لسان العرب (٦/٥٤)

(2) ابن منظور، لسان العرب (١/٦٦٠ــ٦٦١)

(3) البخاري (٢/٢٩٨ــ٢٩٩) برقم (٢٧٧٨)

(4) البخاري (٣/٢٣٧) برقم (٤٦٦٨)

وهذا يبين تفاني المسلمين في النفقة بما يجدون في بيوتهم، ولم يمنعهم قلة ما لديهم، التوقف عن المبادرة بالعطاء والمساهمة، مما يفيد أهمية المبادرة والمشاركة بالعطاء ولو كان قليلاً، ولا حياء من العطاء اليسير ولو كان أمام الناس وعلى مشهد منهم، وفيه أهمية التجاوب مع ولي الأمر إذا طلب العون والغوث والمساعدة. وفيه كذلك عدم الاكتراث بالمحبطين والمستخفّين بالناس، ومن الفوائد كذلك أن المستهزئين لم يخل منهم المجتمع النبوي الكريم، فكيف بمن بعده من القرون.

وفيه كذلك أن الاستهزاء بأعمال المؤمنين من أخلاق المنافقين. وفيه بيان دفاع الله عن المؤمنين مما قاله المنافقون، ببيان ذلك في القرآن الكريم الذي يُتلى ويُرتَّل إلى يوم القيامة.

وعن رغبتهم في المشاركة الجهادية في سبيل الله تعالى، أن كل مُقْتَدِر جَهَّز نفسه، وأما غير المقتدرين فيأتون لرسول الله ﷺ يطلبون منه أن يحملهم ﷺ فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال (أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحُملان لهم، إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك، فقلت: يا نبي الله ! إن أصحابي أرسلوني لتحملهم، فقال: والله لا أحملكم على شيء. ووافقته وهو غضبان ولا أشعر، ورجعت حزيناً من منع النبي ﷺ ومن مخافة أن يكون النبي ﷺ وجد في نفسه عليَّ. فرجعتُ إلى أصحابي فأخبرتهم الذي قال النبي ﷺ فلم ألبث إلا سويعة، إذ سمعت بلالاً ينادي: أي عبد الله بن قيس ! فأجبته، فقال: أجب رسول الله ﷺ يدعوك...)[1]

وفي هذا دليل على حرص الصحابة ممن لم يجد راحلة أن يبحثوا عن الوسيلة التي تُبَلّغهم المقصد الجهادي، ولم يتخذوا القلة سبباً مانعاً من أداء الجهاد والمشاركة في معية رسول الله ﷺ وبقية أصحابه. مما يعطي مسلكاً تربوياً لمن أراد اقتفاء أثرهم، والسير في ركبهم، بأن لا يجعل الموانع من الخير تحول بينه وبين فعله، بل يسعى في إزالة الموانع بقدر ما يستطيع.

---

(١) البخاري (٣/١٧٦) برقم (٤٤١٥)

وفـــيه من الفوائد أنه لا حرج على الرعية أن يطلبوا من ولي الأمر ما يعينهم عـــلى ربهـــم سبحانه وتعالى. وفيه حرص الأشعريين على مرافقة النبي ﷺ والجهاد في ســبيل الله تعالى. ومما يبين شدة حرصهم أن عاد أبو موسى وهو حزين، وعَضَدَ هذا الحزن مخافة أن يكون النبي ﷺ قد وجد عليه شيئاً، خاصة وأنه ألحَّ على النبي ﷺ كما في روايـــة أخرى، يقول أبو موسى الأشعري (...إنا أتينا النبي ﷺ نفرٌ من الأشعريين، فاستحملناه، فأبا أن يحملنا، فاستحملناه، فحلف أن لا يحملنا...)[1] ثم يجدُ النبي ﷺ ما يحملهم عليه، فيأمر بلالاً ﷺ أن يستدعي أبا موسى، وفي هذا دلالة على حرص النبي ﷺ عـــلى أصـــحابه. إذ لم يتجاهلهم، ويتجاهل مطلبهم، مما يبين أن على الوالي أو من بـــيده أمر من أمور المسلمين أن لا يتجاهل مطالب الناس أو يستخف بهم، أو بضعف الضـــعيف. فنبي الله ﷺ يولي أمر الأشعريين اهتمامه، حيث استدعاهم فأعطاهم، كما قال أبو موسى الأشعري (... ثم لم يلبث النبي ﷺ أن أُتى بنَهبِ إبل. فأمر بخمس ذَوْد، فـــلما قبضناها، قلنا: تغفلنا النبي ﷺ يمينه، لا نُفلحُ بعدها أبداً، فأتيته فقلت: يا رسول الله ! إنك حلفت أن لا تحملنا، وقد حملتنا. قال: أجل، ولكن لا أحلف على يمين فأرى غيرهـــا خيراً منها إلا أتيت الذي هو خيرٌ منها.)[2] وفي رواية (...إلا أتيت الذي هو خيرٌ وتَحَلَّلتُها)[3]

فـــلما جاء للنبي ﷺ نَهَب، أي غنيمة من الإبل؛ أعطى الأشعريين خمس ذَوْد، والـــذود يقـــال للقطيع من الإبل: الثلاث إلى التسع، ولا يكون إلا من الإناث.[4] ثم يتبـــين مـــدى استشعار الصحابة لما يصدر عنهم في حق رسول الله ﷺ (قلنا: تغفلنا

---

[1] البخاري (٣/١٧٠ــ١٧١) برقم (٤٣٨٥)

[2] البخاري (٣/١٧٠ــ١٧١) برقم (٤٣٨٥)

[3] البخاري (٤/٢٢٥) برقم (٦٦٨٠)

[4] ابن منظور، لسان العرب (٣/١٦٨)

النبي ﷺ يمينه، لا تُفلحُ بعدها أبداً) مما يفيد أهمية استشعار المسلم لما يصدر عنه من مخالفة لأمر أو لنهي رسول الله ﷺ

ثم من فوائد هذا الحديث بيان أن من حلف على أمر فرأى غيرها خيراً منها، أخذ بالذي هو خير، كما بين وفعل ﷺ حيث قال لهم عليه الصلاة والسلام (قال: أجل، ولكن لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خيرٌ منها.) ويلزم المسلم أداء كفارة اليمين قال ﷺ (...إلا أتيت الذي هو خيرٌ وتَحَلَّلتُها)

ثم هذا مشهد آخر يمثل الحرص على المشاركة في الجهاد مع رسول الله ﷺ حتى درجة البكاء على أنهم لم يجدوا ما يحملهم عليه ﷺ فقد ذكر ابن إسحاق: أن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاؤن ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وعُلْبَة بن زيد، أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، أخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن حُمام بن الجموح، أخو بني سلمة، وعبد الله بن المغفل المُزَنِي ــ وبعض الناس يقول: بل هو عبد الله بن عمرو المزني ــ وهَرَميُّ بن عبد الله، أخو بني واقف، وعِرباض بن سارية الفَزَارِي. فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون.[1]

فيعطي هذا المشهد البكائي صورة ما تَمَثَّلَ به أولئك الصحابة من محبة لله ولرسوله ﷺ إلى درجة البكاء على عدم المشاركة، بينما غيرهم من المنافقين يبحثون عن الأعذار. مما يفيد أهمية الاقتداء بهم في طلب رضوان الله تعالى والحرص على ذلك فيما يقدر عليه الإنسان، وبذل الوسع فيما لا يقدر عليه. قال ابن كثير: فلما رأى الله حرصهم على محبته؛ ومحبة رسوله ﷺ أنزل عُذْرَهُم في كتابه تبارك وتعالى.[2]

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/١٦١) وابن حجر، فتح الباري (٨/١١٢)

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٩٦)

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (١)

تبين هاتان الآيتان رحمة الله تعالى بالضعفاء، برفع الحرج عنهم، حتى لا يجدوا في أنفسهم شيئاً من الحسرة التي تقطع قلوبهم المؤمنة، وفي هذا من الفوائد عناية الله تعالى بالجانب النفسي للمؤمنين ورحمته بهم، مما يؤكد أهمية مراعاة الخواطر والجوانب النفسية للمؤمنين، في تعاملهم مع بعضهم البعض، وفي تعامل الرئيس مع المرؤوس، وفيه إعذار المعذور بعذره، وعدم لومه أو تجريحه. بل إن رحمة الإسلام وعنايته بالمؤمنين الصادقين؛ الذين لا يمنعهم من مسلك الخير إلا قلة ذات اليد؛ أن أعطاهم ومنحهم من الأجر بهذه النية الصادقة ما تحقق لمن فعل وشارك. فعن جابر قال: (كنا مع النبي ﷺ في غزاة. فقال: إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. حبسهم المرض) وفي حديث وكيع (إلا شاركوكم في الأجر)(٢)

وعن أنس قال (لما رجعنا من غزوة تبوك قال عليه الصلاة والسلام: إن بالمدينة أقواماً؛ ما قطعتم وادياً؛ ولا سرتم مسيراً إلا شاركوكم فيه، قالوا: وهم بالمدينة، قال: حبسهم العذر.)(٣)

---

(١) سورة التوبة: آية (٩١ـــ٩٢)

(٢) مسلم (١٥١٨/٣) برقم (١٩١١)

(٣) أحمد، المسند (١٨٢/٣)

وهذا من أقوى الدوافع النفسية للمؤمن بأن يجعل نية الخير وإرادته؛ والعزيمة على مسلكه مطلباً ومقصداً في حياته، فإن أصاب بالفعل أو القول، وإلا بالنية والعزيمة.

ولئن كان ذلك العوز والقلة قد حصل لبعض الصحابة؛ فلقد عوضهم الله تعالى خيراً كثيراً، كما قال أبو مسعود الأنصاري، قال (كان رسول الله ﷺ يأمر بالصدقة، فيحتال أحدُنا حتى يَجيء بالمد، وإن لأحدهم اليوم مائة ألف. كأنه يُعَرِّض بنفسه)[1]

وفي هذا من الفوائد: أن الغنى بيد الله تعالى، وأن الفقر قد لا يدوم على الإنسان، فقد أغنى الله من كان فقيراً حتى أصبح يملك ما لم يكن يتوقعه في يوم من الأيام، مما يفيد أهمية حُسن الظن برب العالمين، وسؤاله والتملق له تبارك وتعالى. وفيه من الفوائد: التعليم بالتعريض؛ بما أغدق الله تعالى على الإنسان من النعم بعد الفقر والقلة، ليقدم ويبين ما يستعين به الفقير على الصبر وسؤال الرب تبارك وتعالى .

❁ ❁ ❁

وفي الوقت الذي يتم فيه إعلان النفير والإنفاق على جيش غزوة تبوك يبزغ ويظهر المنافقون؛ وهم يثبطون الناس عن الخروج ويعتذرون لرسول الله ﷺ قال الله تعالى عنهم

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[2]

---

[1] البخاري (٢٣٧/٣) برقم (٤٦٦٩)

[2] سورة التوبة: الآيتان رقم (٨١ـــ٨٢)

لقــد كانت غزوة تبوك في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، ولكن النار التي يصير إليها المنافقون أشد حراً، مما فروا منه من الحر.[1]

ويُســتفاد مــن هــذا البيان الإلهي، أن أعمال التثبيط عن الخير بين صفوف المسلمين من أعمال وأخلاق المنافقين، فلا يسلك هذا المسلك النفاقي المؤمنون، بل هم عــنه مبتعدون. ويستفاد منه كذلك أن لا يطلب المسلم لنفسه الرخص عن طاعة الله تعالى بالأسباب المماثلة لذلك، كقصر الليل عن أداء صلاة الفجر، وشدة الحر عن أداء الصيام أو الصلاة أو عن الجهاد بمشاغل الدنيا وشدة الحر، أو غير ذلك مما يماثله.

وذهــب بعض المنافقين يعتذر بأعــذار كاذبة، ليؤذن لهم بالتخلُّف، قال تعالى

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾[2]

فمن المنافقين من كان يقول: (ائذن لي) في القعود، (ولا تفتني) بالخروج معك، بســبب الجواري من نساء الروم، قال الله تعالى (ألا في الفتنة سقطوا) أي سقطوا في الفتــنة بقولهــم.[3] فقد قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه ذلك، للجد بن قــيس؛ أحد بني سلمة (يا جد ! هل لك العام في جلاد بني الأصفر ؟ فقال: يا رسول الله ! أو تأذن لي ولا تفتني ؟ فوالله لقد عَرَف قومي أنه ما من رجل بأشد عُجْباً بالنساء مــني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقــال: أذنت لك. ففي الجد بن قيس نــزلت هذه الآية. ــ ومعناها ــ أي إن كان إنما خشي من نساء بني الأصفر، وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة أكبر بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه.[3]

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٩١) النقل منه بالمعنى.

[2] سورة التوبة: آية رقم (٤٩)

[3] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٧٦)

[3] ابن هشام، السيرة النبوية (٤/١٥٩ــ١٦٠) وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٧٦)

فذلك مسلك من مسالك أهل النفاق، وهو البحث عن أعذار باهته، ظاهرها الورع، وباطنها الخذلان والكذب والخداع، والرغبة بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺ التي يفديه بها المسلم. مما يفيد أن هذه الأخلاق والأعمال هي مسلك أهل النفاق التي يلزم المسلم أن يتنبه لها ويجتنبها في أعماله وأقواله.

ومن أعمال المنافقين الخبيثة، الماكرة الفاجرة؛ شُروعهم في بناء مسجد؛ وذلك قبل غزوة تبوك، لنوايا رديئة خبيثة، قد كشفها الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ أثناء عودته من تبوك. على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى عند تسجيل بيان عودته ﷺ من هذه الغزوة.

فهكذا يتبين أن فريق المؤمنين مع رسول الله ﷺ يجتهدون في المشاركة بأموالهم وأنفسهم، وفريق المنافقين يعتذرون، ويبثون روح التخاذل بين الناس. وهذا يبين أن المجتمع النبوي الكريم لم يخل من هذه الفئة، وهو أفضل المجتمعات وأفضل القرون، مما يفيد أن منهج أصحاب الخذلان والإرجاف والتعطيل لمنابع الخير لن يختفي في غير القرون المفضلة. وبالتالي يلزم التعامل مع ذلك بحكمة وصبر؛ مع عدم التأثر بأمثال هؤلاء، والحذر من هذا السلوك والخُلُق الذي ارتسم واتصف به أهل النفاق.

❁ ❁ ❁

لم يتأثر المسلمون بأراجيف المنافقين، فلقد أعدوا العدة، وهيأوا للسفر، ويصف كعب بن مالك ﷺ شيئاً من حال وطلائع هذه الغزوة، فيقول (ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا وارى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، وعدواً كثيراً، فَجَلَّى للمسلمين أمرهم، ليتأهبوا أُهبةَ غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ ــ يريد الديوان ــ قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا

ظـــن أن سيخفى له، ما لم ينـــزل فيه وحي الله. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه...)[1]

ويفـــيد هذا البيان من كعب بن مالك ﷺ منهجية الرسول ﷺ في عَدَم إظهار وجهـــته عندما يغزو، بما يفيد أهمية ذلك في الأعمال التي يُخاف فيها من المتجسسين والعيون التي ترقب حركة المسلمين، أو خطأ يحدث من آحاد المسلمين. وهذا يبين أن للقـــائد أياً كانت دائرة عمله أن يكتم ما يَبْلُغُ به مصلحة المسلمين أهدافها، وأن على من معه إدراك أهمية مثل ذلك في تحقيق المقصد.

ويفـــيد كذلـــك: إذا كـــان في الأمـــر كبير مشقة، ويتطلب البيان للأعوان والمشـــاركين؛ يبين ويوضح ذلك لهم، كما بين رسول الله ﷺ وجهته في غزوة تبوك، وجلَّى للمسلمين أمرهم. كما جاء في الحديث (حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حـــر شـــديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، وعدواً كثيراً، فَجَلَّى للمسلمين أمرهم) ويفيد هذا أهمية إعمال الموازنة بين الأمور بما يحقق المصلحة.

ويـــبين حديـــث كعـــب كـــثرة عـــدد المسلمين في هذا الجيش، حيث قال (والمســـلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ ــ يريد الديوان ــ) قـــال ابن حجر: وللحاكم في الإكليل من حديث معاذ (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غـــزوة تـــبوك زيادة على ثلاثين ألفاً) وبهذا العدد جزم ابن إسحاق، وأورده الواقدي بسند آخر موصول، وزاد (أنه كان معه عشرة آلاف فرس)[2]

وهـــذا يـــدل على كثرة العدد وقوة الاستنفار، وكثرة من دخل في دين الله أفواجا. بل بلغ من كثرتهم أنه لو تغيب أحد ما عُرِف؛ إلا أن الله يكشفه (: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينـــزل فيه وحي الله)

---

[1] البخاري (٣/١٧٦ــ١٨٠) برقم (٤٤١٨)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٨/١١٨)

ثم يتبين من حديث كعب بن مالك ﷺ أجواء ذلك الوقت، حيث قال (وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال،)

وهو الوقت الذي يرغب فيه المرء أن يكون بجوار ثماره وتحت ظلاله، ولكن لم يتأثر المسلمون بتلك الثمار والظلال، ولم تحبسهم عن مشاركة رسول الله ﷺ والقيام بواجبهم الديني ما كان من وقت حصاد وتنعم بأرزاق الله تعالى. ويضرب أبو خيثمة، سعد بن خيثمة ﷺ مثلاً في التغلب على تلك المؤثرات التي تتجاذبه، إذ يقول (تخلفت عن رسول الله ﷺ فدخلت حائطاً؛ فرأيت عريشاً قد رُشَّ بالماء، ورأيت زوجتي. فقلت: ما هذا بإنصاف، رسول الله ﷺ في السموم والحرور وأنا في الظل والنعيم، فقمت إلى ناضح لي وتمرات؛ فخرجت، فلما طلعت على العسكر فرآني الناس، قال النبي ﷺ كن أبا خيثمة، فجئت فدعا لي.)[1]

ويفيد حال أبي خيثمة بيان الأسلوب العلاجي التربوي لما أصابه من دواعي التأخر؛ المتأثرة بالظل والنعيم، فكانت المنطلقات التربوية من المحاكمة النفسية لأمره وحاله مع حال رسول الله ﷺ فالنبي محمد ﷺ (في السموم والحرور ! وأنا في الظل والنعيم) إنها معادلة صعبة التحقق في قلب المؤمن. إذ ليس من العدل والإنصاف أن يكون الأمر كذلك. وبهذه المحاكمة الذاتية العادلة انتبه أبو خيثمة لما ينبغي أن يكون عليه بعد تلك المعالجة التربوية التي لم تَدم كثيراً. وبهذا يكشف أبو خيثمة إحدى الوسائل التربوية العلاجية؛ من خلال المحاكمة الذاتية، التي تعطي المرء الصورة الحقيقية لذاته؛ وما ينبغي أن يكون عليه، وهو أسلوب سريع النتائج، يحمله المرء معه في كل وقت ومكان، فيعالج به نفسه في أسرع اللحظات، وفي كل الأحوال.

ثم يأتي الموقف التربوي النبوي الكريم، فلم يُعنفه أو يتلفظ له بألفاظ تُثقله، وإنما قابله ﷺ بأحسن ما يمكن أن يُقابل، حيث دعا له ﷺ بما يفيد المربي أو الرئيس أو القائد أو المعلم عندما يأتيه من تراجع عن تقصير؛ فليتوسع له في القبول؛ ويستوعبه أيما

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (١١٩/٨)

استيعاب، ويمده بما يشجعه من كلمات البر والدعاء والثناء، وإحاطته بما ينمي عنده هذا الجانب، كما قال ﷺ (كن أبا خيثمة) فكم لهذه الجملة من دلالات تربوية عظيمة! بثت في نفس أبي خيثمة فيضاً من استشعار المكانة والتقدير، إذ تُنبِئ أنه شخصية مهمة، افتقده ﷺ من بين ثلاثين ألفٍ أو يزيد، ودعا أن يكون القادم أبا خيثمة، مما يولد الشعور بالمكانة والأهمية. فكلما اتسعت دائرة الاستيعاب للإخوان والأعوان عند الوالي أو الرئيس أو المعلم مع تلامذته وطلابه، أو الوالدين مع أبنائهم بالأسلوب النبوي التربوي، كانت لها دلالات كبيرة في النفس البشرية، فإنها التربية النبوية العظيمة التي تظهر في كل موقف من حياته ﷺ

❁ ❁ ❁

ثم هذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك يستخلفه على أهله؛ كما جاء في الحديث (أن رسول الله ﷺ خرج إلى تَبُوك، واستخلف علياً، فقال: أَتخلِّفُني في الصبيان والنساء ؟ قال: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبيٌّ بعدي)[1]

لم يفرح علي بن أبي طالب باستبقائه في المدينة ابتداءً، بل إن المشاركة مع النبي ﷺ في ميزان علي رضي الله عنه أفضل. مما يفيد أن المسلم لا يغتر بالراحة والدعة؛ بل تكون نظرته أبعد من ذلك، فتتجاوز حظوظ النفس والدنيا، لتنظر إلى الآخرة، وهي أمامه بجنانها وقصورها وحورها، فهي المقصد والهدف والغاية. لقد كان علي بن أبي طالب مثالاً وأنموذجاً للتربية النبوية الكريمة.

ويفيد هذا الموقف من علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن قوة الإيمان هي الموسعة للأفق، والنظرة البعيدة. ولكن رسول الله ﷺ بين ماله من منزلة ومكانة عالية رضي الله عنه وأن الأمر غير ما تصور (ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبيٌّ بعدي) وفي ذلك بيان ومنقبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وفيه من الفوائد: أن

---

[1] البخاري (٣/١٧٦) برقم (٤٤١٦)

للمأمور بأمر أن يبين وجهة نظره، وأن الآمر لا ينزعج من وجهة النظر، فيتقبلها، ويبين لصاحبها ما فاته أو خفي عليه من الأمر. ولا يفسر ذلك تفسيراً يبعده عن المأمول فيه، ويجعل ذلك سبباً في عدم الإفادة منه.

وفي الطريق إلى تبوك يحدث موقف يدل على التفاني في العمل من صحابي جليل، يقول عنه عبد الله بن مسعود ﷺ (لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك؛ جعل لا يزال يتخلف الرجل، فيقولون: يا رسول الله ! تخلف فلان. فيقول: دعوه إن يك فيه خير فسيُلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه...)[1]

ويفيد هذا المقطع من الحديث أن عملية التصفية كانت تتم بما يجد المرء من المشقة، فمن كان فيه خير ألحقه الله تعالى بالركب، ومن كان غير ذلك تراجع عن مسيره وتوقف، وفي ذلك من الفوائد أن لا يحزن الوالي أو القائد المسلم على من يتراجع، فإن في خروجه وتراجعه الخير. وفيه من الفوائد: التفويض والتوكل على الله تعالى في الأمور، (إن يك فيه خير فسيُلحقه الله بكم) فكان أبو ذر ممن تَخَلَّف به بعيره ولم يتخلف هو ﷺ يقول ابن مسعود ﷺ (...حتى قيل يا رسول الله تخلف أبو ذر؛ وأبطأ به بعيره، فتلوم أبو ذر على بعيره[2] فلما أبطأ عليه أخذ متاعه على ظهره فخرج يتبع رسول الله ﷺ ماشياً...)[3]

ويفيد هذا المقطع من رواية ابن مسعود ﷺ أن أبا ذر ﷺ ممن أراد الله به خيراً، فألحقه الله بركب رسول الله ﷺ وفيه كذلك دلالة على قوة إيمان أبي ذر؛ إذ تحامل على نفسه وحمل متاعه ماشياً على قدميه. بما يفيد أن المتابعة لرسول الله ﷺ تحتاج إلى صبر على مشقة الطريق ومعوقاته، من هوى النفس، وحب الراحة والدعة،

---

(١) الحاكم (٣/٥٠ـ٥١)

(٢) ومعنى تلوم: أي انتظر بعيره، كانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح أي تنتظر. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٢٢٧٨)

(٣) الحاكم (٣/٥٠ـ٥١)

ووساوس الشيطان وخذلانه، ورفقاء التثبيط والاستخفاف بشرائع الإسلام وهديه وأخلاقه.

(...ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، ونظر ناظر، فقال: يا رسول الله ! هذا رجل يمشي على الطريق ! فقال رسول الله ﷺ كن أبا ذر. فلما تأمله القوم، قالوا : يا رسول الله ! هو والله أبو ذر. فقال: رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده...)[1]

وفي هذا المقطع من الحديث بيان معجزة من معجزات النبي ﷺ إذ أخبر بحال أبي ذر، فكان له ﷺ ما قاله رسول الله ﷺ إذ يقول ابن مسعود ﷺ (... فضرب الدهر من ضربته، وسير أبو ذر إلى الرَّبَذَة. فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه: إذا متُ فاغسلاني وكفناني؛ ثم احملاني، فضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرون بكم، فقولوا هذا أبو ذر، فلما مات، فعلوا به ذلك. فاطّلع ركبٌ فما علموا به حتى كادت ركائبُهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة، فقالوا: ما ذا ؟ فقيل: جنازة أبي ذر. فاستهل ابن مسعود يبكي، فقال: صدق رسول الله ﷺ يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده. فنزل فوليه بنفسه حتى أجنّه.)[2]

وفي هذا المشهد تحقق ما قاله رسول الله ﷺ وهي معجزة من معجزاته ﷺ وما أكثرها، وأعظمها. وسيأتي شيءٌ منها في هذه الغزوة المباركة. وفيه زهد أبي ذر ﷺ إذ نحى بنفسه عن الناس، فمات وحيداً، وفيه بيان لطف الله تعالى بعباده الصالحين؛ إذ يمر صحابي جليل، فيقوم بمواراته التراب ﷺ وفيه كذلك محبة ورقة ابن مسعود على أبي ذر رضي الله تعالى عنهما، مما يدل على أن قدر الله سبحانه وتعالى نافذ لا محالة، بما يؤكد أهمية الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى بحسن العمل وسؤاله حُسن الخاتمة.

---

[1] الحاكم (٣/٥٠ـ٥١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه. وقال الذهبي فيه إرسال.

[2] الحاكم (٣/٥٠ـ٥١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه. وقال الذهبي فيه إرسال.

عـــن معاذ بن جبل ﷺ قال (خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تَبوك. فكان يجمع الصلاة، فصلى الظهر والعصر جميعاً. والمغرب والعشاء جميعاً. حتى إذا كان يوماً أخر الصلاة، ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعاً. ثم دخل ثم خرج بعد ذلك. فصلى المغــرب والعشاء جميعاً. ثم قال: إنكم ستأتون غداً إن شاء الله؛ عين تَبُوك، وإنكم لن تأتوها حتى يُضحِي النهار، فمن جاءها منكم فلا يَمَسَّ من مائها شيئاً حتى آتي...)[1]

وفي الحديـــث من الفوائد الجمع بين صلاة الظهر والعصر، وبين صلاة المغرب والعشـــاء في الســـفر. وهـــذا من رحمة الله تعالى للأمة، لما يلحق الإنسان من متاعب ومشاغل السفر، مما يفيد مراعاة هذا الدين لأحوال الإنسان في سفره وإقامته، فيعطي المؤمـــن دلالـــة تربوية عظيمة؛ بأن يراعي في توجيهاته الأحوال والحاجات، وهو أولى بتطبـــيق ذلك، لما له من القصور في أمر الآخرين، وكيف وقد أخذ بذلك من له الأمر كله سبحانه وتعالى.

ثم يبين هذا الحديث معجزة نبوية كبيرة، إذ أعلمهم رسول الله ﷺ بما سيكون غـــداً؛ من وُرود ماء عين تبوك، وحدد لهم موعد الوصول، فقال ﷺ (لن تأتوها حتى يُضحِي النهار) ثم من فوائد هذا البيان النبوي، إكرام الله تعالى لنبيه ﷺ بهذه المعجزة، ومن فوائده كذلك رَبْطُ النبي ﷺ تحقق ذلك بمشيئة الله تعالى، فقال ﷺ (إنكم ستأتون غـــداً إن شاء الله) مما يؤكد منهجية التطبيق العملي الذي ينبغي أن يدركه ويأخذ به المســـلم في كـــل شأن مُقْدِمٍ عليه، بأن لا يَقْدِمَ على شيء إلا وهو معتقد ومتلفظ بأن ذلك مرتبط بمشيئة الله تبارك وتعالى (إن شاء الله) فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وفي الحديـــث ذكـــر اســـم تبوك، كما في الحديث الآخر عن أبي موسى ﷺ (أرســـلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ اسأله الحُملانَ لهم إذ هم معه في جيش العسرة، وهـــي غـــزوة تَبوك...)[2] ذكر ابن حجر عن ابن قتيبة: جاءها النبي ﷺ وهم يَبُكون

---

[1] مسلم (٤/١٧٨٤ــ١٧٨٥) برقم (٧٠٦)

[2] البخاري (٣/١٧٦) برقم (٤٤١٥)

مكان مائها بقداح، فقال (ما زلتم تبوكونها) فسميت حينئذ تبوك ...وقيل سميت بذلك لقولـه ﷺ للرجلين اللذين سبقاه إلى العين (مازلتما تبوكانها منذ اليوم) قال ابن قتيبة: فبذلك سميت عين تبوك. والبوك كالحفر.[1]

وعن معاذ بن جبل ﷺ قال (...فجئناها، وقد سبقنا إليها رجلان. والعينُ مثلُ الشِّراك تَبِضُّ بشيء من ماء، قال: فسألهما رسول الله ﷺ هل مسستُما من مائها شيئاً ؟ قالا : نعم. فَسَبَّهما النبي ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول. قال: ثم غَرَفُوا بِأيديهم من العين قليلاً قليلاً. حتى اجتمع في شيء. قال: وغَسَلَ رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه. ثم أعـاده فـيها. فَجَرَت العينُ بماء منهمر. أو قال: غَزِير ــ شَكَّ أبو عليٍّ أيهما قال ــ حـتى استقى الناس. ثم قال: يوشك يا معاذ ! إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد مُلِئَ جناناً)[2]

ويفيد هذا المقطع من الحديث أن العين كانت مثل الشراك تَبِضُّ عندما وصلوا إلـيها، أي أن ماءها كان قليل جداً. والشراك هو سير النعل، وتَبِضُّ أي تبرق، وقيل تسيل.[3] فسبقه إليه نفرٌ من المنافقين، فاستقوا ما فيه[4] وفي الحديث معاتبة من خالف النهي الواضح مسبقاً. وفي الحديث معجزتان نبويتان أخريان، إذ كَثَّرَ الله تبارك وتعالى صـب العين فاندفع الماء منهمراً غزيراً. والمعجزة النبوية الأخرى؛ إخباره بما سيكون عليه المكان من الجنان. وهاهي تبوك جنان من المزارع والحدائق.

ومـن المعجـزات أيضاً (لما كان غزوة تبوك، أصاب الناس مجاعة، قالوا: يا رسـول الله ! لـو أذنـت لنا فنحرنا نواضِحَنَا؛ فأكلنا وادَّهَنَّا. فقال رسول الله ﷺ :

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (١١/٨)

[2] مسلم (١٧٨٤/٤ــ١٧٨٥) برقم (٧٠٦)

[3] النووي،صحيح مسلم بشرح النووي (٤١/١٥)

[4] ابن كثير، البداية والنهاية (١٧/٥)

افعلــوا. قــال: فجاء عمر، فقال: يا رسول الله ! إن فعلت قَلَّ الظّهر، ولكن ادعُهُم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة. لعل الله أن يجعل في ذلك. فقال رسول الله ﷺ : نَعَــمْ. قال: فدعا بنطع فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم. قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذرة. قال: ويجيء الآخر بكف تمر. قال: ويجيء الآخر بكسرة. حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير. قال: فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة. ثم قال: خذوا في أوعيــتكم. قــال: فأخذوا في أوعيتهم. حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأوه. قال: فأكلوا حتى شبِعُوا. وفَضَلَت فضلةٌ. فقال رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله. لا يلقَى اللهَ بهما عبدٌ غير شاك فَيُحْجَب عن الجنَّة)[1]

وفي الحديــث بــيان لما أصاب الجيش من شدة الجوع حتى أنهم أشاروا على رسول الله ﷺ أن ينحروا نواضحهم، أي إبلهم التي يستقون عليها.بل وصل بهم الحال إلى مــص النوى كما جاء عن أبي هريرة ﷺ قال (...وقال مجاهد: وذو النواة بنواه. قلت وما كانوا يصنعون بالنوى ؟ قال: كانوا يمصونه ويشربون عليه الماء...)[2]

قــال الله تعــالى في وصـــف ذلـــك ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧ ﴾[3]

قــال مجاهد وغيره: نــزلت هذه الآية في غزوة تبوك، ذلك أنهم نــزلوا إليها في شــدة مــن الأمر؛ في سنة مجدبة؛ وحر شديد؛ وعُسر من الزاد والماء، وقال قتادة: حــتى ذُكر أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم؛

---

[1] مسلم (١/٥٦ــ٥٧) برقم (٤٥ــ٢٧)

[2] مسلم (١/٥٥ــ٥٦) برقم (٤٤ــ٢٧)

[3] سورة التوبة: آية رقم (١١٧)

يمصـــها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ويشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم مـــن غـــزوهم.[1] ثم تـــاب عليهم؛ بعد أن كادت تزيغ قلوب فريق منهم؛ لشدة ما أصـــابهم. ثم يختـــم الله هذه الآية مبيناً رحمته ورأفته بهم سبحانه وتعالى.(إنه بهم رؤف رحيم)

وفي الحديث الأول دلالة على قبول المشورة، وأن تُطرح المشورة ابتداء دونما طلـــب، كمـــا فعل عمر ﷺ (فجاء عمر، فقال: يا رسول الله ! إن فعلت قَلَّ الظّهر، ولكن ادعُهُم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة. لعل الله أن يجعل في ذلك) وأن لـــلأدنى أن يشـــير إلى الأعلى، وللأعلى أن يأخذ بمشورة من هو أدنى منه، وفيه الموازنـــة بـــين الآراء، وأخذ ما هو أرجح وأصلح. وفي كل ذلك دروس تربوية نبوية لأمـــته، في كيفـــية الـــتعامل، وتحقيق منهج التشاور وإبداء الرأي، والتواضع، وعدم الاســـتنكاف من التراجع عن الأمر المرجوح للراجح، حيث عَدَلَ رسول الله ﷺ عن مشورة نحر النواضح إلى رأي عمر ﷺ بجمع الأزواد والدعاء عليها بالبركة. وفيه من الفوائـــد بركة اجتماع الطعام. إذ دعا عليه الصلاة والسلام بعد أن جُمِعَت الأزواد على النطع، وهو بساط يُتخذ من الأديم.

وفي الحديـــث بيان قلة الأطعمة التي كانت مع الصحابة، حتى أن الرجل يأتي بكف ذرة، أو تمر أو كسرة. وفيه معجزة نبوية عظيمة كريمة، قد أجراها الله تعالى على نبـــيه محمد ﷺ حيث دعا بالبركة، فكثر الطعام حتى ملؤا جميع أوعيتهم، وأكلوا حتى شـــبعوا، وبقـــي مـــنه فضلة. فسبحان الله العظيم المنعم على عباده، والمتفضل بنعمه وبركاته، وظهور آياته الباهرات. ثم يختتم رسول الله ﷺ ذلك الموقف بتوحيد الله تعالى بمـــا يؤكد ويبين أن المتفضل هو الله الواحد الأحد، وهذا من أدبه ﷺ مع ربه سبحانه وتعـــالى، وهو ما يجب أن يدركه المسلم في تقلبه في نعيم الله سبحانه وتعالى وملكوته. فقـــال ﷺ (أشـــهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله. لا يلقَى اللهَ بهما عبدٌ غير شاك

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم(٢/٤١)

فَيُحْجَب عن الجنَّة) وفي هذا بيان لعظَم هذه الشهادة العظيمة الكريمة، وعظِم مقام رسـول الله ﷺ عـند ربه تبارك وتعالى، سواء بما ورد على النبي ﷺ من معجزات أو باقتران اسمه بالشهادة المُدْخِلَةُ للجنة، إذ لا يتم ذلك الأمر إلا بالشهادة أنه رسول الله ﷺ.

❁ ❁ ❁

وإزاء هـذه المواقف والأحوال الإيمانية؛ هناك مواقف نفاقية من المنافقين أثناء هـذه الغزوة المباركة، قال قتادة (فبينما النبي ﷺ في غزوة تبوك، ورَكْبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها ! هيهات هيهات ! فـأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فقال (عليَّ بهؤلاء النفر) فدعاهم، فقال (قلتم كذا وكذا) فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب.[1] قال تعالى

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[2]

وورد أيضـاً في تفسيرها، أن رجلاً من المنافقين قال: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبـنا بطوناً، وأكذبنا ألسنة، وأجْبَنَنا عند اللقاء، فَرُفِعَ ذلك إلى رسول الله ﷺ فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فقال (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعفُ عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين)[3]

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٨٢)

[2] سورة التوبة: الآيتان رقم (٦٥ـــ٦٦)

[3] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٨١)

وفي هـــذا بيان خطورة الاستهزاء بالدين أو ببعض شرائعه، أو بالقرآن العظيم أو بشـــيء مـــنه، أو برسول الله ﷺ أو بالْمُطَبِّق لأمر الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ فإن ذلـــك خطير، وعاقبته وخيمة؛ كما بينه الله تعالى في نص تلك الآيتين العظيمتين. وهذا يتطلب من المؤمن مزيد حرص ودعاء وسؤال الله تعالى التثبيت وحُسن الخاتمة.

❁ ❁ ❁

وفي تـــبوك بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ﷺ إلى أُكيدر بن عبد الملك، أُكيدر دُومة. وهي دُومة الجندل، مدينة بقرب تبوك، وأكيدر تصغير أكدر، ودُومة بلد بـــين الحجاز والشام، وأُكيدر بن عبد الملك، رجل من كندة، كان ملكاً عليها، وكان نصـــرانياً، فقال رسول الله ﷺ (إنك تجده يصيد البقر) فخرج خالد بن الوليد، فوجده كذلك، كما قال رسول الله ﷺ فقتل خالد أخاه، واستلبه، فبعث به إلى رسول الله ﷺ قَبْل قدومه به عليه.[1] فحقن دمه، وصالحه على الجزية، ثم خَلَّى سبيله.[2]

وفي هـــذا معجـــزة نبوية؛ أظهرها الله تعالى على رسوله ﷺ بإخباره خالد بن الولـــيد: أنه يجد أُكيدر يصيد البقر، وفيه بيان نصر الله تعالى لرسوله ﷺ بأن مكنه من ملـــك كـــنده، وفيه كذلك نصرٌ وإعلانٌ بقوة المسلمين؛ وخضوع غيرهم لهم بدفع الجزية، وفي هذا كسر لشوكة الكفر نحو الشام.

وأتـــاه جَـــرباء وأَذْرُح، فأعطوه الجزية، فكتب رسول الله ﷺ لهم كتاباً، فهو عندهم.[3]

وعن أنس ﷺ (أن أُكيدر دُومة الجندل أهدى لرسول الله ﷺ حُلَّة)[4]

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/١٦٩ـــ١٧٠)مختصراً، وابن حجر، فتح الباري (٥/٢٣١).

(2) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/١٧٠)

(3) المرجع السابق (٤/١٦٩)

(4) البخاري (٢/٢٤١) برقم (٢٦١٦) ومسلم (٤/١٩١٦ـــ١٩١٧) برقم (٢٤٦٩)

وعـــن البراء ﷺ قال (أُهديت للنبي ﷺ حُلَّةُ حرير، فجعل أصحابه يَمسُّونها ويعجبون من لينها، فقال: أتعجبون من لين هذه ؟ لمناديل سعد بن معاذ خيرٌ منها؛ أو ألين)(١)

قـــيل خص المناديل بالذكر لكونها تُمْتَهَن؛ فيكون ما فوقها أعلى منها بطريق الأولى.(٢)

وهـــذا الأسـلوب النـبوي التربوي مشتمل على التذكير بالعاقبة الكريمة، والانتقال بالمخاطب من النظر في الدنيا إلى التفكير في النعيم الذي لا يزول في الآخرة.

وفي هذا بيان نبوي بحال شيء من أمور الجنة، وكذا منــزلة سعد بن معاذ ﷺ

وفيه من الدروس التربوية: أن لا يغتر المسلم بملذات الدنيا وزخرفها؛ فما عند الله خير من ذلك وأبقى وأنفس. قال الإمام النووي: قال العلماء: هذه إشارة إلى عظم منــزلة سـعد في الجـنة، وأن أدنى ثـيابه فيها خير من هذه؛ لأن المنديل أدنى الثياب...فغيره أفضل، وفيه إثبات الجنة لسعد.(٣)

وقال أبو حُمَيْد الساعدي (غزونا مع النبي ﷺ تبوك، وأهدى مَلِك أَيْلَةَ للنبي ﷺ بغلة بيضاء، وكساه بُرْداً، وكتب إليه ببحرِهِم)(٤)

وفي رواية ضعيفة الإسناد أنه جرت مراسلة بين النبي ﷺ وهرقل ملك الروم، أثـناء غـزوة تـبوك، بأن أرسل رسول الله ﷺ دحية الكلبي إليه، وأن هرقل أرسل التنوخي إلى رسول الله ﷺ ليعرف بعض علامات النبوة.(٥)

---

(١) البخـاري (٤٣/٣) برقـم (٣٨٠٢) وكـذلك (٢/٢٤٠ــ٢٤) بـرقم (٢٦١٥) ورقـم (٣٦٦) ومســلم (١٩١٦/٤ــ١٩١٧) برقم (٢٤٦٨) ورقم (٢٤٦٩)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٣٩/١٠)

(٣) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٢٣/١٦)

(٤) البخاري (٢٤٠/٢) باب قبول الهدية من المشركين. رقم (٢٨) وكذلك (٤٠٨/٢) برقم (٣١٦١)

(٥) أحمد (٤٤١ــ٤٤٢) وقال محققوا المسند، طبعة الموسوعة الحديثية، الشيخ شعيب الأرنؤط وآخرون: حديث غريب، وإسناده ضعيف (٤١٩/٢٤)

ومـــن مواقـــف هذه الغزوة ما رواه عروة بن المغيرة بن شعبة، عن أبيه، قال: (تخلَّـــف رســـول الله ﷺ وتَخَلَّفـــتُ معه، فلما قضى حاجته، قال: أمعك ماء ؟ فأتيته بِمَطْهَـــرَة. فغسل كفيه ووجهه. ثم ذهب يحسرُ عن ذراعيه فضاق كُمُّا الجُبَّة، فأخرج يـــده من تحت الجبة، وألقى الجبة على منكبية، وغسل ذراعيه، ومسح بناصيته وعلى العمامة وعلى خفيه، ثم ركب وركبت. فانتهينا إلى القوم، وقد قاموا في الصلاة، يصلي هِـــم عـــبد الرحمن بن عوف، وقد ركع بهم ركعة، فلما أحس بالنبي ﷺ ذهب يتأخر، فأومأ إليه. فصلى بهم، فلما سلَّم قام النبي ﷺ وقمت. فركعنا الركعة التي سبقتنا.)[1]

ومما يبين أن هذا حدث في غزوة تبوك هذه الرواية من صحيح البخاري، فعن عـــروة بن المغيرة عن أبيه المغيرة بن شعبة، قال (ذهب النبي ﷺ لبعض حاجته، فقمت أسكب عليه الماء ــ لا أعلمه إلا قال: في غزوة تبوك ــ فغسل وجهه، وذهب يغسل ذراعـــيه، فضـــاق عليه كُمُّا الجُبَّة، فأخرجهما من تحت جُبَّتِه فغسلهما، ثم مسح على خفيه.)[2]

قـــال الإمام النووي: اعلم أن هذا الحديث فيه فوائد كثيرة، منها جواز اقتداء الفاضل بالمفضول، وجواز صلاة النبي ﷺ خلف بعض أمته، ومنها أن الأفضل تقديم الصلاة في أول الوقـــت، فإنهم فعلوها أول الوقت، ولم ينتظروا النبي ﷺ ومنها أن الإمام إذا تأخر عن أول الوقت استحب للجماعة أن يُقَدِّموا أحدهم، فيصلي بهم إذا وثقوا بحسن خُلُق الإمـــام؛ وأنـــه لا يتأذى من ذلك؛ ولا يترتب عليه فتنة، فأما إذا لم يأمنوا أذاه فإنهم يُصَـــلّون في أول الوقت...ومنه أن من سبقه الإمام ببعض الصلاة أتى بما أدرك، فإذا سلم الإمام أتى بما بقي عليه... ومنها اتباع المسبوق للإمام في فعله...وأن المسبوق إنما يفارق الإمام بعد سلام الإمام.[3] وفيه فضيلة لعبدالرحمن بن عوف؛ حيث أَمَّ بالنبي ﷺ

---

[1] مسلم (١/٢٣٠ــ٢٣١) برقم (٨١ــ٢٧٤)

[2] البخاري (٣/١٨٠) برقم (٤٤٢١)

[3] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٣/١٧٢ــ١٧٣)

وفيه من الفوائد الابتعاد عن الأنظار وعن الناس عند قضاء الحاجة؛ والاستعانة بـــالغير في الوضـــوء ونحوه، وكذلك دقة منهجية النقل العلمي عند الصحابة، ودقة الوصـــف وذكـــر التفاصيل. مما يؤكد أن هذه المنهجية العلمية قد تولدت لديهم من خلال التربية النبوية على المنهج الإسلامي الذي يؤكد على مسؤولية القول والعمل.

❁ ❁ ❁

ويتبين مما سبق أن رسول الله ﷺ وأصحابه لم يواجهوا حرباً، فرجع إلى المدينة ﷺ منصـــوراً بمـــا تحقق له. وفي الطريق أتوا على الحِجْر؛ من ديار ثمود، فعن ابن عمر رضـــي الله تعالى عنهما، قال (لما مَرَّ النبي ﷺ بالحجْر؛ قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظـــلموا أنفسهم؛ أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين. ثمَّ قَنَّعَ رأسه، وأسرع الســـير؛ حتى أجاز الوادي)[1] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال (قال رسول الله ﷺ لأصـــحاب الحجـــر: لا تدخلـــوا على هؤلاء المُعَذَّبين إلا أن تكونوا باكين أن يصـــيبكم مـــثلُ ما أصابهم)[2] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال (أن الناس نـــزلوا مـــع رسول الله ﷺ على الحجر، أرض ثمود، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهريقوا ما استقوا ويُعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي تَرِدُها الناقة)[3]

وفي تلـــك الأحاديـــث بيان ما ينبغي للمسلم إزاء ديار أولئك الذين ظلموا أنفسهم، أن لا يدخلوها إلا باكين خشية الإصابة بما أصابهم، ثم الإسراع في السير عند المرور بها. وفيه من الفوائد التربوية؛ التربية بالأحداث، حيث أشار لهم ﷺ بما حدث في المكـــان لأهلـــه مـــن العذاب، نتيجة العصيان والتمرد على الله تعالى وعلى نبيه عليه السلام.

---

[1] البخاري (٣/١٨٠) برقم (٤٤١٩)

[2] البخاري (٣/١٨٠) برقم (٤٤٢٠)

[3] مسلم (٤/٢٢٨٦) برقم (٢٩٨)

قال الإمام النووي ــ رحمة الله تعالى عليه ــ : فقوله (قال لأصحاب الحجر) أي قال في شأنهم، وكان هذا في غزوة تبوك...وفيه الحث على المراقبة عند المرور بديار الظالمين؛ ومواضع العذاب، ومثله في وادي محسر لأن أصحاب الفيل هلكوا هناك، فينبغي للمار في مثل هذه المواضع المراقبة والخوف والبكاء والاعتبار بهم وبمصارعهم، وأن يستعيذ بالله من ذلك... وفي هذا فوائد، منها: النهي عن استعمال مياه أبار الحجر، إلا بئر الناقة، ومنها لو عجن منه عجيناً لم يأكله، بل يُعَلّفه الدواب.[1]

❁ ❁ ❁

وفي أثناء عودة الرسول الله ﷺ ينزل عليه الوحي، مبيناً أمر مسجد الضرار. إذ لما قفل رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض اليوم؛ نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار؛ وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين.[2] قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾[3]

---

[1] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٨١/١١١ــ١١٢)

[2] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤٠٢)

[3] سورة التوبة: الآيتان رقم (١٠٧ــ١٠٨)

فقد كان في المدينة رجل من الخزرج يُقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه؛ وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله تعالى يوم بدر؛ شَرِقَ اللعين بريقه، وبارز بالعداوة، وذهب إلى هرقل ملك الروم؛ يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه، فكتب إلى أتباعه بمناصرة ملك الروم له، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، وطلبوا من الرسول ﷺ أن يصلي فيه، ليحتجوا بصلاته، فعصمه الله. وكان ﷺ على سفر، ووعدهم إذا رجع. فأنزل الله تعالى خبر مسجد الضرار.

فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه، قبل مقدمه المدينة.(١)

ويستفاد من ذلك تحريق أمكنة المعصية؛ التي يُعصى اللهُ ورسولُه فيها؛ وهدمها، كما حرق رسول الله ﷺ مسجد الضرار، وأمر بهدمه، لما كان بناؤه إضراراً وتفريقاً بين المؤمنين.(٢)

ويُستفاد من هذا أهمية المسجد والأهمية التي يؤديها، وكيف استغل المنافقون هذه الأهمية في أهداف قد رسموها، فبينها الله تعالى، وهي :

ـ ضراراً. أي بمعنى الْمُضارة لمسجد قباء.

ـ وكفراً بالله ورسوله.

ـ وتفريقاً بين المؤمنين. لأنهم كانوا يصلون في مسجد قباء جميعاً، فأرادوا تفريق جماعتهم.

ـ والإرصاد: الانتظار، فانتظروا به مجيء أبي عامر.(٣) لمن حارب الله ورسوله.

❁ ❁ ❁

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤٠٢)

(٢) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٣/٥٧١)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣٣٩)

ومـــا أن اقترب الناس من المدينة إلا وقد جهدت مطاياهم وتعبت، ولكن الله تعـــالى من عليها وعليهم بدعاء النبي محمد ﷺ فعن فضالة بن عبيد الأنصاري (غزونا مـــع الـــنبي ﷺ غـــزوة تبوك، فَجُهِدَ بالظَّهْرِ[1] جَهْداً شديداً، فَشَكَوْا إلى النبي ﷺ ما بظَهْـــرِهم من الجَهْد، فتحين هم مضيقاً، فسار النبي ﷺ فيه، فقال: مُرُّوا بسم الله، فَمَرَّ الـــناس عليه بظَهْرِهم، فجعل يَنفُخُ بظهرهم :اللهم احْمِلْ عليها في سبيلك، إنك تحمل عـــلى القوي والضعيف وعلى الرطب واليابس؛ في البر والبحر، قال فما بَلَغْنا المدينة حتى جَعَلَت تُنازِعُنا أزِمَّتها[2].قال فضالة : هذه دعوة النبي ﷺ على القوي والضعيف، فما بال الرطب واليابس ! فلما قدمنا الشام غزونا غزوة قبرص في البحر، فلما رأيت السفن في البحر؛ وما يدخل فيها، عَرَفْتُ دعوة النبي ﷺ)[3]

وفي الحديـــث بـــيان أثر الدعاء وسؤال الله تعالى، فهو الكريم العظيم مبحانه وتعالى، حيث نشطت الإبل، وكانت في أحسن ما يكون؛ بعد أن تَعِبَت فجَهِدَت جهداً شديداً، وفيه استجابة دعاء النبي ﷺ وفي هذا معجزة نبوية من الله تعالى لنبيه الكريم ﷺ وفيه كذلك بركة دعاء النبي ﷺ ومكانته عند ربه جلَّ جلاله. وأيضاً فضل هذا الدعاء في المعالجة من الجهد والتعب. وفيه النفخ على الهزيل بالدعاء.

وعـــندما اقترب رسول الله ﷺ من المدينة؛ بين لأصحابه حال بعض المسلمين الذين منعهم العذر من غزوة تبوك. وما حصلوا عليه من الأجر والثواب. فعن أنس بن مـــالك ﷺ (أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك؛ فَدَنا من المدينة؛ فقال: إن بالمدينة

---

[1] الجَهْـــد المشقة. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٢٠/١)، والظَّهر: الإبل. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر(١٦٦/٣)

[2] زممت البعير إذا عَلَّقت عليه الزمام. والزمام الخيط الذي يُشَدُّ به. وزممت البعير خطمته. ابن منظور، لسان العـــرب (٢٧٢/١٢)

[3] أحمـــد، المســـند (٢٠/٦) وقال محققوا المسند، طبعة الموسوعة الحديثية، الشيخ شعيب الأرنؤوط ومن معه: حديث صحيح. (٣٧٧/٣٩ـــ٣٧٨) رقم الحديث (٢٣٩٥٥)

أقوامـاً مـا سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: يا رسول الله ! وهم بالمدينة ؟ قال: وهم بالمدينة ! حبسهم العذر)[1]

فهـذه المعية القلبية التي كانت من أصحاب الأعذار من الصحابة، جعلت لهم مـن الخـير الشيء العظيم، مما يفيد أن النية الصالحة الصادقة من إرادة الخير إذا حال بينها وبين الفعل العذر، تحقق للمرء المسلم خيراً عظيماً.

وهـذا مـن الجهاد بالقلب، وهو أحد مراتبه الأربع: القلب واللسان والمال والبدن.[2]

وعن مشاعره ﷺ عندما أقبل على المدينة، وفرحه وسروره برؤيتها، يقول أبو حُميد (أقبلنا مع النبي ﷺ من غزوة تبوك، حتى إذا أشرفنا على المدينة، قال هذه طابة، وهذا أحد جبل يُحبُّنا ونحبُّه)[3]

وفي الحديث بيان أَحَدِ أسماء المدينة، أنها طابة. وفيه بيان لما عليه أُحُد من محبته للمؤمـنين، ومحـبة المؤمنين له. فجبال صماء قد أحبت المسلمين وأحبوها، وتفاعلت معهم وجداناً فمودة، وما ذاك إلا تسخيرٌ من الرحمن، وعلو منـزلة دين ربنا المنان.

وأمـا مشاعر أهل المدينة، فيرويها السائب ﷺ حيث قال (أذكر أني خرجت مع الصبيان؛ نتلقى النبي ﷺ إلى ثنية الوداع، مَقْدمه من غزوة تبوك)[4]

وفي هـذا بيان ما كان عليه الصبيان من الفرح والسرور بمقدم رسول الله ﷺ وجيشه، وخروجهم لاستقباله فرحاً وسروراً. وهو مشهد اجتماعي وتربوي يدل على المشاعر والعواطف التي تَربَّى عليها أولئك الصبية من أهليهم.

---

(1) البخاري (٣/١٨٠) برقم (٤٤٢٣)

(2) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٣/٥٧١)

(3) البخاري (٣/١٨٠) برقم (٤٤٢٢)

(4) البخاري (٣/١٨١) برقم (٤٤٢٧)

ثم وصــــل ﷺ المدينة صباحاً، كما جاء في الحديث (...وصَبَّح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قَدِم من سفرٍ بَدَأ بالمسجد، وركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس...)[1]

فيــبين هذا الحديث المنهج النبوي الذي كان معهوداً منه ﷺ عند قدومه؛ أن يبدأ بالمسجد؛ فيصلي فيه ركعتين، ثم يجلس للناس. قال ابن القيم: أن السنة للقادم من السفر أن يدخل البلد على وضوء، وأن يبدأ ببيت الله قبل بيته، فيصلي فيه ركعتين.[2]

ويــروي كعــب بــن مالك ﷺ ما كان منه أثناء جلوسه ﷺ للناس، فيقول (...فـلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ــ وكان بضعة وثمــانون رجــلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله . فجئته...)[3]

وفيما يلي تفصيل قصة كعب بن مالك كما يرويها ﷺ :

---

(1) مسلم (٤/٢١٢٠ــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

(2) ابن القيم، زاد المعاد (٣/٥٧٥)

(3) مسلم (٤/٢١٢٠ــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

الثلاثة الذين خُلِّفوا. (حديث كعب بن مالك)

يقول كعب بن مالك ﷺ (... وكان من خبري، حين تخلفت عن رسول الله ﷺ ، في غزوة تبوك، أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله! مـا جمعـت قبلها راحلتين قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حَرٍّ شديدٍ، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً...)[1]

يفـيد مطلع رواية كعب بن مالك ﷺ الصدق في الرواية، حتى وإن كانت كاشفة وموضـحة لما لا يمكن أن يعرفه أحد من البشر، فلم يمنعه ذلك ﷺ من عدم كشفه وبيانه للـناس، حـتى يستفيدوا من مضامين هذه القصة التي قد امتلأت دروساً وعبراً ومواعظ، فكان أولها منهجية الصدق التي تربوا عليها في مدرسة رسول الله ﷺ مما يفيد أهمية الصدق مع الله تعالى دون اكتراث بما سيكون من أمر الناس.

وقـد أوضح كعب ﷺ أن السبب في تأخره لم يكن مادياً، بل إن ما توفر لديه من الراحلة، يحقق له إلزامية المشاركة، كما أوضح ما أنعم الله تعالى به عليه من الراحلتين، بعد أن كان لا يمتلكهما.

وتفـيد هذه الرواية بيان حال تلك الغزوة من الحر الشديد، وَبُعْدِ المسافة، وكثرة العـدو، مما يُرجح أن سبب الغزوة هو ما بلغ رسول الله ﷺ من أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام. (واستقبل عدوواً كثيراً)

ثم يقـول كعب ﷺ (... فَجَلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أُهْبَةَ غزوهم. فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله كثيرٌ ولا يجمعهم كتابُ حَافِظٍ (يريد بذلك : الدِّيوان)، قال كعبٌ: فَقَلَّ رجلٌ يريد أن يَتَغَيَّبَ، يظن أن ذلك سيخفى له، ما لم ينـزل فيه وحيٌ من الله عزَّ وجلَّ...)[2]

---

[1] مسلم (٤/٢١٢٠ــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

[2] مسلم (٤/٢١٢٠ــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

وفي هـــذا بـــيان لمـــا كان من رسول الله ﷺ في هذه الغزوة، إذ جلّى لهم أمر هذه الغزوة، فَيُفْهَمُ أنه كان ﷺ يواري في غيرها. كما جاء في الحديث (فكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا وَرَّى بغيرها)[1] مما يفيد أهمية مراعاة القائد ومن في حكمه لمصلحة المسلمين في البيان أو التورية، وأن يُقَدِّر ذلك، ويجتهد فيه، كما يفيد أن على المرؤوس أو المتبوع أن يقبل ذلك ويدرك أهمية المصلحة العامة.

ويفـــيد هذا البيان من كعب ﷺ كثرة المسلمين في هذه الغزوة، حتى لو أن الرجل أراد أن يتغيـــب فلـــن يُكشف أمره لكثرتهم ولعدم قيد الأسماء في ديوان. إلا بوحي من الله تعالى، العالم بكل شيء سبحانه وتعالى.

ثم يقـــول كعـــب ﷺ (...وغـــزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظّلال، فأنا إليها أَصْعَر، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطَفِقْتُ أَغْدُو لكي أتجهز معهـــم، فـــأرجع ولم أقض شيئاً، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك، إذا أردتُ، فلم يزل ذلـــك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجدّ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقـــض من جَهَازي شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً،فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أســـرعوا وتَفَارَطَ الغَزْوُ، فَهَمَمْتُ أن أرتحل فأُدْرِكَهُم فيا ليتني فعلتُ، ثم لم يُقَـــدَّرْ ذلـــك لي...)[2]

يـــبين كعـــب بن مالك ﷺ حالة المدينة الزراعية في فترة الغزوة، من استواء الثمار فيها، وكان وقت حصاد واستطابة لها ولظلالها الوارفة، وقد كان لها أميل (فأنا إليها أصعر) ثم يبين الحالة النفسية التي كان فيها، وكذا عامل التسويف الذي حصل عنده ﷺ فلم يكن عن الغزوة راغباً، بل كان ﷺ منشغل البال بها، متحمساً لها، غير أن عامل التسويف قضى على تلك الرغبة والذي عبر عنه بقوله ﷺ (فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا، وتفارط

---

[1] مسلم (٢١٢٨/٤) برقم (٥٤ـــ٢٧٦٩)

[2] مسلم (٢١٢٠/٤ـــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

الغـــزو) أي تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا. مما يفيد ويبين خطورة التسويف في فعل الخير، وأنه قد يمنع الإنسان عن الخير، ويحول بينه وبين فعله.

ثم يـــبين ﷺ مـــا خلج في نفسه، من أنه هَمَّ أن يرتحل فيدرك الناس، ولكن لم يكن ذلك، ثم حدثت الأمنية للفعل وتفعيل تلك الرغبة، بعد انقضائها. مما يفيد كيف يكون حال المؤمن بعد فواته للخير، أن يكون نادماً متحسراً، حتى تتحفز النفس لغيره من الخير، وتبلغ التربية الذاتية مبلغها الفاعل فيما سيأتي. ثم بعد ذلك يقول ﷺ (ثم لم يُقَدَّرْ ذلك لي) فيربط ﷺ ذلـــك بقدر الله تعالى، وهو ما يجب أن يكون عليه المؤمن بعد الحدث، إذا كان تقصيراً أن يندم ويعترف بتقصيره، ويعلم أن كل شيء بقدر الله تعالى. مما يفيد أن التوفيق للخير بيد الله تعالى فيطلبه من واهبه عزَّ وجل. وهنا لم يحتج بالقدر، وإنما يعزي نفسه به.

ثم يـــبين ﷺ مزيد تفصيل لحالته النفسية، وكذا أسلوب المقارنة والقياس التربوي الـــذي يحفز النفس للخير ويبين لها حجم التقصير، فيقول ﷺ (... فَطَفِقْتُ، إذا خرجتُ في الـــناس، بعد خروج رسول الله ﷺ، يحزُنني أني لا أرى لي أُسْوَةً، إلا رجلا مَغْمُوصاً عليه في النفاق، أو رجلا مِمَّنْ عَذَرَ الله من الضعفاء...)[1]

ويفـــيد هـــذا أهمية المعالجة التربوية الصادقة من خلال المقارنة بالمماثلين في الفعل، وعـــدم البحث عن الأعذار الواهية وتلمسها والتعليق عليها، وهو الأسلوب الناجع الذي امـــتلأت بـــه النفوس المؤمنة من منهجية رسول الله ﷺ التربوية. فلقد قارن نفسه ﷺ بمن تخلف، فلم يجد إلا صنفين من الناس: رجل متهم بالنفاق، أو رجل معذور بعذر.

ويعتـــبر هـــذا الأســـلوب من الأساليب التربوية الفاعلة والمؤثرة في تنمية الذات وتصحيح مسارها واتجاهها، حتى تسلك المسلك الصحيح. وهذا ما سلكه كعب ﷺ

قال ابن حجر رحمة الله تعالى عليه في الإخبار عن تقصير النفس: وجواز إخبار المرء عن تقصيره وتفريطه، وعن سبب ذلك وما آل إليه أمره تحذيراً ونصيحة لغيره.[2]

---

[1] مسلم (٤/٢١٢٠ـــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

[2] ابن حجر، فتح الباري (١٢٣/٨)

ثم ينقل كعب ﷺ المشهد إلى تبوك، فيبين ما دار عنه من حديث، فيقول ﷺ (...ولم يذكرني رسول الله ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكاً، فقال وهو جالس في القوم بتبوك:ما فعل كعب بن مالك ؟...)

وفي هذا الموقف النبوي الكريم، ما يبين عنايته ﷺ بأصحابه رضي الله تعالى عنهم، إذ لم ينشغل ﷺ بأمور الناس وكثرهم عمن تخلف، ويكتفي بهم دون السؤال عن غيرهم ممن لم يحضر. وإنه لدرس تربوي عظيم، يتعلم منه الحاكم مع أعوانه ومساعديه، والقائد مع جنده وعسكره، والمدير والرئيس مع مرؤوسه، والمعلم مع تلاميذه، والداعية مع المدعوين، والأب مع أسرته، والصديق مع أصدقائه..إلى غير ذلك من دوائر المجتمع وشرائحه المختلفة من السؤال عن الغائب والمتخلف.

ففي السؤال عمن تأخر أو غاب أثر كبير في حق المسؤل عنه، وعلى نفسيته، وعلى الحاضرين الذين يتعلمون من خلاله كيف يتعاملون مع الغائب. ويلاحظ أنه ليس من أسلوبه ﷺ التغافل في مثل هذا الموقف. وفي السؤال من رسول الله ﷺ مايبين مكانة كعب ابن مالك ﷺ والأثر الذي سيرتسم عليه ويوضح كريم خُلُقه ﷺ وعظيم عنايته بأصحابه وتفقده لهم.

وبعد سؤال النبي ﷺ عن كعب يدور حديث قصير بخصوصه، يقول كعب ﷺ (...قال رجل من بني سَلَمَة: يا رسول الله! حبسه بُرْدَاه والنظر في عِطْفَيْه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلتَ، والله! يا رسول الله! ما عَلِمْنَا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ ...)[1]

أي أن الذي منعه من الغزو هو انشغاله بذاته. وكنى بذلك عن حسنه وبهجته، والعرب تصف الرداء بصفة الحسن، وتسميه عطفاً لوقوعه على عطفي الرجل[2] ولكن معاذ بن جبل يدفع ويرد عن كعب، ويخبر بما يعرفه من الخير. مما يفيد ويبين المسلك والمنهج

---

[1] مسلم (٤/٢١٢٠–٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٨/١١٩)

الـــذي يجب على المسلم أن يسلكه عندما يعرف خلاف ما يُذْكَر. وأن للمرء أن يدفع عن أخيه مع وجود من هو أعلى منه مقاماً ومكانة، وأن للأعلى كالحاكم أو الرئيس، أو الوالد في منـــزله، أن يكتفي برد من رد.

ومن فوائد هذا الموقف الاكتفاء بالرد الإجمالي وترك المعاتبه أو التعليق، وكثرة القيل والقال، أو البسط في التوجيه.

قـــال ابن حجر: جواز الطعن في الرجل بما يغلب على اجتهاد الطاعن عن حمية لله ورسوله. وفيها جواز الرد على الطاعن إذا غلب على ظن الراد وهم الطاعن، أو غلطه[1]

ثم يقول كعب ﷺ عن المسلمين في تبوك (...فَبَيْنَما هو على ذلك رَأى رَجُلاً مُبَيِّضاً يـــزول به السراب فقال رسول اللهﷺ :كُنْ أَبَا خَيْثَمَة، فإذا هو أبو خَيْثَمَةَ الأنصاريُّ، وهو الذي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التمر حِين لَمَزَهُ المنافقون...)[2]

ويبين هذا المشهد مزيداً من عناية الرسول ﷺ بأصحابه، وتفقده لهم، وكريم خُلُقه وحســـن صـــحبته ﷺ بما يؤكد أهمية السؤال عن الآخرين وتمني وجودهم. فإن لذلك أثراً عظـــيماً على المسؤل عنه، وأثراً تربوياً بالغاً على الحاضرين، إذ يتعلمون من خلاله الممارسة التطبيقية العملية للحياة الاجتماعية في صورها العامة أو في صورها الخاصة. وقد سبق بيان فوائد هذا المقطع في غزوة تبوك.

(...فقـــال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك، حَضَرَني بَثِّي، فَطَفِقْتُ أتذكر الكذب وأقول: بِمَ أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك كُـــلَّ ذي رأي من أهلي، فلما قِيلَ لي: إن رسول الله ﷺ قد أَظَلَّ قادماً، زاح عني الباطل، حتى عَرَفْتُ أني لن أنجوا منه بشيء أبداً، فَأَجْمَعْتُ صدقه...)[3]

---

[1] المرجع السابق (١٢٤/٨)

[2] مسلم (٢١٢٠/٤ــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

[3] مسلم (٢١٢٠/٤ــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

لقد بين كعب بن مالك ﷺ في هذا المقطع من الحديث ما كان يختلج في نفسه، وما عمد إليه من استشارة، وهو ما يحدث عند كل أحد من الناس عندما يكون في مثل هذا الموقف. فيفيد هذا الوصف ما يعتري الإنسان من البث أي الحزن، نتيجة استشعار التقصير، وهو ما يحدث عند المؤمن، الذي لا يكابر ويختلق لنفسه الأعذار، ويتلمس لها المبررات. وهنا يحدث السجال النفسي في حالة النفس اللوامة التي تلوم صاحبها عند إرادة غير الصواب، فيتذكر الكذب ومقدرته عليه كوسيلة، مع عدم القدرة على تحمل سخط رسول الله ﷺ وعدم وجود الوسيلة التي يخرج بها من هذا الموقف، ثم يستعين بالوسيلة الخارجية الأخرى، برأي الأهل والأقارب. فإنها مجموعة عناصر قد اختلجت في صدره ﷺ وقد أحدثت حزناً وألماً بالغ الأثر عليه.

وفي هذا الجو النفسي لحالة النفس اللوامة، ينزاح الباطل بتوفيق الله تعالى وينتصر الإيمان، ليتخذ القرار الصائب، حيث يقول ﷺ (فَأَجْمَعْتُ صدقه) بما يؤكد ويفيد أن الإنسان عندما يحصل منه قصور في طاعة الله تعالى، فإن أول مراتب الحلول، هي المحاكمة الذاتية عن ذلك القصور، حتى يتأكد للمرء ويستقر في نفسه أنه مقصر فعلاً، ثم النظر في الحلول المطروحة التي تتفق مع مقام العليم السميع البصير، لا مع المبررات الوهمية النفسية، وذلك بإسقاطها كما أسقطها كعب بن مالك ﷺ ثم ترجيح الحل الراجح الناجح وإن كان صعباً ومؤلماً، فإن مقام الله تعالى أكرم وأعظم، فهو الرحيم العليم السميع البصير، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

ثم يصل رسول الله ﷺ المدينة (... وصَبَّح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قَدم من سفرٍ بَدَأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ــ وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله ...)[1] وقد سبق بيان فوائد هذا المقطع في نهاية غزوة تبوك.إضافة إلى قبول الظاهر من المعتذر، وتوكل سريرته إلى الله تعالى.

---

[1] مسلم (٤/٢١٢٠ــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

ثم يقول كعب بن مالك ﷺ (...حتى جئت، فلما سلمت عليه، تَبَسَّمَ تَبسُّمَ المغضب؛ ثم قال: تعال، فجئت أمشي، حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلَّفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ ...)[1]

في هذا المشهد جواز إخبار المرء عن تقصيره وتفريطه، وسؤاله عن سبب ذلك[2]

ويبين هذا المشهد حرص النبي ﷺ على كعب وعدم رضاه عن تأخره بلا عذر، فكان أن تبسم له ﷺ تبسم المغضب. وفي ذلك من الفوائد أن المعاتبة الرفيعة في الخُلُق تكون بهذا المسلك النبوي الرفيع. إذ لم يُعرض عنه، أو خاطبه بكلمات التجريح، بل بابتسامة خالطها العتاب. ثم أنه ﷺ بدأ بسؤال تذكيري (ما خلَّفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟) وفي هذا الأسلوب التقرير للمسؤول بالعهد والقاعدة والأساس الذي تنطلق منه المعاتبة، وهو أقوى في قبول الحوار والمناقشة، والتفاعل معها والتأثر بها. فجاءت الإجابة من كعب ﷺ مفعمة بالصدق المختلط بالخوف من الله تعالى.

يقول كعب (...قال قلت: يا رسول الله! إنّي، والله! لو جلستُ عند غيرك مِنْ أهل الدنيا، لَرَأيْتُ أنّي سأخرج من سخطه بعُذْر، ولقد أُعْطيتُ جَدَلاً، ولكني، والله! لقد علمتُ، لَئن حدَّثْتُكُ اليومَ حديثَ كذب ترضى به عَنّي، لَيُوشِكَنَّ اللهُ أن يُسْخِطَكَ علي، ولَئِنْ حدَّثْتُكَ حديث صدقٍ تجد عَلَيَّ فيه، إني لأرْجُوا فيه عُقْبَى الله، والله! ما كان لي عُذْرٌ، والله! ما كنت قَطُّ أقوى ولا أيسر مِنِّي حين تخلفت عنك...)[3]

تبين هذه الإجابة من كعب بن مالك ﷺ قوة التربية الإيمانية التي تلقاها من رسول الله ﷺ فجعلته يتصرف هذا التصرف العظيم. فلقد تضمن جواب كعب لرسول الله ﷺ بيان الفارق بين الوقوف عند رسول الله ﷺ وبين الوقوف عند غيره من الناس، إدراكاً وبياناً ومعرفةً لمقامه ﷺ الذي دفعه إلى طرح كل عذر يمكن أن يعتذر به. فيعطي ﷺ بذلك درساً

---

(1) مسلم (٤/٢١٢٠ـ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

(2) ابن حجر، فتح الباري (١٢٣/٨)

(3) مسلم (٤/٢١٢٠ـ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

تربوياً عملياً عميقاً في التطبيق الإيماني لعبادة الله بالصدق والخوف والرجاء، وعدم التهاون في حـــق الله تبارك وتعالى وفي حق رسوله ونبيه ﷺ مما يفيد أن منهج الإسلام يربي في أتباعه الإدراك الكـــامل بأن الله لا يخفى عليه شيء، وأن تقديم الخوف من سخط الله على سخط الناس هو الأساس الخلقي العظيم الذي يغرس الثبات السلوكي عند المؤمن.

ثم يـــبين ﷺ مقدرتـــه في الفصاحة والبلاغة وقوة الكلام، وبراعته التي تخرجه من ســـخط العاذل له، ولكنه امتنع عن استخدام ذلك. ليعطي ﷺ بهذا البيان عمق التربية التي تلقاها من رسول الله ﷺ فكونت منه هذه الشخصية الصادقة، المدركة لمقام الله جل جلاله، ولمقام رسول الله ﷺ فيقدم بذلك درساً وبياناً من أن الفصاحة والبلاغة وقوة البيان لا تنفع صاحبها في الخروج من سخط الله بالكذب والتدليس.

فـــالذي يمـــنعه من استخدام هذه القدرة البلاغية كما يقول كعب ﷺ (والله! لقد علمـــتُ، لَئِن حدَّثْتُكَ اليومَ حديثَ كذب ترضى به عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللهُ أن يُسْخِطَكَ علي) وهذا يفيد أن خداع الحديث قد يرضى به الناس لمحدودية علمهم؛ ولكن الله تعالى لا يرضى بـــه، بـــل إن مغبة ذلك عظيمة الأثر إذا سخط الله تعالى. فإجلال الله تعالى وإدراك أسمائه العظـــيمة الـــتي تلقاهـــا من رسول الله ﷺ قد رَبَّت فيه الصدق وتحمل مشاقه التي نهايتها مسرات ولذات.

ثم يفـــيد كلامه ﷺ إدراكه العميق لصفات الله تعالى من أنه عفو كريم، حيث قال (إني لأرجوا فيه عُقْبَى الله) مما يؤكد ويبين أن معرفة أسماء الله وصفاته تربي في المسلم ما لا يمكن أن يحصل عليه إلا بها، والتي منها الصدق مع الله والخوف من الله والرجاء في الله.

ثم يؤكد كعب بن مالك ﷺ انتفاء موانع المشاركة في الغزوة، حيث يقول (والله! ما كـــان لي عُـــذْرٌ، والله! ما كنت قَطُّ أقوى ولا أيسر مِنِّي حين تخلفت عنك...) فلقد دفعه صـــدق محبته لله تعالى ولرسوله ﷺ وخوفه من سخط الله أن يكون صادقاً معترفاً. وهذا هو أول مفتاح التربية الذاتية للإنسان، بأن يُقِرَّ ويعترف بتقصيره أو أخطائه، حتى يدرك الطريق

بـــنوره المضـــيء، لا أن يتغافل عن قصوره ويكابر، ويبحث عن المبررات الخاطئة ؛ ليرضي نفسه إرضاء مؤقتا، سرعان ما ينقلب إلى عناء وأحزان.

ثم يقول كعب ﷺ: (...قال رسول الله ﷺ :أما هذا، فقد صدق، فَقُمْ حتى يقضي الله فيك. فَقُمْتُ، وثار رجال من بني سَلَمَةَ فاتَّبَعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذَنْباً قــبل هـــذا، لقـــد عَجَزْتَ في أن لا تكون اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ ، بِمَا اعتذر به إليه المُخَلَّفون، فقد كان كَافِيكَ ذنبكَ، استغفار رسول الله ﷺ لَكَ...)[1]

ثم هـــا هـــي قوة الإيمان تلاحقها الابتلاءات، مما يفيد أن المؤمن قد يُبْتَلى ويُمَحَّص لحكمة أرادها الله تعالى؛ فيرفع من درجاته ويكفر سيئاته، فلقد اجتمع معه قومه ليعتذر إلى رسول الله ﷺ ويكتفي باستغفار الرسول ﷺ له.

ممـــا يـــبين أنهم قد أَلِفُوا من الرسول الكريم ﷺ قبول عذر المعتذرين واستغفاره لمن اعـــتذر إلـــيه. فيتـــبين من ذلك كريم تعامله ﷺ ولطفه مع المعتذرين ورحمته بأمته، فيقبل ويســـتغفر لمن اعتذر، ولا يؤنبه. وقد جَسَّدّ فيهم هذا التعامل النبوي العظيم كريم الخصال والمحامد وكم يحتاج المسلم اليوم لهذا الخُلُق العظيم، فيقبل عذر المعتذر.

ولكـــن كعـــب بن مالك ﷺ عالج ذلك التأنيب من قومه بالتأسي بغيره من أهل الصلاح كما جاء في حديث كعب (... قال: فوالله ما زالوا يُؤَنِّبُونَني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ، فَأُكَذِّبَ نفسي، ثم قلتُ لهم: هل لَقِيَ هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم لَقِيَهُ معـــك رجلان، قَالا مِثْلَمَا قُلْتَ، فقيل لهما مثلما قيل لك، قال قلت: من هما؟ قالوا: مُرَارَةُ بْنُ رَبِيعَة العامِرِي، و هِلال بْنُ أُمَيَّة الواقِفي، قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شَهِدا بدراً، فيهما إسوةٌ، قال فَمَضيتُ حينَ ذكروهما لي...)[2]

فمشـــاركة الصحابيين الجليلين لكعب دليل على عمق التربية النبوية العظيمة التي جعلـــت هذه المجموعة من الرجال تسلك هذا المسلك العظيم. إذ فيه من الفوائد: التأسي

---

[1] مسلم (٤/ ٢١٢٠ـــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

[2] مسلم (٤/ ٢١٢٠ـــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

بالصـــالحين في كل وقت وحين، ولا سيما عند وجود الكربات والمعضلات، التي تتصارع فـــيها القوى النفسية بين الإقدام والإحجام، أو بين الصبر والجزع.فإن ذلك خير معين بعد دعـــاء الله تبارك وتعالى. وفيه كذلك من الفوائد علو منـــزلة من شهد بدراً وفاعلية سلوك الصالحين في غيرهم من خلال القدوة الفاعلة المؤثرة.

ثم يأتي ابتلاء آخر، حيث يقول كعب ﷺ : (... ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا، أيها الثلاثة، من بين مَنْ تخلف عنه.

قـــال: فاجْتَنَبَنا الناس، وقال: تَغَيَّروا لنا حتى تَنَكَّرْت لي في نفسيَ الأرضُ، فما هي بالأرض التي أعرف...)[1]

وفي هذا من الفوائد: امتثال الصحابة ـــ رضي الله تعالى عنهم ـــ لتوجيه رسول الله ﷺ في الســـر والعلانـــية، سواء من الثلاثة أو الذين امتنعوا عن محادثة الثلاثة. وكذلك من الفوائد: التربية بالهجر، لما لها من التأثير على المهجور، وعلى من يرى ذلك أو يسمع به.

ويـــبين حديـــث كعب الأثر النفسي العظيم لهذا الهجر، إذ يقول (تَنَكَّرْت لي في نفســـيَ الأرضُ، فما هي بالأرض التي أعرف...) مما يبين الأثر العميق الذي يتركه أسلوب الهجر والمقاطعة الاجتماعية على النفس الإنسانية، وكذلك صبر الصحابة ـــ رضي الله تعالى عـــنهم ـــ على ما يُبْتَلَوْنَ به، فقدموا لغيرهم الدروس العملية الفاعلة والمؤثرة في النفوس، وليتـــبين أن هذا الدين عظيم في كل شيء، وأن تربيته تصنع بالنفوس ما لا تصنعه تربيات الدنيا بأسرها.

ثم يقـــول كعب بن مالك ﷺ حاكياً قصته وصاحبيه:(... فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أَشَبَّ القوم وأجلدَهم، فكنـــت أخرج فأشهد الصلاة، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسولَ الله ﷺ فأُسَلِّمُ عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السلام، أم

---

[1] مسلم (٤/٢١٢٠ـــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

لا ؟ ثم أصلي قريباً منه وأُسَارِقُه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني...)[1]

يتبين من حديث كعب ﷺ الحزن العميق الذي أصاب صاحبيه، فقعدا يبكيان في بيتيهما، بما يدل على الفوارق الفردية في التفاعل مع الحدث، فليس الناس في ذلك سواء، فقد كان كعب ﷺ يشهد الصلاة ويطوف في الأسواق، ولا يكلمه أحد، فكل منهم قد تأثر الأثر الشديد؛ غير أنهم اختلفوا في عملية التعايش مع الحدث، مما يفيد بيان اختلاف الخصائص الإنسانية، ليفيد منها المعلم والمربي والداعية والقائد، وغيرهم ممن يتلمس الفوائد.

كما تبين هذه الرواية الحالة الإيمانية لكعب ﷺ إذ يسلم على رسول الله ﷺ متمنياً أن يرد عليه السلام (فأقول في نفسي: هل حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السلام، أم لا ؟) ثم يصلي قريباً من رسول الله ﷺ ويسارقه النظر، ليتبين منها الأحاسيس ومشاعر المؤمن مع نبيه ﷺ والتي تكشف قوة المحبة، وتلمس الرضى منه ﷺ وقد كان رسول الله ﷺ ينظر إلى كعب إذا صلى، ويُعرض عنه إذا التفت إليه. فإنها الرحمة منه ﷺ والمحبة لكعب ﷺ فينظر إليه حال انشغاله بصلاته، مما يبين تربوياً أن العتاب والتأديب لا يعني الكراهية، بل يعني ذلك المحبة في صورة العتاب والتأديب، التي تتفاعل وتمتزج في قلب المؤمن الصادق. وهي تنطلق من الوالد مع أولاده، والزوج مع زوجته، والمعلم مع تلامذته.

ثم يبين كعب مزيداً من الكشف عما أصابه من هذا الهجر، فيقول ﷺ (...حتى إذا طال ذلك عَلَيَّ من جفوة المسلمين، مشيت حتى تَسَوَّرْتُ جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله! ما رَدَّ عَلَيَّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة! أنشدك بالله! هل تَعْلَمَنَّ أني أحب الله ورسوله ؟ قال فسكت، فَعُدْتُّ فَنَاشَدْتُهُ، فَسَكَتَ، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت، حتى تَسَوَّرْتُ الجدار...)[2]

---

[1] مسلم (٤/٢١٢٠–٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

[2] مسلم (٤/٢١٢٠–٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

وهـــذا الوصف من كعب ﷺ يفيد ويبين مقدار جلادته مع هذا الحدث، فيتسور جدار حائط أبي قتاده، والذي ذكر أنه ابن عمه لكونهما من بني سلمة؛ وليس هو ابن عمه أخو أبيه الأقرب[1] وكان سؤال كعب لابن عمه:(هل تَعْلَمَنَّ أني أحب الله ورسوله؟) دليل عـلى أن الهـم الـذي كان يحمله خوفه على إيمانه، وعمق محبته لله ولرسوله التي أثبتتها الابـتلاءات بهـذا الحـدث. مما يؤكد عمق التربية النبوية العظيمة التي غرست فيه وبقية الصـحابة محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ فكانت المحافظة عليها منطلق إيماني ثابت الجذور، فيقدم ﷺ درساً إيمانياً عميقاً في كيفية الاهتمام بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ .

وتفيد إجابة ابن عمه له مدى الالتزام بتوجيه رسول الله ﷺ حيث سكت عنه، فما قـال غير (الله ورسوله أعلم) فلم يقدم على نهي رسول الله ﷺ عاطفة القرابة أو الحال، بل كـان ممتثلاً لأمر رسول الله ﷺ فختم كعب ﷺ لقاء ابن عمه بفيض من الدمع، ثم عاد من حيث أتى.

ثم يأتي لكعب ابتلاء آخر، حيث يقول ﷺ (...فَبَيْنَا أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نَـبَطِيٌّ مـن نَبَطِ أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك، قال فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاءني فدفع إلي كتاباً من ملك غَسَّان، وكنت كاتـباً، فقـرأته فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هـوان ولا مَضْـيَعَة، فـالحق بنا نُوَاسِكَ، قال فقلت، حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء، فَتَيَامَمْتُ بها التنور فَسَجَرْتُها بها...)[2]

يوضـــح هذا المشهد مزيداً من الابتلاء الذي تلقاه كعب بقوة الإيمان العظيمة، التي تؤكـــد صدقه ومحبته لله تعالى ولرسوله ﷺ فلم يتردد في إحراق تلك الرسالة، ولم يفكر في الإجابـــة عليها، ولم يبلغ تأثيرها عنده أدنى درجات التأثير؛ من التأمل أو التفكير فيها، بل عمـــد إلى إحراقها فوراً في التنور. مما يفيد أن معالجة الباطل عند وروده بتركه حالاً؛ وعدم

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٨/١٢٠)

(٢) مسلم (٤/٢١٢٠ــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

الالـــتفات إلـــيه، أو إعطـــاء المجال للفكر فيه من التأمل والنظر إليه، ليقطع بذلك مسالك الشيطان وطرقه.

وفي هـــذه الرواية من الفوائد: أن هناك تبادلاً تجارياً مع بلاد الشام، قال ابن حجر عـــن النبطي المذكور في الحديث، والذي جاء بالرسالة من ملك غسان: نسبة إلى استنباط المـــاء واستخراجه، وهؤلاء كانوا في ذلك الوقت أهل الفلاحة، وهذا النبطي الشامي كان نصرانياً، كما وقع في رواية معمر[1] مما يفيد أن الكتابي كان يدخل المدينة للتجارة.

قـــال ابن حجر عن العلاقة بين كعب ﷺ وبين ملك غسان: والذي استدعاه قريبه ونســـيبه[2] وهـــذا عـــامل في زيادة التأثير، إذ لم يكن بعيد النسب عنه، بل قريبه ونسيبه، وصـــاحب مُلـــك وجـــاه، إضافة إلى أن الملك هو الداعي والطالب له. فأعطى كعب بهذا الموقـــف العظيم المسلك العملي لكل مغريات الدنيا وزخرفها التي تواجه الإنسان وهو في مثل تلك الحال، فكيف بمن هو في بحبوحة العيش والحياة؛ فيتنازل عن بعض واجبات دينه؛ من أجل فتات قليل من متاع الدنيا الفانية.

فعوامـــل الـــتأثير على كعب ﷺ كانت قوية جداً؛ فقد بلغ به الحزن مبلغه، ثم إن الداعـــي له قريـــبه ونسيبه، وإذا كان ملكاً كان أقوى، وإذا كان الملك هو الداعي وليس كعـــب هـــو الطالـــب كان ذلك أشد في إثارة الاستجابة، وإذا كان يمنيه، كان ذلك أشد وأقـــوى أثـــراً، فـــلم يغتر كعب بن مالك ﷺ أمام تلك المنازعات. مما يفيد عمق المنهجية الـــتربوية النبوية العميقة التي تربى عليها كعب بن مالك وقبل ذلك توفيق الله تبارك وتعالى وحفظـــه ومنّه على المؤمن، وتثبيته لمن جاهد نفسه في طاعة الله تبارك وتعالى كما قال جَلَّ جلاله ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [3]

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٨/١٢٠)

[2] المرجع السابق (٨/١٢١)

[3] سورة العنكبوت: آية رقم (٦٩)

ثم يواجـــه كعب وصاحباه مزيد ابتلاء، فيقول ﷺ (...حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واسْتَلبَثَ الوحيُ، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال: إنّ رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا. بل إعتزلها، فلا تَقْرَبَنَّها، قال فأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك. قال فقلت لامرأتي: إلحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر...)[1]

ولله الحكمـــة البالغة في هذا الابتلاء، فيتجاوب ﷺ مع أمر ربه تبارك وتعالى؛ وأمر رســـوله ﷺ دون أن يتردد، بل تساءل تساؤل المُذعن لأمر رسول الله ﷺ (أطلقها أم ماذا أفعل ؟) فلما عرف أن الأمر هو الاعتزال لها، أَمَرَ زوجته بالرحيل لأهلها حتى يقضي الله في هـــذا الأمر، مما يشير إلى إيقان كعب ﷺ أن هذا الأمر سيقضي الله فيه، حيث ربط خروج أهلـــه بحتى يقضي الله تعالى في هذا الأمر. فيقدم ﷺ درساً في الصبر على الابتلاء والطاعة وسرعة الامتثال، والرجاء والأمل في الله تعالى.

وأمـــا هلال بن أمية، فيقول كعب ﷺ (... فجاءت امرأة هلال بن أمية رسولَ الله ﷺ فقالـــت له: يـــا رسول الله! إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال:(لا ولكن لا يَقْرَبَنَّكِ) فقالت: إنه، والله! ما به حركة إلى شيء، و والله! ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا...)[2]

ويبين مجيء زوجة هلال بن أمية إلى رسول الله ﷺ أن هلالاً ﷺ شيخ كبير وليس له خـــادم يخدمه، وفيه من الفوائد: تقديم أمر الله تعالى ورسوله ﷺ على طاعة الزوج وخدمته، حيث استأذنت رسول الله ﷺ واستفسرت إن كان رسول الله ﷺ يكره خدمتها لزوجها، إذ تقول (فهل تكره أن أخدمه ؟) فلقد أكدت هذه الصحابية الجليلة استيعابها لمنهج الله تعالى، وجعلت عواطفها تبعاً لذلك.

---

[1] مسلم (٤/٢١٢٠ــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

[2] مسلم (٤/٢١٢٠ــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

ويبين هذا المشهد الحالة النفسية لهلال بن أمية ﷺ من أنه يبكي منذ أربعين ليلة في حزن من أمره، حتى أنه لم يفكر في أن يأتي زوجته، لجماع خلال هذه المدة.

ثم يقول كعب ﷺ (... فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك؟ فقــد أذِنَ لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال فقلت: لا أستأذنُ فيها رسولَ الله ﷺ، وما يُدْرِينِي ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب...)[1]

ويفــيد هذا الفصل التفاعل العاطفي بالنصيحة واستغلال الفرصة، من بعض أهله، وذلك في حدود ما حصل لهلال وزوجته رضي الله تعالى عنهم، ولكن كعب بن مالك ﷺ يظهــر بمظهــر الصادق المذعن لأمر الله تعالى، وأمر رسوله ﷺ مجلياً الأمر لهم، بأنه لا يعلم ماذا ستكون الإجابة من الرسول ﷺ والاكتفاء بما حصل دون طمع في غيره، مما يفيد الرضا بقضـــاء الله وقدره، ثم يورد علة أخرى من أنه شاب؛ وليس مثل هلال شيخ كبير. ويظهر هنا عملية المقارنة التي يرتكز عليها ﷺ في تربيته لذاته، بما يتأكد فاعلية هذا الأسلوب، وأن التربــية الذاتــية بالمقارنة من أقوى الأساليب المعينة على التنشئة الصالحة، التي ظهرت في مواقف متعددة من قصة كعب بن مالك ﷺ

ثم تــنقل الــرواية مشـــهد القصـــة إلى فجر ظهور التوبة، حيث يقول كعب ﷺ (...فلبثتُ بذلك عشر ليال، فَكَمُلَ لنا خمسون ليلة من حين نُهِيَ عن كلامنا. قال ثم صليت صــلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فَبَيْنا أنا جالس على الحال التي ذَكَــرَ الله عــز وجل منا. قد ضاقت عَلَيَّ نفسي، وضاقت علي الأرض بما رَحُبَتْ، سمعت صوت صارخ أَوْفَى على سَلْعٍ، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك! أَبْشِر. قال فَخَرَرْتُ ساجداً وعرفت أن قد جاء فرج...)[2]

---

[1] مسلم (٤/٢١٢٠ــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

[2] مسلم (٤/٢١٢٠ــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

يفـــيد هـــذا المشهد أن مدة اعتزالهم لزوجاتهم عشر ليالٍ، حيث اكتملت بها مدة الهجـــر خمســـين ليلة، ثم تفيد الرواية دقة المنهجية في الوصف، حتى أنه قال ﷺ (ثم صليت صـــلاة الفجر صباح خمسين ليلة) مما يفيد أن منهجية الدقة في الرواية والوصف من مسلك ومـــنهج أصحاب رسول الله ﷺ ليتعلم منها الكاتب والباحث والمؤلف الدقة العلمية فيما يقومون به من أعمال.

كمـــا يبين هذا الوصف من كعب ﷺ ما بلغت به الحالة النفسية التي ضاقت فيها علـــيه نفســـه، وضاقت به الأرض على رحابتها وسعتها. مما يفيد الأثر العظيم الذي أحدثه مغبة هذا الْهجر من الخوف على إيمانه؛ وعلى محبته لربه جلَّ جلاله، ولرسوله محمد ﷺ ففي روايـــة (وما من شيء أهم إليَّ من أن أموت فلا يصلي عليَّ رسول الله ﷺ أو يموت فأكون من الناس بتلك المنـــزلة، فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلى عليَّ)[1]

فلم يكن همه الهجر في ذاته، بل كان همه أكبر من ذلك بكثير وكثير. ولذلك عندما سمع البشرى خر ساجداً لله تعالى، فلم يذهل بالبشرى عن السجود لرب العالمين؛ نتيجة قوة الإيمان والمحبة لله تعالى ولرسوله ﷺ وأن الْهَمَّ متعلق بالله تعالى وبرسوله ﷺ ويفيد ذلك أهمية التربية الإيمانية وأثرها الفاعل، وأهمية الصبر على البلاء، وكذلك السجود لله تبارك وتعالى عند حصول النعمة، وكذلك الإعلان بالبشرى، ولا نكارة في رفع الصوت بالبشرى، وإن سمـــع غـــير الْمُعْنَى بها، وإن كان المسلمون معنيون بأمر صاحبهم؛ فرحاً وحزناً. وفيه أهمية البشارة، وأهمية القيام بها، لما لها من دلالات ومعاني في نفس الْمُبَشَّر.

ثم يقول كعب ﷺ (... فَآذن رسول الله ﷺ الناسَ بتوبة الله علينا، حين صَلَّى صلاة الفجر، فذهب الناس يُبَشِّرُونَنَا فذهب قِبَلَ صاحِبَيَّ مُبَشِّرُون وركض رجلٌ إليَّ فرساً. وسعا ساعٍ مِن أسلم قبلي. وأوفى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صـــوته يُبَشِّرُنِي فنـــزعت له ثوبي، فكسوتهما إياه ببشارته. والله! ما أملك غيرهما يومئذٍ وا

[1] ابن حجر، فتح الباري (١٢٠/٨)

سْــتَعَرْتُ ثوبين فلبستهما، فانطلقتُ أَتَأَمَّمُ رسولَ الله ﷺ يتلقاني الناس فوجاً فوجاً، يهنؤني بالتوبة ويقولون: لِتَهْنِئكَ توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد، فإذا رسولُ الله ﷺ جالسٌ في المســجد، وحوله الناس، فقام طلحة بن عُبَيدِ الله يُهَرْوِلُ حتى صافحني وهَنَّأَنِي. والله! ما قام رجل من المهاجرين غيره، قال فكان كعب لا ينساها لطلحة...)[1]

لقــد آذن رســول الله ﷺ أي أعــلم الناس بتوبة الله تعالى على الثلاثة بعد صلاة الفجــر، فذهب الناس يبشرون الثلاثة، مما يفيد أهمية المشاركة الوجدانية، بنقل البشارة لمن أصــابتهم نعمة؛ وهم عنها لا يعرفون. كما يدل تسابق الصحابة على تبشير الثلاثة؛ الحالة الاجتماعية التي كانت تسودهم، من الألفة والمحبة والتكاتف والتعاضد، وسلامة صدورهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين، حتى أنهم تلقوه فوجاً فوجاً، أي جماعة جماعة، يهنئونه بالتوبة، قائلين (لِتَهْنِئكَ توبة الله عليك)

ومــن فوائد هذا المشهد إعطاء المبشر ما تجود به النفس وتملك من نفائس الأشياء. إضــافة إلى الفرحة العميقة التي أصابت كعب بن مالك ﷺ حتى أنه أهدى ثوبيه لمن بشره. كمــا يفــيد هذا الوصف من كعب ﷺ أن همه الذي يُشغِلُه هو محبة الله تعالى ورسوله ﷺ حيث تأمم أي قصد رسول الله ﷺ

وفي قيام طلحة بن عبيدالله لكعب مهرولاً، ومصافحاً ومهنئاً له بتوبة الله تعالى عليه، وسرور كعب بذلك التصرف، أن المشاركة العاطفية مع الناس في أفراحهم وأحزانهم لها أثر ووقع عظيم على النفس البشرية. ولقد أكد ذلك السرور والمشاركة رسول الله ﷺ بأكمل تعبير؛ وأصدق فرح ومشاركة، حين كان وجهه ﷺ يُبرق من السرور كأن وجهه قطعة قمر ﷺ كمــا جاء في الحديث (...قال كعب: فلما سَلَّمْتُ على رسولِ الله ﷺ قال، وهو يَبْرُقُ وجهــه مــن السرور ويقول: أبشر بخير يوم مَرَّ عليك منذ ولدتك أمك. قال فقلت: أَمِنْ

---

[1] مسلم (٤/٢١٢٠ـــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

عنْدكَ ؟ يا رسولَ الله! أم مِن عِنْدِ الله ؟ فقال: لا. بل مِن عند الله. وكان رسولُ الله ﷺ إذا سُرَّ استَنَار وجهه. كأنَ وجهه قطعة قمرٍ، قال وكنا نعرف ذلك...)[1]

قال ابن حجر ــ رحمة الله تعالى عليه ــ: إن يوم توبته مكمل ليوم إسلامه، فيوم إسلامه؛ بداية سعادته، ويوم توبته مكمل لها، فهو خير جميع أيامه.[2]

ثم يبين كعب رضي الله عنه مقدار فرحه وسروره، وطريقته في التعبير عن ذلك بما يتناسب مع الموقف(...قال فلما جلست بين يديه قلتُ: يا رسول الله! إن من توبتي أن أنْخَلِعَ من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ (أمْسِك بعض مالك. فهو خير لك) قال فقلتُ: فإني أُمْسِكُ سهمي الذي بِخَيْبَر، قال وقلتُ: يا رسول الله! إن الله إنما أنجاني بالصدق. وإن من توبتي أن لا أُحَدِّثَ إلا صدقاً ما بقيت، قال فوالله ! ما علمتُ أن أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث، منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، أحسنَ مما أبلاني الله به. والله! ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسولِ الله ﷺ، إلى يومي هذا. وإني لأرجوا أن يحفظني الله فيما بقي...)[3]

تفيد هذه الرواية عمق الفرح والسرور الذي ولج إلى نفسية كعب بن مالك رضي الله عنه واختلط بفكره، لينخلع من ماله لله تعالى، ولكن منهجية الوسطية الإسلامية توجهه إلى أن يمسك عليه بعض ماله. وفي ذلك استحباب الصدقة عند التوبة، وفيه من الفوائد: أن من عزم على طاعة الله تعالى أعانه تبارك وتعالى على ذلك، كما قال كعب رضي الله عنه عن نفسه (ما علمتُ أن أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث، منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، أحسنَ مما أبلاني الله به. والله! ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسولِ الله ﷺ، إلى يومي هذا. وإني لأرجوا أن يحفظني الله فيما بقي)

---

[1] مسلم (٤/٢١٢٠ــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٨/١٢٢)

[3] مسلم (٤/٢١٢٠ــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

ومعنى أبلاه: أي أنعم عليه. وفيه من الفوائد وصف الحال ليستفيد الناس ويقتدوا بذلـــك، ويعرفوا المزيد من نعم الله تعالى. وفيه كذلك سؤال الله تعالى الحفظ فيما بقي من العمـــر، وأن لا يغتر بما مضى من الخير. وفي القصة منـــزلة الصدق العظيمة، وما يؤول به الصدق مع الله تعالى من الخير العظيم.

ثم يقـــول كعـــب ﷺ (...قـــال: فَأَنْـــزَلَ اللهُ: لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصـــار الذيـــن اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبـــت وضـــاقت عليهم أنفسهم (٩/التوبة/١١٧ــ١١٨) حتى بلغ: يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وكونوا مع الصادقين(٩/التوبة/١١٩).

قـــال كعب: والله! ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام، أعظم في نفسي، من صدق رسولِ الله ﷺ أن لا أكون كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كما هلك الذين كذبوا. إن الله قال للذين كذبوا، حين أنـــزل الوحي، شَرَّ ما قال لأحد. وقال الله: سيحلفون بالله لكم إذا انقلبـــتم إلـــيهم لتعرضوا عنهم، فأعرضوا عنهم، إنهم رجس، ومأواهم جهنم جزاء بما كـــانوا يكسبون، يحلفون لكم لترضوا عنهم، فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين(٩/التوبة/٩٥ــ٩٦) قال كعب: كنا خُلِّفْنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبِلَ مـــنهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له. فبايعهم واستغفر لهم. وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه. فبذلك قال الله عز وجل: وعلى الثلاثة الذين خلفوا. وليس الذي ذكر الله مما خلفـــنا، تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا، عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.)[1]

[1] مسلم (٤/٢١٢٠ــ٢١٢٨) برقم (٢٧٦٩)

الفصل السادس عشر

عام الوفود والأحداث والسرايا

إلى المرض والوفاة

عام الوفـــود :

سُمِّي العام التاسع بعام الوفود. قال ابن إسحاق : لما فتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، قال ابن هشام: أن ذلك في سنة تسع، وأنها كانت تسمى سنة الوفود.[1]

وكانت العرب تَرَبَّص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش؛ وأَمْرَ رسول الله ﷺ فلما فُتِحَتْ مكة، ودانت قريش.[2] وعرفَت العرب أنه نبي مُرسل من الله تعالى، حيث كـــانوا يقولـــون: إن ظهر عليهم فهو نبي، كما جاء في صحيح البخاري (..وكانت العـــرب تَلوَّمُ بإسلامهم الفتح؛ فيقولون : اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبيٌّ صـــادق. فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كلٌّ قوم بإسلامهم...)[3] فأظهر الله تعالى نبـــيه ودينه الذي ارتضاه لعباده، فجاءت الوفود تبايع، ثم بعد غزوة تبوك ضربت إليه وفود العرب تبايع.

ويفـــيد هذا أهمية التطبيق العملي لشرائع الإسلام من المسلمين، وأهمية إظهار دينهم كما شرعه الله تعالى للناس، حتى يُدْرِكُهُ الكفارُ عملاً ماثلاً أمامهم؛ ليدخلوا في دين الله تعالى.

وقد بلغت الوفود أكثر من ستين وفداً.[4] وهذا يدلل على الإقبال الكبير على الإســـلام، بعد أن شاع وذاع ذكره، وقد حقق الله تعالى ما وعد به رسوله ﷺ بعد أن كان قبل ذلك يُؤذَى في مكة، ويُطْرَد من الطائف ﷺ في بداية الدعوة، فأعزَّه الله تعالى، ونصـــره وأيده. مما يؤكد ويبين دروساً تربوية عظيمة، منها: أهمية الصبر والمثابرة على

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٢٠٥)

[2] المرجع السابق (٤/٢٠٥)

[3] البخاري (٣/١٥٢) برقم (٤٢٠٣)

[4] ابـــن سعد، الطبقات الكبرى (/٢٩١ــ٣٥٩) وانظر تفاصيلها في ذلك، وفي كتاب السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، لمهدي أحمد رزق الله ص (٦٣٩ــ٦٧٣)

أعمال الخير في الدعوة والتربية؛ وفي كل أمر خير، وأن لا يستعجل المسلم النتائج، فما استعجلها ﷺ.

ثم الإدراك العميق بأن الجهود البشرية لا بد وأن تواجهها عقبات، وأن المسلم يُبتلى في أمره، فعليه أن يصبر كما صبر رسول الله ﷺ وأصحابه حتى أنجز الله تبارك وتعالى له وعده.

وإذا كان قد تحقق للنبي ﷺ وعد الله تعالى بعد تلك الصعوبات والمحن القاسية، فهذا يؤكد أن الداعية والمربي وكل طالب خير لهذا الدين، فإنه قد يجد شيئاً مما وجده ﷺ من الصعوبات، فلا ييئس ولا يتوقف؛ بل يسير بخطى ثابتة واثقة بالله تعالى، فإن بعد الكرب النصر.

الأحداث والسرايا ما بعد غزوة تبوك إلى المرض والوفاة:

بعث أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن:

فعند أهل المغازي أن هذا البعث كان في ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة.(١)
واتفقوا على أن معاذ لم يزل على اليمن إلى أن قَدِم في عهد أبي بكر، ثم توجه إلى الشام، فمات بها.(٢)

يقول أبو بُردةَ: (بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن، قال: وبعث كل واحد منهما على مِخْلاف، وقال: واليمن مخلافان...)(٣)

(١) ابن حجر، فتح الباري (٨/٦١)
(٢) المرجع السابق (٣/٣٥٨)
(٣) البخاري (٣/١٦٠–١٦١) برقم (٤٣٤١، ٤٣٤٢)

يبين هذا الحديث أن اليمن مخلافين، وهو الإقليم. وكانت جهة معاذ العليا إلى صوب عدن، وكانت جهة أبي موسى السفلى.[1]

وقد وجه رسول الله ﷺ الصحابيين الجليلين بتوصية جامعة؛ عظيمة المعنى والمبنى؛ كما جاء في الحديث (...ثم قال: يّسِّرا ولا تُعَسِّرا، وبَشِّرَا ولا تُنَفِّرا...)[2] ويفيد هذا التوجيه النبوي العظيم: أهمية توصية المعلم، وتوصية الوالي لعامله بما يحتاج إليه. وفيه أن من أهم ركائز العملية الدعوية والتربوية، الموازنة في التعامل مع المدعوين والمتربين، من خلال مبدأ (يّسِّرا ولا تُعَسِّرا، وبَشِّرَا ولا تُنَفِّرا) ففي مبدأ التيسير القبول والحب للمدعو من جهة وللدعوة من جهة أخرى، فيقابل هذا الحب والقبول الاستجابة والتفاعل مع الداعي ومضامين الدعوة، كما أن من مقتضيات التيسير التدرج للوصول بالمدعو إلى المبتغى المطلوب.

وأما الشطر الثاني من القاعدة (وبشرا ولا تنفرا) ففيها مراعاة الجوانب النفسية التي تعبر عنها البشارة؛ التي لا يختلف الناس في أن دلالتها تحمل الخير للمدعو، وهو حقيقة الإسلام، إذ أنه كله خير وبشارات. مما يفيد أن الداعية الحاذق هو الذي يقدم الإسلام من خلال هذا المبدأ، لا من خلال مبدأ التنفير، الذي يتضمن التعنيف والتشديد والمعاملة القاسية، فيقدم الخير في صورة من صور الشدة والتعنيف.

وفي تأمل هذه القاعدة النبوية التربوية والدعوية العظيمة، يتبين أنها مفتاح الخير في البيت والمدرسة والحي والمسجد، بل وفي كل جانب وحقل من حقول الحياة، وفي كل زمان ومكان.

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٦١/٨)

[2] البخاري (١٦٠/٣ــ١٦١) برقم (٤٣٤١ ، ٤٣٤٢)

فانطلق الصحابيان الجليلان بهذه الوصية إلى اليمن، كما جاء في رواية الحديث (...فانطلق كل واحد منهما إلى عمله، وكان كل واحد منهما إذا سار في أرضه كان قريباً من صاحبه أحدث به عهداً فسلَّم عليه...)[1]

وفــيه ما كان من الصحابيين الجليلين من التعاهد وتمام الصحبة والأخوة. مما يبين ويفيد أهمية ملازمة الصحبة؛ وتعاهدها بالسلام ونحوه، بما يثبت استمراريتها. ولا يمكن لتلك الصحبة أن تستمر وتتحقق إلا إذا كان مبناها الحب في الله تعالى. أما التي مبــناها المنافع الدنيوية؛ فمنتهى أمرها الزوال بزوال تلك المنفعة الدنيوية. وقد ترجم معاذ بن جبل ﷺ مبنى تلك الصحبة في زيارته لأخيه أبي موسى الأشعري، كما جاء في الحديــث (... فســار مُعاذ في أرضه قريباً من أبي موسى، فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه، وإذا هو جالس وقد اجتمع إليه الناس، وإذا رجلٌ عنده قد جُمِعَت يداه إلى عُنقه، فقال له معاذ: يا عبد الله بن قيس ! أيمَ هذا ؟ قال: هذا رجلٌ كفر بعد إسلامه. قــال: لا أنــزل حتى يُقْتَلَ. قال: إنما جئ به لذلك، فانــزِلْ. قال: ما أنــزل حتى يُقتل. فأمر به فَقُتِل، ثم نــزل...)[2]

وفــيه تطبيق حد الردة، وفطنة أبي موسى الأشعري للموقف، فعرف من واقع الحــال؛ حال الرجل المرتد. وفيه تشجيع معاذ لأبي موسى في تطبيق الحد والاستعجال فيه. وفي ذلك من الفوائد أيضاً معاونة الصاحب لصاحبه في إقامة ما أوجب الله تعالى.

ثم يأتي في ذلك اللقاء تباحث أمور العبادة الشخصية بينهما (...فقال: يا عبد الله ! كيف تقرأ القرآن ؟ قال: أتفوَّقه تفوُّقاً. قال: فكيف تقرأ أنت يا معاذ ؟ قال: أنام أوَّل الليل، فأقومُ وقد قضيت جُزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قَومتي.)[3]

---

[1] البخاري (٣/١٦٠ــ١٦١) برقم (٤٣٤١ ، ٤٣٤٢)

[2] البخاري (٣/١٦٠ــ١٦١) برقم (٤٣٤١ ، ٤٣٤٢)

[3] البخاري (٣/١٦٠ــ١٦١) برقم (٤٣٤١ ، ٤٣٤٢)

وفي الحديث اهتمام الصحابيين الجليلين ــ رضي الله تعالى عنهما ــ بالقرآن الكريم، وتعهد كل واحد منهما صاحبه بالسؤال، مما يفيد: أنه لا بأس بالسؤال عن عبادة الإنسان، وأن للمرأ أن يُخبر أخاه بعبادته الخاصة؛ من باب الفائدة والمناصحة؛ لا من باب الرياء والسمعة. وفيه كذلك اختلاف الناس في طريقة تعاهد القرآن بالقراءة، فأبو موسى ﷺ يتفوقه تفوقاً، قال ابن حجر: أي ألازم قراءته ليلاً ونهاراً، شيئاً بعد شيء، وحيناً بعد حين. مأخوذ من فواق الناقة، وهو أن تحلب ثم تترك ساعة حتى تدر؛ ثم تحلب؛ وهكذا.[1] وأما معاذ بن جبل ﷺ فينام أول الليل، ثم يقوم آخر الليل؛ فيقرأ ما كتب الله تعالى له. وفيه كذلك احتساب الأجر في ساعات الراحة كما يحتسبها العابد أثناء عبادته، مما يفيد أن صحة النية ترفع العمل المباح إلى درجة العبادة التي يثاب عليها المسلم (فأحتسب نومتي كما أحتسب قَومتي) فإذا قُصد بالراحة التقوي على العبادة حصل الثواب. وفيه فقه الصحابة وعلو تفكيرهم، واجتهادهم في عبادة الله تعالى.

وقد أوصى رسولُ الله ﷺ معاذ بن جبل بمنهجية الدعوة التي يقوم بها في اليمن، كما جاء في الحديث (قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب، فإذا جئتهم؛ فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صَدَقة تؤخذ من أغنيائهم فتُرَد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب)[2]

وفي هذا التوجيه النبوي الكريم، بيان مبدأ التدرج في الدعوة والتعليم، وهو المبدأ الذي يتفق مع الطبيعة البشرية في قبول الأمر والتوجيه. ومن فوائده كما قال ابن

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٨/٦٢)

[2] البخاري (٣/١٦١ــ١٦٢) برقم (٤٣٤٧)

حجــر، وتمامــه أن يُقال بدأ بالأهم فالأهم، وذلك من التلطف في الخطاب، لأنه لو طالبهم بالجميع في أول مرة لم يأمن من النفرة.[1]

وفيه بيان أن الصدقة المأخوذة منهم مردودة لهم (تؤخذ من أغنيائهم فَتُرَد على فقــرائهم) وفي هذا تطييب ودفع للنفس وتحفيز لها لدفع الزكاة، وفي ذلك من الفوائد أن الإسلام دين رحمة وشفقة، بتربية الغني على مواساة الفقير، والرفع من قدرته وسد حاجــته، مما يضفي بين الفقير والغني علاقة مودة ورحمة متبادلة، وفي ذلك من المحاسن والآثار ما تعجز عن وصفه الأقلام والأفكار. فلله الحمد والمنة على هذا الدين القويم.

وفي الحديث من الفوائد تنبيه الداعية والمعلم قبل ممارسة العمل إلى ما يمكن أن يخفــى علــيه من دقائق الأمور، حيث نبه النبي ﷺ معاذ بن جبل إلى أن من يأتيهم هم أهــل كتاب، فيختلفون في أفهامهم ومعتقداهم عن أهل الأوثان، مما يتطلب قدراً من الفطــنة لذلــك، وما يستلزمه هذا الأمر. وفي هذا التوجيه النبوي: الإجمال في لفت الانتــباه دون تفصيل، مما يدل على الفطنة المعروفة عند معاذ ﷺ بما لا يستلزم مزيد تفصيل، وبالتالي فمن فوائد ذلك أن اللبيب يُشار عليه ولا يُفصَّلُ له.

ويؤكــد فطنة معاذ (أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذ إلى اليمن؛ قال: كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟ قال: أقضي بكتاب الله. قال: فإن لم تجد في كتاب الله ؟ قــال: فبسنة رسول الله ﷺ قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله ؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره، وقال: الحمد لله الذي وفّق رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسولَ الله)[2]

وفيه كذلك إنصاف الإسلام لأهل الأموال، بأن لا يُجْحَف في حقهم؛ فتؤخذ كرائم أموالهم، وهي أنفسها وأجودها؛ إلا إذا رضوا بذلك، وأعطوها عن طيب نفس.

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٣/٣٥٩)

[2] أبو داود (٤/١٨ــ١٩) برقم (٣٥٩٢)

وفــيه كذلــك بيان خطورة الظلم، وأن المظلوم أياً كان؛ فليس بينه وبين الله حجاب. وفي هذا تربية لأمة الإسلام على العدل والإنصاف في تعاملاتهم، والحذر من الظـــلم. إذ في تطبـــيق هـــذا المبدأ الإسلامي ما تعم به الألفة في دائرة الأسرة ورفاق العمـــل، وفي محـــيط المجـــتمع، وبين الرئيس والمرؤوس ، والحاكم والمحكوم، والمعلم والمتعـــلم، والقاضي والمُقضى بينهم، والمستأجر والمؤجر، والبائع والمشتري. فإنه مبدأ إسلامي يستوعب جميع متعلقات حياة الإنسان مع غيره.

وعـــندما أراد معاذ بن جبل ﷺ أن يغادر المدينة إلى اليمن كان هناك موقف نبوي تربوي كريم؛ كما هو معروف ومعهود منه ﷺ قال معاذ (لما بعثه رسول الله ﷺ إلى الـــيمن خَرَجَ معه رسول الله ﷺ يوصيه، ومعاذ راكبٌ ورسول الله ﷺ يَمشي تحت راحلته، فلما فَرَغَ، قال: يا معاذ ! إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تَمُـــرَّ بمســـجدي هذا وقبري. فبكى معاذٌ جشعاً لفراق رسول الله ﷺ ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: إن أولى الناس بي المتقون، مَنْ كانوا وحيث كانوا)[1]

فلقد بين هذا الحديث تواضع النبي ﷺ ومكانة معاذ بن جبل ﷺ وفيه أن على المعـــلم أن يتواضع مع طلابه، والوالي والقائد والمدير مع من يساعدونه ويعملون معه. وأن لا يتعامل معهم بكبرياء وتعالٍ. وفيه أهمية التقوى ومنـــزلتها، وما يبلغ به المتقون أينما كانوا ومن كانوا.

ولعـــل في قوله ﷺ (إن أولى الناس بي المتقون، من كانوا وحيث كانوا) تنويه لمعـــاذ، أن القـــرب المكاني ليس هو الذي يُعَوَّلُ عليه في محبتي له؛ ومكانته منِّي، وإنما الذي يُعَوَّلُ عليه التقوى، بصرف النظر عن البعد المكاني أو الزماني أو الجنس، خاصة وأن معاذ تفاعل مع ذلك الخبر بالبكاء الذي لا يستطيع أن يمنعه عن نفسه؛ لما جاش به قلبُه.

---

[1] أحمـــد، المســـند (٣٧٦/٣٦) بـــرقم (٢٢٠٥٢) طـــبعة الموسوعة الحديثية، وقال محققوا الطبعة شعيب الأرنؤوط وآخرون: إسناده صحيح.

ويفيد ذلك أهمية التقوى ومنزلتها ومكانتها، وأن بها تتحقق المنزلة والمكانة من رسول الله ﷺ مهما بعدت المسافة أو بَعُد الزمان، وبالتالي فمن أراد لنفسه مكانة من رسول الله ﷺ فعليه بالتقوى؛ لا بالادعاء من غير تقوى.

حجة أبي بكر ﷺ

عن أبي هريرة ﷺ (أن أبا بكر الصديق ﷺ بعثه في الحجة التي أمَّرَهُ النبي ﷺ عليها؛ قبل حجة الوداع يوم النحر، في رهط يؤذن في الناس: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان)[1]

قال ابن حجر: قال ابن القيم: ويُستفاد أيضاً من قول أبي هريرة في حديث الباب (قبل حجة الوداع) أنها كانت سنة تسع، لأن حجة الوداع كانت سنة عشر اتفاقاً.[2]

خرج أبو بكر الصديق ﷺ في ثلاثمائة رجل من الصحابة، وبعث معه رسول الله ﷺ عشرين بدنة، وساق أبو بكر خمس بَدَنَات.[3]

(ثم أردف رسول الله ﷺ بعليٍّ بن أبي طالب وأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذن معنا عليّ يوم النحر في أهل منى ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان)[4]

وفي ذلك مكانة أبي بكر الصديق ﷺ إذ كان الأمير في تلك الحجة، وكذلك منزلة علي بن أبي طالب ﷺ حيث كان هو المُبَلِّغ للناس ببراءة. وفيه المساعدة والمعاونة في التعليم والتوجيه، وفيه بيان ما كان عليه الناس أو بعضهم من الحج عرايا،

---

(1) البخاري (٣/١٦٦) برقم (٤٣٦٣)

(2) ابن حجر، فتح الباري (٨/٨٢)

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٦٨)

(4) البخاري (٣/٢٣٤) برقم (٤٦٥٥)

فـأبطل الإسلام ذلك، ورَدّهم إلى الفطرة المشتملة على الحياء والستر. وفيه بيان أن هذا الدين هو دين خُلُق وحشمة.

بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن:

قـال ابـن سعد: يقال مرتين، إحداهما في شهر رمضان سنة عشر من مهاجَر رسـول الله ﷺ [(١)] والثانـية قبل حجة الوداع، وقد بوب الإمام البخاري: باب بعث علي بن أبي طالب ﷺ، وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع.[(٢)]

عن أبي إسحاق، سمعت البراء ﷺ (بعثنا رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى اليمن. قال: ثم بعث علياً بعد ذلك مكانه، فقال: مُرْ أصحاب خالد من شاء منهم أن يُعقّـبِ معك فلْيُعقّبْ، ومن شاء فلْيُقبل. فكنت فيمن عَقّبَ معه، قال: فغنمت أواقي ذوات عَدَد)[(٣)]

والتعقيب أن يعود بعض العسكر بعد الرجوع ليصيبوا غزوة من الغد.[(٤)]

قـال علي بن أبي طالب ﷺ (بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضياً، فقلت: يا رسـول الله ! ترسلني وأنا حديث السن، ولا علم لي بالقضاء ؟ فقال: إن الله سيهدي قلـبك؛ ويثبـت لسانك، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضينَّ حتى تسمع من الآخـر كما سمعت من الأول. فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء، قال: فما زلت قاضياً، أو ما شككت في قضاء)[(٥)]

وفي هـذا الحديث من الفوائد التربوية أن من رزقه الله تعالى لساناً ناطقاً وقلباً حافظـاً فـلا يجعل صغر السن له حاجزاً، وفيه أن العبرة في القضاء بالعلم والمقدرة،

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٦٩/٢)

(٢) البخاري (١٦٢/٣)

(٣) البخاري (١٦٢/٣) برقم (٤٣٤٩)

(٤) ابن حجر، فتح الباري (٦٦/٨)

(٥) أبو داود (١١/٤ـــ١٢) برقم (٣٥٨٢)

وليس بالسن. وفيه أدب علي وتواضعه ﷺ إذ يقول للنبي ﷺ (: يا رسول الله ! ترسلني وأنا حديث السن، ولا علم لي بالقضاء ؟) ومن فوائد الحديث أن الله تعالى هو الهادي إلى العلم، مما يلزم طالب العلم أن يسأل الله تعالى العلم والتوفيق له. وكذلك القاضي فإنه يلزمه سؤال الله تعالى العلم والهداية في الحكم، فكم من الناس من يحمل العلم؛ ولا يُحْسن تطبيقه، أو ينسى بعض ما يحتاجه عند حاجته، مما يؤكد ويبرهن أهمية الدعاء. وفيه أن طاعة الله ورسوله تحقق العلم لطالبه، وذلك مأخوذ مِنْ استجابة علي لتوجيه رسول الله ﷺ ثم ثمرة ذلك في قوله ﷺ (فما زلت قاضياً، أو ما شككت في قضاء)

وفي الحديث بيان أهمية سماع المتقاضيين، وأن ذلك يعين على تبيان القضاء في القضية. ويستفاد من هذا في الجانب الإداري أهمية السماع ممن يُنْقل عنه في المهن الإدارية، لأن مثل هذه الأعمال قد لا تخلوا من الكيد والضغائن، فحتى لا يتخذ المسؤول قراراً خاطئاً تجاه من نُقل عنه خبر، فيلزمه السماع من المنقول عنه، فربما احتوى الأمر على كيد.

وقد أوصى رسول الله ﷺ علياً ﷺ أن لا يقاتلهم حتى يُقاتلوه، فخرج في ثلاثمائة فارس[1] مما يفيد ويبين الهدف والمنهجية الإسلامية الحريصة على إنقاذ الناس من الكفر والضلال، وليس الاستحواذ على الممتلكات والخيرات.

قال البراء ﷺ : فكنت ممن عقب معه، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا، فصلى بنا عليّ وصَفّنا صفاً واحداً، ثم تقدم بين أيدينا؛ فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعاً، فكتب عليّ إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم، فلما قرأ الكتاب خر ساجداً، ثم رفع رأسه وقال: (السلام على همدان)[2]

---

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٦٩)

(2) ابن حجر، فتح الباري (٨/٦٦)

ويفـــيد هذا حُسن التنظيم من علي بن أبي طالب ﷺ إذ صفهم صفاً واحداً، لقـــراءة كتاب رسول الله ﷺ مما يبين أهمية التنظيم والترتيب في الشأن العسكري، وفي كل شأن يتطلبه أمر المسلم أو المسلمين، كما يبين هذا أن الفوضى ليست من مسلك الإسلام وهديه.

وفي ســـجود رســـول الله ﷺ ما يفيد السجود عند حصول النعمة، والدعاء للغـــير، والفرح بذلك، والتعبير عنه بما يناسب مقام المتفضل تبارك وتعالى، حيث كان الأنسب هو السجود لله تعالى؛ والدعاء لمن استجاب لله ولرسوله ﷺ

وقـــد قـــدم علي بن أبي طالب ﷺ إلى مكة حاجاً، حيث وافى النبي ﷺ بها في حجـــة الوداع؛ كما جاء في الحديث، عن أنس ﷺ (...فقدم علينا عليٌ بن أبي طالب من اليمن حاجاً...)[١]

سرية جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الخَلَصَة:

عن قيس عن جرير قال (قال لي رسول الله ﷺ : ألا تُريحُني من ذي الخَلَصَة ؟ فقلت: بلى. فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس...)[٢]

وفي الحديث من الفوائد: استخدام أسلوب العرض من النبي ﷺ لجرير ﷺ (ألا تُـــريحُني من ذي الخَلَصَة ؟) ولم يستخدم ﷺ أسلوب الأمر. وهذا من أقوى الأساليب الـــتربوية فاعلية في الجانب الإداري والقيادي، لما له من تأثير فاعل في النفس البشرية، وإشـــعارها بكينونتها. وإن كان هذا الأسلوب منه ﷺ تفضلاً وتعليماً، وإلا هو النبي الـــذي يأمر ويُطاع؛ ولا يحتاج أن يتعامل بذلك مع أصحابه ﷺ ولكنه المنهج التربوي النبوي الذي تتعلم منه أمته؛ ويتعلم منه من بيده القرار؛ كيف يتعامل مع أتباعه؛ ومن له حق الطاعة عليهم.

---

[١] البخاري، مع الفتح (٨/٧٠) برقم (٤٣٥٣) (٤٣٥٤)

[٢] البخاري (٣/١٦٤) برقم (٤٣٥٧)

وفي قــول النبي ﷺ (ألا تُريحُني من ذي الخَلَصَة ؟) دليل على أنه ما من شيء أتعــب لقلــب النبي ﷺ من بقاء ما يُشرك به من دون الله تعالى.[1] مما يؤكد خُطورة الشـــرك وعِظَـــمِ أمره. ووجوب إزالة معالمه وآثاره، حتى تتحقق العبودية الخالصة لله تعــالى، وقـــد كـــان ذو الخَلَصَة اسم للبيت الذي فيه الصنم، وسموه بذلك مضاهاة للكعبة،[2] كما سيأتي مزيد وصف له من جرير ﷺ

يقـــول جريـــر ﷺ (... وكانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثبت على الخيل. فذكرت ذلك للنبي ﷺ فضرب يده على صدري حتى رأيت أثر يده في صدري. وقال: اللهم ثَبِّتْه، واجعله هادياً مهدياً. قال: فما وقعتُ عن فرس بعدُ...)[3]

وفي هذا المقطع من الحديث ما يبين ما كان يعاني منه جرير ﷺ من عدم ثبوته على الخيل، ولكن لعظم طاعته ومحبته لرسول الله ﷺ أجابه بالطاعة والامتثال أولاً؛ ثم بين له ما يعاني منه ثانياً. ولم يعتذر ﷺ أو يبين للنبي ﷺ ما يعانيه ابتداء. وفي هذا فائدة تـــربوية مهمـــة، بأن الإنسان إذا كُلِّف بأمر مصلحة؛ يجيب بنعم، ثم يبين العلة؛ لما في ذلك من تطييب نفس الآمر.

ويفيد هذا الموقف استجابة دعاء النبي ﷺ وبركة يده عليه أفضل الصلاة وأتم التســـليم. حتى قال جرير (فما وقعتُ عن فرس بعد) وهذه معجزة نبوية كريمة. وفيه كذلك التشجيع للمأمور بالدعاء والثناء عليه.

ويصف جرير ﷺ ذا الخَلَصَة، وأحداث ما قام به (... قال: وكان ذو الخَلَصَة بيتاً باليمن؛ لِخَثْعَم وبجيلة، فيه نُصُبٌ تُعْبَد، يقال له الكعبة. قال: فأتاها فَحَرَّقَها بالنار وكسَـــرَها. قـــال: ولما قَدِمَ جريرٌ اليمن كان بها رجلٌ يستقسم بالأزلام، فقيل له: إنَّ رسولَ رسولِ الله ﷺ ها هنا، فإن قَدَر عليك ضَرَبَ عُنقَك. قال: فبينما هو يضربُ بها

[1] ابن حجر، فتح الباري (٧٢/٨)

[2] المرجع السابق (٧١/٨)

[3] البخاري (١٦٤/٣) برقم (٤٣٥٧)

إذ وقــف عليه جرير؛ فقال: لَتُكْسِرَنَّها ولَتَشهدَنَّ أن لا إله إلا الله أو لأضربن عُنُقَك. قال: فكسرها وشهد...)[1]

وفي هذا العمل مشروعية إزالة ما يفتتن به الناس من بناء وغيره. وفيه استمالة نفوس القوم بتأمير من هو منهم، والمبالغة في نكاية العدو.[2] وفيه استجابة دعاء النبي ﷺ (واجعلــه هادياً مهدياً) فاهتدى وأسلم من كان يمارس الاستقسام بالأزلام. وفيه كذلك دعاء الكافر أو المشرك إلى الإسلام أولاً، لأنه هو المقصد الإسلامي؛ بأن يُوَحَّد الله تعالى في العبادة بما شرع وأمر.

(... ثمَّ بعــث جرير رجلاً من أحمس يُكنى أبا أرطأة إلى النبي ﷺ بذلك. فلما أتى النبي ﷺ قال: يا رسول الله ! والذي بعثك بالحق ! ما جئت حتى تركتها كأنها جملٌ أجرب، قال: فبرَّك النبي ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات.)[3]

وأبــو أرطأة ﷺ هو حصين بن ربيعة بن عامر بن الأزور، وهو صحابي بجلي. وأحمس هم أخوة بجيلة، رهط جرير، ينتسبون إلى أحمس بن الغوث بن أنمار.[4]

وفي الحديــث بيان ما كان من عمل جرير في ذلك المعبد الشركي، إذ جعله كأنــه جمل أجرب، وهو كناية عن نــزع زينتها وبهجتها.[5] وتدميرها، حيث ورد في لفــظ آخــر يصف ما قام به جرير ﷺ (فانطلق إليها فَكَسَرَها وحَرَّقَها)[6] وهذا يبين انتهاء أمر هذا المعبد.

وفي الحديث من الفوائد أيضاً مكافأة النبي ﷺ لهذا العمل بالدعاء لخيل أحمس ورجالهــا خمس مرات. مما يبين أهمية الدعاء كمكافأة من أهل الصلاح والتقى. وأهمية

---

[1] البخاري (٣/١٦٤) برقم (٤٣٥٧)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٨/٧٣)

[3] البخاري (٣/١٦٤) برقم (٤٣٥٧)

[4] ابن حجر، فتح الباري (٨/٧٣)

[5] ابن حجر، فتح الباري (٨/٧٣)

[6] البخاري (٣/١٦٣) برقم (٤٣٥٦)

مثل هذه الأعمال وعظيم أمرها، لما فيها من إزالة مضارب الكفر والشرك.وفيه كذلك أن الدعاء قد يتجاوز تكراره الثلاث مرات.

حجة الوداع:

آية فرض الحج قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [(١)] نزلت عام الوفود، أواخر سنة تسع.[(٢)] قال ابن كثير: هذه آية وجوب الحج عند الجمهور.[(٣)] وقال ابن القيم: فلم يؤخر النبي ﷺ الحج بعد فرضه عاماً واحداً، بل بادر إلى الامتثال في العام الذي فُرِض فيه. وهذا هو اللائق بهديه وحاله ﷺ[(٤)]

قال ابن إسحاق: فلما دخل على رسول ﷺ ذو القعدة تجهز للحج، وأمر الناس بالجهاز له. وخرج رسول الله ﷺ إلى الحج لخمس ليال بقين من ذي القعدة.[(٥)]

وعن جابر بن عبد الله (إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج.ثم أذن في الناس؛ في العاشرة؛ أن رسول الله ﷺ حاج. فَقَدِمَ المدينة بشرٌ كثير، كُلُّهُم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله. فخرجنا معه...)[(٦)]

وفي هذا التوجيه النبوي الكريم؛ من إعلان ذلك للناس؛ ما يبين أهمية إعلام الناس وإخبارهم بما ينفعهم من فعل الخير، أو بما يجب عليهم شرعاً. كما يفيد حرص الناس على أن يأتموا برسول الله ﷺ أهمية علو السند في المعرفة والعلم والتلقي، حتى يأخذ الناسُ مباشرة منه ﷺ أمور دينهم، فينقلوا ذلك لمن بعدهم، كما أشار لهم بذلك

---

(١) سورة آل عمرآن: آية رقم (٩٧)

(٢) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٣/٥٩٥)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٩٣)

(٤) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٣/٥٩٥)

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٢٤٨) وابن حجر، فتح الباري (٨/١٠٤)

(٦) مسلم (٢/٨٨٦ـــ٨٨٧) برقم (١٢١٨)

ﷺ أثناء الحج (ألا ليبلغ الشاهدُ الغائب) وقد عَلَّم الناس ﷺ في تلك الحجة؛ وبين لهم ما أَتَمَّ الله تعالى به نعمته على خلقه.

وفي قــدوم الأعداد الكبيرة من الناس إلى المدينة؛ يلتمسون الائتمام والاقتداء برســول الله ﷺ ما يدل على اهتمام وحرص أولئك الرعيل من الصحب الكرام بسنة رســول الله ﷺ وبمعــرفة ما يجب عليهم. فحقق ذلك الاهتمام النقل الدقيق لأحكام الإسلام وهديه وأخلاقه وشرائعه إلى من بعدهم. مما يفيد أهمية الاهتمام بسنة المصطفى ﷺ من خلال ما نُقِل؛ كما اهتم الرعيل الأول بها مباشرة منه ﷺ

وعــن زيــد بــن أرقم ﷺ (...وأنه حج بعد ما هاجر حَجَّةً واحدةً؛ لم يَحجَّ بعدها: حَجَّة الوداع)[١] وهذا يبين أنه ﷺ لم يحج من المدينة إلا حجة واحدة، هي حجة الوداع.

وفي عرفة نزل قوله تعالى ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾[٢] قــال عمــر ﷺ (إني لأعــلم أيَّ مكان أُنزلت: أُنــزلت ورسول الله ﷺ واقف في عرفة)[٣] قال السعدي في دلالة الآية (اليوم أكملت لكم دينكم) : بتمام النصر وتكميل الشرائع ؛ ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفايــة؛ في أحكام الدين؛ أصوله وفروعه.[٤] قال ابن كثير: هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم؛ فلا يحتاجون إلى دين غيره؛ ولا إلى نبي غير نبيهم ﷺ ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله؛ ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه.[٥]

---

[١] البخاري (١٧٤/٣) برقم (٤٤٠٤)

[٢] سورة المائدة: آية رقم (٣)

[٣] البخاري (١٧٤/٣) برقم (٤٤٠٧)

[٤] ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٥٥/١)

[٥] ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١٤/٢)

ومن حديث جابر ﷺ أنه ﷺ خطب الناس فقال (إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا؛ في شهركم هذا؛ في بلدكم هذا. ألا كلُ شيء من أمر الجاهلية تحت قدمَيَّ موضُوعٌ. ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دَمٍ أضعُ من دمائنا دَمُ ابن ربيعة بن الحارث، كان مُسترضعاً في بني سعد، فَقَتَلَتْه هُذيل. وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا. ربا عَبَّاس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كُلّه. فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجَهُنَّ بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطِئن فُرُشَكُم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مُبَرِّح. ولهن عليكم رزقهن وكسوتُهُنَّ بالمعروف. وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله. وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون ؟ قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأديت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة؛ يرفعها إلى السماء ويَنْكُتُها إلى الناس:[1] اللهم ! اشهد. اللهم ! اشهد. ثلاث مرات. ثم أذن؛ ثم أقام؛ فصلى الظهر، ثم أقام؛ فصلى العصر...)[2]

قال الإمام النووي ــ رحمة الله تعالى عليه ــ : فيه حديث جابر ﷺ وهو حديث عظيم، مشتمل على جمل من الفوائد؛ ونفائس من مهمات القواعد، وهو من أفراد مسلم، لم يروه البخاري في صحيحه، ورواه أبو داود كرواية مسلم[3]. قال القاضي: وقد تكلم الناس على مافيه من الفقه، وأكثروا، وصَنَّف فيه أبو بكر بن المنذر جزأً كبيراً، وخرج فيه من الفقه مائة ونيفاً[4] وخمسين نوعاً، ولو تُقصِّيَ لزيد على هذا القدر قريب منه.[5] وهذا يدل على عظيم فوائد خطبة حجة الوداع، ومافيها من العلم والأحكام والآداب والتربية.

---

[1] أي يقلبها ويرددها إلى الناس مشيراً إليهم

[2] مسلم (٢/٨٨٦ــ٨٩٢) برقم (١٢١٨)

[3] عند أبي داود برقم (١٩٠٥) (٢/٤٥٥ــ٤٦٤)

[4] أي زيادة

[5] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٨/١٧٠)

ففـــي خطبته ﷺ من الفوائد، قلة الألفاظ مع كثرة المعاني والدلالات، وهذه منهجـــية تعليمـــية وتربوية ودعوية مهمة، بأن يسلك مسلكها من قام مقام الخطيب والموجـــه والمعلم والمتكلم، فتأمل قوله ﷺ في تلك الخطبة (إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا؛ في شهركم هذا؛ في بلدكم هذا) جزالة العبارة،[1] وقلة الكـــلمات، وكثرة الدلالات، التي منها: تأكيد شديد على حرمة ذلك، بما يفيد ويبين حفـــظ الإســـلام للدماء والأموال. وفيه تشبيه شدة حرمتها بحرمة ذلك اليوم وذلك الشهر وذلك البلد، فجمع لهذا الأمر حرمة الزمان وحرمة المكان في ثلاثة أشياء، وهذا دليل على عظم حفظ الدماء والأموال.

ثم تضـــمنت الخطبة إبطال أفعال الجاهلية، وبيوعها المحرمة، وأنه لا قصاص في قتـــلها. وفيه أن الإمام وغيره ممن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر يلزمه أن يبدأ بنفسه وأهلـــه، فذلـــك مـــن دواعي قبول قوله؛ مع ما فيه من تطييب نفس من قرب عهده بالإسلام. وقوله ﷺ (تحت قدمي) إشارة إلى إبطاله.[2] وفيه من المنهجية البيان بالتطبيق (وإن أول دَمٍ أضـــعُ من دمائنا دَمُ ابن ربيعة بن الحارث، كان مُسترضعاً في بني سعد، فَقَتَلَتْه هُذيل. وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا. ربا عَبَّاس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كُلّه)

ثم تناولـــت الخطـــبة النبوية أمر النساء، وفي هذا دليل على أهمية هذا الأمر. ففـــيها الحث على مراعاة حق النساء؛ والوصية بهن؛ ومعاشرتهن بالمعروف. ووجوب نفقـــة الزوجة وكسوتها وذلك ثابت بالإجماع.[3] وقد بينت الخطبة ما لهن، ثم بينت ما عليهن (ولكم عليهن أن لا يوطِئن فُرُشَكُم أحداً تكرهونه) أي لا يأذنّ لأحد تكرهونه في دخول بيوتكم والجلوس في منازلكم؛ سواء كان المأذون له رجلاً أجنبياً أو امرأة؛ أو

---

(1) خلاف الركيك

(2) صحيح مسلم بشرح النووي (١٨٢/٨)

(3) المرجع السابق (١٨٤/٨)

أحـــداً مـــن محارم الزوجة، فالنهي يتناول جميع ذلك، وهـــذا حكم المســألة عنـــد الفقهـــاء.[1] (فـــإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مُبَرِّح.) وفي هذا الحديث إباحة ضرب الرجل امرأته للتأديب؛ ضرباً غير مبرح، وهو ضرب غير شديد ولا شاق.[2]

ثم بينت خطبته ﷺ المرجعية التي إذا تمسك بها المسلم فلن يضل أبداً (وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله) وهذا دليل على وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة، وإن لم تُذكر السنة في هذه الرواية، فإن الاعتصام بالكتاب يوجب الاعتصام بالسنة، فهي داخلة ضمناً؛ لأن الله تعالى أمر بها في كتابه العزيز. فمن ذلك قوله تعالى﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[3]

وفي هذا تعيين المرجعية وتحديدها، وبيان أهميتها وتأثيرها، وأن التعاسة والشقاء لمن حاد عما جاء به رسول الله ﷺ وهو كتاب الله تعالى والسنة المطهرة، وأن السعادة لمن اعتصم بالقرآن والسنة.

وتمام الخطبة يدل على قرب أجله ﷺ حيث أشهدهم ﷺ بما يرون فيه، فقالوا (نشهد أنك قد بلّغت وأديت ونصحت)

وقـــال رسول الله ﷺ (... وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا تـــرجعوا بعدي ضلالاً؛ يضرب بعضُكم رقاب بعض. ألا ليبلغ الشاهدُ الغائب، فلعل بعض من يُبلغهُ أن يكون أوعى له من بعض مَن سَمِعَه، ثم قال: ألا هل بلغت مرتين)[4] وفي رواية (فليبلغ الشاهد الغائب، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أوعى من سامع)[5]

---

(1) المرجع السابق (١٨٤/٨)

(2) المرجع السابق (١٨٤/٨)

(3) سورة الحشر: آية رقم (٧)

(4) البخاري (١٧٤/٣) برقم (٤٤٠٦)

(5) البخاري (٥٢٨/١ـــ٥٢٦) برقم (١٧٤١)

وفي هذا مزيد بيان على حرمة الدماء، ويُستفاد من ذلك أن الضلال يؤدي إلى سفك الدماء بين المسلمين. مما يؤكد ويبين أهمية البعد عن الضلال، ولا يكون ذلك إلا بأمرين: الدعاء بسؤال الله تعالى الحفظ والصون والهداية والتوفيق، وبنشر العلم الشرعي بين الناس؛ وبما في ذلك من القدوة المتمثلة بمنهج رسول الله ﷺ

وفي الحديث كذلك: الحث على تبليغ العلم، وأن على العالم تعليم الجاهل. وأن المنقول له من العلم؛ قد يكون أفهم من الناقل، مما يفيد أن المتعلم قد يتفوق على المعلم؛ إذا استكمل العلم، سواء في الفهم أو الاستنباط أو الاستدلال. وبالتالي على المعلم أن يوطّن نفسه على قبول تفوق طلابه والسماع منهم.

وعن الزبير عن جابر (رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر، ويقول: لتأخذوا عني مناسككم؛ فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حَجَّتي هذه)[1]

وفي هذا الحديث إشارة إلى قرب أجل رسول الله ﷺ وفيه الحث على الحرص في التعلم من رسول الله ﷺ ويُستفاد منه أهمية الحرص على الإفادة من العلماء؛ وعدم التسويف في ذلك، لأنهم ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما (وقف النبي ﷺ يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حجَّ بهذا، وقال: هذا يوم الحج الأكبر. فطفق النبي ﷺ يقول: اللهم اشهد. وودع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع)[2]

وقد تضمنت حجة الوداع أحكاماً فقهيةً، وفوائد عظيمة؛ قد بينتها كُتُب وأبواب الحج في كتب الحديث والفقه.

---

[1] مسلم (٩٤٣/٣) برقم (١٢٩٧)

[2] البخاري (٥٢٩/١) برقم (١٧٤٢)

سرية أسامة بن زيد إلى الشام:

ندب النبي ﷺ الناس لغزو الروم في آخر صفر، وكان تجهيز أسامة يوم السبت، قبل موت النبي ﷺ بيومين. وكان ممن انتدب مع أسامة كبار المهاجرين والأنصار، منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة. وكانت هي آخر سرية جهزها رسول ﷺ[1]

وكان أسامة ﷺ صغير السن.[2] يقول ابن عمر رضي الله تعالى عنهما (أن رسول الله ﷺ بعث بعثاً، وأمّرَ عليه أسامة بن زيد، فطعن الناس في إمارته، فقام رسول الله ﷺ فقال: إن تطعنوا في إمارته؛ فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل. وأيم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحبِّ الناس إليّ بعده)[3]

يبين هذا الحديث منزلة وفضل زيد وابنه أسامة ــ رضي الله تعالى عنهما ــ وأن السن لا يمنع أن يتقدم الإنسان على غيره، وفيه أن الإنسان بفضل حاضره لا بما كان عليه من قبل، كالرق أو غيره. وفيه من الفوائد كذلك البيان للناس؛ فيما لا يُدركون من العلل والأسباب، وأن على من أمر أمراً فلم يدركه البعض نبههم على ما غاب عنهم، دون تجاهل لهم؛ بحكم الولاية أو القيادة، فرسول الله ﷺ بين لهم العلة ولم يتجاهل أمر من طعن، فقال (وأيم الله إن كان لخليقاً للإمارة) فكان وصفه ﷺ إيجازا بلاغيا عظيما، قد اشتمل على دلالات وصفات عظيمة لأسامة ﷺ وبيان لمقدرته على سياسة ذلك الأمر. كما يبين الحديث ظفر تلك السرية.

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (١٥٢/٨)

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٩٠/٢)

(3) البخاري (١٨٧/٣ــ١٨٨) برقم (٤٤٦٩)

قـــال ابـــن حجر عن هذه السرية: وكانت آخر سرية جهزها رسول الله ﷺ وأول شيء جهزه أبو بكر ﷺ وعند الواقدي أن عدد ذلك الجيش ثلاثة آلاف.[1]

ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجُرف إلى المدينة؛ لوفاة رسول الله ﷺ فلما تـــولى أبو بكر ﷺ الخلافة أمضى جيش أسامة، وكلم أبو بكرٍ أسامةَ في عمر؛ أن يأذن لـــه في الـــتخلف ففعـــل. فعاد الجيش من غزوته منصوراً بغنائمهم، وما أصيب من المسلمين أحد.[2] وكان كما قال ﷺ عن أسامة ((وأيم الله إن كان لخليقاً للإمارة)

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٨/١٥٢)

[2] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/١٩١)

الفصل السابع عشر

صفات النبي ﷺ وأخلاقه والمرض والوفاة

صفات النبي ﷺ وأخلاقه:

صفاته الْخِلْقِية ﷺ:

لقد كان ﷺ أحسن الناس وجهاً، قال البراء ﷺ (كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً. وأَحْسَنَهُ خَلْقاً، ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير)[١] وعن أبي الطفيل ﷺ (كان أبيض مليح الوجه)[٢] وعن سِمَاك أنه سمع جابر بن سَمُرة يقول (...وكان كثير شعر اللحية. فقال رجلٌ: وجهه مِثلُ السيف ؟ قال: لا. بل كان مثل الشمس والقمر. وكان مستديراً. ورأيت الخاتم عند كتفيه، مثل بيضة الحمامة، يشبه جسده)[٣]

وقال البراء ﷺ (كان رسول الله ﷺ رجلاً مربوعاً[٤] بعيد ما بين المنكبين، عظيم الْجُمَّة[٥] إلى شحمة أُذُنيه، عليه حُلَّةُ حمراء، ما رأيت شيئاً قط أحسنَ منه ﷺ)[٦] وعن أنس بن مالك (كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير. وليس بالأبيض الأمهق[٧] ولا بالآدم[٨] ولا بالجعد القطط[٩] ولا بالسَّبِط...)[١٠]

وعن شعبة عن سِمَاك بن حرب، قال: سمعت جابر بن سَمُرة، قال (كان رسول الله ﷺ ضليع الفم، أشكل العين، منهوس العقبين. قال قلت لسِماك : ما ضليع

---

[١] مسلم (١٨١٩/٤) برقم (٩٣ــ٢٣٣٧)

[٢] مسلم ١٨٢٠/٠٤) برقم (٢٣٤٠)

[٣] مسلم (١٨٢٣/٤) برقم (١٠٩ــ٢٣٤٤)

[٤] مربوعاً: ليس بالطويل ولا القصير.

[٥] الجُمَّة: الشعر الذي تنزل إلى المنكبين، والوفرة ما تنزل إلى شحمة الأذنين. واللمَّة التي ألمّت بالمنكبين.

[٦] مسلم (١٨١٨/٤) برقم (٢٣٣٧)

[٧] الأمهق: الكريه البياض.

[٨] الأدمة في الناس: السمرة الشديدة.

[٩] القطط: الشديد الجعودة.

[١٠] مسلم (١٨٢٤/٤) برقم (٢٣٤٧)

الفم ؟ قال: عظيم الفم. قال: قلت: ما أشكل العين ؟ قال قلت: طويل شقِّ العين. قال قلت: ما مَنْهُوسُ الْعَقِبِ ؟ قال: قليل لحم الْعَقِبِ)[١]

وأما سَدْلُ النبي ﷺ شَعْرَهُ وفَرْقُهُ، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (كان أهلُ الكتاب يَسْدُلُون أشعارَهم، وكان المشركون يَفْرُقُون رؤسهم. وكان رسول الله ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر به. فسدل رسول الله ﷺ ناصيته ثم فَرَقَ بعدُ)[٢] والمراد بالإسدال عند العلماء: إرساله على الجبين، واتخاذه كالقصة، يقال: سدل شعره وثوبه إذا أرسله، ولم يضم جوانبه. وأما الفرق: فهو فرق الشعر بعضه عن بعض. قال العلماء: والفرق سنة، لأنه الذي رجع إليه ﷺ [٣] وأما في موافقته ﷺ لأهل الكتاب فقيل: فعله استئلافاً لهم في أول الإسلام، وموافقة لهم على مخالفة عبدة الأوثان، فلما أغنى الله تعالى عن استئلافهم، وأظهر الإسلام على الدين كله؛ صَرَّح بمخالفتهم في غير شيء، منها صبغ الشيب.[٤]

وعن البراء ﷺ (ما رأيت من ذي لِمَّة أحسن في حُلَّة حمراء من رسول الله ﷺ شعره يضرب منكبيه، بعيد ما بين المنكبين، ليس بالطويل ولا بالقصير)[٥]

وعن رائحة رسول الله ﷺ يقول أنس ﷺ (ما شَمَمْتُ عنبراً قط، ولا مسكاً، ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ ولا مَسِسْتُ شيئاً قط ديباجاً ولا حريراً أَلْيَنَ مسَّاً من رسول الله ﷺ)[٦]

---

(١) مسلم (٤/١٨٢٠) برقم (٢٣٣٩)

(٢) مسلم (٤/١٨١٧ـــ١٨١٨) برقم (٢٣٣٦)

(٣) النووي (١٥/٩٠)

(٤) المرجع السابق (١٥/٩٠)

(٥) مسلم (٤/١٨١٨) برقم (٩٢ـــ٢٣٣٧)

(٦) مسلم (٤/١٨١٤ـــ١٨١٥) برقم (٢٣٣٠)

وعن أنس ﷺ قال (كان رسول الله ﷺ أزهر اللون.[1] كأن عَرَقَه اللؤلؤ.[2] إذا مشى تكفَّأ.[3] ولا مسست ديباجاً ولا حريرةً ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيبُ من رائحة رسول الله ﷺ)[4]

وعن عرقه ﷺ قال أنس بن مالك (دخل علينا النبي ﷺ فَقَالَ عندنا[5]. فَعَرِقَ. وجاءت أمي بقارورة. فجعلت تَسْلُتُ[6] العَرَق فيها. فاستيقظ النبي ﷺ فقال: يا أم سُليم ! ما هذا الذي تصنعين ؟ قالت: هذا عَرَقُك نجعله في طيبنا، وهو من أطيب الطيب.)[7]

عن ابن سيرين، قال: سألت أنس بن مالك: هل كان رسول الله ﷺ خَضَبَ ؟ فقال (لم يبلغ الْخضَاب. كان في لحيته شعرات بيض. قال قلت له: أكان أبو بكر يخضب ؟ قال فقال: نعم. بالحناء والكتم)[8] وكان بياض شعره ﷺ كما جاء في الحديث عن أنس (...إنما كان البياض في عنقه وفي الصدغين وفي الرأس نَبْذٌ[9])[10]

وقالت أم معبد في وصف رسول الله ﷺ (رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة[11]

---

(1) أزهر اللون: هو الأبيض المستنير، وهو أحسن الألوان.

(2) كان عرقه اللؤلؤ: أي في الصفاء والبياض.

(3) ومعناه أن يميل إلى سمته وقصد مشيه، كما قال في رواية أخرى (كأنما ينحط في صبب) أي في موضع منحدر.

(4) مسلم (١٨١٥/٤) برقم (٨٢ــ ٢٣٣٠)

(5) فقال: أي نام للقيلولة.

(6) أي تمسحه.

(7) مسلم (١٨١٥/٤) برقم (٢٣٣١)

(8) مسلم (١٨٢١/٤) برقم (١٠١ــ ٢٣٤١)

(9) نبذ: أي شعرات متفرقة.

(10) مسلم (١٨٢١/٤ــ١٨٢٢) برقم (١٠٤ــ٢٣٤١)

(11) الوضاءة: الحُسنُ والبهجة. النهاية لابن الأثير (١٩٥/٥)

أبلج الوجه[1] حسن الخلق؛ لم تعبه ثجلة[2] ولم تزريه صعلة[3] وسيم قسيم[4] في عينيه دعج[5] وفي أشفاره وطف[6] وفي صوته صهل[7] وفي عنقه سطع[8] وفي لحيته كثاثة لزج[9]، أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سَماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق؛ فصلاً؛ لا نزر ولا هذر[10] كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن، ربعة لا تشنأه من طول؛ ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرا، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إن قال سمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود[11] محشود[12] لا عابس ولا مفند[13].)[14]

من فوائد وصف أم معبد فيما يمكن اكتسابه: أن البلاغة ما كان عليه ﷺ وهي: أن يكون كلام المرء فصلاً، لا نزر ولا هذر. ومن الفوائد كذلك أن يكون كلام المتكلم منظم منتظم مفيد، وأن يتحرز عن غير المفيد. ويتخلق المرء بالبشاشة، ومن الفوائد: أهمية احترام العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء، وذلك بإظهار مكانتهم، واحترام مجالسهم، ومنطقهم وتوجيههم. والمبادرة لأمره ﷺ

---

(1) أبلج الوجه: أي مشرق الوجه، مُسْفِرُه. النهاية لابن الأثير (١/١٥١)

(2) لم تعبه ثجلة: أي ليس بضخم البطن. ورجل أثجل: أي نحول، ودقّة. النهاية لابن الأثير (١/٢٠٨)

(3) الصعلة: صغر الرأس، وهي الدقة والنحول.و لم تُزْرِه صَعْلة:أي ليس بصغير الرأس (النهاية ٣/٣٢)

(4) قسيم: أي جميل. رجل قسيم إذا كان جميلاً. ابن منظور، لسان العرب(١٢/٤٨٣).

(5) الدعج: شدة سواد العين في شدة بياضها. النهاية(٢/١١٩)

(6) الشُّفْر بالضم وقد يفتح: حرف جفن العين الذي ينبت عليه الشعر، النهاية(٢/٤٨٤) الوطف: الطول. والمعنى: أي في شعر أجفانه طول. النهاية(٥/٢٠٤)

(7) صهل: أي حِدَّة وصلابة، النهاية(٣/٦٣)

(8) في عنقه سطع: أي ارتفاع وطول. النهاية(٢/٣٦٥)

(9) لزج: مصدر الشيء اللزج. أي تمطط وتمدد. لسان العرب(٢/٣٥٧) وعند ابن سعد في الطبقات (أزج) (١/٢٣١) والزجج تقوس في الحاجب مع طول في طرفه وامتداد. النهاية (٢/٢٩٦) ولعل ما ذكره ابن سعد هو الأصوب.

(10) النزر: أي القليل. والمعنى:أي ليس بقليل فيدل على عِيّ، ولا كثير فاسد. النهاية(٥/٤٠).

(11) المحفود: الذي يخدمه أصحابه ويعظمونه ويسرعون في خدمته. النهاية(١/٤٠٦)

(12) محشود:أي أن أصحابه يخدمونه ويجتمعون إليه. النهاية(١/٣٨٨)

(13) المفند : الذي لا فائدة في كلامه لِكِبَرٍ أصابه. النهاية(٣/٤٧٥). وفي نفي هذه الصفات إثبات لحلاوة كلامه ﷺ

(14) الحاكم، المستدرك (٣/٩)

أسماؤه ﷺ

وجاء في أسمائه ﷺ أنه قال ﷺ (أنا محمد. وأنا أحمد. وأنا الماحي، الذي يُمْحَى بِــيَ الكفر. وأنا الحاشر، الذي يُحْشَرُ الناسُ على عَقِبِي. وأنا العاقب) والعاقب الذي ليس بعده نبي.[1]

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال (كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء. فقــال: أنا محمد، وأحمد، والمقفى، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة)[2] والمقفى بمعنى العاقب، المتتبع للأنبياء.

عبادته ﷺ:

ومــن عــبادته ﷺ قيام الليل، فعن المغيرة ﷺ (إن كان النبي ﷺ ليقوم ــ أو ليصلي ــ حتى تَرِمَ قَدَماه ــ أو ساقاه ــ فَيُقالُ له: فيقــول: أفــلا أكــونُ عبــداً شكوراً؟)[3]

فلقــد كــان من منهجه ﷺ التعبدي أن يقوم لربه قائماً وساجداً، (حتى تَرِمَ قدماه) أي تتورم. (فيقال له) لم يذكر الراوي المقول ولم يسم القائل. (فقيل له غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر) وفي حديث عائشة (فقالت له عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك) فيقول عليه الصلاة والسلام (أفلا أكونُ عبداً شكوراً) وفيه من الفوائد: مشروعية الصلاة للشكر، وفيه أن الشكر يكون بالعمل، كما يكون باللسان.[4]

---

[1] مسلم (١٨٢٨/٤) برقم (٢٣٥٤)

[2] مسلم (١٨٢٨/٤) برقم (٢٣٥٥)

[3] البخاري (٣٥٢/١) برقم (١١٣٠)

[4] ابن حجر، فتح الباري (١٥/٣)

وفيه من الفوائد أن الطاعة لا تُؤدى خوفاً من العقوبة فقط، بل تُؤَدَّى مع ذلك شكراً لله تعالى على نعمه وامتنانه العظيم. فتكون رغبة ورهبة وخوفاً وطمعا. وأن الشاكر هو الذي يَتَنَفَّلُ بمزيد من الطاعة استشعاراً بنعم الله تعالى عليه: فنعمة الإسلام والإيمان والقرآن والحياة والصحة والعافية، والرزق ودروبه، والبصر والسمع...وغيرها من النعم العظيمة الجليلة التي تفضل بها الكريم المنان سبحانه وتعالى.

وعن أنس ﷺ قال (كان رسول الله ﷺ يُفطر من الشهر حتى نظن أن لا يصوم منه. ويصوم حتى نظن أن لا يُفطر منه شيئاً، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته، ولا نائماً إلا رأيته)[١]

وفيه من الفوائد أن صلاته ونومه كان يختلف بالليل، ولا يرتب وقتاً معيناً، بل بحسب ما تيسر له القيام.[٢] وكذلك صيامه ﷺ يصوم حتى يظنه الصحابة أنه لا يفطر من الشهر شيئاً، ويفطر حتى يظنون أنه لا يصوم من الشهر شيئاً. وهذا يفيد أهمية المراوحة بين العبادة، وأن الإنسان يجتهد في النوافل قدر طاقته ووسعه ويراوح بينها. وقد قال ﷺ لعبد الله بن عمرو (ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار ؟ قلت: بلى. قال: فلا تفعل. قم ونم، وصُم وأفطر، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لزورك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإنك عسى أن يطول بك عُمرٌ، وإن من حسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام، فإن بكل حسنة عشرة أمثالها. فذلك الدهر كله.)[٣]

وهذا من سماحة الإسلام وهديه ﷺ ومن كرم الله تعالى الكريم المنان، الذي يمن على عباده بأوسع دروب الخير والفلاح، فَيُضاعف حسنات العباد إلى أضعاف كثيرة، فصيام ثلاثة أيام بأجر ثلاثين يوماً، وصيام ست وثلاثين يوماً تطوعاً بأجر صيام الدهر

---

[١] البخاري (٣٥٤/١ــ٣٥٥) برقم (١١٤١)

[٢] ابن حجر، فتح الباري (٢٣/٣)

[٣] البخاري (١١٥/٤ــ١١٦) برقم (٦١٣٤)

كلـــه. فلك الحمد يا منان يا رحمن الدنيا والآخرة. وفي هذا الحديث من الفوائد أهمية الموازنة بين الحقوق. مما يعلم المسلم فقه الموازنات التي هي من أسباب سعادة الإنسان.

وقد تبينت عبادته ﷺ لربه سبحانه وتعالى من خلال سيرته العطرة، إضافة إلى تفصيلها في كتب الحديث الشريف.

أخـــلاقه ﷺ :

لقـــد تبين الكثير من أخلاق المصطفى ﷺ فيما تقدم من سيرته ﷺ وهذه طائفة أخرى من أخلاقه عليه الصلاة والسلام.

فعن حيائه ﷺ يقول أبو سعيد الخدري ﷺ (كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها. وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه)[1]

يـــبين هذا الحديث شدة حياء النبي ﷺ مما لا يليق بالمسلم. ولا يتكلم بما يكره لشـــدة حيائه من التلفظ به، بل يظهر ذلك في وجهه ﷺ فيفهمون مما يظهر على محياه ﷺ أنـــه يكـــره ذلـــك. ويفيد ذلك أهمية الحياء، وأنه منهج إسلامي عظيم، وفيه من الفوائد: أن من يُقتدى به ويُستحى منه، أن يعبر بوجهه عن كراهية ما يراه أو يسمعه. وفيه من الفوائد أيضاً: تنوع أساليب إنكار المنكر بحسب الحال، وبحسب مكانة المنكِر لـــه. وفيه أيضاً أن المنكر إذا كان من أسباب زواله التعبير بالوجه استخدم ذلك. وفي الحديـــث من الفوائد التربوية استخدام أسلوب التشبيه في البيان والإيضاح. فقد شبه راوي الحديث حياء رسول الله ﷺ بحياء العذراء في خدرها.

وعـــن مخالطته لأصحابه وسماعه لحديثهم، ما رواه سِمَاك بن حرب قال: قلت لجابـــر بـــن سَمُرَة: أكنت تُجالسُ رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. كثيراً. كان لا يقوم من

---

[1] مسلم (٤/١٨٠٩ــ١٨١٠) برقم (٢٣٢٠)

مصلاهُ الذي يصلي فيه الصبح حتى تَطْلُع الشمس. فإذا طلعت قام. وكانوا يتحدثون، فيأخذون في أمر الجاهلية، يضحكون، ويبتسمُ ﷺ)[1]

يوضح هذا الحديث ما كان عليه النبي ﷺ من الذكر بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس، مما يبين فضيلة الذكر بعد صلاة الصبح وأهمية ملازمة ذلك. وفيه بيان صورة من أحوال الصحابة ـــ رضي الله تعالى عنهم ـــ وفيه جواز الحديث في المسجد عن أمور الجاهلية، والضحك، والابتسامة أفضل لفعله ﷺ قال الإمام النووي: والأفضل الاقتصار على التبسم كما فعله ﷺ في عامة أوقاته، قالوا: ويكره إكثار الضحك، وهو في أهل المراتب والعلم أقبح، والله تعالى أعلم.[2]

ومن هديه ﷺ التوجيه بأحسن الأساليب وأرقاها، فعن أنس قال: (كان رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وغلام أسود يُقَالُ له: أنجشه. يحدو. فقال له رسول الله ﷺ يا أنجشه ! رُوَيْدَكَ، سَوْقاً بالقوارير.)[3]

يبين هذا الحديث الأسلوب التربوي والدعوي المؤثر منه ﷺ، مع بيان علة التوجيه، وهو الأكثر والأبلغ أثراً في النفس الإنسانية. وفيه جواز الحداء. وفيه التعبير بما يناسب المقام والمقال والموصوف، فيقول ﷺ (رويدك سوقاً بالقوارير) ورويدك أي أرفق. وسوقاً أي سُقْ. والمقصود بالقوارير النساء، قال العلماء سمي النساء قوارير لضعف عزائمهن، تشبيهاً بقارورة الزجاج لضعفها، وإسراع الانكسار إليها. ومعنى الحديث أن أنجشه كان حسن الصوت، وكان يحدو بهن، وينشد شيئاً من القريض والرجز... فلم يأمن النبي ﷺ أن يفتنهن...فأمر بالكف عن ذلك.[4] وفيه من الفوائد تجنيب النساء ما قد يؤثر عليهن ويفتنهن. وأن ما يصلح للرجال قد لا يصلح للنساء،

---

(1) مسلم (٤/١٨١٠) برقم (٢٣٢٢)

(2) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/٧٩)

(3) مسلم (٤/١٨١١) برقم (٢٣٢٣)

(4) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/٨٠ـــ٨١)

لاختلافهم في رقة القلوب. وفيه كذلك إثبات رقة النساء ورقة عواطفهن، وفيه أهمية العـــناية بالنســـاء وتجنيبهن الفتنة، وأن الحداء له تأثير في النفوس. وفيه كذلك الوعظ بـــاللطف، بما يتناسب مع الحال، مع مراعاة نفسية المنصوح، إذ لم يقل له ﷺ كف عن ذلـــك، بل بين له ما يفيد قوة تأثير حدائه ﷺ، وأن مع القوم النساء، فرفقاً بهن، وفيه كذلـــك تذكـــير الغافل بما يناسب. فربما غفل أنجشه عن معية النساء لهم، وتفاعل مع حدائهﷺ.

وعـــن قـــربه ﷺ من الناس، ومحبتهم وتبركهم به ﷺ ما قاله أنس ﷺ (كان رســـول الله ﷺ إذا صلى الغَدَاةَ جاء خَدَمُ المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يُؤتَى بإناء إلا غمس يده فيها، فَرُبَّما جاءوه في الغَدَاةِ الباردة، فيغمس يده فيها.)[1]

وفي الحديـــث قربه ﷺ من الناس، ومخالطته لخدم المدينة، مما يبين تواضعه ﷺ وكريم تعامله مع الناس. وأنه لم يتخذ لنفسه ما يتخذه الكبراء والملوك، وهو أعلى من الجميع قدراً ومكانة وحفاوة عند المسلمين، بل إن مسلكه ومنهجه مبني على التواضع الجم ﷺ وفي الحديث بيان بركة النبي ﷺ وما كان يصنعه خَدَمُ المدينة من المجيء إليه ﷺ ليغمس يده الشريفة فيها؛ لتحل البركة في ذلك الماء، فيتبرك به من شربه. بل من كرم تواضـــعه ﷺ وحرصـــه على أن يكون قريباً من الناس، أنه لا يمتنع من ذلك حتى في الغـــداة الـــباردة، وهي أعلى ساعات البرودة من اليوم البارد. بل ولا يمنعه من ذلك كثرتهم، فيغمس يده الشريفة في تلك المياه كلها.

ومـــن شدة حرص الصحابة على التبرك به؛ ما ذكره أنس ﷺ إذ يقول (لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه، وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل)[2]

---

[1] مسلم (١٨١٢/٤) برقم (٢٣٢٤)

[2] مسلم (١٨٢/٤) برقم (٢٣٢٥)

فيـــبين هذا الحديث قربه ﷺ من الناس، وأنه لم يتخذ لنفسه مكاناً خاصاً بعيداً عـــن الـــناس، لـــيحلق فيه شعره ﷺ بل كان يخالط الناس، فيرونه وهو يحلق شعره، فيقتدون به ﷺ ثم يبين هذا الحديث بركة شعر النبي ﷺ وتبرك المسلمين به، وإكرامهم لشعره الكريم ﷺ

ومن تواضعه وعنايته بالناس وبأمورهم وقضاء حوائجهم ما رواه أنس ﷺ (أن امرأة كان في عقلها شيء. فقالت: يا رسول الله ! إنّ لي إليك حاجة. فقال: يا أم فلان ! أي السكك شئت، حتى أقضي لك حاجتك. فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها)[1]

وفي هذا الحديث غاية تواضعه وعنايته بأمور الناس، وإكرامه للمرأة، وتكنيته ﷺ لـــلمرأة، ثم يخاطبها بكل لطف، فيقول لها (يا أم فلان ! أي السكك شئت، حتى أقضـــي لـــك حاجتك) مما يفيد أهمية العناية بأمور الناس، والقرب منهم، والسعي في قضـــاء حوائجهم ما أمكن ذلك. ومن فوائده العناية بالضعفاء، ومخاطبة المرأة وقضاء حاجتها مما لا ريبة فيه. قال الإمام النووي ــ رحمة الله تعالى عليه ــ أي وقف معها في طريق مسلوك، ليقضي حاجتها، ويفتيها في الخلوة، ولم يكن ذلك من الخلوة بالأجنبية، فـــإن هـــذا كان في ممر الناس ومشاهدتهم إياه وإياها، لكن لا يسمعون كلامهما، لأن مسألتها مما لا يظهره، والله أعلم.[2]

وعن القاعدة النبوية في التعامل، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، (مـــا خُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثماً. فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه. وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلا أن تُنْتَهَك حُرْمَةُ الله عزَّ و...

---

(1) مسلم (٤/١٨٢ــ١٨١٣) برقم (٢٣٢٦)

(2) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/٨٣)

(3) مسلم (٤/١٨١٣) برقم (٢٣٢٧)

ومن فوائد هذا الحديث: أن من قواعده ﷺ المتقررة في التعامل؛ ثلاث قواعد عظيمات كريمات:

القاعدة الأولى: اختيار الأيسر من الأمور ما لم يكن إثماً.

القاعدة الثانية: الابتعاد عن أيسر الأمور إذا كان إثماً.

القاعدة الثالثة: عدم الانتقام لنفسه ﷺ إلا إذا انتهكت حرمات الله تعالى.

قال الإمام النووي في شرحه للحديث: فيه استحباب الأخذ بالأيسر والأرفق ما لم يكن حراماً أو مكروهاً... وفيه الحث على العفو والحلم واحتمال الأذى، والانتصار لدين الله تعالى ممن فعل محرماً أو نحوه. وفيه أنه يُستحب للأئمة والقضاة وسائر ولاة الأمور التخلق بهذا الخلق الكريم، فلا ينتقم لنفسه، ولا يهمل حق الله تعالى.(١)

❁ ❁ ❁

وعن كرمه، يقول جابر بن عبد الله (ما سُئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا.)(٢)

وعن أنس رضي الله عنه قال (ما سُئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه. قال فجاءه رجلٌ فأعطاه غنماً بين جبلين. فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم ! أسلموا. فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة)(٣)

يبين هذان الحديثان قاعدة الجود والكرم عند رسول الله ﷺ فكان لا يرد سائلاً قط لشيء من متاع الدنيا. وإنها لقاعدة نبوية كريمة؛ عظيمة التطبيق؛ وكبيرة الأثر، وجليلة المعاني والدلالات. ثم يبين هذا الحديث عظيم كرمه ﷺ وعدم اكتراثه بالدنيا، فيعطي عطاء من لا يخاف الفقر، وعطاء الواثق بربه، وعطاء الزاهد في الدنيا،

---

(١) النووي، صحيح مسلم (١٥/٨٣ـ٨٤)

(٢) مسلم (٤/١٨٠٥) برقم (٢٣١١)

(٣) مسلم (٤/١٨٠٦) برقم (٢٣١٢)

وعطـــاء الكـــريم لمن سأله. فها هو ﷺ يعطي السائل غنماً كثيرة بين جبلين، حتى أن السـائل ذُهـــل لهذا العطاء، فعبر عن ذلك بقوله (يا قوم ! أسلموا. فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة) مما يفيد أهمية هذا المسلك العطائي، الذي ينم عن الثقة بالله تعالى، والزهد في الدنيا. وأن الذي أعطى ووهب يعطي ويعوض بما هو خير وأحسن.

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير. وكان أجود ما يكون في شهر رمضان. إن جبريل عليه السلام كان يلقاه في كل سنة، في رمضـــان حـــتى ينسلخ. فيعرضُ عليه رسولُ الله ﷺ القرآن. فإذا لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة)[1]

يـــبين هـــذا الحديـــث صورة أخرى لكرمه ﷺ وتزايده بمزيد عطاء الله تعالى وكرمه. وفي الحديث مدارسة جبريل عليه السلام للنبي ﷺ في رمضان للقرآن الكريم، وفيه من الفوائد: فضيلة شهر رمضان، وأهمية مدارسة القرآن فيه، وزيادة الحرص على الخير في هذا الشهر. وفيه أهمية الكرم والجود في كل وقت، وزيادته في رمضان،

❁ ❁ ❁

خاتم النبيين ﷺ

قـــال ﷺ (مَـــثَلِي ومَثَلُ الأنبياء كَمَثَلِ رجلٍ بنى بنياناً فأحسنَه وأجمَلَهُ، فجعل الـــناس يُطِـــيفُون به، يقولون: ما رأينا بنياناً أحسن من هذا، إلا هذه اللّبِنَةَ. فكنت أنا تلك اللَّبِنَة.)[2]

يبين هذا الحديث الشريف تكامل ما جاء به الأنبياء برسالته ﷺ وأنه قد اكتمل الإســـلام بما بعثه الله تعالى به ﷺ وأنه عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء، فلا نبي بعده أبداً ﷺ

---

[1] مسلم (١٨٠٣/٤) برقم (٢٣٠٨)

[2] مسلم (١٧٩٠/٤) برقم (٢٢٨٦)

كما يفيد هذا الحديث استخدام ضرب الأمثال في التعليم والبيان. وأن تقريب المعاني العلمية والمفاهيم للناس من متطلبات الداعية والمعلم ومن في حكمهما.

❁❁❁

تفضيل النبي ﷺ على سائر الخلائق:

عـــن أبي هريرة ﷺ قال (قال رسول الله ﷺ : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة. وأول من ينشق عنه القبر. وأول شافع وأول مُشَفَّعٍ)[1]

قـــال العلماء وقولهﷺ (أنا سيد ولد آدم) لم يقله فخراً، بل صَرَّح بنفي الفخر في الحديـــث المشهور (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) وإنما قاله لوجهين: أحدهما: امتثال قوـــله تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث) والثاني: أنه من البيان الذي يجب تبليغه إلى أمته لـــيعرفوه ويعتقدوه، ويعملوا بمقتضاه، ويوقروه ﷺ بما تقتضي مرتبته؛ كما أمرهم الله تعالى. وهذا الحديث دليل لتفضيله ﷺ على الخلق كلهم.[2]

❁❁❁

حوض النبي ﷺ

عـــن ســـهل قال: سمعت النبي ﷺ يقول (أنا فَرَطُكم على الحوض، من وَرَدَ شَـــرِب، ومن شرب لم يظمأ أبداً. ولَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني. ثم يُحالُ بيني وبينهم)[3] وفي رواية، فيقول (إنهم مني، فَيُقال: إنك لا تدري ما عملوا بعدك. فأقول: سُحْقاً سُحْقاً لمن بَدَّلَ بعدي)[4]

---

[1] مسلم (١٧٨٢/٤) برقم (٢٢٧٨)

[2] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٣٧/١٥)

[3] مسلم (١٧٩٣/٤) برقم (٢٢٩٠)

[4] مسلم (١٧٩٣/٤) برقم (٢٢٩١)

قوله ﷺ (أنا فرطكم على الحوض) الفارط هو الذي يتقدم الوارد ليُصلح لهم، فمعنى فرطكم على الحوض أي سابقكم إليه، كالمهيء له. ومعنى (سحقاً سحقاً) أي بعداً لهم بعداً.[1]

ويفيد الحديث مكانة النبي ﷺ ومنزلته عند ربه سبحانه وتعالى، وفيه فضيلة الشرب من حوضه ﷺ حيث لا يظمأ بعده الشارب منه أبداً. وفيه بيان لما سيحدث من بعض أفراد أمته من التبديل الذي يمنعهم من الشرب من حوضه ﷺ

وفيه من الفوائد التنبيه والتحذير لمغبة الحيدة عن منهجه ﷺ وفيه كذلك أن على العلماء والدعاة وغيرهم أن يحذروا من مغبة المسالك المنحرفة.

---

[1] النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/٥٣ــ٥٤)

مرض النبي ﷺ ووفاته :

لقـــد كانت هناك إشارات بقرب أجل رسول الله ﷺ وهذا من فضل الله تعالى ورحمته بأصحاب رسول الله ﷺ لأن الفاجعة بموته ﷺ ليس كمثلها مصيبة، ولذلك قال ﷺ (إذا أصيب أحدكم بمصيبة فليذكر مصيبته بي، فإنها أعظم المصائب)[١]

ومـــن ذلـــك نزول سورة النصر، جاء في الحديث (...فسأل عمرُ ابن عباس عن هذه الآيـــة (إذا جاء نصر الله والفتح) فقال: أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه، فقال: ما أعلم منها إلا ما تعلم)[٢]

ومن ذلك أيضا توديعه ﷺ الناس في حجة الوداع، فعن الزبير عن جابر (رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر، ويقول: لتأخذوا عني مناسككم؛ فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حَجَّتي هذه)[٣] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما (وقف النبي ﷺ يـــوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حجَّ بهذا، وقال: هذا يوم الحج الأكبر. فطفق النبي ﷺ يقول: اللهم اشهد. وودع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع)[٤] وكذلك ما قاله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه(... يا معاذ ! إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تَمُرَّ بمسجدي هذا وقبري. فبكى معاذٌ جشعاً لفراق رسول الله ﷺ...)[٥]

فهذا البلاغ توطئة نفسية لما سيكون من أمر رسول الله ﷺ وهي رحمة ولطف مـــن الحكـــيم الخـــبير سبحانه وتعالى؛ بصحابة رسول الله ﷺ وأهل بيته عليه الصلاة والسلام.

---

[١] ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٢٧٥) واللفظ له. مالك، الموطأ (١/٢٣٦) رقم الحديث (٤١) ورواه غيرهما. وقال الألباني: وبالجملة فالحديث بهذه الشواهد صحيح، والله أعلم. سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/٩٨) برقم (١١٠٦)

[٢] البخاري (٣/١٨١) برقم (٤٤٣٠)

[٣] مسلم (٣/٩٤٣) برقم (١٢٩٧)

[٤] البخاري (١/٥٢٩) برقم (١٧٤٢)

[٥] أحمـــد، المســـند (٣٦/٣٧٦) بـــرقم (٣٣٠٥٢) طـــبعة الموسوعة الحديثية، وقال محققوا الطبعة شعيب الأرنؤوط وآخرون: إسناده صحيح.

وفي أحاديثه ﷺ لأصحابه بتلك الإشارات عن قرب أجله، دليل على أن الله تعالى أعلمه بذلك. لأن وفاته ﷺ لها وقع مؤثر على كل مسلم، فكيف بمن كانوا يُعايشونه؛ ويؤاكلونه ويُشاربونه، ويُجاهدون معه، ويرون منه كريم الأخلاق والعطف والشفقة والتوجيه والرحمة بهم مباشرة.

وفي ليال بقين من صفر، أو في شهر ربيع الأول كان أول ما ابتدئ به ﷺ المرض[1] وابتداؤه كان في بيت ميمونة.[2] تقول أم المؤمنين عائشة زوج النبي ﷺ (لما ثَقُلَ رسولُ الله ﷺ واشتدَّ به وجعه استأذن أزواجه أن يمرَّض في بيتي، فَأَذنَّ له، فخرج وهو بين الرجلين؛ تخطُّ رجلاه في الأرض، بين عباس بن عبد المطلب وبين رجل آخر. قال عبيد الله فأخبرت عبد الله بالذي قالت عائشة، فقال لي عبد الله بن عباس: هل تدري مَن الرجل الآخر الذي لم تُسَمِّ عائشة ؟ قال: قلت: لا. قال: ابن عباس: هو علي...)[3]

وفي الحديث دليل حرص النبي ﷺ على أداء حقوق أزواجه، مما جعله يستأذنهن في أن يُمَرَّض في بيت زوجته عائشة ـ رضي الله تعالى عنهاـ بعد أن اشتد به المرض.

وقالت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ (وتتام به وجعه وهو يدور على نسائه، حتى استعزَّ به ـ أي اشتد به المرض ـ وهو في بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يُمرَّض في بيتي)[4] ويفيد هذا أهمية إقامة حقوق الزوجات والعناية بذلك، وأما في وقت الحاجة فَيُستأذن صاحب الحق، وهذا من كريم خُلُقه ﷺ وهو في مرض يوعك فيه وعكاً شديداً.

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٢٩١)

(2) ابن حجر، فتح الباري (٨/٢٩)

(3) البخاري (٣/١٨٣ـ١٨٤) برقم (٤٤٤٢)

(4) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/٢٩٢)

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت (كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: يا عائشة ! ما أزالُ أجدُ ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدتُ انقطاع أبهري من ذلك السم)[1]

وهذا الحديث يبين أثر الشاة المسمومة التي أُهديت للنبي ﷺ من اليهود في خيبر، فأدت إلى انقطاع أبهر النبي ﷺ والأبهر عرق مستبطن بالظهر، متصل بالقلب، إذا انقطع مات صاحبه.[2] وسبق بيان هذا الحديث في غزوة خيبر.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها (أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات، ومسح عنه بيده. فلما اشتكى وجعه الذي تُوفِّي فيه طَفِقْتُ أنفث على نفسه بالمعوذات التي كان ينفثُ وأمسح بيد النبي ﷺ عنه)[3]

وفي الحديث دليل على الرقية بالمعوذات، وأنه كان ﷺ يعتاد ذلك، كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها (كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات، ومسح عنه بيده) وفي الحديث عناية الزوجة بزوجها، والذي تمثله أم المؤمنين مع رسول الله ﷺ

(... وكانت عائشة زوج النبي ﷺ تُحدث أن رسول الله ﷺ لما دخل بيتي واشتدَّ به وجعه، قال: هَريقوا عليَّ من سبع قرب لم تُحلل أوكيتهنّ، لعلي أعهد إلى الناس. فأجلسناه في مخضب[4] لحفصة زوج النبي ﷺ ثم طفقنا نصبُّ عليه من تلك القِرَب حتى طفق يُشيرُ إلينا بيده أن قد فَعلتنَّ. قالت: ثم خرج إلى الناس فصلى بهم وخطبهم.)[5]

---

(1) البخاري (١٨١/٣) برقم (٤٤٢٨)

(2) ابن حجر، فتح الباري (١٣١/٨)

(3) البخاري (١٨٣/٣) برقم (٤٤٣٩)

(4) المِخْضَبُ: شبه الإجانة، يُغسل فيها، والمخصب: المركن، ومنه الحديث(أجلسوني في مخصب فاغسلوني) ابن منظور، لسان العرب (٣٥٩/١)

(5) البخاري (١٨٣/٣ــ١٨٤) برقم (٤٤٤٢)

ويفيد الحديث أن في السبع القرب التي أهريقت على النبي ﷺ حكمة، قيل: الحكمة في هذا العدد؛ أن له خاصية في دفع ضرر السم.[1] والله تعالى أعلم.

وأما عن حال الصحابة، وما تجيش به قلوبهم، أثناء مرض رسول الله ﷺ فيذكر أنس ﷺ هذا الموقف حيث يقول (مرَّ أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال: ما يبكيكم ؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ منّا. فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك، قال: فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشيةُ بُرد، قال: فصعد المنبر، ولم يصعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من مُحسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم)[2] وقد سبق بيان فوائده.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال (خطب رسول الله ﷺ الناس، وقال: إن الله خَيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله. فبكى أبو بكر، فعجبنا لبُكائه أن يُخبر رسولُ الله ﷺ عن عبد خُيِّر، فكان رسول الله ﷺ وهو المُخَيَّر، وكان أبو بكر أعلَمَنا. فقال رسول الله ﷺ إن أمَنَّ الناس عليَّ في صُحْبَتِه وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد بابٌ إلا سُدَّ، إلا بابُ أبي بكر.)[3]

وفي الحديث أسلوب البيان بصيغة التعريض. والإشارة بالعلم الخاص دون التصريح لإثارة أفهام السامعين، وتفاوت العلماء في الفهم، وأن من كان أرفع في الفهم استحق أن يطلق عليه أعلم،[4] وفيه كذلك فطنة أبي بكر الصديق ﷺ وعلمه وفهمه، وكأن أبا بكر ﷺ فهم الرمز الذي أشار به النبي ﷺ من قرينة ذكره ذلك في مرض

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (١٤١/٨)

(2) البخاري (٤٢/٣) برقم (٣٧٩٩)

(3) البخاري (٣/٧ــ٨) برقم (٣٦٥٤)

(4) ابن حجر، فتح الباري (١٥/٧)

موته، فاستشعر منه أنه أراد نفسه؛ فلذلك بكى. وفيه الترغيب في اختيار الآخرة على ما في الدنيا.[1] ويكون ذلك بالعمل للآخرة، وتقديم النافع فيها.

وفي الحديث بيان من النبي ﷺ لمناقب أبي بكر، ودليل على مكانته ﷺ مما يفيد أن الإنسان وإن علت مكانته ومنصبه وجاهه فلا يمنعه ذلك من ذكر إحسان من أحسن إليه، وهذا مع أن رسول الله ﷺ لا تدانيه مرتبة؛ وإحسانه ﷺ فوق إحسان كل أحد، فهو القائد والدليل للجنة ﷺ وفيه كذلك أن منزلة أبي بكر لا تعادلها منزلة رجل عند رسول الله ﷺ قال الخطابي وابن بطال وغيرهما: في هذا الحديث اختصاص ظاهر لأبي بكر، وفيه إشارة قوية إلى استحقاقه للخلافة، ولا سيما وقد ثبت أن ذلك كان في آخر حياة النبي ﷺ في الوقت الذي أمرهم فيه أن لا يؤمهم إلا أبو بكر.[2]

وعن حرصه ﷺ على أمته وعلى جناب التوحيد ما ذكرته أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، بقولها (قال النبي ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره، خشي أن يُتخذ مسجداً)[3]

وعن عائشة وعبد الله بن العباس رضي الله تعالى عنهم، قالا (لما نُزِل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه، وهو كذلك يقول: لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يُحذّروا ما صنعوا)[4]

ويبين هذان الحديثان شدة حرصه ﷺ على التوحيد، توحيد الله بالعبادة، إذ أنه وهو في مرض موته ﷺ وقد اشتد به الكرب، يبين مسلك اليهود والنصارى في اتخاذ

---

[1] المرجع السابق (٧/١٢ـ١٦)

[2] المرجع السابق (٧/١٤)

[3] البخاري (٣/١٨٣) برقم (٤٤٤١)

[4] البخاري (٣/١٨٤) برقم (٤٤٤٣) (٤٤٤٤)

قبور أنبيائهم مساجد، فلعنهم رسول الله ﷺ وإذا كان اتخاذ القبور منهي عنه في حق الأنبياء، فغيرهم أولى بالنهي؛ إذ أنهم ليسوا بأفضل من الأنبياء؛ مهما بلغ صلاحهم، وهذا بيانٌ أنه لا يجوز اتخاذ المساجد على القبور. وفيه كذلك تحذير لأمته من أن يتخذ قبره ﷺ مسجداً. وفيه من الفوائد جواز لعن اليهود والنصارى على وجه العموم. وفيه أن على المسلم أن يكون داعياً للخير، وقدوة في الخير؛ لآخر لحظة من حياته. وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستمر مع المسلم لآخر لحظات عمره. كما كان ﷺ يأمر ويبين وينهى وهو في مرض وفاته.

وفي الحديث فقه أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، لإدراكها مغزى كلام رسول الله ﷺ واستنباطها من كلام النبي (. قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره، خشى أن يُتخذ مسجداً) وفي الحديث كذلك شدة ما كان يعانيه النبي ﷺ من الوعك.

وعن اشتداد المرض به ﷺ يقول سعيد بن جبير (قال ابن عباس: يوم الخميس وما يوم الخميس. اشتد برسول الله ﷺ وجعه، فقال: ائتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبدا، فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي نزاع، فقالوا: ما شأنه ؟ أهَجَرَ، استفهموه. فذهبوا يردون عليه. فقال: دَعوني، فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه. وأوصاهم بثلاث، قال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا للوفود بنحو ما كنت أجيزهم، وسكت عن الثالثة أو قال فنسيتها)[1]

قال ابن حجر في شرحه لقوله (وأوصاهم بثلاث): أي في تلك الحالة، وهذا يدل على أن الذي أراد أن يكتبه ﷺ لم يكن أمراً متحتماً؛ لأنه لو كان مما أمر بتبليغه لم يكن يتركه لوقوع اختلافهم...وقد عاش بعد هذه المقالة أياماً، وحفظوا عنه أشياء لفظاً، فيحتمل أن يكون مجموعها ما أراد أن يكتبه، والله تعالى أعلم.[2] وفي الحديث حرص النبي ﷺ وهو في مرض وفاته على سلامة هذا الدين، وحفظه من أعدائه،

---

[1] البخاري (٣/١٨١ـ١٨٢) برقم (٤٤٣١)

[2] ابن حجر، فتح الباري (٨/١٣٤)

بوصيته ﷺ أن يُخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وفيه كذلك عنايته ﷺ بأخلاق الإسلام؛ وما تشمله من الفضائل والمكارم، فأوصاهم بإعطاء الوفود نحو ما كان يعطيهم ﷺ من العطاء. وكانت جائزة الواحد على عهده ﷺ وقية من فضة، وهي أربعون درهما.[1] وقوله (وسكت عن الثالثة أو قال فنسيتها) هذا متعلق بسلسلة رواة الحديث. قال سفيان: قال سليمان: لا أدري أذكر سعيد بن جبير الثالثة فنسيتها، أو سكت عنها.[2]

وقولهم (ما شأنه ؟ أهَجَرَ) قال ابن حجر: الهَجَر: الهذيان، والمراد به هنا ما يقع من المريض الذي لا ينتظم ولا يعتد به لعدم فائدته، ووقوع ذلك من النبي ﷺ مستحيل، لأنه معصوم في صحته ومرضه ﷺ لقوله تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾[3]

ويُحتمل أن الذي قال ذلك (ما شأنه ؟ أهَجَرَ) صدر عن دهش وحيرة، كما أصاب كثيراً منهم عند موته. وقال ابن حجر: ويظهر لي ترجيح الاحتمالات التي ذكرها القرطبي، ويكون قائل ذلك بعض من قرب دخوله في الإسلام، وكان يعهد أن من اشتد عليه الوجع قد يشتغل به عن تحرير ما يريد أن يقوله؛ لجواز وقوع ذلك.[4]

وفي شأن الصلاة وإمامة المسلمين أثناء اشتداد المرض عليه ﷺ يذكر العباس بن عبد المطلب (أن رسول الله ﷺ قال في مرضه: مروا أبا بكر يُصلّي بالناس. فخرج أبو بكر، فكبر، ووجد النبي ﷺ راحة، فخرج يُهادى بين رجلين، فلما رآه أبو بكر تأخر، فأشار إليه النبي ﷺ مكانك، ثم جلس رسول الله ﷺ إلى جنب أبي بكر، فاقترأ من المكان الذي بلغ أبو بكر ﷺ من السورة)[5] وفي هذا الحديث دلالة عملية على أهمية الصلاة؛ وحرصه ﷺ عليها.

---

(1) المرجع السابق (١٣٥/٨)

(2) المرجع السابق (١٣٥/٨)

(3) سورة النجم: آية رقم (٣)

(4) فتح الباري (١٣٣/٨)

(5) أحمد، المسند (٣٠٤/٣ــ٣٠٥) برقم (١٧٨٥) طبعة الموسوعة الحديثية.

وعـــن أواخر وصايا رسول الله ﷺ تقول أم سلمة رضي الله تعالى عنها (أن رســـول الله ﷺ كان يقول في مرضه الذي تُوُفِّيَ فيه: الصلاة، وما ملكت أيمانكم. فما زال يقولهـــا حَتَّى ما يفيض بها لسانُهُ.)[1] وهذا دليل على عِظَم الصلاة، وعِظَم حقوق المرأة، لما للرجل من الوصاية عليها.

وفي الـــيوم الذي توفي فيه ﷺ فاجأ المسلمين بكشف ستر حجرة عائشة ينظر إليهم مبتسماً ﷺ فعن أنس بن مالك ﷺ (أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الاثـــنين وأبـــو بكـــر يصلي لهم، لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشـــة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، فقال أنس وهَمَّ المســـلمون أن يَفْتَتِنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر)[2]

وعـــن حديـــثه لابنته فاطمة عليها السلام، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله تعـــالى عـــنها (دعا النبي ﷺ فاطمة عليها السلام في شكواه الذي قُبض فيه، فسارَّها بشـــيء فبكت، ثم دعاها فسارَّها بشيء فضحكت. فسألنا عن ذلك، فقالت: سارَّني الـــنبي ﷺ أنـــه يُقبض في وجعه الذي تُوفِّي فيه؛ فبكيت، ثم سارَّني أني أولُ أهله يتبعهُ فضـــحكتُ)[3] وفي رواية (...أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة ـــ أو نساء المؤمنين ـــ فضحكت لذلك)[4]

---

(1) ابن ماجه (١/٥١٩) برقم (١٦٢٥)

(2) البخاري (٣/١٨٤ـــ١٨٥) برقم (٤٤٤٨)

(3) البخاري (٣/١٨٢) برقم (٤٤٣٣) (٤٤٣٤)

(4) البخاري (٢/٥٣٤ـــ٥٣٥) برقم (٣٦٢٤)

وفي الحديث إخباره ﷺ بما سيقع، فوقع كما قال ﷺ فإنهم اتفقوا على أن فاطمة رضي الله عنها؛ كانت أول من مات من أهل بيت النبي ﷺ بعده حتى من أزواجه.[1] وفي الحديث منقبة لفاطمة رضي الله تعالى عنها.

وعن أنس قال (لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أباه، فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم...)[2]

وعن آخر ما قام به رسول الله ﷺ ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، بقولها (دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على النبي ﷺ وأنا مسنِدَتهُ على صدري، ومع عبد الرحمن سِواك رَطبٌ يستن به، فَأَبَدَّهُ رسول الله ﷺ بصره، فأخذت السواك فقضمته ونفضته وطيبته؛ ثم دفعته إلى النبي ﷺ فاستن به، فما رأيت رسول الله ﷺ استن استناناً قط أحسن منه...)[3]

وفي الحديث فطنة عائشة رضي الله تعالى عنها، وحرصها ومتابعتها لحال رسول الله ﷺ فعرفت من مَدِّ نظره ﷺ إلى أخيها عبد الرحمن أنه ﷺ يشتهي السواك، ثم عنايتها بأمر رسول الله ﷺ حيث قضمت السواك أي مضغته، ونفضته وطيبته، فأعطته لرسول الله ﷺ وفيه حرص ومحبة رسول الله ﷺ للسواك، مما يؤكد أهمية عناية المسلم بأمر السواك كما اعتنى به ﷺ وهو في مرضه، ولحظة وفاته ﷺ

وفيه من الفوائد: دخول المرء على غيره وهو يستن بالسواك.

وعن سكرات الموت أنه (...كان بين يديه ركوة ــ أو علبة يشك عمر ــ فيها ماء، فجعل يُدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه، يقول: لا إله إلا الله، إن

---

[1] ابن حجر، فتح الباري (٨/١٣٦)

[2] البخاري (٣/١٨٧) برقم (٤٤٦٢)

[3] البخاري (٣/١٨٢ــ١٨٣) برقم (٤٤٣٨)

لـــلموت سكرات...)[1] فتقول عائشة رضي الله تعالى عنها (... فلا أكره شدة الموت لأحد أبداً بعد النبي ﷺ)[2] فهذه سكرات موت النبي ﷺ فكيف بغيره.

ويستفاد من هذين الحديثين: ذِكْرُه ﷺ لربه سبحانه وتعالى بكلمة التوحيد التي هـــي مفتاح دخول الجنة. مما يشير للمسلم أن يقتدي برسول الله ﷺ ويسأل الله تعالى التوفيق لذلك. ويكون قلبه متعلق بذكر الله تعالى، كما كان عليه الرسول ﷺ

وعن عائشة أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ (أنها سمعت النبي ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت وهو مُسْنِدٌ إليَّ ظهره يقول: اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق)[3]

وكـــان يقـــول ﷺ في مرضه الذي مات فيه؛ وأخذته بحة (مع الذين أنعم الله عليهم)[4] تقول عائشة (فظننت أنه خُيِّر)[5] وهذا الاستنتاج من فقه أم المؤمنين عائشة ــ رضـــي الله تعـــالى عنها ــ حيث ربطت بين كلامه ﷺ هذا وبين قوله عليه الصلاة والسلام ــ والذي روته بقولها ــ (كان النبي ﷺ يقول وهو صحيح: إنه لم يُقبض نبي حتى يَرى مقعده من الجنة، ثم يُخيَّر. فلما نـــزل به ورأسه على فخذي غشي عليه، ثم أفـــاق؛ فأشخص بصرَه إلى سقف البيت، ثم قال: اللهم الرفيق الأعلى. فقلت: إذاً لا يختارنا، وعرفت أنه الحديث الذي يُحدِّثنا وهو صحيح. قالت: فكان آخر كلمة تكلم بهـــا: اللهم الرفيق الأعلى)[6] وكان يردد ذلك كما قالت عائشة رضي الله تعالى عنها (...ثم قال: في الرفيق الأعلى. ثلاثاً. ثم قضى...)[7]

---

(1) البخاري (١٨٥/٣) برقم (٤٤٤٩)

(2) البخاري (١٨٤/٣) برقم (٤٤٤٦)

(3) البخاري (١٨٣/٣) برقم (٤٤٤٠)

(4) البخاري (١٨٢/٣) برقم (٤٤٣٥)

(5) البخاري (١٨٢/٣) برقم (٤٤٣٥)

(6) البخاري (١٨٧/٣) برقم (٤٤٦٣)

(7) البخاري (١٨٢/٣ــ١٨٣) برقم (٤٤٣٨)

وكـــان آخر شيء عمله ﷺ السواك، حيث قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعـــالى عنها (...فأخذت السواك فقضمته ونفضته وطيبته؛ ثم دفعته إلى النبي ﷺ فاستن به، فما رأيت رسول الله ﷺ استن استناناً قط أحسن منه. فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ رفع يده أو إصبعه ثم قال: في الرفيق الأعلى، ثلاثاً. ثم قضى. وكانت تقول: مات رسول الله بين حاقنتي وذاقنتي[1])[2] وفي رواية (...فاستن بها كأحسن ما كان مُستناً، ثمّ ناوَلنيها، فسقطت يده ــ أو سقطت من يده ــ فجمع الله بين ريقي وريقه في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة)[3] وتقول عائشة رضي الله تعالى عنها (...فقبضه الله، وإن رأسه لبين نحري وسحري، وخالط ريقه ريقي...)[4]

وفيه منقبة لأم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، إذ توفي رسول الله ﷺ وهو بين حنكها وصدرها؛ رضي الله تعالى عنها.

وقد قالت ابنة النبي ﷺ فاطمة رضي الله تعالى عنها (فلما مات قالت: يا أبتاه ! أجاب رباً دعاه، يا أبتاه ! من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه ! إلى جبريل ننعاه...)[5]

ولمـــا مـــات رسول الله ﷺ ذُهِل الصحابة رضي الله تعالى عنهم بموته ﷺ فعن عائشة رضي الله تعالى عنها (أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسُّنْح ــ قال إسماعيل: يعني بالعالية ــ فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ قالت: وقال عمر: والله ما كـــان يقع في نفسي إلا ذاك، وليبعثنه الله؛ فليُقَطِّعنَّ أيدي رجالٍ وأرجُلَهم. فجاء أبو بكر، فكشف عن رسول الله ﷺ فَقَبَّله، فقال: بأبي أنت وأمي، طِبتَ حياً وميتا، والذي نفسي بيده لا يُذيقنك الله الموتتين أبداً، ثم خرج، فقال: أيها الحالف على رسلك. فلما

---

[1] والحاقنة ما سفل من الذقن، والذاقنة ما علا منه)

[2] البخاري (١٨٢/٣ــ١٨٣) برقم (٤٤٣٨)

[3] البخاري (١٨٥/٣) برقم (٤٤٥١)

[4] البخاري (١٨٥/٣) برقم (٤٤٥٠)

[5] البخاري (١٨٧/٣) برقم (٤٤٦٢)

تكلم أبو بكر جلس عمر)[1] (فحمد الله أبو بكر؛ وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبدُ محمـــداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. وقال (إنك ميت وإنهم ميتون) وقال (وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرُّسُل، أفإن مات أو قُــتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين) قال: فنشَجَ الناس يبكون.)[2]

وعن عبد الله بن العباس رضي الله تعالى عنهما، قال (...: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنــزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر؛ فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها. فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعــت أبــا بكر تلاها فعَقِرت حتى ما تُقلُّني رجلايَّ، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعتُه تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات)[3]

وهذا الحديث يدل على فقه أبي بكر ﷺ وقدرته على تحمل الفواجع، بالرغم من رقة قلبه ﷺ وكثرة عطفه، وفيه ثِقل خبر وفاة النبي ﷺ على الصحابة، وأن الأمر قـــد هالهم، وبلغ منهم مبلغاً عظيماً. وفيه عظم فاجعة موته ﷺ على عمر بن الخطاب، وهو الرجل القوي الشجاع ﷺ حتى هوى على الأرض، مما يدل على عِظَم خبر وفاته ﷺ عـــلى الصـــحابة، بالـــرغم من مرضه ﷺ السابق لوفاته عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وفـــيه كذلك حاجة الناس وإن صَلَحُوا وكَثُرُوا إلى من يقوم عليهم حتى على أفهـــامهم وعواطفهم، فيجمعها على الحق والخير والصواب، وهذا ظاهر فيما انقلب الناس به من ترديدهم تلك الآية التي تلاها أبو بكر الصديق ﷺ

---

[1] البخاري (٣/١١) برقم (٣٦٦٧)

[2] البخاري (٣/١١) برقم (٣٦٦٨)

[3] البخاري (٣/١٨٦) برقم (٤٤٥٤)

وقد توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين حين زاغت الشمس، وغُسِّل ﷺ في ثيابه يوم الثلاثاء، وغسَّله العباس وعلي والفضل وأسامة بن زيد وأوس بن خوَلي وشُقران.[1] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها (أن رسول الله ﷺ كُفِّن في ثلاثة أثواب يمانية؛ بيض سَحولية؛ من كرسُف[2] ليس فيهن قميص ولا عمامة)[3] ثم وضع على سريره ﷺ فكان الناس يدخلون عليه زُمَراً زُمَراً يصلّون عليه ويخرجون، ولم يؤمهم أحدٌ.[4] ثم حفروا له ﷺ حيث توفّي في حجرة أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها.[5]

واختلف في مدة مرضه ﷺ فالأكثر على أنها ثلاثة عشر يوماً، وقيل بزيادة يوم، وقيل بنقصه، وقيل عشرة أيام، وأخرجه البيهقي بإسناد صحيح.[6] وكانت وفاته يوم الاثنين بلا خلاف من ربيع الأول، وكاد يكون إجماعاً، وعند ابن إسحاق والجمهور أنها في الثاني عشر منه. وعاش ﷺ ثمانين يوماً بعد حجته.[7] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها (أن رسول الله ﷺ توفّي وهو ابن ثلاث وستين)[8]

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت (توفي النبي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهوديٍّ بثلاثين، يعني صاعاً من شعير)[9]

---

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٢٧٤ــ٢٨٠)

(2) سحولية، منسوبة إلى سحول، قرية باليمن. وكرسُف: القطن.

(3) البخاري (١/٣٩٠) برقم (١٢٦٤)

(4) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٢٨٨)

(5) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢/٢٩٢)

(6) ابن حجر، فتح الباري (٨/١٢٩)

(7) ابن حجر، فتح الباري (٨/١٢٩)

(8) البخاري (٣/١٨٧) برقم (٤٤٦٦)

(9) البخاري (٣/١٨٧) برقم (٤٤٦٧)

وعن ما بقي من طعام عند أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، تقول (لقد توفي النبي ﷺ وما في رفّي من شيء يأكله ذو كبد، إلا شطرُ شعير في رَفٍّ لي، فأكلت منه حتى طال عليَّ، فَكِلْتُهُ ففنى)[1]

وفي ذلك ما يدل على زهده ﷺ وعدم تكثره وتخزينه للأطعمة، وهذا دليلُ عَظِيمِ توكله ﷺ كما يفيد قول أم المؤمنين (فأكلت منه حتى طال عليَّ، فَكِلْتُهُ ففنى) ما يدل على أن بركة الشيء تكون في عدم كيله أو وزنه اعتماداً على الله تعالى. ويؤكد ذلك ربط أم المؤمنين بين كيله وفنائه. قال الإمام النووي: فمن المعجزات قوله في حديث المرأة أنها حين عصرت العكة (ذهبت بركة السمن) وفي حديث الرجل حين كال الشعير (فني) ومثله حديث عائشة حين كالت الشعير ففني. قال العلماء: الحكمة في ذلك أن عصرها وكيله مضادة للتسليم والتوكل على رزق الله تعالى، ويتضمن التدبير، والأخذ بالحول والقوة وتكلف الإحاطة بأسرار حكم الله تعالى وفضله، فعوقب فاعله بزواله.[2]

وعن عمرو بن الحارث قال (ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهما، ولا عبداً ولا أمة إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة)[3]

هذا وإنا لله وإنا إليه راجعون.

اللهم إني أشهد أن نبيك محمداً ﷺ قد بَلَّغ ما أُرسل به، وجاهد في سبيلك حتى أعززّت دينك، وَكَمُلَ؛ وتمت نعمتك العظيمة يا رب العالمين، ورضيتَ لنا الإسلام دينا يا أكرم الأكرمين؛ فالحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبفضل الله تعالى ومنه تم إنجازه في ١٤٢٦/٩/٩هـ

---

[1] البخاري (١٨٢/٤) برقم (٦٤٥)

[2] النووي ، صحيح مسلم بشرح النووي (٤١/١٥ـ٤٢)

[3] البخاري (١٨٦/٣) برقم (٤٤٦١)

قائمة

المراجع والمصادر

قائمة المصادر والمراجع

ــــ القرآن الكـــريـــم.

ــــــ ابـــن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم: أسد الغابة(د.م): الشعب، ١٩٧٠م.

ــــــ ابن الأثير ، مجد الدين المباركبم محمد الجزري: النهاية في غريب الحديث والأثر ، تحقيق طاهر أحمد الزواوي ومحمود أحمد الطناجي ، بيروت: دار لفكر.

ــــ أحمد بن حنبل ، وبهامشه كنز العمال ، بيروت : المكتب الإسلامي (د.ت)

ــــ أحمد بن حنبل ، المسند ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون ، اشراف عبدالله التركي ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٢١هـ ٢٠٠١م .

ــــ الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، بيروت: دار المعرفة (د.ت)

ــــ الأصفهاني ، أبو موسى محمد أبي بكر بن أبي عيسى المديني . المجموع المغيث في غـــريبي القرآن والحديث ، تحقيق عبدالكريم العزباوي ،ط١ ، مكة المكرمة مركز البحث العلمي واحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م

ــــ أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

ــــــ الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح سنن الترمذي، ط١، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

ــــ الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح سنن أبي داود، ط١، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

ــــــ الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح سنن النسائي، ط١، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٩هـ ١٩٨٨ .

ــــ الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح سنن ابن ماجه، ط٣، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

ـــــــ البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، شرح وتحقيق محب الدين الخطيب،ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، نشر ومراجعة قصي محب الدين الخطيب،ط١، القاهرة: المطبعة السلفية، ١٤٠٠هـ.
ـ البلاذري، فتوح البلدان ، تحقيق عبدالله أنيس الطباع ، عمر أنيس الطباع ، بيروت : مؤسسة المعارف ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .
ـ البيهقي، أبو بكر محمد بن الحسين ، دلائل النبوة ، تعليق عبد المعطي قلعجي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٥م .
ـــــــ الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة: الجامع الصحيح، تحقيق أحمد محمد شاكر، مكة المكرمة: دار البار(د.ت)
ـ ابن الجوزي، زاد المسير في عم التفسير، تحقيق محمد عبد الرحمن عبد الله ، بيروت دار الفكر ، ١٤٠٧هـ .
ـ الحازمي، خالد بن حامد، أصول التربية الإسلامية ، المدينة المنورة : مكتبة دار الزمان ١٤٢٦هـ .
ـ الحازمي، خالد بن حامد، التربية الإبداعية في المنهج الإسلامي ، المدينة المنورة ، مكتبة دار الزمان ، ١٤٢٦هـ .
ـــــــ الحاكم، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، إشراف يوسف عبد الرحمن المرعشلي، بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٦هـ١٩٨٦م
ـــــــ ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تعليق عبد العزيز بن باز، تبويب محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار المعرفة(د.ت)
ـــــ أبو داود،سليمان بن الأشعث الأزدي: سنن أبي داود، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس،وعادل السيد،ط١،بيروت: دار الحديث،١٣٨٨هـ١٩٦٩م.
ـــــــ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤط وآخرون، ط٦، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ١٩٨٦م.
ـــــــ السعدي،عبدالرحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،جدة: دار المدني،١٤٠٨هـ١٩٨٨م.
ـــــ ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت: دار صادر، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

ـ أبو الطيب أبادي ، عون المعبود شرح سنن أبي داود ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، مؤسسة قرطبة ، القاهرة : ط٢ ، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.
ــــــ الفيومي، أحمد بن محمد بن على المقري، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرفاعي، بيروت: دار القلم، (د.ت)
ـ ابن قاسم العاصمي النجدي ، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع ، (د.ن) (د.م) ط٤ ، ١٤١٠هـ .
ــــــ ابـــن قيم الجوزية: شمس الدين محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خير العـــباد، تحقـــيق شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، ط١٣، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م
ــــــ ابـــن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم،ط٢، بيروت: دار المعرفة،١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
ــــــ ابن كثير، عماد الدين أبو الفدء إسماعيل، البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون، ط١، القاهرة: دار الريان، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م
ــــ ابن ماجة ، محمد بن يزيد القزويني ، سنن ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (د . م) دار أحياء التراث العربي ، (د . ت)
ــــــ مـــالك بن أنس، الموطّأ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م
ــــ مسلم،ابو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار الحديث(د.ت)
ــــ ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، بيروت: دار صادر (د.ت)
ــــــ مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، الرياض: مركز الملك فيصل، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م
ــــــ النســـائي، أبو عبد الحمن أحمد بن شعيب، سنن النسائي، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي، وحاشية الإمام لسندي، ترقيم عبد الفتاح أبو غدة، ط ١، بيروت: مكتب لمطبوعات الإسلامية بحلب، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م
ــــ النووي، محيي الدين أبو زكريا يحي بن شرف، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

ـــــــ ابن هشام، أبو محمد عبدالملك محمد بن هشام بن أيوب الحميري: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا واخرون، بيروت: دار القلم (د.ت).
ـــــــ الهيــثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحير الحــافظين العــراقي وابــن حجر، القاهرة، بيروت: دار الريان، ١٤٠٧هـــ ١٩٨٧م.
ـ الواقدي، محمد بن عمر ، المغازي ، بيروت : عالم الكتب (د.ت) .
ـ أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى التميمي، المسند، تحقيق حسين سليم أسد، ط ١، دمشق: دار المأمون للتراث، ١٤٠٧هـــ ١٩٨٧م.

* * *

قائمة المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
المقــــدمـــــة	٥
منهج الدراسة	٧
الفصل الأول: من المولد إلى البعثة:	٩
المولد والنسب	١١
اليتم والرعاية الأولية	١٢
الرضاعة	١٥
الحياة العملية (الرعي والتجارة)	١٦
التربية الخاصة	١٩
حلف المطيبين (الفضول)	٢٠
الزواج بخديجة	٢١
بناء الكعبة	٢٤
الفصل الثاني: من البعثة إلى الهجرة:	٢٧
البعثة النبوية	٢٩
مرحلة الدعوة السرية	٣٧
إسلام الجن	٤٣
الجهر بالدعوة	٤٥
أساليب الأذى والتصدي	٤٧
المفاوضات وأنواعها	٦١
الهجرة إلى الحبشة	٧٠
إسلام حمزة ﷺ	٧٨
إسلام عمر بن الخطاب ﷺ	٨٠
محاصرة شعب أبي طالب	٨٣
وفاة أبي طالب وخديجة	٨٧
الخروج إلى الطائف	٨٨
الإسراء والمعراج	٩٦
العرض على القبائل طلباً لقبول الدعوة	١٠٥
بيعة العقبة الأولى	١٠٧

بيعة العقبة الثانية	١١٠
بنود مبايعة العقبة	١١٣
الفصل الثالث: الهجرة إلى المدينة :	١١٧
الهجرة إلى المدينة	١١٩
الفصل الرابع: أسس التكوين النبوي لدولة الإسلام :	١٤٣
أسس التكوين النبوي لدولة الإسلام	١٤٥
بناء المسجد	١٤٥
المؤاخاة	١٥٠
الوثيقة النبوية	١٥٥
الحياة التعليمية في المدينة	١٦٢
البيت النبوي في المدينة	١٧٤
أزواجه ﷺ	١٧٤
أولاده ﷺ	١٨٨
معاشرته لأهله	١٨٩
رعايته ﷺ للصغار	١٩٥
الفصل الخامس: بداية الغزوات والسرايا :	١٩٩
أسس الجهاد الإسلامي	٢٠١
الغزوات والسرايا قبل بدر	٢٠٦
سرية سيف البحر	٢٠٦
سرية الخرَّار	٢٠٦
غزوة الأبواء(وَدَّان)	٢٠٦
سرية عبيدة بن الحارث إلى رابغ	٢٠٧
غزوة بُوَاط	٢٠٧
غزوة سفوان(بدر الصغرى)	٢٠٧
غزوة العُشيرة	٢٠٧
سرية نخلة	٢٠٨
الفصل السادس: من غزوة بدر إلى غزوة أحد :	٢١١
غزوة بدر	٢١٣
الغزوات والسرايا قبل أحد	٢٤٧
غزوة قَرْقَرة الكُدْر	٢٤٧

غزوة السويق	٢٤٧
سرية قتل كعب بن الأشرف اليهودي	٢٤٨
غزوة ذي أَمَرّ	٢٤٩
غزوة الفُرُع من بُجران	٢٤٩
سرية القرَدة	٢٥٠
غزوة بني قينقاع	٢٥٠
الفصل السابع: من غزوة أحد إلى غزوة الخندق :	٢٥٣
غزوة أحـــد	٢٥٥
السرايا والغزوات في أعقاب أحد :	٢٨١
غزوة حمراء الأسد	٢٨١
سرية أبي سلمة	٢٨٢
سرية عبدالله بن أنيس	٢٨٣
سرية الرَّجِيع	٢٨٤
سرية بئر معونة	٢٨٨
غزوة بني النضير	٢٩٠
غزوة بدر الموعد	٢٩٦
غزوة ذات الرقاع	٢٩٩
غزوة دومة الجندل	٣٠٢
غزوة المُرَيْسِيْع (بني المُصْطَلِق)	٣٠٢
موقف التأليب والوعيد الكاذب	٣٠٣
حديث الإفك	٣٠٨
الفصل الثامن: من غزوة الخندق إلى غزوة الحديبية :	٣٣١
غزوة الخندق (الأحزاب)	٣٣٣
غزوة بني قريظة	٣٤٦
سرية قتل أبي رافع	٣٥٦
سرية محمد بن سَلَمَة إلى القُرَطاء	٣٥٨
قصة ثمامة بن أثَال	٣٥٩
غزوة بني لحيان	٣٦١
سرية عُكَّاشة ﷺ إلى الغَمْر	٣٦٢
سرية محمد بن مسلمة ﷺ إلى ذي القَصَّة	٣٦٢

سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى بني سُلَيم بالجموم	٣٦٢
سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى العيص	٣٦٣
سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى الطَّرَف	٣٦٣
سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى جُذَام	٣٦٣
سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى وادي القُرَى	٣٦٣
سرية عبد الرحمن بن عوف ﷺ إلى دُومة الجندل	٣٦٤
سرية علي بن أبي طالب ﷺ إلى بني سعد بن بكر بِفَدَك	٣٦٥
سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى أم قِرْفَة بوادي القُرَى	٣٦٥
سرية عبد الله بن رواحة ﷺ إلى أُسَيْر بن زارِم اليهودي	٣٦٥
سرية كرز بن جابر الفهري ﷺ إلى العُرَينيين	٣٦٦
سرية عمرو بن أمية الضَّمْري ﷺ	٣٦٨
سرية الخَبَط (سيف البحر)	٣٧٠
الفصل التاسع: من غزوة الحديبية إلى غزوة خيبر :	٣٧٣
غزوة الحديبية	٣٧٥
السرايا والغزوات ما بين الحديبية وخيبر	٤٠٤
غزوة ذات القَرَد	٤٠٤
سرية أبان بن سعيد بن العاص	٤٠٥
غزوة خيبر	٤٠٦
الفصل العاشر: من مكاتبة النبي ﷺ للملوك والأمراء إلى سرية مؤتة	٤٢١
مكاتبة النبي ﷺ للملوك والأمراء	٤٢٣
ما بين خيبر وعمرة القضاء	٤٢٦
سرية عمر بن الخطاب ﷺ إلى تربة	٤٢٦
سرية أبي بكر الصديق ﷺ إلى نجد	٤٢٦
سرية بشير بن سعد ﷺ إلى ناحية فَدَك	٤٢٧
سرية غالب بن عبدالله ﷺ إلى الميفَعة	٤٢٧
سرية بشير بن سعد ﷺ إلى الجِنَاب	٤٢٩
عمرة القضاء	٤٣٠
أحداث ما بين عمرة القضاء وسرية مؤتة	٤٣٥
سرية ابن أبي العوجاء السلمي إلى بني سليم	٤٣٥
إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد رضي الله تعالى عنهما	٤٣٥

سرية غالب بن عبدالله الليثي ﷺ إلى بني المُلَوِّح بالكديد ٤٣٧

سرية غالب بن عبدالله الليثي ﷺ إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك ٤٣٩

سرية كعب الغفاري ﷺ إلى قُضَاعة بذات أطلاح ٤٤٠

سرية شجاع بن وهب ﷺ إلى السِّيِّ ٤٤٠

الفصل الحادي عشر: من سرية مؤتة حتى فتح مكة : ٤٤١

سرية مـــؤتـــة ٤٤٣

السرايا ما بين مؤتة وفتح مكة ٤٥٤

سرية ذات السلاسل ٤٥٤

سرية أبي حدرد إلى الغابة ٤٥٩

سرية أبي قتادة إلى بطن إضم ٤٦٠

الفصل الثاني عشر: من غزوة فتح مكة إلى غزوة حنين : ٤٦٣

غزوة فتح مكة ٤٦٥

البعوث والسرايا بعد غزوة الفتح ٤٩٤

البعوث والسرايا لإزالة الأصنام ٤٩٤

بعث خالد بن الوليد ﷺ إلى بني جذيمة ٤٩٤

الفصل الثالث عشر: غزوتا حنين والطائف : ٤٩٧

غزوة حنين ٤٩٩

تعقب المسلمين للفارين بأوطاس والنخلة ٥١٧

غزوة الطائف ٥٢١

تقسيم الغنائم وإسلام هوازن ٥٢٥

الفصل الرابع عشر: السرايا والأحداث بين غزوتي الطائف وتبوك ٥٤٧

السرايا والأحداث بين غزوتي الطائف وتبوك ٥٤٩

سرية الطفيل [illegible] إلى ذي الك[illegible] ٥٤٩

[illegible] ٥٤٩

سرية عيينة بن حصن إلى بني عنبر ٥٥١

سرية قطبة بن عامر بن حديدة إلى خثعم ٥٥٣

سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب ٥٥٣

سرية عبدالله السهمي وعلقمة المدلجي ويقال أنها سرية الأنصاري ٥٥٤

سرية علي بن أبي طالب ﷺ إلى الفُلْس ٥٥٧

قصة إسلام عدي بن حاتم ٥٥٨

سرية عكاشة ﷺ إلى الجناب ٥٦١
الفصل الخامس عشر:غزوة تبوك : ٥٦٣
غزوة تبوك وهي غزوة العسرة ٥٦٥
الثلاثة الذين خلفوا. حديث كعب بن مالك ﷺ ٥٩٥
الفصل السادس عشر:عام الوفود والأحداث والسرايا إلى المرض والوفاة ٦١٥
عام الوفود ٦١٧
الأحداث والسرايا ما بعد غزوة تبوك إلى المرض والوفاة ٦١٨
بعث أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن ٦١٨
حجة أبي بكر ﷺ ٦٢٤
بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن ٦٢٥
سرية جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الخَلَصَة ٦٢٧
حجة الوداع ٦٣٠
سرية أسامة بن زيد إلى الشام ٦٣٦
االفصل السابع عشر: صفات النبي ﷺ وأخلاقه والمرض والوفاة ٦٣٩
صفاته ﷺ وأخلاقه ٦٤١
صفاته الخِلْقِيَّة ﷺ ٦٤١
أسماؤه ﷺ ٦٤٥
عبادته ﷺ ٦٤٥
أخلاقه ﷺ ٦٤٧
خاتم النبيين ﷺ ٦٥٢
تفضيل النبي ﷺ على سائر الخلائق ٦٥٣
حوض النبي ﷺ ٦٥٣
مرض النبي ﷺ ووفاته ٦٥٥
قائمة المراجع والمصادر ٦٦٩
قائمة المحتويات ٦٧٥